الرافدين على الجلالين

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٨٣٤٠/ ٢٠١٣م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨

ISBN 978-977-6354-99-9

9 789776 354999

الدار العلمية للنشر والتجليد

العالمية للثقافة الدولية

002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء الثالث عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥).

{و} أَرْسَلْنَا {إِلَى مَدْيَن أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْم اُعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إِلَه غَيْره قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَة} مُعْجِزَة {مِنْ رَبّكُمْ} عَلَى صِدْقِي {فَأَوْفُوا} أَتِمُّوا {الْكَيْل وَالْمِيزَان وَلَا تَبْخَسُوا} تُنْقِصُوا {النَّاس أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْض} بِالْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي {بَعْد إِصْلَاحهَا} بِبَعْثِ الرُّسُل {ذَلِكُمْ} الْمَذْكُور {خَيْر لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} مُرِيدِي الْإِيمَان فَبَادِرُوا إِلَيْهِ.

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦).

{وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاط} طَرِيق {تُوعِدُونَ} تُخَوِّفُونَ النَّاس بِأَخْذِ ثِيَابهمْ أَوْ الْمَكْس مِنْهُمْ {وَتَصُدُّونَ} تَصْرِفُونَ {عَنْ سَبِيل الله} دِينه {مَنْ آمَنَ بِهِ} بِتَوَعُّدِكُمْ إِيَّاهُ بِالْقَتْلِ {وَتَبْغُونَهَا} تَطْلُبُونَ الطَّرِيق {عِوَجًا} مُعْوَجَّة {وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَة الْمُفْسِدِينَ} قَبْلكُمْ بِتَكْذِيبِ رُسُلهمْ أَيْ آخِر أَمْرهمْ مِنْ الْهَلَاك.

وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧).

{وَإِنْ كَانَ طَائِفَة مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْت بِهِ وَطَائِفَة لَمْ يُؤْمِنُوا} بِهِ {فَاصْبِرُوا} انْتَظِرُوا {حَتَّى يَحْكُم الله بَيْننَا} وَبَيْنكُمْ بِإِنْجَاءِ الْمُحِقّ وَإِهْلَاك الْمُبْطِل {وَهُوَ خَيْر الْحَاكِمِينَ} أَعْدَلهمْ.

قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨).

{قَالَ الْمَلأ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمه} عَنْ الْإِيمَان {لَنُخْرِجَنَّك يَا شُعَيْب وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَك مِنْ قَرْيَتنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ} تَرْجِعُنَّ {فِي مِلَّتنَا} دِيننَا وَغَلَّبُوا فِي الْخِطَاب الْجَمْع عَلَى الْوَاحِد لِأَنَّ شُعَيْبًا لَمْ يَكُنْ فِي مِلَّتهمْ قَطّ وعلى نحوه أجاب {قال أ} نعود فيها {ولو كُنَّا كَارِهِينَ} لَهَا اسْتِفْهَام إنْكَار.

قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩).

{قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى الله كَذِبًا إنْ عُدْنَا في ملتكم بعد إذ نجانا الله مِنْهَا وَمَا يَكُون} يَنْبَغِي {لَنَا أَنْ نَعُود فِيهَا إلَّا أَنْ يَشَاء الله رَبّنَا} ذَلِكَ فَيَخْذُلنَا {وَسِعَ رَبّنَا كُلّ شَيْء عِلْمًا} أَيْ وَسِعَ عِلْمه كُلّ شَيْء وَمِنْهُ حَالِي وَحَالكُمْ {عَلَى الله تَوَكَّلْنَا رَبّنَا افْتَحْ} أُحْكُمْ {بَيْننَا وَبَيْن قَوْمنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَير الْفَاتِحِينَ} الْحَاكِمِينَ.

وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠).

{وَقَالَ الْمَلأ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمه} أَيْ قال بعضهم لبعض {لئن} لام قسم {اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون}.

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١).

{فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَة} الزَّلْزَلَة الشَّدِيدَة {فَأَصْبَحُوا فِي دَارهمْ جَاثِمِينَ} بَارِكِينَ عَلَى الرُّكَب مَيِّتِينَ.

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢).

{الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا} مُبْتَدَأ خَبَره {كَأَنْ} مُخَفَّفَة وَاسْمهَا مَحْذُوف أَيْ كَأَنَّهُمْ {لَمْ يَغْنَوْا} يُقِيمُوا {فِيهَا} فِي دِيَارهمْ {الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمْ الْخَاسِرِينَ} التَّأْكِيد بِإِعَادَةِ الْمَوْصُول وَغَيْره لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلهمْ السَّابِق.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣).

{فَتَوَلَّى} أَعَرَضَ {عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْم لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَات رَبِّي وَنَصَحْت لَكُمْ} فَلَمْ تُؤْمِنُوا {فكيف آسى} أحزن {على قوم كافرين} اسْتِفْهَام بِمَعْنَى النَّفْي[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} [الأعراف: ٨٥]، أي: "ولقد أرسلنا إلى قبيلة «مدين» أخاهم شعيبًا عليه السلام، وهو معطوف على قوله (لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه)".

واختلفوا في مدين فقيل: إنه اسم البلد، وقيل: إنه اسم القبيلة بسبب أنهم أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام، ومدين صار اسمًا للقبيلة.

- وكانت ديارُ مدينَ بأرضِ مَعَانٍ من أطرافِ الشامِ مما يلي الحجازَ، قريبًا من بحيرةِ قومِ لوطٍ. وقال بعضُ أهلِ العلمِ: (مَدْيَنُ) اسمُ بلدةٍ.

- وَغَلِطَ بعضُ العلماءِ وبعضُ المؤرخين، فَزَعَمَ أن شعيبًا كان بعد مُوسَى، وهذا لا شَكَّ أنه غَلَطٌ؛ لأن شُعَيْبًا قَبْلَ موسى، وقد دَلَّتْ عليه آياتُ القرآنِ في سورةِ الأعرافِ هذه وغيرِها؛ لأن اللهَ في سورةِ الأعرافِ هذه لَمَّا ذكرَ قصةَ نوحٍ وقصةَ هودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ مع قومِهم قال بعدَ ذلك في الآياتِ الآتيةِ (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا) فَدَلَّ على أن بعثَ موسى بآياتِ اللهِ بعدَ هؤلاءِ الرسلِ وَأُمَمِهِمْ، كما هو نَصُّ القرآنِ العظيمِ. وزعمَ بعضُ العلماءِ أن شعيبًا ابنُ بنتِ لوطٍ.

=

=

وقال بعضُ العلماءِ: هو مِمَّنْ آمَنَ مع إبراهيمَ لَمَّا نَجَا مِنَ النارِ، وهاجرَ معه. وَكُلُّهَا أقوالٌ لا دليلَ عليها، وغايةُ ما يفيدُه القرآنُ: أن اللهَ بعثَ نبيَّه شعيبًا إلى أهلِ مدينَ. وذكر اللهُ في آياتٍ أُخْرَى متعددةٍ - كما سيأتي في سورةِ «الحجراتِ»، وفي سورةِ «الشعراء»، وفي سورةِ «ص» وغيرِ ذلك - أن شعيبًا أرسلَ أيضًا إلى أصحابِ الأيكةِ، كما سيأتِي في قولِه (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ) والعلماءُ مختلفونَ: هل أصحابُ الأيكةِ هم مَدْيَنُ أنفسُهم فيكون شعيبٌ أُرْسِلَ إلى أُمَّةٍ واحدةٍ، أو مدينُ أمةٌ وأصحابُ الأيكةِ أمةٌ أخرى، فيكون شعيبٌ قد أُرْسِلَ إلى أُمَّتَيْنِ؟ هذا خلافٌ معروفٌ بَيْنَ العلماءِ، وأكثرُ أهلِ العلمِ على أنهم أمةٌ واحدةٌ كانوا يعبدونَ أيكةً، أي: شجرًا مُلْتَفًّا، وأن اللهَ سماهم مرةً بنسبهم (مدين) ومرةً أضافهم إلى الأيكةِ التي يعبدونَها. وجزمَ بصحةِ هذا ابنُ كثيرٍ في تاريخِه وتفسيرِه وَمِمَّنِ اشتهر عنه أنهم أُمَّتَانِ قتادةُ وجماعةٌ، وهو خلافٌ معروفٌ.

والذين قالوا: إنهما أُمَّتَانِ قالوا: في (مدين) قال: إنه أَخُوهُمْ حيث قال (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ) أما أصحابُ الأيكةِ فلم يَقُلْ: إنه أخوهم بل قال (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ) ولم يقل: أخوهم شعيبٌ.

وَأُجِيبَ عن هذا بأنه لَمَّا ذَكَرَ مَدْيَنَ ذَكَرَ الجدَّ الذي يشملُ القبيلةَ وَمِنْ جُمْلَتِهَا شعيبٌ، ذكر أنه أخوهم من النسبِ. أما قولُه (أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ) فمعناه: أنهم يعبدونَها، وَلَمَّا ذَكَرَهُمْ في مقامِ الشركِ وعبادةِ غيرِ اللهِ لم يُدْخِلْ معهم شعيبًا في ذلك وهم أمةٌ واحدةٌ. هكذا قاله بعضُهم وَاللهُ أعلمُ.

- **قال ابن كثير:** قوله تعالى (كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠)).

هؤلاء -أعني أصحاب الأيكة -هم أهل مدين على الصحيح. وكان نبي الله

=

شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة. وقيل: شجر ملتف كالغَيضة، كانوا يعبدونها؛ فلهذا لما قال: كذب أصحاب الأيكة المرسلين، لم يقل: "إذ قال لهم أخوهم شعيب"، وإنما قال (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ)، فقطع نسبة الأخوة بينهم؛ للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسبا. ومن الناس مَنْ لم يتفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، بعثه الله إلى أمتين، ومنهم مَنْ قال: ثلاث أمم.

- **قال ابن كثير**: وكان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوإ الناس معاملة ؛ يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقس.

فبعث الله فيهم رجلا منهم وهو رسول الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضهم وكفر اكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد، وهو الولي الحميد.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وأرسلنا إلى ولد مدين، و {مدين}، هم ولدُه مديان بن إبراهيم خليل الرحمن فيما حدثنا.. عن ابن إسحاق، فإن كان الأمر كما قال: فـ"مدين"، قبيلة كَتميم.

وزعم -أيضًا- ابن إسحاق: أن شعيبًا الذي ذكر الله أنه أرسله إليهم، من ولد مدين هذا، وأنه"شعيب بن ميكيل بن يشجر"، قال: واسمه بالسريانية،"بثرون"، فتأويل الكلام على ما قاله ابن إسحاق: ولقد أرسلنا إلى ولد مدين، أخاهم شعيب بن ميكيل، يدعوهم إلى طاعة الله، والانتهاء إلى أمره، وترك السعي في الأرض بالفساد، والصدِّ عن سبيله.

=

قال السدي: "إن الله تبارك وتعالى بعث شعيبا إلى مدين، وإلى أصحاب الأيكة، والأيكة هي الغيضة من الشجر".

قال ابن كثير: "تطلق «مدين» على القبيلة، وعلى المدينة، وهي التي بقرب "مَعَان" من طريق الحجاز، قال الله تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ} [القصص: ٢٣] وهم أصحاب الأيكة".

قوله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: ٨٥]، أي: "فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له؛ ليس لكم مِن إله يستحق العبادة غيره جل وعلا فأخلصوا له العبادة".

قال ابن كثير: "هذه دعوة الرسل كلهم".

قال مقاتل: "يعني: وحدوا الله، ليس لكم رب غيره".

قال الطبري: "فقال لهم شعيب: يا قوم، اعبدوا الله وحده لا شريك له، ما لكم من إله يستوجب عليكم العبادة غير الإله الذي خلقكم، وبيده نفعكم وضركم".

قوله تعالى: {قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ} [الأعراف: ٨٥]، أي: "قد جاءكم برهان من ربكم على صِدْق ما أدعوكم إليه".

قال مقاتل: "يعني: بيان من ربكم".

قال ابن كثير: "أي: قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به.

قال الطبري: "يقول: قد جاءتكم علامة وحجة من الله بحقيقة ما أقول، وصدق ما أدعوكم إليه".

قال الآلوسي: قوله تعالى (قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ) أي: معجزة عظيمة ظاهرة من مالك أموركم.

ولم تذكر معجزته عليه السلام في القرآن العظيم كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ﷺ والأنبياء عليهم السلام فيه، والقول بأنه لم يكن له عليه السلام معجزة غلط لأن الفاء في

=

=

قوله سبحانه (فَأَوْفُوا الكيل والميزان) لترتيب الأمر على مجيء البينة، واحتمال كونها عاطفة على (اعبدوا) بعيد، وإن كانت عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهي التي معظمها بعد الكفر البخس.

وفي الصحيحين عنأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة).

قوله تعالى: {فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ} [الأعراف: ٨٥].

أي: فأتموا الكيل والميزان للناس بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان، ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب الزيادة.

قال تعالى في سورة الشعراء (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ) قال ابن كثير: يأمرهم تعالى بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيهما، فقال (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ) أي: إذا دفعتم إلى الناس فكملوا الكيل لهم، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصا، وتأخذوه -إذا كان لكم -تامًا وافيًا، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون.

وقال تعالى (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ) (ويل للمطففين) أي هلاك وعذاب ودمار، لأولئك الفجار الذين ينقصون المكيال والميزان، ثم بين أوصافهم القبيحة بقوله (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون) أي إذا أخذوا الكيل من الناس أخذوه وافيا كاملا لأنفسهم (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم، ينقصون الكيل والوزن.

قال الطبري: "يقول: أتموا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به، وبالوزن

=

=

الذي تزنون به".

قال السدي: "إن الله بعث شعيبا إلى مدين فكانوا مع كفرهم يبخسون الكيل والوزن، فدعاهم فكذبوه، فقال لهم ما ذكر الله في القرآن، وما ردوا عليه فلما عتوا وكذبوا سألوه العذاب".

قال خلف بن حوشب: "هلك قوم شعيب من شعيرة إلى شعيرة، كانوا يأخذون بالرزينة، ويعطون بالخفيفة".

قوله تعالى: {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ} [الأعراف: ٨٥]، أي: ولا تنقصوهم حقوقهم بتطفيف الكيل ونقص الوزن فيما يجرى بينكم وبينهم من معاملات فتظلموهم".

يقال: بخسه حقه يبخسه إذا نقصه إياه. وظلمه فيه «وتبخسوا» تعدى إلى مفعولين أولهما الناس والثاني أشياءهم.

وفائدة التصريح بالنهى عن النقص بعد الأمر بالإيفاء، تأكيد ذلك الأمر وبيان قبح ضده.

- **قال الآلوسي**: وقد يراد بالأشياء الحقوق مطلقا فإنهم كانوا مكاسين لا يدعون شيئا إلا مكسوة. وقد جاء عن ابن عباس أنهم كانوا قوما طغاة بغاة يجلسون على الطريق فيبخسون الناس أموالهم. قيل ويدخل في ذلك بخس الرجل حقه من حسن المعاملة والتوقير اللائق به وبيان فضله على ما هو عليه للسائل عنه. وكثير ممن ينتسب إلى أهل العلم اليوم مبتلون بهذا البخس.

قال قتادة والسدي: "لا تظلموا الناس أشياءهم".

قال ابن زيد: "لا تنقصوهم قسموا له شيئا وتعطيه غير ذلك".

قال مقاتل: "يعني: لا تنقصوا الناس حقوقهم في نقصان الكيل والميزان".

قال الطبري: "يقول: ولا تظلموا الناس حقوقهم، ولا تنقصوهم إياها".

=

=

قال ابن كثير: "أي: لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفْية وتدليسًا، كما قال تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: ١ - ٦] وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه".

قوله تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} [الأعراف: ٨٥]، أي: "ولا تفسدوا في الأرض -بالكفر والظلم- بعد إصلاحها بشرائع الأنبياء السابقين عليهم السلام".

قال مقاتل: "فإن المعاصي فساد المعيشة وهلاك أهلها".

قال الطبري: "يقول: ولا تعملوا في أرض الله بمعاصيه، وما كنتم تعملونه قبل أن يبعث الله إليكم نبيه، من عبادة غير الله، والإشراك به، وبخس الناس في الكيل والوزن، بعد أن قد أصلح الله الأرض بابتعاث النبي عليه السلام فيكم، ينهاكم عما لا يحل لكم، وما يكرهه الله لكم".

عن أبي سنان: {ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها} " قد أحللت حلالي وحرمت حرامي وحددت حدودي فلا تغيروها".

عن سنيد بن داود، قال: "قيل لأبي بكر ابن عياش ما قوله في كتابه: {ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها}، فقال أبو بكر: إن الله عز وجل بعث محمدا صلى الله عليه وسلم إلى أهل الأرض وهم في فساد فأصلحهم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم فمن دعي إلى خلاف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فهو من المفسدين في الأرض".

قوله تعالى: {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٨٥]، أي: "ذلك الذي دعوتكم إليه خير لكم في دنياكم وأخراكم، إن كنتم مصدقيَّ فيما دعوتكم إليه، عاملين بشرع الله".

=

=

قال مقاتل: "يقول وفاء الكيل والميزان خير لكم من النقصان، إن كنتم آمنتم كان في الآخرة خير لكم من نقصان الكيل والميزان في الدنيا".

قال الطبري: "يقول: هذا الذي ذكرت لكم وأمرتكم به، من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وإيفاء الناس حقوقهم من الكيل والوزن، وترك الفساد في الأرض، خيرٌ لكم في عاجل دنياكم وآجل آخرتكم عند الله يوم القيامة، إن كنتم مصدقيَّ فيما أقول لكم، وأؤدِّي إليكم عن الله من أمره ونهيه".

قوله تعالى: {وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ} [الأعراف: ٨٦]، أي: "ولا تقعدوا بكل طريق تتوعدون الناس بالقتل، إن لم يعطوكم أموالهم".

قال ابن كثير: "ينهاهم شعيب، عَلَيْهِ السَّلَامُ، عن قطع الطريق الحسي والمعنوي، بقوله: {وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ}، أي: توعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم.

قال قتادة: "كانوا يوعدون مَنْ أتى شعيبًا وغشِيَه فأراد الإسلام".

قال ابن عباس: "و «الصراط»، الطريق، يخوِّفون الناس أن يأتوا شعيبًا".

وعن ابن عباس أيضا: "كانوا يجلسون في الطريق، فيخبرون مَنْ أتى عليهم: أن شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كذاب، فلا يفتنكم عن دينكم".

قال السدي: "كانوا يقعدون على كل طريق يوعدون المؤمنين".

وعن السدي: " {ولا تقعدوا بكل صراط توعدون}، قال: العشَّارُون". قال ابن كثير: وهذا" أظهر".

قوله تعالى: {وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ} [الأعراف: ٨٦]، أي: "وتصدُّون عن سبيل الله القويم من صدَّق به عَزَّ وَجَلَّ، وعمل صالحًا".

قال السدي: "يصدون من آمن، عن سبيل الله".

قوله تعالى: {وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا} [الأعراف: ٨٦]، أي: "وتبغون سبيل الله أن تكون

=

=

معوجة".

قال ابن كثير: "أي: وتودون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة".

قال مجاهد: "يلتمسون لها الزيغ".

عن قتادة: "{عوجا}، قال: عوجا عن الحق".

عن السدي قوله: عوجا قال: هلاكا".

قوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ} [الأعراف: ٨٦]، أي: "واذكروا نعمة الله تعالى عليكم إذ كان عددكم قليلا فكثّركم، فأصبحتم أقوياء عزيزين".

قال ابن كثير: "أي: كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عَدَدكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك.

قال الماوري: قوله تعالى (وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ) حكى الزجاج فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: كثر عددكم بعد القلة قال ابن عباس: وذلك أن مدين بن إبراهيم تزوج زينا بنت لوط وولد آل مدين منها.

والثاني: كثركم بالغنى بعد الفقر.

والثالث: كثركم بالقوة بعد الضعف.

وذكر بعض المفسرين وجهًا رابعًا: أنه كثرهم بطول الأعمار بعد قصرها من قبل.

- **قال ابن عاشور**: ومعنى تكثير الله إياهم تيسيره أسباب الكثرة لهم بأن قوّى فيهم قوّة التّناسل، وحفظهم من أسباب المَوتَان، ويَسَّر لنسلهم اليفاعة حتّى كثُرت مواليدهم وقلّت وفياتُهم، فصاروا عددًا كثيرًا في زمن لا يعهد في مثله مصير أمّة إلى عددهم، فيُعد منعهم النّاس من الدّخول في دين الله سعيًا في تقليل حزب الله، وذلك كفران لنعمة الله عليهم بأنّ كثّرهم، وليقابلوا اعتبار هذه النّعمة باعتبار نقمته تعالى من الذين غضب عليهم، إذْ استأصلهم بعد أن كانوا كثيرًا فذلك من تمايز

=

=

الأشياء بأضدادها.

قوله تعالى: {وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف: ٨٦]، أي: "وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين في الأرض، وما حلَّ بهم من الهلاك والدمار؟.

قال ابن كثير: "أي: من الأمم الخالية والقرون الماضية، ما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله.

قوله تعالى: {وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا} [الأعراف: ٨٧]، أي: "وإن كان جماعة منكم صدَّقوا بالذي أرسلني الله به، وجماعة لم يصدِّقوا بذلك".

قال الطبري: "وإن كانت جماعة منكم وفرقة صدّقوا بالذي أرسلتُ به من إخلاص العبادة لله، وترك معاصيه، وظلم الناس، وبخسهم في المكاييل والموازين، فاتّبعوني على ذلك، وجماعة أخرى لم يصدِّقوا بذلك، ولم يتبعوني عليه".

قال ابن كثير: "أي: قد اختلفتم عليّ.

قال السمعاني: "وذلك أن بعضهم آمن، وبعضهم كفر".

قال البغوي: "أي: إن اختلفتم في رسالتي فصرتم فرقتين مكذبين ومصدقين".

قال مجاهد: "الطائفة رجل إلى ألف رجل".

قوله تعالى: {فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا} [الأعراف: ٨٧]، أي: "فانتظروا أيها المكذبون قضاء الله الفاصل بيننا وبينكم حين يحلُّ عليكم عذابه الذي أنذرتكم به".

قال الطبري: "يقول: فاحتبسوا على قضاء الله الفاصل بيننا وبينكم".

قال مقاتل: "حتى يقضي الله بيننا في أمر العذاب".

=

=

قال ابن كثير: "أي: انتظروا} حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا}، أي: يفصل.

قال البغوي: أي: "بتعذيب المكذبين وإنجاء المصدقين".

قال ابن عطية: "وفي قوله (فَاصْبِرُوا) قوة التهديد والوعيد، هذا ظاهر الكلام وأن المخاطبة بجميع الآية للكفار".

- **قال الآلوسي**: قوله تعالى (فاصبروا حتى يَحْكُمَ الله بَيْنَنَا) خطاب للكفار ووعيد لهم أي تربصوا لتروا حكم الله تعالى بيننا وبينكم فإنه سبحانه سينصر المحق على المبطل ويظهره عليه، أو هو خطاب للمؤمنين وموعظة لهم وحث على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله تعالى بينهم وينتقم لهم منهم.

ويجوز أن يكون خطابًا للفريقين أي ليصبر المؤمنون على أذى الكفار وليصبر الكفار على ما يسوؤهم من إيمان من آمن منهم حتى يحكم فيميز الخبيث من الطيب، والظاهر الاحتمال الأول.

- **وقال ابن عاشور**: وحكم الله أريد به حكم في الدّنيا بإظهار أثر غضبه على أحد الفريقين ورضاه على الذين خالفوهم، فيظهر المحقّ من المبطل، وهذا صدر عن ثقة شّعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنّ الله سيحكم بينه وبين قومه استنادًا لوعد الله إياه بالنَّصْر على قومه، أو لعلمه بسنّة الله في رسله ومَن كذّبهم بإخبار الله تعالى إياه بذلك، ولولا ذلك لجاز أن يتأخر الحكم بين الفريقين إلى يوم الحساب، وليس هو المراد من كلامه لأنّه لا يناسب قوله (فاصبروا) إذا كان خطابًا للفريقين، فإن كان خطابا للمؤمنين خاصة صحّ إرادة الحُكمين جميعًا.

قوله تعالى: {وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [الأعراف: ٨٧]، أي: "والله -جلَّ وعلا- هو خير الحاكمين بين عباده لذا سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين".

قال الطبري: "يقول: والله خيرُ من يفصل وأعدل من يقضي، لأنه لا يقع في حكمه

=

=

مَيْلٌ إلى أحدٍ، ولا محاباة لأحدٍ".

قال ابن كثير: "فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

قال مقاتل:"يعني: وهو خير الفاصلين، فكان قضاؤه نزول العذاب بهم".

قال الشنقيطي: بَيَّنَ تَعَالَى حُكْمَهُ الَّذِي حَكَمَ بِهِ بَيْنَهُمْ بِقَوْلِهِ (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ)، وَقَوْلِهِ (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)، وَقَوْلِهِ (الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ)، وَقَوْلِهِ (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ الْآيَةَ).

قوله تعالى: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ} [الأعراف: ٨٨]، أي: "قال السادة والكبراء من قوم شعيب الذين تكبروا عن الإيمان بالله واتباع رسوله شعيب عليه السلام".

قال الطبري: "عني بالملأ الجماعة من الرجال، ويعني بالذين استكبروا، الذين تكبروا عن الإيمان بالله، والانتهاء إلى أمره، واتباع رسوله شعيب، لما حذرهم شعيبٌ بأسَ الله، على خلافهم أمرَ ربهم، وكفرهم به".

قال البغوي: {الملأ} "يعني: الرؤساء الذين تعظموا عن الإيمان به".

قال أبو مالك: "{الملأ}، يعني: الأشراف من قومه".

قوله تعالى: {لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا} [الأعراف: ٨٨]، أي: "لنخرجنك يا شعيب ومَن معك من المؤمنين من ديارنا".

قال الزمخشري: "أى: ليكونن أحد الأمرين: إما إخراجكم.

قال الطبري: أي: "ومن تبعك وصدقك وآمن بك، وبما جئت به معك".

قوله تعالى: {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [الأعراف: ٨٨]، أي: "إلا إذا صرتم إلى ديننا".

=

=

قال الزمخشري: أي: "وإما عودكم في الكفر".

قال الطبري: " يقول: لترجعن أنت وهم في ديننا وما نحن عليه".

قوله تعالى: {قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} [الأعراف: ٨٨]، أي: "قال شُعيب منكرًا ومتعجبًا من قولهم: أنتابعكم على دينكم ومِلَّتكم الباطلة، ولو كنا كارهين لها لعِلْمِنا ببطلانها؟.

قال البغوي: "أي: وإن كنا كارهين لذلك فتجبروننا عليه؟.

قال الطبري: "معنى الكلام: أن شعيبًا قال لقومه: أتخرجوننا من قريتكم، وتصدّوننا عن سبيل الله، ولو كنا كارهين لذلك؟.

قال ابن كثير: "يقول: أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه؟ فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمنا الفِرْية على الله في جعل الشركاء معه أندادًا. وهذا تعبير منه عن اتباعه.. [و] هذا إخبار من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبي الله شعيبًا ومن معه من المؤمنين، في توعدهم إياه ومن معه بالنفي من القرية، أو الإكراه على الرجوع في مِلَّتهم والدخول معهم فيما هم فيه. وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة".

قوله تعالى: {قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا} [الأعراف: ٨٩]، أي: "وقال شعيب لقومه مستدركًا: قد اختلقنا على الله الكذب إن عُدْنا إلى دينكم بعد أن أنقذنا الله منه".

قال مقاتل: "يعني: إن دخلنا في دينكم بعد إذ لم يجعلنا الله من أهل ملتكم الشرك".

قال الزمخشري: "يريد عود قومه، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم وإن كان بريئا من ذلك إجراء لكلامه على حكم التغليب".

قال الطبري: "قال شعيب لقومه إذ دعوه إلى العود إلى ملتهم، والدخول فيها،

=

=

وتوعَّدوه بطرده ومَنْ تبعه من قريتهم إن لم يفعل ذلك هو وهـم: قـد اختلقنـا على الله كذبًا، وتخرّصنا عليه من القول باطلا، إن نحن عدنا في ملتكم، فرجعنا فيها بعد إذ أنقذنا الله منها، بأن بصَّرنا خطأها وصوابَ الهدى الذي نحن عليه".

(تنبيه): وفي هذه الآيـةِ الكريمـةِ سؤالٌ معروفٌ مشهورٌ؛ لأن ظـاهرَ القـرآنِ هنـا أن شعيبًا قد دَخَلَ في ملتهم سابقًا يومًا؛ لأَنَّ قولَهم مخاطبونَ له: (أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا) وقول شعيب مُجِيبًا لهم (قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا) يدلُّ بظاهرِه على أنه قد كان فيها سابقًا يومًا ما. وأكثرُ العلماءِ يقولونَ: إن الأنبياءَ (صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم) معادنُ وَحْيٍ، ومحلُّ الخيرِ، واللهُ يقـول (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) فلا يكفرونَ بالله لأَنَّ فِطْرَتَهُمْ التي وُلدوا عليها لا يُبَدِّلُهَا اللهُ بالكفرِ لمكانتهم عنده.

وأكثرُ الأصوليين وعلماءِ التفسيرِ أن شعيبًا لـم يكـن كـافرًا يومًـا مـا. ويجابُ عن ظاهرِ الآيةِ بِجَوَابَيْنِ:

أحدُهما: أن العربَ تطلقُ لفظةَ (عَادَ) تُطلقه إطلاقين:

أحدُهما: عَادَ إلى أمرٍ كان فيه سَابِقًا.

والثاني: تقـولُ العـربُ: «عَـادَ كـذا كـذا» بمعنَـى (صـار) إلـى كـذا مـن جَدِيـدٍ، ومنه قولُهم: عادَ الطينُ خزفًا، وعادَ الخمرُ خَلًا، ولا شَكَّ أن هذا الاستعمالَ موجـودٌ في (عَادَ).

الوجهُ الثاني: وبه قال غيرُ واحدٍ: أن نَبِيَّ اللهِ شُعَيْبًا كان معه جماعـةٌ مـن قومِـه آمنـوا به، فالذين آمنوا به من قومِـه كـانوا كُفَّـارًا علـى ملـةِ قـومِهم، وهـم عـددٌ كثيـرٌ، وهـو رجلٌ واحدٌ فعُبِّر باسمِ العددِ الكثيرِ وَغَلَّبُوهُ على ذلك الواحِدِ، والتزمَ معهم شعيبٌ في هذا الخطابِ تَغْلِيبًا لقومِه الأكثرين

- **قال ابن الجوزي**: فإن قيل: كيف قالوا: "لتعودن"، وشعيب لم يكن في كفر قط،

=

=

فيعود إليه؟ فعنه جوابان.

أحدهما: أنهم لما جمعوا في الخطاب معه من كان كافرًا، ثم آمن، خاطبوا شعيبًا بخطاب أتباعه، وغلَّبوا لفظهم على لفظه، لكثرتهم، وانفراده.

والثاني: أن المعنى: لتصيرُنّ إلى ملتنا؛ فوقع العَود على معنى الابتداء، كما يقال: قد عاد عليَّ من فلان مكروه، أي: قد لحقني منه ذلك؛ وإن لم يكن سبق منه مكروه.

قال الشاعر:

فـانْ تكـنِ الأيَّـامُ أحَـسنَّ مَـرةً   إلـيَّ فقـد عَـادَتْ لَهُـنَّ ذُنُـوْبُ.

قوله تعالى: {وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا} [الأعراف: ٨٩]، أي: "وليس لنا أن نتحول إلى غير دين ربنا".

قال مقاتل: "وما ينبغي لنا أن ندخل في ملتكم الشرك".

قال الطبري: "وما يكون لنا أن نرجع فيها فندين بها، ونترك الحق الذي نحن عليه".

قال السدي: "ما ينبغي لنا أن نعود في شرككم بعد إذ نجانا الله منها".

قوله تعالى: {إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا} [الأعراف: ٨٩]، أي: "إلا أن يشاء الله ربنا".

فَنَبِيُّ الله شعيبٌ لمَّا تَبَرَّأَ من الملةِ الكافريةِ، وقال إنهم إن عَادُوا إليها فقد افْتَرَوْا على اللهِ كَذِبًا، فَوَّضَ جميعَ أَمْرِهِ إلى اللهِ، وَبَيَّنَ أن الأمورَ كُلَّهَا بيدِ الله، فهو الذي بيدِه الهدايةُ وإليه الضلالُ، فإن نَبِيَّ اللهِ شعيبًا وإن كان من خيارِ المرسلين لاَ يهديه ويوفقُه إلا رَبُّهُ -جل وعلا- وهذه عادةُ العارفينَ بالله يعلمونَ أنه لاَ توفيقَ إلا بتوفيقِ اللهِ (وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا) (إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ) ونحو ذلك من الآياتِ (إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا) يريدُ رَبُّنَا بمشيئتِه الكونيةِ القدريةِ شيئًا فلا مَفَرَّ ولاَ مَوْئِلَ عما شَاءَ وَقَدَّرَ.

=

=

قال البغوي: "يقول إلا أن يكون قد سبق لنا في علم الله ومشيئته أنا نعود فيها فحينئذ يمضي قضاء الله فينا وينفذ حكمه علينا".

قال السدي: "فالله لا يشاء الشرك، ولكن نقول: إلا أن يكون الله قد علم شيئا فإنه قد وسع كل شيء علما".

قال الطبري: أي: "إلا أن يكون سبق لنا في علم الله أنّا نعود فيها، فيمضي فينا حينئذ قضاء الله، فينفذ مشيئته علينا".

قال الزمخشري: "معناه: إلا أن يشاء الله خذلاننا ومنعنا الألطاف، لعلمه انها لا تنفع فينا وتكون عبثا. والعبث قبيح لا يفعله الحكيم".

قال ابن كثير: "وهذا ردّ إلى المشيئة، فإنه يعلم كل شيء، وقد أحاط بكل شيء علمًا".

قوله تعالى: {وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الأعراف: ٨٩]، أي: "وقد وسع ربنا كل شيء علمًا، فيعلم ما يصلح للعباد".

فهو (جل وعلا) يعلمُ الموجوداتِ والمعدوماتِ والجائزاتِ والمستحيلاتِ، فإنه بإحاطةِ عِلْمِهِ ليعلمُ المعدومَ الذي سَبَقَ في سابقِ عِلْمِهِ أنه لا يوجدُ، وهو يعلمُ أن ذلك المعدومَ الذي لا يُوجَدُ أن لَوْ وُجِدَ كيف يكونُ، فهو يعلمُ مثلًا: أن أبا لَهَبٍ لَنْ يُؤْمِنَ، ومع ذلك يعلمُ لو آمَنَ أبو لهبٍ أيكونُ إيمانُه تَامًّا أو ناقصًا، كما لا يَخْفَى، وكونُه (جل وعلا) يعلمُ المعدومَ الذي لا يوجدُ أن لو وُجِدَ كيفَ يكونُ، دَلَّتْ عليه آياتٌ كثيرةٌ من كتابِ اللهِ، من الآياتِ الدالةِ على ذلك: أن الكفارَ يومَ القيامةِ إذا رَأَوُا النارَ، وَعَايَنُوا صدقَ ما جاءت به الرسلُ، وندموا وقد فَاتَتِ الْفُرْصَةُ نَدِمُوا حيث لا ينفعُ الندمُ، وَتَمَنَّوْا أن يُرَدُّوا إلى الدنيا مرةً أخرى ليُصدقوا الرسلَ، واللهُ يعلمُ أنه لا يَرُدُّهُمْ إلى الدنيا مرةً ثانيةً، فقد بَيَّنَ في سورةِ الأنعامِ أن هذا الردَّ الذي عَلِمَ أنه لا يكونُ، بَيَّنَ أنه لو كان لَعَلِمَ كيفَ يكونُ؛ وَلِذَا قال (وَلَوْ رُدُّوا

=

=

لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) فهو يعلمُ أنهم لا يُرَدُّونَ ويعلمُ لو رُدُّوا ماذا يكونُ، كما صَرَّحَ بقولِه (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) والمتخلفونَ عن غزوةِ تبوكَ لا يَحْضُرُونَهَا أبدًا؛ لأَنَّ اللهَ هو الذي ثَبَّطَهُمْ عنها بإرادتِه لحكمةٍ، كما بَيَّنَهُ بقولِه (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) وهذا الخروجُ الذي لاَ يكونُ قد عَلِمَ (جل وعلا) أَنْ لو كان كيفَ يكونُ، كما صَرَّحَ به في قولِه (لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالًا وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ).

أما الخلقُ فإنهم لا يعلمونَ من العلومِ إلا ما عَلَّمَهُمْ خالقُ السماواتِ والأرضِ (جل وعلا).

قال السدي: "يقول: إلا أن يكون قد علم شيئا فإنه قد وسع كل شيء علما".

قال الطبري: "يقول: فإن علم ربنا وسع كل شيء فأحاط به، فلا يخفى عليه شيء كان، ولا شيء هو كائن. فإن يكن سبق لنا في علمه أنّا نعود في ملتكم، ولا يخفى عليه شيء كان ولا شيء هو كائن، فلا بد من أن يكون ما قد سبق في علمه، وإلا فإنا غير عائدين في ملّتكم".

قال الزمخشري: "أي: هو عالم بكل شيء مما كان وما يكون، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحول، وقلوبهم كيف تتقلب، وكيف تقسو بعد الرقة، وتمرض بعد الصحة، وترجع إلى الكفر بعد الإيمان".

قوله تعالى: {عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا} [الأعراف: ٨٩]، أي:"على الله وحده اعتمادنا هداية ونصرة".

والتوكل إسناد الأمور وتفويضها إلى الله، مع العلم أنه لا يقع من الخير إلا ما شاء الله، ولا يصيب العبد من الشر إلا ما كتب.

قال محمد بن إسحاق: وعلى الله لا على الناس فليتوكل المؤمنون".

=

=

قال الزمخشري: "في أن يثبتنا على الإيمان ويوفقنا لازدياد الإيقان".

قال ابن كثير: "أي: في أمورنا ما نأتي منها وما نذر".

قال الطبري: "يقول: على الله نعتمد في أمورنا وإليه نستند فيما تعِدوننا به من شرِّكم، أيها القوم، فإنه الكافي من توكَّل عليه".

قوله تعالى: {رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ} [الأعراف: ٨٩]، أي: "ربنا احكم بيننا وبين قومنا بالحق".

قال الفراء: "يريد: اقض بيننا".

قال أبو عبيدة: "أي: احكم بيننا".

قال ابن كثير: "أي: افصل بيننا وبين قومنا، وانصرنا عليهم.

قال مقاتل: "يعني: بالعدل في نزول العذاب بهم".

قال ابن عباس: "يقول: اقض بيننا وبين قومنا بالحق".

قال ابن عباس: "ما كنت أدري ما قوله: {ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق}، حتى سمعت قول بنت ذي يزن تقول: تعال أفاتحك، تقول: تعالى أخاصمك".

قال الطبري:"ثم فزع -صلوات الله عليه- إلى ربه بالدعاء على قومه= إذ أيس من فلاحهم، وانقطع رجاؤه من إذعانهم لله بالطاعة، والإقرار له بالرسالة، وخاف على نفسه وعلى من اتبعه من مؤمني قومه من فَسَقتهم العطبَ والهلكة، بتعجيل النقمة، فقال: {ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق}، يقول: احكم بيننا وبينهم بحكمك الحقّ الذي لا جور فيه ولا حَيْف ولا ظلم، ولكنه عدل وحق".

قوله تعالى: {وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [الأعراف: ٨٩]، أي: "وأنت خير الحاكمين".

قال مقاتل: "يعنى: القاضين".

قال ابن كثير: "أي: خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبدًا.

=

قال الطبري: "يعني: خير الحاكمين".

قال الفراء:"وأهل عمان يسمون ا «لقاضي»:الفاتح والفتاح".

قال أبو عبيدة: "القاضي، يقال له: الفتاح، قال:

أَلا أَبْلِغْ بَني عُصْمٍ رَسُولا بِأَنِّي عَنْ فُتَاحَتِكُمْ غَنِيُّ

وهو لبعض مراد".

قوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ} [الأعراف: ٩٠]، أي: "قال الأشراف من قومه الفجرة الكفرة".

قال الطبري: "وقالت الجماعة من كفرة رجال قوم شعيب -وهم «الملأ» - الذين جحدوا آيات الله، وكذبوا رسوله، وتمادوا في غيِّهم، لآخرين منهم".

قال الزمخشري: "أي: أشرافهم للذين دونهم، يثبطونهم عن الإيمان".

قوله تعالى: {لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا} [الأعراف: ٩٠]، أي: "إذا اتبعتم شعيبًا وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه".

قال أبو الليث: "أي: لأن أطعتم شعيبا في دينه".

قال أبو السعود: أي:"دخلتم في دينه وتركتم جين آبائكم".

قال الطبري: أي: "لئن أنتم اتبعتم شُعَيبًا على ما يقول، وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه من توحيد الله، والانتهاء إلى أمره ونهيه، وأقررتم بنبوَّته".

قوله تعالى: {إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ} [الأعراف: ٩٠]، أي: "إنكم إذًا لخاسرون لاستبدالكم الضلالة بالهدى".

قال الطبري: "يقول: لمغبونون في فعلكم، وتركَكم ملتكم التي أنتم عليها مقيمون، إلى دينه الذي يدعوكم إليه وهالِكُون بذلك من فعلكم".

قال مقاتل: "يعني: لعجزة، نظيرها في يوسف: {لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ} [يوسف: ١٤]، يعني: لعجزة ظالمون".

=

وقال أبو الليث: "يعني: جاهلون".

وقال أبو السعود: {لَخَاسِرُونَ}، " أي: في الدين لاشترائكم الضلالة بهداكم أو في الدنيا لفوات ما يحصل لكم بالخس والتطفيف".

قال الزمخشري: أي: "لاستبدالكم الضلالة بالهدى، كقوله تعالى {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ} [البقرة: ١٦]، وقيل: تخسرون باتباعه فوائد البخس والتطفيف، لأنه ينهاكم عنهما ويحملكم على الإيفاء والتسوية".

قوله تعالى: {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} [الأعراف: ٩١]، أي: "فأخذَتْ قومَ شعيب الزلزلةُ الشديدة".

قال أبو عبيدة: "{الرَّجْفَةُ}: من رجفت بهم الأرض، أي: تحركت بهم".

قوله تعالى: {فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [الأعراف: ٩١]، أي: "فأصبحوا في دارهم صرعى ميتين".

قال الطبري: أي: "على ركبهم، موتَى هلكى".

قال السدي: "إن الله بعث شعيبًا إلى مدين، وإلى أصحاب الأيكة، و «الأيكة»، هي الغيضة من الشجر، وكانوا مع كفرهم يبخَسون الكيل والميزان، فدعاهم فكذبوه، فقال لهم ما ذكر الله في القرآن، وما ردُّوا عليه. فلما عتوا وكذبوه، سألوه العذابَ، ففتح الله عليهم بابًا من أبواب جهنم، فأهلكهم الحرّ منه، فلم ينفعهم ظلٌّ ولا ماء. ثم إنه بعثَ سحابةً فيها ريحٌ طيبة، فوجدوا بَرْدَ الرّيح وطيبِها، فتنادوا: الظُّلّةَ، عليكم بها! فلما اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم، انطبقت عليهم فأهلكتهم، فهو قوله: {فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} [سورة الشعراء: ١٨٩].

أخرج الطبري عن محمد بن إسحاق: "كان من خبر قصة شعيب وخبر قومه ما ذكر الله في القرآن. كانوا أهلَ بخسٍ للناس في مكاييلهم وموازينهم، مع كفرهم

=

=

بالله، وتكذيبهم نبيَّهم. وكان يدعوهم إلى الله وعبادته، وترك ظلم الناس وبخسهم في مكاييلهم وموازينهم، فقال نُصْحًا لهم، وكان صادقا: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: ٨٨]. قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ= فيما ذكر لي يعقوب بن أبي سلمة إذا ذكر شعيبًا قال:"ذاك خطيب الأنبياء"! لحسن مراجعته قومه فيما يرادُ بهم. فلما كذَّبوه وتوعَّدوه بالرَّجْم والنفي من بلادهم، وعتوا على الله، أخذهُم عذاب يوم الظُّلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. فبلغني أن رجلا من أهل مدين يقال له: "عمرو بن جلهاء، لما رآها قال:

يَا قَوْم إنَّ شُعَيْبًا مُرْسَلٌ فَذَرُوا ... عنكم سُمَيْرًا وَعِمْرَانَ بْنَ شَدَّادِ

إِنِّي أَرَى غَبْيَةً يَا قَوْم قَدْ طَلَعَتْ ... تَدْعُو بِصَوْتٍ عَلَى صَمَّانَةِ الْوَادِي

وَإِنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا فِيهَا ضَحَاءَ غَدٍ ... إلا الرَّقِيمَ يُمَشِّي بَيْنَ أَنْجَادِ

و"سمير" و"عمران"، كاهناهم و"الرقيم"، كلبهم.

قال ابن إسحاق: فبلغني، والله أعلم، أنَّ الله سلط عليهم الحرّ حتى أنضجهم، ثم أنشأ لهم الظُّلةَ كالسحابة السوداء، فلما رأوها ابتدرُوها يستغيثون ببَرْدها مما هم فيه من الحر، حتى إذا دَخلوا تحتها، أطبقت عليهم، فهلكوا جميعًا، ونجى الله شعيبًا والذين آمنوا معه برحمته".

قال أبو عبد الله البجلي: «"أبو جاد" و"هوّز" و"حُطّي" و"كلمون" و"سعفص" و"قرشت"، أسماء ملوك مدين، وكان ملكهم يوم الظلة في زمان شعيب"كلمون"، فقالت أخت كلمون تبكيه:

كَلَمُونُ هَدَّ رُكْنِي ... هُلْكُهُ وَسْطَ المَحَلَّهْ

سَيِّدُ الْقَوْمِ أَتَاهُ الْـ ... حَتْفُ نَارًا وَسْطَ ظُلَّةْ

=

=

جُعِلَتْ نَارًا عَلَيْهِمْ   دَارُهُمْ كَالْمُضْمَحِلَّةْ».

(تنبيه): فَإِنْ قِيلَ: الْهَلَاكُ الَّذِي أَصَابَ قَوْمَ شُعَيْبٍ ذَكَرَ تَعَالَى فِي الْأَعْرَافِ أَنَّهُ رَجْفَةٌ، وَذَكَرَ فِي هُودٍ أَنَّهُ صَيْحَةٌ (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) وَذَكَرَ فِي الشُّعَرَاءِ أَنَّهُ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ، قال تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيم).

فَالْجَوَابُ: مَا قَالَهُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ: " وَقَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ كُلُّهُ أَصَابَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ وَهِيَ سَحَابَةٌ أَظَلَّتْهُمْ فِيهَا شَرَرٌ مِنْ نَارٍ وَلَهَبٍ وَوَهَجٍ عَظِيمٍ، ثُمَّ جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَرَجْفَةٌ مِنَ الْأَرْضِ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَزَهَقَتِ الْأَرْوَاحُ، وَفَاضَتِ النُّفُوسُ، وَخَمَدَتِ الْأَجْسَامُ".

قال ابن كثير أيضا: أخبر تعالى هاهنا أنهم أخذتهم الرجفة كما أرجفوا شعيبًا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة "هود" فقال (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) [هود:٩٤] والمناسبة في ذلك -والله أعلم -أنهم لما تهكموا بنبي الله شعيب في قولهم (أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) فجاءت الصيحة فأسكتتهم، وقال تعالى إخبارا عنهم في سورة الشعراء (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ [إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله: أصابهم عذاب يوم الظلة،" وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولَهَب ووهَج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس وخمدت الأجساد

=

=

(فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِين).

قوله تعالى: {الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا} [الأعراف: ٩٢]، أي: "الذين كذَّبوا شعيبًا كأنهم لم يقيموا في ديارهم، ولم يتمتعوا فيها، حيث استؤصلوا فلم يبق لهم أثر".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فأهلك الذين كذبوا شعيبًا فلم يؤمنوا به، فأبادَهم، فصارت قريتهم منهم خاوية خلاءً كأن لم ينزلوا قطّ ولم يعيشوا بها حين هلكوا".

عن قتادة: "{كأن لم يغنوا فيها}، كأن لم يعيشوا، كأن لم ينعموا".

قال ابن عباس: "يقول: كأن لم يعيشوا فيها".

قال أبو مالك: "كأن لم يكونوا فيها".

قال ابن زيد: "كأن لم يكونوا فيها قطُّ".

قال الخازن: " قوله تعالى (الذين كذبوا شعيبًا كأن لم يغنوا فيها) يعني كأن لم يقيموا فيها ولم ينزلوها يومًا من الدهر يقال: غنيت بالمكان أي أقمت به".

وقال الشوكاني: " ومعنى الآية: الذين كذبوا شعيبًا كأن لم يقيموا في دارهم، لأن الله سبحانه استأصلهم بالعذاب".

قال ابن عطية: "قوله تعالى (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا) لفظ فيها للإخبار عن قوة هلاكهم ونزول النقمة بهم والتنبيه على العبرة بهم".

وقال الشنقيطي: " المعنَى: الذين كَذَّبُوا شعيبًا دَمَّرَهُمُ اللهُ وأهلكهم إهلاكًا مستأصلًا حتى كأنهم لم يُقِيمُوا في دارهم يومًا من الدهرِ أبدًا ولم يُوجَدُوا، والذي زَالَ زَوَالًا كُلِّيًّا تقولُ العربُ: كأنه لم يكن يومًا ما".

قال أبو عبيدة: "أي: لم ينزلوا فيها ولم يعيشوا فيها، قال مهلهل:

غنيت دارنا تهامة فى الدهر وفيها بنو معدّ حلولا

=

=

وقولهم: مغاني الديار منها، واحدها: مغنى قال:

أتعرف مغنى دمنة ورسوم".

يقال: غَنِيَ فلان بمكان كذا، فهو يَغْنَى به غِنًى وغُنِيًّا، إذا نزل به وكان به، كما قال الشاعر:

وَلَقَدْ يَغْنَى بِهَا جِيرَانُكِ الْ ... مُمْسِكُو مِنْكِ بِعَهْدٍ وَوِصَالِ

وقال رؤبة:

أَبْكَتْ أَبَا الشَّعْثَاءِ وَالسَّمَيْدَعَا ... وَعَهْدُ مَغْنَى دِمْنَةٍ بِضَلْفَعَا

إنما هو "مفعل" من "غني".

قوله تعالى: {الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ٩٢]، أي: "وأصابهم الخسران والهلاك في الدنيا والآخرة".

قال المراغي: "أي الذين كذبوا وزعموا أن من يتبعه يكون خاسرا- كانوا هم الخاسرين لما كانوا موعودين به من سعادة الدنيا والآخرة، دون الذين اتبعوه فإنهم كانوا هم الفائزين المفلحين".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: لم يكن الذين اتَّبعوا شعيبًا الخاسرين، بل الذين كذّبوه كانوا هم الخاسرين الهالكين، لأنه أخبر عنهم جل ثناؤه: أن الذين كذبوا شعيبًا قالوا للذين أرادُوا اتباعه: {لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون}، فكذبهم الله بما أحلَّ بهم من عاجلِ نكاله، ثم قال لنبيه محمد ﷺ: ما خسر تُبَّاع شعيب، بل كانَ الذين كذبوا شعيبًا لما جاءت عقوبة الله، هم الخاسرين، دون الذين صدّقوا وآمنوا بهً".

قال السعدي: "أي: الخسار محصور فيهم، لأنهم خسروا دينهم وأنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين، لا من قالوا لهم: {لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ}.

=

=

قال الآلوسي: "قوله تعالى: {الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ} استئناف آخر لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الأخير، واستفادة الحصر هنا أوضح من استفادته فيما تقدم، أي الذين كذبوه عليه السلام عوقبوا بقولهم لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخاسِرُونَ فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين لتكذيبهم لا المتبعون له عليه السلام المصدقون إياه عليه السلام، وبهذا القصر اكتفى عن التصريح بالانجاء كما وقع في سورة [هود: ٩٤] من قوله تعالى: {وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}.

قال الزمخشري: أي: "هم المخصوصون بالخسران العظيم، دون أتباعه فإنهم الرابحون، و في هذا الاستئناف والابتداء وهذا التكرير: مبالغة في رد مقالة الملإ لأشياعهم، وتسفيه لرأيهم، واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم".

قوله تعالى: {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ} [الأعراف: ٩٣]، أي: "فأعرض شعيب عنهم حينما أيقن بحلول العذاب بهم".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فأدبر شعيب عنهم، شاخصًا من بين أظهرهم حين أتاهم عذاب الله".

قال البغوي:"أعرض {عنهم} شعيب شاخصا من بين أظهرهم حين أتاهم العذاب".

قوله تعالى: {وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي} [الأعراف: ٩٣]، أي: "وقال: يا قوم لقد أبلغتكم ما أُرسلت به من ربي".

قال أبو الليث: أي: "في نزول العذاب".

قال الطبري: يقول: "وأدّيت إليكم ما بعثني به إليكم، من تحذيركم غضبَه على إقامتكم على الكفر به، وظلم الناس أشياءهم".

قال السعدي: "أي: أوصلتها إليكم، وبينتها حتى بلغت منكم أقصى ما يمكن أن

=

=

تصل إليه، وخالطت أفئدتكم".

قوله تعالى: {وَنَصَحْتُ لَكُمْ} [الأعراف: ٩٣]، أي: "ونصحت لكم بالدخول في دين الله والإقلاع عما أنتم عليه، فلم تسمعوا ولم تطيعوا".

قال الطبري: أي: "بأمري إياكم بطاعة الله، ونهيكم عن معصيته".

قال السعدي: "فلم تقبلوا نصحي، ولا انقدتم لإرشادي، بل فسقتم وطغيتم".

قوله تعالى: {فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ} [الأعراف: ٩٣]، أي: "فكيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسله؟.

قال ابن عباس: "يعني: فكيف أحزن؟.

قال أبو الليث: "أي: كيف أحزن بعد النصيحة على قوم إن عذبوا".

قال الطبري: "يقول: فكيف أحزن على قوم جَحَدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله، وأتوجَّع لهلاكهم؟.

قال أبو عبيدة: "أي: أحزن وأتندم وأتوجع، ومصدره «الأسى»، وقال:

وَانْحَلَبَتْ عَيْنَاهُ مِنْ فَرْطِ الأَسَى"

قال السعدي: "أي: فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم، أتاهم الخير فردوه ولم يقبلوه ولا يليق بهم إلا الشر، فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم، بل يفرح بإهلاكهم ومحقهم. فعياذا بك اللهم من الخزي والفضيحة، وأي: شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم؟.

قال ابن عطية: "قوله: {يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي}، إلى آخر الآية كلام يقتضي أن شُعَيْبًا عليه السلام وجد في نفسه لما رأى هلاك قومه حزنا وإشفاقا إذ كان أمله فيهم غير ذلك، فلما وجد ذلك طلب أن يثير في نفسه سبب التسلي عنهم والقسوة عليهم فجعل يعدد معاصيهم وإعراضهم الذي استوجبوا به أن لا يتأسف عليهم، فذكر أنه بلغ الرسالة ونصح، والمعنى فأعرضوا وكذبوا، ثم قال لنفسه لما نظرت

=

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤)

{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَة مِنْ نَبِيّ} فَكَذَّبُوهُ {إلا أخذنا} عاقبنا {أهلها بالبأساء}

=

في هذا وفكرت فيه فَكَيْفَ آسى على هؤلاء الكفرة، ويحتمل أن يقول هذه المقالة على نحو قول النبي ﷺ لأهل قليب بدر، وقال مكي: وسار شعيب بمن معه حتى سكن مكة إلى أن ماتوا بها".

قال البيضاوي: "قاله تأسفا بهم لشدة حزنه عليهم ثم أنكر على نفسه فقال: فكيف آسى على قوم كافرين ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم، أو قاله اعتذارا عن عدم شدة حزنه عليهم. والمعنى لقد بالغت في الإبلاغ والإنذار وبذلت وسعي في النصح والإشفاق فلم تصدقوا قولي، فكيف آسى عليكم".

قال محمد بم إسحاق: "بلغني والله أعلم أن الله سلط عليهم الحر حتى إذا أنضجهم أنشأ لهم الظلة كالسحابة السوداء، فلما رأوها ابتدروها يستغيثون ببردها مما هم فيه، حتى إذا دخلوا تحتها أطبقت فهلكوا جميعا، ونجا الله ﷻ شعيبا والذين آمنوا معه فأصابه على قومه حزن لما نزل بهم من نقمة الله، ثم قال: يعزي نفسه فيما ذكر الله عنه: {يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين}.

قال ابن عاشور: قوله تعالى (فكيف آسى على قوم كافرين) مخاطبًا نفسه على طريقة التجريد، إذ خطر له خاطر الحزن عليهم فدفعه عن نفسه بأنهم لا يستحقون أن يؤسف عليهم لأنهم اختاروا ذلك لأنفسهم، ولأنه لم يترك من تحذيرهم ما لو ألقاه إليهم لأقلعوا عما هم فيه فلم يبق ما يوجب أسفه وندامته كقوله تعالى (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا) وقوله (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات).

بشدة الْفَقْر {وَالضَّرَّاء} الْمَرَض {لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ} يَتَذَلَّلُونَ فَيُؤْمِنُونَ.

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥).

{ثُمَّ بَدَّلْنَا} أَعْطَيْنَاهُمْ {مَكَان السَّيِّئَة} الْعَذَاب {الْحَسَنَة} الْغِنَى وَالصِّحَّة {حَتَّى عَفَوْا} كَثُرُوا {وَقَالُوا} كُفْرًا لِلنِّعْمَةِ {قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء} كَمَا مَسَّنَا وَهَذِهِ عَادَة الدَّهْر وَلَيْسَتْ بِعُقُوبَةٍ مِنْ الله فكونوا على ما أنتم عليه قال تعالى {فَأَخَذْنَاهُمْ} بِالْعَذَابِ {بَغْتَة} فَجْأَة {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} بِوَقْتِ مَجِيئِهِ قَبْله[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ} [الأعراف: ٩٤]، أي: "وما أرسلنا في قرية من نبي يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عمَّا هم فيه من الشرك، فكذَّبه قومه، إلا ابتليناهم بالبأساء والضراء، فأصبناهم في أبدانهم بالأمراض والأسقام، وفي أموالهم بالفقر والحاجة".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، معرِّفه سنّته في الأمم التي قد خلَت من قبل أمته، ومذكّرَ من كفر به من قريش، لينزجروا عما كانوا عليه مقيمين من الشرك بالله، والتكذيب لنبيه محمد ﷺ: {وما أرسلنا في قرية من نبي}، قبلك، {إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء}، وهو البؤس وشَظَف المعيشة وضِيقها، و {الضراء}، وهي الضُّرُ وسوء الحال في أسباب دُنياهم".

عن السدي: " {أخذنا أهلها بالبأساء والضراء}، يقول: بالفقر والجوع".

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قوله: " {بالبأساء}، قال: البأساء الفقر". قال ابن أبي حاتم:"وروي عن ابن عباس، وأبي العالية، والحسن في أحد قوليه ومرة الهمداني، وسعيد بن جبير، ومجاهد والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي ومقاتل بن حيان نحو ذلك".

وعن الحسن: " {البأساء}، قال: البلاء".

=

=

عن سعيد بن جبير: "{فأخذناهم بالبأساء}، قال: خوفا من السلطان".
أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن مرة عبد الله بن مسعود في قوله: " {والضراء}، قال: الضراء السقم". قال ابن أبي حاتم:"وروي، عن ابن عباس. وأبي العالية، ومرة الهمداني، وأبي مالك والضحاك، والحسن، ومجاهد، والسدي والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان نحو ذلك".
وعن سعيد بن جبير في قول الله: " {والضراء}، يعني: حين البلاء والشدة".
وعن الحسن: "{والضراء}، قال: هذه الأمراض والجوع ونحو ذلك".
قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ} [الأعراف: ٩٤]، أي: "رجاء أن يستكينوا، وينيبوا إلى الله، ويرجعوا إلى الحق".
قال الطبري: "يقول: فعلنا ذلك ليتضرّعوا إلى ربهم، ويستكينوا إليه، وينيبوا، بالإقلاع عن كفرهم، والتوبة من تكذيب أنبيائِهم".
قال أبو مالك: "{لعلهم}، يعني: كي".
- قال السمرقندي: لكي يتضرعوا، فأدغمت التاء في الضاد وأقيم التشديد مقامه، ومعناه: لكي يدعوا ربهم ويؤمنوا بالرسل ويعرفوا ضعف معبودهم.
- **قال ابن الجوزي:** ومقصود الآية: إعلام النبي ﷺ بسنَّةِ الله في المكذِّبين، وتهديد قريش.
- قال أبو السعود قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مّن نَّبِيٍّ) إشارةٌ إجمالية إلى بيان أحوالِ سائرِ الأمم إثرَ بيان أحوالِ الأممِ المذكورة تفصيلًا.
قوله تعالى: {ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ} [الأعراف: ٩٥].
أي: (ثُمَّ) إذا لم يفد فيهم، واستمر استكبارهم، وازداد طغيانهم (بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا) أي: حولّنا الحال من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك، فما فعلوا.

=

=

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: {ثم بدلنا} أهلَ القرية التي أخذنا أهلها بالبأساء والضراء، {مكان السيئة}، وهي البأساء والضراء، وإنما جعل ذلك"سيئة"، لأنه ممّا يسوء الناس ولا تسوءهم "الحَسَنة"، وهي الرخاء والنعمة والسعة في المعيشة".

عن قتادة: " {مكان السيئة الحسنة}، قال: مكان الشدة رخاء".

قال ابن عباس: "يقول: مكان الشدة الرَّخاء".

قال مجاهد: "{السيئة}، الشر، و {الحسنة}، الرخاء والمالُ والولد". وفي رواية: "و {الحسنة}، الخير".

قال ابن زيد: "بدلنا مكان ما كرهوا ما أحبُّوا في الدنيا".

قوله تعالى: {حَتَّى عَفَوْا} [الأعراف: ٩٥]، أي: "حتى كثروا ونموا".

قال الطبري: "يقول: حتى كَثُروا، كذلك كل شيء كثر، فإنه يقال فيه: قد عفا، كما قال الشاعر:

ولَكِنَّا نُعِضُّ السَّيْفَ مِنْهَا   بِأَسْوُقِ عَافِيَاتِ الشَّحْمِ كُومِ".

عن ابن زيد: "{حتى عفوا}، من ذلك العذاب".

واختلفوا في قوله تعالى: {حَتَّى عَفَوْا} [الأعراف: ٩٥]، على أقوال:

أحدها: أي: حتى كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر، وهو هو قول أكثر المفسرين. وهو المروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ومجاهد، والسدي، والضحاك، وإبراهيم النخعي، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم. وبه قال أبو عبيدة معمر بن المثنى، والطبري، والجصاص، والثعلبي، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والقرطبي، والشوكاني، والألوسي، وابن عاشور.

ومنه قول لبيد:

وَأُنَاسٌ بَعْدَ قَتْلٍ قَدْ عَفَوا   وَكَثِيرٌ زَالَ عَنْهُمْ فَانْتَقَلْ

=

=

قال ابن زيد: "كثروا كما يكثر النّبات والرّيش، ثم أخذهم عند ذلك بغتة وهم لا يَشْعُرون".

واحتج أصحاب هذا القول بقول النبي ﷺ: (حفوا الشوارب، وأعفوا اللحى).

واحتجوا أيضا بأن هذا هو المعنى المعروف في اللغة، يقول النحاس: (وذلك معروف في اللغة، ومنه الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: (أعفوا اللحى) أي كثروها.

الثاني: حتى أعرضوا، قاله ابن بحر.

الثالث: حتى سُرّوا، قاله قتادة.

والرابع: حتى سمنوا، قاله الحسن ، ومنه قول بشر بن أبي حازم:

فَلَمَّا أَنْ عَفَا وَأَصَابَ مَالًا   تَسَمَّنَ مَعْرِضًا فِيهِ ازْوِرَارُ

والراجح القول الأول وهو أن معنى (عفوا) أي: كثروا، ويشهد لهذا ما يلي:

- أن هذا المعنى هو المعروف في اللغة، والواجب حمل كلام الله تعالى على المعروف من كلام العرب دون الشاذ والضعيف والمنكر.

- أن قول النبي ﷺ: (أعفوا اللحى) يشهد لهذا المعنى، والحديث إذا ثبت وكان في معنى أحد الأقوال فهو مرجح له على ما خالفه.

أما تفسيره بالإعراض عن الشكر فبعيد، يقول الألوسي: (وتفسيره بالإعراض عن الشكر ليس بيانا للمعنى اللغوي كما لا يخفى).

وأما تفسيره بالسرور فلا وجه له، يقول الطبري: (وهذا الذي قاله قتادة في معنى (عفوا) تأويل لا وجه له في كلام العرب؛ لأنه لا يعرف "العفو" بمعنى "السرور" في شيء من كلامها، إلا أن يكون أراد: حتى سروا بكثرتهم وكثرة أموالهم، فيكون ذلك وجها وإن بعد) وبهذا الجواب يمكن الرد أيضا على من قال بأن معنى (عفو): سمنوا.

- قال الرازي: ثم بين تعالى أن تدبيره في أهل القرى لا يجري على نمط واحد،

=

=

وإنما يدبرهم بما يكون إلى الإيمان أقرب فقال (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة) لأن ورود النعمة في البدن والمال بعد البأساء والضراء، يدعو إلى الانقياد والاشتغال بالشكر، والمعنى: أنه تعالى أخبر أنه يأخذ أهل المعاصي بالشدة تارة، وبالرخاء أخرى.

قوله تعالى: {وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ} [الأعراف: ٩٥]، أي: "فقالوا من جهلهم وغفلتهم كفرانًا للنعمة: هذه عادة الدهر وقد مسّ آباءنا مثل ذلك من المصائب ومن الرخاء وليست بعقوبة من الله".

ابتلاهم الله بهذا وهذا ليتضرعوا ويُنيبوا إلى الله، فما نَجَع فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا بل قالوا: قد مسنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، ولم يتفطنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضراء، كما ثبت في الصحيح (عجبًا للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له، وإن أصابته سَراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضَرَّاء صَبَر فكان خيرًا له) فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من السراء والضراء.

قال الطبري: هذا "خبرٌ من الله عن هؤلاء القوم الذين أبدلهم مكان الحسنة السيئة التي كانوا فيها، استدراجًا وابتلاء، أنهم قالوا إذ فعل ذلك بهم: هذه أحوال قد أصابتْ مَنْ قبلنا من آبائنا، ونالت أسلافَنا، ونحن لا نعدُو أن نكون أمثالَهم يصيبنا ما أصابهم من الشدة في المعايش والرخاء فيها وهي "السراء"، لأنها تَسرُّ أهلها.

وجهل المساكين شكرَ نعمة الله، وأغفلوا من جهلهم استدامةَ فضلِهِ بالإنابة إلى طاعته، والمسارعة إلى الإقلاع عما يكرهه بالتوبة، حتى أتاهم أمره وهم لا يشعرون".

=

=

- قال السعدي: أي: هذه عادة جارية لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين، تارة يكونون في سراء وتارة في ضراء، وتارة في فرح، ومرة في ترح، على حسب تقلبات الزمان وتداول الأيام، وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير، ولا للاستدراج والنكير حتى إذا اغتبطوا، وفرحوا بما أوتوا، وكانت الدنيا، أسر ما كانت إليهم، أخذناهم بالعذاب

- قال الماوردي: قوله تعالى (وَّقَالُوْا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ والسَّرَأَءُ) أي: الشدة والرخاء يعنون ليس البأساء والضراء عقوبة على تكذيبك وإنما هي عادة الله في خلقه أن بعد كل خصب جدبًا وبعد كل جدب خصبًا.

- **قال ابن الجوزي:** قوله تعالى (وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء) فنحن مثلهم، يصيبنا ما أصابهم، يعني: أنهم أرادوا أن هذا دأب الدهر، وليس بعقوبة.

قوله تعالى: {فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [الأعراف: ٩٥]، أي: "فأخذناهم بالعذاب فجأة وهم آمنون، لا يخطر لهم الهلاك على بال".

قال الطبري: "يقول: فأخذناهم بالهلاك والعذاب فجأة، أتاهم على غِرّة منهم بمجيئه، وهم لا يدرون ولا يعلمون أنّه يجيئهم، بل هُم بأنه آتيهم مكذّبون حتى يعاينوه ويَرَوه".

قال القرطبي: "قوله تعالى (فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً) أي فجأة ليكون أكثر حسرة".

قال السدي: "أخذهم العذاب بغتة".

عن سفيان قوله: " {فأخذناهم بغتة}، قال: بعد ستين سنة".

عن محمد بن النضر الحارثي، في قوله: " {فأخذناهم بغتة}، قال: أمهلوا عشرين سنة".

قال قتادة: "بغت القوم أمر الله وما أخذ الله قوما قط إلا عند سلوتهم وغرتهم ونعمتهم فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون".

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦).

{وَلَوْ أَنَّ أَهْل الْقُرَى} الْمُكَذِّبِينَ {آمَنُوا} بِاَللهِ وَرُسُلهمْ {وَاتَّقَوْا} الْكُفْر وَالْمَعَاصِي {لَفَتَحْنَا} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد {عَلَيْهِمْ بَرَكَات مِنْ السَّمَاء} بِالْمَطَرِ {وَالْأَرْض} بِالنَّبَاتِ {ولكن كذبوا} الرسل {فأخذناهم} عاقبناهم {بما كانوا يكسبون}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا} [الأعراف: ٩٦]، أي: "ولو أنَّ أهل القرى صدَّقوا رسلهم واتبعوهم واجتنبوا ما نهاهم الله عنه".

قال ابن كثير: "أي: آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسل، وصدقت به واتبعته، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات".

قال قتادة: "آمنوا بما أنزل، اتقوا ما حرم الله".

قال القرطبي: "{آمنوا}، أي: صدقوا. {واتقوا}، أي: الشرك".

قال القرطبي: "فجعل تعالى التقى من أسباب الرزق".

قوله تعالى: {لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف: ٩٦]، أي: "لفتح الله لهم أبواب الخير من كلِّ وجه".

قال ابن كثير: "أي: قطر السماء ونبات الأرض.

قال القرطبي: "يعني المطر والنبات. وهذا في أقوام على الخصوص جرى ذكرهم. إذ قد يمتحن المؤمنون بضيق العيش ويكون تكفيرا لذنوبهم. ألا ترى أنه أخبر عن نوح إذ قال لقومه: {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْرارًا} [نوح: ١٠ - ١١]، وعن هود: {تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا} [هود: ٥٢]. فوعدهم المطر والخصب على التخصيص. يدل عليه {ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون}.

=

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧).

{أَفَأَمِنَ أَهْل الْقُرَى} الْمُكَذِّبُونَ {أَنْ يَأْتِيهِمْ بَأْسنَا} عَذَابنَا {بَيَاتًا} لَيْلًا {وَهُمْ نَائِمُونَ} غَافِلُونَ عَنْهُ.

أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨).

=

عن موسى الطائفي، قال: "قال رسول الله ﷺ أكرموا الخبز فإن الله أنزله من بركات السماء، وأخرجه من بركات الأرض".

عن عبد الله بن أمِّ حرام، قال: صَلَّيْتُ القبلتَين مع رسول الله ﷺ، وسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أكْرِموا الخُبز؛ فإنّ الله أنزَله مِن بركات السماء، وسخَّر له بركات الأرض، ومَن يتَّبِعْ ما يسقُطُ مِن السُّفْرة غُفِرَ له».

عن الحسن البصري -من طريق أبي الأشهب- قال: "كان أهلُ قريةٍ أوسَع الله عليهم، حتى كانوا يَسْتنجُون بالخُبزِ، فبعَث الله عليهم الجوعَ، حتى إنهم كانوا يأكُلون ما يقعُدون به".

قال الراغب: " «البركة»: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، قال تعالى: {لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف: ٩٦]، وسمي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة، والمبارك ما فيه ذلك الخير... ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس، وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر؛ قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: هو مبارك، وفيه بركة".

قوله تعالى: {وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأعراف: ٩٦]، أي: "ولكنهم كذَّبوا، فعاقبهم الله بالعذاب المهلك بسبب كفرهم ومعاصيهم".

قال ابن كثير: "أي: ولكن كذبوا رسلهم، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

قال القرطبي: "أي: كذبوا الرسل. والمؤمنون صدقوا ولم يكذبوا.

{أو أمن أَهْل الْقُرَى أَنْ يَأْتِيهِمْ بَأسنَا ضُحًى} نَهَارًا {وهم يلعبون}.

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩).

{أَفَأَمِنُوا مَكْر الله} اسْتِدْرَاجه إيَّاهُمْ بِالنِّعْمَةِ وَأَخْذهمْ بغتة {فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون}[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ} [الأعراف: ٩٧]، يقول تعالى مخوفًا ومحذرًا من مخالفة أوامره، والتجرؤ على زواجره:أي: "أي هل أمن هؤلاء المكذبون أن يأتيهم عذابنا ليلًا وهم نائمون غافلون عنه؟.

قال القرطبي: "الاستفهام للإنكار، والفاء للعطف. نظيره: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ} [المائدة: ٥٠]. والمراد بـ {القرى}: مكة وما حولها، لأنهم كذبوا محمدا ﷺ وقيل: هو عام في جميع القرى. {أن يأتيهم بأسنا}، أي: عذابنا. {بياتا}، أي: ليلا {وهم نائمون}.

قال الخازن: "قوله تعالى (أفأمن أهل القرى) هو استفهام بمعنى الإنكار وفيه وعيد وتهديد وزجر، والمراد بالقرى مكة وما حولها، وقيل: هو عام في كل أهل القرى الذين كفروا وكذبوا".

عن المعلى بن زياد القردوسي قال: "كان هرم بن حيان يخرج في وسط الليل ثم يقرأ: {أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون}.

عن مالك بن دينار: "قالت ابنة الربيع لأبيها: يا أبتاه ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام، قال: يا ابنتاه إني أخاف البيات".

قال مالك بن دينار: "لو استطعت أن لا أنام لم أنم مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعوانا لفرقتهم في منازل الأرض كلها ينادون أيها الناس: النار النار".

عن عبد الله بن عباس -من طريق أبي عمران الشقري- قال: "لا تتَّخِذوا الدجاج =

=

والكلاب، فتكونوا مِن أهل القرى. وتلا: {أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتًا}.

قوله تعالى: {أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [الأعراف: ٩٨]، أي: "أم هل أمنوا أن يأتيهم عذابنا ونكالنا نهارًا جهارًا وهم يلهون ويشتغلون بما لا يُجدي كأنهم يلعبون؟.

قال الزجاج: "يقال لكل من كان في شيء لا يُجْدي أو في ضلال: إنما أنت لاعب. وإنَّمَا قيل لهم: {ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُون، أي: وهم في غير ما يجدي عليهم".

عن أبي عمران الشقري، قال: "كان ابن عباس يقول: لا تتخذوا الدجاج والكلاب فتكونوا من أهل القرى، وتلا: {أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون}.

قوله تعالى: {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ} [الأعراف: ٩٩]، أي: "أفأمن أهل القرى المكذبة مَكْرَ الله وإمهاله لهم؛ استدراجًا لهم بما أنعم عليهم في دنياهم عقوبة لمكرهم؟.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: أفأمن، يا محمد هؤلاء الذين يكذّبون الله ورسوله، ويجحدون آياته، استدراجَ الله إيّاهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحّة الأبدان ورخاء العيش، كما استدرج الذين قصَّ عليهم قصصهم من الأمم قبلهم".

قال القرطبي: "أي: عذابه وجزاءه على مكرهم. وقيل: مكره استدراجه بالنعمة والصحة".

قال الزجاج: "أي: وأمنوا عذاب الله أن يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون".

قال البيضاوي: "و {مكر الله}: استعارة لاستدراج العبد وأخذه من حيث لا يحتسب".

قال الشبلي: "مكره بهم تركه إياهم على ماهم عليه".

=

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠).

=

قوله تعالى: {فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ٩٩]، أي: "فلا يأمن مكر الله إلا القوم الهالكون".

قال الطبري: "فإنّ مكر الله لا يأمنه، يقول: لا يأمن ذلك أن يكون استدراجًا، مع مقامهم على كفرهم، وإصرارهم على معصيتهم، {إلا القوم الخاسرون} وهم الهالكون".

قال البيضاوي: أي: " الذين خسروا بالكفر وترك النظر والاعتبار.

عن هشام بن عروة، قال: " كتب رجل إلى صاحب له: وإذا رضيت من الله شيئا يسرك فلا تأمن أن يكون فيه من الله مكر {فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون} [الأعراف: ٩٩].

عن ابن زيد، عن أبيه: "أن الله، تبارك وتعالى قال للملائكة: ما هذا الخوف الذي قد بلغكم وقد أنزلتكم المنزلة التي لم أنزلها غيركم؟ فقالوا: «ربنا لا نأمن مكرك، لا يأمن مكرك إلا القوم الخاسرون».

عن إسماعيل بن رافع، قال: "من الأمن لمكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة".

قال السعدي: وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمنا على ما معه من الإيمان.

بل لا يزال خائفا وجلا أن يبتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعيا بقوله: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) وأن يعمل ويسعى، في كل سبب يخلصه من الشر، عند وقوع الفتن، فإن العبد - ولو بلغت به الحال ما بلغت - فليس على يقين من السلامة.

{أو لـم يَهْـدِ} يَتَبَـيَّن {لِلَّـذِينَ يَرِثُـونَ الْأَرْض} بِالـسُّكْنَى {مِـنْ بعـد} هـلاك {أهلها أن} فاعل مُخَفَّفَة وَاسْمهَا مَحْذُوف أَيْ أَنَّهُ {لَوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُمْ} بِالْعَـذَابِ {بِذُنُوبِهِمْ} كَمَا أَصَبْنَا مَنْ قَبْلهمْ وَالْهَمْزَة فِي الْمَوَاضِـع الْأَرْبَعَـة لِلتَّوْبِيخِ وَالْفَاء وَالْوَاو الدَّاخِلَة عَلَيْهِمَا لِلْعَطْفِ وَفِي قِرَاءَة بِسُكُونِ الْوَاو في الموضع الأول عطفا بأو {و} نحن {نطبع} نَخْتِم {عَلَى قُلُوبهمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} الْمَوْعِظَة سماع تدبر[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا} [الأعراف: ١٠٠].

يقول تعالى: أو لم نبيِّن للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربهم.

قال البيضاوي: "أي: يخلفون من خلا قبلهم ويرثون ديارهم".

قال النسفي: "أى أو لم يهد الذين يخلفون من خلا قبلهم فى ديراهم ويرثونهم ارضهم هذا الشأن".

قال الطبري: "يقول: أوَلم يَبن للّذين يُسْتخلفون في الأرض بعد هلاك آخرين قبلهم كانُوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا عن أمر ربهم".

قال ابن عباس: {أولم يهد}، " أولم يُبَيَّنْ".

وفي رواية أخرى: "أو لم يتبين لهم".

عن مجاهد، قوله: "{أولم يهد}، يبين". وروي عن عطاء الخراساني مثل ذلك.

قال السدي:"يقول: أولم يتبين للذين يرثون الأرض من بعد أهلها، هم المشركون".

عن ابن زيد قوله: " {أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها}، أولم نُبَيِّنْ لهم، {أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم}، قال: و «الهدى»، البيان الذي بُعث هاديًا لهم، مبيِّنًا لهم حتى يعرفوا. لولا البيان لم يعرفُوا".

=

قال السعدي: أي: أو لم يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض، بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم، ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين؟ أو لم يهتدوا أن اللّه، لو شاء لأصابهم بذنوبهم، فإن هذه سنته في الأولين والآخرين.

كما قال تعالى (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأولِي النُّهَى).

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ).

وقال تعالى (أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ. وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأمْثَالَ).

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا). أي: هل ترى لهم شخصًا أو تسمع لهم صوتًا؟

قوله تعالى: {أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ} [الأعراف: ١٠٠]، أي: "أن لو نشاء أصبناهم بسبب ذنوبهم كما فعلنا بأسلافهم".

قال البغوي: "أي: أخذناهم وعاقبناهم، {بذنوبهم} كما عاقبنا من قبلهم".

قال الطبري: "يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، فأخذناهم بذنوبهم، وعجّلنا لهم بأسَنا كما عجلناه لمن كان قبلهم ممن ورثوا عنه الأرض، فأهلكناهم بذنوبهم".

قال القاسمي: "أي: كما أصبنا من قبلهم فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين".

قوله تعالى: {وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} [الأعراف: ١٠٠]، أي: "ونختم على قلوبهم، فلا يدخلها الحق، ولا يسمعون موعظة ولا تذكيرًا؟.

قال القاسمي: "أي: نختم عليها فلا يقبلون موعظة ولا إيمانا".

=

قال البغوي: "أي: "نختم {على قلوبهم فهم لا يسمعون} الإيمان ولا يقبلون الموعظة".

قال الطبري: "يقول: ونختم على قلوبهم فهم {لا يسمعون}، موعظةً ولا تذكيرًا، سماعَ منتفع بهما".

قال الشوكاني: "أي: ونحن نطبع على قلوبهم، على الاستئناف، ولا يصح عطفه على {أصبنا}، لأنهم ممن طبع الله على قلبه لعدم قبولهم للإيمان وقيل: هو معطوف على فعل مقدر دل عليه الكلام، كأنه قيل: يغفلون عن الهداية ونطبع، وقيل: معطوف على {يرثون}، [و] قوله: {فهم لا يسمعون} جواب لو، أي: صاروا بسبب إصابتنا لهم بذنوبهم والطبع على قلوبهم لا يسمعون ما يتلوه عليهم من أرسله الله إليهم من الوعظ والإعذار والإنذار".

فإن قيل كيف يطبع الله على قلوبهم؟ نقول هذا بسبب ذنوبهم وكفرهم.

قال تعالى (بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ).

وقال تعالى (فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا).

وقال تعالى (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ).

وفي هذا أن الكفر والمعاصي سبب للطبع على القلب والرين، والحسنات والطاعات سبب للهدى.

- قال ابن القيم: فالعبد إذا آمن بالكتاب واهتدى به مجملًا وقبِل أوامره وصدق بأخباره، كان ذلك سببًا لهداية أخرى تحصل له على التفصيل، فإن الهداية لا نهاية ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى، فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ) فهداهم أولًا للإيمان، فلما آمنوا هداهم للإيمان هداية بعد هداية، ونظير هذا قوله تعالى

=

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١.

{تِلْكَ الْقُرَى} الَّتِي مَرَّ ذِكْرهَا {نَقُصّ عَلَيْك} يَا مُحَمَّد {مِنْ أَنْبَائِهَا} أَخْبَار أَهْلهَا {وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلهمْ بِالْبَيِّنَاتِ} الْمُعْجِزَات الظَّاهِرَات {فَمَا كَانُوا

=

(وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً) وقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا).

ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعز الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل.

(فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ) موعظة ولا تذكيرًا.

- السمع في القرآن وفي اللغة يُطلق إطلاقين: يُطلق السمع على ما سمعه الإنسان وسَمِعَتْهُ أُذُنُه فوَعَاهُ قَلْبُهُ. ويُطلق السمع على القبول والاستجابة، ومن إطلاق السمع على القبول والاستجابة: قوله في الصلاة: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» أي: لمن أطاعه فاستجاب له.

فالعرب تقول: سمعًا وطاعة. أي: إجابة وقبولًا، ومنه هذه الآية. فقوله (فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ) السمع المنفي هنا هو سمع الطاعة والقبول. أي: إن الله إذا طبع على القلوب فالأسماع تسمع ولكن ذلك السمع لا ينشأ منه طاعة ولا قبول، والله (جل وعلا) بين أنه إذا وقع على القلوب مثل هذا الطبع وما جرى مجراه أنهم لا يستطيعون أن يسمعُوا. ونفي الاستطاعة ذكره في آيات:

كقوله (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ) فنفى عنهم استطاعة السمع.

وكقوله: (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا).

وقال (جل وعلا) في الفرقان (فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) وهذه الاستطاعة نفيها إنما هو بحسب مشيئة الله من معاقبة الإنسان على ذنب.

لِيُؤْمِنُوا} عِنْد مَجِيئِهِمْ {بِمَا كَذَّبُوا} كَفَرُوا بِهِ {مِنْ قَبْل} قَبْل مَجِيئِهِمْ بَلْ اسْتَمَرُّوا عَلَى الكفر {كذلك} الطبع {يطبع الله على قلوب الكافرين}.

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢).

{وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ} أَيْ النَّاس {مِنْ عَهْد} أَيْ وَفَاء بِعَهْدِهِمْ يَوْم أُخِذَ الْمِيثَاق {وَإِنْ} مخففة {وجدنا أكثرهم لفاسقين}[1].

---

(١) قوله تعالى: {تِلْكَ الْقُرَى} [الأعراف: ١٠١]، أي: "تلك القرى التي تَقَدَّم ذِكْرُها، وهي قرى قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب".

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم الصلاة والسلام وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى:

(تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ) أي: يا محمد (مِنْ أَنْبَائِهَا) أي: من أخبارها.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: هذه القرى التي ذكرت لك، يا محمد، أَمرَها وأمر أهلها، يعني: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب".

قال ابن كثير: "لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب -عليهم الصلاة والسلام- وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين".

قوله تعالى: {نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا} [الأعراف: ١٠١]، أي: "نقصُّ عليك -أيها الرسول- من أخبارها، وما كان من أَمْر رسل الله التي أرسلت إليهم، ما يحصل به عبرة للمعتبرين وازدجار للظالمين".

قال الطبري: أي:"فنخبرك عنها وعن أخبار أهلها، وما كان من أمرهم وأمر رُسل =

=

الله التي أرسلت إليهم، لتعلم أنا ننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا على أعدائنا وأهل الكفر بنا، ويعلم مكذبوك من قومك ما عاقبة أمر من كذَّب رسل الله، فيرتدعوا عن تكذيبك، وينيبوا إلى توحيد الله وطاعته".

قال ابن كثير: " {مِنْ أَنْبَائِهَا}، أي: من أخبارها".

قال أبو العالية: "{أنباء}، يعني: أحاديث".

- قال السعدي: ما يحصل به عبرة للمعتبرين، وازدجار للظالمين، وموعظة للمتقين.

- وقال القرطبي: وهي تسلية للنبيّ ﷺ والمسلمين.

- الأنباء جمع النبأ وهو الخبر، والنبأ أخص من الخبر، فكل نبأ خبر وليس كل خبر نبأ، لأن النبأ لا يطلق إلا على الخبر الخاص، وهو الخبر الذي له خطب وشأن، وهلاكهم وتهديد ووعيدهم نبأ عظيم له شأن وخطب جسيم.

وإنما كانت هذه الأنباء عن هذه القرى أخبار لها خطب وشأن؛ لأنها دَلَّتْ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ الله، وعلى صبر أنبيائه، وعلى شدة بطشه وعدالته وإنصافه، وإهلاكه للظالمين، وأن فيها من التخويف للموجودين من عذاب الله وسخطه ما ينهاهم أن يقع منهم مثل ما وقع من الأوَّلين، ولذا كان لها شأن وخطب؛ ولذا قال (نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا).

قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} [الأعراف: ١٠١]، أي: "ولقد جاءت أهلَ القرى رسلنا بالحجج البينات على صدقهم".

قال الطبري: "يقول: ولقد جاءت أهل القرى التي قصصت عليك نبأها، {رسلهم بالبينات}، يعني بالحجج: البينات".

قال ابن كثير: "أي: بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا} [الإسراء: ١٥] وقال تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ

=

=

الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [هود: ١٠١، ١٠٢].

- البينة هي الحجة القاطعة التي لا تترك في الحق لبسًا، ومنه (البينات في الشهادات)؛ لأنها شهادات قوم عدول لا تترك في الحق لبسًا، فالبينات: الحجج الواضحة البينة التي لا تترك في الحق لبسًا. ومعنى (البينات) هنا على التحقيق: المعجزات؛ لأن الله ما أرسل نبيًّا قط إلا ومعه معجزة تُقارب التحدِّي، يعجز عنها الخلق، فتثبت بها نبوته؛ لأن إثبات الله للمعجزات للرسل هي بمثابة قوله لهم: أنتم صادقون في خبركم عني. فهي تصديق من الله لهم؛ لأنه ما خرق لهم العادة وقت التحدي وجاء بهذا العلم الخارق الذي لا يقدر عليه غيره إلا ومعناه عنده: أنت صادق يا عبدي فيما تنقل عَنّي. فهو تصديق من الله، ولذا سُمِّيَ مُعْجِزَة؛ لأن المعجزة فعل خارق يحصل عند التحدي لا يقدر عليه البشر. (الشنقيطي).

قوله تعالى: {فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ} [الأعراف: ١٠١]، أي: "ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل لتكذيبهم إياهم قبل مجيئهم بالمعجزات وبعد مجيئهم بها فحالهم واحد في العتو والضلال".

قال ابن كثير: "الباء سببية، أي: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم. حكاه ابن عطية ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو متجه حسن، كقوله: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ [فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُون} [الأنعام: ١١٠، ١١١].

قال الزمخشري: "أي: استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرين، لا يرعوون ولا تلين شكيمتهم في كفرهم وعنادهم مع تكرر المواعظ عليهم وتتابع الآيات. ومعنى اللام تأكيد النفي وأن الإيمان كان منافيا لحالهم في التصميم على الكفر".

=

=
وفي قوله تعالى: قوله تعالى: {فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ} [الأعراف: ١٠١]، وجوه:

أحدها: أن العهد الطاعة، يريد: ما وجدنا لأكثرهم من طاعة لأنبيائهم، لأنه قال بعده: {وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ}، وتكون {مِنْ} في هذا الموضع على هذا التأويل زائدة.

والثاني: معنى ذلك: فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل، بما سبق في علم الله أنهم يكذبون به يوم أخرجهم من صُلب آدم عليه السلام. وهذا قول الربيع ، وأبي بن كعب ، واختاره الطبري.

قال الربيع بن أنس: "يحق على العباد أن يأخذوا من العلم ما أبدى لهم ربهم والأنبياء، ويدعوا علمَ ما أخفى الله عليهم، فإن علمه نافذٌ فيما كان وفيما يكون، وفي ذلك قال: "ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين"، قال: نفذ علمه فيهم، أيُّهم المطيع من العاصي حيث خلقهم في زمان آدم. وتصديق ذلك حيث قال لنوح: {اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} [هود: ٤٨]، وقال في ذلك: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام: ٢٨]، وفي ذلك قال: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا} [الإسراء: ١٥]، وفي ذلك قال: {لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء: ١٦٥]، ولا حجة لأحد على الله".

والثالث: معنى ذلك: {فما كانوا} لو أحييناهم بعد هلاكهم ومعاينتهم ما عاينوا من عذاب الله، {ليؤمنوا بما كذبوا من قبل} هلاكهم، كما قال جل ثناؤه: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} . وهذا قول مجاهد.

والرابع: معناه: فما كان هؤلاء المشركون الذين أهلكناهم من أهل القرى ليؤمنوا
=

=
عند إرسالنا إليهم بما كذبوا من قبل ذلك، وذلك يوم أخذِ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. وهذا قول السدي.

قال الطبري: والصواب" القولُ الذي ذكرناه عن أبيّ بن كعب والربيع. وذلك أن من سبق في علم الله تبارك وتعالى أنه لا يؤمن به، فلن يؤمن أبدًا، وقد كان سبق في علم الله تبارك وتعالى لمن هلك من الأمم التي قص نبأهم في هذه السورة، أنه لا يؤمن أبدًا، فأخبر جل ثناؤه عنهم، أنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما هم به مكذبون في سابق علمه، قبل مجيء الرسل وعند مجيئهم إليهم. ولو قيل: تأويله: فما كان هؤلاء الذين وَرِثوا الأرض، يا محمد، من مشركي قومك من بعد أهلها، الذين كانوا بها من عاد وثمود، ليؤمنوا بما كذب به الذين ورثوها عنهم من توحيد الله ووعده ووعيده كان وجهًا ومذهبًا، غير أني لا أعلم قائلا قاله ممن يعتمد على علمه بتأويل القرآن".

وقال الشنقيطي: أن الله إذا أرسل الرسل إلى خلقه قام المُتَنَطِّعون الكفرة فبادروا إلى الكفر وتكذيب الرسل، والمبادرة إلى ذلك التكذيب يكون ذنبًا عظيمًا يمنعهم الله بسببه أن يؤمنوا بعد ذلك، فيزيغ قلوبهم ويطبع عليها ويختم، ويبعدهم عن الخير نتيجة لمسارعتهم إلى ذلك الشر.

وإنما قلنا: إن هذا الوجه هو أظهر الأوجه لدلالة القرآن عليه لأمرين:

أحدهما: القرينة المقترنة به هنا، وهو أنه قال (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ) أي: لأن الله طبع على قلوبهم بسبب تكذيبهم السابق؛ ولذا قال بعده مقترنًا به (كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ) كذلك الطبع الذي منعهم من أن يؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك الطبع يطبع الله على قلوب الكافرين، وقد صرح (جل وعلا) في آيات من كتابه أن هذا الطبع يقع بسبب كفر سابق كما قال (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ) فبين أن الطبع بسبب كفر سبقه. وكذلك قال
=

=

(بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ).

ومن أوضح ما يوضح هذا المعنى آية الأنعام، وهي قوله تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ).

- في هذا الحذر من رد الحق، قال ابن القيم حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء:

أحدهما: رد الحق لمخالفته هواك.

فإنك تعاقب بتقليب القلب ورد ما يرد عليك من الحق رأسًا ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك.

قال تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك.

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته.

فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبة لك.

قال تعالى (فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ).

فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين فليهنه السلامة. (بدائع الفوائد).

قوله تعالى: {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ} [الأعراف: ١٠١]، أي: "مثل ذلك الطبع الشديد المحكم نطبع على قلوب الكافرين فلا يكاد يؤثر فيهم النُّذر والآيات".

قال الطبري: "كما طبع الله على قلوب هؤلاء الذين كفروا بربهم وعصوا رسله من هذه الأمم التي قصصنا عليك نبأهم، يا محمد، في هذه السورة، حتى جاءهم بأس الله فهلكوا به {كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين}، الذين كتب عليهم أنهم لا

=

=
يؤمنون أبدا من قومك".
قوله تعالى: {وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ} [الأعراف: ١٠٢]، أي: "وما وَجَدْنا لأكثر الأمم الماضية من أمانة ولا وفاء بالعهد".
قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ولم نجد لأكثر أهل هذه القرى التي أهلكناها واقتصصنا عليك، يا محمد، نبأها، من وفاء بما وصيناهم به، من توحيد الله، واتباع رسله، والعمل بطاعته، واجتناب معاصيه، وهجر عبادة الأوثان والأصنام".
قال ابن كثير: "أي: لأكثر الأمم الماضية".
وفي المراد بـ «العهد» هنا، ثلاثة أقاويل.
أحدها: الميثاق الذي أخذه الله عليهم في ظهر آدم. وهذا قول وأبي بن كعب ، وأبي العالية.
والثاني: ما جعله الله في عقولهم من وجوب شكر النعمة، وأن الله هو المنعم، قاله علي بن عيسى.
والثالث: أنه ما عهد إليهم مع الأنبياء أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وأن العهد الوفاء. قاله الحسن.
قوله تعالى: {وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} [الأعراف: ١٠٢]، أي:"، وما وجدنا أكثرهم إلا فسقة عن طاعة الله وامتثال أمره".
قال الطبري: "يقول: وما وجدنا أكثرهم إلا فسقة عن طاعة ربهم، تاركين عهده ووصيته".
قال ابن كثير: "أي: ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال. والعهد الذي أخذه عليهم هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، فأقروا بذلك، وشهدوا على
=

=

أنفسهم به، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة، لا من عقل ولا شرع، وفي الفطر السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك، كما جاء في صحيح مسلم يقول الله تعالى: «إني خلقت عبادي حُنَفَاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم». وفي الصحيحين: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» الحديث. وقال تعالى في كتابه العزيز: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦] إلى غير ذلك من الآيات".

عن مجاهد: " {وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين}، قال: القرون الماضية".

قال ابن عباس: "وذلك أن الله إنما أهلك القرى لأنهم لم يكونوا حفظوا ما أوصاهم به".

- **قال ابن عطية:** قوله تعالى (وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم من عهدٍ) أخبر تعالى أنه لم يجد لأكثرهم ثبوتًا على العهد الذي أخذه على ذرية آدم وقت استخراجهم من ظهره، قاله أبو العالية عن أبي بن كعب، ويحتمل أن يكون الكلام عبارة عن أنهم لم يصرفوا عقولهم في الآيات المنصوبة ولا شكروا نعم الله ولا قادتهم معجزات الأنبياء، لأن هذه الأمور عهد في رقاب العقلاء كالعهود ينبغي أن يوفى بها، وأيضًا فمن لدن آدم تقرر العهد الذي هو بمعنى الوصية وبه فسر الحسن هذه الآية فيجيء المعنى: وما وجدنا لأكثرهم التزام عهد وقبول وصاة.

- ويُفهم من قوله (لأَكْثَرِهِم) أن هنالك عددًا قليلًا لهم عهد. وهذا هو ظاهر الآية؛ لأن الذين هم الأكثر لا عهد لهم.

=

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣).

{ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدهمْ} أَيْ الرُّسُل الْمَذْكُورِينَ {موسى بآياتنا} التسع {إلى فرعون وملإه} قَوْمه {فَظَلَمُوا} كَفَرُوا {بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَة الْمُفْسِدِينَ} بِالْكُفْرِ مِنْ إهْلَاكهمْ.

=

بين تعالى أن أكثر الناس لا عهد لهم، لأن من لا عهد له لا خير فيه؛ لأن كل التكاليف عهود. ومن لا يفي بعهد لا يطيع الله في شيء، وقد جاءت آيات قرآنية كثيرة تبين أن أكثر الخلق لا خير فيهم كقوله (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ) (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ) إلى غير ذلك من الآيات. (الشنقيطي).

(وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) أي: ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال. والعهد الذي أخذه عليهم هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، فأقروا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة، لا من عقل ولا شرع، وفي الفطر السليمة خلاف ذلك،

- والفسق هو الخروج عن طاعة الله، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها للإفساد، ويطلق ويراد به الكفر كقوله تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) وقال تعالى (ومَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ).

ويطلق ويراد به ما دونه من المعاصي كقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ).

وَقَالَ مُوسَى يَافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤).

{وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْن إنِّي رَسُول مِنْ رب العالمين} إليك فكذبه فقال أنا.

حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥).

{حَقِيق} جَدِير {عَلَى أَنْ} أَيْ بِأَنْ {لَا أَقُول عَلَى الله إلَّا الْحَقّ} وَفِي قِرَاءَة بِتَشْدِيدِ الْيَاء فَحَقِيق مُبْتَدَأ خَبَره أَنْ وَمَا بَعْده {قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِي} إلَى الشَّام {بَنِي إسْرَائِيل} وَكَانَ اسْتَعْبَدَهُمْ.

قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦).

{قَالَ} فِرْعَوْن لَهُ {إنْ كُنْت جِئْت بِآيَةٍ} عَلَى دَعْوَاك {فَأْتِ بِهَا إنْ كُنْت مِنْ الصادقين} فيها.

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧).

{فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَان مُبِين} حَيَّة عظيمة.

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨).

{وَنَزَعَ يَده} أَخْرَجَهَا مِنْ جَيْبه {فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء} ذَات شُعَاع {لِلنَّاظِرِينَ} خِلَاف مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ الْأُدْمَة.

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩).

{قَالَ الْمَلَأ مِنْ قَوْم فِرْعَوْن إنَّ هَذَا لَسَاحِر عَلِيم} فَائِق فِي عِلْم السِّحْر وَفِي الشُّعَرَاء أَنَّهُ مِنْ قَوْل فِرْعَوْن نَفْسه فَكَأَنَّهُمْ قالوه معه على سبيل التشاور.

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠).

{يريد ان يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون}.

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١).

{قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ} أَخِّرْ أَمْرهمَا {وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِن حَاشِرِينَ} جَامِعِينَ.

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢).

{يَأْتُوك بِكُلِّ سَاحِر} وَفِي قِرَاءَة سَحَّار {عَلِيم} يَفْضُل مُوسَى فِي عِلْم السِّحْر فَجَمَعُوا.

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣).

{وجاء السحرة فرعون قالوا أئن} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيل الثَّانِيَة وَإِدْخَال أَلِف بَيْنهمَا على الوجهين {لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين}.

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤).

{قال نعم وإنكم لمن المقربين}.

قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥).

{قَالُوا يَا مُوسَى إمَّا أَنْ تُلْقِي} عَصَاك {وَإِمَّا أَنْ نَكُون نَحْنُ الْمُلْقِينَ} مَا مَعَنَا.

قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦).

{قَالَ أَلْقُوا} أَمْر لِلْإِذْنِ بِتَقْدِيمِ إلْقَائِهِمْ تَوَصُّلًا بِهِ إلَى إظْهَار الْحَقّ {فَلَمَّا أَلْقَوْا} حِبَالهمْ وَعِصِيّهمْ {سَحَرُوا أَعْيُن النَّاس} صَرَفُوهَا عَنْ حَقِيقَة إدْرَاكهَا {وَاسْتَرْهَبُوهُمْ} خَوَّفُوهُمْ حَيْثُ خَيَّلُوهَا حَيَّات تَسْعَى {وجاءوا بسحر عظيم}.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧).

{وَأَوْحَيْنَا إلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاك فَإِذَا هِيَ تَلْقَف} بِحَذْفِ إحْدَى التَّاءَيْنِ فِي الْأَصْل تَبْتَلِع {مَا يَأْفِكُونَ} يُقَلِّبُونَ بِتَمْوِيهِهِمْ.

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨).

{فَوَقَعَ الْحَقّ} ثَبَتَ وَظَهَرَ {وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} مِنْ السِّحْر.

فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩).

{فَغَلَبُوا} أَيْ فِرْعَوْن وَقَوْمه {هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ} صاروا ذليلين.

وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠).

{وألقي السحرة ساجدين}.

قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١)

{قالوا آمنا برب العالمين}.

رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢).

{رَبّ مُوسَى وَهَارُونَ} لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَا شَاهَدُوهُ مِنْ الْعَصَا لَا يَتَأَتَّى بِالسِّحْرِ.

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣).

{قال فرعون أآمنتم} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَال الثَّانِيَة أَلِفًا {بِهِ} بِمُوسَى {قَبْل أَنْ آذَنَ} أَنَا {لَكُمْ إنْ هَذَا} الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ {لَمَكْر مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَة لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلهَا فَسَوْف تَعْلَمُونَ} مَا يَنَالكُمْ مِنِّي.

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤).

{لَأُقَطِّعَن أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلكُمْ مِنْ خِلَاف} أَيْ يَد كل واحد اليمنى ورجله اليسرى {ثم لأصلبنكم أجمعين}.

قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥).

{قَالُوا إنَّا إلَى رَبّنَا} بَعْد مَوْتنَا بِأَيِّ وَجْه كَانَ {مُنْقَلِبُونَ} رَاجِعُونَ فِي الْآخِرَة.

وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦).

{وَمَا تَنْقِم} تُنْكِر {مِنَّا إلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا}

عِنْد فِعْل مَا تَوَعَّدْنَا بِهِ لِئَلَّا نرجع كفارا {وتوفنا مسلمين}[1].

---

(١) قوله تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ} [الأعراف: ١٠٣]، أي: "ثم بعثنا من بعد الرسل المتقدم ذِكْرهم موسى بن عمران بمعجزاتنا البينة إلى فرعون وقومه".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ثم بعثنا من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، موسى بن عمران، {بآياتنا إلى فرعون وملئه} يقول: بحججنا وأدلتنا إلى جماعة فرعون من الرجال".

قال ابن كثير: "أي: الرسل المتقدم ذكرهم، كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين. {مُوسَى بِآيَاتِنَا}، أي: بحججنا ودلائلنا البينة إلى {فِرْعَوْنَ} وهو ملك مصر في زمن موسى، {وَمَلَئِهِ}، أي: قومه".

قال أبو مالك: "{الملأ}، يعني: الأشراف من قومه".

قال مجاهد: "كان فرعون فارسيا من أهل اصطخر".

عن ابن لهيعة: "أن فرعون كان من أبناء مصر".

قال محمد بن المنكدر: "عاش فرعون ثلاثمائة سنة منها مائتان وعشرون سنة لم ير فيها ما يقذي عينه ودعاه موسى ثمانين سنة".

قوله تعالى: {فَظَلَمُوا بِهَا} [الأعراف: ١٠٣]، أي: "فجحدوا وكفروا بها ظلمًا منهم وعنادًا".

قال الطبري: "يقول: فكفروا بها، وإنما جاز أن يقال: {فظلموا بها} بمعنى: كفروا بها، لأن الظلم وَضْعُ الشيء في غير موضعه، والكفر بآيات الله، وضع لها في غير موضعها، وصرف لها إلى غير وجهها الذي عُنِيت به".

قال ابن كثير: "أي: جحدوا وكفروا بها ظلما منهم وعنادا، كقوله تعالى}
=

=

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [النمل: ١٤].

قوله تعالى: {فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف: ١٠٣]، أي: "فانظر - أيها الرسول- متبصرًا كيف فعلنا بهم وأغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه؟ وتلك نهاية المفسدين".

قال الطبري: "يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: فانظر يا محمد، بعين قلبك، كيف كان عاقبة هؤلاء الذين أفسدوا في الأرض؟ يعني فرعون وملأه، إذ ظلموا بأيات الله التي جاءهم بها موسى عليه السلام، وكان عاقبتهم أنهم أغرقوا جميعًا في البحر".

قال ابن كثير: "أي: الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أي: انظر - يا محمد - كيف فعلنا بهم، وأغرقناهم عن آخرهم، بمرأى من موسى وقومه. وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله - موسى وقومه - من المؤمنين به".

قال الرازي: اعلم أن هذا هو القصة السادسة من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة، وذكر في هذه القصة من الشرح والتفصيل ما لم يذكر في سائر القصص، لأجل أن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات سائر الأنبياء، وجهل قومه كان أعظم وأفحش من جهل سائر الأقوام.

واعلم أن الكناية في قوله (مِّن بَعْدِهِمْ) يجوز أن تعود إلى الأنبياء الذين جرى ذكرهم، ويجوز أن تعود إلى الأمم الذين تقدم ذكرهم

قوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤)} [الأعراف: ١٠٤]، أي: "وقال موسى لفرعون محاورًا مبلِّغًا: إني رسولٌ من الله خالق الخلق أجمعين، ومدبِّر أحوالهم ومآلهم".

قال الطبري: "يقول جل ثناؤه: وقال موسى لفرعون: يا فرعون إنّي رسول من

=

=

رب العالمين".

قال ابن كثير: "أي: أرسلني الذي هو خالقُ كل شيء وربه ومليكه".

قال ابن عباس: "ما زاده إلا رَغْمًا، قال: {إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

(رب العالمين) الذي يفعل ما يشاء، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم المباين لجميع المخلوقات، ولا يكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثان. الرب: المالك المتصرف، والعالمين: كل من سوى الله، وسموا بذلك لأنهم علم على خالقهم، فكل ما في الكون علامة ودليل على ربوبية الله.

- الرب هو المالك المتصرف المعبود المدبر لشؤون خلقه المربي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

- ومعاني الرب في لسان العرب ترجع إلى ثلاثة أصول: السيد، المالك، المصلح للشيء القائم عليه.

- العالمين: اختلف ما المراد بالعالمين على أقوال: أصحها: كل موجود سوى الله، وهذا قول قتادة ورجحه القرطبي وابن كثير.

ودليله قوله تعالى (قال فرعون وما رب العالمين. قال رب السموات والأرض وما بينهما).

- **قال ابن عاشور:** والظاهر أن خطاب موسى فرعونَ بقوله (يا فرعون) خطاب إكرام لأنه ناداه بالاسم الدال على الملك والسلطان بحسب متعارف أمته فليس هو بترفع عليه لأن الله تعالى قال له ولهارون (فقولا له قولًا لينًا)، والظاهر أيضًا أن قول موسى هذا هو أول ما خاطب به فرعون كما دلت عليه سورة طه.

قوله تعالى: {حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ} [الأعراف: ١٠٥]، أي: "جدير بأن لا أقول على الله إلا الحق، وحريٌّ بي أن ألتزمه".

=

=

قال أبو عبيدة: "حق عليّ أن لا أقول إلّا الحقّ".

قال المراغي: أي: " فهو لا يقول على الله إلا الحق، إذ لا يمكن أن يبعث الله رسولا يكذب عليه وهو الذي بيده ملكوت كل شئ، فهو معصوم من الكذب والخطأ فى التبليغ".

قال ابن كثير: «فقال بعضهم: معناه: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أي: جدير بذلك وحري به.

وقالوا و"الباء" و"على" يتعاقبان، فيقال: رميت بالقوس، وعلى القوس، وجاء على حال حسنة، و بحال حسنة.

وقال بعض المفسرين: معناه: حريص على ألا أقول على الله إلا الحق.

وقرأ آخرون من أهل المدينة: {حَقِيقٌ عَلَيّ} بمعنى: واجب وحق عَلَيّ ذلك ألا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من عز جلاله وعظيم سلطانه».

شدد نافع «الياء» وحده فى {على}، ونصبها وخفف الباقون وأرسلوا «الياء».

قوله تعالى: {قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} [الأعراف: ١٠٥]، أي: "قد جئتكم ببرهان وحجة باهرة من ربكم على صِدْق ما أذكره لكم".

قال الطبري: "يقول: قال موسى لفرعون وملئه: قد جئتكم ببرهان من ربكم، يشهدُ، أيها القوم، على صحة ما أقول، وصدق ما أذكر لكم من إرسال الله إياي إليكم رَسولا.

قال ابن كثير: "أي: بحجة قاطعة من الله، أعطانيها دليلا على صدقي فيما جئتكم به".

قال المراغي: "أي: قد جئتكم ببرهان من ربكم شاهد على صدق ما أقول، وفى قوله: {من ربكم} إيماء إلى أنهم مربوبون وأن فرعون ليس ربا ولا إلها، وإلى أن البينة ليست من كسب موسى ولا مما يستقل به عليه السلام".

=

=

قوله تعالى: {فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الأعراف: ١٠٥]، أي: "فأطلق -يا فرعون- معي بني إسرائيل مِن أَسْرك وقَهْرك، وخلِّ سبيلهم لعبادة الله".

قال الرازي: "أي أطلق عنهم وخلهم.

قال الطبري: "فأرسل يا فرعون معي بني إسرائيل".

قال ابن كثير: "أي: أطلقهم من أسْرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم؛ فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل، وهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن -عليهم صلوات الرحمن-".

قال الشوكاني: "قول تعالى (فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِى إسرائيل) أمره بأن يدع بني إسرائيل يذهبون معه، ويرجعون إلى أوطانهم، وهي الأرض المقدّسة، وقد كانوا باقين لديه مستعبدين ممنوعين من الرجوع إلى وطنهم".

قوله تعالى: {قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا} [الأعراف: ١٠٦]، أي: "قال فرعن لموسى: إن كنتَ جئتَ بآية حسب زعمك فأتني بها، وأحضرها عندي؛ لتصحَّ دعواك ويثبت صدقك".

قال الطبري: "يقول: بحجة وعلامة شاهدة على صدق ما تقول".

قال ابن كثير: "أي: قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها".

قال الرازي: أي: "إن كنت جئت من عند من أرسلك بآية فأتني بها وأحضرها عندي".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الأعراف: ١٠٦]، أي: "إن كنت صادقًا فيما ادَّعيت أنك رسول رب العالمين".

قال ابن كثير: أي: " إن كنت صادقًا فيما ادعيت".

قال الرازي: أي: "ليصح دعواك ويثبت صدقك".

=

قال ابن عباس: "فقال فرعون لموسى: ما تريد؟ قال: أريد أن تؤمن بالله، وأن ترسل معي بني إسرائيل فأبى عليه ذلك وقال: آتي بآية إن كنت من الصادقين".

قال أبو حيان: قوله تعالى (قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين) لما عرض موسى عليه السلام رسالته على فرعون وذكر الدليل على صدقه وهو مجيئه بالبينة والخارق المعجز استدعى فرعون منه خرق العادة الدالّ على الصدق وهذا الاستدعاء يحتمل أن يكون على سبيل الاختبار وتحويزه ذلك ويحتمل أن يكون على سبيل التعجيز لما تقرّر في ذهن فرعون أن موسى لا يقدر على الإتيان ببينة والمعنى إن كنت جئت بآية من ربك فاحضرها عندي لتصحّ دعواك ويثبت صدقك.

قوله تعالى: "{فَأَلْقَى عَصَاهُ} [الأعراف: ١٠٧]، أي: "فألقى موسى عصاه".

قال الحكم: "كانت عصى موسى -عليه الصلاة والسلام- من عوسج ولم يسخر العوسج لأحد بعده".

قال وهب بن منبه: "لما دخل موسى على فرعون، قال له فرعون: أعرفك؟ قال: نعم! قال: أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا؟ [سورة الشعراء: ١٨]. قال: فرد إليه موسى الذي ردَّ، فقال فرعون: خذوه! فبادره موسى فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، فحملت على الناس فانهزموا، فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا، قتل بعضُهم بعضًا، وقام فرعون منهزمًا حتى دخل البيتَ".

قال ابن كثير-بعد أن ذكر الخبر السابق عن وهب بن منبه-: "وفيه غرابة في سياقه والله أعلم".

قوله تعالى: "{فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ} [الأعراف: ١٠٧]، أي: "فتحولت حيَّة عظيمة ظاهرة للعيان".

قال الطبري: "يعني حية {مبين}، يقول: تتبين لمن يراها أنها حية".

=

قال يحيى بن سلام: "حية، أشعر، ذكر، يكاد يسرط فرعون، غرزت ذنبها في الأرض ورفعت صدرها ورأسها، وأهوت إلى عدو الله لتأخذه، فجعل يميل ويقول: يا موسى خذها، يا موسى خذها، فأخذها موسى".

قال قتادة: "تحولت حية عظيمة".

عن ابن عباس: قوله: {ثعبان مبين}، قال: "الحية الذكر". وروي عن الضحاك مثله.

قال ابن عباس: "فألقى عصاه فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه خافها فاقتحم على سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل".

وأخرج الطبري عن ابن عباس: "ألقى العصا فصارت حية، فوضعت فُقْمًا لها أسفل القبة، وفُقْمًا لها أعلى القبة قال عبد الكريم، قال إبراهيم: وأشار سفيان بأصبعه الإبهام والسبابة هكذا: شِبْه الطاق، فلما أرادت أن تأخذه، قال فرعون: يا موسى خذها! فأخذها موسى بيده، فعادت عصا كما كانت أول مرة".

قال السدي: "والثعبان: الذكر من الحيات، فاتحةً فاها، واضعة لحيها الأسفل في الأرض، والأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها ذُعِر منها، ووثب فأحدث، ولم يكن يُحْدِث قبل ذلك، وصاح: يا موسى، خذها وأنا مؤمن بك، وأرسل معك بني إسرائيل! فأخذها موسى فعادت عصًا".

وعن مجاهد في قوله: " {فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى} [سورة طه: ٢٠]، قال: ما بين لَحْيَيها أربعون ذراعًا".

- في هذه الآية شبه العصا بالثعبان وهو لا يطلق إلا على الكبير من الحيات، وقد جاءت آية أخرى تدل على خلاف ذلك وهي قوله تعالى (فَلَمَّا رَأَيهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ) الآية، لأن الجان هو الحية الصغيرة، والجواب عن هذا أنه شبهها بالثعبان في

=

عظم خلقتها، وبالجان في اهتزازها وخفتها وسرعة حركتها فهي جامعة بين العظم وخفة الحركة على خلاف العادة.

- وهذه العصا كان فيها أربع آيات:

أولًا: أنه يلقيها فتكون حية تسعى، ثم يأخذها فتعود عصا.

ثانيًا: أنه يضرب بها الحجر فينفجر عيونًا.

ثالثًا: أنه ضرب بها البحر، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم.

رابعًا: أنه ألقاها حين اجتمع إليه السحرة، وألقوا حبالهم وعصيهم، فألقاها فإذا هي تلقف ما يأفكون.

قوله تعالى: {وَنَزَعَ يَدَهُ} [الأعراف: ١٠٨]، أي: "وأخرج يده من جيبه".

هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه، فإذا أدخلها وأخرجها، خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر، لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف.

قال الطبري: "يقول: وأخرج يده".

قال يحيى بن سلام: "أدخل يده في جيب قميصه ثم أخرجها، فهو قوله: {ونزع يده}، أي: أخرج يده".

قال ابن عباس: "فأخرج يده من جيبه".

قال ابن كثير: "أي: نزع يده: أخرجها من درعه بعد ما أدخلها فيه".

قوله تعالى: {فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ} [الأعراف: ١٠٨]، أي: "فإذا هي بيضاء كاللبن من غير برص".

كما قال تعالى في سورة النمل (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) أي: من غير بَرَص ولا مرض.

=

قال الحسن البصري: أخرجها - واللّه - كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه.

- **قال ابن عطية**: و" الجيب " الفتح في الثوب لرأس الإنسان

- **قال الآلوسي**: قوله تعالى (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ) أي: جيب قميصك وهو مدخل الرأس منه المفتوح إلى الصدر لا ما يوضع فيه الدراهم ونحوها كما هو معروف الآن.

قال يحيى بن سلام: "يغشى البصر من بياضها".

قال مجاهد: "بيضاء من غير برص".

قال السدي: "وكان موسى رجلا آدم، فأخرج يده، فإذا هي بيضاء، أشد بياضا اللبن {من غير سوء}، قال: من غير برص، آيةً لفرعون".

قال ابن عباس: "أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء، يعني: من غير برص ثم أعادها إلى كمّه، فعادت إلى لونها الأول".

قال ابن كثير: أي: "فخرجت بيضاء تتلألأ من غير بَرَص ولا مرض، كما قال تعالى: {وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} [النمل: ١٢].

قال الطبري: أي:"فإذا هي بيضاء تلوح لمن نظر إليها من الناس، وكان موسى، فيما ذكر لنا، آدمَ، فجعل الله تحوُّل يده بيضاء من غير برص، له آية، وعلى صدق قوله: {إني رسول من رب العالمين}، حجة".

قوله تعالى: {قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ} [الأعراف: ١٠٩]، أي: "قال الأشراف من قوم فرعون".

قال أبو مالك: "{الملأ}، يعني: الأشراف من قومه".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: قالت الجماعة من رجال قوم فرعون والأشراف منهم".

=

=

قال ابن كثير: "أي: قال الملأ - وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون - موافقين لقول فرعون فيه، بعد ما رجع إليه رَوْعه، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك.

قوله تعالى: {إِنَّ هَـٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} [الأعراف: ١٠٩]، أي: "إن موسى لساحر واسع العلم بالسحر ماهر به".

قال المراغي: "أي: ماهر فى فنون السحر".

قال الطبري: «يعنون موسى صلوات الله عليه، أنه يأخذ بأعين الناس بخداعه إياهم، حتى يخيل إليهم العصا حية، والآدم أبيض، والشيء بخلاف ما هو به. ومنه قيل: "سَحر المطرُ الأرضَ"، إذا جادها، فقطع نباتها من أصوله، وقلب الأرض ظهرًا لبطن، فهو يَسْحَرُها سَحْرًا"، و"الأرض مسحورة"، إذا أصابها ذلك. فشبه "سحر الساحر" بذلك، لتخييله إلى من سحره أنه يرى الشيء بخلاف ما هو به، ومنه قول ذي الرمة في صفة السراب:

وَسَاحِرَةِ العُيُونِ مِنَ المَوَامِي تَرَقَّصُ فِي نَوَاشِرِهَا الأرُومُ

وقوله {عليم}، يقول: ساحر عليم بالسحر».

قال ابن عباس: "فاستشار الملأ فيما رأى، فقالوا: هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم".

قال ابن كثير: "فوافقوه-أي: فرعون- وقالوا كمقالته".

- فإن قيل: قوله (إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ) حكاه الله تعالى في سورة الشعراء أنه قاله فرعون لقومه، وحكى ههنا أن قوم فرعون قالوه، فكيف الجمع بينهما؟ وجوابه من وجهين:

الأول: لا يمتنع أنه قد قاله هو وقالوه هم، فحكى الله تعالى قوله ثم، وقولهم ههنا.

والثاني: لعل فرعون قاله ابتداء فتلقنه الملأ منه فقالوه لغيره أو قالوه عنه لسائر الناس على طريق التبليغ، فإن الملوك إذا رأوا رأيًا ذكروه للخاصة وهم يذكرونه

=

=

للعامة، فكذا ههنا.

وقال أبو حيان: قوله تعالى (قال الملأ من قوم فرعون إنّ هذا لساحر عليم) وفي الشعراء (قال للملإ حوله إنّ هذا لساحر عليم) والجمع بينهما: أن فرعون وهم قالوا هذا الكلام فحكى هنا قولهم وهناك قوله، أو قاله ابتداء فتلقفه منه الملأ فقالوه لأعقابهم أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ كما تفعل الملوك يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصّة ثم تبلغه الخاصة العامة.

قوله تعالى: {يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ} [الأعراف: ١١٠]، أي: "يريد أن يخرجكم جميعًا من أرضكم بسحره".

قال الطبري: "يريد: أرض مصر، معشر القبط السحرة".

قال السدي: "يستخرجكم من أرضكم".

قوله تعالى: {فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} [الأعراف: ١١٠]، أي: "فبماذا تشيرون عليَّ أيها الملأ في أمر موسى؟.

عن محمد بن إسحاق: "{فماذا تأمرون}: أأقتله؟.

قال الطبري:"يقول: فأي شيء تأمرون أن نفعل في أمره؟ بأي شيء تشيرون فيه؟.

قال ابن كثير: "وتشاوروا في أمره، وماذا يصنعون في أمره، وكيف تكون حيلتهم في نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبه وافترائهم، وتخوفوا من معرفته أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون فيكون ذلك سببا لظهوره

عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم والذي خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: {وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ} [القصص: ٦].

- فإن قيل: قوله (إِنَّ هذا لساحر عَلِيمٌ) حكاه الله تعالى في سورة الشعراء أنه قاله فرعون لقومه، وحكى ههنا أن قوم فرعون قالوه، فكيف الجمع بينهما؟ وجوابه من وجهين:

=

=

الأول: لا يمتنع أنه قد قاله هو وقالوه هم، فحكى الله تعالى قوله ثم، وقولهم ههنا.
والثاني: لعل فرعون قاله ابتداء فتلقنه الملأ منه فقالوه لغيره أو قالوه عنه لسائر الناس على طريق التبليغ، فإن الملوك إذا رأوا رأيًا ذكروه للخاصة وهم يذكرونه للعامة، فكذا ههنا.

وقال أبو حيان: قوله تعالى (قال الملأ من قوم فرعون إنّ هذا لساحر عليم) وفي الشعراء (قال للملإ حوله إنّ هذا لساحر عليم) والجمع بينهما: أن فرعون وهم قالوا هذا الكلام فحكى هنا قولهم وهناك قوله، أو قاله ابتداء فتلقفه منه الملأ فقالوه لأعقابهم أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ كما تفعل الملوك يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصّة ثم تبلغه الخاصة العامة.

قوله تعالى: {قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ} [الأعراف: ١١١]، أي: "قال مَن حضر مناظرة موسى مِن سادة قوم فرعون وكبرائهم: أَخِّر موسى وأخاه هارون".

قال ابن عباس: "يقول: أخره وأخاه".

وقال قتادة: "احبسه وأخاه".

قال يحيى بن سلام: "فأراد قتله، فقال له صاحبه: لا تقتله، فإنما هو ساحر، ومتى ما تقتله أدخلت على الناس في أمره شبهة، ولكن {أرجه وأخاه} [الشعراء: ٣٦] أخره وأخاه".

قال الطبري: "«الإرجاء»: في كلام العرب التأخير. يقال منه: "أرجيت هذا الأمر"، أرجأته"، إذا أخرته. ومنه قول الله تعالى: {تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ} [سورة الأحزاب: ٥١] تؤخر، فالهمز من كلام بعض قبائل قيس، يقولون: "أرجأت هذا الأمر"، وترك الهمز من لغة تميم وأسد، يقولون: "أرجيته"".

وسمي «المرجئة» بذلك، لأنهم أخروا العمل عن الإيمان وقالوا العمل ليس جزءا من الإيمان.

=

=

قرأ ابن كثير: «أرجئه وأخاه» مهموزا بواو بعد الهاء فى اللفظ، وقرأ أبو عمرو مثله غير أنه كان يضم الهاء ضمة من غير أن يبلغ بها الواو وقرأ نافع «أرجه» بكسر الهاء ولا يبلغ بها الياء ولا يهمز. هذه رواية المسيبي وقالون.

وروى ورش عنه «أرجه» يجر الهاء ويصلها بياء ولا يهمز بين الجيم والهاء وكذلك قال إسماعيل بن جعفر عن نافع.

قوله تعالى: {وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} [الأعراف: ١١١]، أي: "وابعث في مدائن «مصر» وأقاليمها الشُّرَط".

قال الطبري: "يقول: من يحشرُ السحرة فيجمعهم إليك، وقيل: هم الشُّرَط".

قال المراغي: "أي: جامعين لك السحرة منها وسائقيهم إليك".

قال أبو السعود: "قيل: هي مدائن صعيد مصر وكان رؤساء السحرة ومهرتهم بأقصى مدائن الصعيد".

قال أبو هلال العسكري: " «الحشر»: هو الجمع مع السوق، والشاهد قوله تعالى: {قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين} [الشعراء: ٣٦]، أي: ابعث من يجمع السحرة ويسوقهم إليك، ومنه يوم الحشر لأن الخلق يجمعون فيه ويساقون إلى الموقف".

عن ابن عباس في قوله: " {في المدائن حاشرين}، قال: الشُّرَط. وروي عن مجاهد ، والسدي مثل ذلك.

قال ابن عباس: "وكانت السحرة يخشون من فرعون فلما أرسل إليهم قال: قد احتاج إليكم إلهكم، قال: إن هذا فعل كذا وكذا".

وعن ابن عباس أيضا: "قالوا له، يعني: لفرعون: أجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرهم، فأرسل في المدائن فحشر له كل ساحر متعالم".

قال ابن كثير: "وقد كان السحر في زمانهم غالبا كثيرا ظاهرا. واعتقد من اعتقد

=

=

منهم، وأوهم من أوهم منهم، أن ما جاء موسى، عليه السلام، من قبيل ما تشعبذه سحرتهم؛ فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: {قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى. فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى. قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى. فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى} [طه: ٥٧ - ٦٠].

قوله تعالى: {يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} [الأعراف: ١١٢]، أي: "ليجمعوا لك كل ساحر واسع العلم بالسحر ماهر به".

قال الطبري: "وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن مشورة الملأ من قوم فرعون على فرعون، أن يرسل في المدائن حاشرين يحشرون كل ساحر عليم".

قال ابن عباس: "حشر له كل ساحر متعالم".

قال النسفي: أي: " مثله في المهارة أو بخير منه".

قوله تعالى: {وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ} [الأعراف: ١١٣]، أي: "فلما جاء السحرة فرعون".

قال النسفي: "يريد: فأرسل إليهم فحضروا.

عن عكرمة قال: "السحرة كانوا سبعين، قال أبو جعفر: أحسبه أنه قال: ألفًا".

قال محمد بن كعب: "السحرة الذين توفاهم الله مسلمين ثمانين ألفا".

وعن أبي سودة، عن كعب قال: "كانت سحرة فرعون اثنى عشر ألفا".

وفي رواية أخرى عن أبي سودة، عن كعب قال: "كانت سحرة فرعون تسعة عشر ألفا".

وعن أبي ثمامة قال: "سحرة فرعون سبعة عشر ألفا".

قال السدي: "كان يعين السحرة بضعة وثلاثين ألفا ليس منهم رجل إلا ومعه حبل

=

=

أو عصا".

قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ} [الأعراف: ١١٣]، أي: "قالوا: أئنَّ لنا لجائزة ومالا إن غَلَبْنا موسى؟.

قال الطبري: "يقول جل ثناؤه: قال فرعون للسحرة، إذ قالوا له: إن لنا عندك ثوابًا إن نحن غلبنا موسى؟.

قال السدي: "يقول: عطية تعطينا {إن كنا نحن الغالبين}.

قال ابن كثير: "يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى -عليه السلام-".

قال ابن عباس: "فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: عمله بالحيات، قالوا: فلا والله ما في الأرض قوم يعملون بالسحر بالحيات والحبال والعصى الذي نعمل، فما أجرنا إن غلبنا؟ قال: فقال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي، وأنا صانع إليكم كما أحببتم".

وعن ابن عباس أيضا: "قال فرعون: لا نغالبه - يعني موسى - إلا بمن هو منه، فأعدّ علماء من بني إسرائيل، فبعث بهم إلى قرية بمصر يقال لها: "الفرما"، يعلمونهم السحر كما يعلم الصبيان الكِتَاب في الكتّاب. قال: فعلموهم سحرًا كثيرًا. قال: وواعد موسى فرعون موعدًا، فلما كان في ذلك الموعد، بعث فرعون، فجاء بهم وجاء بمعلمهم معهم، فقال له: ماذا صنعت؟ قال: قد علمتهم من السحر سحرًا لا يطيقه سحر أهل الأرض، إلا أن يكون أمرًا من السماء، فإنه لا طاقة لهم به، فأما سحر أهل الأرض، فإنه لن يغلبهم. فلما جاءت السحرة قالوا لفرعون: أئن لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين؟ قال: نعم، وإنكم إذًا لمن المقربين".

قال ابن إسحاق: "وبعث فرعون في مملكته، فلم يترك في سلطانه ساحرًا إلا أتي به. فذكر لي، والله أعلم، أنه جمع له خمسة عشر ألف ساحر، فلما اجتمعوا إليه،

=

=

أمرهم أمره، وقال لهم: قد جاءنا ساحرٌ ما رأينا مثله قط، وإنكم إن غلبتموه أكرمتكم وفضلتكم، وقرَّبتكم على أهل مملكتي! قالوا: وإن لنا ذلك إن غلبناه؟ قال: نعم!.

قوله تعالى: {قَالَ نَعَمْ} [الأعراف: ١١٤]، أي: "قال فرعون: نعم لكم الأجر".

قال الطبري: "قال: نعم، لكم ذلك".

قوله تعالى: {وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [الأعراف: ١١٤]، أي: "وأزيدكم على ذلك بأن أجعلكم من المقربين أي من أعزّ خاصتي وأهل مشورتي".

قال الطبري: "وإنكم لممن أقرِّبه وأدْنيه مني".

قال الماتريدي: أي: "في المنزلة والقدر عندي".

قال السمعاني: "أي: لكم المنزلة الرفيعة مع الأجر".

قال الرازي: "أراد: أني لا أقتصر بكم على الثواب بل أزيدكم عليه وتلك الزيادة أني أجعلكم من المقربين عندي".

قال الكلبي: "أول من يدخل علي وآخر من يخرج، يعني السحرة".

قال ابن عباس: "فقال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي، وأنا صانع إليكم كما أحببتم".

قال ابن كثير: أي:"إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاء جزيلا، فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا، ويجعلنهم من جلسائه والمقربين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله".

قوله تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى} [الأعراف: ١١٥]، أي: "قال سحرة فرعون لموسى على سبيل التكبر وعدم المبالاة".

قال الطبري: "يقول: قالت السحرة لموسى: يا موسى".

قوله تعالى: {إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ} [الأعراف: ١١٥]، أي:": يا موسى اختر أن تُلقي عصاك أولا أو نُلقي نحن أولا".

=

=

قال الطبري: أي: "اختر أن تلقي عصاك، أو نلقي نحن عصينا".

قال مقاتل: "ما في أيدينا من الحبال والعصي".

قال أبو الليث: "يعني: إما أن تطرح عصاك على الأرض وإما أن نكون نحن الملقين قبل".

قال ابن كثير: "هذه مبارزة من السحرة لموسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، في قولهم: {إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ}، أي: قَبْلك. كما قال في الآية الأخرى: {وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى} [طه: ٦٥].

قال الزمخشري: "تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين، قبل أن يتخاوضوا في الجدال، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصراع. وقولهم وإما أن نكون نحن الملقين فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر، أو تعريف الخبر وإقحام الفصل".

وفي موضع آخر قال الزمخشري أيضا: "وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه، وتواضع له وخفض جناح، وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم، وكأن الله عز وعلا ألهمهم ذلك، وعلم موسى صلوات الله عليه اختيار إلقائهم أو لا، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب، حتى يبرزوا ما معهم من مكايد السحر ويستنفدوا أقصى طوقهم ومجهودهم، فإذا فعلوا: أظهر الله سلطانه وقذف بالحق على الباطل فدمغه، وسلط المعجزة على السحر فمحقته، وكانت آية نيرة للناظرين، وعبرة بينة للمعتبرين".

قال القرطبي: "تأدبوا مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فكان ذلك سبب إيمانهم".

قال ابن عباس: "اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على السحرة وفرعون هو يوم عاشورا، فلما اجتمعوا في صعيد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا

=

=

الأمر، ونتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين يعني بذلك موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم استهزاء بهما، قالوا يا موسى لقدرتهم بسحرهم: إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين، قال ألقوا،... فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا: بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون، فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله ﷻ إليه أن ألق العصا".

قوله تعالى: {قَالَ أَلْقُوا} [الأعراف: ١١٦]، أي: "قال موسى للسحرة: ألقوا أنتم".

قال السدي: "قال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون!.

قال ابن كثير: "أي: أنتم أولا قبلي. والحكمة في هذا - والله أعلم - ليري الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فُرغ من بهرجهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلي بعد تطلب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس. وكذا كان".

وقال القاسمي " وإنما سوغ لهم التقدم ازدراءًا لشأنهم، وقلة مبالاة بهم، وثقةً بما كان بصدده من التأييد الإلهي، وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبدًا.

قوله تعالى: {فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ} [الأعراف: ١١٦]، أي: "فلما ألقوا الحبال والعصيَّ سحروا أعين الناس، فخُيِّل إلى الأبصار أن ما فعلوه حقيقة، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال".

قال الطبري: "فلما ألقوا ذلك، خيلوا إلى أعين الناس بما أحدثوا من التخييل والخُدَع أنها تسعى".

قال ابن كثير: " أي: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى: {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ

=

=

السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [طه: ٦٦: ٦٩].

قال السدي: "فألقوا حبالهم وعصيهم! وكانوا بضعة وثلاثين ألف رجل، ليس منهم رجل إلا معه حبل وعصا".

قال ابن عباس: "ألقوا حبالا غلاظًا طوالا وخشبًا طوالا قال: فأقبلت يخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى".

قوله تعالى: {وَاسْتَرْهَبُوهُمْ} [الأعراف: ١١٦]، أي: "وأرهبوا الناس إرهابًا شديدًا يث خيلوها حياتٍ تسعى".

قال السدي: "يقول: فرَّقوهم ، فأوجس في نفسه خيفة موسى".

قال مقاتل: "يعنى: وخوفوهم".

قال أبو عبيدة: "وهو من (الرهبة)، [أي]: خوفوهم".

قال الزجاج: "أي: استدعوا رهبَتَهُم حتى رهبهم الناس".

قال الطبري: "يقول: واسترهبوا الناس بما سحروا في أعينهم، حتى خافوا من العصيّ والحبال، ظنًّا منهم أنها حيات".

قوله تعالى: {وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [الأعراف: ١١٦]، أي: "وجاؤوا بسحر قوي كثير".

قال الطبري: "بتخييل عظيم كبير، من التخييل والخداع.

قال الصابوني: أي: "يهابه من رآه".

قال ابن إسحاق: "صفّ خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيه. وخرج موسى معه أخوه يتكئ على عصاه حتى أتى الجمعَ، وفرعونُ في مجلسه مع أشراف مملكته، ثم قالت السحرة: {يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} [طه: ٦٥ - ٦٦]، فكان أوّل ما اختطفوا بسحرهم بصرَ موسى وبصرَ فرعون، ثم

=

=

أبصارَ الناس بعدُ. ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من العصيّ والحبال، فإذا هي حيات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادي يركبُ بعضها بعضًا {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى}، [طه: ٦٧]، وقال: والله إن كانت لعصيًّا في أيديهم، ولقد عادت حيات! وما تعدو عصايَ هذه! أو كما حدّث نفسه".

قال القاسم بن أبي بزة: "جمع فرعون سبعين ألف ساحر، وألقوا سبعينَ ألف حبل، وسبعين ألف عصًا، حتى جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى".

قوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ} [الأعراف: ١١٧]، أي: "وأوحى الله إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرَّق الله فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يُلقي ما في يمينه وهي عصاه".

قال ابن كثير: "يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى، عليه السلام، في ذلك الموقف العظيم، الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه".

قال ابن عباس: "وعصى موسى اسمها: «ماسا»، وهي مع يوشع بن نون".

قوله تعالى: {فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} [الأعراف: ١١٧]، أي: "فألقاها فإذا هي تبلع ما يلقونه، ويوهمون الناس أنه حق وهو باطل".

قال ابن كثير:"أي: تأكل ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل.

قال الطبري: "فألقاها فاذا هي تلقم وتبتلع ما يسحرون كذبًا وباطلا".

قال الزجاج: "معنى قوله {يَأْفِكُونَ}: أي: يأتون بالإفك وهو الكذب، وذلك أنهم زعَموا أن حبَالهم وعصيهم حيات فكذبوا في ذلك، وإنما قيل إنهم جعلوا الزئبق وصوَّروها بصوَر الحيَّات، فاضطرب الزئبق لأنه لا يستقر".

قال الزمخشري: "{ما يَأْفِكُونَ} ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم، ويزوّرونه فيخيلون في حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى، بالتمويه على الناظرين

=

=

أو إفكهم: سمى تلك الأشياء إفكا مبالغة. روى أنهم قالوا: إن يك ما جاء به موسى سحرا فلن يغلب، وإن كان من عند الله فلن يخفى علينا، فلما قذف عصاه فتلقفت ما أتوا به، علموا أنه من الله فآمنوا".

عن مجاهد: " {يأفكون}، قال: يكذبون".

عن الحسن: " {تلفق ما يأفكون}، قال: حيالهم وعصيهم، تسترطها استراطا".

قال قتادة: "فألقى موسى عصاه، فتحولت حية، فأكلت سحرهم كله".

قال ابن عباس: "فألقى عصاه فإذا هي حية تلقف ما يأفكون، لا تمر بشيء من حبالهم وخُشُبهم التي ألقوها إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا أمرٌ من السماء، وليس هذا بسحر، فخرُّوا سجَّدًا وقالوا: {آمنا بربّ العالمين* رب موسى وهارون}.

وعن ابن عباس أيضا: "فجعلت العصا بدعوة موسى تلتبس بالحبال، فصارت جرزا إلى الثعبان حتى تدخل فيه حتى ما بقيت عصا ولا حبل إلا ابتلعته".

قال السدي: "أوحى الله إلى موسى: لا تخف، وألق ما في يمينك تلقف ما يأفكون. فألقى عصاه، فأكلت كل حية لهم. فلما رأوا ذلك سجدوا، وقالوا: آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون".

قال ابن إسحاق: "أوحى الله إليه: أن ألق ما في يمينك! فألقى عصاه من يده، فاستعرضَت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم، وهي حيات في عين فرعون وأعين الناس تسعى، فجعلت تلقفها، تبتلعها، حية حية، حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوه. ثم أخذها موسى، فإذا هي عصاه في يده كما كانت، ووقع السحرة سجدًا قالوا: "آمنا برب العالمين رب موسى وهارون. لو كان هذا سحرا ما غلبنا"!.

عن القاسم بن أبي بزة قال: "أوحى الله إليه: أن ألق عصاك! فألقى عصاه، فاذا هي

=

ثعبان فاغرٌ فاه، فابتلع حبالهم وعصيهم. فألقي السحرة عند ذلك سجّدًا، فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنارَ وثوابَ هلهما".

قال الآلوسي: قوله تعالى (فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) أي: فألقاها فصارت حية فإذا هي الخ، وإنما حذف للإيذان بمسارعة موسى عليه السلام إلى الإلقاء وبغاية سرعة الانقلاب كأن لقفها لما يأفكون قد حصل متصلًا بالأمر بالإلقاء.

قوله تعالى: {فَوَقَعَ الْحَقُّ} [الأعراف: ١١٨]، أي: "فظهر الحق واستبان لمن شهده وحضره في أمر موسى عليه السلام، وأنه رسول الله يدعو إلى الحق".

قال ابن عباس ومجاهد: "ظهر الحق".

وفي رواية عن السدي: "ظهر موسى".

قال مقاتل: "يعني: فظهر الحق بأنه ليس بسحر".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فظهر الحق وتبين لمن شهده وحضره في أمر موسى، وأنه لله رسول يدعو إلى الحق".

قوله تعالى: {وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١١٨]، أي: "وبطل الكذب الذي كانوا يعملونه".

قال الطبري: أي: "من إفك السحر وكذبه ومخايله".

قال مقاتل: "يعني: بطل ما كانوا يعملون من السحر".

قال ابن عباس: "فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه".

قال مجاهد" وذهب الإفك الذي كانوا يعملون".

قوله تعالى: {فَغُلِبُوا هُنَالِكَ} [الأعراف: ١١٩]، أي: "فغُلِبَ جميع السحرة في مكان اجتماعهم".

قال مقاتل: "يعني: عند ذلك".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فغلب موسى فرعون وجموعه عند ذلك".

=

قوله تعالى: {وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ} [الأعراف: ١١٩]، أي: "وانصرف فرعون وقومه أذلاء مقهورين مغلوبين".

قال أبو الليث: "يعني: رجعوا ذليلين".

قال البغوي: أي: "ذليلين مقهورين".

قال الزمخشري: أي: "وصاروا أذلاء مبهوتين".

قال الطبري: "يقول: وانصرفوا عن موطنهم ذلك بصغر مقهورين".

قال مقاتل: "يعني: فرجعوا إلى منازلهم مذلين".

قال البيضاوي: "أي: صاروا أذلاء مبهوتين، أو رجعوا إلى المدينة أذلاء مقهورين، والضمير لفرعون وقومه".

قوله تعالى: {وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ} [الأعراف: ١٢٠]، أي: "وخَرَّ السحرة سُجَّدًا على وجوههم لله رب العالمين لِمَا عاينوا من عظيم قدرة الله".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وألقي السحرة عندما عاينوا من عظيم قدرة الله، ساقطين على وجوههم سجَّدًا لربهم".

قال الواحدي: "خرُّوا لله عابدين سامعين مطيعين".

قال الثعلبي: "حيث عرفوا أن ذلك أمر سماوي وليس سحرا".

قال سعيد بن جبير: "رأوا منازلهم تبنى لهم وهم في سجودهم".

قال ابن عباس: "لما رأت السحرة ما رأت، عرفت أن ذلك أمر من السماء وليس بسحر، فخروا سجدًا، وقالوا: {آمنا برب العالمين* رب موسى وهارون}.

قال مقاتل: "ألقاهم الله".

قال البغوي والثعلبي: "قيل: ألهمهم الله أن يسجدوا فسجدوا".

وقال الأخفش: "من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا".

قال السمعاني: "قيل: إن موسى وهارون سجدا شكرا لله - تعالى - فوافقهم

=

=
السحرة".
قال الزمخشري: "كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم. وقيل: لم يتمالكوا مما رأوا، فكأنهم ألقوا".
قتادة: "كانوا أول النهار كفارا سحرة، وفي آخره شهداء بررة".
وعن الحسن. "تراه ولد في الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا، وهؤلاء كفار نشأوا في الكفر، بذلوا أنفسهم لله".
قال أبو الليث: "قال بعض الحكماء: إن سحرة فرعون كانوا كفروا خمسين سنة فغفر لهم بإقرار واحد وبسجدة فكيف بالذي أقر وسجد خمسين سنة كيف لا يرجو رحمته ومغفرته؟.
قوله تعالى: {قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ١٢١]، أي: "قال السحرة: صدقنا واعترفنا برب العالمين".
قال الطبري: "يقولون: صدقنا بما جاءنا به موسى، وأنّ الذي علينا عبادته، هو الذي يملك الجنّ والإنس وجميع الأشياء، وغير ذلك، ويدبر ذلك كله".
قال الزجاج: "فسلموا الأمر لله وتبين لهم ما لا يدفع".
قال ابن عباس: "فلما عرف السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحرا لم يبلغ من سحرنا كل هذا ولكن هذا أمر من الله آمنا بالله وبما جاء به موسى ونتوب إلى الله مما كنا عليه".
قال ابن عطية: "لما رأى السحرة من عظيم القدرة وما تيقنوا به نبوة موسى آمنوا بقلوبهم وانضاف إلى ذلك الاستهوال والاستعظام والفزع من قدرة الله تعالى فخروا سجدا لله تعالى متطارحين وآمنوا نطقا بألسنتهم".
- قال السعدي: وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته، ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة
=

=

من آيات اللّه لا يدان لأحد بها.

- وقال الشنقيطي: وَاعْلَمْ أَنَّ عِلْمَ السِّحْرِ مَعَ خِسَّتِهِ، وَأَنَّ اللهَ صَرَّحَ بِأَنَّهُ لَا يَضُرُّ، وَلَا يَنْفَعُ، قَدْ كَانَ سَبَبًا لِإِيمَانِ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ. لِأَنَّهُمْ لِمَعْرِفَتِهِمْ بِالسِّحْرِ عَرَفُوا مُعْجِزَةَ الْعَصَا خَارِجَةً عَنْ طَوْرِ السِّحْرِ، وَأَنَّهَا أَمْرٌ إِلَهِيٌّ فَلَمْ يُدَاخِلْهُمْ شَكٌّ فِي ذَلِكَ. فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِإِيمَانِهِمُ الرَّاسِخِ الَّذِي لَا يُزَعْزِعُهُ الْوَعِيدُ، وَالتَّهْدِيدُ. وَلَوْ كَانُوا غَيْرَ عَالِمِينَ بِالسِّحْرِ جِدًّا، لَأَمْكَنَ أَنْ يَظُنُّوا أَنَّ مَسْأَلَةَ الْعَصَا مِنْ جِنْسِ الشَّعْوَذَةِ. وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى.

- **قال ابن عاشور**: والإلقاء: مستعمل في سرعة الهُوِي إلى الأرض، أي: لم يتمالكوا أن سجدوا بدون تريث ولا تردد.

قوله تعالى: {رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [الأعراف: ١٢٢]، أي: "وهو رب موسى وهارون".

قال الطبري: أي: "لا فرعون".

قال الخازن: "وإنما قالوا: {رب موسى وهارون}، لأن فرعون كان يدعي الربوبية فأرادوا عزله".

قال البيضاوي: "إبدال للتوضيح ودفع التوهم والإشعار على أن الموجب لإيمانهم ما أجراه على أيديهما".

قال الماتريدي: "قال بعض أهل التأويل: إنهم لما قالوا: آمنا برب العالمين، قال لهم فرعون: إياي تعنون، فعند ذلك قالوا: لا، ولكن رب موسى وهارون، ولكن لا ندري هذا، وموسى أول ما جاء فرعون ودعاه إلى دينه قال له: {إني رسول من رب العالمين}، فلا يحتمل أن يشكل عليه قولهم: {آمنا برب العالمين} وإنهم إياه عنوا بذلك، وجائز أن يكون آمنا برب الذي أرسل موسى وهارون رسولا".

قال الشوكاني: "وإنما قالوا هذه المقالة وصرحوا بأنهم آمنوا برب العالمين، ثم لم

=

=

يكتفوا بذلك حتى قالوا: {رب موسى وهارون}، لئلا يتوهم متوهم من قوم فرعون المقرين بإلهيته أن السجود له".

قال ابن عطية: "وتبينهم الرب بذكر موسى وهارون زوال عن ربوبية فرعون وما كان يتوهم فيه الجهال من أنه رب الناس، وهارون أخو موسى أسن منه بثلاث سنين".

قال ابن عباس: "لما رأت السحرة ما رأت، عرفت أن ذلك أمر من السماء وليس بسحر، فخروا سجدًا، وقالوا: {آمنا برب العالمين* رب موسى وهارون}.

قال قتادة: "ذكر لنا أن السحرة قالوا حين اجتمعوا إن يكن ما جاء به موسى سحرا فلن نغلب وإن يكن من الله فلن يخفى علينا فلما قذف عصاه تلقفت ما أفكوا من سحرهم وجاءوا به من حبالهم وعصيهم علموا أنه من الله فألقى السحرة عند ذلك اجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون".

قال محمد بن إسحاق: "وكان من رؤوس السحرة الذي جمع فرعون لموسى فيما بلغني سابور، وعاذور، وحصحط، ومصفى أربعة هم الذين آمنوا حين رأوا ما رأوا من سلطان الله فآمنت معهم السحرة جميعا".

قوله تعالى: {قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ} [الأعراف: ١٢٣]، أي: "قال فرعون للسحرة: آمنتم بالله قبل أن آذن لكم بالإيمان به؟.

قال الطبري: "يقول: أصدقتم بموسى وأقررتم بنبوّته، {قبل أن آذن لكم}، بالإيمان به".

قال الزمخشري: "{آمَنْتُمْ بِهِ} على الإخبار، أى: فعلتم هذا الفعل الشنيع، توبيخا لهم وتقريعًا. وقرئ: (أآمنتم)، بحرف الاستفهام، ومعناه الإنكار والاستبعاد".

قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا} [الأعراف: ١٢٣]، أي: "إن إيمانكم بالله وتصديقكم لموسى وإقراركم بنبوته لحيلة

=

=

احتلتموها أنتم وموسى؛ لتخرجوا أهل مدينتكم منها، وتكونوا المستأثرين بخيراتها".

قال الطبري: "يقول: تصديقكم إياه، وإقراركم بنبوّته {لمكر مكرتموه في المدينة}، يقول لخدعة خدعتم بها من في مدينتنا، لتخرجوهم منها".

قال الزمخشري: "إن صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء قد تواطأتم على ذلك لغرض لكم، وهو أن تخرجوا منها القبط وتسكنوها بنى إسرائيل، وكان هذا الكلام من فرعون تمويها على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان. وروى أن موسى عليه السلام قال للساحر الأكبر: أتؤمن بى إن غلبتك؟ قال لآتين بسحر لا يغلبه سحر. وإن غلبتني لأومنن بك، وفرعون يسمع، فلذلك قال ما قال".

قال ابن كثير: "أي: إن غَلَبَه لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى: {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ} [طه: ٧٠] وهو يعلم وكلّ من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى، عليه السلام، بمجرد ما جاء من "مَدْين" دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملة سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملأ من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل. وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى، عليه السلام، لا يعرف أحدا منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تسترا وتدليسا على رعاع دولته وجَهَلتهم، كما قال تعالى: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} [الزخرف: ٥٤] فإن قوما صدّقوه في قوله: {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} [النازعات: ٢٤] من أَجْهَل خلق الله وأضلهم".

=

=

عن السدي: "قال فرعون:... {إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة} إذ التقيتما لتتظاهرا فتخرجا منها أهلها".

قال ابن كثير: وهو يعلم وكلّ من له لب، أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى، عليه السلام، بمجرد ما جاء من "مَدْين" دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملة سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملأ من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل، وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى، عليه السلام، لا يعرف أحدا منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تسترًا وتدليسًا على رعاع دولته وجَهَلتهم، كما قال تعالى (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ) فإن قوما صدّقوه في قوله (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى) من أجْهَل خلق الله وأضلهم.

- وقال السعدي: وهذا كذب يعلم هو ومن سبر الأحوال، أن موسى عليه السلام لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهية، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى، حتى عجزوا، وتبين لهم الحق، فاتبعوه.

قوله تعالى: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ١٢٣]، أي: "فسوف تعلمون -أيها السحرة- ما يحلُّ بكم من العذاب والنكال".

قال ابن كثير: "أي: ما أصنع بكم".

قال الطبري: أي:"ما أفعل بكم، وما تلقون من عقابي إياكم على صنيعكم هذا".

قال الخازن: الآية" فيه وعيد مطلق وتهديد شديد".

أخرج الطبري عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: "التقى

=

=

موسى وأميرُ السحرة، فقال له موسى: أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي، وتشهد أنّ ما جئت به حق؟ قال الساحر: لآتين غدًا بسحر لا يغلبه سحر، فوالله لئن غلبتني لأومنن بك، ولأشهدن أنك حق! وفرعون ينظر إليهم، فهو قول فرعون: {إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة}، إذ التقيتما لتتظاهرا فتخرجا منها أهلها".

قوله تعالى: {لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ} [الأعراف: ١٢٤]، أي: "لأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم -أيها السحرة- من خلاف: بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو اليد اليسرى والرجل اليمنى".

قال الطبري: "وذلك أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى، فيخالف بين العضوين في القَطْع، فمخالفته في ذلك بينهما هو «القطع من خلاف»، ويقال: إن أوّل من سن هذا القطع فرعون".

قال ابن كثير: "يعني: يقطع يد الرّجُل اليمنى ورجْله اليسرى أو بالعكس".

قال السدي: "فقتلهم وقطعهم كما قال".

قال أبو حيان: "قوله تعالى (لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ..) لما ظهرت الحجة عاد إلى عادة ملوك السوء إذا غلبوا من تعذيب من ناوأهم وإن كان محقًّا".

قوله تعالى: {ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأعراف: ١٢٤]، أي: "ثم لأعلقنَّكم جميعًا على جذوع النخل؛ تنكيلا بكم وإرهابًا للناس".

قال الطبري: "وإنما قال هذا فرعون، لما رأى من خذلان الله إياه، وغلبة موسى عليه السلام وقهره له".

قال ابن عباس: "أوّل من صلّب، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف، فرعون".

قال سعيد بن جبير: "وكان أول من قطع الأيدي والأرجل وصلب فرعون".

قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ} [الأعراف: ١٢٥]، أي: "قال السحرة

=

=

لفرعون: قد تحققنا أنَّا إلى الله راجعون وعذابه أشد من عذابك".

قال الطبري: "قال السحرة مجيبة لفرعون، إذ توعَّدهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف، والصلب: {إنا إلى ربّنا منقلبون}، يعني: بالانقلاب إلى الله، الرجوع إليه والمصير".

قال ابن كثير: "أي: قد تحققنا أنا إليه راجعون، وعذابه أشد من عذابك، ونكاله ما تدعونا إليه، وما أكرهتنا عليه من السحر، أعظم من نكالك، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله.

قال سعيد بن جبير: "يعني: إنا إلى ربنا راجعون".

- قال السمرقندي: أي: لا نبالي من عقوبتك وفعلك فإن مرجعنا إلى الله تعالى يوم القيامة.

- **قال ابن عطية:** هذا تسليم من مؤمني السحرة، واتكال على الله، وثقة بما عنده.

- قال أبو حيان: وفي قولهم (إلى ربنا) تبرؤ من فرعون ومن ربوبيته وفي الشعراء لا ضير.

- **قال ابن عاشور:** والانقلابُ: الرجوع وقد تقدم قريبًا.

وهذا جواب عن وعيد فرعون بأنه وعيد لا يضيرهم، لأنهم يعلمون أنهم صائرون إلى الله رب الجميع، وقد جاء هذا الجواب موجزًا إيجازًا بديعًا لأنه يتضمن أنهم يرجون ثواب الله على ما ينالهم من عذاب فرعون، ويرجون منه مغفرة ذنوبهم، ويرجون العقابَ لفرعون على ذلك

(وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا) أي: وما تعيب علينا، وما تنكر منا إلا إيماننا بالله تعالى.

قوله تعالى: {وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا} [الأعراف: ١٢٦]، أي: "ولستَ تعيب منا وتنكر -يا فرعون- إلا إيماننا وتصديقنا بحجج ربنا وأدلته

=

=

التي جاء بها موسى".

قال مقاتل: "يعني: وما نقمت {منا إلا أن آمنا بآيات ربنا}، يعني: صدقنا باليد والعصا، آيتان من ربنا لما جاءتنا".

قال الطبري: "يقول: ما تنكر منا، يا فرعون، وما تجد علينا، إلا من أجل أن صدقنا بحجج ربّنا وأعلامه وأدلته التي لا يقدر على مثلها أنت ولا أحد، سوى الله، الذي له ملك السموات والأرض".

قوله تعالى: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا} [الأعراف: ١٢٦]، أي: "ربنا أَفِضْ علينا صبراً عظيمًا وثباتا عليه".

قال مقاتل: "يعنى: ألق علينا صبرا عند القطع والصلب".

قال أبو عبيدة: أي: " أنزل علينا".

قال الزجاج: "أي: أصْبُبْ علينا الصبرَ صبًّا، كما تقول: أفرغتُ الإناءَ إذا صببْتُ ما فيه".

قال الطبري: "ثم فزعوا إلى الله بمسألته الصبرَ على عذاب فرعون، وقبض أرواحهم على الإسلام فقالوا: {ربنا أفرغ علينا صبراً}، يعنون بقولهم: {أفرغ}، أنزل علينا حَبْسًا يحبسنا عن الكفر بك، عند تعذيب فرعون إيانا".

قال ابن كثير: "أي: عمنا بالصبر على دينك، والثبات عليه".

قال السعدي: ثم دعوا اللّه أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا (رَبَّنَا أَفْرِغْ) أي: أفض (عَلَيْنَا صَبْرًا) أي: عظيمًا، كما يدل عليه التنكير، لأن هذه محنة عظيمة، تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير، ليثبت الفؤاد، ويطمئن المؤمن على إيمانه، ويزول عنه الانزعاج الكثير.

قوله تعالى: {وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} [الأعراف: ١٢٦]، أي: "وتوفَّنا منقادين لأمرك متبعين رسولك".

=

=

قال الطبري: "يقول: واقبضنا إليك على الإسلام دين خليلك إبراهيم ﷺ، لا على الشرك بك".

قال ابن كثير: "أي: متابعين لنبيك موسى، عليه السلام. وقالوا لفرعون: {فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُالدَّرَجَاتُ الْعُلا} [طه: ٧٢ - ٧٥] فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء بررة".

قال مقاتل: "{وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}، يعني: مخلصين لله حتى لا يردنا البلاء عن ديننا فصلبهم فرعون من يومه فكانوا أول النهار سحرة كفارا وآخر النهار شهداء مسلمي".

قال السدي: "فقتلهم وصلبهم، كما قال عبد الله بن عباس، حين قالوا: {ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفّنا مسلمين}. قال: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء".

قال قتادة: "ذكر لنا أنهم كانوا في أوّل النهار سحرة، وآخره شهداء". وروي عن مجاهد، وعبيد بن عمير مثل ذلك.

- **قال ابن عاشور**: ودعوا لأنفسهم بالوفاة على الإسلام إيذانًا بأنهم غير راغبين في الحياة، ولا مبالين بوعيد فرعون، وأن همتهم لا ترجو إلاّ النجاة في الآخرة، والفوزَ بما عند الله، وقد انخذل بذلك فرعون، وذهب وعيده باطلًا، ولعله لم يحقق ما توعدهم به لأن الله أكرمهم فنجاهم من خزي الدنيا كما نجاهم من عذاب الآخرة.

والقرآن لم يتعرض هنا، ولا في سورة الشعراء، ولا في سورة طه، للإخبار عن وقوع ما توعدهم به فرعون لأن غرض القصص القرآنية هو الاعتبار بمحل العبرة،

=

=

وهو تأييد الله موسى وهداية السحرة وتصلبهم في إيمانهم بعد تعرضهم للوعيد بنفوس مطمئنّة.

وليس من غرض القرآن معرفة الحوادث كما قال في سورة النازعات (إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) فاختلاف المفسرين في البحث عن تحقيق وعيد فرعون زيادة في تفسير الآية.

والظاهر أن فرعون أفحم لما رأى قلة مبالاتهم بوعيده فلم يُرد جوابًا.

- هذا ما قاله السحرة هنا في سورة الأعراف:

وقالوا كما قال تعالى في سورة طه:

(قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥)).

وقالوا كما في سورة الشعراء (قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ).

مباحث:

أولًا: اختلف العلماء هل فعل بهم فرعون ذلك أم لا على قولين:

قيل: إنه فعل بهم ذلك.

واختاره ابن كثير. لأن هذا هو الظاهر، ولأن الله لم يذكر أنه لم يقتلهم، وأيضًا الأصل أن الطاغية يفعل ذلك

كما فعل الطغاة في كثير من الأزمان بالمسلمين، ولأنه لم يرد دليل على أنه لم يفعل بهم.

قال ابن عباس: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء.

=

وقيل: لم يفعل. واختاره الشنقيطي، وقال: وَأَظْهَرُهُمَا عِنْدِي: أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْهُمْ، وَأَنَّ اللهَ عَصَمَهُمْ مِنْهُ لِأَجْلِ إِيمَانِهِمُ الرَّاسِخِ بِاللهِ تَعَالَى. لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ لِمُوسَى وَهَارُونَ (أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ) وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى.

ثانيًا: قوله تعالى (وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ).

قال الشنقيطي: يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ الْبُرْهَانِ الَّذِي عَايَنُوهُ. كَأَنَّهُمْ أَمْسَكَهُمْ إِنْسَانٌ وَأَلْقَاهُمْ سَاجِدِينَ بِالْقُوَّةِ لِعِظَمِ الْمُعْجِزَةِ الَّتِي عَايَنُوهَا. وَذَكَرَ فِي قِصَّتِهِمْ أَنَّهُمْ عَايَنُوا مَنَازِلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ فِي سُجُودِهِمْ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ نَوْعِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ.

ثالثًا: وَأَطْلَقَ عَلَيْهِمُ اسْمَ السَّحَرَةِ فِي حَالِ سُجُودِهِمْ لِلَّهِ مُؤْمِنِينَ بِهِ نَظَرًا إِلَى حَالِهِمُ الْمَاضِيَةِ. كَقَوْلِهِ (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ) فَأَطْلَقَ عَلَيْهِمُ اسْمَ الْيُتْمِ بَعْدَ الْبُلُوغِ نَظَرًا إِلَى الْحَالِ الْمَاضِيَةِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي مَحَلِّهِ.

رابعًا: قال هنا في الأعراف (رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ) وفي طه (رب هارون وموسى).

قيل: قدم هارون هنا على موسى لمراعاة فواصل الآيات.

وقيل: إن بعضهم قالوا كذا، وبعضهم قال كذا، لأنهم كثير، وكل قال قولًا يظهر أنه مؤمن برب موسى وهارون، لكن كل بمعرفته، والله أعلم.

خامسًا: قال تعالى عن فرعون (وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى) اختلف في المراد:

فقيل (وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا) يعني أنا، أم رب موسى أشد عذابًا وأبقى.

واقتصر على هذا القرطبي.

وَعَلَيْهِ فَفِرْعَوْنُ يَدَّعِي أَنَّ عَذَابَهُ أَشَدُّ وَأَبْقَى مِنْ عَذَابِ اللهِ. وَهَذَا كَقَوْلِهِ (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)، وَقَوْلِهِ (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) وَقَوْلِهِ (لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ).

وقيل (لتعلمن أينا) يعني أنا، أم موسى أشد عذابًا وأبقى.

وعَلَى هَذَا فَهُوَ كَالتَّهَكُّمِ بِمُوسَى لِاسْتِضْعَافِهِ لَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَ مَنْ لَمْ =

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧).

{وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ} لَهُ {أَتَذَرُ} تَتْرُك {مُوسَى وَقَوْمه لِيُفْسِدُوا فِي

=

يُطِعْهُ. كَقَوْلِهِ (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ) وَاللهُ جَلَّ وَعَلَا أَعْلَمُ.

سادسًا: قولهم (قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا) أي لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين. (وَالَّذِي فَطَرَنَا): قيل: معطوفة على ما سبق أي: لن نختارك على ما جاءنا من البينات ولا على الذي فطرنا: أي خلقنا وأوجدنا من العدم.

وقيل: هو قسم أَيْ: وَالَّذِي فَطَرَنَا لَا نُؤْثِرُكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ فَاقْضِ مَا أَيِ: اصْنَعْ مَا أَنْتَ صَانِعٌ. فَلَسْنَا رَاجِعِينَ عَمَّا نَحْنُ عَلَيْهِ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا أَيْ: إِنَّمَا يَنْفُذُ أَمْرُكَ فِيهَا.

سابعًا: قولهم (وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ) فإن قيل: كيف قالوا: وما أكرهتنا عليه من السحر، مع أنه دلت آيات أخرى أنهم فعلوا ذلك طائعين غير مكرهين؟

قيل: إنه كان يكرههم على تعليم أولادهم السحر.

وقيل: أنه أكرههم على الشخوص من أماكنهم ليعارضوا موسى بسحرهم، وهذا أصح.

ثامنًا: ما معنى (وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

أكثر الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى: أَنَّ ثَوَابَهُ خَيْرٌ مِمَّا وَعَدَهُمْ فِرْعَوْنُ فِي قَوْلِهِ (قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ). وَأَبْقَى: أَيْ: أَدْوَمُ. لِأَنَّ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ فِرْعَوْنُ زَائِلٌ، وَثَوَابُ اللهِ بَاقٍ. كَمَا قَالَ تَعَالَى (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ) وَقَالَ تَعَالَى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى).

الْأَرْض} بِالدُّعَاءِ إِلَى مُخَالَفَتك {وَيَذَرك وَآلِهَتك} وَكَانَ صَنَعَ لَهُمْ أَصْنَامًا صِغَارًا يَعْبُدُونَهَا وَقَالَ أَنَا رَبّكُمْ وَرَبّهَا وَلِذَا قَالَ أَنَا رَبّكُمْ الْأَعْلَى {قَالَ سَنُقَتِّلُ} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف {أَبْنَاءَهُمْ} الْمَوْلُودِينَ {وَنَسْتَحْيِي} نَسْتَبْقِي {نِسَاءَهُمْ} كَفِعْلِنَا بِهِمْ مِنْ قَبْل {وَإِنَّا فَوْقهمْ قَاهِرُونَ} قَادِرُونَ فَفَعَلُوا بِهِمْ ذَلِكَ فَشَكَا بَنُو إِسْرَائِيل.

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨).

{قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاَللهِ وَاصْبِرُوا} عَلَى أَذَاهُمْ {إِنَّ الْأَرْض لِلَّهِ يُورِثهَا} يُعْطِيهَا {مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَاده وَالْعَاقِبَة} الْمَحْمُودَة {لِلْمُتَّقِينَ} الله.

قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩).

{قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْل أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْد مَا جِئْتنَا قَالَ عَسَى رَبّكُمْ أَنْ يُهْلِك عَدُوّكُمْ وَيَسْتَخْلِفكُمْ فِي الْأَرْض فَيَنْظُر كَيْفَ تعملون} فيها[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ} [الأعراف: ١٢٧]، أي: "وقال السادة والكبراء من قوم فرعون لفرعون مخاطبين له بعدما شاهدوا من أمر موسى عليه السلام ما شاهدوا.

قال الطبري: "وقالت جماعة رجال من قوم فرعون لفرعون".

قال أبو مالك: "{الملأ}، يعني: الأشراف من قومه".

- **قال ابن عاشور:** فإنهم لمّا رأوا قلة اكتراث المؤمنين بوعيد فرعون، ورأوا قلة اكتراث المؤمنين بوعيد فرعون، ورأوا نهوض حجتهم على فرعون وإفحامَه، وأنه لم يَحرْ جَوَابًا، راموا إيقاظ ذهنه، وإسعارَ حميته، فجاءوا بهذا الكلام المثير =

=

لغضب فرعون، ولعلهم رأوا منه تأثرًا بمعجزة موسى وموعظة الذين آمنوا من قومه وتوقعوا عدوله عن تحقيق وعيده، فهذه الجملة معترضة بين ما قبلها وبين جملة (قال موسى لقومه استعينوا بالله)، والاستفهام في قوله (أتذر موسى) مستعمل في الإغراء بإهلاك موسى وقومه والإنكار على الإبطاء بإتلافهم، وموسى مفعول (تذر) أي تتركه متصرفًا ولا تأخذ على يده.

- قال الرازي: اعلم أن بعد وقوع هذه الواقعة لم يتعرض فرعون لموسى ولا أخذه ولا حبسه، بل خلى سبيله فقال قومه له (أَتَذَرُ موسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأرض).

واعلم أن فرعون كان كلما رأى موسى خافه أشد الخوف، فلهذا السبب لم يتعرض له إلا أن قومه لم يعرفوا ذلك، فحملوه على أخذه وحبسه.

- قال الماوردي: فإن قيل: فما وجه إقدامهم على الإنكار على فرعون مع عبادتهم له؟ قيل: لأنهم رأوا منه خلاف عادته وعادة الملوك في السطوة بمن أظهر العناد وخالف، وكان ذلك من لطف الله بموسى.

قوله تعالى: {أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ} [الأعراف: ١٢٧]، أي: "أَتَدَعُ موسى وقومه من بني إسرائيل ليفسدوا الناس في أرض «مصر» بتغيير دينهم بعبادة الله وحده لا شريك له".

قال الطبري: "أتدع موسى وقومه من بني إسرائيل كي يفسدوا خدمك وعبيدك عليك في أرضك من مصر".

قال ابن كثير: "أي: أتدعهم ليفسدوا في الأرض، أي: يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك، يالله للعجب! صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون، ولكن لا يشعرون".

قال الماوردي: قوله تعالى (لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ) من وجهين:

=

=

أحدهما: ليفسدوا فيها بعبادة غيرك والدعاء إلى خلاف دينك.

والثاني: ليفسدوا فيها بالغلبة عليها وأخذ قومه منها.

قوله تعالى: {وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [الأعراف: ١٢٧]، أي: "وترك عبادتك وعبادة آلهتك؟.

قال الطبري:"يقول: ويدع خِدْمتك موسى وعبادتك وعبادة آلهتك".

قال ابن عباس: "قال: يترك عبادتك". وروي عن مجاهد نحو ذلك.

وقال السدي:"وآلهته فيما زعم ابن عباس، كانت البقر، كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم أن يعبدوها، فلذلك أخرج لهم عِجْلا وبقرة".

وقال الحسن: "كان لفرعون جمانة معلقة في نحره، يعبدها ويسجد لها".

وعن الحسن أيضا: "بلغني أن فرعون كان يعبدُ إلهًا في السر، وقرأ: {ويذرك والهتك}.

وروي عن ابن عباس أنه قرأ، " «ويَذَرَكَ وإِلاهَتَكَ»، قال: وعبادتك، ويقول: إنه كان يُعْبَد ولا يَعْبُد".

وفي قوله تعالى: {وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [الأعراف: ١٢٧]، وجهان من التأويل:

أحدهما: أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، وقد تركك وترك عبادتك وعبادة آلهتك.

وإذا وجه الكلام إلى هذا الوجه من التأويل، كان النصبُ في قوله: «ويذرك»، على الصرف، لا على العطف به على قوله: «ليفسدوا».

والثاني: أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، وليذرك وآلهتك، كالتوبيخ منهم لفرعون على ترك موسى ليفعل هذين الفعلين.

وإذا وجِّه الكلام إلى هذا الوجه، كان نصب: «ويذرك» على العطف على «ليفسدوا».

=

=

قال أبو جعفر الطبري: "والوجه الأول أولى الوجهين بالصواب، وهو أن يكون نصب «ويذرك» على الصرف، لأن التأويل من أهل التأويل به جاء".

في حرف أبي بن كعب: «وقَدْ تَرَكُوكَ أَنْ يَعْبُدُوكَ وآلِهَتَكَ».

وقد روي عن الحسن البصري أنه كان يقرأ ذلك: «وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ»، عطفًا بقوله: {ويذرك} على قوله: {أتذر موسى}.

قال الطبري: "كأنه وجَّه تأويله إلى: أتذر موسى وقومه، ويذرك وآلهتك، ليفسدوا في الأرض. وقد تحتمل قراءة الحسن هذه أن يكون معناها: أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، وهو يذرك وآلهتك؟ فيكون «يذرك» مرفوعًا بابتداء الكلام والسلامة من الحوادث".

روي عن ابن عباس ومجاهد أنهما كانا يقرآنها: «وَيَذَرَكَ وَإِلاهَتَكَ» بكسر الألف بمعنى: ويذرك وعبودتك.

فإن قيل: فما وجه قولهم ذلك له وهم قد صدقوه على قوله (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى)؟

قيل الجواب عن ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه كان يعبد الأصنام وكان قومه يعبدونه، قاله الحسن.

والثاني: أنه كان يعبد ما يستحسن من البقر ولذلك أخرج السامري عجلًا جسدًا له خوار وقال هذا إلهكم وإله موسى، وكان معبودًا في قومه، قاله السدي.

والثالث: أنها كانت أصنامًا يعبدها قومه تقربًا إليه، قاله الزجاج.

- قال السمرقندي: قوله تعالى (وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ) ذلك أن فرعون كان قد جعل لقومه أصنامًا يعبدونها، وكان يقول لهم هؤلاء أربابكم الصغار، وأنا ربكم الأعلى، فذلك قوله تعالى (وَيَذَرَكَ وَءالِهَتَكَ) يعني: يدعك ويدع أصنامك التي أمرت بعبادتها.

قوله تعالى: {قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ} [الأعراف: ١٢٧].

=

=

يعني أبناء بني إسرائيل ومن آمن بموسى عليه السلام، أي: كل من يولد لهم قتلناه.

قال الطبري: "يقول: قال فرعون: سنقتل أبناءهم الذكور من أولاد بني إسرائيل".

قوله تعالى: {وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ} [الأعراف: ١٢٧]، أي: "ونستبقي نساءهم أحياء للخدمة".

عن سفيان: "{نستحيي نساءهم}، قال: لا نقتلهن".

قال الطبري: "يقول: ونستبقي إناثهم".

قال ابن كثير: "وهذا أمر ثان بهذا الصنيع، وقد كان نكل بهم به قبل ولادة موسى، عليه السلام، حذرا من وجوده، فكان خلاف ما رامه وضدّ ما قصده فرعون. وهكذا عومل في صنيعه هذا أيضا، إنما أراد قهر بني إسرائيل وإذلالهم، فجاء الأمر على خلاف ما أراد: نصرهم الله عليه وأذله، وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده".

- قال الماوردي: الأظهر أن معناه: نستبقيهن أحياء لضعفهن عن المنازعة وعجزهن عن المحاربة.

- وإنما عدل عن قتل موسى إلى قتل الأبناء لأنه علم أنه لا يقدر عل قتل موسى إما لقوته وإما تصوره أنه مصروف عن قتله، فعدل إلى قتل الأبناء ليستأصل قوم موسى من بني إسرائيل فيضعف عن فرعون.

- قال القرطبي: ولم يقل سنقتل موسى لعلمه أنه لا يقدر عليه.

- واختلف المفسرون، فمنهم من قال: كان يفعل ذلك كما فعله ابتداء عند ولادة موسى، ومنهم من قال بل منع منه واتفق المفسرون على أن هذا التهديد وقع في غير الزمان الأول.

- قال الشنقيطي: وهذه الآية الكريمة تدل على أن فرعون ذبح أولاد بني إسرائيل تذبيحتين:

التذبيحة الأولى التي كانت سببًا لجعل أم موسى موسى في التابوت، كما سيأتي

=

=

خبرها مفصَّلًا في سور من كتاب الله، حيث قال لها: (فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ) وخوفها عليه أي من قتل فرعون للأولاد حذرًا من ذلك الغلام الذي سيزول ملكه عليه.

وقال تعالى في سورة البقرة (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ).

سبب ذلك: قيل أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته، رأى نارًا خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، ويقال بعد تحدث سماره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة، فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر وتذبيح الأولاد.

الثاني: هو بعد أن جاءهم موسى نبيًا من الله، كما صَرَّحَ الله به هنا، وأوضحه في سورة المؤمن في قوله (فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ).

- فإن قال قائل: إن بقاء البنت حية أفضل من موتها، فما وجه جعل ذلك من إهانتهم؟

إبقاء الإناث يعتبر عار وتعذيب، لأن موت البنت أرحم من بقائها عند عدو يذلها ويهينها.

- قال الشنقيطي:... فبقاؤهن [أي الإناث] تحت يد العدو يفعل بهن ما يشاء من الفاحشة والعار ويستخدمهن في الأعمال الشاقة نوع من العذاب، وموتهن راحة من هذا العذاب وقد كان العرب يتمنون موت الإناث خوفًا من مثل هذا.

قوله تعالى: {وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} [الأعراف: ١٢٧]، أي: "وإنَّا عالون عليهم بقهر المُلْكِ والسلطان".

=

=

قال الطبري: "يقول: وإنا عالون عليهم بالقهر، يعني بقهر الملك والسلطان".
والآية اعتذار من فرعون للملإ من قومه عن إبطائه باستئصال موسى وقومه، أي: هم لا يقدرون أن يفسدوا في البلاد ولا أن يخرجوا عن طاعتي والقاهر: الغالب بإذلال.
قوله تعالى: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا} [الأعراف: ١٢٨]، أي: "قال موسى لقومه -من بني إسرائيل-: استعينوا بالله على فرعون وقومه، واصبروا على ما نالكم من فرعون من المكاره في أنفسكم وأبنائكم".
قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: {قال موسى لقومه}، من بني إسرائيل، لما قال فرعون للملأ من قومه: {سنقتل أبناء بني إسرائيل ونستحيي نساءهم}، {استعينوا بالله} على فرعون وقومه فيما ينوبكم من أمركم، {واصبروا} على ما نالكم من المكاره في أنفسكم وأبنائكم من فرعون".
قال البيضاوي: "قال موسى لقومه {استعينوا بالله واصبروا} لما سمعوا قول فرعون وتضجروا منه تسكينا لهم".
قال ابن عباس: "لما آمنت السحرة، اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل".
قوله: (اسْتَعِينُوا بِاللهِ) قال ﷺ (وَإِذَا اسْتَعَنْت فَاسْتَعِنْ بِاَللهِ).
وهذا منتزع من قوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وهي كلمة عظيمة جامعة يقال: إن سر الكتب الإلهية كلها ترجع إليها وتدور عليها.
وفي استعانة الله فائدتان:
إحداهما: أن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في عمل الطاعات.
والثانية: أنه لا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله الله فهو المخذول.
وفي الحديث (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز).

=

=

وكان ﷺ يقول في خطبته ويعلم أصحابه أن يقولوا (الحمد لله نستعينه ونستهديه).
وأمر معاذ بن جبل أن لا يدع في دبر كل صلاة أن يقول: (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك).
وينبغي الاعتناء بهذا الدعاء لثلاثة أمور: لأنه وصية، ولأن النبي ﷺ قال لمعاذ فيه: إني أحبك، ولأنه دعاء جامع شامل.
وفي دعاء القنوت (اللهم إنا نستعينك..).
وقال موسى لقوم (استعينوا بالله واصبروا).
ولما بشر ﷺ عثمان بالجنة على بلوى تصيبه قال: الله المستعان.
ومن كلام بعض العارفين: يا رب عجبت لمن يعرفك يرجو غيرك، عجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك
وكتب الحسن الى عمر بن عبد العزيز: لا تستعن بغير الله فيكلك الله إليه.
قال السعدي: وذكر الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النواهي.
(وَاصْبِرُوا) أي: احبسوا أنفسكم على المكروه حتى يخلصكم الله بفضله.
والصبر: هو حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.
قال السعدي: قوله تعالى (اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا) وهذه وظيفة العبد، أنه عند القدرة، أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير، ما يقدر عليه، وعند العجز، أن يصبر ويستعين اللّه، وينتظر الفرج.
قوله تعالى: {إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [الأعراف: ١٢٨]، أي: "إن الأرض كلها لله يورثها من يشاء من عباده".

=

=

قال الطبري: "يقول: إن الأرض لله، لعل الله أن يورثكم، إن صبرتم على ما نالكم من مكروه في أنفسكم وأولادكم من فرعون، واحتسبتم ذلك، واستقمتم على السداد، أرضَ فرعون وقومه، بأن يهلكهم ويستخلفكم فيها، فإن الله يورث أرضه من يشاء من عباده".

قال القرطبي: "أطمعهم في أن يورثهم الله أرض مصر".

قال البيضاوي: "{إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده}، تسلية لهم وتقرير للأمر بالاستعانة بالله والتثبت في الأمر".

عن ابن عباس -رضى الله عنه-: "هي أرض الجنة".

وقيل: "الأرض المقدّسة، ترثها أمّة محمد ﷺ".

قوله تعالى: {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف: ١٢٨]، أي: "والعاقبة المحمودة لمن اتقى الله ففعل أوامره واجتنب نواهيه".

قال البيضاوي: "وعد لهم بالنصرة وتذكير لما وعدهم من إهلاك القبط وتوريثهم ديارهم وتحقيق له".

قال الطبري: "يقول: والعاقبة المحمودة لمن اتقى الله وراقبه، فخافه باجتناب معاصيه وأدّى فرائضه".

قال القرطبي: "أي: الجنة لمن اتقى. وعاقبة كل شي: آخره، ولكنها إذا أطلقت فقيل: العاقبة لفلان فهم منه في العرف الخير".

قوله تعالى: {قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا} [الأعراف: ١٢٩]، أي: "قال قوم موسى -من بني إسرائيل- لنبيهم موسى: ابتُلينا وأُوذينا بذبح أبنائنا واستحياء نسائنا على يد فرعون وقومه، من قبل أن تأتينا برسالة الله إلينا".

قال الطبري: "يقول: من قبل أن تأتينا برسالة الله إلينا، لأن فرعون كان يقتل أولادهم الذكور حين أظلّه زمان موسى على ما قد بينت فيما مضى من كتابنا

=

=

هذا".

قال ابن كثير: "أي: قد جرى علينا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى".

عن مجاهد: "{من قبل أن تأتينا}، من قبل إرسال الله إياك".

وعن وهب بن منبه في قوله: " {أوذينا من قبل أن تأتينا}، قال: قالت بنوا إسرائيل لموسى: كان فرعون يكلفنا اللبن من قبل أن تأتينا".

قال القرطبي: قوله تعالى (قالوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا) أي: في ابتداء ولادتك بقتل الأبناء واسترقاق النساء (وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا) أي: والآن أُعِيد علينا ذلك؛ يعنون الوعيد الذي كان من فرعون.

وقيل: الأذى من قبلُ تسخيرهم لبني إسرائيل في أعمالهم إلى نصف النهار، وإرسالهم بقيته ليكتسبوا لأنفسهم.

والأذى من بعدُ: تسخيرُهم جميع النهار كله بلا طعام ولا شراب؛ قاله جُوَيْبر.

وقال الحسن: الأذى من قبلُ ومن بعدُ واحد، وهو أخذ الجزية.

قوله تعالى: {وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا} [الأعراف: ١٢٩]، أي: "وأُوذينا من بعد ما جئتنا برسالة الله".

قال مجاهد: "من بعد إرسال الله إياك".

قال الطبري: "يقول: ومن بعد ما جئتنا برسالة الله، لأن فرعون لما غلبت سَحرَته، وقال للملأ من قومه ما قال، أراد تجديدَ العذاب عليهم بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم".

قال الصابوني: "يعنون أن المحنة لم تفارقهم فهم في العذاب والبلاء قبل بعثة موسى وبعد بعثته".

قال السدي: "فلما تراءى الجمعان فنظرت بنو إسرائيل إلى فرعون قد رَدِفهم،

=

=

قالوا: {إنا لمدركون}، وقالوا: {أوذينا من قبل أن تأتينا}، كانوا يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا، {ومن بعد ما جئتنا}، اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا، إنا لمدركون".

وعن وهب بن منبه في هذه الآية: "{ومن بعد ما جئتنا}، قالت: بنوا إسرائيل لموسى كان فرعون يكلفنا اللبن قبل أن تأتينا، فلما جئت كلفنا اللبن مع التبن أيضا فقال موسى: أي رب أهلك فرعون، حتى متى تبقيه فأوحى الله ﷻ إليه إنهم لم يعملوا الذنب الذي أهلكهم به".

قوله تعالى: {قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ} [الأعراف: ١٢٩]، أي: "قال موسى لهم: لعل ربكم أن يهلك عدوكم فرعون وقومه".

قال الطبري: "يقول جل ثناؤه: قال موسى لقومه: لعل ربكم أن يهلك عدوكم: فرعون وقومه".

قال الزجاج: "{عسَى} طمعٌ وإِشفاق، إِلا أن ما يطمع الله فيه فهو واجبٌ، وهو معنى قول المفسرين: (إن عَسَى من الله واجبٌ).

قال مقاتل: "والـ «عسى» من الله واجب".

قال ابن إسحاق: "{عسى}: من الله حق".

قال أبو مالك: " كل شيء في القران: {عسى}، فهو واجب الا حرفين، حرف في التحريم: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُن}، وفي بني اسرائيل: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم} . وروي عن الضحاك، والحسن، والسدي، وابن إسحاق، نحو ذلك.

قوله تعالى: {وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ} [الأعراف: ١٢٩]، أي: "ويستخلفكم في أرضهم بعد هلاكهم".

قال الطبري: "يقول: يجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم، لا تخافونهم ولا أحدًا من الناس غيرهم".

=

=

و في هذا الاستخلاف قولان:

أحدهما: أنه استخلاف من فرعون وقومه.

والثاني: استخلاف عن الله تعالى، لأن المؤمنين خلفاء الله في أرضه،

وفي "الأرض"، قولان:

أحدهما: أرض مصر، قاله ابن عباس.

والثاني: أرض الشام، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: {فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٢٩]، أي: "فينظر كيف تعملون، هل تشكرون أو تكفرون؟".

قال الزجاج: "أي: يرى ذلك بوقوع منكم، لأن الله جلَّ وعزَّ لا يجازيهم على ما يعلمه منهم من خطيئاتهم التي يعلم أنهم عامِلوهَا لا محالة، إِنما يجازيهمْ على ما وقع منهم".

قال الطبري: "يقول: فيرى ربكم ما تعملون بعدهم، من مسارعتكم في طاعته، وتثاقلكم عنها".

قال السمعاني: "يعني: حتى يجازيكم على ما يرى واقعا منكم لا على ما علم في الغيب منكم".

قال ابن كثير:"وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر، عند حلول النعم وزوال النقم".

قال ابن عباس: "سار موسى ببني إسرائيل حتى هجموا على البحر، فالتفتوا فإذا هم برَهَج دوابِّ فرعون، فقالوا: {يا موسى أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا}، هذا البحر أمامنا وهذا فرعون بمن معه! قال: {عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون}.

وروي عن تميم بن جذلم. قال: سمعت عبد الله بن عباس يقول: "إن رسول الله

=

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠).

{وَلَقَدْ أَخَذْنَا آل فِرْعَوْن بِالسِّنِينَ} بِالْقَحْطِ {وَنَقْص مِنْ الثَّمَرَات لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} يَتَّعِظُونَ فَيُؤْمِنُونَ.

فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١).

{فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَة} الْخِصْب وَالْغِنَى {قَالُوا لَنَا هَذِهِ} أَيْ نَسْتَحِقّهَا وَلَمْ يَشْكُرُوا عَلَيْهَا {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَة} جَدْب وَبَلَاء {يَطَّيَّرُوا} يَتَشَاءَمُوا {بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ} مِنْ الْمُؤْمِنِينَ {أَلَا إِنَّمَا طَائِرهمْ} شُؤْمهمْ {عِنْد الله} يَأْتِيهِمْ بِهِ {وَلَكِنَّ أَكْثَرهمْ لَا يَعْلَمُونَ} أَنَّ مَا يُصِيبهُمْ مِنْ عِنْده[1].

=

ﷺ قال: إن بنا أهل البيت يفتح ويختم، فلا بد أن تقع دولة بني هاشم، فانظروا فيمن تكونوا من بني هاشم، وفيهم نزلت: {عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون}.

قال الشوكاني: "ينبغي أن ينظر في صحة هذا عن ابن عباس، فالآية نازلة في بني إسرائيل لا في بني هاشم واقعة في هذه القصة الحاكية لما جرى بين موسى وفرعون".

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ} [الأعراف: ١٣٠]، أي: "اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم.".

قال الطبري: "ولقد اختبرنا قوم فرعون وأتباعه على ما هم عليه من الضلالة بالجُدوب سنة بعد سنة، والقحوط".

قال ابن كثير: "أي: اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم} بِالسِّنِينَ}، وهي سِنِي

=

=
الجوع بسبب قلة الزروع.
قال قتادة: "فأما «السنين»، فكان ذلك في باديتهم وأهل مواشيهم".
قال ابن عاشور: هذا انتقال إلى ذكر المصائب التي أصاب الله بها فرعون وقومه، وجعلها آيات لموسى، ليلجئ فرعون إلى الإذن لبني إسرائيل بالخروج، وقد وقعت تلك الآيات بعد المعجزة الكبرى التي أظهرها الله لموسى في مجمع السحرة، ويظهر أن فرعون أغضى عن تحقيق وعيده إبقاء على بني إسرائيل، لأنهم كانوا يقومون بالأشغال العظيمة لفرعون.
وفي قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ} [الأعراف: ١٣٠]، قولان:
أحدهما: يعني بالجوع، قاله مجاهد ، وقتادة ، وعبد الله في رواية ابي عبيدة.
والثاني: أن معنى السنين الجدوب، قاله الحسن.
والعرب تقول: "أخذتهم السنة إذا قحطوا وأجدبوا".
وقال الفراء: "أخذهم بالسنين: القحط والجدوبة عامًا بعد عام".
قوله تعالى: {وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ} [الأعراف: ١٣٠]، أي: "ونَقْص ثمارهم وغَلاتهم".
قال رجاء بن حيوة: "حيث لا تحمل النخلة إلا تمرة واحدة".
وقال كعب: "يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا ثمرة".
قال الطبري: "يقول: واختبرناهم مع الجدوب بذهاب ثمارهم وغلاتهم إلا القليل".
قال قتادة: "وأما «بنقص من الثمرات»، فكان ذلك في أمصارهم وقراهم".
قوله تعالى: {لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأعراف: ١٣٠]، أي: "؛ ليتذكروا، وينزجروا عن ضلالاتهم، ويفزعوا إلى ربهم بالتوبة".
قال الطبري: "يقول: عظة لهم وتذكيرًا لهم، لينزجروا عن ضلالتهم، ويفزعوا إلى
=

=

ربهم بالتوبة".

قال ابن عباس: "لما أخذ الله آل فرعون بالسنين يبس كل شجر لهم وذهبت مواشيهم حتى يبس نيل مصر واجتمعوا إلى فرعون فقالوا له: إن كنت تزعم كما تزعم فآتينا في نيل مصر بماء قال: غدوة يصبحكم الماء، فلما خرجوا من عنده قال: أي شيء صنعت، أنا أقدر على أن أجري في نيل مصر ماء غدوة أصبح فيكذبوني، فلما كان في جوف الليل قام واغتسل ولبس مدرعة صوف، ثم خرج ماشيا حتى أتى نيل مصر، فقام في بطنه

فقال: اللهم إنك تعلم أني أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر ماء فاملأه ماء، فما علم إلا بجرير الماء يقبل، فخرج يحفز وأقبل النيل يزخ بالماء لما أراد الله بهم من الهلكة".

قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ} [الأعراف: ١٣١]، أي: "فإذا جاء فرعونَ وقومَه الخِصْبُ والرزقُ قالوا: هذا لنا بما نستحقه".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فإذا جاءت آل فرعون العافية والخصب والرخاء وكثرة الثمار، ورأوا ما يحبون في دنياهم، {قالوا لنا هذه}، نحن أولى بها".

قال ابن كثير: "أي: من الخصب والرزق {قَالُوا لَنَا هَذِهِ}، أي: هذا لنا بما نستحقه".

عن مجاهد في قوله: "{فإذا جاءتهم الحسنة}، العافية والرخاء، {قالوا لنا هذه}، نحن أحق بها".

قال ابن زيد:"الحسنة: ما يحبُّون".

قوله تعالى: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ} [الأعراف: ١٣١]، أي: "وإن يُصِبْهم جدب وقحط يتشاءموا، ويقولوا: هذا بسبب موسى ومَن معه".

قال الطبري: "يعني: جدوب وقحوط وبلاء، يتشاءموا ويقولوا: ذهبت حظوظنا

=

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢).

{وَقَالُوا} لِمُوسَى {مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَة لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَك بِمُؤْمِنِينَ} فَدَعَا عليهم.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣).

=

وأنصباؤنا من الرخاء والخصب والعافية، مذ جاءنا موسى عليه السلام".

قال ابن كثير: "أي: جدب وقحط {يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ}،أي: هذا بسببهم وما جاؤوا به".

عن مجاهد: "{وإن تصبهم سيئة}، بلاء وعقوبة، {يطيروا}، يتشاءموا بموسى".

قال ابن زيد: "قالوا: ما أصابنا هذا إلا بك يا موسى وبمن معك، ما رأينا شرًّا ولا أصابنا حتى رأيناك!.

قوله تعالى: {أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ} [الأعراف: ١٣١]، أي: "ألا إنَّ ما يصيبهم من الجدب والقحط إنما هو بقضاء الله وقدره، وبسبب ذنوبهم وكفرهم".

قال ابن عباس: "يقول: مصائبهم عند الله". وفي رواية: "الأمر من قبل الله".

قال الضحاك: "الأمر من قبل الله ما أصابكم من أمر الله فمن الله فبما كسبت أيديكم".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ألا ما طائر آل فرعون وغيرهم - وذلك أنصباؤهم من الرخاء والخصب وغير ذلك من أنصباء الخير والشر إلا عند الله".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف: ١٣١]، أي: "ولكن أكثر قوم فرعون لا يعلمون ذلك؛ لانغمارهم في الجهل والضلال".

قال الطبري: "أن ذلك كذلك، فلجهلهم بذلك كانوا يطَّيّرون بموسى ومن معه".

{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الطُّوفَان} وَهُوَ مَاء دَخَلَ بُيُوتهمْ وَوَصَلَ إلَى حُلُوق الْجَالِسِينَ سَبْعَة أَيَّام {وَالْجَرَاد} فَأَكَلَ زَرْعهمْ وَثِمَارهمْ كَذَلِكَ {وَالْقُمَّل} السُّوس أَوْ نَوْع مِنْ الْقُرَاد فَتَتَبَّعَ مَا تَرَكَهُ الْجَرَاد {وَالضَّفَادِع} فَمَلَأَتْ بُيُوتهمْ وَطَعَامهمْ {وَالدَّم} فِي مِيَاههمْ {آيَات مُفَصَّلَات} مُبَيِّنَات {فَاسْتَكْبَرُوا} عَنْ الْإِيمَان بِهَا {وكانوا قوما مجرمين}.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤).

{وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمْ الرِّجْز} الْعَذَاب {قَالُوا يَا مُوسَى اُدْعُ لَنَا رَبّك بِمَا عَهِدَ عِنْدك} مِنْ كَشْف الْعَذَاب عَنَّا إنْ آمَنَّا {لَئِنْ} لام قسم {كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل}.

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥).

{فَلَمَّا كَشَفْنَا} بِدُعَاءِ مُوسَى {عَنْهُمْ الرِّجْز إلَى أَجَل هُمْ بَالِغُوهُ إذَا هُمْ يَنْكُثُونَ} يَنْقُضُونَ عَهْدهمْ وَيُصِرُّونَ عَلَى كُفْرهمْ(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا} [الأعراف: ١٣٢]، أي: "وقال قوم فرعون لموسى: أي آية تأتِنا بها، ودلالة وحجة أقمتها لتصرفنا عما نحن عليه من دين فرعون".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وقال آل فرعون لموسى: يا موسى، مهما تأتنا به من علامة ودلالة، لتلفتنا بها عما نحن عليه من دين فرعون".

وهذا إخبار من الله، ﷻ، عن تَمرد قوم فرعون وعتوهم، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل في قولهم (مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) يقولون: أيُّ آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلها منك، =

=

ولا نؤمن بك ولا بما جئت به.

- قيل: بقي موسى في القبط بعد إلقاء السحرة سُجَّدًا عشرين سنة يريهم الآيات إلى أن أغرق الله فرعون، فكان هذا قولهم.

قال ابن كثير: "يقولون: أيُّ آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها.

قال ابن زيد في قوله: " {مهما تأتنا به من آية}، قال: إن ما تأتنا به من آية، وهذه فيها زيادة «ما».

عن سفيان بن حسين: "{مهما تأتنا به من آية}: مهما تأتنا به من شيء لتسحرنا بها".

قوله تعالى: {فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ١٣٢]، أي: "فما نحن لك بمصدِّقين".

قال الطبري: "يقول: فما نحن لك في ذلك بمصدقين على أنك محق فيما تدعونا إليه".

قال ابن كثير: أي: "رددناها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به.

قوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ} [الأعراف: ١٣٣]، أي: "فأرسلنا عليهم سيلا جارفًا أغرق الزروع والثمار".

قال الضحاك: "أمطر الله عليهم السماء حتى امتنع عنهم كل شيء".

قال ابن عباس: "مطروا بالليل والنهار ثمانية أيام".

قال إسماعيل بن عبيد الله: "كان الطوفان الذي أصاب الناس في نيسان".

وفي «الطُّوفَانَ»، ستة أقوال:

أحدها: أنه الغرق بالماء الزائد، قاله ابن عباس، وأبو مالك، ومجاهد، والضحاك.

قال ابن عباس: "كان أول الآيات الطوفان، فأرسل الله عليهم السماء".

=

الثاني: أنه الماء والطاعون، قاله مجاهد.

الثالث: أنه الموت، قاله عطاء، وعبد الله بن كثير.

ورويت عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ" الطُّوفَانُ الْمَوتُ".

الرابع: أنه أمر من الله طاف بهم، وهو مروي أيضًا عن ابن عباس، ثم قرأ قوله تعالى: {فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ} [القلم: ١٩]. وهذا اختيار الطبري.

والخامس: أنه كثرة المطر والريح، واستدل قائل ذلك بقول حسيل بن عرفطة:

غَيَّرَ الْجِدَّةَ مِنْ عِرْفَانِهِ خُرُقُ الرِّيحِ وَطُوفَانُ الْمَطَرِ

والسادس: أنه عذاب من السماء، واستدل قائل ذلك بقول أبي النجم:

قَدْ مَدَّ طُوفَانٌ فَبَثَّ مَدَدَا شَهْرًا شَآبِيبَ وَشَهْرًا بَرَدَا

قال الزجاج: الطوفان من كل شيء ما كان كثيرًا محيطًا مطبقًا بالقوم كلهم، كالغرق الذي يشمل المدن الكثيرة، فإنه يقال له طوفان، وكذلك القتل الذريع طوفان، والموت الجارف طوفان.

قوله تعالى: {وَالْجَرَادَ} [الأعراف: ١٣٣]، أي: "وأرسلنا الجراد، فأكل زروعهم وثمارهم وأبوابهم وسقوفهم وثيابهم".

قال مجاهد: "الجراد يأكل زروعهم ونباتهم". وفي رواية أخرى: "والجراد تأكل مسامير زنجهم يعني أبوابهم وثيابهم".

قال الضحاك:"فأرسل الله عليهم الجراد الذي لا أجنحة له فتتبع ما بقي من حروفهم وشجرهم، وسائر نباتهم".

وروي عن ابن عباس، قال: "الجراد: نثرة من حوت في البحر".

قال ابن عباس: "فأرسل الله عليهم الجراد فأسرع في فساد ثمارهم وزروعهم، قالوا يا موسى: ادع لنا ربك يكشف عنا الجراد، فإنا سنؤمن لك: ونرسل معك بني

=

إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد، وكان قد بقي لهم من زرعهم ومعايشهم بقايا، فقالوا: قد بقي لنا ما هو كافينا، فلن نؤمن لك ولن نرسل معك بني إسرائيل".

قال ابن كثير: "وأما الجراد فمعروف مشهور، وهو مأكول؛ لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفُور، قال: سألت عبد الله بن أبي أَوْفَى عن الجراد، فقال: «غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد» ، وروى الشافعي، وأحمد بن حنبل، وابن ماجة من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد، والكبد والطحال» ... وعن سلمان قال: سئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال: «أكثر جنود الله، لا آكله، ولا أحرمه».

قال ابن كثير: "وإنما تركه، عليه السلام لأنه كان يعافه، كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب، وأذن فيه... وقد روى... عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ لا يأكل الجراد، ولا الكلوتين، ولا الضب، من غير أن يحرمها. أما الجراد: فرجز وعذاب. وأما الكلوتان: فلقربهما من البول. وأما الضب فقال: "أتخوف أن يكون مسخا» ... وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يشتهيه ويحبه، فروى عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: «أن عمر سُئل عن الجراد فقال: ليت أن عندنا منه قَفْعَة أو قفعتين نأكله»

عن عامر قال:"سئل شُرَيْح القاضي عن الجراد، فقال: قبح الله الجرادة. فيها خلقة سبعة جبابرة: رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وصدرها صدر أسد، وجناحها جناح نسر، ورجلاها رجلا جمل. وذنبها ذنب حية، وبطنها بطن عقرب".

قوله تعالى: {وَالْقُمَّلَ} [الأعراف: ١٣٣]، أي: "وأرسلنا القُمَّل الذي يفسد الثمار ويقضي على الحيوان والنبات".

=

=

وفي «الْقُمَّلَ»، أقوال:

أحدها: أنه الدَبَى وهو صغار الجراد لا أجنحة له. وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وعكرمة ، والسدي.

والثاني: أنه السوس الذي في الحنطة. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا.

والثالث: البراغيث، قاله ابن زيد.

والرابع: الحنمان: صغارالقردان، قاله أبو عبيدة.

والخامس: هو دواب سود صغار، قاله الحسن ، وسعيد بن جبير ، وشاهده قول الأعشى:

قَوْمًا تُعَالِجُ قُمَّلًا أَبْنَاؤهُمْ وَسَلاَسِلًا أُجُدًا وَبَابًا مُؤْصَدًا

وواحد «القمل»: قملة.

والسادس: القمل: الجراد الذي يطير. قاله أبو صخر.

وروي، عن عكرمة أنه قال: "القمل بنات الجراد".

والسابع: أن القمل الجعلان. قاله حبيب بن أبي ثابت.

قوله تعالى: {وَالضَّفَادِعَ} [الأعراف: ١٣٣]، أي: "وأرسلنا الضفادع فملأت آنيتهم وأطعمتهم ومضاجعهم".

قال مجاهد: "والضفادع تسقط على فرشهم وأطعمتهم".

قال ابن عباس: "لم يكن شيء أشد على آل فرعون من الضفادع كانت تأتي القدور وهي تغلي من اللحمان فتلقي أنفسها فيها فأشابها الله برد الماء والثرى إلى يوم القيامة".

وعن ابن عباس ايضا: "فبينا موسى عليه السلام جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع من نهر قال: فقال يا فرعون ما تلقى أنت وقومك من هذا الضفدع؟ قال: وما عسى أن يكون عند هذا الضفدع. فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في

=

=

الضفادع وما منهم من أحد يتكلم إلا وثب ضفدع في فيه، وما من آنيتهم من شيء إلا وهي ممتلئة من الضفادع فقال فرعون: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن بك، ونرسل معك بني إسرائيل، قال: فدعا ربه فكشف عنهم الضفادع".

وقال ابن عباس أيضا: "كانت الضفادع برِّية، فلما أرسلها الله على آل فرعون، سمعت وأطاعت، فجعلت تغرق أنفسها في القُدُور وهي تغلي، وفي التنانير وهي تفور، فأثابها الله بحسن طاعتها بَرْدَ الماء".

قال عبد الله بن عمرو: "لا تقتلوا الضفادع فإنها لما أرسلت على بني إسرائيل. انطلق ضفدع منها فوقع في تنور فيه نار طلبت بذلك مرضاة الله فأبدلهن الله أبرد شيء تعلمه الماء وجعل نقيقهن التسبيح".

قوله تعالى: {وَالدَّمَ} [الأعراف: ١٣٣]، أي: "وأرسلنا أيضًا الدم فصارت أنهارهم وآبارهم دمًا، ولم يجدوا ماء صالحًا للشرب".

قال قتادة: "ثم أرسل عليهم الدم فكان أحدهم إذا أراد أن يشرب تحول ذلك الماء دما".

قال مجاهد: "والدم يكون في بيوتهم وثيابهم ومائهم وطعامهم".

وقال مجاهد أيضا: "لما سال النِّيلُ دمًا، فكان الإسرائيلي يستقي ماء طيّبًا، ويستقي الفرعوني دمًا، ويشتركان في إناء واحد، فيكون ما يلي الإسرائيلي ماءً طيّبًا وما يلي الفرعوني دمًا".

عن محمد بن كعب القرظي: أنه حُدِّث: "أن المرأة من آل فرعون كانت تأتي المرأةَ من بني إسرائيل حين جَهدهم العطش، فتقول: اسقيني من مائك! فتغرف لها من جرَّتها أو تصبّ لها من قربتها، فيعود في الإناء دمًا، حتى إن كانت لتقول لها: اجعليه في فيك ثم مُجيِّه في فيَّ! فتأخذ في فيها ماءً، فإذا مجته في فيها صار دمًا، فمكثوا في ذلك سبعةَ أيام".

=

=

وفي «الدَّمَ»، قولان:

أحدهما: أن ماء شربهم كان يصير دمًا عبيطًا، فكان إذا غرف القبطي من الماء صار دمًا وإذا غرف الإسرائيلي كان ماء.

والثاني: أنه رعاف كان يصيبهم، قاله زيد بن أسلم.

قال ابن عباس: "لما أتى موسى فرعون بالرسالة، أبى أن يؤمن وأن يرسل معه بني إسرائيل، فاستكبر قال: لن أرسل معك بني إسرائيل! فأرسل الله عليهم الطوفان - وهو الماء- أمطر عليهم السماء، حتى كادوا يهلكون، وامتنع منهم كل شيء، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك بما عهد عندك، لئن كشفت عنّا هذا لنؤمننّ لك ولنرسلن معك بني إسرائيل! فدعا الله فكشف عنهم المطر، فأنبت الله لهم حُروثهم، وأحيا بذلك المطر كل شيء من بلادهم، فقالوا: والله ما نحبَّ أنا لم نكن أمطرنا هذا المطر، ولقد كان خيرًا لنا، فلن نرسل معك بني إسرائيل، ولن نؤمن لك يا موسى! فبعث الله عليهم الجراد، فأكل عامة حروثهم، وأسرع الجراد في فسادِها، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك يكشف عنا الجراد، فإنا مؤمنون لك، ومرسلون معك بني إسرائيل! فكشف الله عنهم الجراد. وكان الجراد قد أبقى لهم من حروثهم بقيَّة، فقالوا: قد بَقي لنا من حروثنا ما كان كافِينَا، فما نحن بتاركي ديننا، ولن نؤمن لك، ولن نرسل معك بني إسرائيل! فأرسل الله عليهم القمّل و «القمّل»: الدبى، وهو الجراد الذي ليست له أجنحة، فتتبع ما بقي من حروثهم وشجرهم وكل نبات كان لهم، فكان القمّل أشدّ عليهم من الجراد، فلم يستطيعوا للقمل حيلةً، وجزعوا من ذلك. وأتوا موسى، فقالوا: يا موسى، ادع لنا ربك يكشف عنا القمل، فإنه لم يبق لنا شيئًا، قد أكل ما بقي من حروثنا، ولئن كشفت عنا القمل لنؤمنن لك، ولنرسلن معك بني إسرائيل! فكشف الله عنهم القمل، فنكثوا، وقالوا: لن نؤمن لك، ولن نرسل معك بني إسرائيل! فأرسل الله عليهم

=

=

الضفادع، فامتلأت منها البيوتُ، فلم يبق لهم طعام ولا شراب إلا وفيه الضفادع، فلقوا منها شيئًا لم يلقوه فيما مضى، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربّك لئن كشفت عنا الرِّجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل! قال: فكشف الله عنهم، فلم يفعلوا، فأنزل الله: {فلمَّا كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون}، إلى: {وكانوا عنها غافلين}.

قال محمد بن إسحاق: "فرجع عدوّ الله -يعني: فرعون، حين آمنت السحرة- مغلوبًا مغلولا ثم أبى إلا الإقامة على الكفر، والتماديَ في الشر، فتابع الله عليه بالآيات، وأخذه بالسنين، فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات،، فأرسل الطوفان - وهو الماء- ففاض على وجه الأرض، ثم ركد، لا يقدرون على أن يحرُثوا، ولا يعملوا شيئًا، حتى جُهِدوا جوعًا؛ فلما بلغهم ذلك، قالوا: يا موسى، ادع لنا ربك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك، ولنرسلن معك بني إسرائيل! فدعا موسى ربه، فكشفه عنهم، فلم يفُوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل الشجر، فيما بلغني، حتى إنْ كان ليأكل مساميرَ الأبواب من الحديد، حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشفه عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا. فأرسل الله عليهم القمّل، فذكر لي أنّ موسى أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه. فمضى إلى كثيبٍ أهيل عظيم، فضربه بها، فانثَالَ عليهم قمَّلا حتى غلب على البيوت والأطعمة، ومنعهم النوم والقرار. فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشفه عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحدٌ ثوبًا ولا طعامًا ولا إناء إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه. فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشفه عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا. فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون

=

دمًا، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء، إلا عاد دمًا عبيطًا".

قوله تعالى: {آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ} [الأعراف: ١٣٣]، أي: "هذه آيات من آيات الله لا يقدر عليها غيره، مفرقات بعضها عن بعض".

قال أبو عبيدة: "أي: إن بعضها منفصل من بعض، ويقال إنه كان بين الآية والآية ثمانية أيام، وأرسلت عليهم الضفادع تدخل في ثيابهم وفي طعامهم، و {آيات} منصوب على الحال، وهي العلامات".

قال الطبري: "معناه: علامات ودلالات على صحّة نبوّة موسى، وحقيقة ما دعاهم إليه {مفصلات}، قد فصل بينها، فجعل بعضها يتلو بعضًا، وبعضها في إثر بعض".

قال ابن إسحاق: {آيات مفصلات}، أي: آية بعد آية، يتبع بعضُها بعضًا".

قال ابن عباس: "فكانت آيات مفصلات بعضها في إثر بعض، ليكون لله الحجة عليهم، فأخذهم الله بذنُوبهم، فأغرقهم في اليمّ".

عن ابن جريج قوله: " {يات مفصلات}، قال: يتبع بعضها بعضًا، ليكون لله عليهم الحجة، فينتقم منهم بعد ذلك. وكانت الآية تمكث فيهم من السبت إلى السبت، وترفع عنهم شهرًا، قال الله ﷻ: {فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليمّ} [الأعراف: ١٣٦]... الآية".

وروي عن مجاهد: "{آيات مفصلات}، قال: معلومات".

عن نوف الشامي قال: "مكث موسى في آل فرعون بعد ما غلبت السحرة عشرين سنة يريهم الآيات الجراد، والقمل والضفادع والدم فيأبوا، يعني: أن يسلموا".

قوله تعالى: {فَاسْتَكْبَرُوا} [الأعراف: ١٣٣]، أي: "ومع كل هذا ترفَّع قوم فرعون، فاستكبروا عن الإيمان بالله".

قال الطبري: "فاستكبر هؤلاء الذين أرسل الله عليهم ما ذكر في هذه الآيات من

=

الآيات والحجج، عن الإيمان بالله وتصديق رسوله موسى ﷺ واتباعه على ما دعاهم إليه، وتعظموا على الله وعتَوا عليه".

قال ابن عباس: "فلما أتى موسى فرعون بالرسالة فاستكبروا قال: لن أرسل معك بني إسرائيل".

قوله تعالى: {وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ} [الأعراف: ١٣٣]، أي: "وكانوا قومًا يعملون بما ينهى الله عنه من المعاصي والفسق عتوًّا وتمردًا".

قال الطبري: "يقول: كانوا قومًا يعملون بما يكرهه الله من المعاصي والفسق عتوًّا وتمرّدًا".

وفي قوله تعالى: {وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ} [الأعراف: ١٣٤]، وجهان:

أحدهما: أنه العذاب، قاله الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن زيد.

والثاني: هو الطاعون أصابهم فمات به من القبط سبعون ألف إنسان، قاله سعيد بن جبير ، وهو مروي عن ابن عباس في رواية سعيد بن جبير عنه.

وروي عن رسول الله ﷺ: "الطاعون رجز عذاب عذب به قوم قبلكم".

قال سعيد بن جبير: "وأمر موسى قومه من بني إسرائيل وذلك بعد ما جاء قوم فرعونَ بالآيات الخمس: الطوفان وما ذكر الله في هذه الآية، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فقال: ليذبح كل رجل منكم كبشًا، ثم ليخضب كفّه في دمه، ثم ليضرب به على بابه! فقالت القبط لبني إسرائيل: لم تعالجُون هذا الدمَ على أبوابكم؟ فقالوا: إن الله يرسل عليكم عذابًا، فنسلم وتهلكون. فقالت القبط: فما يعرفكم الله إلا بهذه العلامات؟ فقالوا: هكذا أمرنا به نبيّنا! فأصبحوا وقد طُعِنَ من قوم فرعون سبعون ألفًا، فأمسوا وهم لا يتدَافنون. فقال فرعون عند ذلك: {ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفتَ عنا الرجز}، وهو الطاعون، {لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل}، فدعا ربه، فكشفه عنهم، فكان أوفاهم كلّهم

=

=

فرعون، فقال لموسى: اذهب ببني إسرائيل حيث شئت". وروي عن ابن عباس نحو ذلك.

قوله تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ} [الأعراف: ١٣٤]، أي: "فزعوا إلى موسى وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك بما أوحى به إليك مِن رَفْع العذاب بالتوبة".

قال الطبري: "يقول: بما أوصاك وأمرك به".

وفي قوله تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ} [الأعراف: ١٣٤]، ثلاثة أقوال:

أحدها: بما تقدم إليك به أن تدعوه به فيجيبك كما أجابك في آياتك.

والثاني: ما هداك به أن تفعله في قومك، قاله السدي.

والثالث: أن ذلك منهم على معنى القسم كأنهم أقسموا عليه بما عهد عنده أن يدعو لهم.

قوله تعالى: {لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ} [الأعراف: ١٣٤]، أي: "لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه".

قال الطبري: "لئن رفعت عنا العذاب الذي نحن فيه.

قوله تعالى: {لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ} [الأعراف: ١٣٤]، أي: "لنصدِّقنَّ بما جئت به، ونتبع ما دعوت إليه".

قال الطبري: "يقول: لنصدقن بما جئت به ودعوت إليه ولنقرَّنّ به لك".

قوله تعالى: {وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الأعراف: ١٣٤]، أي: "ولنطلقنَّ معك بني إسرائيل، فلا نمنعهم من أن يذهبوا حيث شاؤوا".

قال الطبري: "يقول: ولنخلِّين معك بني إسرائيل فلا نمنعهم أن يذهبوا حيث شاؤوا".

=

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦).

{فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمّ} الْبَحْر الْمِلْح {بِأَنَّهُمْ} بِسَبَبِ أَنَّهُمْ {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} لَا يَتَدَبَّرُونَهَا.

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧).

{وَأَوْرَثْنَا الْقَوْم الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ} بِالِاسْتِعْبَادِ وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيل

=

قوله تعالى: {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ} [الأعراف: ١٣٥]، أي: "فلما رفع الله عنهم العذاب الذى أنزله بهم إلى أجلٍ هم بالغوه لا محالة فيعذبون فيه".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فدعا موسى ربه فأجابه، فلما رفع الله عنهم العذاب الذي أنزله بهم، {إلى أجل هم بالغوه}، ليستوفوا عذابَ أيامهم التي جعلَها الله لهم من الحياة أجلا إلى وقت هلاكهم.

عن ابن عباس في قوله: " {إلى أجل هم بالغوه}، قال: الغرق".

عن مجاهد: "{إلى أجل هم بالغوه}، عدد مسمى معهم من أيامهم".

قوله تعالى: {إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ} [الأعراف: ١٣٥]، أي: "إذا هم ينقضون عهودهم التي عاهدوا عليها ربهم وموسى، ويقيمون على كفرهم وضلالهم".

قال السدي: "ما أعطوا من العهود".

قال الطبري: "يقول: إذا هم ينقضون عهودَهم التي عاهدوا ربَّهم وموسى، ويقيمون على كفرهم وضلالهم".

{مَشَارِق الْأَرْض وَمَغَارِبهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} بِالْمَاءِ وَالشَّجَر صِفَة لِلْأَرْضِ وَهِيَ الشَّام {وَتَمَّتْ كَلِمَة رَبّك الْحُسْنَى} وَهِيَ قَوْله تَعَالَى {وَنُرِيد أَنْ نَمُنّ عَلَى الَّذِينَ اُسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْض} إلَخْ {عَلَى بَنِي إسْرَائِيل بِمَا صَبَرُوا} عَلَى أَذَى عَدُوّهُمْ {وَدَمَّرْنَا} أَهْلَكْنَا {مَا كَانَ يَصْنَع فِرْعَوْن وَقَوْمه} مِنْ الْعِمَارَة {وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} بِكَسْرِ الرَّاء وَضَمّهَا يَرْفَعُونَ مِنْ الْبُنْيَان[1].

---

(١) قوله تعالى: {فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ} [الأعراف: ١٣٦]، أي: "فانتقمنا منهم بالإغراق في البحر".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فلما نكثوا عهودهم، انتصرنا منهم بإحلال نقمتنا بهم، وذلك عذابه {فأغرقناهم في اليمّ}، وهو البحر، كما قال ذو الرمة:

دَاوِيَّةٌ وَدُجَى لَيْلٍ كَأَنَّهُمَا   يَمٌّ تَرَاطَنُ فِي حَافَاتِهِ الرُّومُ

وكما قال الراجز:

كَبَاذِحِ الْيَمِّ سَقَاهُ الْيَمُّ".

قال ابن عباس: "فأخذهم الله بذنوبهم فأغرقهم الله في اليم".

قال ابن كثير: "يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا، مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة، أنه انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم، وهو البحر الذي فرقه لموسى، فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها".

عن ابن جريج، في قوله: {آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ} [الأعراف: ١٣٣]، قال: يتبع بعضها بعضا، ليكون لله عليهم الحجة، فينتقم منهم بعد ذلك. وكانت الآية تمكث فيهم من السبت إلى السبت، وترفع عنهم شهرا، قال الله ﷻ: {فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ} [الأعراف: ١٣٦]... الآية".

=

=

قوله تعالى: {بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} [الأعراف: ١٣٦]، أي: "بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عنها وعدم مبالاتهم بها".

قال الطبري: "يقول: فعلنا ذلك بهم بتكذيبهم بحججنا وأعلامنا التي أريناهموها، وكانوا عن النقمة التي أحللناها بهم، غافلين قبل حلولها بهم أنّها بهم حالّةٌ".

قوله تعالى: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا} [الأعراف: ١٣٧]، أي: "وأورثنا بني إسرائيل الذين كانوا يُستَذَلُّون للخدمة، مشارق الأرض ومغاربها".

قال الحسن: "يقول: مشارق الشام ومغاربها".

قال الطبري: يقول: "وأورثنا القوم الذين كان فرعون وقومه يستضعفونهم، فيذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، ويستخدمونهم تسخيرًا واستعبادًا من بني إسرائيل، مشارق الأرض الشأم، وذلك ما يلي الشرق منها، {ومغاربها.. }.

وقد اختلفوا في معنى مشارق الأرض ومغاربها.

فبعضهم حمله على مشارق أرض الشام، ومصر ومغاربها، لأنها هي التي كانت تحت تصرف فرعون لعنه الله وأيضًا قوله (التي بَارَكْنَا فِيهَا) المراد باركنا فيها بالخصب وسعة الأرزاق وذلك لا يليق إلا بأرض الشام.

والقول الثاني: المراد جملة الأرض وذلك لأنه خرج من جملة بني إسرائيل داود وسليمان قد ملك الأرض، وهذا يدل على أن الأرض ههنا اسم الجنس.

قوله تعالى: {الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} [الأعراف: ١٣٧]، أي: "التي باركنا فيها، بإخراج الزروع والثمار والأنهار".

قال الطبري: "يقول: التي جعلنا فيها الخير ثابتًا دائمًا لأهلها".

عن قتادة: "{وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها}، هي أرض الشام".

=

=

قوله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الأعراف: ١٣٧]، أي: "وتمت كلمة ربك -أيها الرسول- الحسنى على بني إسرائيل بالتمكين لهم في الأرض".

قال الطبري: "يقول: وَفَي وعدُ الله الذي وعد بني إسرائيل بتمامه، على ما وعدهم، من تمكينهم في الأرض، ونصره إياهم على عدوّهم فرعون، و «كلمته الحسنى»، قوله جل ثناؤه: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ} [القصص: ٥ - ٦].

عن مجاهد: "(وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل)، قال: ظهرَ قوم موسى على فرعون، و «تمكين الله لهم في الأرض»، وما ورَّثهم منها".

قال الحسن: "لو أن الناس إذا ابتلوا من قبل سلطانهم بشيء دعوا الله أوشك الله أن يرفع عنهم، ولكنهم فزعوا إلى السيف فوكلوا إليه والله ما جاءوا بيوم خير قط، ثم قرأ: {وتمت كلمت ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون}.

عن موسى بن علي، عن أبيه قال: "كانت بنو إسرائيل بالربع من آل فرعون ووليهم فرعون أربعمائة وأربعون سنة فأضعف الله ذلك لبني إسرائيل فولاهم ثمان مائة عام وثمانين عاما، قال: وإن كان الرجل ليعمر ألف سنة في القرون الأولى وما يحتلم حتى يبلغ عشرين ومائة سنة".

قوله تعالى: {بِمَا صَبَرُوا} [الأعراف: ١٣٧]، أي: "بسبب صبرهم على أذى فرعون وقومه".

قوله تعالى: {وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ} [الأعراف: ١٣٧]، أي: "ودمَّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه من العمارات والمزارع".

=

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨).

{وَجَاوَزْنَا} عَبَرْنَا {بِبَنِي إِسْرَائِيل الْبَحْر فَأَتَوْا} فَمَرُّوا {عَلَى قَوْم يَعْكُفُونَ} بِضَمِّ الْكَاف وَكَسْرهَا {عَلَى أَصْنَام لَهُمْ} يُقِيمُونَ عَلَى عِبَادَتهَا {قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا} صَنَمًا نَعْبُدهُ {كَمَا لَهُمْ آلِهَة قَالَ إِنَّكُمْ قَوْم تَجْهَلُونَ} حَيْثُ قَابَلْتُمْ نِعْمَة الله عَلَيْكُمْ بِمَا قُلْتُمُوهُ.

إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩).

{إن هؤلاء متبر} هالك {ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون}.

قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠).

=

قال الطبري:"يقول: وأهلكنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العِمارات والمزارع".

قال ابن كثير: "أي: وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع".

قوله تعالى: {وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} [الأعراف: ١٣٧]، أي: "وما كانوا يبنون من الأبنية والقصور وغير ذلك".

قال الطبري: "يقول: وما كانوا يبنون من الأبنية والقصور، وأخرجناهم من ذلك كله، وخرَّبنا جميع ذلك".

قال مجاهد: "يبنون البيوت والمساكن ما بلغت، وكان عنبهم غير معروش".

عن ابن عباس قوله: " {يعرشون}، يقول: يبنون".

عامة قرأة الحجاز والعراق: «يَعْرِشُونَ»، بكسر الراء، سوى عاصم بن أبي النجود، فإنه قرأه بضمّها، وهما لغتان مشهورتان في العرب.

{قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا} مَعْبُودًا وَأَصْله أَبْغِي لَكُمْ {وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} فِي زَمَانكُمْ بِمَا ذَكَرَهُ فِي قوله.

وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١).

{وَ} اُذْكُرُوا {إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ} وَفِي قِرَاءَة أَنْجَاكُمْ {مِنْ آل فِرْعَوْن يَسُومُونَكُمْ} يُكَلِّفُونَكُمْ وَيُذِيقُونَكُمْ {سُوء العذاب} أشده وهو {يقتلون أبناءكم ويستحيون} يستبقون {نساءكم وَفِي ذَلِكُمْ} الْإِنْجَاء أَوْ الْعَذَاب {بَلَاء} إِنْعَام أَوْ ابْتِلَاء {مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيم} أَفَلَا تَتَّعِظُونَ فَتَنْتَهُوا عَمَّا قُلْتُمْ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ} [الأعراف: ١٣٨]، أي: "وقطعنا ببني إسرائيل البحر".

وهذا شروع في بيان ما فعله بنو إسرائيل بعد الفراغ مما فعله فرعون وقومه.

قال مقاتل: "يعني: النيل: نهر مصر".

قال أبو عبيدة: {وَجَاوَزْنَا}: " قطعنا".

قال ابن كثير: "يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا".

قوله تعالى: {فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ} [الأعراف: ١٣٨]، أي: "فمرُّوا على قوم يقيمون ويواظبون على عبادة أصنام لهم".

قال الطبري: "إذ مرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، يقول: يقومون على مُثُل لهم يعبدونها من دون الله".

قال مقاتل: "يعني: فمروا على العمالقة يقيمون على أصنام لهم يعبدونها".

قال ابن كثير: "أي: فمروا {عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ} قال بعض =

=

المفسرين: كانوا من الكنعانيين. وقيل: كانوا من لخم".

قال ابن جريج: " {على أصنام لهم}، قال: تماثيل بقر. فلما كان عجل السامريّ شبِّه لهم أنه من تلك البقر، فذلك كان أوّل شأن العجل: {قالوا يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون}.

عن قتادة: "{فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم}، قال: على لخم".

قال الزجاج: "معنى: {يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ}، أي: يواظبون عليها ويلازمونها، يقال لكل من لزم شيئًا وواظب عَلَيْهِ. عكفَ يَعْكِف ويعْكفُ. ومن هذا قيل للملازم للمسجد معتكف".

قوله تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} [الأعراف: ١٣٨]، أي: "قال بنو إسرائيل: اجعل لنا يا موسى صنمًا نعبده ونتخذه إلهًا، كما لهؤلاء القوم أصنام يعبدونها".

قال الطبري: "يقول: مثالا نعبده وصنما نتخذُه إلهًا، كما لهؤلاء القوم أصنامٌ يعبدونها".

قال مقاتل: "فقالت بنو إسرائيل: قالوا يا موسى اجعل لنا إلها نعبده كما لهم آلهة يعبدونها". قال مقاتل: "فعبدوا العجل لتمام تسعة وثلاثين يوما ثم أتاهم موسى من الغد لتمام الأربعين يوما".

قوله تعالى: {قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} [الأعراف: ١٣٨]، أي: "قال موسى لهم: إنكم أيها القوم تجهلون عظمة الله، ولا تعلمون أن العبادة لا تنبغي إلا لله الواحد القهار".

قال الطبري: "قال موسى صلوات الله عليه: إنكم أيها القوم قوم تجهلون عظمة الله وواجبَ حقه عليكم، ولا تعلمون أنه لا تجوز العبادة لشيء سوى الله الذي له ملك السموات والأرض".

=

=

روي عن أبي واقد الليثي قال: " خرجنا مع رسول الله صلي الله عليه وسلم إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال: لها ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم: الله أكبر إنها السنن قلتم، والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} لتركبن سنن من كان قبلكم.

قال ابن عطية: والظاهر من مقالة بني إسرائيل لموسى (اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة) أنهم استحسنوا ما رأوه من آلهة أولئك القوم فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى وفي جملة ما يتقرب به إلى الله، وإلا فبعيد أن يقولوا لموسى: اجعل لنا صنمًا نفرده بالعبادة ونكفر بربك، فعرفهم موسى أن هذا جهل منهم إذ سألوا أمرًا حرامًا فيه الإشراك في العبادة ومنه يتطرق إلى إفراد الأصنام بالعبادة والكفر بالله ﷻ.

- قال القرطبي: قوله تعالى (قَالُوا يا موسى اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ) نظيره " قول جُهّال الأعْراب وقد رأُوا شجرة خضراء للكفار تُسَمَّى ذاتَ أنْوَاط يعظّمونها في كل سنة يومًا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذاتُ أنْوَاط.

فقال عليه الصلاة والسلام: "الله أكبر، قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى (اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، لتركَبُنّ سنَن مَن قبلكم حَذْوَ القُذّة بالقُذّة حتى إنهم لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه) وكان هذا في مَخْرَجه إلى حُنَين، على ما يأتي بيانه في "براءة" إن شاء الله تعالى.

قال الشوكاني: وَصَفَهُمْ بِالْجَهْلِ لِأَنَّهُمْ قَدْ شَاهَدُوا مِنْ آيَاتِ اللهِ مَا يَزْجُرُ مَنْ لَهُ أَدْنَى عِلْمٍ عَنْ طَلَبِ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ، أَعْنِي: بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدُّ خَلْقِ اللهِ عِنَادًا وَجَهْلًا وَتَلَوُّنًا. وَقَدْ سَلَفَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بَيَانُ مَا جَرَى مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ.

=

=

قال أبو حيان: قوله تعالى (قال إنكم قوم تجهلون) تعجب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من قولهم على أثر ما رأوا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة ووصفهم بالجهل المطلق وأكده بأن لأنه لا جهل أعظم من هذه المقالة ولا أشنع وأتى بلفظ (تجهلون) ولم يقل جهلتم إشعارًا بأن ذلك منهم كالطبع والغريزة لا ينتقلون عنه في ماض ولا مستقبل.

قوله تعالى: {إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ} [الأعراف: ١٣٩]، أي: "إن هؤلاء المقيمين على هذه الأصنام مُهْلَك ما هم فيه من الشرك".

قال ابن كثير: "أي: هالك".

قال السدي: "يقول: مهلك ما هم فيه".

وعن ابن عباس، قوله: " {إن هؤلاء متبر ما هم فيه}، يقول: خُسْران".

قال الزجاج: "{مُتَبَّرٌ} مُهلك وَمُدَمَّر، ويقال لكل إِناءٍ مكسَّرٍ مُتَبَّرٌ، وَكُسَارَتُه يقال له: التِبْر".

قال الطبري: "وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن قيل موسى لقومه من بني إسرائيل. يقول تعالى ذكره: قال لهم موسى: إن هؤلاء العُكوف على هذه الأصنام، الله مُهْلِكٌ ما هم فيه من العمل ومفسده، ومخسرهم فيه، بإثابته إياهم عليه العذاب المهين".

قال الشوكاني: "التَّبَارُ: الْهَلَاكُ، وَكُلُّ إِنَاءٍ مُنْكَسِرٍ فَهُوَ مُتَبَّرٌ، أَيْ: أَنَّ هَؤُلَاءِ هَالِكٌ مَا هُمْ فِيهِ مُدَمَّرٌ مُكَسَّرٌ، وَالَّذِي هم فيه: هو عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ هَذَا الدِّينَ الَّذِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَيْهِ هَالِكٌ مُدَمَّرٌ لَا يَتِمُّ مِنْهُ شَيْءٌ".

قوله تعالى: {وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٣٩]، أي: "ومدمَّر وباطل ما كانوا يعملون من عبادتهم لتلك الأصنام، التي لا تدفع عنهم عذاب الله إذا نزل بهم".

=

=

قال الطبري: أي: "من عبادتهم إياها، فمضمحلّ، لأنه غير نافعهم عند مجيء أمر الله وحلوله بساحتهم، ولا مدافع عنهم بأسَ الله إذا نزل بهم، ولا منقذهم من عذابه إذا عذبهم في القيامة، فهو في معنى ما لم يكن.".

قوله تعالى: {قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا} [الأعراف: ١٤٠]، أي: "قال موسى لقومه: أأطلب لكم معبودًا غير الله المستحق للعبادة؟.

قال الطبري: "قال موسى لقومه: أسِوَى الله ألتمسكم إلهًا، وأجعل لكم معبودًا تعبدونه".

قال أبو عبيدة: {أَبْغِيكُمْ إِلهًا}، أي: أجعل لكم".

قوله تعالى: {وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ١٤٠]، أي: "والله هو الذي خلقكم، وفضَّلكم على عالمي زمانكم بكثرة الأنبياء فيكم، وإهلاك عدوكم وما خصَّكم به من الآيات".

قال الطبري: أي: "فضلكم على عالمي دهركم وزمانكم؟، يقول: أفأبغيكم معبودًا لا ينفعكم ولا يضركم تعبدونه، وتتركون عبادة من فضلكم على الخلق؟ إن هذا منكم لجهل!.

عن أبي العالية: " {فضلكم على العالمين}، قال: ما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم كان في ذلك الزمان فإن لكل زمان عالما". وروي عن مجاهد، والربيع بن أنس، وقتادة، وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك.

❋ ظاهر هذه الآية أن بني إسرائيل هم أفضل العالمين، بينما المعروف أن محمد ﷺ هي أفضل الأمم على الإطلاق، والجواب عن هذه الآية:

الجواب الأول: أن الله فضل بني إسرائيل على عالم زمانهم، بينما الأمة المحمدية مفضلة على سائر الأمم. وهذا قول جمهور المفسرين.

قال أبوة العالية: بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك

=

=

الزمان، فإن لكل زمان عالمًا.
قال ابن كثير: ويجب الحمل على هذا، لأن هذه الأمة أفضل منهم.
لقوله تعالى، خطابًا لهذه الأمة (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ).
ولقوله تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا).
وقال رسول الله ﷺ (أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله) رواه أحمد.
ولقوله ﷺ (أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء،... وسميت أحمد، وجعلت أمتي خير الأمم) رواه أحمد.
ولقوله ﷺ (يدخل الجنة من أمتي زمرة وهم سبعون ألفًا، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر) رواه البخاري.
ومن الآيات المبينة لفضل أمة محمد ﷺ على أمة موسى أنه قال في أمة موسى (مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ) فجعل أعلى مراتبهم الفئة المقتصدة، بخلاف أمة محمد ﷺ فقسمهم إلى ثلاث طوائف، وجعل فيهم طائفة أكمل من الطائفة المقتصدة وذلك في قوله في فاطر (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) فجعل فيهم سابقًا بالخيرات، وهو أعلى من المقتصد، ووعد الجميع بظالمهم ومقتصدهم وسابقهم بجنات عدن في قوله (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ).
الجواب الثاني: أن بني إسرائيل أفضل من العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء، وإلى هذا أشار الرازي والقرطبي والشوكاني.
قال ابن كثير: وفيه نظر، لأن العالمين عام يشمل من قبلهم ومن بعدهم من

=

=

الأنبياء، فإبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، صلوات الله وسلامه عليه.

الجواب الثالث: أن المراد بالعالم الجمع الكثير من الناس، فيكون المعنى: فضلتكم على الكثير من الناس لا الكل، وهذا قول الزمخشري في الكشاف، وضعفه الرازي، والصحيح الأول.

قال ابن عاشور: والمرادُ بالعالمين: أممُ عصرهم، وتفضيلهم عليهم بأنهم ذرية رسول وأنبياءَ، وبأن منهم رسلًا وأنبياء، وبأن الله هداهم إلى التوحيد والخلاص من دين فرعون بعد أن تخبطوا فيه، وبأنه جعلهم أحرارًا بعد أن كانوا عبيدًا، وساقهم إلى امتلاك أرض مباركة وأيدهم بنصره وآياته، وبعث فيهم رسولًا ليقيم لهم الشريعة.

وهذه الفضائِل لم تجتمع لأمة غيرهم يومئذٍ، ومن جملة العالمين هؤلاء القوم الذين أتوا عليهم، وذلك كناية عن إنكار طلبهم اتخاذَ أصنام مثلهم، لأن شأن الفاضل أن لا يقلد المفضول، لأن اقتباس أحوال الغير يتضمن اعترافًا بأنه أرجح رأيًا وأحسن حالًا، في تلك الناحية.

قوله تعالى: {وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ} [الأعراف: ١٤١]، أي: "واذكروا - يا بني إسرائيل - نِعَمنا عليكم إذ أنقذناكم من أَسْر فرعون وآله".

قال الزجاج: "المعنى: واذكروا إِذ أنجيناكم من آل فِرْعَوْن.

قال مقاتل: "يعنى: بنى إسرائيل".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لليهود من بني إسرائيل الذين كانوا بين ظهراني مهاجَر رسول الله ﷺ: واذكروا مع قيلكم هذا الذي قلتموه لموسى بعد رؤيتكم من الآيات والعبر، وبعد النعم التي سلفت مني إليكم، والأيادي التي تقدمتفعلَكم

=

=
ما فعلتم {إذ أنجيناكم من آل فرعون}، وهم الذين كانوا على منهاجه وطريقته في الكفر بالله من قومه".
قوله تعالى: {يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} [الأعراف: ١٤١]، أي: "يذيقونكم أفظع أنواع العذاب وأسوأه".
قال مقاتل: "يعني: يعذبونكم أشد العذاب".
قال الطبري: "يقول: إذ يحملونكم أقبح العذاب وسيئه".
قال الزجاج: "معنى {يَسُومُونَكُمْ} يولُونكم.
عن أبي العالية في قوله: " {وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب}، قال: إن فرعون ملكهم أربعمائة سنة فقالت له الكهنة. سيولد العام بمصر غلام يكون هلاكك على يديه، فبعث في أهل مصر نساء قوابل فإذا ولدت امرأة غلاما أتى به فرعون فقتله ويستحيي الجواري".
قوله تعالى: {يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ} [الأعراف: ١٤١]، أي: "يذبحون الذكور ويستبقون الإناث لامتهانهن في الخدمة".
قال مقاتل: "يعني: قتل الأبناء وترك البنات".
قال الطبري: أي: "{يُقَتِّلُونَ} الذكورَ من أولادهم، يستبقون إناثهم.
عن ابن جريج، قوله: " {ويستحيون نساءكم}، قال: يسترقون نساءكم".
عن السدي: " {وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم}، قال: كان من شأن فرعون أنه رأى رؤيا في المنام أن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فاحترقت القبط، وتركت بني إسرائيل وأحرقت بيوت مصر فدعا السحرة والكهنة والقافة والحازة فأما القافة فهم القافة، وأما الحازة فهم الذين يزجرون الطير. فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنوا إسرائيل منه يعنون بيت المقدس
=

=

رجل يكون على وجهه هلاك مصر، فأمر بني إسرائيل أن لا يولد غلام إلا ذبحوه، ولا يولد لهم جارية إلا تركت وقال: للقبط: انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجا فأدخلوهم، واجعلوا بني إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة، فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم، فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح فلا يكبر الصغير، وقذف الله في مشيخة بني إسرائيل الموت فأسرع فيهم، فدخل رؤس القبط على فرعون فكلموه فقالوا: إن هؤلاء القوم قد وقع فيه الموت فيوشك أن يقع العمل على غلماننا نذبح أبناءهم فلا يبلغ الصغار فيعينون الكبار، فلو أنت كنت تبقي من أولادهم، فأمر أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة".

قوله تعالى: {وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ} [الأعراف: ١٤١]، أي: "وفي هذا العذاب اختبار وابتلاء من الله لكم عظيم فنجاكم منه".

قال الطبري: "يقول: وفي سومهم إياكم سوء العذاب، اختبار من الله لكم ونعمة عظيمة".

قال مقاتل: "يعني بـ (العظم): شدة ما نزل بهم من البلاء".

عن ابن عباس قوله: {بلاء من ربكم عظيم}، يقول: نقمة". وروي عن مجاهد وأبي مالك والسدي نحو ذلك".

(فائدة): عن أبي واقد الليثي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة، فقلت: يا رسول الله! اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في تعليقه على هذا الحديث في كتابه إغاثة اللهفان: (فإذا كان اتخاذ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها اتخاذ إله مع الله تعالى مع

=

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢).

{وَوَاعَدْنَا} بِأَلِفٍ وَدُونِهَا {مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً} نُكَلِّمهُ عِنْد انْتِهَائِهَا بِأَنْ يَصُومهَا وَهِيَ ذُو الْقَعْدَة فَصَامَهَا فَلَمَّا تَمَّتْ أَنْكَرَ خُلُوف فَمه فَاسْتَاك فَأَمَرَهُ الله بِعَشَرَةٍ أُخْرَى لِيُكَلِّمهُ بِخُلُوفِ فَمه كما قال تعالى {وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ} مِنْ ذِي

=

أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها فما الظن بالعكوف حول القبر والدعاء به ودعائه والدعاء عنده فأي نسبة للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون) انتهى بحروفه. وهذا هو الأصل الأصيل في منع التبرك بالمخلوقات إلا ما استثناه الشارع – ومن ذلك التبرك بشعر النبي ﷺ وعرقه وغيرهما مما مس جسده استثناء – من هذا. وقد سمى الله سبحانه وتعالى الذين يطيعون من جادلهم من أهل الباطل في حل ما لم يذكر اسم الله عليه مشركين وذلك في قوله تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} (١) وليس هذا عبادة لهم ولا دعاء لهم من دون الله ولكنهم طاعوهم في تحليل ما حرم الله فكانوا بذلك من المشركين، فكيف بمن يرجو البركة من الأموات ويدعوهم من دون الله أو مع الله سبحانه.

والمقصود أن الشرك بالله أمره عظيم وخطره جسيم ولذلك جاءت الشريعة بسد الذرائع الموصلة إليه من أي باب، مثل: نهي النبي ﷺ عن الصلاة في المقبرة، وشد الرحال لزيارة المقابر، وتجصيص القبور واتخاذها عيدا – أي زيارتها في أوقات محددة متكررة كما يتكرر العيد – واتخاذ السرج عليها إلى غير ذلك.

الْحِجَّة {فَتَمَّ مِيقَات رَبّه} وَقْت وَعْده بِكَلَامِهِ إِيَّاهُ {أَرْبَعِينَ} حَال {لَيْلَة} تَمْيِيز {وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ} عِنْد ذَهَابه إِلَى الْجَبَل لِلْمُنَاجَاةِ {أُخْلُفْنِي} كُنْ خَلِيفَتِي {فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ} أَمْرهمْ {وَلَا تَتَّبِع سَبِيل الْمُفْسِدِينَ} بِمُوَافَقَتِهِمْ عَلَى الْمَعَاصِي.

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣).

{وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا} أَيْ لِلْوَقْتِ الَّذِي وَعَدْنَاهُ بِالْكَلَامِ فِيهِ {وَكَلَّمَهُ رَبّه} بِلَا وَاسِطَة كَلَامًا سَمِعَهُ مِنْ كُلّ جِهَة {قَالَ رَبّ أَرِنِي} نَفْسك {أَنْظُر إِلَيْك قَالَ لَنْ تَرَانِي} أَيْ لَا تَقْدِر عَلَى رُؤْيَتِي وَالتَّعْبِير بِهِ دُون لَنْ أُرَى يُفِيد إِمْكَان رُؤْيَته تَعَالَى {وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَل} الَّذِي هُوَ أَقْوَى مِنْك {فَإِنْ اسْتَقَرَّ} ثَبَتَ {مَكَانه فَسَوْف تَرَانِي} أَيْ تَثْبُت لِرُؤْيَتِي وَإِلَّا فَلَا طَاقَة لَك {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبّه} أَيْ ظَهَرَ مِنْ نُوره قَدْر نِصْف أُنْمُلَة الْخِنْصَر كَمَا فِي حَدِيث صَحَّحَهُ الْحَاكِم {لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا} بِالْقَصْرِ وَالْمَدّ أَيْ مَدْكُوكًا مُسْتَوِيًا بِالْأَرْضِ {وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا} مَغْشِيًّا عَلَيْهِ لِهَوْلِ مَا رَأَى {فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانك} تَنْزِيهًا لَك {تُبْت إِلَيْك} مِنْ سُؤَال مَا لَمْ أُؤْمَر بِهِ {وَأَنَا أَوَّل الْمُؤْمِنِينَ} فِي زَمَانِي[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً} [الأعراف: ١٤٢].

يقول تعالى ممتنا على بني إسرائيل، بما حصل لهم من الهداية، بتكليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وإعطائه التوراة، وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد =

=

موسى ثلاثين ليلة.

قال الطبري: يقول: "وواعدنا موسى لمناجاتنا ثلاثين ليلة، وقيل: إنها ثلاثون ليلة من ذي القعدة".

قوله تعالى: {وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ} [الأعراف: ١٤٢]، أي: "ثم زاده في الأجل بعد ذلك عشر ليال".

قال الطبري: يقول: "يقول: وأتممنا الثلاثين الليلة بعشر ليال".

قال ابن كثير: "فالأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة، والعشر عشر ذي الحجة، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى، عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ، كما قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا} [المائدة: ٣].

عن عطاء في قوله: " {وواعدنا موسى ثلاثين ليلة}، قال: ذو القعدة"." {وأتممناها بعشر}، قال: "عشر ذي الحجة"، قال عطاء قال: "كان ابن عباس يقول في قول الله: {وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر}، قال: ذو القعدة وعشر ذي الحجة".

عن مجاهد: " {وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر}، قال: ذو القعدة، وعشر ذي الحجة".

وعن مسروق: " {وأتممناها بعشر}، قال: عشر الأضحى".

عن ابن عباس: "قال لهم موسى: أطيعوا هارون فإني قد استخلفته عليكم فإني ذاهب إلى ربي، وأجلهم ثلاثين يوما أن يرجع إليهم، فلما أن أتى ربه وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوما وقد صامهن ليلهن ونهارهن كره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم فتناول موسى من نبات الأرض شيئا فمضغه قال له ربه حين أتاه: لم أفطرت؟ وهو أعلم بالذي كان، قال: يا رب إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب

=

=

الرائحة قال: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ارجع حتى تصوم عشرة أيام ثم ائتني ففعل موسى الذي أمره به ربه".

قوله تعالى: {فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً} [الأعراف: ١٤٢]، أي: "فتمَّ ما وَقَّتَه الله لموسى لتكليمه أربعين ليلة".

قال الطبري: "يعني: فكمل الوقت الذي واعد الله موسى أربعين ليلة، وبلغها".

قال ابن جريج: "فبلغ ميقات ربه أربعين ليلة".

عن معتمر بن سليمان، عن أبيه قال: "زعم الحضرمي أن الثلاثين ليلة التي وعد موسى أنه كان ذو القعدة والعشرين ذي الحجة التي تمم الله بها الأربعين ليلة".

قال ابن كثير: "قال المفسرون: فصامها موسى، عليه السلام، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين".

قال القرطبي: "والفائدة في قوله (فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) وقد علم أن ثلاثين وعشرة أربعون، لئلا يتوهم أن المراد أتممنا الثلاثين بعشر منها؛ فبين أن العشر سوى الثلاثين".

قوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي} [الأعراف: ١٤٢]، أي: "وقال موسى لأخيه هارون -حين أراد المضيَّ لمناجاة ربه-: كن خليفتي في قومي حتى أرجع".

استخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد. وهذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون، عليه السلام، نبي شريف كريم على الله، له وجاهة وجلالة، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: لما مضى لموعد ربه قال لأخيه هارون: كن خليفتي فيهم إلى أن أرجع".

عن أبي العالية في قوله: " {وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم}

=

=

الآية، يعني: ذا القعدة وعشرا من ذي الحجة وذلك خلف موسى أصحابه واستخلف عليهم هارون، فمكث على الطور أربعين ليلة وأنزل عليه التوراة في الألواح، فقربه الرب نجيا وكلمه، وسمع صريف القلم، وبلغنا أنه لم يحدث في الأربعين ليلة حتى هبط من الطور".

قوله تعالى: {وَأَصْلِحْ} [الأعراف: ١٤٢]، أي: "وأحمِلَهم على طاعة الله وعبادته".

قال الطبري: "يقول: وأصلحهم بحملك إياهم على طاعة الله وعبادته".

قال ابن جريج: "وكان من إصلاحه أن لا يدع العجل يُعْبد".

قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف: ١٤٢]، أي: "ولا تسلكْ طريق الذين يفسدون في الأرض".

قال الطبري: "يقول: ولا تسلك طريق الذين يفسدون في الأرض، بمعصيتهم ربهم، ومعونتهم أهل المعاصي على عصيانهم ربهم، ولكن اسلك سبيل المطيعين ربهم".

قال ابن كثير: "فلما تم الميقات عزم موسى على الذهاب إلى الطور، كما قال تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ} الآية [طه: ٨٠]، فحينئذ استخلف موسى على بني

إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد. وهذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون، عليه السلام، نبي شريف كريم على الله، له وجاهة وجلالة، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء".

قال الأجلح، قال: "كنا مع الضحاك نسير فمر قوم في زرع فناداني الضحاك لا تسلك طريق المفسدين".

عن ابن جريج قوله: " {وواعدنا موسى ثلاثين ليلة} ، الآية، قال: يقول: إن ذلك

=

=

بعد ما فرغ من فرعون وقبل الطور، لما نجى الله موسى عليه السلام من البحر وغرّق آل فرعون، وخلص إلى الأرض الطيبة، أنزل الله عليهم فيها المنّ والسلوى، وأمره ربه أن يلقَاه، فلما أراد لقاء ربه، استخلف هارون على قومه، وواعدهم أن يأتيهم إلى ثلاثين ليلة، ميعادًا من قِبَله، من غير أمر ربه ولا ميعاده. فتوجه ليلقى ربه، فلما تمت ثلاثون ليلة، قال عدو الله السامريُّ: ليس يأتيكم موسى، وما يصلحكم إلا إله تعبدونه! فناشدهم هارون وقال: لا تفعلوا، انظروا ليلتكم هذه ويومكم هذا، فإن جاء وإلا فعلتم ما بدا لكم! فقالوا: نعم!...

عن أبي بكر بن عبد الله الهذليّ، قال: "قام السامري إلى هارون حين انطلق موسى فقال: يا نبي الله، إنا استعرنا يوم خرجنا من القبط حليًّا كثيرًا من زينتهم، وإن الجند الذين معك قد أسرعوا في الحلي يبيعونه وينفقونه، وإنما كان عارية من آل فرعون، فليسوا بأحياء فنردّها عليهم، ولا ندري لعل أخاك نبيّ الله موسى إذا جاء يكون له فيها رأي، إما يقرّبها قربانا فتأكلها النار، وإما يجعلها للفقراء دون الأغنياء! فقال له هارون: نِعْمَ ما رأيت وما قلت! فأمر مناديًا فنادى: من كان عنده شيء من حليّ آل فرعون فليأتنا به! فأتوه به، فقال هارون: يا سامري أنت أحق من كانت عنده هذه الخزانة! فقبضها السامري، وكان عدو الله الخبيث صائغًا، فصاغ منه عجلا جسدًا، ثم قذف في جوفه تُرْبة من القبضة التي قبض من أثر فرس جبريل عليه السلام إذ رآه في البحر، فجعل يخور، ولم يخر إلا مرة واحدة، وقال لبني إسرائيل: إنما تخلف موسى بعد الثلاثين الليلة يلتمس هذا! {هذا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ} [طه: ٨٨]. يقول: إن موسى عليه السلام نسي ربّه".

قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا} [الأعراف: ١٤٣]، أي: "ولما جاء موسى في الوقت المحدد وهو تمام أربعين ليلة".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ولما جاء موسى للوقت الذي وعدنا أن يلقانا

=

=
فيه".
عن الهيثم بن اليمان، ثنا رجل، قال السدي، حدثني: " {ولما جاء موسى لميقاتنا} : قال: الموعد".
قوله تعالى: {وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: ١٤٣]، أي: "وكلّمه ربه بما كلّمه من وحيه وأمره ونهيه".
قال الطبري: أي:"وناجاه.
قال الشوكاني: "أي: أسمعه كلامه من غير واسطة".
قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ} [الأعراف: ١٤٣]، أي: "أرني ذاتك المقدسة أنظر إليها".
قال الطبري: أي: "{قال} موسى لربه {أرني أنظر إليك} .
عن ابن عباس قوله: " {أرني انظر إليك} ، قال: أعطني".
قال الشوكاني: "أي: أرني نفسك أنظر إليك أي سأله النظر إليه اشتياقا إلى رؤيته لما أسمعه كلامه. وسؤال موسى للرؤية يدل على أنها جائزة عنده في الجملة، ولو كانت مستحيلة عنده لما سألها".
قال القرطبي: "سأل النظر إليه، واشتاق إلى رؤيته لما أسمعه كلامه".
وروي عن الربيع، في قوله: " {وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} [مريم: ٥٢]، قال: حدثني من لقي أصحاب النبي ﷺ أنه قرّبه الربّ حتى سمع صَرِيف القلم، فقال عند ذلك من الشوق إليه: {رب أرني انظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل} .
قال أبو بكر الهذلي: "لما تخلف موسى عليه السلام بعد الثلاثين، حتى سمع كلام الله، اشتاق إلى النظر إليه فقال: {ربّ أرني أنظر إليك! قال: لن تراني} ، وليس لبشر أن يطيق أن ينظر إليّ في الدنيا، من نظر إلي مات! قال: إلهي سمعت منطقك، واشتقت إلى النظر إليك، ولأن أنظر إليك ثم أموتُ أحب إليّ من أن أعيش ولا
=

أراك! قال: فانظر إلى الجبل، فإن استقر مكانه فسوف تراني".

قال القرطبي: "ولا يجوز الحمل على أنه أراد: أرني آية عظيمة لأنظر إلى قدرتك، لأنه قال: {إليك} وقال: {لن تراني}، ولو سأل آية لأعطاه الله ما سأل، كما أعطاه سائر الآيات. وقد كان لموسى عليه السلام فيها مقنع عن طلب آية أخرى، فبطل هذا التأويل".

قوله تعالى: {قَالَ لَنْ تَرَانِي} [الأعراف: ١٤٣]، أي: "لن تقدر على رؤيتي في الدنيا".

والمعنى: أنت أضعف يا موسى من أن تقدر على رؤية خالق السماوات والأرض؛ لأن شأنه أعظم وأمره أكبر وأجلّ من أن يقدر على رؤيته أحد في الدنيا؛ لأن الناس في الدنيا مركّبون تركيبًا لا يبلغ غاية القوة، معرضون للموت والهلاك، فأنت بهذه الدار لا تقدر أن ترى رب السماوات والأرض، وهذا هو التحقيق في الآية.

قال الطبري: أي: "قال الله له مجيبًا: {لن تراني..}.

قال القرطبي: "أي: في الدنيا".

عن ابن عباس قال: "قال موسى لربه: {رب أرني أنظر إليك}، قال: قال الله: يا موسى إنك لن تراني، يقول: ليس تراني، لا يكون ذلك أبدا، إنه يا موسى لا يراني أحد فيحيا، قال: فقال موسى رب أن أراك فأموت أحب إلي من أن لا أراك فأحيا".

قال السعدي: "أي: لن تقدر الآن على رؤيتي، فإن الله تبارك وتعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها، ولا يثبتون لرؤية الله، وليس في هذا دليل على أنهم لا يرونه في الجنة، فإنه قد دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم،

=

وأنه ينشئهم نشأة كاملة، يقدرون معها على رؤية الله تعالى، ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل".

قال ابن الجوزي: وفي هذه الآية دلالة على جواز الرؤية، لأن موسى مع علمه بالله تعالى، سألها، ولو كانت مما يستحيل لما جاز لموسى أن يسألها، ولا يجوز أن يجهل موسى مثل ذلك، لأن معرفة الأنبياء بالله ليس فيها نقص، ولأن الله تعالى لم ينكر عليه المسألة وإنما منعه من الرؤية، ولو استحالت عليه لقال: "لا أُرى"، ألا ترى أن نوحا لما قال (إن ابني من أهلي) أنكر عليه بقوله (إِنه ليس من أهلك)، ومما يدل على جواز الرؤية أنه علَّقها باستقرار الجبل، وذلك جائز غير مستحيل، فدل على أنها جائزة، ألا ترى أن دخول الكفار الجنة لما استحال علَّقه بمستحيل فقال (حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط).

قال الشوكاني: "الجواب بقوله لن تراني يفيد أنه لا يراه هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه، أو أنه لا يرى ما دام الرائي حيا في دار الدنيا، وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواترا لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة، والجدال في مثل هذا والمراوغة لا تأتي بفائدة، ومنهج الحق واضح".

قال ابن كثير: "وقد أشكل حرف {لن} هاهنا على كثير من العلماء؛ لأنها موضوعة لنفي التأبيد، فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة. وهذا أضعف الأقوال؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ} [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقوله تعالى إخبارًا عن الكفار: {كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} [المطففين: ١٥]، وقيل: إنها لنفي التأبيد في الدنيا، جمعا بين هذه الآية، وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة.

=

=

قال ابن الجوزي: قوله تعالى (قال لن تراني) تعلق بهذا نُفاة الرؤية وقالوا: "لن" لنفي الأبد، وذلك غلط، لأنها قد وردت وليس المراد بها الأبد في قوله (ولن يتمنَّوه أبدًا بما قدمت أيديهم) ثم أخبر عنهم بتمنِّيه في النار بقوله (يا مالك ليقض علينا ربك) ولأن ابن عباس قال في تفسيرها: لن تراني في الدنيا.

وقيل: إن هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالى: {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} وقد تقدم ذلك في الأنعام [الآية: ١٠٣].

قوله تعالى: {وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي} [الأعراف: ١٤٣]، أي: "ولكن انظر إلى الجبل، فإن استقر مكانه إذا تجلَّيتُ له فسوف تراني".

قال القرطبي: "ضرب له مثالا مما هو أقوى من بنيته وأثبت. أي فإن ثبت الجبل وسكن فسوف تراني، وإن لم يسكن فإنك لا تطيق رؤيتي، كما أن الجبل لا يطيق رؤيتي. وذكر القاضي عياض عن القاضي أبي بكر بن الطيب ما معناه: أن موسى عليه السلام رأى الله فلذلك خر صعقا، وأن الجبل رأى ربه فصار دكا بإدراك خلقه الله له. واستنبط ذلك من قوله: {ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني}.

عن ابن عباس قوله: " {قال رب أرني أنظر إليك}، فقال الله لموسى: يا موسى انظر إلى الجبل العظيم الطويل الشديد فإن استقر مكانه فسوف تراني".

عن ابن عباس قوله: " {فإن استقر مكانه}، يقول: فإن ثبت مكانه يتضعضع ولم ينهد لبعض ما نزل به من عظمتي فسوف تراني". {فسوف تراني} وأنت بضعفك وذلتك وإن الجبل تضعضع وانهد بقوته وشدته وعظمه فأنت أضعف وأذل".

قال السدي: "إن موسى عليه السلام لما كلمه ربه، أحب أن ينظر إليه، قال: {رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني}،

=

=

فحُفَّ حول الجبل بملائكة، وحُفَّ حول الملائكة بنار، وحُفّ حول النار بملائكة، وحُفّ حول الملائكة بنار، ثم تجلى ربه للجبل".

قوله تعالى: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا} [الأعراف: ١٤٣]، أي: "فلما تجلَّى ربه للجبل جعله دكًّا مستويًا بالأرض، وسقط موسى مغشيًّا عليه".

قال الطبري: "لما اطّلع الرب للجبل، جعل الله الجبل دكًّا، أي: مستويًا بالأرض، {وخر موسى صعقًا}، أي: مغشيا عليه".

قال السعدي: "أي: انهال مثل الرمل، انزعاجا من رؤية الله وعدم ثبوته لها، {وَخَرَّ مُوسَى} حين رأى ما رأى {صَعِقًا} فتبين له حينئذ أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله".

قال القرطبي: "و «تجلى»، معناه: ظهر، من قولك: جلوت العروس أي أبرزتها. وجلوت السيف أبرزته من الصدأ، جلاء فيهما. وتجلى الشيء انكشف. وقيل: تجلى أمره وقدرته، قاله قطرب وغيره".

قال ابن عباس: "تجلى منه مثل الخِنصر، فجعل الجبل دكًّا، وخر موسى صعقًا، فلم يزل صعقًا ما شاء الله".

قال سفيان: "ساخ الجبل في الأرض، حتى وقع في البحر فهو يذهب معه".

عن الربيع: " {فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًّا وخرّ موسى صعقًا}، وذلك أن الجبل حين كُشِف الغطاء ورأى النور، صار مثل دكّ من الدكَّات".

عن أنس: "أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: {فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًّا}، قال هكذا بإصبعه، ووضع النبي ﷺ الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل".

عن مجاهد: " {ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال

=

=

لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه}، فإنه أكبر منك وأشد خلقا، {فلما تجلى ربه للجبل}، فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل يندك على أوله. فلما رأى موسى ما يصنع الجبل، خر صعقًا".

عن ابن جريج: " {وخر موسى صعقًا}، أي: ميتًا".

عن ابن زيد قوله: " {وخر موسى صعقا}، قال: مغشيًّا عليه".

عن قتادة قوله: " {فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًّا}، قال انقعر بعضه على بعض، {وخر موسى صعقًا}، أي: ميتا".

قال ابن كثير: "المعروف أن «الصَّعْق» هو الغشي هاهنا، كما فسره ابن عباس وغيره، لا كما فسره قتادة بالموت، وإن كان ذلك صحيحًا في اللغة، كقوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} [الزمر: ٦٨] فإن هناك قرينة تدل على الموت كما أن هنا قرينة تدل على الغشي، وهي قوله: {فَلَمَّا أَفَاقَ} والإفاقة إنما تكون من غشي".

عن أبي بكر الهذلي: " {فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًّا}، انقعر فدخل تحت الأرض، فلا يظهر إلى يوم القيامة".

وروي القاضي عياض عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "لما تجلى الله لموسى، عليه السلام، كان يبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء، مسيرة عشرة فراسخ".

ثم قال: "ولا يبعد على هذا أن يختص نبيا بما ذكرناه من هذا الباب، بعد الإسراء والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى".

قال ابن كثير: "وكأنه صحح هذا الحديث، وفي صحته نظر، ولا يخلو رجال إسناده من مجاهيل لا يعرفون، ومثل هذا إنما يقبل من رواية العدل الضابط عن مثله، حتى ينتهي إلى منتهاه".

=

=
قرأته عامة قرأة الكوفيين: «جَعَلَهُ دَكَّاءَ»، بالمد وترك الجر والتنوين.
وروي عن عكرمة قال: " «دكَّاء من الدكَّاوات». وقال: لما نظر الله تبارك وتعالى إلى الجبل صار صَحراء ترابًا".
قوله تعالى: {فَلَمَّا أَفَاقَ} [الأعراف: ١٤٣]، أي: "فلما أفاق من غشيته".
قال الطبري: "فلما ثاب إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فهمه من غشيته، وذلك هو الإفاقة من الصعقة التي خرّ لها موسى ﷺ.
قوله تعالى: {قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ١٤٣]، أي: "قال: تنزيهًا لك يا رب عما لا يليق بجلالك، إني تبت إليك من مسألتي إياك الرؤية في هذه الحياة الدنيا، وأنا أول المؤمنين بك من قومي"
قال ابن عباس: "يقول: أنا أوّل من يؤمن أنه لا يراك شيء من خلقك".
قال الطبري: أي: "تنزيهًا لك، يا رب، وتبرئةً أن يراك أحد في الدنيا، ثم يعيش، {تبت إليك}، من مسألتي إياك ما سألتك من الرؤية، {وأنا أوّل المؤمنين}، بك من قومي، أن لا يراك في الدنيا أحد إلا هلك".
قال ابن كثير: "تنزيها وتعظيما وإجلالا أن يراه أحد من الدنيا إلا مات.
قال السعدي: "أي: جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه، بما كمل الله له مما كان يجهله قبل ذلك".
عن مجاهد: "{سبحانك تبت إليك}، قال: من مسألتي الرؤية".
قال الربيع: "لما رأى موسى ذلك وأفاق، عرف أنه قد سأل أمرًا لا ينبغي له، فقال: "سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين"، قال أبو العالية: عنى: إني أوّل من آمن بك أنه لن يراك أحدٌ قبل يوم القيامة".
عن ابن عباس: " {وخر موسى صعقًا}، فمرّت به الملائكة وقد صعق، فقالت: يا ابن النساء الحيَّض، لقد سألت ربك أمرًا عظيمًا! فلما أفاق قال: سبحانك لا إله
=

=

إلا أنت تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين! قال: أنا أوّل من آمن أنه لا يراك أحدٌ من خلقك، يعني: في الدنيا".

وروي عن ابن عباس في قوله: " {وأنا أول المؤمنين}، قال: أول من آمن بك من بني إسرائيل".

وفي رواية عن مجاهد، في قول الله: "وأنا أول المؤمنين"، أنا أول قومي إيمانًا".

وروي عن أبي العالية في قوله: " {تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين}، قال: كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أوّل من آمن بأنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة".

قال ابن كثير: "وهذا قول حسن له اتجاه. وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره هاهنا أثرًا طويلا فيه غرائب وعجائب، عن محمد بن إسحاق بن يسار رَحِمَهُ اللَّهُ وكأنه تلقاه من الإسرائيليات، والله تعالى أعلم".

عن أبي سعيد الخدري، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: "جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه، فقال: يا محمد، إن رجلا من أصحابك من الأنصار لطم وجهي. قال: "ادعوه" فدعوه، قال: "لم لطمت وجهه؟ " قال: يا رسول الله، إني مررت باليهودي فسمعته يقول: والذي اصطفى موسى على البشر. قال: قلت: وعلى محمد؟ فأخذتني غضبة فلطمته، قال: "لا تخيروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور".

قال ابن كثير: "وقوله: "فإن الناس يصعقون يوم القيامة"، الظاهر أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة، يحصل أمر يصعقون منه، والله أعلم به. وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، وتجلى للخلائق الملك الديان، كما صعق موسى من تجلي الرب، عَزَّ وَجَلَّ، ولهذا قال، عَلَيْهِ السَّلَامُ: "فلا أدري أفاق قبلي أم

=

=

جوزي بصعقة الطور"؟.

(**تنبيه**): استدل بهذه الآية المعتزلة والجهمية، ووجه استدلالهم. أن لن كلمة تدل على التأبيد كما هو مشهور في كتب اللغة عن الزمخشري المعتزلي ومن نحا نحوه. وذلك ليس بسديد من وجوه.

أولًا: دعواهم تأبيد النفي بلن وأن ذلك يدل على نفي الرؤية فاسد وباطل والدليل على فساده وبطلانه قوله عز من قائل في صفة اليهود: {وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا} لأنهم يتمنون الموت يوم القيامة بدليل قوله تعالى: {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ}.

ثانيا: أنها لو كانت تفيد التأبيد لما كان يحسن ذكر لفظ الأبد بعدها إذ يكون ذكره بعدها تكرارًا والأصل عدمه ولكن ذكر الأبد بعدها واقع في أفصح الكلام قال عزوجل: {وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا} وقال تعالى: {وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا}.

ثالثا: أنها لو كانت للتأبيد لم يقيد منفيها باليوم في قوله عزوجل: {فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا}.

رابعا: أنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها وقد جاء ذلك في قوله تعالى: {فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي} فثبت حينئذ أن لن لا تقتضي النفي المؤبد قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومن رأى النفي بلن مؤبدًا: فقوله اردد وسواه فاعضدا.

قلت وقد ذكر الزمخشري في كشافه (٢/ ١١٣) عند قوله تعالى: {لَن تَرَانِي.. الخ} ما نصه: فإن قلت ما معنى لن قلت معناها تأكيد النفي الذي تعطيه لا وذلك أن لا تنفي المستقبل تقول لا أفعل غدا فإذا أكدت نفيه قلت لن أفعل غدا والمعنى أن فعله ينافي حالته كقوله تعالى: {لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ} اهـ.

أقول وبالله التوفيق إن قول الزمخشري إن لن تفيد التأكيد هو خلاف ما عليه جل النحاة.

=

=

قال أبو الحسن الأشموني كما في شرح الأشموني على ألفية ابن مالك مع حاشية الصبان (٣/ ٣٧٨): فأما لن فحرف نفي تختص بالمضارع وتخلصه للاستقبال وتنصبه كما تنصب لا الاسم نحو لن أضرب ولن أقوم فتنفي ما أثبت بحرف التنفيس ولا تفيد تأبيد النفي ولا تأكيده خلافا للزمخشري.

وقال ابن هشام كما في في مغنى اللبيب مع حاشية محمد الأمير (١/ ٣٣١): ولا تفيد لن توكيد النفي خلافا للزمخشري في كشافه ولا تأبيده خلافا له في أنموذجه وكلاهما دعوى بلا دليل)).

وقال أيضا كما فيشرح القطر (ص٨٠): بل قولك لن أقوم محتمل لأن تريد بذلك أنك لاتقوم أبدا وأنك لا تقوم في بعض أزمنة المستقبل وهو موافق لقولك لا أقوم في عدم إفادة التأكيد.

وفي حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على الألفية (٢/ ١١٠): لن حرف ينفي المضارع وينصبه ويخلصه للاستقبال فهو ينفي المستقبل والسين يثبته ولايفيد تأبيد النفي خلافا للزمخشري في أنموذجه. وأما قوله تعالى: {لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا} فالتأكيد فيه خارج عن لن لا منها -وذلك أن جملة لن يخلقوا الخ وارادة مورد التعجيز لأنه لما كان الخلق والايجاد للانفس مختصا بالمولى تقدست أسماؤه وما سواه عاجز عن ذلك دلت الآية الكريمة بجملتها على عجز المخلوق عجزا مؤبدا عن أن يخلق ذبابة فوضح أن التأبيد مستفاد من غير لن - ولا تأكده خلافا له في كشافه لكن وافقه على التأكيد كثيرون اهـ. قلت فقول الخضري لكن وافقه كثيرون. نعم وافقه كثيرون ولكن هذه الكثرة بالنسبة للقائلين بعدم التأكيد قليل ويظهر ذلك جليا لمن تتبع كتب اللغة وأقوال المتبحرين في هذا الفن ولو سلمنا جدلا بأن لن في قوله تعالى: {لَن تَرَانِي} للتأكيد فهل يا ترى تفيد النفي الدائم الذي فهمه الزمخشري وأمثاله حتى جعلوا رؤية الله عزوجل بالأبصار مستحيلة

=

=

بمقتضى ما فهموه من الآية الكريمة.

أليس قال تعالى حكاية عن قصة موسى مع الخضر: {إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} (٢) وهو جائز غير محال.

وهذا الفخر الرازي في تفسيره (١٤/ ٣٣٣) يوافق الزمخشري في أن لن للتأكيد ولكنه يرد عليه في كونها لتأكيد النفي الدائم. فيقول: إن لن لتأكيد نفي ما وقع السؤال عنه والسؤال إنما وقع عن تحصيل الرؤية في الحال فكأن قوله عزوجل: {لَن تَرَانِي} نفي لذلك المطلوب فأما أن يفيد النفي الدائم فلا.

قلت وقد سبق أ، الزمخشري يسوي بين قوله تعالى: {لَن تَرَانِي} وبين قوله عزوجل: {لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ} على أن مفاد الآيتين سواء في تأكيد النفي المؤبد وهذا مغالطة منه وهروب من الحق لأن بين الآيتين بونا وفرقا شاسعا وقد مر بنا قول الخضري. وأما قوله تعالى: {لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا} التأييد فيه خارج عن لن لا منها اهـ قلت ومن ذلك أيضا قوله تعالى: {وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ} فليس التأبيد دلت عليه لن بل من دليل خارج.

قال أحمد الإسكندري في الإنصاف على الكشاف للزمخشري (٢/ ١١٤): لن كما قال تشارك لا في النفي وتمتاز بمزيد تأكيده وأما استنباط الزمخشري من ذلك منافاة الرؤية لحال الباري ﷻ ثم إطلاق الحال على الله مما يستحرز عنه واستشهاده على أن لن تشعر باستحالة المنفي بها عقلا مردود كثيرا بكثير من الآي كقوله تعالى: {فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا} فذلك لايحيل خروجهم عقلا {لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ} {لَّن تَتَّبِعُونَا} فهذه كلها جائزات عقلا لولا أن الخبر منع من وقوعها فالرؤية كذلك اهـ

قلت فإذا فهمت ذلك فاعلم أن قوله تعالى: {لَن تَرَانِي الخ} هي أدل على جواز الرؤية منها على استحالتها عكس مافهمه النفاة كالمعتزلة وغيرهم ويظهر ذلك

=

=

جليا لمن نهج سبيل الحق واجتنب اتباع الهوى وأمعن النظر في الآية الكريمة أعني في سؤال موسى عليه السلام {رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ} وجواب الرب جل وعلا عليه بقوله: {لَن تَرَانِي} فهل كان نبي الله وكليمه عليه السلام عالما بجواز رؤية الله أم جاهلا بذلك. فإن كان جاهلا فهو غير عارف بالله عزوجل حق معرفته وليس يليق ذلك بجناب النبوة. وإن كان عالما بجواز رؤية الله عز وجل فقد سأل مولاه جل وعلا ما يجوز وقوعه لا ما يستحيل لأن السؤال لا يكون بالمستحيل.

وكذا قوله تعالى: {لَن تَرَانِي} فإنه غير خاف على ذوي العقول السليمة أنه دليل على جواز رؤية الله عزوجل لا على أنها محال. لأنه عزوجل ما قال لست بمرئي وإنما قال لن تراني. فأثبت العجز وذلك لضعف البشر في الدنيا ووعد بالرؤية بدليل قوله تعالى: {وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي}. فلما كان الجبل غير مطيق للتجلي مع شدته وصلابته بل خر دكا من عظمة الله سبحانه علم أن البشر في الدنيا غير مطيقين بطريق الأولى لاسيما والضعف صفتهم كما قال سبحانه: {وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا}. ولما ربط الله عزوجل المنع بأمر جائز ومع جوازه أحال المنع على ضعف الآلة علمنا أن رؤية الله عزوجل جائزة غير مستحيلة.

وقد استدل شارح الطحاوية (ص٣٠٦-٣٠٧) بهذه الآية الكريمة على إثبات رؤية الله عزوجل من سبعة وجوه وهذا نصها.

أحدها: أنه لايظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقته أن يسأل مالا يجوز عليه بل هو عندهم من أعظم المحال.

الثاني: أن الله لم ينكر عليه سؤاله ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله وقال: {إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}.

الثالث: أنه تعالى قال: {لَن تَرَانِي} ولم يقل إني لا أرى أو لا تجوز رؤيتي أو لست

=

=

بمرئي والفرق بين الجوابين ظاهر. ألا ترى أن من كان في كمه حجر فظنه رجل طعاما فقال: اطعمنيه فالجواب الصحيح أنه لا يؤكل أما إذا كان طعامه صح أن يقال إنك لن تأكله وهذا يدل على أنه سبحانه مرئي ولكن موسى لا تتحمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى يوضحه الوجه الرابع: وهو قوله: {وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي} فاعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لايثبت للتجلي في هذه الدار فكيف بالبشر الذين خلقوا من ضعف.

الخامس: أن الله سبحانه قادر على أن يجعل الجبل مستقرا وذلك ممكن وقد علق به الرؤية ولو كانت محالا لكان نظير أن يقول ان استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام والكل عندهم سواء.

السادس: قوله تعالى: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا}. فإذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه في دار كرامته ولكن الله أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضعف.

السابع: أن الله كلم موسى وناداه وناجاه ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز ولهذا لايتم إنكار رؤيته إلا بإنكار كلامه وقد جمعوا بينهما.

فإذا تبين لك ذلك فاعلم أن الزمخشري ذكر في كشافه (٢/ ١١٣) أنه ما كان طلب الرؤية إلا ليبكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالا وتبرأ من فعلهم وليلقمهم الحجر وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم بالخطأ ونبههم على الحق فلجوا وتمادوا في لجاجهم وقالوا لابد و {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً} فأرادوا أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك وهو قوله {لَن تَرَانِي}

=

ليتيقنوا وينزاح عنهم ما دخلهم من الشبهة فلذلك قال: {رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ} اهـ.

قلت وبالله التوفيق إن قول الزمخشري هذا مخالف للظاهر من كل وجه وقرينة المقال تدل على أن السؤال كان مقصورا على كليم الله من كل وجه إذ قال {وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي} ولم يقل انظروا... الخ بصيغة الجماعة.

ثانيا: إنه لايجوز لنبي الله أن يسأل ربه محالا إذ لو جاز ذلك لكان عبثا وهو غير لائق بالأنبياء.

ثالثا: إنه لما قال له قومه {اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} لم يلزمهم بالسؤال عن الله عزوجل بل أجابهم في الحال {قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}. إذ كان تحقيق طلبهم ممتنعا شرعا فكذلك رؤية الله تعالى لو كانت مستحيلة لأجابهم كما فعل في تلك.

قال في الانصاف (٢/ ١١٣) فالحق أن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه لعلمه بجواز ذلك والقدرية يجبرهم الطمع ويجرؤهم حتى يروموا أن يجعلوا موسى عليه السلام كان على معتقدهم وما هم حينئذ إلا ممن آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها وأما قوله عليه السلام: {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا} تبريا من أفاعيلهم وتسفيها لهم وتضليلا برأيهم فلا راحة للقدرية في الاستشهاد به على إنكار موسى عليه السلام لجواز الرؤية فإن الذي كان الإهلاك بسببه إنما هو عبادة العجل في قول أكثر المفسرين ثم وإن كان السبب طلبهم للرؤية فليس لأنها غير جائزة على الله ولكن لأن الله تعالى أخبر أنها لاتقع في دار الدنيا والخبر صدق وذلك بعد سؤال موسى للرؤية فلما سألوه وقد سمعوا الخبر بعدم وقوعها كان طلبهم خلاف المعلوم تكذيبا لما خبر فمن ثم سفههم موسى عليه السلام وتبرأ من طلب ما أخبر الله أنه لايقع ولو كان سؤالهم الرؤية قبل إخبار الله تعالى بعدم =

=

وقوعها فإنما سفههم موسى عليه السلام لاقتراحهم على الله هذه الآية خاصة وتوقيفهم الإيمان عليها حيث قالوا {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً} ألا ترى أن قولهم {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا} إنما سألوا فيه جائزا ومع ذلك قُرعوا به لاقتراحهم على الله ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر الزمخشري بعين الهوى وعمايته عن سبيل الهدى والله الموفق انتهى كلامه.

قال: أبو السعود في تفسيره (٢/ ٤٠٠) وجعل السؤال لتبكيت قومه الذين قالوا {أَرِنَا اللهِ جَهْرَةً} خطأ إذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبهتهم كما فعل ذلك حين قالوا {اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} وكما قال لأخيه {وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} انتهى كلامه.

وفي التفسير الكبير للفخر الرازي:.. وأما التأويل بأنه عليه السلام إنما سأل الرؤية لقومه لا لنفسه فهو أيضا فاسد ويدل عليه وجوه.

الأول: أنه لو كان الأمر كذلك لقال موسى أرهم ينظروا إليك ولقال الله تعالى لن يروني فلما لم يكن كذلك بطل هذا التأويل.

والثاني: أنه لو كان هذا السؤال طلبا لمحال لمنعهم عنه كما أنهم لما قالوا: {اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}. منعهم عنه بقوله {إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}.

والثالث: أنه كان يجب على موسى إقامة الدلائل على أنه تعالى لاتجوز رؤيته وأن يمنع قومه بتلك الدلائل عن هذا السؤال فأما أن لايذكر شيئا من تلك الدلائل البتة مع أن ذكرها كان فرضا مضيقا كان هذا نسبة لترك الواجب إلى موسى عليه السلام وأنه لايجوز.

والرابع: أن أولئك الأقوام الذين طلبوا الرؤية إما أن يكونوا قد آمنوا بنبوة موسى عليه السلام أو لم يؤمنوا بها فإن كان الأول كفاهم في الامتناع عن ذلك السؤال الباطل

=

=

مجرد قول موسى عليه السلام فلا حاجة إلى هذا السؤال الذي ذكره موسى عليه السلام وإن كان الثاني لم ينتفعوا بهذا الجواب لأنهم يقولون له لانسلم أن الله منع الرؤية بل هذا قول افتريته على الله تعالى فثبت أن على كلا التقديرين لا فائدة لهم في قول موسى عليه السلام: {أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ} انتهى كلامه.

ثم أعلم مرة أخرى أن االزمخشري قال في كشافه (٢/ ١١٣-١١٦) ما نصه: فإن قلت كيف اتصل الاستدراك في قوله: {وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ}. بما قبله. قلت اتصل به على معنى أن النظر إلي محال فلا تطلبه ولكن عليك بنظر آخر وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم إلى أن قال هذا المعتزلي ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهبا ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة-يعني قولهم بلا كيفية- فإنه من منصوبات أشياخهم والقول ما قال بعض العدلية فيهم:

لجماعة سموا هواهم سنة قد شبهوه بخلقه وتخوفوا.

وجماعة حمر لعمري موكفه شنع الورى فتستروا بالبلكفة.

أقول وبالله التوفيق إن قول الزمخشري: فإن قلت كيف اتصل الإدراك الخ هذا من حيله وحيل أتباعه من المعتزلة القائلين بأن قوله عزوجل {فَسَوْفَ تَرَانِي} تعليق لوجود الرؤية بوجود ما ل ايكون من استقرار الجبل مكانه حين يدكه دكا ويسويه بالأرض كما ذكره في كشافه.

والمعنى أنه سبحانه وتعالى علق الرؤية على شرط محال وهو استقرار الجبل وهذا تأويل فاسد ورأي باطل لأن المعلق عليه استقرار الجبل وذلك جائز وممكن كما سبق بيانه موضحا.

قال أحمد الإسكندري في الانصاف على الكشاف (٢/ ١١٥): استقرار الجبل ممكن وقد علق عليه وقوع الرؤية والمعلق على الممكن ممكن والمعتزلة

=

=

يعتقدون أن خلاف المعلوم لايجوز أن يكون مقدورا ونحن نقول مقدور ولكن ما تعلقت المشيئة بإيجاده وقولنا أقعد بالأدلة وأسعد بالإجلال في الخطاب ا.هـ.

وقال الفخر الرازي في التفسيره الكبير (١٤/ ٢٢١): من الوجوه المستنبطة من هذه الآية أنه تعالى علق رؤيته على أمر جائز والمعلق على الجائز جائز فيلزم كون الرؤية في نفسها جائزة إنما قلنا إنه تعالى علق رؤيته على أمر جائز لأنه تعالى علق رؤيته على استقرار الجبل بدليل قوله تعالى: {فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي}. واستقرار الجبل أمر جائز الوجود في نفسه فثبت أنه تعالى علق رؤيته على أمر جائز الوجود في نفسه إذا ثبت هذا وجب أن تكون رؤيته جائزة الوجود في نفسها اهـ.

وقال البيضاوي عند قوله تعالى {لَن تَرَانِي.. الخ} استدراك يريد أن يبين أنه لا يطيقه وفي تعليق الرؤية بالاستقرار أيضا دليل على الجواز لأن المعلق على الممكن ممكن. أهـ.

قلت: وأما قول الزمخشري يرجف بك وبمن طلبت لهم الرؤية، هذا بناء على مذهبه الفاسد أن موسى عليه السلام طلب الرؤية لقومه لا لنفسه وقد مر قريبا ما أوردنا في الرد عليه في ذلك بما فيه الكفاية ثم انظر أيها القارئ إلى انتقال الزمخشري من المكابرة والجدال بالتأويلات الفاسدة إلى ما سمعته من هجاء أهل السنة والجماعة والطعن فيهم وكان هو المستحق لذلك ثم انظر إلى جعله إثبات رؤية الله تعالى الثابتة بالآيات والأحاديث الصحيحة المتفق على صحتها منافيا للاتسام بأهل السنة ولكن صدق من قال: عجبا لقوم ظالمين تلقبوا قد جاءهم من حيث لا يدرونه وتلقبوا عدلية قلنا نعم بالعدل ما فيهم لعمري معرفة تعطيل ذات الله مع نفي الصفة عدلوا بربهم فحسبهم سفه.

وقال أحمد الاسكندري في الانصاف على الكشاف (٢/ ١١٥- ١١٦) عند

=

=

وقوفه على هجاء الزمخشري أهل السنة مانصه: وقد انتقل الزمخشري في هذا الفصل إلى ما تسمعه من هجاء أهل السنة ولولا الاستنان بحسان بن ثابت الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاعره والمنافح عنه وروح القدس معه لقلنا لهؤلاء المتلقبين بالعدلية سلاما ولكن كما نافح حسان عن رسول الله أعداءه فنحن ننافح عن أصحاب سنة رسول الله ﷺ أعداءها. فنقول

وجماعة كفروا برؤية ربهم وتلقبوا عدلية قلنا أجل وتلقبوا الناجين كلا إنهم.

حقا ووعد الله ما لن يخلفه عدلوا بربهمو فحسبهمو سفه إن لم يكونوا في لظى فعلي شفهه.

قلت وقال بعضهم في الرد عليه أيضا:

هل نحن من أهل الهوى أم أنتم اعكس تصب فالوصف فيكم يكفيك في ردي عليك بأننا وبنفي رؤيته فأنت حرمتها فنراه في الأخرى بلا كيفية.

ومن الذي منا حمير مؤكفةْ كالشمس فارجع عن مقال الزخرفةْ نحتج بالآيات لا بالسفسطةْ إن لم تقل بكلام أهل المعرفةْ وكذاك من غير ارتسام للصفةْ.

وقال أبو حيان في الرد عليه كما في حاشية العطار على جمع الجوامع مع (٢/ ٤٦٦): شبهت جهلا صدر أمة أحمد وجب الخسار عليك فانظر منصفا أترى الكليم أتى بجهل ما أتى إن الوجوه إليه ناضرة بذا نطق الكتاب وأنت تنطق بالهوى.

وذوي البصائر بالحمير المؤكفةْ في آية الأعراف فهي المنصفةْ وأتى شيوخك ما أتوا عن معرفةْ جاء الكتاب فقلتموا هذا سفه فهوى الهوى بك في المهاوي المتلفةْ.

قال العطار: ولو ادعى مدع أن هذا ألطف الردود وآمنها لسلم له فلاشتغال بعد ذلك بالرد عليه كالتشفي بالقتيل بعد قتله: مالجرح بميت إيلام.

=

=

ثم اعلم أيها القارئ أن كتاب الله عزوجل وسنة رسوله ﷺ مملوءان بالآيات والأحاديث الصحيحة الدالة على إثبات رؤية الله عزوجل يوم القيامة مما يجعلك على يقين من العلم بأن المخالف في ذلك وإن كان بصره صحيحا فبصيرته عمياء وأذنه عن سماع الحق صماء يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع إلا الباطل ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق غفلة منه وجهلا بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح وتلقي ما جاء به الكتاب العزيز والسنة المطهرة بالإيمان والتسليم فنسأل الله تعالى الهداية.

وكم من عائب قولا صحيحا. وآفته من الفهم السقيم.

وقد مر في أصل الكتاب أدلة أخرى من كتاب الله عزوجل وسنة رسوله ﷺ على إثبات الرؤية.

والخلاصة أن رؤية العباد لربهم في الآخرة حق وأنها أفضل اللذات وأكمل النعيم الذي يرتقي إليه البشر في دار الكرامة والرضوان وأنها أحق ما يصدق عليه قوله تعالى: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} وقوله عزوجل في الحديث القدسي الذي رواه عنه رسول الله ﷺ: أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال ابن القيم في نونيته:

ويرونه سبحانه من فوقهم ... نظر العيان كما يرى القمران

هذا تواتر عن رسول الله لم ... ينكره إلا فاسد الإيمان

وأتى به القرآن تصريحًا وتعـ ... ـريضًا هما بسياقه نوعان

وهي الزيادة قد أتت في يونس ... تفسير من قد جاء بالقرآن

ورواه عنه مسلم بصحيحه ... يروي صهيب ذا بلا كتمان

=

=

وهـو المزيـد كـذاك فـسره أبـو بكـر هـو الـصديق ذو الإيقـان
وعليـه أصـحاب الرسـول وتـابعو هـم بعـدهم تبعيـة الإحـسان
ولقـد أتـى ذكـر اللقـاء لربنـا الـرَّ حمـن في سـور مـن الفرقـان
ولقـاؤه إذ ذاك رؤيتـه حكـى الإ جمـاع فيـه جماعـة ببيـان
وعليـه أصـحاب الحـديث جميعهم لغـة وعرفًـا لـيس يختلفـان.

(تنبيه) قد نقلنا ردود كثير من الأشاعرة على المعتزلة في هذا التعليق فلا يظن ظان أن مذهب الأشاعرة في مسألة الرؤية كمذهب أهل السنة لأن مذهب الأشاعرة أيضا باطل وملخصه: أن الرؤية ليست إلى جهة، وإنما تكون إدراكًا، فردُّوا قول المعتزلة في أنَّ الرؤية ممتنعة بإثباتها، ووافقوهم في أنَّ ليس على العرش رب وأنَّ الله سبحانه ليس في جهة - جهة العلو - فقالوا الرؤية لا إلى جهة.

وكيف تكون رؤيةً إذًا وليست إلى جهة؟ وإنما نقلنا ردهم على المعتزلة من باب اللهم أهلك الظالمين بالظالمين. انظر رسالة عظم المنة في رؤية المؤمنين ربهم في الجنة.

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية (١/ ١٥٣): هذه المسألة مسألة عظيمة جدًا، وهي مسألة رؤية الرب ﷻ في الجنة.

ورؤية الله -جل جلاله- في جنات النعيم هي أعلا ما يَلتذُّ به أهل الجنة، فأهل الجنة أعلا نعيمهم رؤية وجه الله ﷻ، وذلك لأنه منتهى الجمال؛ ولأنّ في الرؤية الرضا، ولأنّ في الرؤية الإكرام، ولأنّ في الرؤية صلاح القلب برؤية محبوبه ﷻ.

فكل أنواع الجمال التي يتعلق بها المتعلقون إنما هي بعض جمال صفات الرب ﷻ؛ يعني أنها شيء من جمال الصفات، كما أن رحمة الله ﷻ منها جزء يتراحم به الناس.

=

=

وكذلك جمال الحق ﷻ في ذاته وصفاته وأفعاله من جماله أفاض على هذا الوجود، فصارت الأشياء جميلة لما أفاض عليها ﷻ من جماله ـ، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو الجميل على الحقيقة كيف لا وجمال سائر هذه الأكوان

من بعض آثار الجميل فربها أولى وأجدر عند ذي العرفان

فكل جمال يطمع إليه الطامع وتتعلق به نفس المُتَعَلِّقْ من جمال مخلوقات الدنيا أو من أنواع الجمال والتلذذ في الجنة فإنه ليس بشيء عند الرؤية والتلذذ بمن أفاض ذلك الجمال، وأفاض تلك اللذات على من شاء من خلقه.

ولهذا قال بعض أهل العلم: إنَّ الرؤية لله ﷻ هي الغاية التي شَمَّرَ إليها المشمرون.

فإذا كانت الجنة غاية في تشمير المشمر وفي تَعَبُّد العابد، فإنَّ أعلى نعيم الجنة وأعظم نعيم الجنة أن يرى المؤمنون ربهم ﷻ، كما قال {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة:٢٢-٢٣] ، نظرت إلى الرحمان فاكتست الوجوه نظرة وجمالا وبهاء وحسنى تبارك ربنا وتعالى.

قال (والرُّؤْيةُ حقٌّ لأهلِ الجَنَّةِ) يعني أنَّ الرؤية ثابتة، وهي حق لا مِرْيَة فيه، ولا شك فيه، وهي حق لأهل الجنة فأهل الجنة يرون ربهم ﷻ ويتلذذون بذاك النعيم.

قال (بِغَيْرِ إحَاطَةٍ ولا كَيْفيَّةٍ)

فنفى الإحاطة؛ لأنَّ رؤية الله ﷻ لا يمكن أن تكون بإحاطة للمرئي، كما قال سبحانه {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام:١٠٣] ، فرؤية الله ﷻ رؤية عيان؛ لكن لا يمكن أن يُحَاطَ بالله ﷻ رؤية كما لا يمكن أن يحاط بالله ﷻ علمًا {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [طه:١١٠] ، ولكن أصل العلم بالله ﷻ ثابت، وكذلك الرؤية لا يحاط بها فلا تُدْرَكْ؛ لا تُدْرِكُ الربَّ

=

=

ﷻ الأبصار، {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} ، ولكن أصل الرؤية موجود.

فالمنفي إذًا في الآيات الإحاطة، وهذا ليس في الرؤية وحدها ولكن في كل صفات الله ﷻ؛ فإنَّ الله سبحانه بذاته وبصفاته لا يحاط به علمًا ولا يحاط بالله ﷻ إدراكًا ورؤية.

قال (ولا كَيْفيَّةٍ) يعني لا تُكيَّفُ رؤية الناس لربهم ﷻ؛ وإنّما هي حق على ما جاء في الأدلة، والكيفية منفية؛ لأنَّ رؤية الناس لله ﷻ -يعني بالناس المؤمنين في الجنة- فإنَّ رؤية المؤمنين لله ﷻ في الجنة تبع لصفاته، وصفات الرب ﷻ لا تُعْرَفُ كيفيتها.

فرؤية الرائي للرب ﷻ في دار النعيم والخلود والسعادة ليست رؤية إحاطة ولا تُكَيَّفْ بكيفية:

- لأنَّ الله ﷻ في علوه لا يُعْلَمُ كيف ذلك.
- ولأنَّ الله ﷻ في رؤية المؤمنين إليه لا تُعْلَمُ كيفية ذلك.
- ولأنَّ الله ﷻ في كشف الحجاب الذي يحجبه عن رؤية الخلق إليه لا تُعْلَمُ كيفية ذلك.

فربنا أعلى وأعظم مما يدور في الذهن أو مما يحوم عليه الخاطر أو يتوهمه المتوهم.

فلذلك نُثْبِتُ الرؤية دون نظر في كيف تكون هذه الرؤية، لكنها رؤية بالعيان رؤية بالعينين ليست رؤية قلب، وإنما هي رؤية عينين، كما سيأتي ذلك في الأدلة.

وكما استدل المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله (كما نَطق به كتابُ ربِّنا)

ذكرنا لكم أنَّ هذا من الذي استعمله أهل العلم كثيرًا أن يُنْسَبَ القول والنطق والكلام للقرآن يعنون بذلك من تكلم به وهو الرب ﷻ، فقوله (كما نَطق به كتابُ ربِّنا) لا بأس به ويستعمله كثير من أهل العلم من المحققين والأئمة.

=

=

قال ﷻ ({وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة:٢٢-٢٣]) هذه الآية فيها إثبات رؤية أهل الجنة للرب ﷻ وأنَّ وجوه من رأى الرب ﷻ ستكون (نَاضِرَةٌ) يعني حَسَنَة بَهِيَّة تعلوها النُّضرة والنَّضرة، كما دعا النبي ﷺ بقوله (نضّر الله امرًا -امرؤا- سمع مقالتي فأداها كما سمعها) (١) الحديث، دعا له بنضارة الوجه يعني بالحسن والبهاء والزينة والجمال وهذا إنما هو لأهل الإيمان.

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ} يعني يوم القيامة تلك الوجوه ناضرة حسنة بهية، وتلك الوجوه {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} ناظرة إلى الرب ﷻ؛ يعني رائية ربها ﷻ، تنظر الوجوه إلى الرب ﷻ.

ووجه استشهاد المصنف بآية سورة القيامة من ثلاثة وجوه:

١ - الوجه الأول:

أنَّ النظر عُدِّي بـ (إِلَى) ، وتعدية النظر بـ (إِلَى) تفيد أنَّ معناه الرؤية -كما سيأتي بيان ذلك في المسائل-.

قال ناظرة إلى ربها، وناظرة، والنظر يأتي لمعاني فإذا عدي بـ (إِلَى) كان المراد رؤية العِيَان.

٢ - الوجه الثاني:

أنه جَعَلَ النظر إلى الرب ﷻ مضافًا على الوجوه، فجعل الوجوه هي التي تنظر إلى ربها، قال {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} فالوجوه ناظرة إلى ربها، ومحل الرؤية والنظر في الوجه هو العينان.

٣ - الوجه الثالث:

أنه قال {يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ} ، والنضرة: وهي الحسن والبهاء والسرور والحبور الذي يعلو الوجوه والاطمئنان، هذا إنما يكون بالرؤية لأنها منتهى النعيم واللذة، لا من الانتظار الذي لا يُدْرَى هل بعده نعيم أم بعده غير ذلك.

=

=

فكون الأوجُهْ بالنظر صارت ناضرة، يعني حَسَنَة بَهِيَّة دَلَّ على أَنَّ هذا إنما هو الرؤية لأنه أثر الرؤية، وأما مجرد الانتظار فليس كل مُنْتَظِرٍ للرب ﷻ يُنضَّر وجهه، بل مِنَ المُنتظِرْ مَنْ يكربس في جهنم والعياذ بالله، وسيأتي مزيد بيان أوجه الاستدلال في المسائل إن شاء الله تعالى.

قال (وتَفْسيرُهُ عَلى ما أرادَهُ الله تَعالَى وَعَلِمَهُ)

(تَفْسيرُهُ) يعني تفسير النظر إلى الرب ﷻ عَلى ما أرادَهُ الله تَعالَى وَعَلِمَهُ. التفسير هنا يراد به أحد نوعي التفسير:

وذلك أَنَّهُ جَعَلَ الرؤية حق ونفى في الرؤية التي هي حق ويثبتها: الإحاطة والكيفية.

فدل على أَنَّهُ يُثْبِتُ معنى الرؤية الذي يعلمه السامع للكلام من ظاهر الكلام.

فلما نفى الإحاطة والكيفية دلَّ على أَنَّ قوله (الرُّؤْيةُ حقٌّ لأهلِ الجَنَّةِ) أَنَّ الرؤية على ظاهرها.

وهذا هو المعنى الأول للأشياء، هو المعنى المتبادر للذهن في الصفات.

نقول هذا على ما يتبادر إلى الذهن، فصفة الرحمة معروفة، وصفة الكلام معروف إلى آخره.

والنوع الثاني من التفسير هو التفسير لتمام المعنى وللكيفية.

فإنَّ تمام المعنى والكيفية لا يعلمها إلا الله ﷻ، كما قال سبحانه {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ} [آل عمران:٧] ، على مَنْ وَقَفَ هنا، فأراد بالتأويل الذي هو التفسير تمام المعنى والكيفية.

فإذًا تفسير النظر إلى وجه الله الكريم، تفسير النظر إلى الرب الكريم ﷻ بتمام معناه لا نعلمه، تفسيره على ما أراده الله تعالى، هو حق، وتمام المعنى لا نعلمه كيف ذلك. كيف تُعْطَى العيون القدرة.

=

=

النبي ﷺ قيل له: أرأيت ربك؟ قال (نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ) ؟ (٢) وقال (رَأَيْتُ نُورًا) كما في الصحيح من حديث أبي ذر، وموسى عليه السلام سأل ربه قال {قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا} [الأعراف:١٤٣] ، قالت طائفة من السلف: كَشَفَ الله عز وجل من الحجاب قدر هذه؛ أنملة واحدة، فساح الجبل، فَرُدَّ طلب الرؤية على موسى لأَنَّهُ لن يقدر على ذلك، كذلك قال ﷺ (حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه).

فإذًا الناس ليس عندهم القدرة على الرؤية، فكيف تكون عندهم القدرة على الرؤية؟ وكيف تكون قُواهُم؟ وكيف تكون قُدَرُهُم؟ وكيف يُعطون؟ وعلى أي حال تكون الرؤية وتفسير ذلك على تمام معناه؟

هذا كله لا يُعْلَمْ كما قال (تَفْسِيرُهُ) -يعني بتمام معناه بما يزيد على إثبات الرؤية وأنها حق - على ما أراد الله تعالى وعلمه، لا ندخل في ذلك متأولين ولا متوهمين، كما ذكر بعد ذلك.

وهذه الكلمة تشبه ما ذكره ابن قدامة وغيره عن الإمام أحمد وعن الإمام الشافعي في الآيات والأحاديث التي فيها إثبات الصفات؛ صفات الرب عز وجل، أنهم قالوا: أمروها كما جاءت لا كيف ولا معنى.

وهذه استدل بها بعض أهل التأويل على أنهم - يعني الإمامين - يعنون بذلك التأويل. لا كيف فلا نكيف الصفات. ولا معنى لا نثبت المعنى بل نفوض المعنى والكيفية.

وهذا ليس بمراد، بل المراد من قولهم لا كيف ولا معنى أنَّ إمرار الصفات كما جاءت معناه إثبات الصفات على ما دل عليه ظاهر الكلام؛ لأنَّ الصفة لا تُثْبِتُهَا إلا بما دل عليه ظاهر الكلام.

=

=

ونفي الكيفية عن الصفة يعني الكيفية التي نحا إليها المجسمة.

ونَفْيُ المعنى بقولهم لا كيف ولا معنى؛ يعني المعنى الذي ذهب إليه المؤولة الذي يخالف ظاهر الكلام، ويخالف الإمرار كما جاءت.

فإذًا الإمرار كما جاءت بما يُفْهَمْ، فمن كيَّفَ فقد صار مجسمًا أو صار مكيفًا، ومن تأول المعنى فقد دخل في الكلام بما يخرج اللفظ عن ظاهره.

لهذا قول القائل لا كيف ولا معنى؛ يعني لا كيف كما يقول المجسمة ولا معنى كما يقول المؤولة بما يُخْرِجُ تلك الآيات والأحاديث عن ظاهرها المتبادر منها من إثبات صفات الرب ﷻ والأمور الغيبية بعامة، وهذا كما قال هنا (تَفْسيرُهُ عَلَى ما أرادَهُ الله تَعالَى وَعَلِمَهُ).

قال (وكلُّ ما جاءَ في ذَلك مِنَ الحديث الصَّحيح عَن الرسولِ ﷺ فهو كما قال)

وقد ثبت عن النبي ﷺ رؤية المؤمنين لربهم ﷻ بالتواتر.

عُدَّ ذلك متواترا في أكثر من عشرين حديثًا جاءت عن المصطفي ﷺ في إثبات الرؤية، بأحاديث متنوعة، مختلفة في ألفاظها وفي طرقها عن عدد كبير من الصحابة، فهي متواترة.

ولهذا كَفَّرَ طائفة من أهل السنة من أنكر رؤية الرب ﷻ لأنه إنكار للمتواتر من القرآن وللمتواتر من سنة النبي ﷺ.

قال (فهو كما قال، وَمَعناهُ على ما أراد، لا نَدْخلُ في ذلك مُتَأَوِّلين بِآرَائنا، ولا مُتَوَهِّمِينَ بأهْوَائنَا).

(لا نَدْخلُ في ذلك مُتَأَوِّلين بآرَائنا) يعني نُخْرِجْ هذا الظاهر بتأويل.

(ولا مُتَوَهِّمِينَ بأهْوَائنَا) بما يجعل للرؤية كيفية مُعَيَّنَة، فَنُثْبِتْ الرؤية بكيفية أو لأجل الكيفية ننفي الرؤية كما ذهب إليه المعتزلة وكما ذهب إليه المجسمة.

فالمعتزلة توهموا أنَّ الرؤية تكون بكيفية فنفوا، والمجسمة توَهَّمُوا أنَّ الرؤية

=

قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤).

{قَالَ} تَعَالَى لَهُ {يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُك} اخْتَرْتُك {عَلَى النَّاس} أَهْل زَمَانك {بِرِسَالَاتِي} بِالْجَمْعِ وَالْإِفْرَاد {وَبِكَلَامِي} أَيْ تَكْلِيمِي إِيَّاكَ {فَخُذْ مَا آتيك} مِنْ الْفَضْل {وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ} لِأَنْعُمِي[1].

=

تكون بكيفية فأثبتوها على تلك الكيفية.

(١) قوله تعالى: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي} [الأعراف: ١٤٤]، أي: "قال الله يا موسى: إني اخترتك على الناس برسالاتي إلى خلقي الذين أرسلتك إليهم وبكلامي إياك مِن غير وساطة".

والآية استئناف مسوق لتسليته عليه السلام من عدم الإجابة إلى سؤاله على ما اقتضته الحكمة كأنه قيل: إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما أعطيتك فاغتنمه وثابر على شكره.

قال الطبري: "يقول: اخترتك على الناس {برسالاتي} إلى خلقي، أرسلتك بها إليهم، {وبكلامي}(وبكلامي) إياك من غير واسطة، وهذه فضيلة اختص بها موسى الكليم، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين.

عن أبي مالك قوله: "{اصطفى}، يعني: اختار".

عن قتادة قال: "اتخذ الله إبراهيم خليلا، وكلم موسى تكليما، وجعل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، وهو عبد الله ورسوله من كلمة الله وروحه، وآتى سليمان ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، وآتى داود زبورا وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه وما تأخر صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين".

قال الآلوسي: قوله تعالى (عَلَى الناس) الموجودين في زمانك وهذا كما فضل

=

=

قومه على عالمي زمانهم في قوله سبحانه (يا بنى إسرائيل اذكروا نِعْمَتِي التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين).

(برسالاتي) التي لا أجعلها، ولا أخص بها إلا أفضل الخلق.

(وبكلامي) إياك من غير واسطة، وهذه فضيلة اختص بها موسى الكليم، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين.

(تنبيه): أخبر الله تعالى في كتابه الكريم عن طرق الوحي لرسله الكرام عليهم السلام، وكان منها: التكليم من وراء حجاب، قال تعالى (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) الشورى/ ٥١.

وأخبر تعالى أن التكليم من وراء حجاب هو منزلة عالية للنبي المكلَّم، قال تعالى (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) البقرة/ ٢٥٣.

ومن هؤلاء المكلَّمين:

١ - آدم عليه السلام.

عن أبي أمامة أن رجلا قال: يا رسول الله أنبيٌّ كان آدم؟ قال: (نَعَمْ مُكَلَّمٌ) قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: (عَشْرَةُ قُرُون) رواه ابن حبان في " صحيحه " (١٤/ ٦٩) وإسناده صحيح.

٢- موسى عليه السلام.

قال تعالى (وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) النساء/ ١٦٤، وقال عز وجل (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) الأعراف/ ١٤٣، وقال سبحانه (يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي) لأعراف/ ١٤٤.

٣- محمَّد صلى الله عليه وسلم.

=

=

وهو ثابت في رحلة المعراج إلى السماء، وفيها قوله ﷺ: (فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمَا أُمِرْتَ؟ قَالَ: أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ وَإِنِّي وَاللهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَرَجَعْتُ، فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ... فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأُسَلِّمُ.

رواه البخاري (٣٦٧٤) ومسلم (١٦٢).

قال الحافظ في الفتح (٧/ ٢١٦): هذا من أقوى ما استُدل به على أن الله سبحانه وتعالى كلَّم نبيَّه محمَّدًا ﷺ ليلة الإسراء بغير واسطة.

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٧٠): (مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ) يعني: موسى ومحمَّدًا ﷺ، وكذلك آدم، كما ورد به الحديث المروي في " صحيح ابن حبان " عن أبي ذر رضي الله عنه.

(وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي ﷺ الأنبياء في السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل".

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٢/ ٣٢٠): "إن الله كلم موسى وأمره بلا واسطة وكذلك كلم محمدا ﷺ وأمره ليلة المعراج وكذلك كلم آدم وأمره بلا واسطة وهي أوامر دينية شرعية.

وقال علماء اللجنة الدائمة (٢/ ٤٥١): إن النبي ﷺ قد أسري به إلى بيت المقدس، ثم عرج به إلى السماء، وكلم الله سبحانه نبيه محمدا ﷺ بدون واسطة، وفرض عليه الصلوات، وأخذ النبي ﷺ يراجع ربه في الصلوات حتى استقرت خمس صلوات وهي خمسون في الأجر، وقال الله جل وعلا: «أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي» وهذا الحديث ثابت عن النبي ﷺ، بل متواتر، وهو سبحانه

=

=

قد كلم موسى تكليما، وهكذا كلم محمدا ﷺ حين عرج به إلى السماء وفرضت عليكم الصلوات الخمس، وهو سبحانه يتكلم إذا شاء كلاما يليق بجلاله، لا يشابه خلقه في شيء من صفاته، كما قال الله سبحانه: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}".

وقال العلامة العثيمين كما في مجموع فتاواه (٥/ ٤٠): " ثبت أن الله كلم محمدا، ﷺ ليلة المعراج".

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن هذا التكليم كان بواسطة جبريل، فقالوا: فأوحى إلى عبده بواسطة جبريل ما أوحى، أي: جبريل. وهذا مردود، إذ الأصل عدم الحذف في الكلام، وظاهر الحديث أن الخطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ كان بغير واسطة، ومن قرائنه مراجعة النبي ﷺ ربه، وكذا يؤكده أن النبي ﷺ رفع إلى موضع لم يرفع إليه موسى عليه السلام الذي فضل بكلام الله، ولا إبراهيم عليه السلام الذي فضل بالخلة، فذلك مستوجب أن يكون فضله أعظم من فضل من دونه، فجدير به أن ينال درجات الفضل التي حصلها من دونه.

والذي ألجأ القائلين بهذا إلى هذه المقالة أنهم التزموا أنه ﷺ إن أثبت له تكليم الله تعالى إياه بغير واسطة، فإن ذلك يستجب رؤيته ﷺ لربه، والتحقيق الذي عليه جمهور أهل السنة أنه ﷺ لم ير ربه تعالى ليلة الإسراء.

والصواب أن هذا الذي التزموه ليس بلازم، لأن التكليم غير الرؤية، وهو ممكن الوقوع بخلاف الرؤية، وذلك من وراء حجاب، كما وقع لموسى عليه السلام، فإن موسى لم ير ربه، مع أنه كلمه وناداه.

وقد علمنا أن هذه المرتبة من التكليم أكمل المراتب وأعلاها، فهي فضل عظيم، ودرجة رفيعة، فحري أن تكون لسيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام.

(فائدة) في اختصاص موسى عليه السلام بتسميته " كليم الله ":

=

=

قال الشيخ عبد الرحمن المحمود في تيسير لمعة الاعتقاد: ولعل العلة - والعلم عند الله سبحانه وتعالى - في تسمية موسى " كليم الله " مع أن الله كلَّم محمَّدًا وكلَّم آدم: أن الله كلَّمه على الأرض وهو على طبيعته البشرية ، بخلاف تكليم الله لآدم فإنه كلمه وهو في السماء ، وتكليم الله لمحمَّد فإنه كلمه وقد عرج بروحه وجسده إلى السماء ، أما تكليمه لموسى: فهو على الأرض ، وهذا فيه خصوصية لموسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم.

قوله تعالى: {فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ} [الأعراف: ١٤٤]، أي: "فخذ ما أعطيتك مِن أمري ونهيي، وتمسَّك به، واعمل به".

قال ابن كثير: "أي: من الكلام والوحي والمناجاة".

قال الطبري: يقول: "فخذ ما أعطيتك من أمري ونهيي وتمسك به، واعمل به".

قوله تعالى: {وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف: ١٤٤]، أي: "وكن من الشاكرين لله تعالى على ما آتاك من رسالته، وخصَّك بكلامه".

قال ابن كثير: "أي: على ذلك، ولا تطلب ما لا طاقة لك به".

قال الطبري: أي: "لله على ما آتاك من رسالته، وخصك به من النجوى، بطاعته في أمره ونهيه، والمسارعة إلى رضاه".

- في الآية فضل الشكر ومنزلة الشاكرين.

والشكر: هو القيام بطاعة المنعم اعترافًا بالقلب، وثناء باللسان، وطاعة بالأركان.

بالقلب، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ).

وباللسان، قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ).

وبالجوارح، قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)، وحديث الباب.

وفي ذلك يقول الشاعر:

=

=

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً يدي ولساني والضمير المحجبا

فنعمة العين: أن لا ينظر بها إلا فيما يرضي الله، وشكر نعمة اليد أن لا يبطش بها إلا فيما يرضي الله، وشكر نعمة الرجِل أن لا يمشي بها إلا فيما يرضي الله، وشكر نعمة المال: أن لا يستعين به ويصرفه إلا فيما يرضي الله.

- كيف تحقيق الشكر؟

أولًا: سؤال الله ذلك.

كما قال تعالى عن سليمان: (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ).

وقال ﷺ لمعاذ: (يا معاذ، لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك). رواه أبو داود

ثانيًا: أن يعلم الإنسان أن النعم إذا شكرت قرت وزادت.

قال تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ).

ثالثًا: أن يعلم الإنسان أن الله سيسأله يوم القيامة عن شكر نعمه.

قال تعالى: (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ).

قال ابن كثير: أي ثم لتسألن عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ما ذا قابلتم به نعمه من شكر وعبادة.

رابعًا: أن ينظر إلى من هو دونه في أمور الدنيا، فإذا فعل ذلك استعظم ما أعطاه الله.

قال ﷺ: (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم).

الشكر يكون من الله لعبده ومن العبد لربه.

فشكر العبد لربه كقوله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ). وقوله تعالى (كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ).

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) .

{وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاح} أَيْ أَلْوَاح التَّوْرَاة وَكَانَتْ مِنْ سِدْر الْجَنَّة أَوْ زَبَرْجَد أَوْ زُمُرُّد سَبْعَة أَوْ عَشَرَة {مِنْ كُلّ شَيْء} يَحْتَاج إلَيْهِ فِي الدِّين {مَوْعِظَة وَتَفْصِيلًا} تَبْيِينًا {لِكُلِّ شَيْء} بَدَل مِنْ الْجَار وَالْمَجْرُور قَبْله {فَخُذْهَا} قَبْله قُلْنَا مُقَدَّرًا {بِقُوَّةٍ} بِجِدٍّ وَاجْتِهَاد {وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دَار الْفَاسِقِينَ} فِرْعَوْن وَأَتْبَاعه وَهِيَ مِصْر لِتَعْتَبِرُوا بهم[1].

(١) قوله تعالى: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٤٥]، أي: "وكتبنا لموسى في التوراة من كل ما يحتاج إليه في دينه من الأحكام".

قال الطبري: يقول: "وكتبنا لموسى في ألواحه من التذكير والتنبيه على عظمة الله وعز سلطانه".

قال الحكم بن أبان: "حدثني عكرمة أن التوراة كتبت بأقلام من ذهب".

عن ابن عباس قال: "أعطى الله موسى التوراة في سبعة ألواح من زبرجد فيها تبيان لكل شيء، وموعظة التوراة مكتوبة فلما جاء بها فرأى بني إسرائيل عكفوا على في العجل، رمى بالتوراة من يديه، فتحطمت وأقبل على هارون فأخذ برأسه، فرفع الله منها ستة أسباع وبقي سبعا".

عن جعفر بن محمد، عن أبيه عن جده رفعه قال: "الألواح التي أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة كان طول اللوح اثني عشر ذراعا".

عن أبي العالية قال: "كانت ألواح موسى من بردي".

عن سعيد بن جبير قال: "كانوا يقولون: كانت الألواح من ياقوتة، وأنا أقول: إنما كانت من زمرد، وكتابها الذهب، وكتب الرحمن تبارك وتعالى بيده، وسمع أهل السماء صريف القلم".

=

=

عن سعيد بن جبير قال: "كانت الألواح من ياقوتة كتبها الله بيده فسمع أهل السماوات صريف القلم".

والمراد بالألواح كما قال ابن عباس- ألواح التوراة، واختلف في عددها فقيل: سبعة ألواح وقيل عشرة ألواح وقيل أكثر من ذلك. كما اختلف في شأنها فقيل كانت من سدر الجنة، وقيل كانت من زبرجد أو زمرد... إلخ.

والصواب تفويض معرفة ذلك إلى الله- تعالى- لأنه لم يرد نص صحيح عن رسول الله ﷺ في عددها أو كيفيتها.

قال ابن كثير: وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة، فالله أعلم. وعلى كل تقدير كانت (٥) كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منه، والله أعلم.

قوله تعالى: {مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٤٥]، أي: "موعظة للازدجار والاعتبار وتفصيلا لتكاليف الحلال والحرام والأمر والنهي والقصص والعقائد والأخبار والمغيبات".

هو كالبيان للجملة التي قدمها بقوله (مِن كُلِّ شَيْءٍ) وذلك لأنه تعالى قسمه إلى ضربين: أحدهما (مَّوْعِظَةً) والآخر (تَفْصِيلًا) لما يجب أن يعلم من الأحكام، فيدخل في الموعظة كل ما ذكره الله تعالى من الأمور التي توجب الرغبة في الطاعة والنفرة عن المعصية، وذلك بذكر الوعد والوعيد، ولما قرر ذلك أولًا أتبعه بشرح أقسام الأحكام وتفصيل الحلال والحرام، فقال (وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ).

والمعنى: وكتبنا لموسى عليه السلام في ألواح التوراة من كل شيء يحتاجون إليه من الحلال والحرام، والمحاسن والقبائح، ليكون ذلك موعظة لهم من شأنها أن تؤثر في قلوبهم ترغيبًا وترهيبًا كما كتبنا له في تلك الألواح تفصيل كل شيء يتعلق بأمر هذه الرسالة الموسوية.

قال الطبري: يقول: "{موعظة}، لقومه ومن أمر بالعمل بما كتب في الألواح،

=

=

{وتفصيلا لكل شيء}، يقول: وتبيينًا لكل شيء من أمر الله ونهيه".

عن سعيد بن جبير في قول الله: " {وتفصيلا لكل شيء}، قال: ما أمروا به ونهوا عنه".

عن ميمون قال: "فيما كتب الله تعالى لموسى في الألواح: يا موسى لا تحلف بي كاذبا فإني لا أزكي عمل من حلف بي كاذبا".

عن عبد الصمد بن معقل، أنه سمع وهب بن منبه يقول: "في قوله: {وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء}، قال: كتب له لا تشرك بي شيئا من أهل السماء ولا من أهل الأرض فإن كل ذلك خلقي، ولا تحلف باسمي كاذبا فإني لا أزكي من حلف باسمي كاذبا ووقر والديك".

عن عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهبا يقول: "إن في الألواح التي كتب الله ﷻ لموسى التي قال الله تعالى: وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء قال له: يا موسى اعبدني ولا تشرك معي شيئا من أهل السماء ولا من أهل الأرض فإنهم خلقي كلهم، فإذا أشرك بي غضبت وإذا غضبت لعنت، وإن لعنتي تدرك الرابع من الولد، وإني إذا أطعت رضيت، فإذا رضيت باركت والبركة مني تدرك الأمة بعد الأمة يا موسى لا تحلف باسمي كاذبا فإني لا أزكي من حلف باسمي كاذبا، يا موسى وقر والديك فإنه من وقر والديه مددت له في عمره، ووهبت له ولدا يبره ومن عق والديه قصرت له من عمره، ووهبت له ولدا يعقه يا موسى احفظ السبت فإنه آخر يوم فرغت فيه من خلقي، يا موسى لا تزن ولا تسرق، يا موسى لا تول وجهك، عن عدوي، يا موسى ولا تزن بامرأة جارك الذي يأمنك يا موسى لا تغلب جارك على ماله ولا تخلفه على امرأته".

قال ابن كثير: "ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء، قيل: كانت الألواح من جوهر، وأن الله تعالى كتب له فيها

=

=

مواعظ وأحكاما مفصلة مبينة للحلال والحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله تعالى فيها: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ} [القصص: ٤٣]

وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة، فالله أعلم. وعلى كل تقدير كانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منه، والله أعلم".

روي عن ابن عباس:"أن موسى ﷺ انْصَلتَ لما كربه الموت، قال: هذا من أجل آدم! قد كان الله جعلنا في دار مثوًى لا نموت، فخطأ آدم أنزلنا هاهنا! فقال الله لموسى: أبعث إليك آدم فتخاصمه؟ قال: نعم! فلما بعث الله آدم، سأله موسى، فقال أبونا آدم عليهما السلام: يا موسى، سألت الله أن يبعثني لك! قال موسى: لولا أنت لم نكن هاهنا! قال له آدم: أليس قد أتاك الله من كل شيء موعظة وتفصيلا أفلست تعلم أنه ما أصاب في الأرض من مصيبة ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن يبرأها؟ قال موسى: بلى! فخصَمه آدم صلى الله عليهما".

قوله تعالى: {فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ} [الأعراف: ١٤٥]، أي: "فخذ التوراة بعزيمة قوية ونية صادقة، وبجد ومواظبة عليها بجد وحزم، وصبر وجلد، لأنه عليه السلام قد أرسل إلى قوم طال عليهم الأمد وهم في الذل والاستعباد، فإذا لم يكن المتولي لإرشادهم وإلى ما فيه هدايتهم ذا قوة وصبر ويقين، فإنه قد يعجز عن تربيتهم. ويفشل في تنفيذ أمر الله فيهم".

قال الطبري: "وقلنا لموسى إذ كتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء: خذ الألواح بقوة".

قال ابن كثير: "أي: بعزم على الطاعة.

واختلف في تفسير قوله تعالى: {فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ} [الأعراف: ١٤٥]، على وجوه:

أحدهما: بجد وحزم. قاه ابن عباس.

=

=

الثاني: بجد واجتهاد. قاله السدي.

الثالث: يعني فخذها بعمل. قاله سفيان.

الرابع: فخذها بالطاعة لله. قاله الربيع بن أنس.

وقال في رواية: "فخذها بقوة بالطاعة".

قوله تعالى: {وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا} [الأعراف: ١٤٥]. نظيره (واتبعوا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ) وقال (فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ).

والعَفْوُ أحسنُ من الاقتصاص.

والصبر أحسن من الانتصار.

قال الطبري: "يقول: يعملوا بأحسن ما يجدون فيها".

عن السدي: " {وأمر قومك يأخذوا بأحسنها}، بأحسن ما يجدون فيها".

وقال ابن عباس: "أمر موسى أن يأخذها بأشدّ مما أمر به قومه".

إن قال قائل: "وما معنى قوله: {وأمر قومك يأخذوا بأحسنها}، أكان من خصالهم ترك بعض ما فيها من الحسن؟.

قيل: لا ولكن كان فيها أمرٌ ونهيٌ، فأمرهم الله أن يعملوا بما أمرهم بعمله، ويتركوا ما نهاهم عنه، فالعمل بالمأمور به، أحسنُ من العمل بالمنهي عنه".

قوله تعالى: {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} [الأعراف: ١٤٥]، أي:"سأريكم عاقبة من خالف أمرى، وخرج عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار، فتلك سنتي التي لا تتغير ولا تتبدل".

قال ابن كثير: "أي: سترون عاقبة من خالف أمري، وخرج عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب؟.

قال الطبري: يقول:"فإن من أشرك بي منهم ومن غيرهم، فإني سأريه في الآخرة عند مصيره إليّ، {دارَ الفاسقين}، وهي نار الله التي أعدها لأعدائه، وإنما قال:

=

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦).

{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي} دَلَائِل قُدْرَتِي مِنْ الْمَصْنُوعَات وَغَيْرهَا {الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْض بِغَيْرِ الْحَقّ} بِأَنْ أَخْذَلهمْ فَلَا يَتَكَبَّرُونَ فِيهَا {وَإِنْ يَرَوْا كُلّ آيَة لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيل} طَرِيق {الرُّشْد} الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْد الله

=

{سأريكم دار الفاسقين}، كما يقول القائل لمن يخاطبه: سأريك غدًا إلامَ يصير إليه حال من خالف أمري!، على وجه التهدُّد والوعيد لمن عصاهُ وخالف أمره".

عن سعيد بن جبير: " {سأريكم دار الفاسقين}، قال: رفعت لموسى حتى رآها".

وعن سفيان بن عيينة: {سأريكم دار}، يقول: سأبين كيف ذلك".

وفي قوله تعالى: {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} [الأعراف: ١٤٥]، أقوال:

أحدها: مصيرهم في الآخرة وهي جهنم، قاله الحسن ، ومجاهد.

والثاني: أي: منازل الفاسقين، وهي منازل من هلك بالتكذيب من عاد وثمود والقرون الخالية، لتعتبروا بها وبما صاروا إليه من النكال، قاله قتادة.

والثالث: معناه: سأدخلكم أرض الشام، فأريكم منازل الكافرين الذين هم سكانها من الجبابرة والعمالقة. قاله قتادة.

واختاره ابن كثير، وقال:"لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه".

والرابع: يقول: هلاك الفاسقين. قاله سفيان.

والخامس: دار الكافرين. قاله ابن عباس.

والسادس: أنها دار فرعون، وهي مصر. حكاه الطبري عن بعضهم.

{لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} يَسْلُكُوهُ {وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ} الضَّلَال {يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ} الصَّرْف {بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} تقدم مثله(١).

---

(١) قوله تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [الأعراف: ١٤٦]، أي: "سأصرف عن فَهْم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي، والمتكبرين على الناس بغير الحق، فلا يتبعون نبيًا ولا يصغون إليه لتكبرهم".

قال ابن كثير: "أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥].

وقال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر.

وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة، بقي في ذل الجهل أبدا".

اختلف في قوله تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [الأعراف: ١٤٦]، على وجوه:

أحدها: سأنزع عنهم فهم الكتاب. قاله سفيان بن عيينة.

قال الطبري: "وتأويل ابن عيينة هذا يدل على أن هذا الكلام كان عنده من الله وعيدًا لأهل الكفر بالله ممن بعث إليه نبينا ﷺ، دون قوم موسى، لأن القرآن إنما أنزل على نبينا محمد ﷺ دون، موسى عليه السلام".

ورد ابن كثير، قال: "ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة، ولا فرق بين أحد وأحد في هذا، والله أعلم".

والثاني: سأصرفهم عن الاعتبار بالحجج. يعني: عن خلق السموات والأرض =

=

والآيات فيها، سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا. قاله ابن جريج.

قال السدي: "يقول: سأصرفهم أن يتفكروا في آياتي".

قال الفريابي: "أمنع قلوبهم من التفكير في أمري".

عن ابن جريج: " {سأصرف عن آياتي}، عن خلق السموات والأرض والآيات فيها، سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا".

والثالث: سأجعل جزاءهم على كفرهم ضلالهم عن الاهتداء بما جاء به من الحق.

والرابع: سأصرفهم عن دفع الانتقام عنهم.

قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه سيصرف عن آياته، وهي أدلته وأعلامه على حقيقة ما أمر به عباده وفرض عليهم من طاعته في توحيده وعدله، وغير ذلك من فرائضه. والسموات والأرض، وكل موجود من خلقه، فمن آياته، والقرآن أيضًا من آياته، وقد عم بالخبر أنه يصرف عن آياته المتكبرين في الأرض بغير الحق، وهم الذين حقَّت عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون، فهم عن فهم جميع آياته والاعتبار والادّكار بها مصروفون، لأنهم لو وفِّقوا لفهم بعض ذلك فهُدوا للاعتبار به، اتعظوا وأنابوا إلى الحق، وذلك غير كائن منهم، لأنه جلّ ثناؤه قال: {وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا}، فلا تبديل لكلمات الله".

قال الشوكاني: واختلف في تفسير الآيات: فقيل: هي المعجزات. وقيل: الكتب المنزلة.

وقيل: هي خلق السموات والأرض، وصرفهم عنها أن لا يعتبروا بها.

ولا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك حمل الصرف على جميع المعاني المذكورة.

=

=

قوله تعالى: {وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا} [الأعراف: ١٤٦]، أي: "وإنْ يَرَ هؤلاء المتكبرون عن الإيمان كل آية لا يؤمنوا بها لإعراضهم ومحادَّتهم لله ورسوله".

قال الطبري: "وإن ير هؤلاء الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق و= "وتكبرهم فيها بغير الحق"، تجبرهم فيها، واستكبارهم عن الإيمان بالله ورسوله، والإذعان لأمره ونهيه، وهم لله عبيدٌ يغذوهم بنعمته، ويريح عليهم رزقه بكرة وعشيًّا، {كل آية}، يقول: كل حجة لله على وحدانيته وربوبيته، وكل دلالة على أنه لا تنبغي العبادة إلا له خالصة دون غيره، {لا يؤمنوا بها}، يقول: لا يصدقوا بتلك الآية أنها دالة على ما هي فيه حجة، ولكنهم يقولون: هي سحر وكذب".

قوله تعالى: {وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} [الأعراف: ١٤٦]، أي: "وإن يروا طريق الصلاح لا يتخذوه طريقًا".

قال ابن كثير: "أي: وإن ظهر لهم سبيل الرشد، أي: طريق النجاة لا يسلكوها".

قال الطبري: "يقول: وإن ير هؤلاء الذين وصف صفتهم طريق الهدى والسداد الذي إن سلكوه نجوا من الهلكة والعطب، وصاروا إلى نعيم الأبد، لا يسلكوه ولا يتخذوه لأنفسهم طريقًا، جهلا منهم وحيرة".

قوله تعالى: {وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} [الأعراف: ١٤٦]، أي: "وإن يروا طريق الضلال، أي: الكفر، يتخذوه طريقًا ودينًا".

قال الطبري: "يقول: وإن يروا طريق الهلاك الذي إن سلكوه ضلّوا وهلكوا يسلكوه ويجعلوه لأنفسهم طريقًا، لصرف الله إياهم عن آياته، وطبعه على قلوبهم، فهم لا يفلحون ولا ينجحون".

قال ابن كثير: "أي: وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلا.

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الأعراف: ١٤٦]، أي: "وذلك بسبب

=

=

تكذيبهم بآيات الله".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: صرفناهم عن آياتنا أن يعقلوها ويفهموها فيعتبروا بها ويذكروا فينيبوا، عقوبةً منا لهم على تكذيبهم بآياتنا".

قال ابن كثير: "ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} أي: كذبت بها قلوبهم.

قوله تعالى: {وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} [الأعراف: ١٤٦]، أي: "وغفلتهم عن النظر فيها والتفكر في دلالاتها".

قال ابن كثير: "أي: لا يعلمون شيئًا مما فيها.

قال الطبري: "يقول: وكانوا عن آياتنا وأدلتنا الشاهدة على حقيقة ما أمرناهم به ونهيناهم عنه {غافلين}، لا يتفكرون فيها، لاهين عنها، لا يعتبرون بها، فحق عليهم حينئذ قول ربنا فعَطِبوا".

وقرأ ذلك عامة قرأة أهل الكوفة وبعض المكيين: «الرَّشَدِ»، بفتح "الراء" و"الشين".

- في هذه الآية خطر التكبر وأنه سبب للطبع على القلب.

فالكبْر كان أحد أهم العوائق التي عانى منها الرسل والأنبياء والدعاة في دعوتهم.

فهذا نوح عليه السلام يشتكي إلى ربه ومولاه من جفاء قومه وذوي قرابته وتكبرهم فيقول كما أخبر عنه الله -سبحانه وتعالى (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا).

كما يخبر المولى -جل وعلا- عن حال قوم صالح -عليه السلام- وقومه حين آمنت طائفة منهم أعرضت طائفة بدافع الاستكبار والتعالي، قال سبحانه وتعالى (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا

=

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧).

{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الْآخِرَة} الْبَعْث وَغَيْره {حَبِطَتْ} بَطَلَتْ {أَعْمَالهمْ} مَا عَمِلُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْر كَصِلَةِ رَحِم وَصَدَقَة فَلَا ثَوَاب لَهُمْ لِعَدَمِ

=

بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ).

كما عانى منه شعيب عليه السلام من قومه، كما قال سبحانه وتعالى (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ).

كما أدرك موسى عليه السلام سرّ إعراض فرعون عن الاستجابة لداعي الحق، وأنه الكبر والاستعلاء، فقال كما حكى عنه الله سبحانه وتعالى (إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ).

كما يكشف القرآن الكريم للحبيب المصطفى ﷺ السر وراء إعراض بعض المعرضين من قومه وغيرهم، وأن الدافع وراء ذلك هو الكبر على اتباع الحق والاحتقار لمن جاء به.

فقال سبحانه وتعالى (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير).

ومن هنا يتضح سر خطورة الكبر وشدة تحذير نصوص الكتاب والسنة منه، ووصفه بأنه ند للإيمان، وقسيم له، لا يجتمع معه في قلب واحد، قال الله سبحانه وتعالى (إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُون)

شَـرْطه {هَـلْ} مَـا {يُجْـزَوْنَ إِلَّا} جَـزَاء {مَـا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ} مِـنْ التَّكْـذِيب وَالْمَعَاصِي[1].

(١) قولـه تعـالى: {وَالَّـذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا وَلِقَـاءِ الْآخِـرَةِ} [الأعـراف: ١٤٧]، أي: "والذين كذَّبوا بآيات الله وحججه وبلقاء الله في الآخرة".
وآيات الله كونية وشرعية:
الآية الكونية القدرية. (فهي مما نشاهده مما لا يستطيع البشر أن يخلقوا مثلها).
وهي ما نـصبه الله (جـل وعـلا) ليـدل بـه خلقـه عـلى أنـه الواحـد الأحـد المستحق للعبادة، كالشمس والسماء والأرض ونحوها، وكـل مـا في الكـون مـن مخلوقـات الله شاهد بكمال الله وقدرته وعزته وأنه المستحق للعبادة.
قال تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أي: لعلامات واضحة جازمة قاطعة بأن من خلقها هو رب هذا الكون، وهو المعبود وحده.
- الكفر بالآيات الكونية يكون بأمور: أن يجحد أن الخالق سبحانه خلقهـا فيـدعي أن الذي خلقها، أو أن يعتقد أن له شريكًا في خلقه، أو أن له معينًا في خلقه.
الآيات الـشرعية الدينيـة، كآيـات هـذا القـرآن العظـيم. (لا يـستطيع البـشر أن يـأتوا بمثله).
ومنه قوله تعالى (رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ) وقولـه تعـالى (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ).
وسميت آيات، جمع آية، لأنها علامة على صدق من جاء بها.
والكفر بالآيات الشرعية إما بجحودها، أو بتكـذيبها، أو بالاسـتكبار والعنـاد، كـما =

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨).

{وَاتَّخَذَ قَوْم مُوسَى مِنْ بَعْده} أَيْ بَعْد ذَهَابه إلَى الْمُنَاجَاة {مِنْ حُلِيّهمْ}

=

قالوا عن القرآن: إنه سحر، وأساطير الأولين.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وهؤلاء المستكبرون في الأرض بغير الحق، وكلّ مكذِّبٍ حججَ الله ورسله وآياته، وجاحدٍ أنه يوم القيامة مبعوث بعد مماته، ومنكرٍ لقاء الله في آخرته".

قوله تعالى: {حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} [الأعراف: ١٤٧]، أي: "حبطت أعمالهم؛ بسبب فَقْدِ شرطها، وهو الإيمان بالله والتصديق بجزائه".

قال الطبري: أي: "ذهبت أعمالهم فبطلت، وحصلت لهم أوزارها فثبتت، لأنهم عملوا لغير الله، وأتعبوا أنفسهم في غير ما يرضى الله، فصارت أعمالهم عليهم وبَالا".

عن أبي مالك قوله: " {حبطت أعمالهم}، يعني: بطلت أعمالهم".

قوله تعالى: {هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٤٧]، أي: "ما يجزون في الآخرة إلا جزاء ما كانوا يعملونه في الدنيا من الكفر والمعاصي".

قال الطبري: "يقول: هل يثابون إلا ثواب ما كانوا يعملون؟ فصار ثواب أعمالهم الخلودَ في نار أحاط بهم سرادقها، إذ كانت أعمالهم في طاعة الشيطان، دون طاعة الرحمن، نعوذ بالله من غضبه".

قال ابن كثير: "أي: إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وكما تدين تدان.

الَّذِي اسْتَعَارُوهُ مِنْ قَوْم فِرْعَوْن بِعَلَّةِ عُرْس فَبَقِيَ عِنْدهمْ {عِجْلًا} صَاغَهُ لَهُمْ مِنْهُ السَّامِرِيّ {جَسَدًا} بُدِّل لَحْمًا وَدَمًا {لَهُ خُوار} أَيْ صَوْت يُسْمَع انْقَلَبَ كَذَلِكَ بِوَضْعِ التُّرَاب الَّذِي أَخَذَهُ مِنْ حَافِر فَرَس جِبْرِيل فِي فَمه فَإِنَّ أَثَره الْحَيَاة فِيمَا يُوضَع فِيهِ وَمَفْعُول اتَّخَذَ الثَّانِي مَحْذُوف أَيْ إلَهًا {أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا} فَكَيْفَ يُتَّخَذ إلَهًا {اتَّخَذُوهُ} إلَهًا {وَكَانُوا ظَالِمِينَ} بِاتِّخَاذِهِ.

وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩).

{وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ} أَيْ نَدِمُوا عَلَى عِبَادَته {وَرَأَوْا} عَلِمُوا {أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا} بِهَا وَذَلِكَ بَعْد رُجُوع مُوسَى {قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمنا رَبّنَا وَيَغْفِر لَنَا} بِالْيَاءِ وَالتَّاء فِيهِمَا {لنكونن من الخاسرين}.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠).

{وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إلَى قَوْمه غَضْبَان} مِنْ جِهَتهمْ {أَسِفًا} شَدِيد الْحُزْن {قَالَ بِئْسَمَا} أَيْ بئس خلافة {خلفتموني} ها {مِنْ بَعْدِي} خِلَافَتكُمْ هَذِهِ حَيْثُ أَشْرَكْتُمْ {أَعَجِلْتُمْ أَمْر رَبّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاح} أَلْوَاح التَّوْرَاة غَضَبًا لِرَبِّهِ فَتَكَسَّرَتْ {وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ} أَيْ بِشَعْرِهِ بِيَمِينِهِ وَلِحْيَته بِشِمَالِهِ {يَجُرّهُ إلَيْهِ} غَضَبًا {قَالَ} يا {بن أُمّ} بِكَسْرِ الْمِيم وَفَتْحهَا أَرَادَ أُمِّي وَذِكْرهَا أَعْطَف لِقَلْبِهِ {إنَّ الْقَوْم اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا} قَارَبُوا {يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِت} تُفْرِح {بِي الْأَعْدَاء} بِإِهَانَتِك إيَّايَ {وَلَا تَجْعَلنِي مَعَ الْقَوْم الظَّالِمِينَ} بِعِبَادَةِ الْعِجْل فِي الْمُؤَاخَذَة.

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١).

{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي} مَا صَنَعْت بِأَخِي {وَلِأَخِي} أُشْرِكهُ فِي الدُّعَاء إرْضَاء لَهُ وَدَفْعًا للشماتة به {وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين} قال تعالى[1].

(١) قوله تعالى: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ} [الأعراف: ١٤٨]، أي: "واتخذ قوم موسى من بعد ما فارقهم ماضيًا لمناجاة ربه معبودًا مِن ذهبهم عِجلا جسدًا بلا روح، له صوت".
يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل، الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط، الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلًا ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار عجلًا جسدًا له خوار، و"الخوار" صوت البقر.
وكانت بنو إسرائيل في القبط بمنزلة أهل الجزية في الإسلام، وكان لهم يوم عيد يتزينون فيه ويستعيرون من القبط الحلي فزامن ذلك عيدهم فاستعادوا الحلي للقبط فلما أخرجهم الله من مصر وغرق فرعون بقيت تلك الحلي في أيديهم فاتخذ السامري منها عجلًا وهو ولد البقر (عِجْلًا جَسَدًا) مجسّد لا روح فيه.
قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: واتخذ بنو إسرائيل قومُ موسى، من بعد ما فارقهم موسى ماضيًا إلى ربه لمناجاته، ووفاءً للوعد الذي كان ربه وعده {من حليهم عجلا}، وهو ولد البقرة، فعبدوه. ثم بين تعالى ذكره ما
ذلك العجل فقال: {جسدًا لا خوار}،و «الخوار»: صوت البقر، يخبر جل ذكره عنهم أنهم ضلوا بما لا يضل بمثله أهل العقل".
قال ابن كثير: "يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل، الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط، الذي كانوا استعاروه منهم، =

=

فشكل لهم منه عجلا ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل، عليه السلام، فصار عجلا جسدا له خوار، و «الخوار»: صوت البقر.

وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى -عليه السلام- لميقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخبارا عن نفسه الكريمة: {قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ} [طه: ٨٥]

وقد اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحما ودما له خوار؟ أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر؟ على قولين، والله أعلم. ويقال: إنهم لما صَوّت لهم العجل رَقَصُوا حوله وافتتنوا به،} فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ} [طه: ٨٨].

قال القرطبي: "روي في قصص العجل: أن السامري، واسمه موسى بن ظفر، ينسب إلى قرية تدعى سامرة. ولد عام قتل الأبناء، وأخفته أمه في كهف جبل فغذاه جبريل فعرفه لذلك، فأخذ حين عبر البحر على فرس وديق ليتقدم فرعون في البحر- قبضة من أثر حافر الفرس. وهو معنى قوله {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ} [طه: ٩٦]. وكان موسى وعد قومه ثلاثين يوما، فلما أبطأ في العشر الزائد ومضت ثلاثون ليلة قال لبني إسرائيل وكان مطاعا فيهم: إن معكم حليا من حلي آل فرعون، وكان لهم عيد يتزينون فيه ويستعيرون من القبط الحلي فاستعاروا لذلك اليوم، فلما أخرجهم الله من مصر وغرق القبط بقي ذلك الحلي في أيديهم، فقال لهم السامري: إنه حرام عليكم، فهاتوا ما عندكم فنحرقه. وقيل: هذا الحلي ما أخذه بنو إسرائيل من قوم فرعون بعد الغرق، وأن هارون قال لهم: إن الحلي غنيمة، وهي لا تحل لكم، فجمعها في حفرة حفرها فأخذها السامري. وقيل: استعاروا الحلي ليلة أرادوا الخروج من مصر، وأوهموا القبط أن لهم عرسا أو مجتمعا، وكان السامري سمع قولهم: {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}

=

=

[الأعراف: ١٣٨]. وكانت تلك الآلهة على مثال البقر، فصاغ لهم عجلا جسدا، أي مصمتا، غير أنهم كانوا يسمعون منه خوار. وقيل: قلبه الله لحما ودما. وقيل: إنه لما ألقى تلك القبضة من التراب في النار على الحلي صار عجلا له خوار، فخار خورة واحدة ولم يثن ثم قال للقوم: {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ} [طه: ٨٨]، يقول: نسيه هاهنا وذهب يطلبه فضل عنه- فتعالوا نعبد هذا العجل. فقال الله لموسى وهو يناجيه: {فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ} [طه: ٨٥]. فقال موسى: يا رب، هذا السامري أخرج لهم عجلا من حليهم، فمن جعل له جسدا؟ - يريد اللحم والدم- ومن جعل له خوارا؟ فقال الله سبحانه: أنا فقال: وعزتك وجلالك ما أضلهم غيرك. قال صدقت يا حكيم الحكماء. وهو معنى قوله: {إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ} [الأعراف: ١٥٥]. وقال القفال: كان السامري احتال بأن جوف العجل، وكان قابل به الريح، حتى جاء من ذلك ما يحاكي الخوار، وأوهمهم أن ذلك إنما صار كذلك لما طرح في الجسد من التراب الذي كان أخذه من تراب قوائم فرس جبريل. وهذا كلام فيه تهافت.

وقرئ: «له جوار»، بالجيم وهو الصياح.

قال ابن عباس: "وكان السامري قد أبصر جبريل عليه السلام على فرس وأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب، فقال حين مضى ثلاثون ليلة يا بني إسرائيل: إن معكم حليا من حلي آل فرعون، وهذا حرام عليكم، فهاتوا ما عندكم نحرقها فأتوه ما كان عندهم، فأوقدوا نارا فألقى الحلي في النار، فلما ذاب الحلي ألقى تلك القبضة من تراب في النار فصار عجلا له جسدا له خوار، فخار خواره لم يثني".

عن سعيد بن جبير: "{له خوار}، قال: والله ما كان له صوت قط، ولكن الريح كانت تدخل في دبره وتخرج من فيه فكان ذلك الصوت من ذلك".

قال قتادة: "استعاروا حليا من آل فرعون فجمعه السامري فصاغ منه عجلا فجعله

=

=

الله جسدا لحما ودما له خوار".

عن السدي، قال: "موسى: يا رب هذا السامري أمرهم أن يتخذوا العجل أرأيت الروح من نفخها فيه قال الرب: أنا، قال رب: فأنت إذا أضللتهم".

قال الشنقيطي: وقوله (عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ) مفعول (اتخذ) الثاني محذوف لدلالة المقام عليه، أي: اتخذوا عجلًا جسدًا إلهًا معبودًا من دون الله. فحذف المفعول الثاني لدلالة المقام عليه، وهذا هو التحقيق، والنكتة في حذفه: أنه لا ينبغي أن يُتَلَفَّظَ بأن عجلًا مصطنعًا إلهًا فحذف لهذه النكتة كما قاله بعضهم.

– وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخبارًا عن نفسه الكريمة (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ).

– وقد اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحمًا ودمًا له خوار؟ أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر؟ على قولين:

– قال بعض العلماء: لم تكن تلك الصورة لحمًا ولا دمًا، ولكن إذا دخلت فيها الريح صوتت كخوار العجل.

وقال بعضهم: جعل الله بقدرته ذلك الحلي المصوغ جسدًا من لحم ودم لظاهر الآية (عجلًا جسدًا) ورجحه الشنقيطي.

– قال تعالى في سورة طه: إنَّ السامري لمّا اصطنعه لهم قال لهم (هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ) فنسي موسى أن هذا إلهه، وذهب يطلبه في موضع آخر.

قوله تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا} [الأعراف: ١٤٨]، أي: "ألم يعلموا أنه لا يكلمهم، ولا يرشدهم إلى خير؟.

ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل، وذُهُولهم عن خالق السماوات والأرض وربّ كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلًا جسدًا له خُوَار لا يكلمهم.

=

=

- قال السعدي: وعدم الكلام نقص عظيم، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد، الذي لا يتكلم.

- والمعبود الحق لا بد أن يكون يُكلم، ومعبود أهل السماوات والأرض بالحق يقول عن كلام نفسه (لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)، وفي الآية الأخرى (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ) هذه صفة المعبود حقًّا، أمّا الذي لا يقدر على أن يتكلم كلمة واحدة فهذا ليس بمعبود.

قال الطبري: "يقول: ألم ير الذين عكفوا على العجل الذي اتخذوه من حليهم يعبدونه، أن العجل لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا؟ يقول: ولا يرشدهم إلى طريق؟ وليس ذلك من صفة ربهم الذي له العبادة حقًا، بل صفته أنه يكلم أنبياءه ورسله، ويرشد خلقه إلى سبيل الخير، وينهاهم عن سبيل المهالك والردى".

وقال الزجاج: " أي: لا يبين لهم طريقا إلى حجة".

قال الصابوني: "الاستفهام للتقريع والتوبيخ أي كيف عبدوا العجل واتخذوه إلهًا مع أنه ليس فيه شيء".

قال ابن كثير: "ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل، وذُهُولهم عن خالق السماوات والأرض وربّ كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلا جسدًا له خُوَار لا يكلمهم، ولا يرشدهم إلى خير. ولكن غَطَّى على أعيُن بصائرهم عَمَى الجهل والضلال، كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبو داود، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «حبك الشيء يُعْمي ويُصِم» .

قال السعدي: قوله تعالى (وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلا) أي: لا يدلهم طريقًا دينيًا، ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية، لأن من المتقرر في العقول والفطر، أن اتخاذ إله لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل، وأسمج السفه.

=

=

– المعبود هو الذي يهدي، كما قال تعالى (قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ) أما الذي لا يهدي سبيلًا أي: طريقًا كائنًا ما كان فلا يمكن أن يكون برب ولا بمعبود، فلما قرر (جل وعلا) أن هذا العجل الذي اتخذوه إلهًا تنتفي عنه الصفات التِي يجب أن تكون للإله صرح بأنهم عبدوه وهم ظالمون في ذلك فقال (اتَّخَذُوهُ) اتخذوه إلهًا (وَكَانُوا ظَالِمِينَ) ظالمين في ذلك.

– قال الله تعالى في سورة طه ردًا عليهم وتقريعًا لهم وبيانًا لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه

(أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) أي العجل، أفلا يرون أنه لا يجيبهم إذا سألوه ولا إذا خاطبوه، ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا، أي في دنياهم ولا في أخراهم.

وهذا يدل على أن المعبود لا يمكن أن يكون عاجزًا.

كما قال تعالى (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِين).

وكما قال إبراهيم لأبيه (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا).

وقال تعالى (ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خبير).

قوله تعالى: {اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ} [الأعراف: ١٤٨]، أي: "أَقْدَمُوا على ما أقدموا عليه من هذا الأمر الشنيع، وكانوا ظالمين لأنفسهم واضعين الشيء في غير موضعه".

قال السمعاني: أي: " بوضع الإلهية في غير موضعها".

=

=

قال الطبري: "أي: اتخذوا العجل إلهًا، وكانوا باتخاذهم إياه ربًّا معبودًا ظالمين لأنفسهم، لعبادتهم غير من له العبادة، وإضافتهم الألوهة إلى غير الذي له الألوهة".

قال القرطبي: "أي: [ظالمين] لأنفسهم فيما فعلوا من اتخاذه، وقيل: وصاروا ظالمين، أي: مشركين لجعلهم العجل إلها".

(وَكَانُوا ظَالِمِينَ) أي: مشركين، لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها.

- لأن أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، والمشرك ظالم ، لأنه وضع العبادة التي هي حق لله تعالى وحده ، وضعها في المخلوق الضعيف الفقير أو وضعها لصنم أو حجر أو شجر.

كما قال تعالى عن العبد الصالح (إن الشرك لظلم...).

وثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَم يَلبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمنُ وَهُم مُّهتَدُونَ) قال: بشرك ، ثم تلا قول لقمان (إِنَّ الشِّركَ لَظُلمٌ عَظِيم).

قوله تعالى: {وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ} [الأعراف: ١٤٩]، أي: "ولما ندم الذين عبدوا العجل مِن دون الله عند رجوع موسى إليهم".

قال ابن كثير: "أي: ندموا على ما فعلوا".

قال القرطبي: "أي: بعد عود موسى من الميقات. يقال للنادم المتحير: قد سقط في يده".

قال الشوكاني: "أي: ندموا وتحيروا بعد عود موسى من الميقات".

قال الطبري: أي: "ولما ندم الذين عبدوا العجل الذي وصف جل ثناؤه صفته، عند رجوع موسى إليهم، واستسلموا لموسى وحكمه فيهم".

وقال الزجاج: "المعنى: ولما سقط الندم في أيديهم".

=

=

قال ابن الجوزي: قوله تعالى (ولما سُقِط في أيديهم) أي: ندموا، قال الزجاج: يقال للرجل النادم على ما فعل: المتحسر على ما فرّط، قد سُقط في يده، وأُسقط في يده.

وقرئ: «سقط» بفتح السين والقاف حكاه الزّجاج، وقرأ ابن أبي عبلة «أسقط» وهي لغة.

قوله تعالى: {وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا} [الأعراف: ١٤٩]، أي: "ورأوا أنهم قد ضلُّوا عن قصد السبيل، وذهبوا عن دين الله وتيقنوا أنهم على الضلالة في عبادتهم العجل".

قال الطبري: أي: "ورأوا أنهم قد جاروا عن قصد السبيل، وذهبوا عن دين الله، وكفروا بربهم".

قوله تعالى: {قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ١٤٩]، أي: "فقالوا: لئن لم يرحمنا ربنا بقَبول توبتنا، ويستر بها ذنوبنا، لنكونن من الهالكين الذين ذهبت أعمالهم".

وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله ﷻ.

وقد كانت توبتهم ما ذكره الله في سورة البقرة (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).

قوله تعالى (إِلَى بَارِئِكُمْ) قال ابن كثير: في هذا تنبيه على عظم جرمهم ، أي فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره (فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) أي ليقتل بعضكم بعضًا، وإنما عبر بقتل النفس، لأن المؤمن أخو المؤمن فكأنه هو نفسه، فالأمة الواحدة المجتمعة على شيء ينزلون منزلة النفس الواحدة.

عن ابن عباس (... فقال الله تبارك وتعالى إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل

=

=

من لقي من والد أو ولدٍ فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن، فتاب أولئك الذين كان قد خفي على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول.

- قيل: فاجتلد القوم فكان من قتل من الفريقين سبعون ألفًا، حتى دعا موسى وهارون: ربنا أهلكت بني إسرائيل، ربنا البقية البقية، فأمرهم أن يضعوا السلاح فتاب عليهم، وقيل: أصابتهم ظلمة فأصبح بعضهم يقتل بعض، فانجلت الظلمة عنهم وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، وقيل: بل إن القتل وقع جهرًا بلا ظلمة، وهذا أصح، لأنه أبلغ في الدلالة على صدق توبتهم.

- قال الشنقيطي: أن هذا القتل بهذه التوبة يقطع حياتهم الدنيوية، ولكنه يكسبهم حياة أخروية، وهذه الحياة الأخروية خير من الحياة الدنيوية.

قال الطبري: أي: "قالوا تائبين إلى الله منيبين إليه من كفرهم به: {لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين}، يقول: لئن لم يتعطف علينا ربنا بالتوبة برحمته، ويتغمد بها ذنوبنا، لنكونن من الهالكين الذين حبطت أعمالهم".

قال ابن كثير: "أي: من الهالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله ﷻ".

قال ابن عطية: "قول بني إسرائيل: {لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا}، إنما كان بعد رجوع موسى وتغييره عليهم ورؤيتهم أنهم قد خرجوا عن الدين ووقعوا في الكفر".

قال السدي، قال: "فلما أسقط في أيدي بني إسرائيل حين جاء موسى عليه السلام، {وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا}، {قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ١٤٩]، فأبى الله ﷻ أن يقبل توبة بني إسرائيل إلا بالحال التي كرهوا أن يقاتلوهم حين عبدوا العجل".

وقرأ حمزة والكسائي: «لئن لم ترحمنا»، بالتاء المثناة من فوق، «ربنا» منادى، «وتَغْفِر لنا».

=

=

قوله تعالى: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا} [الأعراف: ١٥٠]، أي: "ولما رجع موسى إلى قومه مِن بني إسرائيل غضبان حزينًا".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ولما رجع موسى إلى قومه من بني إسرائيل، رجع غضبان أسفًا، لأن الله كان قد أخبره أنه قد فتن قومه، وأن السامري قد أضلّهم، فكان رجوعه غضبان أسفًا لذلك".

وقد ذكر العلماء في الأسِف معنيين:

المعنى الأول: النهاية في الغضب وهو تفسير أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال: (الأسف: منزلة وراء الغضب أشد من ذلك)، وهو قول ابن عقيل، واختيار الزجاج.

المعنى الثاني: شدة الحزن.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (والأسف على وجهين: الغضب والحزن).

وقال النحاس: (الأسف: الشديد الغضب المغيظ ويكون الحزين).

وقال ابن منظور: (الأسف: المبالغة في الحزن والغضب).

وأكثر العلماء على ذكر القولين، فكلاهما صحيح ولا تعارض بينهما فبالإمكان الجمع بينهما بما قال الرازي: (قال الواحدي: والقولان متقاربان؛ لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب، فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت، وإذا جاءك ممن هو فوقك حزنت، فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزنًا، والأخرى غضبًا؛ فعلى هذا كان موسى غضبان على قومه لأجل عبادتهم العجل، أسفًا حزينًا لأن الله تعالى فتنهم وقد كان تعالى قال له: {فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ} [طه:٨٥]).

وقال ابن عطية: (والأسف قد يكون بمعنى الغضب الشديد، وأكثر ما يكون بمعنى الحزن، والمعنيان مترتبان ههنا). والله تعالى أعلم.

=

=

وروي عن السدي: "{أسفًا}، قال: حزينًا".

وعن الحسن: "{غضبان أسفًا}، قال: غضبان حزينًا".

وقال ابن عباس: "{أسفًا}، حزينًا، وقال في «الزخرف»: {فَلَمَّا آسَفُونَا} [سورة الزخرف: ٥٥]، يقول: أغضبونا، و «الأسف»، على وجهين: الغضب، والحزن".

وقال ابن قتيبة: "{أسفا} شديد الغضب. يقال: آسفني فأسفت. أي: أغضبني فغضبت. ومنه قوله: {فلما آسفونا انتقمنا منهم}.

قال ابن عطية: "«الأسف» قد يكون بمعنى الغضب الشديد، وأكثر ما يكون بمعنى الحزن والمعنيان مترتبان هاهنا".

وفي غضبه وأسفه قولان:

أحدهما: غضبان من قومه على عبادة العجل؟ أسفًا على ما فاته من مناجاة ربه.

والثاني: غضبان على نفسه في ترك قومه حتى ضلوا، أسفًا على ما رأى في قومه من ارتكاب المعاصي.

قوله تعالى: {قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي} [الأعراف: ١٥٠]، أي: "بئس ما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم".

قال الطبري: "يقول: بئس الفعل فعلتم بعد فراقي إياكم وأوليتموني فيمن خلفت ورائي من قومي فيكم، وديني الذي أمركم به ربكم".

قال ابن كثير: "يقول: بئس ما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم.

قوله تعالى: {أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ} [الأعراف: ١٥٠]، أي: "أعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حتى يرجع من الطور؟.

هذا الخطاب إنما يكون لعبدة العجل من السامري وأشياعه، أو لوجوه بني إسرائيل، وهم: هارون عليه السلام والمؤمنون معه، ويدل عليه قوله (اخلفني فِي قَوْمِي).

=

=

وعلى التقدير الأول: يكون المعنى بئسما خلفتموني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله.

وعلى هذا التقدير الثاني، يكون المعنى بئسما خلفتموني حيث لم تمنعوا من عبادة غير الله تعالى.

قال الطبري: "يقول: أسبقتم أمر ربكم في نفوسكم، وذهبتم عنه؟.

قال ابن كثير: "استعجلتم مجيئي إليكم، وهو مقدر من الله تعالى".

وفي قوله تعالى: {أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ} [الأعراف: ١٥٠]، قولان:

أحدهما: يعني: وعد ربكم الذي وعدني به من الأربعين ليلة، وذلك أنه قَدَّروا أنه قد مات لمَّا لم يأت على رأس الثلاثين ليلة، قاله الحسن ، والسدي.

والثاني: وعد ربكم بالثواب على عبادته حتى عدلتم إلى عبادة غيره، قاله بعض المتأخرين.

قال الماوردي:"والفرق بين العجلة والسرعة أن العجلة: التقدم بالشيء قبل وقته، والسرعة: عمله في أقل أوقاته".

قوله تعالى: {وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ} [الأعراف: ١٥٠]، أي: "طرح الألواح لما عراه من شدة الغضب، وفرط الضجر غضبًا لله من عبادة العجل".

قال الطبري: يقول: "وألقى موسى الألواح؟... وقيل: إن التوراة كانت سبعة أسباع، فلما ألقى موسى الألواح تكسرت، فرفع منها ستة أسباعها، وكان فيما رفع {تفصيل كل شيء}، الذي قال الله: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلا لِكُلِّ شَيْءٍ} وبقي الهدى والرحمة في السبع الباقي، وهو الذي قال الله: {أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} [سورة الأعراف: ١٥٤].

قال ابن عباس: "لما رجع موسى إلى قومه، وكان قريبًا منهم، سمع أصواتهم،

=

=

فقال: إني لأسمع أصواتَ قومٍ لاهين: فلما عاينهم وقد عكفوا على العجل، ألقى الألواح فكسرها، وأخذ برأسِ أخيه يجره إليه".

قال سعيد: "أدناه حتى سمع صريف الأقلام".

قال الربيع بن أنس: "أنزلت التوراة وهي سبعون وَقْر بعير، يقرأ منها الجزء في سنة، لم يقرأها إلا أربعة نفر: موسى بن عمران، وعيسى، وعزير، ويوشع بن نون، صلوات الله عليهم".

قال ابن عطية: "وهذا ضعيف مفرط".

وقيل: "أن الألواح كانت لوحين. فإن كان الذي قال كما قال، فإنه قيل: "وكتبنا له في الألواح"، وهما لوحان، كما قيل: {فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ} [سورة النساء: ١١]، وهما أخوان".

و اختلف أهل العلم في سبب إلقائه «الألواح»، على وجهين:

أحدهما: أنه ألقاها غضبًا على قومه الذين عبدوا العجل. قاله ابن عباس ، والسدي.

والثاني: من أمة محمد ﷺ أنهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، قال: رب فاجعلهم أمتي قال: تلك أمة أحمد، فاشتد عليه فألقاها، قاله قتادة.

عن قتادة، قوله: " {أخذ الألواح}، قال: رب، إني أجد في الألواح أمةً خيرَ أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد! قال: رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون- أي آخرون في الخلق- السابقون في دخول الجنة، رب اجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد! قال: رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرأونها، وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظرًا، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئًا، ولم يعرفوه. قال قتادة: وإن

=

=

الله أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئًا لم يعطه أحدًا من الأمم، قال: ربِّ اجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد! قال: رب إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فضول الضلالة، حتى يقاتلوا الأعور الكذاب، فاجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد! قال: رب إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم، ثم يؤجرون عليها، وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه، بعث الله عليها نارًا فأكلتها، وإن ردَّت عليه تركت تأكلها الطير والسباع. قال: وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم، قال: رب اجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد! قال: رب إني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة، رب اجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد! قال: رب إني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها، فإذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة، فاجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد! قال: رب إني أجد في الألواح أمة هم المستجيبون والمستجاب لهم، فاجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إني أجد في الألواح أمة هم المشفَّعون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد! قال: وذكر لنا أن نبي الله موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد! قال: فأعطي نبي الله موسى عليه السلام ثنتين لم يعطهما نبيٌّ، قال الله: {يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي} [سورة الأعراف: ١٤٣]. قال: فرضي نبي الله. ثم أعطي الثانية: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [سورة الأعراف: ١٥٩]، قال: فرضي نبي الله صلى الله عليه وسلم كل الرضى".

قال ابن عطية: "وهذا قول رديء لا ينبغي أن يوصف موسى عليه السلام به، والأول هو الصحيح".

ثم قال ابن كثير: "وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولا غريبًا، لا يصح إسناده إلى

=

=

حكاية قتادة، وقد رَدّه ابن عطية وغير واحد من العلماء، وهو جدير بالرد، وكأنه تَلَقَّاه قتادة عن بعض أهل الكتاب، وفيهم كذابون ووَضّاعون وأفاكون وزنادقة".

قال الطبري: "والذي هو أولى بالصواب من القول في ذلك، أن يكون سبب إلقاء موسى الألواح كان من أجل غضبه على قومه لعبادتهم العجل، لأن الله جل ثناؤه بذلك أخبر في كتابه فقال: {ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه}.

وأخرج أحمد (١/ ٢١٥، ٢٧١)، وابن حبان (٦٢١٣، ٦٢١٤)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٥٤)، وابن عدي (٧/ ٢٥٩٦)، وأبو الشيخ في الأمثال (٥)، والحاكم (٢/ ٣٥١)، والخطيب في تاريخه (٦/ ٥٦) وغيرهم عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: (ليس الخبر كالمعاينة، إن الله ﷻ أخبر موسى بما صنع قومه في العجل، فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا، ألقى الألواح فانكسرت) والحديث صححه ابن حبان، والحاكم وأقره الذهبي، وقال الزركشي في اللآلئ المنثورة (٧٨): إسناده صحيح، وحسنه ابن حجر في موافقة الخبر (٢/ ١٣٨)، وقال الغزي في إتقان ما يحسن (٢/ ٤٧٥): إسناده جيد، وصححه الشيخ في صحيح الجامع (٥٣٧٤) وكذا صححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٦٣٢)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق صحيح ابن حبان (١٤/ ٩٦): حديث صحيح، رجاله رجال الشيخين، وهشيم -هو ابن بشير وإن لم يصرح بالتحديث- قد تابعه أبو عوانة في الرواية التالية.

* واختلفوا في «الألواح»، على أقوال:

أحدها: أنها كانت من زُمرد أخضر. قاله مجاهد.

والثاني: أنها كانت من ياقوت. وهذا قول سعيد بن جبير.

=

=

والثالث: أنها كانت من بَرَد. قاله ابو العالية.

قال ابن كثير: "قيل: كانت الألواح من زُمُرُّد. وقيل: من ياقوت. وقيل: من بَرَد وفي هذا دلالة على ما جاء في الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة» ، ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضبًا على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفا وخلفا".

قوله تعالى: {وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ} [الأعراف: ١٥٠]، أي: "وأخذ بشعر رأس أخيه هارون يجره إليه ظنًا منه أنه قصَّر في كفهم عن ذلك".

فإن قيل: فلم قصده بمثل هذا الهوان ولا ذنب له؟

فعن ذلك جوابان:

أحدهما: أن هذا الفعل مما قد يتغير حكمه بالعادة فيجوز أن يكون في ذلك الزمان بخلاف ما هو عليه الآن من الهوان.

والثاني: أن ذلك منه كقبض الرجل منا الآن على لحيته وعضه على شفته.

قال ابن كثير: "خوفًا أن يكون قد قَصَّر في نهيهم، كما قال في الآية الأخرى: {قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي. قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} [طه: ٩٢ - ٩٤].

قال الطبري: "قوله: {وأخذ برأس أخيه يجره إليه}، فإن ذلك من فعل نبي الله ﷺ كان، لموجدته على أخيه هارون في تركه أتباعه، وإقامته مع بني إسرائيل في الموضع الذي تركهم فيه، كما قال جل ثناؤه مخبرًا عن قيل موسى عليه السلام له: {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلا تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} [سورة طه: ٩٢، ٩٣]، حين أخبره هارون بعذره فقبل عذره، وذلك قيله لموسى: {لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} [سورة طه: ٩٤]، وقال: {يا ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء}،

=

=

الآية".

قال محمد بن إسحاق: "لما انتهى موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، ألقى الألواح من يده، ثم أخذ برأس أخيه ولحيته، ويقول: {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلا تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} [سورة طه: ٩٢، ٩٣].

قال السدي: "أخذ موسى الألواح، ثم رجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا، فقال: {يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا}، إلى قوله: {فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ} [سورة طه: ٨٦ - ٨٧]، فألقى موسى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجره إليه {قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي} [سورة طه: ٩٤].

قوله تعالى: {قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي} [الأعراف: ١٥٠]، أي: "قال هارون مستعطفًا: يا ابن أمي: إن القوم استذلوني وعدُّوني ضعيفًا وقاربوا أن يقتلوني".

قال الطبري:"يعني بالقوم، الذين عكفوا على عبادة العجل وقالوا: {هذا إلهنا وإله موسى}، وخالفوا هارون. وكان استضعافهم إياه: تركهم طاعته واتباع أمره، {وكادوا يقتلونني}، يقول: قاربوا ولم يفعلوا".

وفي قوله تعالى: {قَالَ ابْنَ أُمَّ} [الأعراف: ١٥٠]، قولان:

أحدهما: أنه قال ذلك لأنه كان أخاه لأمه، قاله الحسن.

والثاني: أنه قال ذلك على عادة العرب استعطافًا بالرحم، كما قال الشاعر:

يَا ابْنَ أُمِّي وَيَا شقيقَ نَفْسِي   أَنْتَ خَلَّيْتَنِي لأَمْرٍ شَدِيدٍ

قال ابن عطية: "وقوله: {ابْنَ أُمَ}، استلطاف برحم الأم إذ هو ألصق القرابات".

قال ابن كثير: "وإنما قال: {ابْنَ أُمَّ}؛ لتكون أرأف وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه".

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وعاصم فى رواية أبى بكر: «قال ابن أم»، بكسر

=

=

الميم فيهما، وأما الهمزة فمضمومة.

قوله تعالى: {فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ} [الأعراف: ١٥٠]، أي: "فلا تَسرَّ الأعداء بما تفعل بي".

وروي عن مجاهد أنه قرأ: «فَلا تَشْمِتْ بِيَ الأعْدَاءَ».

فالشماتة: هي سرور العدو بما ينال عدوه الآخر من مكروه أو سوء.

- قال القرطبي: والشماتة: السرور بما يصيب أخاك من المصائب في الدِّين والدنيا، وهي محرّمة مَنْهِيٌّ عنها.

- **وقال ابن عاشور**: والشماتة: سُرور النفس بما يصيب غيرها من الإضرار، وإنما تحصل من العداوة والحسد.

قال ﷺ (اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء، ودرك الشقاء، وجهد البلاء، وشماتة الأعداء).

قوله تعالى: {وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ١٥٠]، أي: "ولا تجعلني في غضبك مع القوم الذين خالفوا أمرك وعبدوا العجل".

قال ابن كثير: "أي: لا تَسُقني مَسَاقهم، ولا تخلطني معهم".

قال الطبري: "يقول: لا تجعلني في موجدتك عليَّ وعقوبتك لي ولم أخالف أمرك، محلَّ من عصاك فخالف أمرك، وعبد العجل بعدك، فظلم نفسه، وعبد غيرَ من له العبادة، ولم أشايعهم على شيء من ذلك".

عن مجاهد: " {ولا تجعلني مع القوم الظالمين}، قال: أصحاب العجل".

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي} [الأعراف: ١٥١]، أي:": ربِّ اغفر لي غضبي، واغفر لأخي ما سبق بينه وبين بني إسرائيل".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: قال موسى، لما تبين له عذر أخيه، وعلم أنه لم يفرط في الواجب الذي كان عليه من أمر الله، في ارتكاب ما فعله الجهلة من عبدة

=

=

العجل: {رب اغفر لي}، مستغفرًا من فعله بأخيه، ولأخيه من سالفٍ سلف له بينه وبين الله: تغمد ذنوبنا بستر منك تسترها به".

قال القرطبي: "أي: اغفر لي ما كان من الغضب الذي ألقيت من أجله الألواح، ولأخي لأنه ظنه مقصرا في الإنكار عليهم وإن لم يقع منه تقصير، أي: اغفر لأخي إن قصر".

قال الزمخشري: "لما اعتذر إليه أخوه وذكر له شماتة الأعداء قال: {رب اغفر لي ولأخي}، ليرضى أخاه ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه فلا تتم لهم شماتتهم، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه، ولأخيه أن عسى فرط في حسن الخلافة".

قال ابن عطية: "استغفر موسى من فعله مع أخيه ومن عجلته في إلقاء الألواح واستغفر لأخيه من فعله في الصبر لبني إسرائيل، ويمكن بأن الاستغفار كان لغير هذا مما لا نعلمه والله أعلم".

قال الشوكاني: "طلب المغفرة له أولا، ولأخيه ثانيا ليزيل عن أخيه ما خافه من الشماتة، فكأنه تذمم مما فعله بأخيه، وأظهر أنه لا وجه له، وطلب المغفرة من الله مما فرط منه في جانبه، ثم طلب المغفرة لأخيه إن كان قد وقع منه تقصير فيما يجب عليهم من الإنكار عليهم وتغيير ما وقع منهم".

قال الشوكاني: طلب المغفرة له أوّلًا، ولأخيه ثانيًا، ليزيل عن أخيه ما خافه من الشماتة، فكأنه تذمم مما فعله بأخيه، وأظهر أنه لا وجه له، وطلب المغفرة من الله مما فرط منه في جانبه، ثم طلب المغفرة لأخيه إن كان قد وقع منه تقصير فيما يجب عليه من الإنكار عليهم وتغيير ما وقع منهم، ثم طلب إدخاله وإدخال أخيه في رحمة الله التي وسعت كل شيء، فهو (أَرْحَمُ الرحمين).

قال ابن عاشور: وابتدأ موسى دعاءه فطلب المغفرة لنفسه تأدبًا مع الله فيما ظهر عليه من الغضب، ثم طلب المغفرة لأخيه فيما عسى أن يكون قد ظهر منه من

=

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢).

{إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْل} إلَهًا {سَيَنَالُهُمْ غَضَب} عَذَاب {مِنْ رَبّهمْ وَذِلَّة فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا} فَعُذِّبُوا بِالْأَمْرِ بِقَتْلِ أَنْفُسهمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّة إلَى يَوْم الْقِيَامَة {وَكَذَلِكَ} كَمَا جَزَيْنَاهُمْ {نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} عَلَى الله بِالْإِشْرَاكِ وَغَيْره.

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣).

{وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَات ثُمَّ تَابُوا} رَجَعُوا عَنْهَا {مِنْ بَعْدهَا وَآمَنُوا} بِاَللهِ {إنَّ رَبّك مِنْ بَعْدهَا} أَيْ التَّوْبَة {لَغَفُور} لَهُمْ {رَحِيم} بِهِمْ[1].

=

تفريط أو تساهل في ردع عبدة العجل عن ذلك.

عن ابن عباس: "يعني قوله: {قال رب اغفر لي ولأخي}، قال: ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له".

قال الحسن: "عبد كلهم العجل غير هارون، إذ لو كان ثم مؤمن غير موسى وهارون لما اقتصر على قوله: رب اغفر لي ولأخي، ولدعا لذلك المؤمن أيضا".

قوله تعالى: {وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ} [الأعراف: ١٥١]، أي: "وأدخلنا في رحمتك الواسعة".

قال الطبري: يقول: "وارحمنا برحمتك الواسعة عبادك المؤمنين".

قوله تعالى: {وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأعراف: ١٥١]، أي: "فإنك أرحم بنا من كل راحم".

قال الطبري: أي: "فإنك أنت أرحم بعبادك من كل من رحم شيئًا".

(١) قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ

=

=
الدُّنْيَا} [الأعراف: ١٥٢]، أي: "إن الذين اتخذوا العجل إلهًا سينالهم غضب شديد مِن ربهم وهوان في الحياة الدنيا".
قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: {إن الذين اتخذوا العجل} إلهًا، {سينالهم غضب من ربهم}، بتعجيل الله لهم ذلك، {وذلة}، وهي الهوان، لعقوبة الله إياهم على كفرهم بربهم، {في الحياة الدنيا}، في عاجل الدنيا قبل آجل الآخرة".
اختلف العلماء في هذه الآية، حيث من المعلوم أن الذين عبدوا العجل تابوا توبة صادقة، وقبل الله توبتهم، فكيف قال هنا: (سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ....)؟
قيل: كان هذا القول من موسى عليه السلام قبل أن يتوب القوم بقتلهم أنفسهم، فإنهم لمّا تابوا وعفا الله عنهم بعد أن جرى القتل العظيم كما تقدّم بيانه في "البقرة" أخبرهم أن من مات منهم قتيلًا فهو شهيد، ومن بَقِي حيًّا فهو مغفور له.
وقيل: كان ثَمَّ طائفة أُشْرِبوا في قلوبهم العجل، أي حُبّه، فلم يتوبوا؛ فهم المعنِيّون بذلك.
وقيل: أراد من مات منهم قبل رجوع موسى من المِيقات.
وقيل: أراد أولادهم، وهو ما جرى على قُريظة والنضِير؛ أي سينال أولادهم.... (تفسير القرطبي).
ورجح الشنقيطي القول الثاني فقال: قال جماعة من العلماء: هذه الآية من سورة الأعراف في طائفة من بني إسرائيل أُشربت قلوبهم حُبّ العجل، ولم يتوبوا فيمن تاب، بل بقوا غير تائبين، وعدهم الله هذا الوعيد، وهددهم هذا التهديد، وهذا هو الأظهر؛ لأن المعروف أن أكثر الإسرائيليين تاب من عبادة العجل تلك التوبة العظيمة التي بيّناها مفصَّلة في سورة البقرة.
روي عن الحسن: "اسم عجل بني إسرائيل الذي عبدوه يهبوث".
عن أيوب قال: "تلا أبو قلابة: {سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا}
=

=

الآية، قال: فهو جزاء كل مفترٍ يكون إلى يوم القيامة: أن يذله الله ﷻ".

وقال ابن جريج: "هذا لمن مات ممن اتخذ العجل قبل أن يرجع موسى عليه السلام، ومن فرّ منهم حين أمرهم موسى أن يقتل بعضهم بعضًا".

قال الطبري: "وهذا الذي قاله ابن جريج، وإن كان قولا له وجه، فإن ظاهر كتاب الله، مع تأويل أكثر أهل التأويل، بخلافه. وذلك أن الله عم بالخبر عمن اتخذ العجل أنه سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا، وتظاهرت الأخبار عن أهل التأويل من الصحابة والتابعين بأن الله إذ رجع إلى بني إسرائيل موسى عليه السلام، تابَ على عبدة العجل من فعلهم بما أخبر به عن قيل موسى عليه السلام في كتابه، وذلك قوله: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} [سورة البقرة: ٥٤]، ففعلوا ما أمرهم به نبيهم ﷺ. فكان أمرُ الله إياهم بما أمرهم به من قتل بعضهم أنفُس بعض، عن غضب منه عليهم بعبادتهم العجل. فكان قتل بعضهم بعضًا هوانًا لهم وذلة أذلهم الله بها في الحياة الدنيا، وتوبة منهم إلى الله قبلها. وليس لأحد أن يجعل خبرًا جاء الكتاب بعمومه، في خاصٍّ مما عمه الظاهر، بغير برهان من حجة خبر أو عقل. ولا نعلم خبرًا جاء بوجوب نقل ظاهر قوله: {إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم}، إلى باطن خاصّ ولا من العقل عليه دليل، فيجب إحالة ظاهره إلى باطنه".

وعن ثابت، وحميد: "أن قيس بن عُبَاد، وجارية بن قدامة، دخلا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقالا أرأيت هذا الأمر الذي أنت فيه وتدعو إليه، أعهدٌ عهده إليك رسول الله ﷺ، أم رأيٌ رأيته؟ قال: ما لكما ولهذا؟ أعرضا عن هذا! فقالا والله لا نعرضُ عنه حتى تخبرنا! فقال: ما عهد إليّ رسول الله ﷺ إلا كتابًا في قراب سيفي هذا! فاستلَّه، فأخرج الكتاب من قراب سيفه، وإذا فيه: «إنه لم يكن نبيّ إلا له

=

=

حرم، وأنّي حرمت المدينة كما حرّم إبراهيم عليه السلام مكة، لا يحمل فيها السلاحُ لقتال. من أحدث حدثًا أو آوى مُحدِثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عَدْل». فلما خرجا قال أحدهما لصاحبه: أما ترى هذا الكتاب؟ فرجعا وتركاه وقالا إنا سمعنا الله يقول: {إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم}، الآية، وإن القوم قد افتروا فرية، ولا أدري إلا سينزل بهم ذلة".

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} [الأعراف: ١٥٢]، أي: "كما جازينا هؤلاء بإحلال الغضب والإذلال كذلك نجزي كل من افترى الكذب على الله".

قال ابن كثير: "نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذُلَّ البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هَمْلَجَت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين".

قال الطبري: "وكما جَزيت هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهًا، من إحلال الغضب بهم، والإذلال في الحياة الدنيا على كفرهم ربّهم، ورِدَّتهم عن دينهم بعد إيمانهم بالله، كذلك نجزي كل من افترى على الله، فكذب عليه، وأقر بألوهية غيره، وعبد شيئًا سواه من الأوثان، بعد إقراره بوحدانية الله، وبعد إيمانه به وبأنبيائه ورسله وقِيلَ ذلك، إذا لم يتب من كفره قبل قتله".

قال الفضيل بن عياض: "كل شيء في القرآن {وكذلك نجزي المفترين}، ونحو هذا: يقول: كما أهلك الذين من قبل فكذلك يفعل بالمفترين ونحو هذا".

عن سفيان بن عيينة: في قوله: " {وكذلك نجزي المفترين}، قال: كل صاحب بدعة ذليلٌ".

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن سفيان بن عيينة، قال: لا تجد مبتدعا إلا وجدته ذليلا ألم تسمع إلى قول الله: {إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من

=

=

ربهم وذلة في الحياة الدنيا}.

وأخرج أبو الشيخ عن سفيان بن عيينة قال: ليس في الأرض صاحب بدعة إلا وهو يجد ذلة تغشاه وهو في كتاب الله. قالوا: أين هي؟ قال: أما سمعتم إلى قوله (إن الذين اتخذوا العجل... الآية؟

قال: يا أبا محمد هذه لأصحاب العجل خاصة! قال: كلا اقرأ ما بعدها: {وكذلك نجزي المفترين}، فهي لكل مفتر ومبتدع إلى يوم القيامة".

قال الحسن البصري: "إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغال وطقطقت بهم البراذين".

قال الفضيل بن عياض: "كل شيء في القرآن {وكذلك نجزي المفترين}، ونحو هذا: يقول: كما أهلك الذين من قبل فكذلك يفعل بالمفترين ونحو هذا".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا} [الأعراف: ١٥٣]، أي: "والذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصي، ثم رجعوا مِن بعد فعلها إلى الإيمان والعمل الصالح".

قال الطبري: "وهذا خبر من الله تعالى ذكره أنه قابلٌ من كل تائب إليه من ذنب أتاه، صغيرةً كانت معصيته أو كبيرةً، كفرًا كانت أو غير كفر، كما قبل من عَبَدة العجل توبتهم بعد كفرهم به بعبادتهم العجل وارتدادهم عن دينهم. يقول جل ثناؤه: والذين عملوا الأعمال السيئة، ثم رجعوا إلى طلب رضى الله بإنابتهم إلى ما يحب مما يكره، وإلى ما يرضى مما يسخط، من بعد سيئ أعمالهم، وصدَّقوا بأن الله قابل توبة المذنبين، وتائبٌ على المنيبين، بإخلاص قلوبهم ويقين منهم بذلك".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأعراف: ١٥٣]، أي: "إن ربك من بعد التوبة النصوح لغفور لأعمالهم غير فاضحهم بها، رحيم بهم وبكل مَن

=

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤).

{وَلَمَّا سَكَتَ} سَكَنَ {عَنْ مُوسَى الْغَضَب أَخَذَ الْأَلْوَاح} الَّتِي أَلْقَاهَا {وَفِي نُسْخَتهَا} أَيْ مَا نُسِخَ فِيهَا أَيْ كُتِبَ {هُدًى} مِنْ الضَّلَالَة {وَرَحْمَة لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} يَخَافُونَ وَأَدْخَلَ اللَّام عَلَى الْمَفْعُول لِتَقَدُّمِهِ.

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥).

=

كان مثلهم من التائبين".

قال الطبري: "يقول: لساتر عليهم أعمالهم السيئة، وغير فاضحهم بها، {رحيم}، بهم، وبكل من كان مثلهم من التائبين".

قال سعيد بن جبير: "{لغفور}، لما كان منهم في الشرك"، {رحيم}:"رحيم بهم بعد التوبة".

أخرج ابن ابي حاتم من طريق يزيد بن زريع، قال قتادة: "{لغفور}، يعني: الذنوب الكثيرة، أو الكبيرة. -شك يزيد-"، " {رحيم}، قال: بعباده".

روي عن عبد الله بن مسعود: "أنه سئل عن ذلك يعني الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها، فتلا هذه الآية: {والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم}، فتلاها عبد الله عشر مرات فلم يأمرهم ولم ينههم عنها".

{وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمه} أَيْ مِنْ قَوْمه {سَبْعِينَ رَجُلًا} مِمَّنْ لَمْ يَعْبُدُوا الْعِجْل بِأَمْرِهِ تَعَالَى {لِمِيقَاتِنَا} أَيْ لِلْوَقْتِ الَّذِي وَعَدْنَاهُ بِإِتْيَانِهِمْ فِيهِ لِيَعْتَذِرُوا مِنْ عِبَادَة أَصْحَابهمْ الْعِجْل فَخَرَجَ بِهِمْ {فلما أخذتهم الرجفة} الزلزلة الشديدة قال بن عَبَّاس لِأَنَّهُمْ لَمْ يُزَايِلُوا قَوْمهمْ حِين عَبَدُوا الْعِجْل قَالَ وَهُمْ غَيْر الَّذِينَ سَأَلُوا الرُّؤْيَة وَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَة {قَالَ} مُوسَى {رَبّ لَوْ شِئْت أهلكتهم من قبل} أي قبل خروجي يهم ليعاين بنو إسرائيل ذلك ولا يتهموني {وإياي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا} اسْتِفْهَام اسْتِعْطَاف أَيْ لَا تُعَذِّبنَا بِذَنْبِ غَيْرنَا {إنْ} مَا {هِيَ} أَيْ الْفِتْنَة الَّتِي وَقَعَ فِيهَا السُّفَهَاء {إلَّا فِتْنَتك} ابْتِلَاؤُك {تُضِلّ بِهَا مَنْ تَشَاء} إضْلَاله {وَتَهْدِي مَنْ تَشَاء} هِدَايَته {أَنْتَ وَلِيّنَا} متولي أمورنا {فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين}.

وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦).

{وَاكْتُبْ} أَوْجِبْ {لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَة وَفِي الْآخِرَة} حَسَنَة {إنَّا هُدْنَا} تُبْنَا {إلَيْك قَالَ} تَعَالَى {عَذَابِي أُصِيب بِهِ مَنْ أَشَاء} تَعْذِيبه {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ} عَمَّتْ {كُلّ شَيْء} فِي الدنيا {فسأكتبها} في الآخرة {للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون.

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا

بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧).

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُول النَّبِيّ الْأُمِّيّ} مُحَمَّدًا ﷺ {الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدهمْ فِي التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل} بِاسْمِهِ وَصِفَته {يَأْمُرهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنْكَر وَيُحِلّ لَهُمْ الطَّيِّبَات} مِمَّا حَرَّمَ فِي شَرْعهمْ {وَيُحَرِّم عَلَيْهِمْ الْخَبَائِث} مِنْ الْمَيْتَة وَنَحْوهَا {وَيَضَع عَنْهُمْ إصْرهمْ} ثِقَلهمْ {وَالْأَغْلَال} الشدائد {التي كانت عليهم} كقتل النفس من التوبة وقطع أثر النجاسة {فالذين آمنوا به} منهم {وعزروه} ووقروه {ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه} أي القرآن {أولئك هم المفلحون}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي بكر الهذلي؛ قال: لما نزلت: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}؛ قال إبليس: يا رب، وأنا من الشيء؛ فنزلت: {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} فنزعها الله من إبليس.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٥٧٩ رقم ٩٠٥٠): حدثنا أبي ثنا ابن أبي عمر ثنا سفيان عن أبي بكر الهذلي به. وسنده ضعيف جدًا؛ الهذلي متروك، وفيه إعضال.

وعن السدي؛ قال: لما نزلت: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}؛ قال إبليس: وأنا من الشيء؛ فنسخها الله، فأنزل: {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٥٧٢) ونسبه لأبي الشيخ.

وعن قتادة؛ قال: قوله: {عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}؛ فقال إبليس: أنا من ذلك الشيء! فأنزل الله -تعالى-: {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ =

=

معاصي الله- وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} فتمنتها اليهود والنصارى؛ فأنزل الله -تعالي- شرطًا وثيقًا بيّنًا، فقال: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ}؛ فهو نبيكم كان أميًا لا يكتب ﷺ.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ٥٥): ثنا بشر بن معاذ العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة. وهذا مرسل جيد الإسناد.

وأخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٥٧٩ رقم ٩٠٥١) من طريق الوليد بن مسلم ثنا سعيد بن بشير عن قتادة بنحوه. مختصرًا.

وعن ابن جريج؛ قال: لما نزلت: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}؛ قال إبليس: أنا من كل شيء، قال الله -تعالى-: {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}؛ فقالت اليهود: ونحن نتقي ونؤتي الزكاة؛ فأنزل الله -تعالي-: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ}؛ قال: نزعها الله عن إبليس وعن اليهود، وجعلها لأمة محمد {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} من قومك.

أخرجه سنيد في "تفسيره" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ٥٥) -: ثني حجاج عن ابن جريج به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ لإعضاله، وضعف سنيد صاحب "التفسير".

* قوله تعالى: {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ} [الأعراف: ١٥٤]، أي: "ولما سكن عن موسى غضبه أخذ الألواحالتي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل، غيرةً لله وغضبًا له".

قال الطبري: "ولما كفّ عنه وسكن، أخذ الألواح بعد ما ألقاها، وقد ذهب منها ما ذهب".

قال أبو عبيدة: "أي: سكن، لأن كل كاف عن شئ فقد سكت عنه، أي: كفّ عنه وسكن، ومنه: سكت فلم ينطق".

=

=

قال ابن كثير: "أي: سكن غضبه على قومه، {أَخَذَ الأَلْوَاحَ} أي: التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل، غيرةً لله وغضبًا له".

قال الثعلبي: "أخذ الألواح التي ألقاها وذهب منها ستة أسباعها".

عن ابن عباس: " {ولما سكت عن موسى الغضب}، قال: فلما ذهب عن موسى الغضب فذلك قول الله: {أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون}.

وكل كافٍّ عن شيء: ساكت عنه، وإنما قيل للساكت عن الكلام: "ساكت"، لكفه عنه، وقد ذكر عن يونس الجرمي أنه قال: يقال: سكت عنه الحزن، وكلُّ شيء، فيما زعم، ومنه قول أبي النجم:

وَهَمَّتِ الأَفْعَى بِأَنْ تَسِيحَا.. ز وَسَكَتَ المُكَّاءُ أَنْ يَصِيحَا.

قوله تعالى: {وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} [الأعراف: ١٥٤]، أي: "وفيها بيان للحق ورحمة للذين يخافون الله، ويخشون عقابه".

قال الطبري: "يقول: وفيما نسخ فيها، أي كتب فيها، {هدى} بيان للحق، {ورحمة للذين هم لربهم يرهبون}، يقول: للذين يخافون الله ويخشون عقابه على معاصيه".

عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: قوله: "{للذين هم لربهم يرهبون}، قال: يخافون ويتقون".

وقال مجاهد وإبراهيم: هو " الرجل يريد أن يذنب، فيذكر مقام ربه، فيدع الذنب".

قال ابن عباس: "أعطى الله موسى التوراة في سبعة ألواح من زبرجد فيها تبيان لكل شيء وموعظة التوراة مكتوبة، فلما جاء بها فرأى بني إسرائيل عكفوا على العجل، رمى التوراة من يده فتحطمت، وأقبل على هارون فأخذ برأسه فرفع الله منها ستة

=

=

أسباع وبقي سبع فلما ذهب عن موسى الغضب، فذلك قول الله: {أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون}، قال: فيما بقي منها".

قال ابن كثير: "يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسرت، ثم جمعها بعد ذلك؛ ولهذا قال بعض السلف: فوجد فيها هدى ورحمة. وأما التفصيل فذهب، وزعموا أن رضاضها لم يزل موجودا في خزائن الملوك لبني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية، والله أعلم بصحة هذا. وأما الدليل القاطع على أنها تكسرت حين ألقاها، وهي من جوهر الجنة فقد أخبر الله تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها هدى ورحمة. {لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} ضمن الرهبة معنى الخضوع؛ ولهذا عدَّاها باللام".

قوله تعالى: {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا} [الأعراف: ١٥٥]، أي: "واختار موسى من قومه سبعين رجلا مِن خيارهم، وخرج بهم إلى طور «سيناء» للوقت والأجل الذي واعده الله أن يلقاه فيه بهم للتوبة مما كان من سفهاء بني إسرائيل من عبادة العجل".

ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام إلى أن في قوله تعالى: {واختار موسى قومه } محذوف، وتقديره: واختار موسى من قومه سبعين رجلا.

ووافقه في هذا: الفراء، والأخفش، والطبري، والنحاس، والثعلبي، والبغوي، وابن الجوزي، والبيضاوي، والألوسي.

يقول الثعلبي: (أي من قومه، فلما نزع حرف الصفة نصب).

وقال ويقول ابن الجوزي: (المعنى: اختار من قومه، فحذف (من)، تقول العرب: اخترتك القوم، أي: اخترتك من القوم، وأنشدوا:

ومنا الذي اختير الرجال سماحة وجودا إذا هب الرياح الزعازع.

قال الفراء: (وجاء التفسير: اختار منهم سبعين رجلا، وإنما استجيز وقوع الفعل

=

=

عليهم إذ طرحت (من) لأنه مأخوذ من قولك: هؤلاء خير القوم، وخير من القوم، فلما جازت الإضافة مكان (من) ولم يتغير المعنى استجازوا أن يقولوا: اخترتكم رجلا، واخترت منكم رجلا.

وقد قال الشاعر:

فقلت له اخترها قلوصا سمينة ونابا علينا مثل نابك في الحيا

فقام إليها حبتر بسلاحه فلله عينا حبتر أيما فتى.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: واختار موسى من قومه سبعين رجلا للوقت والأجل الذي وعده الله أن يلقاه فيه بهم، للتوبة مما كان من فعل سفهائهم في أمر العجل".

عن ميمون: " {واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا}، قال: لموعدهم الذي وعدهم".

عن مجاهد: " {سبعين رجلا لميقاتنا}، قال: اختارهم لتمام الوعد".

قال السدي: "إن الله أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناسٍ من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعدًا، فاختار موسى قومه سبعين رجلا على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته، فأرناه! فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رَبِّ ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم، لو شئتَ أهلكتهم من قبل وإيّاي!.

قال ابن إسحاق: "اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلا الخيِّر فالخيرَ، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم، واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتَطَهَّروا، وطهِّروا ثيابكم! فخرج بهم إلى طور سيْناء، لميقات وقَّته له ربه. وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم. فقال السبعون -فيما ذكر

=

=

لي- حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربِّه، لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربِّنا! فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمودُ الغمام، حتى تغشى الجبلَ كله. ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا! وكان موسى إذا كلمه الله وقَع على جبهته نورساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه! فضرب دونه بالحجاب. ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام وقَعوا سجودًا، فسمعوه وهو يكلِّم موسى، يأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل! فلما فرغ الله من أمره، انكشف عن موسى الغمام. أقبل إليهم، فقالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة! فأخذتهم الرجفة- وهي الصاعقة- فَافْتُلِتَتْ أرواحهم، فماتوا جميعًا، وقام موسى عليه السلام يناشد ربّه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: رب لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياي! قد سفهوا! أفتهلك مَنْ ورائي من بني إسرائيل؟.

قوله تعالى: {فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} [الأعراف: ١٥٥]، أي: "فلما رجف بهم الجبل وصعقوا".

قال ابن عباس: "رُجف بهم".

قال مجاهد: "ماتوا ثم أحياهم".

وفي قوله (لِّمِيقَاتِنَا) قولان:

أحدهما: أنه الميقات المذكور في سؤال الرؤية.

والثاني: أنه ميقات غير الأول وهو ميقات التوبة من عبادة العجل.

- قال الرازي: واحتج القائلون بهذا القول على صحة مذهبهم بأمور: الأول: أنه تعالى ذكر قصة ميقات الكلام وطلب الرؤية ثم أتبعها بذكر قصة العجل ثم أتبعها بهذه القصة، وظاهر الحال يقتضي أن تكون هذه القصة مغايرة للقصة المتقدمة التي لا ينكر أنه يمكن أن يكون هذا عودًا إلى تتمة الكلام في القصة الأولى إلا أن الأليق بالفصاحة إتمام الكلام في القصة الواحدة في موضع واحد ثم الانتقال منها

=

=

بعد تمامها إلى غيرها.

الثاني: أن الله تعالى ذكر في ميقات الكلام والرؤية أنه خر موسى صعقًا وأنه جعل الجبل دكًا، وأما الميقات المذكور في هذه الآية، فإن الله تعالى ذكر أن القوم أخذتهم الرجفة، ولم يذكر أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أخذته الرجفة، وكيف يقال أخذته الرجفة، وهو الذي قال لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي؟ واختصاص كل واحد من هذين الميقاتين بهذه الأحكام يفيد ظن أن أحدهما غير الآخر.

(فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ) قيل: لأنهم عبدوا العجل، وقيل: بسبب قولهم (أرنا الله جهرة)، وقيل: أنهم لم ينهوْا من عبد العجل.

وقيل: أنهم لما خرجوا إلى الميقات ليتوبوا دعوا ربهم وقالوا أعطنا ما لم تعطه أحدًا قبلنا، ولا تعطيه أحدًا بعدنا، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك الكلام فأخذتهم الرجفة.

وفي قوله تعالى: {فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} [الأعراف: ١٥٥]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الزلزلة، قاله الكلبي.

والثاني: أنه الموت. قال مجاهد: ماتوا ثم أحياهم.

والثالث: أنها نار أحرقتهم فظن موسى أنهم قد هلكوا ولم يهلكوا، قاله الفراء.

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ} [الأعراف: ١٥٥]، أي: "قال موسى على وجه التضرع والإستسلام لأمر الله: لو شئت يا ربِّ أن تهلكنا قبل ذلك لفعلتَ فإنَّا عبيدك وتحت قهرك وأنت تفعل ما تشاء".

وفي سبب أخذها لهم أربعة أقوال:

أحدها: لأنهم سألوا الرؤية، قاله ابن إسحاق.

والثاني: أخذتهم الرجفة من أجل دَعْواهم على موسى قتلَ هارون. وهذا قول علي بن أبي طالب.

=

=

والثالث: لأنهم فيما دَعَوُا الله قالوا: اللهم أعطِنا ما لم تعط أحدًا بعدنا! فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة. وهذا قول ابن عباس.

والرابع: لأنهم لم ينهوا عن عبادة العجل. وهذا قول ابن عباس أيضا ، وابن جريج ، ومحمد بن كعب القرظي.

قوله تعالى: {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا} [الأعراف: ١٥٥]، أي: "أتهلكنا وسائر بني إسرائيل بما فعل هؤلاء السفهاء السبعون في قولهم: {أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً} [النساء: ١٥٣]؟.

والاستفهام استعطاف وتذلل.

وفي قوله تعالى: {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا} [الأعراف: ١٥٥]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أتهلك هؤلاء الذين أهلكتهم بما فعل السفهاء منا، أي: بعبادة من عبد العجل؟ قالوا: وكان الله إنما أهلكهم لأنهم كانوا ممن يَعبد العجل. وقال موسى ما قال، ولا علم عنده بما كان منهم من ذلك. وهذا معنى قول السدي.

والثاني: معناه: إن إهلاكك هؤلاء الذين أهلكتهم، هلاك لمن وراءهم من بني إسرائيل، إذا انصرفت إليهم وليسوا معي، و {السفهاء}، على هذا القول، كانوا المهلَكين الذين سألوا موسى أن يُريهم ربَّهم. وهذا معنى قول ابن إسحاق.

والثالث: معناه: أتؤاخذنا وليس منا رجلٌ واحد تَرَك عبادتك، ولا استبدل بك غيرك؟ وهذا قول ابن زيد.

والصواب-والله أعلم- "أن موسى إنما حزن على هلاك السبعين بقوله: {أتهلكنا بما فعل السفهاء منا}، وأنّه إنما عنى بـ {السفهاء} عبدةَ العجل. وذلك أنه محالٌ أن يكون موسى ﷺ كان تخيَّر من قومه لمسألة ربِّه ما أراه أن يسألَ لهم إلا الأفضل فالأفضل منهم، ومحالٌ أن يكون الأفضل كان عنده مَنْ أشرك في عبادة العجل واتخذَه دون الله إلهًا".

=

=

قوله تعالى: {إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ} [الأعراف: ١٥٥]، أي: "ما هذه الفتنة التي حدثت لهم إلا محنتك وابتلاؤك تمتحن بها عبادك قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبو العالية، وربيع بن أنس، وغير واحد من علماء السلف والخلف. ولا معنى له غير ذلك؛ يقول: إن الأمرُ إلا أمرُك، وإن الحكمُ إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مُضِل لمن هَدَيت، ولا مُعطِي لما مَنَعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر".

قال الطبري: يقول: "ما هذه الفعلة التي فعلَها قومي، من عبادتهم ما عبَدُوا دونك، إلا فتنة منك أصَابتهم، ويعني بـ «الفتنة»، الابتلاء والاختبار، يقول: ابتليتهم بها، ليتبين الذي يضلَّ عن الحق بعبادته إياه، والذي يهتدي بترك عبادته. وأضاف إضلالهم وهدايتهم إلى الله، إذ كان ما كان منهم من ذلك عن سببٍ منه جل ثناؤه".

قال ابن عباس: "إن هو إلا عذابك تصيبُ به من تشاء، وتصرفه عمن تشاء".

عن أبي العالية: " {إن هي إلا فتنتك}، قال: بليّتك".

عن ابن زيد قوله: " {إن هي إلا فتنتك}، أنت فتنتهم".

قوله تعالى: {تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ} [الأعراف: ١٥٥]، أي: "تضل بهذه المحنة من تشاء إضلاله وتهدي من تشاء هدايته حسب حكمتك، تضل من تشاء بعدلك، وتهدي من تشاء بفضلك".

قوله تعالى: {أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا} [الأعراف: ١٥٥]، أي: "أنت يا رب متولي أمورنا وناصرنا وحافظنا فاغفر لنا ما قارفناه من المعاصي وارحمنا برحمتك الواسعة الشاملة".

الغَفْر هو: الستر، وترك المؤاخذة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر، يراد بها

=

=

ألا يوقعه في مثله في المستقبل (وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ) أي: لا يغفر الذنوب إلا أنت.

قال الطبري: "يقول: أنت ناصرنا، فاستر علينا ذنوبَنا بتركك عقابَنا عليها، وتعطف علينا برحمتك".

قال ابن كثير: "الغَفْر هو: الستر، وترك المؤاخذة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر، يراد بها ألا يوقعه في مثله في المستقبل".

قوله تعالى: {وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ} [الأعراف: ١٥٥]، أي: "وأنت خير مَن صفح عن جُرْم، وستر عن ذنب".

قال الطبري: "يقول: خير من صَفَح عن جُرم، وسَتر على ذنب".

قال ابن كثير: "أي: لا يغفر الذنوب إلا أنت".

قوله تعالى: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ} [الأعراف: ١٥٦]، أي: "واجعلنا ممن كتبتَ له الصالحات من الأعمال في الدنيا وفي الآخرة".

والمراد بالحسنة في الدنيا، تشمل كل خير الدنيا من التوفيق للعلم النافع والعمل الصالح، ومن المتاع الحسن في هذه الحياة، من صحة في البدن، وفسحة في السكن، وسعة في الرزق.

والحسنة في الآخرة الجنة وما فيها من ألوان وأنواع النعيم، وأعلاها النظر إلى وجه الله الكريم.

- وهذا الدعاء من أعظم الأدعية وأجمعها وأكملها.

عن أنس. قال (كان أكثر دعاء النبي ﷺ (اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار).

- **قال ابن كثير:** جمعت هذه الدعوةُ كلَّ خير في الدنيا، وصرَفت كلّ شر فإن الحسنة في الدنيا تشملُ كلّ مطلوب دنيوي، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير

=

=

ذلك مما اشتملت عليه عباراتُ المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا. وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العَرَصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا، من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: مخبراً عن دعاء نبيه موسى عليه السلام أنه قال فيه: اجعلنا ممن كتَبت له {في هذه الدنيا حسنَةً، وهي الصالحات من الأعمال، {وفي الآخرة}، ممن كتبتَ له المغفرة لذنوبه".

قال ابن كثير: "هناك الفصل الأول من الدعاء دفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ} أي: أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة".

عن ابن جريج قوله: " {واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة}، قال: مغفرة".

قوله تعالى: {إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ} [الأعراف: ١٥٦]، أي: "إنا رجعنا تائبين إليك".

قال الطبري: "إنا تبنا إليك".

قال ابن كثير: "أي: تبنا ورجعنا وأنبنا إليك".

عن ابن عباس: " {إنا هدنا إليك}، قال: تبنا إليك". وروي عن قتادة مثله.

عن محمد بن إسحاق، قال: "سمعت أبا وجزة يقول: {إنا هدنا إليك}، بكسر الهاء يعني: ملنا".

قوله تعالى: {قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ} [الأعراف: ١٥٦]، أي: "قال الله تعالى لموسى: عذابي أصيب به مَن أشاء مِن خلقي، كما أصبتُ هؤلاء الذين أصبتهم من قومك".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: قال الله لموسى: هذا الذي أصبتُ به قومك من

=

الرجفة، عذابي أصيب به من أشاء من خلقي، كما أصيب به هؤلاء الذين أصبتهم به من قومك، ورحمتي عمَّت خلقي كلهم".

قال ابن كثير: "أي: أفعل ما أشاء، وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك، سبحانه لا إله إلا هو.

قوله تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٥٦]، أي: "ورحمتي وسعت خلقي كلَّهم".

قال الطبري: يقول: "ورحمتي عمَّت خلقي كلهم".

قال ابن كثير: "قوله تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله إخبارًا عن حَمَلة العرش ومن حوله أنهم يقولون: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا} [غافر: ٧].

وفي قوله تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٥٦]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أن مخرجها عام ومعناها خاص، تأويل ذلك: ورحمتي وسعت المؤمنين بي من أمة محمد ﷺ لقوله تعالى: {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ}، الآية. قاله ابن عباس، وقتادة، وابو بكر الهذلي، وابن جريج.

عن ابن عباس: " {فسأكتبها للذين يتقون}، قال: أمة محمد ﷺ".

الثاني: أنها على العموم في الدنيا والخصوص في الآخرة، وتأويل ذلك: ورحمتي وسعت في الدنيا البر والفاجر، وفي الآخرة هي للذين اتقوا خاصة، قاله الحسن، وقتادة.

الثالث: أنها التوبة، وهي على العموم، قاله ابن زيد.

قوله تعالى: {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ١٥٦]، أي: "فسأكتبها للذين يخافون الله، ويخشون عقابه، فيؤدون فرائضه، ويجتنبون معاصيه، والذين هم بدلائل التوحيد وبراهينه يصدقون".

=

قال ابن كثير: "يعني: فسأوجب حُصُول رحمتي مِنَّةً مني وإحسانا إليهم، كما قال تعالى: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: ٥٤]، أي: سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات، وهم أمة محمدﷺ".

وفي قوله تعالى: {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} [الأعراف: ١٥٦]، قولان:

أحدهما: يتقون الشرك، وعبادة الأوثان، قاله ابن عباس ، والحسن ، وابن سيرين.

الثاني: يتقون المعاصي، قاله قتادة.

قال الطبري: "يقول: فسأكتب رحمتي التي وسعت كل شيء للقوم الذين يخافون الله ويخشون عقابه على الكفر به والمعصية له في أمره ونهيه، فيؤدُّون فرائضه، ويجتنبون معاصيه".

قال ابن كثير: "{الذين يتقون}، أي: الشرك والعظائم من الذنوب.

عن يزيد بن سمرة قال: "سمعت عطاء الخراساني في قوله: {فسأكتبها للذين يتقون}، قال: ليس لك ولا لأصحابك".

وفي قوله تعالى: {وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [الأعراف: ١٥٦]، قولان:

أحدهما: يطيعون الله ورسوله، قاله ابن عباس ، والحسن ، وذهبا إلى أنه العمل بما يزكي النفس ويطهرها من صالحات الأعمال.

الثاني: أنها زكاة أموالهم، لأنها من أشق فرائضهم، وهذا قول الجمهور.

قال عكرمة: "زكاة المال من كل مائتي درهم قفلة خمسة دراهم".

وعن الحارث العكلي في قوله: " {وآتوا الزكاة}، قال: صدقة الفطر".

عن الحسن، في قوله: " {وآتوا الزكاة}، قال: فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها مع الصلاة". وروي عن قتادة نحو ذلك.

قال ابن كثير: "{وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} قيل: زكاة النفوس. وقيل: زكاة الأموال. ويحتمل أن تكون عامة لهما؛ فإن الآية مكية.

=

=

عن أبي هريرة رَضِوَٱللَّهُعَنهُ عن النبي ﷺ قال: «إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة» رواه مسلم.

وعن أبي سعيد قال: قال: رسول الله ﷺ: "لله مائة رحمة، فقسم منها جزءًا واحدًا بين الخلق، فيه يتراحم الناس والوحش والطير".

قوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ} [الأعراف: ١٥٧]، أي: "أي هؤلاء الذين تنالهم الرحمة هم الذين يتبعون محمدًا ﷺ النبيَّ العربي الأمي أي الذي لا يقرأ ولا يكتب".

قال الطبري: "وهذا القول إبانةٌ من الله جل ثناؤه عن أنّ الذين وَعَد موسى نبيَّه عَلَيهِٱلسَّلَامُ أن يكتب لهم الرحمة التي وصفَها جل ثناؤه بقوله: {ورحمتي وسعت كل شيء}، هم أمة محمد ﷺ، لأنه لا يعلم لله رسولٌ وُصف بهذه الصفة - أعني {الأمي} - غير نبينا محمد ﷺ".

قال ابن كثير: "وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم.

عن ابن عباس: " {فسأكتبها للذين يتقون}، قال: أمة محمد ﷺ".

عن قتادة قال: "لما قيل: {فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون}، تمنّتها اليهود والنصارى، فأنزل الله شرطًا بيّنًا وثيقًا فقال: {الذين يتبعون الرَّسول النبيّ الأمي}، وهو نبيكم ﷺ، كان أمِّيًّا لا يكتبُ".

وفي تسميته بـ «الأمي»، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه لا يكتب.

الثاني: لأنه من أم القرى وهي مكة.

=

=

الثالث: لأن من العرب أمة أمية.

قوله تعالى: {الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ} [الأعراف: ١٥٧]، أي: "الذي يجدون نعته وصفته في التوراة والإنجيل".

عن عطاء بن يسار قال: "لقيت عبد الله بن عمرو، فقلت: أخبرني عن صفة رسولِ الله ﷺ في التوراة. قال: أجل والله، إنه لموصوف في التوراة كصفتِهِ في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومُبَشِّرًا ونذيرًا، وحِرْزًا للأمِّيين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكّل، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن نقبضه حتى نقيم به الملةَ العوجاء، بأن يقولوا: "لا إله إلا الله"، فنفتح به قلوبًا غُلْفًا، وآذانًا صُمًّا، وأعينًا عُمْيًا قال عطاء: ثم لقيتُ كعبًا فسألته عن ذلك، فما اختلفا حرفًا، إلا أن كعبًا قال بلغته: قلوبًا غُلُوفيا، وآذانًا صموميًا، وأعينًا عُمْوميا".

عن أبي صخر العقيلي، حدثني رجل من الأعراب، قال: جلبت جَلُوبَةً إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعتي، قلت: لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم في أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشرًا التوراة يقرؤها، يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله، فقال رسول الله ﷺ: "أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟ " فقال برأسه هكذا، أي: لا. فقال ابنه، إي: والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومَخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله فقال: "أقيموا اليهودي عن أخيكم". ثم ولى كفنه والصلاة عليه" قال ابن كثير: "هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح، عن أنس".

عن هشام بن العاص الأموي قال: "بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام، فخرجنا حتى قدمنا الغوطة - يعني غوطة دمشق - فنزلنا على

=

=

جبلة بن الأيهم الغساني، فدخلنا عليه، فإذا هو على سرير له، فأرسل إلينا برسوله نكلمه، فقلنا: والله لا نكلم رسولا إنما بعثنا إلى الملك، فإن أذن لنا كلمناه وإلا لم نكلم الرسول فرجع إليه الرسول فأخبره بذلك، قال: فأذن لنا فقال: تكلموا فكلّمه هشام بن العاص، ودعاه إلى الإسلام، فإذا عليه ثيابُ سوادٍ فقال له هشام: وما هذه التي عليك؟ فقال: لبستها وحلفت ألا أنزعها حتى أخرجكم من الشام. قلنا: ومجلسك هذا، والله لنأخذنه منك، ولنأخذن ملك الملك الأعظم، إن شاء الله، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ. قال: لستم بهم، بل هم قوم يصومون بالنهار، ويقومون بالليل، فكيف صومكم؟ فأخبرناه، فمُلئ وجهه سوادًا فقال: قوموا. وبعث معنا رسولا إلى الملك، فخرجنا، حتى إذا كنا قريبًا من المدينة، قال لنا الذي معنا: إن دوابكم هذه لا تدخل مدينة الملك، فإن شئتم حملناكم على براذين وبغال؟ قلنا: والله لا ندخل إلا عليها، فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون ذلك. فدخلنا على رواحلنا متقلدين سيوفنا، حتى انتهينا إلى غرفة فأنخنا في أصلها وهو ينظر إلينا، فقلنا: لا إله إلا الله، والله أكبر فالله يعلم لقد تَنَفَّضَت الغرفة حتى صارت كأنها عِذْق تصَفّقه الرياح، فأرسل إلينا: ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم. وأرسل إلينا: أن ادخلوا فدخلنا عليه وهو على فراش له، وعنده بطارقته من الروم، وكل شيء في مجلسه أحمر، وما حوله حمرة، وعليه ثياب من الحمرة، فدنونا منه فضحك، فقال: ما كان عليكم لو حييتموني بتحيتكم فيما بينكم؟ وإذا عنده رجل فصيح بالعربية، كثير الكلام، فقلنا: إن تحيتنا فيما بيننا لا تحل لك، وتحيتك التي تُحيى بها لا تحل لنا أن نحييك بها. قال: كيف تحيتكم فيما بينكم؟ قلنا: السلام عليك. قال: وكيف تحيون ملككم؟ قلنا: بها. قال: وكيف يرد عليكم؟ قلنا: بها. قال: فما أعظم كلامكم؟ قلنا: لا إله إلا الله، والله أكبر فلما تكلمنا بها والله يعلم - لقد تَنَفَّضت الغرفة حتى رفع رأسه إليها، قال: فهذه الكلمة التي قلتموها حيث

=

=

تنفضت الغرفة، كلما قلتموها في بيوتكم تنفضت عليكم غرفكم؟ قلنا: لا ما رأيناها فعلت هذا قط إلا عندك. قال: لوددت أنكم كلما قلتم تَنَفَّضَ كل شيء عليكم. وإني خرجت من نصف ملكي. قلنا: لم؟ قال: لأنه كان أيسر لشأنها، وأجدر ألا تكون من أمر النبوة، وأنها تكون من حيل الناس. ثم سألنا عما أراد فأخبرناه. ثم قال: كيف صلاتكم وصومكم؟ فأخبرناه، فقال: قوموا فقمنا. فأمر لنا بمنزل حسن ونزل كَثير، فأقمنا ثلاثًا. فأرسل إلينا ليلا فدخلنا عليه، فاستعاد قولنا، فأعدناه. ثم دعا بشيء كهيئة الرَّبْعَةِ العظيمة مذهبة، فيها بيوت صغار عليها أبواب، ففتح بيتا وقفلا فاستخرج حريرة سوداء، فنشرها، فإذا فيها صورة حمراء، وإذا فيها رجل ضخم العينين. عظيم الأليتين، لم أر مثل طول عنقه، وإذا ليست له لحية، وإذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله. قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا آدم، عليه السلام، وإذا هو أكثر الناس شعرًا. ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، وإذا فيها صورة بيضاء، وإذا له شعر كشعر القطط، أحمر العينين، ضخم الهامة، حسن اللحية، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا نوح، عليه السلام. ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج حريرة سوداء، وإذا فيها رجل شديد البياض، حسن العينين، صَلْت الجبين، طويل الخد، أبيض اللحية كأنه يبتسم، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إبراهيم، عليه السلام. ثم فتح بابا آخر فإذا فيه صورة بيضاء، وإذا - والله - رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: وبكينا. قال: والله يعلم أنه قام قائما ثم جلس، وقال: والله إنه لهو؟ قلنا: نعم، إنه لهو، كأنك تنظر إليه، فأمسك ساعة ينظر إليها، ثم قال: أما إنه كان آخر البيوت، ولكني عَجَّلته لكم لأنظر ما عندكم. ثم فتح بابا آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، فإذا فيها صورة أدماء سحماء وإذا رجل جعد قطط، غائر العينين، حديد النظر، عابس متراكب الأسنان، مقلَّص الشفة كأنه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا:

=

=

لا. قال: هذا موسى عليه السلام. وإلى جانبه صورة تشبهه، إلا أنه مُدْهَان الرأس، عريض الجبين، في عينيه قبل، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا هارون بن عمران، عليه السلام. ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل آدم سَبْط رَبْعَة، كأنه غضبان، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا لوط، عليه السلام. ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أبيض مُشْرَب حُمرة، أقنى، خفيف العارضين، حسن الوجه فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال هذا إسحاق، عليه السلام. ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة تشبه إسحاق، إلا أنه على شفته خال، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال هذا يعقوب، عليه السلام. ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، فيها صورة رجل أبيض، حسن الوجه، أقنى الأنف، حسن القامة، يعلو وجهه نور، يعرف في وجهه الخشوع، يضرب إلى الحمرة، قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسماعيل جد نبيكم، عليهما السلام. ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج حريرة بيضاء، فيها صورة كأنها آدم، عليه السلام، كأن وجهه الشمس، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يوسف، عليه السلام. ثم فتح بابا آخر فاستخرج حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أحمر حَمْش الساقين، أخفش العينين ضخم البطن، رَبْعة متقلد سيفا، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا داود، عليه السلام. ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج حريرة بيضاء، فيها صورة رجل ضخم الأليتين، طويل الرجلين، راكب فرسًا، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا سليمان بن داود، عليه السلام. ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، فيها صورة بيضاء، وإذا شابٌّ شديد سواد اللحية، كثير الشعر، حسن العينين، حسن الوجه، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا عيسى ابن مريم، عليه السلام. قلنا: من أين لك هذه الصور؟ لأنا نعلم أنها على ما صورت عليه الأنبياء، عليهم السلام، لأنا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله. فقال: إن

=

=

آدم، عَلَيْهِ السَّلَامُ، سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده، فأنزل عليه صورهم، فكان في خزانة آدم، عَلَيْهِ السَّلَامُ، عند مغرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال. ثم قال: أما والله إن نفسي طابت بالخروج من ملكي، وإني كنت عبدًا لأشركم ملكه، حتى أموت. ثم أجازنا فأحسن جائزتنا، وسرحنا، فلما أتينا أبا بكر الصديق، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فحدثناه بما أرانا، وبما قال لنا، وما أجازنا، قال: فبكى أبو بكر وقال: مسكين! لو أراد الله به خيرًا لفعل. ثم قال: أخبرنا رسول الله ﷺ أنهم واليهود يجدون نعت محمد ﷺ عندهم".

قال الحافظ ابن كثير: "هكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي، رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتاب "دلائل النبوة"، عن الحاكم إجازة، فذكره وإسناده لا بأس به" ، وقال الحافظ في فتح الباري: (٨/ ٢١٩): إسناده ضعيف.

(تنبيه): قوله تعالى (الرَّسُولَ النَّبِيَّ) قد اختلف العلماء في التفريق بين النبي والرسول على أقوال:

الذي عليه جمهور العلماء أن النبي هو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، أما الرسول فهو من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه.

وهذا الوجه في التفريق عليه إشكالات:

قال الشنقيطي في أضواء البيان: ما اشتهر على ألسنة أهل العلم، من أن النَّبي هو من أوحى إليه وحي، ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو النَّبي الذي أوحي إليه وأمر بتبليغ ما أوحى إليه غير صحيح، لأن قوله تعالى (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) يدل على أن كلًا منهما مرسل، وأنهما مع ذلك بينهما تغاير. (أضواء البيان).

ومقصود كلامه - رَحِمَهُ اللَّهُ - أن الإرسال للنبي والرسول يقتضي التبليغ وعدم الكتمان.

=

قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ في شرح الطحاوية: وهذا يدل على أنَّ الفرق قائم ما بين النبي وما بين الرسول، وأنّ النبي إرساله خاص وأنَّ الرسول إرساله مطلق، فلهذا نقول دلّت آية سورة الحج {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ} على أنّ كلا من النبي والرسول يقع عليه إرسال. فما الفرق بينهما من جهة التعريف؟

الجواب: أنَّ العلماء اختلفوا على أقوال كثيرة في تعريف هذا وهذا، ولكن الاختصار في ذلك مطلوب: وهو أنَّ تعريف النبي -وهي مسألة اجتهادية-: النبي هو من أَوْحَى الله إليه بشرعٍ لنفسه أو أَمرَه بالتبليغ إلى قوم موافقين؛ يعني موافقين له في التوحيد.

والرسول: هو من أَوْحى الله إليه بشرع وأُمِرَ بتبليغه إلى قوم مخالفين.

وتلحظ أنَّ هذا التعريف للنبي وللرسول أَنه لا مَدْخَلَ لإيتاء الكتاب في وصف النبوة والرسالة، فقد يُعطى النبي كتابًا وقد يعطى الرسول كتابًا، وقد يكون الرسول ليس له كتاب وإنما له صحف {صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} [الأعلى:١٩]، وقد يكون له كتاب.

فإذًا من جَعَلَ الفيصل أو الفرق بين النبي والرسول هو إيتاء الكتاب، وحي جاءه بكتاب مُنَزَّلْ من عند الله ﷻ، فهذا ليس بجيد، بل يقال كما ذكرت لك في التعريف أنَّ المدار على:

-النبي مُوحَى إليه، والرسول موحى إليه.

-النبي يوحى إليه بشرع أو بفصلٍ في قضية؛ شرع يشمل أشياء كثيرة، -وكذلك الرسول يوحى إليه بشرع.

-النبي يُوحى إليه لإبلاغه إلى قوم موافقين أو ليعمل به في خاصة نفسه كما جاء في الحديث (ويأتي النبي وليس معه أحد)، الرسول يُبعث إلى قوم مخالفين له.

=

ولهذا جاء في الحديث أن (العلماء ورثة الأنبياء) ولم يجعلهم ورثة الرسل، وإنما قال (وإن العلماء ورثة الأنبياء)، وذلك لأنّ العالم في قومه يقوم مقام النبي في إيضاح الشريعة التي معه، فيكون إذًا في إيضاح شريعته، في إيضاح الشريعة يكون ثَمَّ شَبَه ما بين العالم والنبي، ولكن النبي يُوحى إليه فتكون أحكامه صوابًا؛ لأنها من عند الله ﷻ، والعالم يوضِحُ الشريعة ويعرض لحُكْمِهِ الغلط.

يتعلق بهذه المسألة بحث أنَّ الرسول قد يكون متابعًا لشريعة مَنْ قَبْلَهْ، كما أنَّ النبي يكون متابعًا لشريعة مَنْ قَبْلَهْ. فإذًا الفرق ما بين النبي والرسول في إتباع الشريعة -شريعة مَنْ قَبْلْ- أَنَّ النبي يكون متابعا لشريعة مَنْ قَبْلَهْ، والرسول قد يكون متابعًا -كيوسف عليه السلام جاء قومه بما بعث به إبراهيم عليه السلام ويعقوب-، وقد يكون يُبْعَثُ بشريعة جديدة. وهذا الكلام؛ هذه الاحترازات لأجل أنَّ ثمة طائفة من أهل العلم جعلت كل مُحْتَرَزٍ من هذه الأشياء فرقا ما بين النبي والرسول.

فإذًا كما ذكرت لكم:

- الكتاب قد يُعطاهُ النبي وقد يُعطاهُ الرسول.
- بَعْثُهُ لقوم موافقين أو مخالفين هذا مدار فرق ما بين النبي والرسول.
- الرسول قد يبعث بشريعة مَنْ قَبْلَهْ بالتوحيد بالديانة التي جاء بها الرسول لمن قبله، لكن يُرْسل إلى قوم مخالفين، وإذا كانوا مخالفين فلا بد أن يكون منهم مَنْ يُصَدِّقُهُ ويكون منهم من يُكَذِّبُه؛ لأنه ما من رسول إلا وقد كُذِّب، كما جاء في ذلك الآيات الكثيرة. وانظر كتاب النبوات لشيخ الإسلام (ص ٢٥٥).

قوله تعالى: {يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ} [الأعراف: ١٥٧]، أي: "يأمرهم بالتوحيد والطاعة وكل ما عرف حُسْنه، وينهاهم عن الشرك والمعصية وكل ما عرف قُبْحه".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: يأمر هذا النبيُّ الأميُّ أتباعَه بالمعروف، وهو

=

=

الإيمان بالله ولزوم طاعته فيما أمر ونهى، فذلك "المعروف" الذي يأمرهم به، {وينهاهم عن المنكر} وهو الشرك بالله، والانتهاء عمّا نهاهم الله عنه".

قال ابن كثير: "هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كان حاله، عليه الصلاة والسلام، لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فَأَرْعِها سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه. ومن أهم ذلك وأعظمه، ما بعثه الله تعالى به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦].

عن أبي حميد وأبي أسيد، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ قال: " إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به. وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منه".

قال ابن كثير: "هذا حديث جيد الإسناد، لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب [الستة".

قوله تعالى: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} [الأعراف: ١٥٧]، أي: "ويُحِلُّ لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والمناكح، ويُحرِّم عليهم الخبائث منها كلحم الخنزير، وما كانوا يستحلُّونه من المطاعم والمشارب التي حرَّمها الله".

قال الطبري: "وذلك ما كانت الجاهلية تحرِّمه من البحائر والسَّوائب والوصائل والحوامي، {ويحرم عليهم الخَبَائث}، وذلك لحم الخنزير والرِّبا وما كانوا يستحلونه من المطاعم والمشارب التي حرمها الله".

=

=

قال ابن كثير: "أي: يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر، والسوائب، والوصائل، والحام، ونحو ذلك، مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، ويحرم عليهم الخبائث.. وقال بعض العلماء: كل ما أحل الله تعالى، فهو طيب نافع في البدن والدين، وكل ما حرمه، فهو خبيث ضار في البدن والدين. وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له. وكذا احتج بها من ذهب من العلماء إلى أن المرجع في حل المآكل التي لم ينص على تحليلها ولا تحريمها، إلى ما استطابته العرب في حال رفاهيتها، وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبثته. وفيه كلام طويل أيضا".

عن ابن عباس: " {ويحرم عليهم الخبائث}، وهو لحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرَّمات من المآكل التي حرمها الله".

قوله تعالى: {وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [الأعراف: ١٥٧]، أي: "ويذهب عنهم ما كُلِّفوه من الأمور الشاقة كقطع موضع النجاسة من الثوب، وإحراق الغنائم، والقصاص حتمًا من القاتل عمدًا كان القتل أم خطأ".

قال ابن كثير: "أي: إنه جاء بالتيسير والسماحة، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة». وقال لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعري، لما بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا». وقال صاحبه أبو برزة الأسلمي: «إني صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره».

ثم قال ابن كثير: "قد كانت الأمم الذين كانوا قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها، وسهلها لهم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: "إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تقل أو تعمل» ، وقال: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» ؛ ولهذا قد أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا:

=

=

{رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٢٨٦] وثبت في صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه: قد فعلت، قد فعلت .

قال ابن عباس: "ما كان الله أخذ عليهم من الميثاق فيما حرّم عليهم. يقول: يضع ذلك عنهم".

قال السدي: "يقول: يضع عنهم عهودهم ومواثيقَهم التي أخذت عليهم في التوراة والإنجيل".

وفي قوله تعالى: {وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ} [الأعراف: ١٥٧]، قولان:

أحدهما: أنه عهدهم الذي كان الله تعالى أخذه على بني إسرائيل. قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، والضحاك ، والسدي.

والثاني: أنه التشديد على بني إسرائيل الذي كان في دينهم من تحريم السبت وتحريم الشحوم والعروق وغير ذلك من الأمور الشاقة، قاله مجاهد ، وقتادة ، وسعيد بن جبير ، وابن زيد.

عن ابن سيرين قال: "قال أبو هريرة لابن عباس: ما علينا في الدين من حَرَج أن نزني ونسرق؟ قال: بلى! ولكن الإصر الذي كان على بني إسرائيل وُضِع عنكم".

قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنّ "الإصر" هو العهد، ومعنى الكلام: ويضع النبيُّ الأميُّ العهدَ الذي كان الله أخذ على بني إسرائيل، من إقامة التوراة والعملِ بما فيها من الأعمال الشديدة،

كقطع الجلد من البول، وتحريم الغنائم، ونحو ذلك من الأعمال التي كانت عليهم مفروضةً، فنسخها حُكْم القرآن".

وفي قوله تعالى: {وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [الأعراف: ١٥٧]، قولان:

=

=

أحدهما: أنه الميثاق الذي أخذه عليهم فيما حرمه عليهم، قاله ابن أبي طلحة.

والثاني: أن تلك الأغلال هي ما بيَّنه الله تعالى في قوله: {غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ} [المائدة: ٦٤]، ودعاهم إلى أن يؤمنوا بالنبيّ فيضع ذلك عنهم. قاله ابن زيد.

وقد جاء في الحديث (بعثت بالحنيفية السمحة).

وقال لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعري، لما بعثهما إلى اليمن (بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا).

وقال صاحبه أبو برزة الأسلمي: إني صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره.

قوله تعالى: {فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ} [الأعراف: ١٥٧]، أي: "فالذين صدقوا بمحمد وعظّموه ووقّره".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فالذين صدَّقوا بالنبي الأمي، وأقرُّوا بنبوّته، وَقَّروه وعظموه وحَمَوه من الناس".

قال ابن كثير: "أي: عظموه ووقروه".

وفي قوله تعالى: {فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ} [الأعراف: ١٥٧]، وجهان:

أحدهما: يعني: عظموه، قاله علي بن عيسى.

والثاني: منعوه من أعدائه وقّروه، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، واختاره أبو جعفر الطبري. ومنه: تعزير الجاني، لأنه يمنعه من العود إلى مثله.

قال ابن عباس: "يعني حموه، ووقروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه".

قال مجاهد: "{عزروه}: سددوا أمره، وأعانوا رسوله، {ونصروه}.

عن عكرمة: "{عزروه}، قال: يقاتلون معه بالسيف".

قوله تعالى: {وَنَصَرُوهُ} [الأعراف: ١٥٧]، أي: "ونصروا دينه".

قال الطبري: "يقول: وأعانوه على أعداء الله وأعدائه، بجهادهم ونصب الحرب لهم".

=

=

قوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ} [الأعراف: ١٥٧]، أي: "واتبعوا قرآنه المنير وشرعه المجيد".

قال الطبري: "يعني: القرآن والإسلام".

قال ابن كثير: "أي: القرآن والوحي الذي جاء به مبلغًا إلى الناس".

(وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ) أي: القرآن والوحي الذي جاء به مبلغًا إلى الناس.

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا).

قال ابن عاشور: وأمّا النور المبين فهو القرآن لقوله (وأنزلنا).

- قال الرازي: والنور المبين هو القرآن، وسماه نورًا لأنه سبب لوقوع نور الإيمان في القلب.

- وقال القرطبي: النور المنزل هو القرآن؛ عن الحسن؛ وسماه نورًا لأن به تتبين الأحكام ويهتدى به من الضلالة، فهو نور مبين، أي واضح بَيِّن.

- وقال الخازن: وإنما سماه نورًا لأن به تتبين الأحكام كما تتبين الأشياء بالنور بعد الظلام ولأنه سبب لوقوع نور الإيمان في القلب فسماه نورًا لهذا المعنى.

- وقال الشنقيطي: الْمُرَادُ بِهَذَا النُّورِ الْمُبِينِ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ؛ لِأَنَّهُ يُزِيلُ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالشَّكِّ كَمَا يُزِيلُ النُّورُ الْحِسِّيُّ ظُلْمَةَ اللَّيْلِ.

- وقال ابن الجوزي: وإنما سماه نورًا، لأن الأحكام تبين به بيان الأشياء بالنور.

قال تعالى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

وقال تعالى (فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ).

- **قال ابن كثير**: وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نورًا لما يحصل به من الهدى، كما سماه روحًا لما يحصل به من حياة القلوب.

=

قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ

=

- وقال الشوكاني: قوله تعالى (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا) هو القرآن، وسماه نورًا لأنه يهتدي به من ظلمة الضلال.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: ١٥٧]، أي: "أولئك هم الفائزون بما وعد الله به عباده المؤمنين".

والفلاح في لغة العرب يطلق إطلاقين مشهورين، وكل منهما يدخل في الآية:

الإطلاق الأول: أن العرب تقول (أفلح فلان) إذا فاز بمطلوبه الأكبر، فكل إنسان كان يحاول مطلوبًا أعظم ثم ظفر به وفاز بما كان يرجو فهذا قد أفلح.

الإطلاق الثاني: أن المراد بالفلاح: الدوام والبقاء السرمدي في النعيم، فكل من كان له دوام وبقاء في النعيم تقول العرب (نال الفلاح).

قال ابن كثير: "أي: في الدنيا والآخرة.

قال الطبري: "يقول: الذين يفعلون هذه الأفعال التي وصف بها جل ثناؤه أتباع محمد ﷺ، هم المنجحون المدرِكون ما طلبُوا ورجَوْا بفعلهم ذلك".

عن قتادة، قال: "فما نقموا- يعني اليهود- إلا أن حسدوا نبيَّ الله، فقال الله: {الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه}، فأما نصره وتعزيره فقد سبقتم به، ولكن خياركم من آمن بالله واتَّبع النور الذي أنزل معه".

قال الطبري: "يريد قتادة بقوله «فما نَقَموا إلا أن حسدوا نبي الله»، أن اليهودَ كان محمَّد ﷺ بما جاء به من عند الله رحمةً عليهم لو اتبعوه، لأنه جاء بوضع الإصر والأغلال عنهم، فحملهم الحسد على الكفر به، وترك قبول التخفيف، لغلبة خِذْلانِ الله عليهم".

بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨).

{قُلْ} خِطَاب لِلنَّبِيِّ ﷺ {يأيها النَّاس إنِّي رَسُول الله إلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي له ملك السماوات وَالْأَرْض لَا إلَه إلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيت فَآمِنُوا بِاَللهِ وَرَسُوله النَّبِيّ الْأُمِّيّ الَّذِي يُؤْمِن بِاَللهِ وَكَلِمَاته} الْقُرْآن {وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} تَرْشُدُونَ(١).

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: ١٥٨]، أي: "قل -أيها الرسول- للناس كلهم: إني رسول الله إليكم جميعًا لا إلى بعضكم دون بعض، وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والعجمي".

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ).

وقال تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا).

وقال تعالى (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) أَيْ: وَأُنْذِرَ مَنْ بَلَغَهُ.

وَقَال تعالى (وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا).

وَقَالَ تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا).

وَقَالَ ﷺ (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ،... ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّة) متفق عليه.

وقال ﷺ (وأرسلت إلى الخلق كافة) رواه مسلم. وفي رواية (وبعثت إلى كل أحمر وأسود).

قيل: المراد بالأحمر العجم، والأسود العرب، وقيل: الأحمر الإنس، والأسود الجن

وَقَالَ ﷺ (لَا يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّار) رواه مسلم.

وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى =

=

الناس كلهم.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيِّه محمد ﷺ: {قل}، يا محمد للناس كلهم {إنّي رسول الله إليكم جميعًا}، لا إلى بعضكم دون بعض، كما كان من قبلي من الرُّسل، مرسلا إلى بعض الناس دون بعض. فمن كان منهم أرسل كذلك، فإن رسالتي ليست إلى بعضكم دون بعض، ولكنها إلى جميعكم".

قال ابن كثير: "يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ {قُلْ} يا محمد: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والعجمي، {إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} أي: جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال تعالى: {قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام: ١٩] وقال تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [هود: ١٧] وقال تعالى: {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ} [آل عمران: ٢٠] والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى الناس كلهم".

عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: «كانت بين أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عمر عنه مغضبا، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ - فقال أبو الدرداء: ونحن عنده - فقال رسول الله ﷺ "أما صاحبكم هذا فقد غامر" - أي: غاضب وحاقد - قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ وقص على رسول الله ﷺ الخبر - قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ:

=

=

"هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ إني قلت: يأيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعا، فقلتم: كذبت وقال أبو بكر: صدقت"».

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: "أعطيت خمسًا لم يعطهن نبي قبلي - ولا أقوله فخرًا: بعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي، فهي لمن لا يشرك بالله شيئا".

عن عمرو ابن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، قام من الليل يصلي، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: "لقد أعطيت الليلة خمسًا ما أعطيهن أحد قبلي، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملئ مني رعبا، وأحلت لي الغنائم آكلها وكان من قبلي يعظمون أكلها، كانوا يحرقونها، وجعلت لي الأرض مساجد وطهورًا، أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت، وكان من قبلي يعظمون ذلك، إنما كانوا يصلون في بيعهم وكنائسهم، والخامسة هي ما هي، قيل لي: سل؛ فإن كل نبي قد سأل. فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله".

وعن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: "من سمع بي من أمتي أو يهودي أو نصراني، فلم يؤمن بي، لم يدخل الجنة".

قوله تعالى: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف: ١٥٨]، أي: "الذي له ملك السموات والأرض وما فيهما".

قال الطبري: يعني:"الذي الذي له سلطان السَّموات والأرض وما فيهما، وتدبير ذلك وتصريفه".

=

=

قال ابن كثير: "صفة الله تعالى، في قوله {رَسُولُ اللهِ} أي: الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه، الذي بيده الملك والإحياء والإماتة، وله الحكم".

عن ابن عباس: "قال جبريل عليه السلام: يا محمد لله الخلق كله، والسموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم". وروي عن عثمان بن سعيد مثله.

والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض يفيد:

أولًا: الرضا بقضاء الله، وأن الله لو قضى عليك مرضًا فلا تعترض، ولو قضى عليك فقرًا فلا تعترض، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء..

يدل لذلك ما أمرنا الله به أن نقول عند المصيبة (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ).

ويدل لذلك أيضًا ما بينّه النبي ﷺ لابنته التي أشرف ابنها على الموت، حينما أرسلت إليه ليأتي، فأرسل يقرأ السلام ويقول: إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب).

ثانيًا: الرضا بشرعه وقبوله والقيام به، لأنك ملكه.

ثالثًا: أن كل ما في الكون ملك لله الأحد سبحانه وتعالى من غير شريك، فما لدينا من مال ومتاع وجاه ليس ملكًا لنا بل هو ملك لله، وإنما نحن مستخلفون فيه للابتلاء والاختبار، كما قال تعالى (آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ).

وقال ﷺ (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون..) رواه مسلم.

قوله تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ} [الأعراف: ١٥٨]، أي: "لا ينبغي أن تكون الألوهية والعبادة إلا له جل ثناؤه، القادر على إيجاد الخلق وإفنائه وبعثه".

=

=

فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقا أن يكون عبدًا لربه، ممتثلا أوامره مجتنبًا نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقًا ناقصًا مدبرًا فقيرًا من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئًا من أنواع العبادة.

- في هذه الآية يخبر الله بأنه منفرد بالألوهية، وذلك من قوله (لا إله إلا هو) هذه جملة تفيد الحصر وطريقة النفي والإثبات هذه من أقوى صيغ الحصر.

ففيها نفي استحقاق غير الله العبادة، وإثبات استحقاق الألوهية والعبودية لله تعالى.

- **قال ابن كثير**: إخبار بأنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق.

- وقال السعدي: فأخبر أنه الله، الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، وعبودية غيره باطلة.

- قال ابن رجب: قَوْل: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللهُ، تَقْتَضِي أَلَّا يُحِبَّ سِوَاهُ، فَإِنَّ اَلْإِلَهَ هُوَ اَلَّذِي يُطَاعُ، مَحَبَّةً وَخَوْفًا وَرَجَاءً. وَمِنْ تَمَامِ مَحَبَّتِهِ مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّهُ، وَكَرَاهَةُ مَا يَكْرَهُهُ، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا مِمَّا يَكْرَهُ اَللهُ، أَوْ كَرِهَ شَيْئًا مِمَّا يُحِبُّهُ اَللهُ لَمْ يَكْمُلْ تَوْحِيدُهُ وَلَا صِدْقُهُ فِي قَوْلِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اَللهُ، وَكَانَ فِيهِ مِنْ اَلشِّرْكِ اَلْخَفِيِّ بِحَسْبِ مَا كَرِهَهُ مِمَّا يُحِبُّهُ اَللهُ، وَمَا أَحَبَّهُ مِمَّا يَكْرَهُهُ. قَالَ تَعَالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُم).

قال الطبري: "يقول: لا ينبغي أن تكون الألوهة والعِبادة إلا له جل ثناؤه، دون سائر الأشياء غيره من الأنداد والأوثان، إلا لمن له سلطان كل شيء، والقادر على إنشاء خلق كل ما شاء وإحيائه، وإفنائه إذا شاء إماتته".

عن كعب، قال: " {لا إله إلا الله}: كلمة الإخلاص".

=

=

قال محمد بن إسحاق: "لا إله إلا الله، أي: ليس معه غيره شريكا في أمره".
(يُحْيِي وَيُمِيتُ) أي: بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، ولا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره، ولا يُزاد في عمُر أحد ولا يُنقص منه إلا بقضائه وقدره.
قال الطبري: يعني جل ثناؤه بقوله: (والله يحيي ويميت) والله المعجِّل الموتَ لمن يشاء من حيث يشاء، والمميت من يشاء كلما شاء، دون غيره من سائر خلقه.
وهذا من الله ﷻ ترغيبٌ لعباده المؤمنين على جهاد عدوه والصبر على قتالهم، وإخراج هيبتهم من صدورهم، وإن قل عددهم وكثر عدد أعدائهم وأعداء الله وإعلامٌ منه لهم أن الإماتة والإحياء بيده، وأنه لن يموت أحدٌ ولا يقتل إلا بعد فناء أجله الذي كتب له ونهيٌ منه لهم، إذ كان كذلك، أن يجزعوا لموت من مات منهم أو قتل من قتل منهم في حرب المشركين.
قال محمد بن إسحاق: " {يحيي ويميت}، أي: يعجل ما يشاء، ويؤخر ما يشاء من ذلك من آجالهم بقدرته".
قوله تعالى: {فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ} [الأعراف: ١٥٨]، أي: "فصدَّقوا بالله وأقرُّوا بوحدانيته، وصدَّقوا برسوله محمد ﷺ".
والإيمان بالله يتضمن: الإيمان بوجوده وبربوبيته وبألوهيته وبأسمائه وصفاته.
والإيمان بالرسول يتضمن اتباعه فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وتصديقه فيما أخبر.
قال الطبري: " يقول جل ثناؤه: قل لهم: فصدِّقوا بآيات الله الذي هذه صفته، وأقِرُّوا بوحدانيته، وأنه الذي له الألوهة والعبادة، وصدقوا برسوله محمد ﷺ أنَّه مبعوث إلى خلقه، داع إلى توحيده وطاعته".
قال ابن كثير: "أخبرهم أنه رسول الله إليهم، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به.
قوله تعالى: {النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ} [الأعراف: ١٥٨]، أي: "آمنوا بالنبي الأمي صاحب

=

=

المعجزات الذي لا يقرأ ولا يكتب".

الأمي: هو الذي لا يقرأ ولا يكتب؛ لأن نبينا ﷺ كان لا يقرأ ولا يكتب (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) وكونه لا يقرأ ولا يكتب مع هذه العلوم التي لا يُطَّلع عليها إلا بالوحي يدل على أن هذا إنما عَلِمَه بوحي من الله (جل وعلا).

قال ابن كثير: "أي: الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة، فإنه منعوت بذلك في كتبهم.

قال الطبري: " قوله: {النبي الأمي}، فإنه من نعت رسول الله ﷺ".

قوله تعالى: {الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ} [الأعراف: ١٥٨]، أي: "المصدق بالكتب التي أنزلها الله عليه وعلى غيره من الأنبياء".

هذه صفاته ﷺ، وقد أجرى الله العادة أنه يصف المرسلين والملائكة بما يصف به مطلق عوام المؤمنين؛ لأن قوله: (الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ) كل عامي من المسلمين يؤمن بالله، وقد وصف نبيه ﷺ بصفة يتصف بها جميع المسلمين، وذلك للإيذان بشرف الإيمان بالله وكلماته وعِظَمِه كما قال جل وعلا (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ) وصفهم بالإيمان ووصف المسلمين بالإيمان (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) وبين أن ذلك الإيمان الذي اتصف به حملة العرش وأهل الأرض من بني آدم صار الرابطة العظمى بينهم التي عطفت قلوبهم عليهم من فوق سبع سماوات.

قال الطبري: " يقول: الذي يصدق بالله وكلماته".

قال ابن كثير: "أي: يصدق قوله عمله، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه.

واختلف في قوله تعالى: {وَكَلِمَاتِهِ} [الأعراف: ١٥٨]، على قولين:

احدهما: معناه: وآياته. قاله قتادة.

=

=

والثاني: أنه عنى بذلك عيسى ابن مريم عليه السلام. قاله مجاهد ، والسدي.

قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك عندنا، أنَّ الله تعالى ذكره أمرَ عباده أن يصدِّقوا بنبوِّة النبيّ الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، ولم يخصص الخبرَ جل ثناؤه عن إيمانه من «كلمات الله» ببعض دون بعضٍ، بل أخبرهم عن جميع «الكلمات»، فالحق في ذلك أن يعمَّ القول، فإن رسول الله ﷺ كان يؤمن بكلمات الله كلِّها، على ما جاء به ظاهرُ كتابِ الله".

قوله تعالى: {وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: ١٥٨]، أي: "اسلكوا طريقة واقتفوا أثره رجاء أن توفقوا إلى الطريق المستقيم".

قال الطبري: "يقول: لكي تهتدوا فترشدوا وتصيبوا الحقّ في اتّباعكم إيّاه".

قال ابن كثير: "أي: اسلكوا طريقه واقتفوا أثره، {لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}، أي: إلى الصراط المستقيم".

(منبهة): قال الله تعالى: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون (٤٨)) [العنكبوت: ٤٨].

وقال تعالى: (فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي) [الأعراف: ١٥٨].

وفي الحديث عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: "لما اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. قالوا: لا نقر لك بهذا، لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئا، ولكن أنت محمد بن عبد الله. فقال: أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله. ثم قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : امح رسول الله. قال علي: لا والله، لا أمحوك أبدا. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب - وليس يحسن يكتب - فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله..... أخرجه

=

=

الشيخان في صحيحيهما، وقد رواه عن النبي ﷺ البراء بن عازب، وأنس بن مالك، والمسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، رضي الله عنهم.

* ظاهر رواية مسلم أن النبي ﷺ محا اسمه الشريف "رسول الله" وكتب مكانه بيده الشريفة "ابن عبد الله"، ورواية البخاري جاءت بأصرح من هذا، وفيها: "فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب - وليس يحسن يكتب - فكتب: محمد بن عبد الله".

وهذا المعنى المتبادر من هاتين الروايتين يوهم خلاف الآيات، والتي ظاهرها أن النبي ﷺ لا يحسن القراءة ولا الكتابة.

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الآيات والحديث:

لم يتجاوز العلماء في هذا المسألة مسلك الجمع بين الآيات والحديث، وقد اختلفوا في الجمع على مذهبين:

الأول: مذهب إجراء الحديث على ظاهره، وتأويل الآيات.

وهذا مذهب جماعة من المحدثين منهم: عمر بن شبة ، وأبي ذر الهروي ، وأبي الفتح النيسابوري ، والقاضي أبي جعفر السمناني الأصولي ، والقاضي أبي الوليد الباجي.

وهو اختيار: ابن العربي، وابن الجوزي، وأبي العباس القرطبي، والطيبي، والذهبي، والآلوسي، والزرقاني.

حيث ذهب هؤلاء إلى أن النبي ﷺ كتب بيده حقيقة، وأن الله تعالى أجرى ذلك على يده؛ إما بأن كتب ذلك وهو غير عالم بما يكتب، أو أن الله تعالى علمه ذلك حينئذ حتى كتب، ورأوا أن ذلك غير قادح في كونه أميا، ولا معارض لقوله تعالى: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك)، ولا لقوله ﷺ: "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب" ، بل رأوه زيادة في معجزاته، واستظهارا على صدقه وصحة

=

=

رسالته، وذلك أنه كتب من غير تعلم للكتابة، ولا تعاط لأسبابها، وإنما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركات كانت عنها خطوط مفهومها "ابن عبد الله" لمن قرأها، فكان ذلك خارقا للعادة، كما أنه عليه السلام علم علم الأولين والآخرين من غير تعلم ولا اكتساب، فكان ذلك أبلغ في معجزاته، وأعظم في فضائله، ولا يزول عنه اسم الأمي بذلك، ولذلك قال الراوي عنه في هذه الحالة: "وليس يحسن يكتب" فبقي عليه اسم الأمي مع كونه قال كتب.

قال أبو العباس القرطبي: "وقد أنكر هذا كثير من متفقهة الأندلس وغيرهم، وشددوا النكير فيه، ونسبوا قائله إلى الكفر، وذلك دليل على عدم العلوم النظرية، وعدم التوقف في تكفير المسلمين، ولم يتفطنوا أن تكفير المسلم كقتله، على ما جاء عنه عليه السلام في الصحيح ، لا سيما رمي من شهد له أهل عصره بالعلم والفضل والإمامة، على أن المسألة ليست قطعية، بل مستندها ظواهر أخبار أحاد صحيحة، غير أن العقل لا يحيلها، وليس في الشريعة قاطع يحيل وقوعها". اهـ.

ومراد أبي العباس القرطبي هو ما جرى لأبي الوليد الباجي، فإنه لما تكلم في حديث الكتابة يوم الحديبية وقال بظاهره، طعن عليه جماعة من علماء عصره، ورموه بالزندقة، لاعتقادهم أن هذا القول فيه قدح بمعجزة النبي ﷺ؛ فألف الباجي رسالته المسماة بـ"تحقيق المذهب"، وبين فيها أن هذا القول لا يقدح بالمعجزة.

وقد ساق قصة الباجي هذه القاضي عياض، فقال: "ولما تكلم أبو الوليد في حديث الكتابة يوم الحديبية الذي في البخاري قال بظاهر لفظه فأنكر عليه الفقيه أبو بكر بن الصائغ وكفره بإجازة الكتب على رسول الله ﷺ النبي الأمي، وأنه تكذيب بالقرآن، فتكلم في ذلك من لم يفهم الكلام، حتى أطلقوا عليه الفتنة، وقبحوا عند العامة ما أتى به، وتكلم به خطباؤهم في الجمع، وقال شاعرهم:

=

=

وقال إن رسول الله قد كتبا برئت ممن شرى دنيا بآخرة

فصنف أبو الوليد رسالة بين فيها أن ذلك غير قادح في المعجزة". اهـ

وأجاب أصحاب هذا المذهب عن الآيات:

بأن نفي الكتابة في الآية المقصود به الحال التي قبل النبوة؛ لأنه قيد النفي بما قبل ورود القرآن فقال: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك)، وأما بعد النبوة فليس في الآية ما يدل على امتناعه، والنبي ﷺ صار يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها، وعدم معرفته كان بسبب المعجزة، فلما نزل القرآن، واشتهر الإسلام، وكثر المسلمون، وظهرت المعجزة، وأمن الارتياب في ذلك، عرف حينئذ الكتابة.

وأما كونه أميا فليس في معرفته للكتابة ما يقدح في أميته؛ إذ ليست المعجزة مجرد كونه أميا؛ فإن المعجزة حاصلة بكونه ﷺ كان أولا كذلك ثم جاء بالقرآن وبعلوم لا يعلمها الأميون.

ذكر هذا الجواب: أبو الوليد الباجي، وابن العربي، وابن الجوزي، وأبو العباس القرطبي.

وأجاب الذهبي: "بأن ما كل من عرف أن يكتب اسمه فقط يخرج عن كونه أميا؛ لأنه لا يسمى كاتبا، وجماعة من الملوك قد أدمنوا في كتابة العلامة وهم أميون، والحكم للغلبة لا للصورة النادرة، فقد قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: "إنا أمة أمية" أي أكثرهم كذلك لندور الكتابة في الصحابة، وقال تعالى: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) [الجمعة: ٢]. اهـ

واعترض على هذه الأجوبة: بأن كتابته ﷺ تكون آية إذا لم تكن مناقضة لآية أخرى، وهي كونه أميا لا يكتب، وبكونه أميا في أمة أمية قامت الحجة وأفحم الجاحد وانحسمت الشبهة، فكيف يطلق الله يده لتكون آية؟ وإنما الآية أن لا

=

=

يكتب، والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضا.

أدلة هذا المذهب:

استدل القائلون بإثبات الكتابة للنبي ﷺ بأدلة منها:

١ - رواية البخاري: "وليس يحسن يكتب فكتب"، وهي صريحة في أنه ﷺ كتب بنفسه، ويعضدها ويقويها رواية مسلم أن النبي ﷺ محا "رسول الله"، وكتب "ابن عبد الله".

٢ - حديث عبد الله بن عتبة قال: "ما مات رسول الله ﷺ حتى كتب وقرأ".

٣ - حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة مكتوبا: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر".

ووجه الدلالة: أن النبي ﷺ قرأ المكتوب على باب الجنة، والقدرة على القراءة يدل على معرفة الكتابة.

واعترض على هذا الدليل: باحتمال إقدار الله له على ذلك بغير تقدمة معرفة الكتابة، وهو أبلغ في المعجزة، وباحتمال أن يكون حذف من الحديث شيء، والتقدير: فسألت عن المكتوب فقيل لي: هو كذا.

٤ - حديث سهل بن الحنظلية: "أن النبي ﷺ لما أمر معاوية أن يكتب للأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، قال عيينة: أتراني أذهب إلى قومي بصحيفة كصحيفة المتلمس ؟!

فأخذ رسول الله ﷺ الصحيفة فنظر فيها فقال: قد كتب لك بالذي أمرت لك به".

ووجه الدلالة: أن النبي ﷺ نظر في المكتوب وعرفه؛ فدل على معرفته بالقراءة، والكتابة فرع عنها.

واعترض أصحاب المذهب الثاني على هذه الأدلة بأنها ضعيفة كلها، عدا رواية البخاري، وسيأتي الجواب عنها.

=

=

الثاني: مذهب إعمال الآيات على ظاهرها، وتأويل الحديث.

وهذا مذهب الجمهور من العلماء، منهم: ابن حبان، والبيهقي، وابن التين، والنووي، والبغوي، والسهيلي، وابن عطية، وأبو عبد الله القرطبي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن كثير، وابن حجر، والعيني، والسيوطي، والملا علي القاري، والألباني، وابن عثيمين.

ويرى أصحاب هذا المذهب أن النبي ﷺ لم يكتب، ولم يكن يحسن الكتابة، كما هو صريح الآيات، وأنه لم يزل كذلك مدة حياته ﷺ.

وأجابوا عن حديث البراء رضي الله عنه، والذي يوهم ظاهره أن النبي ﷺ كتب بيده: بأن القصة رويت من طرق أخرى، وفيها أن الكاتب كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقع ذلك في رواية أخرى للبخاري - من حديث البراء - بلفظ: "لما صالح رسول الله ﷺ أهل الحديبية كتب علي بن أبي طالب بينهم كتابا فكتب: محمد رسول الله"، فتحمل الرواية الأولى، وهي قوله: "فكتب"، أي فأمر الكاتب، ويدل عليه حديث أنس بن مالك، والمسور بن مخرمة، في القصة نفسها؛ ففيهما: "فقال النبي ﷺ: والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله".

قالوا: وقد ورد في كثير من الأحاديث إطلاق لفظ "كتب" بمعنى أمر، منها:

حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ كتب إلى قيصر، وحديث كتابته ﷺ إلى النجاشي، وحديث كتابته إلى كسرى، وحديث عبد الله بن عكيم رضي الله عنه: "كتب إلينا رسول الله ﷺ"، وغيرها، وهذه الأحاديث كلها محمولة على أنه ﷺ أمر الكاتب أن يكتب.

قالوا: ومما يقوي أن الكاتب في قصة الحديبية هو علي رضي الله عنه: قوله في بعض طرق حديث البراء - لما امتنع علي أن يمحو لفظ "محمد رسول الله" - فقال له النبي ﷺ: "أرني مكانها. فأراه مكانها، فمحاها"؛ فإن ظاهره أنه لو كان يعرف الكتابة لما

=

=

احتاج إلى قوله: "أرني"، فكأنه أراه الموضع الذي أبى أن يمحوه، فمحاه هو ﷺ بيده، ثم ناوله لعلي فكتب بأمره: "ابن عبد الله"، بدل: "رسول الله".

والذي يظهر صوابه - والله تعالى أعلم - أن النبي ﷺ لم يخط بيمينه خطا مقروءا مدة حياته كلها، كما هو صريح الآيات.

وأما الروايات التي جاءت في قصة الحديبية؛ فقد وقع فيها اضطراب من قبل الرواة، حيث رويت بخمسة ألفاظ:

الأول: "أن النبي ﷺ كتب: (محمد بن عبد الله)، وهو لا يحسن الكتابة".

وهذه الرواية جاءت من طريق واحدة، عن أبي إسحاق، عن البراء.

الثاني: "أن النبي ﷺ محا: (رسول الله)، وكتب: (ابن عبد الله).

وهذه الرواية جاءت من طريق واحدة، عن أبي إسحاق، عن البراء. وليس فيها تصريح بأن الذي كتب هو النبي ﷺ.

الثالث: "أن النبي ﷺ محا: (رسول الله) بيده الشريفة".

ولم تذكر هذه الرواية أنه كتب: (ابن عبد الله)، وهذه الرواية جاءت من طريقين، عن أبي إسحاق، عن البراء.

الرابع: "أن النبي ﷺ أمر عليا رضي الله عنه أن يكتب: (محمد بن عبد الله).

وهذه الرواية جاءت من حديث أنس بن مالك، والمسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم، رضي الله عنهم، ورويت من طريق إسرائيل بن يونس، عن أبي إسحاق، عن البراء، إلا أنها شاذة ومنكرة من هذا الطريق.

والأصح من هذه الروايات: الرواية التي اقتصرت على ذكر المحو دون الكتابة؛ لأنها جاءت من طريقين عن أبي إسحاق، عن البراء، دون اضطراب. وأثبت منها الرواية التي فيها أن النبي ﷺ أمر عليا رضي الله عنه أن يكتب: "محمد بن عبد الله"؛ لأنها جاءت عن صحابيين، ولم يقع فيها اضطراب كحديث البراء.

=

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩).

{وَمِنْ قَوْم مُوسَى أُمَّة} جَمَاعَة {يَهْدُونَ} النَّاس {بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} فِي الْحُكْم(١).

=

وعليه فإن الصواب في قصة الحديبية أن النبي ﷺ أمر عليا أن يمحو لفظة: "رسول الله"، ويكتب مكانها: "ابن عبد الله"، فأبى علي رضي الله عنه ذلك؛ إجلالا لاسم رسول الله ﷺ أن يمحى، فأمره رسول الله ﷺ أن يريه مكانها؛ فأراه مكانها؛ فمحاها النبي ﷺ بيده الشريفة، ثم إن عليا كتب بعد ذلك: "ابن عبد الله"، نزولا عند رغبة النبي ﷺ، لما رآه محا: "رسول الله".

هذا هو الأصح في الجمع بين روايات الحديث؛ لأنا إذا قلنا بأن النبي ﷺ هو الذي كتب: "ابن عبد الله"؛ صارت روايات القصة متعارضة ومتناقضة، لكن القول بأن الكاتب هو علي رضي الله عنه يدفع هذا التناقض؛ لأنا حملنا الرواية المطلقة على المقيدة، فانتفى التعارض بينها، واندفع الإشكال الموهم معارضة الآيات، والله تعالى أعلم. انظر كتاب الأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم عرض ودراسة.

(١) قوله تعالى: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ} [الأعراف: ١٥٩]، أي: "ومن بني إسرائيل من قوم موسى جماعة يستقيمون على الحق، يهدون الناس به".

تطلق الأمة في القرآن على عدة معان اذكرها؟

أ-بمعنى الطائفة. كما قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ...). وكما في هذا الحديث.

ب-بمعنى الإمام. كما قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا).

ج-بمعنى الملة. كقوله تعالى عن المشركين (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ...).

د-بمعنى الزمن. كما قال تعالى (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ...).

=

=

قال الطبري: "يعني: بني إسرائيل جماعة يهتدون بالحق، أي: يستقيمون عليه ويعملون".

قال ابن كثير: "يقول تعالى مخبرًا عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنزلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [آل عمران: ١٩٩]، وقال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [القصص: ٥٢ - ٥٤]، وقال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} الآية [البقرة: ١٢١]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ سُجَّدًا* وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا * وَيَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وفي قوله تعالى: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ} [الأعراف: ١٥٩]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم الذين تمسكوا بالحق في وقت ضلالتهم بقتل أنبيائهم، ولا يدل هذا على استدامة حاله على الأبد.

والثاني: أنهم قوم وراء الصين لم تبلغهم دعوة الإسلام، ابن جريج.

والثالث: أنهم من آمن بالنبي ﷺ وابن صوريا وغيرهما، قاله الكلبي.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي من طريق حامد بن يحيى: "{ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون}، قال: بينكم وبينهم نهر من سهل، قال حامد:

=

=

سهل. نهر من رمل يجري".

واخرج الطبري عن السدي: "{ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون}، قال: قوم بينكم وبينهم نهر من شُهْدِ".

وعن الشعبي، قال: "إن لله عبادا من وراء الأندلس كما بيننا وبين الأندلس، لا يرون أن الله عصاه مخلوق رضراضهم الدر والياقوت، وجبالهم الذهب والفضة لا يزرعون ولا يحصدون، ولا يعملون عملا، لهم شجر على أبوابهم لها أوراق عراض هي لبوسهم، ولهم شجر على أبوابهم لها ثمر فمنها يأكلون".

وقال صفوان بن عمرو: "هم الذين قال الله تعالى: {ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق}، يعني: سلطان من أسباط بني إسرائيل يوم الملحمة العظمى ينصرون الإسلام وأهله".

أخرج الطبري عن ابن جريج قوله: " {ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون}، قال: بلغني أن بني إسرائيل لمّا قتلوا أنبياءَهم، كفروا. وكانوا اثني عشر سبطًا، تبرّأ سبطٌ منهم مما صنعوا، واعتذروا، وسألوا الله أن يفرِّق بينهم وبينهم، ففتح الله لهم نَفَقًا في الأرض، فساروا فيه حتى خرجُوا من وراء الصين، فهم هنالك، حُنَفاء مسلمُون يستقبلون قبلتنا، قال ابن جريج: قال ابن عباس: فذلك قوله: {وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا} [سورة الإسراء: ١٠٤]. و «وعد الآخرة»، عيسى ابن مريم، يخرجون معه. قال ابن جريج: قال ابن عباس: ساروا في السَّرَب سنة ونصفًا". قال ابن كثير: "هذا خبر عجيب".

قوله تعالى: {وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف: ١٥٩]، أي: "ويعدلون بالحق في الحكم في قضاياهم".

قال الطبري: "أي: وبالحق يعطُون ويأخذون، ويُنصفون من أنفسهم فلا

=

=

يجورون".

قال الخازن: المختار في تفسير هذه الآية أنها إما أن تكون نزلت في قوم كانوا متمسكين بدين موسى قبل التبديل والتغيير ثم ماتوا وهم على ذلك، وإما أن تكون قد نزلت فيمن أسلم من اليهود على عهد رسول الله ﷺ كعبد الله بن سلام وأصحابه والله أعلم بمراده.

- قال أبو حيان: وفي قوله: (ومن قوم موسى) إشارة إلى التقليل وأنّ معظمهم لا يهدي بالحق ولا يعدل به وهم إلى الآن، كذلك دخل في الإسلام من النصارى عالم لا يعلم عددهم إلا الله تعالى وأما اليهود فقليل من آمن منهم.

قال الشنقيطي: هذه الآية الكريمة دلت على أنَّ مِنْ قَوْمِ مُوسَى أمة طيبة، على الحق، وهذا المعنى جاء مُصرَّحًا بِهِ في آيات كثيرة.

كقوله تعالى (لَيْسُوا سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ).

وكقوله جل وعلا (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لله لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ).

وكقوله تعالى (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا...).

وقد بيّن القرآن أن هذه الطائفة من أهل الكتاب -التي كانت متمسكة بشريعة موسى وبما في التوراة إذا كانت على ذلك حتى آمنت بنبينا محمد ﷺ أنها تُؤتى أجرها مرتين، أجر إيمانها الأول بموسى وكتابه، وإيمانها بمحمد وكتابه، نص الله على هذا في سورة القصص في قوله (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١)

=

وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠).

{وَقَطَّعْنَاهُمْ} فَرَّقْنَا بَنِي إِسْرَائِيل {اثْنَتَيْ عَشْرَة} حَال {أَسْبَاطًا} بَدَل مِنْهُ أَيْ قَبَائِل {أُمَمًا} بَدَل مِمَّا قَبْله {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمه} فِي التِّيه {أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاك الْحَجَر} فَضَرَبَهُ {فَانْبَجَسَتْ} انْفَجَرَتْ {مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَة عَيْنًا} بِعَدَدِ الْأَسْبَاط {قَدْ عَلِمَ كُلّ أُنَاس} سَبْط مِنْهُمْ {مَشْرَبهمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمْ الْغَمَام} فِي التِّيه مِنْ حَرّ الشَّمْس {وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ الْمَنّ وَالسَّلْوَى} هُمَا الترنجبين وَالطَّيْر السُّمَانَى بِتَخْفِيفِ الْمِيم وَالْقَصْر وقلنا لهم {كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[1]}.

=

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا).

(١) قوله تعالى: {وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا} [الأعراف: ١٦٠]، أي: "وفرَّقنا قوم موسى مِن بني إسرائيل اثنتي عشرة قبيلة بعدد الأسباط -وهم أبناء يعقوب- كل قبيلة معروفة من جهة نقيبها".

قال الطبري: "يعني: قوم موسى من بني إسرائيل، فرقهم الله فجعلهم قبائل شتى، اثنتي عشرة قبيلة.. قيل: إنما فرّقوا أسباطًا لاختلافهم في دينهم".

قال السدي: "فدخلت بنو إسرائيل البحر، وكان في البحر، اثنا عشر طريقا في كل طريق سبط، وكانت الطرق، إذا انفلقت بجدران، فقال: كل سبط قد قتل أصحابنا

=

=

فلما رأى ذلك موسى عليه الصلاة والسلام دعا الله تبارك وتعالى فجعلها لهم قناطر كهيئة الطبقات ينظر آخرهم إلى أولهم، حتى خرجوا جميعا".

قال أبو حيان: أي فرقناهم وميزناهم أسباطًا ليرجع أمر كل سبط أي - قبيلة - إلى رئيسه، ليخف أمرهم على موسى، ولئلا يتحاسدوا فيقع الهرج، ولهذا فجر لهم اثنتي عشرة عينًا لئلا يتنازعوا، ويقتتلوا على الماء، وجعل لكل سبط نقيبًا ليرجعوا في أمورهم إليه.

قال الرازي: والمراد أنه تعالى فرق بني إسرائيل اثنتي عشرة فرقة، لأنهم كانوا من اثني عشر رجلًا من أولاد يعقوب، فميزهم وفعل بهم ذلك لئلا يتحاسدوا فيقع فيهم الهرج والمرج، وقوله: (وقطعناهم) أي صيرناهم (قطعًا) أي فرقًا وميزنا بعضهم من بعض.

- وقال القرطبي: قوله تعالى (وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا) عدّد نعمه على بني إسرائيل، وجعلهم أسباطًا ليكون أمر كل سبط معروفًا من جهة رئيسهم؛ فيخف الأمر على موسى، وفي التنزيل (وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثني عَشَرَ نَقِيبًا).

يذكرهم الله بعض نعمه عليهم في التيه.

وسبب هذا التيه: أن الله لما أنجا موسى وقومه من فرعون، وفلق لهم البحر، وأمرهم بقتال الجبارين، أصابهم الجبن الذي قدمنا شرحه في سورة المائدة، وقالوا لنبيهم موسى (لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) فأصابهم الجبن والخوف، فقال موسى (رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) فضرب الله علبهم التيه أربعين سنة (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ) يصبحون حيث أمسوا، فإذا مشوا النهار كله أصبحوا من حيث كانوا أمس!! الله ضرب عليهم هذا التيه. وأصحاب الأخبار والتاريخ يطبقون على أن موسى وهارون (عليهما وعلى نبينا

=

=

الصلاة والسلام) توفيا في التيه، ثم صار الخليفة بعد موسى يوشع بن نون.

قوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ} [الأعراف: ١٦٠]، أي: "وأوحينا إلى موسى إذ طلب منه قومه السقيا حين عطشوا في التِّيْه: أن اضرب بعصاك الحجر".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: {وأوحينا إلى موسى}، إذ فرّقنا بني إسرائيل قومه اثنتي عشرة فرقة، وتيَّهناهم في التيه، فاستسقوا موسى من العَطش وغَوْر الماء {أن اضرب بعصَاك الحجر}.

قال قتادة: "فأمر بحجر أن يضربه بعصاه، وكان حجرا طوريا من الطور يحملونه معهم حتى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه".

قال عطاء: "كان لبني إسرائيل حجر، وكان يضعه هارون، ويضربه موسى بالعصا".

عن عطية العوفي: "وجعل لهم حجرا مثل رأس الثور يحمل على ثور فإذا نزلوا منزلا وضعوه، فضربه موسى بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، فإذا ساروا حمله على ثور فاستمسك الماء".

قال الرازي: جمهور المفسرين أجمعوا على أن هذا الاستسقاء كان في التيه، لأن الله تعالى لما ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل ثيابهم بحيث لا تبلى ولا تتسخ خافوا العطش فأعطاهم الله الماء من ذلك الحجر.

قال ابن عاشور: تذكير بنعمة أخرى جمعت ثلاث نعم وهي:

أ-الري من العطش، وتلك نعمة كبرى أشد من نعمة إعطاء الطعام ولذلك شاع التمثيل بري الظمآن في حصول المطلوب.

ب-وكون السقي في مظنة عدم تحصيله وتلك معجزة لموسى وكرامة لأمته لأن في ذلك فضلًا لهم.

=

=

ج-وكون العيون اثنتي عشرة ليستقل كل سبط بمشرب فلا يتدافعوا.
(أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ) أي: اضرب أي حجر كان تتفجر بقدرتنا العيون منه.
- قوله تعالى (بِعَصَاكَ الْحَجَرَ) قيل (أل) للعهد، أي اضرب عصًا معهودًا معينًا معروفًا عندهم، لكن الصحيح أنه حجر غير معين، والمراد أن يضرب أي حجر من غير تحديد.
- قال في التسهيل: قيل هو جنس غير معين، وذلك أبلغ في الإعجاز.
- وقال الشيخ ابن عثيمين: و (الحجر) المراد به الجنس، فيشمل أيّ حجر يكون، وهذا أبلغ من القول بأنه حجر معين
- وقال ابن الجوزي: واختلفوا في صفة الحجر على ثلاثة أقوال:
أحدها: أنه كان حجرًا مربعًا، والثاني: كان مثل رأس الثور، والثالث: مثل رأس الشاة.
- قال الرازي - رَحِمَهُ اللَّهُ - بعد ذكر بعض هذه الأقوال في صفة الحجر: واعلم أن السكوت عن أمثال هذه المباحث واجب، لأنه ليس فيها نص متواتر قاطع، ولا يتعلق بها عمل حتى يكتفي فيها بالظن المستفاد من أخبار الآحاد فالأولى تركها.
- وقال الآلوسي: بعد أن ذكر أكثر هذه الروايات في صفة الحجر: وظاهر أكثرها التعارض، ولا ينبئ على تعيين هذا الحجر أمر ديني والأسلم تفويض علمه إلى الله.
- قوله تعالى (بعصاك) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:
وهذه العصا كان فيها أربع آيات:
أولًا: أنه يلقيها فتكون حية تسعى، ثم يأخذها فتعود عصا.
ثانيًا: أنه يضرب بها الحجر فينفجر عيونًا.
ثالثًا: أنه ضرب بها البحر، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم.

=

=

رابعًا: أنه ألقاها حين اجتمع إليه السحرة، وألقوا حبالهم وعصيهم، فألقاها فإذا هي تلقف ما يأفكون.

قوله تعالى: {فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا} [الأعراف: ١٦٠]، أي: "فضربه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا من الماء".

في سورة الأعراف كما هنا (فانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا) وفي سورة البقرة (فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا) قال ابن كثير قوله (فانْبَجَسَتْ مِنْهُ) هذا أول الانفجار، وأخبر ههنا بما آل إليه الحال آخرًا وهو الانفجار.

وقال بعض العلماء: بل هما بمعنى واحد، فكل من الإنبجاس والانفجار انشقاق واسع ينحدر منه الماء بقوة ورجحه الشنقيطي.

وهذه معجزة وآية عظيمة لموسى، قال بعض العلماء: إنه ما من معجزة أوتيها نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي نبينا ﷺ من جنسها.

فنبينا ﷺ أوتي معجزة تفجر الماء من بين أصابعه، وهذه المعجزة لا شك أقوى من معجزة موسى عليه السلام، وذلك لأن الحجارة أصلًا ما يتفجر منه الأنهار، لكن ليس من الأصابع ما يتفجر من بينها الماء.

ومن ذلك: سليمان عليه السلام، سخّرت له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ونبينا ﷺ سخّر له البراق فانطلق به من مكة إلى بيت المقدس، وكذلك عُرج برسول الله ﷺ إلى السموات، ولم يحدث هذا لسليمان عليه السلام.

قال الطبري: أي: "فانصّبت وانفجرت من الحجر اثنتَا عشرة عينًا من الماء".

عن ابن عباس، قوله: " {فانبجست منه}، يقول: انفجرت، {اثنتا عشرة عينا} في كل ناحية منها ثلاث عيون".

قال ابن عباس: لما كان بنوا إسرائيل في التيه شق لهم من الحجر أنهارا".

قوله تعالى: {قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ} [الأعراف: ١٦٠]، أي: "قد علمت كل

=

=

قبيلة من القبائل الاثنتي عشرة مشربهم، لا تدخل قبيلة على غيرها في شربها".
وهذه من نعمة الله على بني إسرائيل، وهي من نعمة الله على موسى، أما كونها نعمة على موسى فلأنها آية دالة على رسالته، وأما كونها نعمة على بني إسرائيل فلأنه مزيلة لعطشهم ولظمئهم.
قال الطبري: أي: "يعني: كل أناس من الأسباط الاثنتي عشرة {مشربهم}، لا يدخل سبط على غيره في شربه".
قال ابن عباس: "وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها لا يرتحلون من منقلة إلا وجدوا ذلك الحجر منهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول".
عن يحيى أبي النضر، قال: "قلت لجويبر كيف علم كل أناس مشربهم؟ قال: كان موسى يضع الحجر ويقوم من كل سبط رجل، ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عينا، فينتضح من كل عين على رجل فيدعوا فيه ذلك الرجل بسبطه إلى تلك العين".
قوله تعالى: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ} [الأعراف: ١٦٠]، أي:"وظلَّلنا عليهم السحاب".
والْغَمَامَ جمع غمامة، سمي بذلك لأنه يغُم السماء، أي: يواريها ويسترها، وهو السحاب الأبيض، ظللوا به في التِّيهِ ليقيَهم حر الشمس.
وكان ذلك لما كانوا في التيه، واشتكوا الحر، دعا نبي الله موسى لهم، فظلل الله عليهم الغمام، وهو غمام أبيض رقيق يُظلهم من الشمس.
وما ورد من تحديده أنه سحاب أبيض فهو مما أُخِذ من بني إسرائيل، وإلا فإن كل ما سترك فإنه يقال له غَمام.

قال الطبري: "يكنُّهم من حرّ الشمس وأذاها".

=

=

عن ابن عباس، قال: "ثم ظلل عليهم في التيه بالغمام". وروي، عن ابن عمر وأبي مجلز والربيع، والضحاك، والسدي نحو ذلك.

قال قتادة: "كان هذا في البرية ظلل عليهم الغمام من الشمس". وروي عن الحسن نحو ذلك.

قال الشوكاني: وقد ذكر المفسرون أن هذا جرى في التيه بين مصر، والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين.

قال الرازي: قال المفسرون (وَظَلَّلْنَا) وجعلنا الغمام تظلكم، وذلك في التيه سخر الله لهم السحاب يسير بسيرهم يظلهم من الشمس.

قال ابن الجوزي: (الغمام) السحاب، سمي غمامًا، لأنه يغم السماء، أي: يسترها، وكل شيء غطيته فقد غممته، وهذا كان في التيه.

- وصيغة الجمع في قوله (وَظَلَّلْنَا) للتعظيم.

قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} [الأعراف: ١٦٠]، أي: "وأنزلنا عليهم المنَّ -وهو شيء يشبه الصَّمغ، طعمه كالعسل- والسلوى، وهو طائر يشبه السُّمَانَى".

وقد اختلفت عبارات المفسرين فيه، فقيل: صمغة حلوة، وهذا قول مجاهد. وقيل: أنه كان ينزل عليهم على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاء، كأنه العسل، قاله الشيخ ابن عثيمين.

وقيل: هو العسل، وهذا قول الشعبي.

- قال الماوردي: قوله ﷻ (وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ....) فيه سبعة أقاويل:

أحدها: أن المنَّ ما سقط على الشجر فيأكله الناس، وهو قول ابن عباس.

والثاني: أن المنَّ صمغة، وهو قول مجاهد.

والثالث: أن المنَّ شرابٌ، كان ينزل عليهم يشربونه بعد مزجِهِ بالماء، وهو قول

=

=

الربيع بن أنس.

والرابع: أن المنَّ عسل، كان ينزل عليهم، وهو قول ابن زيدٍ.

والخامس: أن المن الخبز الرقاق، وهو قول وهب.

والسادس: أنه الزنجبيل، وهو قول السدي.

والسابع: أنه الترنجين.

- **قال ابن كثير**: والله أعلم أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس فيه عمل ولا كد، وفي الحديث قال ﷺ (الكمأة من المن) أي: من جنس ما منّ الله به على بني إسرائيل، حيث إنه يوجد - فضلًا من الله - من غير تعب.

قال الطبري: أي: "طعامًا لهم".

قال ابن عباس: "كان المن ينزل عليهم بالليل على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاءوا".

قال قتادة: "كان المن يسقط عليهم في محلتهم سقوط الثلج، أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإن تعدى ذلك فسد ما يبقى حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته ولا يطلبه شيء وهذا كله في البرية".

عن ابن عباس، قال: "السلوى هو السماني". وروي عن مجاهد والشعبي، والضحاك، والربيع بن أنس نحو ذلك.

قال ابن عباس: "السلوى طائر شبيه بالسماني كانوا يأكلون منه".

قال قتادة: "كان المن يسقط عليهم في محلتهم سقوط الثلج، أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل

=

=

قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإن تعدى ذلك فسد ما يبقى حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته ولا يطلبه شيء وهذا كله في البرية".

قال قتادة: "كان يسقط عليهم في محلتهم سقوط الثلج أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس".

قال قتادة: "كان السلوى من طير إلى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب، فكان الرجل منهم يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده، حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعة أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه، لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه".

قال مجاهد: "المن: حمقه".

عن الربيع بن أنس، قال: "كان المن شرابا كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه".

عن السدي: "قالوا يا موسى: فكيف لنا بماءها هنا، أين الطعام؟ فأنزل الله تعالى عليهم المن، فكان يسقط على الشجرة الزنجبيل".

قال عكرمة: "المن شيء أنزله الله عليهم مثل الطل شبه الرب الغليط".

عن عبد الصمد بن معقل، أنه سمع وهب بن منبه -وسئل ما المن؟ - قال: "خبز الرقاق مثل الذرة أو مثل النقى".

عن ابن منبه، قال: "سألت بنوا إسرائيل موسى اللحم فقال الله ﷻ: لأطعمنهم من أقل لحم يعلم في الأرض، فأرسل عليهم ريحا، فأدرت عند مساكنهم السلوى وهو السماني ميل في ميل قيد رمح في السماء، فخبئوا للغد فنتن اللحم".

عن عبد الصمد بن معقل: "أنه سمع وهب بن منبه يقول: -وسئل ما السلوى؟ - قال: "طير سمين مثل الحمام فكان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت".

=

=

قوله تعالى: {كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [الأعراف: ١٦٠]، أي: "وقلنا لهم كلوا من هذا الشيء الطيب اللذيذ الذي رزقناكم إياه".

قال الطبري: "يقول: وقلنا لهم: كلوا من حَلال ما رَزقْناكم، أيها الناس، وطيّبناه لكم".

قال الحسن: "أما أنه لم يذكر أصغركم وأحمركم، ولكنه قال ينتهون إلى حلاله".

قوله تعالى: {وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [الأعراف: ١٦٠]، أي: "فكفروا بهذه النعم الجليلة وما ظلمونا بذلك ولكنْ ظلموا أنفسهم حيث عرّضوها بالكفر لعذاب الله".

قال الطبري: "في الكلام محذوف، ترك ذكره استغناءً بما ظهَر عما ترك، وهو: فأجِمُوا ذلك، وقالوا: لن نصبر على طعام واحد، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، {وما ظلمونا}، يقول: وما أدخلوا علينا نقصًا في ملكنا وسلطاننا بمسألتهم ما سألوا، وفعلهم ما فعلوا، {ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}، أي: ينقصونها حظوظَها باستبدالهم الأدنى بالخير، والأرذل بالأفضل".

عن ابن عباس: "{وَمَا ظَلَمُونَا}، نحن أعز من أن نظلم".

عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: "ما أحد أحب إليه المدح من الله، ولا أكثر معاذير من الله عذب قوما بذنوبهم اعتذر إلى المؤمنين قال: {وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}.

مسألة: الأصل مساواة الرعية في العطية، فإن هذا أقوم لصفاء نفوسهم، وقضاء وطرهم، وقطعا للنزاع بينهم وبين من يلي أمرهم.

* اتخاذ العرفاء والنقباء: وفي ذلك: مشروعية جعل العرفاء والنقباء على الناس؛ يقومون بشأنهم، ويرعون قسمة عطاياهم بينهم؛ كما فعل الأسباط مع من كان معهم؛ كما قال تعالى: {ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (١٥٩)

=

=

وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما} [الأعراف: ١٥٩ - ١٦٠].

ومن السياسة الشرعية: جعل نقباء في المجتمعات؛ على كل جهة وناحية وجماعة من الناس واحد يبين للسلطان حالهم، ويرفع حاجتهم، ويدفع فتنتهم، ولا تكون للواحد منهم شوكة يفتئت بها على إمام المسلمين.

ومن ذلك: تمييز ما لكل بلدة وجماعة عما للأخرى، حتى لا تتنازع مع غيرها؛ فإن الناس تتنافس على الدنيا وتتقاتل عليها، وفي فصل الحقوق وتمييزها قطع للنزاع والخلاف؛ ولذا قال تعالى مظهرا منته: {قد علم كل أناس مشربهم}، وقد قال يحيى بن النضر: قلت لجويبر: كيف علم كل أناس مشربهم؟ قال: كان موسى يضع الحجر ويقوم من كل سبط رجل، ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عينا، فينضح من كل عين على رجل، فيدعو ذلك الرجل سبطه إلى تلك العين.

ومثل هذا العدل والتمييز يدفع الفساد والبغي والظلم، ولما كان ذلك كذلك، أقام الله بقسمة الحقوق والرزق العدل؛ قال كما في البقرة: {كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين} [٦٠].

❋ حكم أخذ السلطان من بيت المال وحدوده:

ويأخذ الحاكم من بيت المال ما يكفيه ويغنيه عن الاشتغال بالتكسب؛ حتى لا تتعطل مصالح المسلمين باشتغاله عنهم؛ وبهذا القدر كان يأخذ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي -عليهم رضوان الله- لأن المال ملك للمسلمين ومصالحهم، لا ملك يخص السلطان.

ولذا قال أبو بكر الصديق: "إني ما أصبت من دنياكم بشيء، ولقد أقمت نفسي في مال الله وفيء المسلمين مقام الوصي في مال اليتيم؛ إن استغنى تعفف، وإن افتقر أكل بالمعروف".

=

=

وروي عن عمر بن الخطاب قوله: "والله، ما كنت أرى هذا المال يحق لي من قبل أن أليه إلا بحقه، وما كان قط أحرم علي منه إذ وليته، فأصبح أمانتي".

وفي هذا المعنى عنهما شيء غبر قليل.

* قسمة المال العام: والأصل: أن العطية تكون بين الرعية بالسواء، إلا لمصلحة عامة راجحة تقتضيه؛ فيكون من باب تأليف القلب، ودفع شر ذي الشر.

ومن واجبات السلطان في المال: قسمة المال في مهماته، فلا يقدم حقا على أحق منه، فضلا عن تقديم شر على خير، وباطل على حق؛ فالمال أمانة، ومن وضعه في موضع وهو يعلم موضعا أوجب منه وأحق، فقد تخوض في مال الله بغير حق كما قال ﷺ: (إن رجالا يتخوضون في مال الله بغير حق؛ فلهم النار يوم القيامة).

ومن تصرف في مال المسلمين بغير وجهه، ففيه صفة من الملوك، ومن صرفه بعدل بين الناس بالعدل وعلى حق الله، فهو خليفة على منهاج النبوة؛ فقد سأل عمر سلمان الفارسي: "ملك أنا أم خليفة؟ قال: إن أنت حبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر، ثم وضعته في غير حقه، فأنت ملك".

* إعطاء الحاكم مالا لأحد دون غيره: وللحاكم أن يعطي من المال لأحد ما لا يعطي غيره؛ إذا قامت مصلحة عامة، لا مصلحة خاصة يتضرر بها غيره، فردا كان أو جماعة، وقد أعطى النبي ﷺ أقواما، وترك آخرين، لمصلحة تأليفهم، لا لمصلحة أشخاصهم ودنياهم ينتفعون بها ويتضرر بذلك غيرهم، والحاكم نائب عن المسلمين في التصرف في المال بما يصلح دينهم ودنياهم، وفي "الصحيحين"؛ من حديث سعد رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ أعطى رهطا وسعد جالس، فترك رسول الله ﷺ رجلا هو أعجبهم إلي، فقلت: يا رسول الله، ما لك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنا، فقال: (أو مسلما)، فسكت قليلا، ثم غلبني ما أعلم منه، فعدت

=

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١).

{و} اذْكُرْ {إِذْ قِيلَ لَهُمْ اُسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَة} بَيْت الْمَقْدِس {وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا} أَمْرنَا {حِطَّة وَادْخُلُوا الْبَاب} أَيْ بَاب الْقَرْيَة {سُجَّدًا} سُجُود انْحِنَاء {نَغْفِر} بِالنُّونِ وَالتَّاء مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ {لَكُمْ خَطِيئَاتكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} بِالطَّاعَةِ ثَوَابًا.

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢).

{فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْر الَّذِي قِيلَ لَهُمْ} فَقَالُوا حَبَّة فِي شَعْرَة وَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاههمْ {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا} عَذَابًا {من السماء بما

=

لمقالي، فقلت: ما لك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنا، فقال: (أو مسلما)، ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي، وعاد رسول الله ﷺ، ثم قال: (يا سعد، إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه؛ خشية أن يكبه الله في النار).

وقد قال النبي ﷺ: (ما أعطيكم ولا أمنعكم؛ إنما أنا قاسم؛ أضع حيث أمرت)، وفي لفظ: (إن أنا إلا خازن).

فجعل ﷺ من نفسه خازنا قاسما بينهم ما يؤمر به من ربه، وما يقوم به قائم العدل في الميزان الذي أنزله الله في الأرض؛ كما قال تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط} [الحديد ٢٥٠]، فإذا لم يكن ذلك للأنبياء، فليس لغيرهم من السلاطين والحكام.

وإذا لم يتضرر بالعطية أحد، ووجد الحاكم في بعض المسلمين قدرة على الانتفاع ونفع الناس باستصلاح أراضي المسلمين ونفعهم بها، فله أن يعطيه.

كانوا يظلمون}[(١)].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ} [الأعراف: ١٦١]، أي: "واذكر لهم حين قلنا لأسلافهم اسكنوا بيت المقدس".

قال ابن الجوزي: " وهذا سؤال تقرير وتوبيخ يقرِّرهم على قديم كفرهم، ومخالفة أسلافهم الأنبياء، ويخبرهم بما لا يُعلم إلا بوحي".

قال القرطبي: " وكان اليهود يكتمون هذه القصة لما فيها من السُّبّة عليهم".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر أيضًا، يا محمد، من خطأ فعل هؤلاء القوم، وخلافهم على ربهم، وعصيانهم نبيَّهم موسى عليه السلام، وتبديلهم القولَ الذي أمروا أن يقولوه حين قال الله لهم: {اسكنوا هذه القرية}، وهي قرية بيت المقدس".

واختلف المفسرون في تعيين «القرية»، على أقوال:

أحدها: أنها بيت المقدس. قاله قتادة ، والسدي ، والربيع ، وهو قول الجمهور.

الثاني: أنها أريحا من بيت المقدس، إذ كانت قاعدة ومسكن ملوك. قاله ابن زيد.

الثالث: أنها: الرملة والأردن وفلسطين وتدمر، قاله الضحاك.

والراجح هو القول الأول، وهو قول الجمهور. والله أعلم.

وقوله تعالى {هَذِهِ الْقَرْيَةَ} [الأعراف: ١٦١]، أي "المدينة، سميت بذلك لأنها تقرت أي اجتمعت ومنه قريت الماء في الحوض أي جمعته".

وقال أهل اللغة، أن "اشتقاق القرية من قريت، أي جمعت، والمقراة: الحوض يجمع فيه الماء، والقَرِيّ: مسيل يجتمع الماء إليه ، ويقال لبيت النمل: قرية، لأنه يجمع النمل ، قال الشاعر:

كَأَنَّ قُرَى نَمْلٍ عَلَى سَرَوَاتِهَا ... يُلَبِّدُهَا فِي لَيْلِ سَارِيَةٍ قَطْرُ

فالقرية تجمع أهلها، ومنه يقال للظهر: القرى، لأنه مجتمع القوى".

=

=

قوله تعالى: {وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ} [الأعراف: ١٦١]، أي:"وكلوا من مطاعمها وثمارها من أي جهة ومن أي مكان شئتم منها".

قال الطبري: "يقول: من ثمارها وحبوبها ونباتها أنّى شئتم منها".

قوله تعالى: {وَقُولُوا حِطَّةٌ} [الأعراف: ١٦١]، أي: "وقولوا حين دخولكم: يا ألله حُطَّ عنا ذنوبنا".

قال الطبري: "يقول: وقولوا: هذه الفعلة {حِطّةٌ}، تحطُّ ذنوبنا".

والـ {حِطَّةٌ}: من قول القائل: " حط الله عنك خطاياك فهو يحطها حطة.

واختلف أهل العلم في معنى: «حِطَّةٌ»، على أقوال:

أحدها: أن معناه: حُطَّ عنا خطايانا، وهو قول الحسن ، وقتادة ، وابن زيدٍ ، وعطاء ، ورواية ابن جريج عن ابن عباس.

قال الماوردي:"وهو أشبهُ بظاهر اللفظ". وهذا تفسير حسن، قال به كثير من أهل العلم.

والثاني: أن معناه: قولوا (لا إله إلا الله). روي ذلك عن عكرمة ، كأنهم وجهوا تأويله: قولوا الذي يحط عنكم خطاياكم، وهو قول لا إله إلا الله.

والثالث: أن {حِطَّة} المغفرة، فكأنه أمر بالاستغفار، وهو رواية سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عباسٍ ، وروي عن عطاء والحسن وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

والرابع: أنه قولهم: "هذا الأمر حق كما قيل لكم" ، وهو رواية الضحاك، عن ابن عباسٍ.

الخامس: معناه: " أن أقروا بالذنب". حكاه الأوزاعي عن ابن عباس.

السادس: أن معنى (حِطَّةٌ): بسم الله، ذكره السمرقندي عن بعضهم، فكأن المعنى عليه: ادخلوا الباب خاضعين لله مستعينين به على عدوكم، فإن فعلتم ذلك غفرنا لكم خطاياكم نتيجة امتثالكم، وهو محتمل.

=

=

والسابع: أن (حِطَّة) من ألفاظ أهل الكتاب لا يعرف المراد منها، قاله الأصم.

والثامن: أن (حِطَّة): كانت تعني في ذلك المكان الدلالة على العجز، وهي من أقوال أصحاب المسألة والشحاذين، أمروا بها كيلا يحسب لهم أهل القرية حسابًا، ولا يأخذوا منهم حذرًا، فيكون القول الذي أمروا به على ذلك قولًا يخاطبون به أهل القرية.

والتاسع: أن (حِطَّة) تعني إقامة من الحط بمعنى حط الرحال وإنزالها، أي: ادخلوا قائلين إنكم ناوون الإقامة والاستقرار بها، قاله أبو مسلم الأصفهاني.

وهذان القولان الأخيران كما ذكر الألوسي بعيدان لعدم ظهور تعلق الغفران بهما.

وأحسن هذه الوجوه وأقربها إلى التحقيق القول الأول، والله أعلم.

قوله تعالى: {وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} [الأعراف: ١٦١]، أي: "وادخلوا الباب خاضعين لله".

قال الصابوني: "أي: ساجدين لله شكرًا على خلاصكم من التيه".

واختلفوا في «الباب»، في قوله: {وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} [الأعراف: ١٦١]، على ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه باب في بيت المقدس يعرف اليوم بـ(باب حِطَّةَ)، وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي ، والضحاك ، واختاره الطبري ، وهو المشهور.

والثاني: أنه باب القبة التي كان يصلي إليها موسى وبنو إسرائيل.

والثالث: أنه باب القرية، التي أمروا بدخولها.

قال الثعلبي:"يعني: بابا من أبواب القرية، وكان لها سبعة أبواب".

واختلفوا في قوله: {وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} [الأعراف: ١٦١]، على وجهين:

أحدهما: أن معناه: رُكَّعًا، منحنين ركوعا. وهذا قول ابن عباس.

والثاني: أن معناه: متواضعين خشوعا، لا على هيئة متعينة.

=

=

والقول الأول أشبه بالصواب: وأصل «السجود»: الانحناء لمن سُجد له معظَّما بذلك. فكل منحن لشيء تعظيما له فهو «ساجد»، ومنه قول زيد الخيل بن مهلهل الطائي:

بَجَمْعٍ تَضَلُّ الْبَلْقُ فِي حُجُرَاتِهِ ... تَرَى الأَكْمَ فِيهِ سُجَّدًا لِلْحَوافِرِ

فقوله: «سجدا»، أي: خاشعة خاضعة، ومن ذلك قول أعشى بني قيس بن ثعلبة:

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمِلَيـ ... ـكِ طَوْرًا سُجُودًا وَطَوْرًا جِوَارًا

فذلك تأويل ابن عباس قوله: {سجدا} ركعا، لأن الراكع منحن، وإن كان الساجد أشد انحناء منه.

عن أبي هريرة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: "قيل لبني إسرائيل: {ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ} فدخلوا يزحفون على أستاههم، فبدّلوا وقالوا: حطة: حبة في شعرة"".

وروي عن عبد الله بن مسعود قال: "قيل لهم: {ادخلوا الباب سجدا}، فدخلوا مقنعي رؤسهم".

قوله تعالى: {نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ} [الأعراف: ١٦١]، أي: "نغفر لكم خطاياكم، فلا نؤاخذكم عليها".

قال قتادة: "من كان خاطئا غفرت له خطيئته".

قال الطبري: "يتغمد لكم ربكم {ذنوبكم}، التي سلفت منكم، فيعفو لكم عنها، فلا يؤاخذكم بها".

قال الماوردي: "أي: نرحمْكم، ونسترها عليكم، فلا نفضحكم بالعقوبة عليها.

وأصل «الغفر»: التغطية والستر، فكل ساتر شيئا فهو غافره، ومن ذلك قيل للبيضة من الحديد التي تتخذ جُنة للرأس «مغفر»، لأنها تغطي الرأس وتجنه، ومنه: غمد السيف، وهو ما تغمده فواراه ولذلك قيل لزئبر الثوب: «غفرة»، لتغطيته الثوب،

=

=

وحوله بين الناظر والنظر إليه، ومنه قول أوس بن حجر:

فلا أعتب ابن العم إن كان جاهلا وأغفر عنه الجهل إن كان أجهلا

فقوله: «وأغفر عنه الجهل»: أي: أستر عليه جهله بحلمي عنه.

و «الخطايا»، جمع: خطية، بغير همز، كما (المطايا)، جمع: مطية، ولو كانت (الخطايا) مجموعة على (خطيئة)، بالهمز: لقيل خطائي على مثل قبيلة وقبائل، وقد تجمع " خطيئة " بالتاء، فيهمز فيقال " خطيئات. و " الخطيئة " فعيلة، من " خَطِئَ الرجل يخطأ خِطْأ "، وذلك إذا عدل عن سبيل الحق. ومنه قول الشاعر:

وإن مُهَاجِرَيْن تَكَنَّفاه لعمر الله قد خطئا وخابا

يعني: أضلا الحق وأثما.

قوله تعالى: {سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ١٦١]، أي: "وسنزيد المحسنين مِن خَيْرَي الدنيا والآخرة".

قال الثعلبي: "إحسانا وثوابا".

قال النسفي: "أي: من كان محسنًا منكم، كانت تلك الكلمة سببًا في زيادة ثوابه ومن كان مسيئًا كانت له توبة ومغفرة".

قال ابن كثير: "أي: إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضعفنا لكم الحسنات".

قال ابن عطية: "المعنى: إذا غفرت الخطايا بدخولكم وقولكم زيد بعد ذلك لمن أحسن، وكان من بني إسرائيل من دخل كما أمر وقال لا إله إلا الله فقيل هم المراد بـ {الْمُحْسِنِينَ} هنا".

قال الطبري: {الْمُحْسِنِينَ}، " وهم المطيعون لله، على ما وعدتكم من غفران الخطايا".

قال ابن عباس:"من كان منكم محسنا زيد في إحسانه، ومن كان مخطئا نغفر له

=

=

خطيئته". وروي عن قتادة ، نحو ذلك.

قوله تعالى: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ} [الأعراف: ١٦٢]، أي: "فغيَّر الذين كفروا بالله منهم ما أمرهم الله به من القول، ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة".

قال الطبري: "فغيَّر الذين كفروا بالله منهم ما أمرهم الله به من القول، فقالوا، وقد قيل لهم: قولوا: هذه حطة: حنطة في شعيرة، وقولهم ذلك كذلك، هو غير القول الذي قيل لهم قولوه".

واختلف في قوله تعالى: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ} [الأعراف: ١٦٢]، على وجوه:

أحدها: أنهم: "دخلوا الباب يزحفون على أستاهم، وقالوا: حبة في شعيرة". روي ذلك عن رسول الله ﷺ ، وعلى هذا القول عامة المفسرين، وقد روي عن ابن عباس ، وعطاء ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك والحسن والربيع ويحيى بن رافع نحو ذلك.

والثاني: أنهم قالوا: حنطة حمراء فيها شعيرة. قاله عكرمة ، وأبو الكنود.

والثالث: أنهم: فجعلوا يدخلون من قبل أستاههم ويقولون: حنطة. قاله ابن عباس أيضا.

والرابع: إنهم قالوا: " هطى سمقا يا ازبة هزبا "، وهو بالعربية: حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعيرة سوداء. قاله ابن مسعود.

والخامس: وقال أبو مسلم: إن المراد بقوله تعالى: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا} [البقرة:٥٩]: أنهم لم يفعلوا ما أمرهم الله به، ولم يلتفتوا إليه، لا على أنهم أتوا له ببدل، ودلل على قوله ذلك بقوله-ﷻ-: {سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ} [الفتح:١٥]، ولم يكن

=

=

تبديلهم إلا الخلاف في الفعل لا في القول فكذلك هنا.

وهذا قول بعيد؛ لأن ظاهر الآية والأحاديث الصحيحة تبطله، والله أعلم.

وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجدًا، فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة، أي: احطط عنا ذنوبنا، فاستهزؤوا فقالوا: حنطة في شعرة، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته؛ ولهذا قال: {فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} "، ومعنى السجود في قوله تعالى عند الدخول، أي: "الانحناء شكرًا لله تعالى لا لأن بابها قصير كما قيل، إذ لا جدوى له، والظاهر أن المقصود من السجود مطلق الانحناء لإظهار العجز والضعف كيلا يفطن لهم أهل القرية وهذا من أحوال الجوسسة، ولم تتعرض لها التوراة ويبعد أن يكون السجود المأمور به سجود الشكر لأنهم داخلون متجسسين لا فاتحين وقد جاء في الحديث الصحيح أنهم بدلوا وصية موسى فدخلوا يزحفون على استاهم كأنهم أرادوا إظهار الزمانة فأفرطوا في التصنع بحيث يكاد أن يفتضح أمرهم لأن بعض التصنع لا يستطاع استمراره".

قوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ} [الأعراف: ١٦٢]، أي: "فأرسلنا عليهم عذابًا من السماء، أهلكناهم به؛ بسبب ظلمهم وعصيانهم".

قال الطبري: يقول: "بَعثنا عليهم عذابًا، أهلكناهم بما كانوا يغيِّرون ما يؤمرون به، فيفعلون خلاف ما أمرهم الله بفعله، ويقولون غير الذي أمرهم الله بفعله".

واختلف أهل التفسير في معنى «الرجز»، في قوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ

=

وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣).

{وَاسْأَلْهُمْ} يَا مُحَمَّد تَوْبِيخًا {عَنْ الْقَرْيَة الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَة الْبَحْر} مُجَاوِرَة بَحْر الْقُلْزُم وَهِيَ أَيْلَة مَا وَقَعَ بِأَهْلِهَا {إِذْ يَعْدُونَ} يَعْتَدُونَ {فِي السَّبْت} بِصَيْدِ السَّمَك الْمَأْمُورِينَ بِتَرْكِهِ فِيهِ {إِذْ} ظَرْف لِيَعْدُونَ {تَأْتِيهِمْ حِيتَانهمْ يَوْم سَبْتهمْ شُرَّعًا} ظَاهِرَة عَلَى الْمَاء {وَيَوْم لَا يَسْبِتُونَ} لَا يُعَظِّمُونَ السَّبْت أَيْ سَائِر الْأَيَّام {لَا تَأْتِيهِمْ} ابْتِلَاء مِنْ الله {كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} وَلَمَّا صَادُوا السَّمَك افْتَرَقَتْ الْقَرْيَة أَثْلَاثًا ثُلُث صَادُوا مَعَهُمْ وَثُلُث نَهَوْهُمْ وَثُلُث أَمْسَكُوا عَنْ الصَّيْد وَالنَّهْي.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا

=

السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ} [الأعراف: ١٦٢]:

الأول: أنه الطاعون، قاله ابن زيد ، وهو قول الجمهور.

والثاني: أنه الغضب. وهو قول أبي العالية.

والثالث: أنه العذاب. قاله ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد في أحد قوليه.

والرابع: وقيل: إما الطاعون أو البرد. قاله الشعبي.

والقول الأول هو الأقرب إلى الصواب، وذلك لحديث رسول الله ﷺ: " الطَّاعُونُ رِجْزٌ أَوْ عَذَابٌ أُرْسِلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ " ، وقد روى أنه مات منهم في ساعة بالطاعون أربعة وعشرون ألفًا، وقيل: سبعون ألفًا.

مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) .

{وَإِذْ} عطف عَلَى إِذْ قَبْله {قَالَتْ أُمَّة مِنْهُمْ} لِمَ تَصُدّ وَلَمْ تُنْه لِمَنْ نَهَى {لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا الله مُهْلِكهمْ أَوْ مُعَذِّبهمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا} مَوْعِظَتنَا {مَعْذِرَة} نَعْتَذِر بِهَا {إِلَى رَبّكُمْ} لِئَلَّا نُنْسَب إِلَى تَقْصِير فِي تَرْك النَّهْي {وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} الصَّيْد.

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥).

{فَلَمَّا نَسُوا} تَرَكُوا {مَا ذُكِّرُوا} وُعِظُوا {بِهِ} فَلَمْ يَرْجِعُوا {أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنْ السُّوء وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا} بِالِاعْتِدَاءِ {بِعَذَابٍ بَئِيس} شَدِيد {بما كانوا يفسقون.

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦).

{فَلَمَّا عَتَوْا} تَكَبَّرُوا {عَنْ} تَرْك {مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَة خَاسِئِينَ} صَاغِرِينَ فكانوها وهذا تفصيل لما قبله قال بن عَبَّاس مَا أَدْرِي مَا فَعَلَ بِالْفِرْقَةِ السَّاكِتَة وَقَالَ عِكْرِمَة لَمْ تُهْلَك لِأَنَّهَا كَرِهَتْ مَا فَعَلُوهُ وَقَالَتْ لِمَ تَعِظُونَ إِلَخْ وَرَوَى الْحَاكِم عن بن عَبَّاس أَنَّهُ رَجَعَ إِلَيْهِ وَأَعْجَبَهُ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ} [الأعراف: ١٦٣]، أي: "واسأل -أيها الرسول- هؤلاء اليهود عن خبر أهل القرية التي كانت بقرب البحر".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: واسأل، يا محمد، هؤلاء اليهود، وهم مجاوروك، عن أمر {القرية التي كانت حاضرة البحر}، يقول: كانت بحضرة البحر، أي بقرب البحر وعلى شاطئه.".

=

=

قال ابن كثير: "أي: واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم؛ لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم. وهذه القرية هي "أيلة" وهي على شاطئ بحر القلزم".

قال الماوردي: "وسؤالهم عن هذه القرية إنما هو سؤال توبيخ على ما كان منهم فيها من سالف الخطيئة وقبيح المعصية".

واختلف في هذه «القرية»، على أقوال:

أحدها: أنها أيلة، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والسدي.

الثاني: أنها بساحل مدين، قاله قتادة.

الثالث: أنها مدين، قرية بين أيلة والطور، حكاه أبو جعفر الطبري عن ابن عباس.

الرابع: أنها قرية يقال لها مقتا بين مدين وعينونا، قاله ابن زيد.

الخامس: أن القرية التي كانت حاضرة البحر طبرية، وهذا قول ابن شهاب ، والقرية التي قال فيها: {وَاضْرِبْ لَهَم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ} [يس: ١٣]. أنطاكية.

قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك أن يقال: هي قرية حاضرة البحر، وجائز أن تكون أيلة، وجائز أن تكون مدين، وجائز أن تكون مقنا، لأن كل ذلك حاضرة البحر، ولا خبر عن رسول الله ﷺ

وسلم يقطع العذر بأيٍّ ذلك من أيٍّ، والاختلاف فيه على ما وصفت. ولا يوصل إلى علم ما قد كان فمضى مما لم نعاينه، إلا بخبر يوجب العلم. ولا خبر كذلك في ذلك".

قوله تعالى: {إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ} [الأعراف: ١٦٣]، أي: "إذ يعتدي أهلها في يوم السبت على حرمات الله حيث أمرهم أن يعظموا يوم السبت ولا يصيدوا فيه سمكًا".

=

=

قال الطبري: "يعني به أهله، إذ يعتدون في السبت أمرَ الله، ويتجاوزونه إلى ما حرمه الله عليهم، وكان اعتداؤهم في السبت: أن الله كان حرَّم عليهم السبت، فكانوا يصطادون فيه السمك".

قال ابن كثير:"أي: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك.

قال ابن عباس: "ابتدعوا السبت فابتلوا فيه، فحرمت عليهم الحيتان".

وفي اعتدائهم في «السبت»، قولان:

أحدهما: أنهم أخذوا فيه الحيتان على جهة الاستحلال، وهذا قول الحسن.

والثاني: أنهم حبسوها في يوم السبت وأخذوها يوم الأحد، والسبت هو اليوم المعروف.

وفي تسميته بـ «السبت»، أربعة أقاويل:

أحدها: أن السبت هو اسم للقطعة من الدهر، فسمي ذلك اليوم به، وهذا قول الزجاج.

الثاني: أنه سُمِّي بذلك لأنه سَبَت خَلْق كل شيء، أي قطع وفرغ منه، وهذا قول أبي عبيدة.

الثالث: أنه سُمِّي بذلك، لأن اليهود يَسْبِتُون فيه، أي: يقطعون فيه الأعمال.

الرابع: أن أصل السبت، الهدوء والسكون في راحة ودعة، ولذلك قيل للنائم مسبوت لاستراحته وسكون جسده، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُم سُبَاتًا}، فَسُمِّي به اليوم لاستراحة اليهود فيه.

قوله تعالى: {إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا} [الأعراف: ١٦٣]، أي: "حين كانت الحيتان «الأسماك» تأتيهم يوم السبت – وقد حُرّم عليهم الصيدُ فيه – كثيرةً ظاهرةً على وجه الماء".

قال الطبري: "يقول: إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم الذي نهوا فيه العمل {شرَّعًا}،

=

=

يقول: شارعة ظاهرةً على الماء من كل طريق وناحية، كشوارع الطرق".

قال ابن عباس: "كانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى مثله من السبت المقبل، فإذا جاء السبت عادت شرعا".

وعن ابن عباس أيضا: " {شرعًا}، يقول: من كلّ مكان".

وفي قوله تعالى: {إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا} [الأعراف: ١٦٣]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أن معنى: {شُرَّعًا}، أي: طافية على الماء ظاهرة، قاله ابن عباس ، ومنه شوارع البلد لظهورها.

والثاني: أنها تأتيهم من كل مكان، قاله عطية العوفي.

والثالث: أنها شرّع على أبوابهم كأنها الكباش البيض رافعة رؤوسها حكاه بعض المتأخرين فتعدَّوا فأخذوها في السبت، قاله الحسن.

قوله تعالى: {وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ} [الأعراف: ١٦٣]، أي: "وفي غير يوم السبت وهي سائر الأيام لا تأتيهم بل تغيب عنهم وتختفي".

قال ابن عباس: "فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى مثله من السبت المقبل".

قال الطبري: "يقول: ويوم لا يعظمونه تعظيمهم السَّبت، وذلك سائر الأيام غير يوم السبت {لا تأتيهم}، الحيتان".

وقرأ الحسن: «وَيَوْمَ لا يُسْبَتُونَ» بضم الياء، من "أسبت القوم يسبتون"، إذا دخلوا في "السبت".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأعراف: ١٦٣]، أي: "مثل ذلك البلاء العجيب نختبرهم ونمتحنهم بإظهار السمك لهم على وجه الماء في اليوم المحرَّم عليهم صيده وإخفائها عنهم في اليوم الحلال بسبب فسقهم

=

=

وانتهاكهم حرمات الله".

قال الطبري: "يقول: كما وصفنا لكم من الاختبار والابتلاء الذي ذكرنا، بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في اليوم المحلل صيده {كذلك نبلوهم}، ونختبرهم بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها".

قال ابن كثير: أي: "نختبرهم بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها. وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام".

قال القرطبي: "وروي في قصص هذه الآية أنها كانت في زمن داود عليه السلام، وأن إبليس أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت، فاتخذوا الحياض، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء، فيأخذونها يوم الأحد".

عن أيوب قال: "تلا الحسن ذات يوم: {واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرَّعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون}، فقال: حوتٌ حرمه الله عليهم في يوم، وأحله لهم فيما سوى ذلك، فكان يأتيهم في اليوم الذي حرَّمه الله عليهم كأنه المخاض، لا يمتنع من أحد. وقلَّما رأيت أحدًا يكثر الاهتمامَ بالذنب إلا واقعه، فجعلوا يَهتمُّون ويمْسِكون، حتى أخذوه، فأكلوا أَوْخَم أكلة أكلها قوم قطُّ، أبقاه خزيًا في الدنيا، وأشدُّه عقوبة في الآخرة! وايم الله، ما حوتُ أخذه قوم فأكلوه، أعظم عند الله من قتل رجل مؤمن! وللمؤمن أعظم حرمة عند الله من حوت، ولكن الله جعل موعدَ قومٍ الساعة {وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} [سورة القمر: ٤٦].

قال السعدي: ففسقهم هو الذي أوجب أن يبتليهم اللّه، وأن تكون لهم هذه

=

=

المحنة، وإلا فلو لم يفسقوا، لعافاهم اللّه، ولما عرضهم للبلاء والشر، فتحيلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حفرا، وينصبون لها الشباك، فإذا جاء يوم السبت ووقعت في تلك الحفر والشباك، لم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها، وكثر فيهم ذلك، وانقسموا ثلاث فرق.

عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: "لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل".

قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا} [الأعراف: ١٦٤]، أي: "واذكر -أيها الرسول- إذ قالت جماعة منهم لجماعة أخرى كانت تعظ المعتدين في يوم السبت، وتنهاهم عن معصية الله فيه: لِمَ تعظون قومًا الله مهلكهم في الدنيا بمعصيتهم إياه أو معذبهم عذابا شديدًا في الآخرة؟.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر أيضًا، يا محمد {إذ قالت أمة منهم}، جماعة منهم لجماعة كانت تعظ المعتدين في السبت، وتنهاهم عن معصية الله فيه {لم تعظون قومًا الله مهلكهم}، في الدنيا بمعصيتهم إياه، وخلافهم أمره، واستحلالهم ما حرم عليهم، {أو معذبهم عذابًا شديدًا}، في الآخرة".

قال ابن كثير: "يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، كما تقدم بيانه في سورة البقرة. وفرقة نهت عن ذلك، وأنكرت واعتزلتهم. وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة: {لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا}؟ أي: لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة في نهيكم إياهم".

واختلف أهل العلم في هذه الفرقة التي قالت: {لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ}

=

=

[الأعراف:١٦٤]، على قولين:

أحدهما: أنها كانت من الفرقة الناجية، لأنها كانت هي الناهيةَ الفرقةَ الهالكةَ عن الاعتداء في السبت. قاله ابن عباس ، وقتادة ، وعكرمة ، السدي ، وابن زيد.

قال ابن عباس: "هي قرية على شاطئ البحر بين مكة والمدينة، يقال لها: «أيلة»، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، فكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعًا في ساحل البحر. فإذا مضى يوم السبت، لم يقدروا عليها. فمكثوا بذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنهتهم طائفة، وقالوا: تأخذونها، وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم! فلم يزدادوا إلا غيًّا وعتوًّا، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم. فلما طال ذلك عليهم، قالت طائفة من النهاة: تعلَّموا أنّ هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب، لم تعظون قومًا الله مهلكهم، وكانوا أشد غضَبًا لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: "معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون"، وكلّ قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله، نجت الطائفتان اللتان قالوا: {لم تعظون قومًا الله مهلكهم}، والذين قالوا: {معذرة إلى ربكم}، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان، فجعلهم قردة وخنازير".

وعن عكرمة، عن ابن عباس: " {وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا}، قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: {لم تعظون قوما الله مهلكهم} أم لا! قال: فلم أزل به حتى عرَّفته أنهم قد نجوا، فكساني حلة.

وفي رواية أخرى عن عكرمة: "جئت ابن عباس يومًا وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره، فأعظمت أن أدنو، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدَّمت فجلستُ، فقلت: ما يبكيك يا ابن عباس، جعلني الله فداءك؟ فقال: هؤلاء الورقات! قال: وإذا هو في «سورة الأعراف»، قال: تعرف أيلة! قلت: نعم! قال: فإنه كان حيّ من يهود، سيقت الحيتان إليهم يوم السبت، ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغُوصوا، بعد

=

=

كدٍّ ومؤنة شديدة، كانت تأتيهم يوم السبت شرعًا بيضًا سمانًا كأنها الماخض، تنبطحُ ظهورُها لبطونها بأفنيتهم وأبنيتهم. فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت، فخذوها فيه، وكلوها في غيره من الأيام! فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة منهم: بل نُهيتم عن أكلها وأخذِها وصيدها في يوم السبت. وكانوا كذلك، حتى جاءت الجمعة المقبلة، فعدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين، وتنحَّت، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت. وقال الأيمنون: ويلكم! اللهَ، اللهَ، ننهاكم أن تعترّضوا لعقوبة الله! وقال الأيسرون: {لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا}؟ قال الأيمنون: "معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون"! أي: ينتهون، فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم. فمضوا على الخطيئة، فقال الأيمنون: قد فعلتم، يا أعداء الله! والله لا نُبَايتكم الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصيبكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده بالعذاب! فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا، فلم يجابوا، فوضعوا سلّمًا، وأعلوا سور المدينة رجلا فالتفت إليهم فقال: أي عبادَ الله، قردةٌ والله تعاوَى لها أذناب! قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القردةُ أنسابها من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة، فجعلت القرود تأتي نسيبها من الإنس فتشمّ ثيابه وتبكي، فتقولُ لهم: ألم ننهكم عن كذا؟ فتقول برأسها: نعم! ثم قرأ ابن عباس: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}. قال: فأرى اليهود الذين نَهَوْا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذُكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها فلا نقول فيها! قال قلت: إنَّ جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم قد كَرِهوا ما هم عليه، وخالفوهم وقالوا: {لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم}؟ قال: فأمرَ بي فكسيت بُرْدَين غليظين".

=

=

وروي عن مالك قال: "زعم ابن رُومان أن قوله: "تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرَّعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم"، قال: كانت تأتيهم يوم السبت، فإذا كان المساء ذهبتْ، فلا يرى منها شيء إلى السبت. فاتخذ لذلك رجل منهم خيطًا ووتدًا، فربط حوتًا منها في الماء يوم السبت، حتى إذا أمسوا ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجد الناس ريحه، فأتوه فسألوه عن ذلك، فجحدهم، فلم يزالوا به حتى قال لهم: فإنه جلد حوتٍ وجدناه! فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك- ولا أدري لعله قال: ربط حوتين- فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجدوا ريحه، فجاءوا فسألوه، فقال لهم: لو شئتم صنعتم كما أصنع! فقالوا له: وما صنعت؟ فأخبرهم، ففعلوا مثل ما فعل، حتى كثر ذلك. وكانت لهم مدينة لها رَبض، فغلَّقوها، فأصابهم من المسْخ ما أصابهم. فغدا إليهم جيرانهم ممن كان يكون حولهم، يطلبون منهم ما يطلب الناس، فوجدوا المدينة مغلقة عليهم، فنادوا فلم يجيبوهم، فتسوَّروا عليهم، فإذا هم قردة، فجعل القرد يدنو يتمسَّح بمن كان يعرف قبل ذلك، ويدنو منه ويتمسَّح به"

والثاني: أن الفرقة التي قالت: {لم تعظون قومًا الله مهلكهم}، كانت من الفرقة الهالكة. قاله أبو صالح ، وهو مروي عن ابن عباس ايضا.

قال ابن عباس: "نجا الناهون، وهلك الفاعلون، ولا أدري ما صنع بالساكتين!.

قال ابن كثير: "وقوله تعالى: {وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ} فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا".

قوله تعالى: {قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ} [الأعراف: ١٦٤]، أي: "قال الناهون: إنما نعظهم لنعذر عند الله بقيامنا بواجب النصح والتذكير".

قال الطبري: "قال الذين كانوا ينهونهم عن معصية الله مجيبيهم عن قولهم: عظتنا إياهم معذرةٌ إلى ربكم، نؤدِّي فرضه علينا في الأمر بالمعروف والنهي عن

=

=

المنكر".

قال ابن كثير:"أي: نفعل ذلك {مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ} أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

عن ابن عباس: " {قالوا معذرة إلى ربكم}، لسخطنا أعمالهم".

قوله تعالى: {وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأعراف: ١٦٤]، أي: "ورجاء أن يتقوا الله، فيخافوه، ويتوبوا من معصيتهم ربهم وتعدِّيهم على ما حرَّم عليهم".

قال الطبري: "يقول: ولعلهم أن يتقوا الله فيخافوه، فينيبوا إلى طاعته، ويتوبوا من معصيتهم إياه، وتعدِّيهم على ما حرّم عليهم من اعتدائهم في السبت".

قال ابن كثير: "يقولون: ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

وقرئ: «مَعْذِرَةً» نصبًا، بمعنى: إعذارًا وعظناهم وفعلنا ذلك.

عن ابن زيد، في قوله: " {ولعلهم يتقون}، قال: يتركون هذا العمل الذي هم عليه".

عن عطاء قال: "كنت جالسًا في المسجد، فإذا شيخ قد جاء وجلس الناسُ إليه، فقالوا: هذا من أصحاب عبد الله بن مسعود! قال: قال ابن مسعود: {واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر} الآية، قال: لما حرم عليهم السبت، كانت الحيتان تأتي يوم السبت، وتأمن فتجيء، فلا يستطيعون أن يمسوها. وكان إذا ذهب السبت ذهبت، فكانوا يتصيّدون كما يتصيد الناس. فلما أرادوا أن يعدوا في السبت، اصطادوا، فنهاهم قوم من صالحيهم، فأبوا، وكَثَرَهم الفجَّار، فأراد الفجار قتالهم، فكان فيهم من لا يشتهون قتاله، أبو أحدهم وأخوه أو قريبه. فلما نهوهم وأبوا، قال الصالحون: إذًا نُتَّهم! وإنا نجعل بيننا وبينهم حائطًا! ففعلوا، فلما فقدوا أصواتهم قالوا: لو نظرتم إلى إخوانكم ما فعلوا! فنظروا، فإذا هم قد مُسخوا قردةً،

=

=

يعرفون الكبير بكبره، والصغير بصغره، فجعلوا يبكون إليهم. وكان هذا بعد موسى ﷺ".

قوله تعالى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ} [الأعراف: ١٦٥]، أي: "فلما تركت الطائفة التي اعتدت في يوم السبت ما ذُكِّرت به، واستمرت على غيِّها واعتدائها فيه، ولم تستجب لما وَعَظَتْها به الطائفة الواعظة".

قال ابن كثير: "أي: فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فلما تركت الطائفة التي اعتدت في السبت ما أمرها الله به من ترك الاعتداء فيه، وضيَّعت ما وَعظتْها الطائفة الواعظة وذكَّرتها به، من تحذيرها عقوبةَ الله على معصيتها، فتقدّمت على استحلال ما حرم الله عليه".

قال ابن جريج: "فلما نسُوا موعظة المؤمنين إياهم، الذين قالوا: {لم تعظون قومًا}.

قوله تعالى: {أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ} [الأعراف: ١٦٥]، أي: "وأنجى الله الذين ينهون عن معصيته".

قال الطبري: "أنجى الله الذين ينهون منهم عن معصية الله، واسْتحلال حِرْمه".

روي عن ابن عباس: " {أنجينا الذين ينهون عن السوء}، قال: يا ليت شعري، ما السُّوء الذي نهوا عنه؟.

قوله تعالى: {وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأعراف: ١٦٥]، أي: "وأخذ الذين اعتدَوْا في يوم السبت بعذاب أليم شديد؛ بسبب مخالفتهم أمر الله وخروجهم عن طاعته".

قال الطبري: "يقول: وأخذ الله الذين اعتدوا في السبت، فاستحلوا فيه ما حرَّم الله من صيد السمك وأكله، فأحلَّ بهم بأسَه، وأهلكهم بعذاب شديدٍ بئيس بما كانوا يخالفون أمر الله، فيخرجون من طاعته إلى معصيته، وذلك هو «الفسق».

=

=

قال ابن كثير: "أي: ارتكبوا المعصية {بِعَذَابٍ بَئِيسٍ}، فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيما فيذموا".

قال أبو عبيدة: "{بِعَذابٍ بَئِيسٍ}، أي: شديد. قال ذو الإصبع:

أان رأيت بنى أبيك مجمّحين إليك شوسا

حنقا عليّ وما ترى لى فيهم أثرا بئيسا"

عن ابن عباس في قوله: " {وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس}: أليم وجيع".

عن مجاهد: " {بعذاب بئيس}، قال: شديد". وفي رواية: "أليم شديد".

عن ابن زيد: " {بعذاب بئيس}، قال: بعذاب شديد".

عن قتادة: " {بعذاب بئيس}، قال: موجع" ، {بما كانوا يفسقون}: بما كانوا يعصون".

عن الحسن: " {بما كانوا يفسقون}: بما كانوا يعملون قبل ذلك من المعاصي".

قال محمد بن إسحاق:"أي: بما تعمدوا من أمري".

قال ابن كثير: {بَئِيسٍ} " معناه في قول مجاهد: «الشديد»، وفي رواية: «أليم». وقال قتادة: «موجع». والكل متقارب".

وقرئ: «بِعَذَابٍ بِيسٍ»، بكسر الباء وتخفيف الياء، بغير همز، وقرء: «بَيْئِسٍ»، بفتح الباء وتسكين الياء، وهمزة بعدها مكسورة. وذلك شاذ عن أهل العربية.

قوله تعالى: {فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ} [الأعراف: ١٦٦]، أي: "فلما تمردت تلك الطائفة، وتجاوزت ما نهاها الله عنه من عدم الصيد في يوم السبت".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فلما تمرَّدوا، فيما نهوا عنه من اعتدائهم في السبت، واستحلالهم ما حرَّم الله عليهم من صيد السمك وأكله، وتمادوا فيه".

قال عكرمة: "«العتو»: في كتاب الله التجبر".

=

قوله تعالى: {قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [الأعراف: ١٦٦]، أي: "قال لهم الله: كونوا قردة خاسئين مبعدين من كل خير، فكانوا كذلك".

قال الطبري: "أي: بُعَداء من الخير".

قال ابن كثير: "{خاسئين}، أي: ذليلين حقيرين مهانين".

وفي قوله تعالى: {خاسئين} [البقرة:٦٥]، أربعة أقوال:

أحدها: أن معناه: مبعدين. ومنه: خَسَأْتُ الكلب أخسؤه خَسْئًا، أي بَاعدته وطردْته. قاله الزجاج.

والثاني: أن معناه: أذلة صاغرين، وهذا قول أبي العالية، والربيع، وروي عن مجاهد وقتادة وأبي مالك نحو ذلك.

والثالث: معناه: صاغرين. قاله مجاهد.

والرابع: أن معنى: خاسئا، أي: ذليلًا. قاله ابن عباس.

قال الطبري: في معنى {الخاسئين}: "أي: مبعدين من الخير أذلاء صغراء"، وبالتالي إن جميع الأقوال الثلاثة ضمن المعنى الصحيح. والله تعالى أعلم.

و «الخاسئ»:"المبعد المطرود، كما يخسأ الكلب يقال منه: " خسأته أخسؤه خسأ وخسوءا، وهو يخسأ خسوءا. قال: ويقال:"خسأته فخسأ وانخسأ". ومنه قول الراجز:

كالكلب إن قلت له اخسأ انخسأ

يعني: إن طردته انطرد ذليلا صاغرا".

وأنشد الفراء:

وَإذا زَجَرْتُ الْكَلْبَ قُلْتُ اخْسَأْ لَهُ … وَالْكَلْبُ مِثْلُكَ ياخُرَيْمُ سَوَاءُ

وأنشد ابن الأنباري لعمران بن حطان:

لاَ تَجْعَلَنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْزِلِي … يَا رَبِّ مَنْزِلَ خَاسِئٍ مَدْحُورِ

=

قال قتادة: "فصارُوا قردةً لها أذناب، تعاوى، بعدما كانوا رجالا ونساءً".

عن ابن عباس: "فجعل الله منهم القردة والخنازير. فزعم أن شباب القوم صارُوا قردةً، وأن المشيخة صاروا خنازيرَ".

قال عطاء: "افترقت ثلاث فرق. فرقة أكلت، وفرقة اعتزلت ولم تنه، وفرقة نهت ولم تعتزل فنودي الذين اعتدوا في السبت ثلاثة أصوات نودوا: يا أهل القرية فانتبهت طائفة ثم نودوا: يا أهل القرية فانتبهت طائفة أكثر من الأولى، ثم نودوا: يا أهل القرية فانتبه الرجال والنساء والصبيان فقال الله لهم: كونوا قردة خاسئين فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان ألم ننهكم؟ فيقولون برءوسهم، أي: بلى".

وفي رواية أخرى عن عطاء: "لما كان في جوف الليل نودي: يا أهل القرية فلما انتبهوا من نومهم ثم نودي: يا أهل القرية فلبسوا ثيابهم وبرزوا من بيوتهم ثم نودي: يا أهل القرية كونوا قردة خاسئين فمسخوا قردة".

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [الأعراف: ١٦٦]، على وجهين:

أحدهما: أنهم مُسِخُوا قردةً، فصاروا لأجل اعتدائهم في السبت في صورة القردة المخلوقين من قبل، في الأيام الستة. قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدي.

قال ابن عباس: "لم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل".

والثاني: أنهم لم يمسخوا قردة، وإنما مسخت قلوبهم، وهو مَثَلَ ضربه الله لهم، كما قال تعالى: {كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} [الجمعة:٥]. قاله مجاهد. واعترض عليه الطبري وابن كثير.

وقال ابن كثير:"هذا قول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره،

=

=

قال الله تعالى: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ} الآية [المائدة: ٦٠].

وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس: {فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [البقرة:٦٥]، فجعل الله منهم القردة والخنازير، فزعم أن شباب القوم صاروا قردة والمشيخة صاروا خنازير.

قلت: والصحيح في هذه المسألة: أن مسخهم قرودا، إنما كان معنويًا لا صوريًا خلاف ما ذهب إليه مجاهد، رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ورجحه ابن كثير.

قال الشنقيطي: القردة: جمع قرد، وهو الحيوان المعروف، وهو من أخس الحيوانات، والدليل على أنه من أخس الحيوانات أن الله مسخ في صورته من أراد إذلالهم وإهانتهم وصغارهم، وهذا معروف أن القرد من أخس الحيوانات.

* ذكر الله هذه القصة في سورة البقرة مختصرة قال تعالى (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ. فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ).

- قال الرازي: المقصود من ذكر هذه القصة أمران:

الأول: إظهار معجزة محمد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فإن قوله (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ) كالخطاب لليهود الذين كانوا في زمان محمد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فلما أخبرهم محمد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عن هذه الواقعة مع أنه كان أميًا لم يقرأ ولم يكتب ولم يخالط القوم دل ذلك على أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إنما عرفه من الوحي.

الثاني: أنه تعالى لما أخبرهم بما عامل به أصحاب السبت فكأنه يقول لهم: أما تخافون أن ينزل عليكم بسبب تمردكم ما نزل عليهم من العذاب فلا تغتروا بالإمهال الممدود لكم.

- قوله تعالى (فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا) اختلف في مرجع الضمير على أقوال:

=

=

قيل: العقوبة، وقيل: القردة، وقيل: القرية، ورجحه ابن كثير، وقال: والصحيح أن الضمير عائد على القرية، أي فجعل الله هذه القرية والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم.

(نَكَالًا) أي عاقبناها عقوبة فجعلناها عبرة.

(لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا) اختلف العلماء في المراد في قوله: بين يديها وما خلفها، والصحيح: بين يديها أي من بحضرتها من القرى يبلغهم خبرها وما حل بها كما قال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) فجعلهم عبرة ونكالًا لمن في زمانهم، وما خلفها: من يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم.

(وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) المراد بالموعظة هنا الزاجر، أي جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم.

(فائدة): اختلف العلماء في الفرقة الساكتة في هلاكهم ونجاتهم؟

- قال السعدي: وأما الفرقة الأخرى التي قالت للناهين (لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ) فاختلف المفسرون في نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من الناجين، لأن اللّه خص الهلاك بالظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون.

فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، فاكتفوا بإنكار أولئك، ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم (لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا) فأبدوا من غضبهم عليهم، ما يقتضي أنهم كارهون أشد الكراهة لفعلهم، وأن اللّه سيعاقبهم أشد العقوبة.

- وقال ابن كثير: وسكت عن الساكتين، لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا

=

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧).

{وَإِذْ تَأَذَّنَ} أَعْلَمَ {رَبّك لَيَبْعَثَن عَلَيْهِمْ} أَيْ الْيَهُود {إلَى يَوْم الْقِيَامَة مَنْ يَسُومهُمْ سُوء الْعَذَاب} بِالذُّلِّ وَأَخْذ الْجِزْيَة فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ سُلَيْمَان وَبَعْده بُخْتَنَصَّرَ فَقَتَلَهُمْ وَسَبَاهُمْ وَضَرَبَ عَلَيْهِمْ الْجِزْيَة فَكَانُوا يُؤَدُّونَهَا إلَى الْمَجُوس إلَى أَنْ بَعَثَ نَبِيّنَا ﷺ فَضَرَبَهَا عَلَيْهِمْ {إنَّ رَبّك لَسَرِيع الْعِقَاب} لِمَنْ عَصَاهُ {وَإِنَّهُ لَغَفُور} لِأَهْلِ طَاعَته {رَحِيم} بِهِمْ(١).

=

يستحقون مدحًا فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيمًا فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم.

(١) قوله تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} [الأعراف: ١٦٧]، أي: "واذكر أيها الرسول- حين أعلم ربك ليسلطنَّ على اليهود إلى قيام الساعة من يذيقهم أسوأ العذاب بسبب عصيانهم ومخالفتهم أمر الله واحتيالهم على المحارم".

قال الطبري: "يعني: أعلم ربك ليبعثن على اليهود من يسومهم سوء العذاب. قيل: إن ذلك، العربُ، بعثهم الله على اليهود، يقاتلون من لم يسلم منهم ولم يعط الجزية، ومن أعطى منهم الجزية كان ذلك له صغارًا وذلة".

قال ابن كثير: "{تَأَذَّنَ} تَفَعَّل من الإذن أي: أعلم، قاله مجاهد. وقال غيره: أمر. وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا تُلُقِّيَت باللام في قوله: {لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ} أي: على اليهود {إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} أي: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم. ويقال: إن موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، ضرب عليهم الخراج سبع سنين - وقيل: ثلاث عشرة

=

سنة، وكان أول من ضرب الخراج. ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين والكلدانيين، ثم صاروا في قهر النصارى وإذلالهم وإياهم، أخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام، ومحمد، عليه أفضل الصلاة والسلام، فكانوا تحت صفاره وذمته يؤدون الخراج والجزى".

أخرج الطبري عن مجاهد في قول الله: " {وإذ تأذن ربك}، قال: أمَرَ ربك".

وأخرج ابن ابي حاتم عن مجاهد قوله: " {وإذ تأذن ربك}، قال: قال ربك".

وروي عن سفيان الثوري مثل ذلك.

قال الطبري: "يعني بقوله: «أذِن»، أعلم".

قال أبو عبيدة: "{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ}، مجازه: وتأذن ربك، مجازه: أمر وهو من الإذن وأحلّ وحرّم ونهى".

قال السدي: "يقول: إن ربك يبعث على بني إسرائيل العرب، فيسومونهم سوء العذاب، يأخذون منهم الجزية ويقتلونهم".

عن ابن عباس قوله: " {وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب}، قال: هي الجزية، والذين يسومونهم: محمد ﷺ وأمّته، إلى يوم القيامة".

قال قتادة: "فبعث الله عليهم هذا الحيَّ من العرب، فهم في عذاب منهم إلى يوم القيامة".

عن سعيد بن جبير: " {وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب}، قال: هم أهل الكتاب، بعث الله عليهم العرب يجبُونهم الخراجَ إلى يوم القيامة، فهو سوء العذاب. ولم يجب نبيٌّ الخراجَ قطُّ إلا مُوسى ﷺ ثلاث عشرة سنةً، ثم أمسك، وإلا النبي ﷺ".

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما شرح ههنا بعض مصالح أعمال اليهود وقبائح

=
أفعالهم ذكر في هذه الآية أنه تعالى حكم عليهم بالذل والصغار إلى يوم القيامة، قال سيبويه: أذن أعلم.

قال القرطبي: ومعنى (يَسُومُهُمْ) يذيقهم؛ قيل: المراد بُخْتَنَصّر، وقيل: العرب، وقيل: أُمّة محمد ﷺ وهو أظهر؛ فإنهم الباقون إلى يوم القيامة.

قال ابن عاشور: قوله تعالى (يسومهم سوء العذاب) معناه ما داموا على إعراضهم وعنادهم وكونهم أتباع ملة اليهودية مع عدم الوفاء بها، فإذا أسلموا وآمنوا بالرسول النبي الأمي فقد خرجوا عن موجب ذلك التأذنُ ودخلوا فيما وعد الله به المسلمين.

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ} [الأعراف: ١٦٧]، أي:". إن ربك -أيها الرسول- لسريع العقاب لِمَن استحقه بسبب كفره ومعصيته".

قال ابن كثير: "أي: لمن عصاه وخالف أمره وشرعه".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: إن ربك يا محمد، لسريعٌ عقابه إلى من استوجَب منه العقوبة على كفره به ومعصيته".

قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأعراف: ١٦٧]، أي: "وإنه لغفور عن ذنوب التائبين، رحيم بهم".

قال ابن كثير: "أي: لمن تاب إليه وأناب. وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرا؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف".

قال الطبري: "يقول: وإنه لذو صفح عن ذنوب من تاب من ذنوبه، فأناب وراجع طاعته، يستر عليها بعفوه عنها، {رحيم}، له، أن يعاقبه على جرمه بعد توبته منها، لأنه يقبل التوبة ويُقِيل العَثْرة".

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨).

{وَقَطَّعْنَاهُمْ} فَرَّقْنَاهُمْ {فِي الْأَرْض أُمَمًا} فِرَقًا {مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ} نَاس {دُون ذَلِكَ} الْكُفَّار وَالْفَاسِقُونَ {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ} بِالنِّعَمِ {وَالسَّيِّئَات} النِّقَم {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} عن فسقهم.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩).

{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدهمْ خَلْف وَرِثُوا الْكِتَاب} التَّوْرَاة عَنْ آبَائِهِمْ {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى} أَيْ حُطَام هَذَا الشَّيْء الدَّنِيء أَيْ الدُّنْيَا مِنْ حَلَال وَحَرَام {وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا} مَا فَعَلْنَاهُ {وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَض مِثْله يَأْخُذُوهُ} الْجُمْلَة حَال أَيْ يَرْجُونَ الْمَغْفِرَة وَهُمْ عَائِدُونَ إِلَى مَا فَعَلُوهُ مُصِرُّونَ عَلَيْهِ وَلَيْسَ فِي التَّوْرَاة وَعْد الْمَغْفِرَة مَعَ الْإِصْرَار {أَلَمْ يُؤْخَذ} اسْتِفْهَام تَقْرِير {عَلَيْهِمْ مِيثَاق الْكِتَاب} الْإِضَافَة بِمَعْنَى فِي {أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى الله إِلَّا الْحَقّ وَدَرَسُوا} عطف على يؤخذ قرأوا {مَا فِيهِ} فَلِمَ كَذَبُوا عَلَيْهِ بِنِسْبَةِ الْمَغْفِرَة إِلَيْهِ مَعَ الْإِصْرَار {وَالدَّار الْآخِرَة خَيْر لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} الْحَرَام {أَفَلَا يَعْقِلُونَ} بِالْيَاءِ وَالتَّاء أَنَّهَا خَيْر فَيُؤْثِرُونَهَا عَلَى الدُّنْيَا.

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠).

{وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف {بِالْكِتَابِ} مِنْهُمْ {وَأَقَامُوا

الصَّلَاة} كَعَبْدِ الله بْن سَلَام وَأَصْحَابه {إِنَّا لَا نُضِيع أَجْر الْمُصْلِحِينَ} الْجُمْلَة خَبَر الَّذِينَ وَفِيهِ وَضَعَ الظَّاهِر مَوْضِع الْمُضْمَر أَيْ أَجْرهمْ(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا} [الأعراف: ١٦٨].

يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أممًا، أي: طوائف وفرقًا، كما قال تعالى (وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وفرّقنا بني إسرائيل في الأرض جماعات شتى متفرِّقين".

قال ابن كثير: "يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أمما، أي: طوائف وفرقًا، كما قال تعالى {وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا} [الأسراء: ١٠٤].

قال ابن عباس: "في كل أرض يدخلها قومٌ من اليهود".

قال الرازي: ومعنى (قطعناهم) أي فرقناهم تفريقًا شديدًا، فلذلك قال بعده (فِي الأرض أُمَمًا) وظاهر ذلك أنه لا أرض مسكونة إلا ومنهم فيها أمة، وهذا هو الغالب من حال اليهود، ومعنى قطعناهم، فإنه قلما يوجد بلد إلا وفيه طائفة منهم.

قوله تعالى: {مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ} [الأعراف: ١٦٨]، أي: "منهم القائمون بحقوق الله وحقوق عباده".

قيل: المراد القوم الذين كانوا في زمن موسى ﵇ لأنه كان فيهم أمة يهدون بالحق.

وقيل: يريد الذين أدركوا النبي ﷺ وآمنوا به.

قال مجاهد: "وهم مسلمو أهل الكتاب".

قال سعيد بن جبير: "من أمة محمد ﷺ".

قال الطبري: "يقول: من هؤلاء القوم الذين وصفهم الله من بني إسرائيل =

=

{الصالحون}، يعني: من يؤمن بالله ورسله".

قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ} [الأعراف: ١٦٨]، أي: "ومنهم المقصِّرون الظالمون لأنفسهم".

قال مجاهد: "اليهود".

قال سعيد بن جبير: "من لم يؤمن بمحمد ﷺ".

قال الطبري: "ومنهم دون الصالح. وإنما وصفهم الله جل ثناؤه بأنهم كانوا كذلك قبل ارتدادِهم عن دينهم، وقبل كفرهم بربهم، وذلك قبل أن يبعث فيهم عيسى ابن مريم صلوات الله عليه".

قال ابن كثير: "أي: فيهم الصالح وغير ذلك، كما قالت الجن: {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا} [الجن: ١١].

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون قوله (وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك) من يكون صالحًا إلا أن صلاحه كان دون صلاح الأولين لأن ذلك إلى الظاهر أقرب.

قيل: أن قوله بعد ذلك: (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) يدل على أن المراد بذلك من ثبت على اليهودية وخرج من الصلاح.

قوله تعالى: {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأعراف: ١٦٨]، أي: "واختبرناهم أيضًا بالشدة في العيش والمصائب والرزايا؛ رجاء أن يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا من معاصيه".

قال الرازي: أي عاملناهم معاملة المبتلى المختبر بالحسنات، وهي النعم والخصب والعافية، والسيئات هي الجدب والشدائد، قال أهل المعاني: وكل واحد من الحسنات والسيئات يدعو إلى الطاعة، أما النعم فلأجل الترغيب، وأما النقم فلأجل الترهيب.

وقال ابن الجوزي: قوله تعالى (بالحسنات) وهي: الخير، والخصب، والعافية

=

=

(والسيئات) وهي: الجدب، والشر، والشدائد؛ فالحسنات والسيئات تحث على الطاعة، أما النعم فطلب الازدياد منها، وخوف زوالها، والنقمُ فلكشفها، والسلامة منها.

قال ابن كثير: "أي: اختبرناهم {بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ}، أي: بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبة، والعافية والبلاء، {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

قال الطبري: "يقول: واختبرناهم بالرخاء في العيش، والخفض في الدنيا والدعة، والسعة في الرزق، وهي {الحسنات} التي ذكرها جل ثناؤه، ويعني بـ {السيئات}، الشدة في العيش، والشظف فيه، والمصائب والرزايا في الأموال، {لعلهم يرجعون}، يقول: ليرجعوا إلى طاعة ربهم وينيبوا إليها، ويتوبوا من معاصيه".

عن مجاهد، قوله: " {وبلوناهم بالحسنات}، قال: الرخاء والعافية".

قال محمد بن كعب: "ابتلوا بالرخاء فلم يصبروا قال: {وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون}.

عن الحسن: "{لعلهم يرجعون}: لعلهم يتوبون".

قوله تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ} [الأعراف: ١٦٩]، أي: "فجاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم بَدَلُ سوء أخذوا الكتاب من أسلافهم".

(خلْف) بإسكان اللام يستعمل في الأشهر في الذم ومنه قول لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب.

والخلَف بفتح اللام يستعمل في الأشهر في المدح.

(وَرِثُوا الْكِتَابَ) قال المفسرون: هم اليهود، ورثوا كتاب الله فقرؤوه وعلموه، وخالفوا حكمه وأتَوْا محارمه مع دراستهم له، فكان هذا توبيخًا لهم وتقريعًا.

قال الطبري: "فتبدَّل من بعدهم بَدَل سوء، ورثوا كتاب الله فَعُلِّموه، وضيعوا

=

العمل به، فخالفوا حكمه".

قال ابن كثير: "يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح، خلف آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة هذا الكتاب وهو التوراة، وقال مجاهد: هم النصارى - وقد يكون أعم من ذلك".

قال مجاهد: "إي والله، لَخَلْفُ سَوْء ورِثوا الكتابَ بعد أنبيائهم ورسلهم، ورَّثهم الله وَعهِد إليهم، وقال الله في آية أخرى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ} [سورة مريم: ٥٩].

وروي عن مجاهد في قول الله: " {فخلف من بعدهم خلف}، قال: النصارى".

قال الطبري: "إنما وصف أنه خَلَف القومَ الذين قصّ قصصهم في الآيات التي مضت، خَلْف سوءٍ رديء، ولم يذكر لنا أنهم نصارى في كتابه، وقصتهم بقصص اليهود أشبه منها بقصص النصارى. وبعدُ، فإن ما قبل ذلك خبرٌ عن بني إسرائيل، وما بعده كذلك، فما بينهما بأن يكون خبرًا عنهم أشبه، إذ لم يكن في الآية دليل على صرف الخبر عنهم إلى غيرهم، ولا جاء بذلك دليل يوجب صحة القول به".

يقال منه: "هو خَلَف صِدْقٍ"، "وخَلْفُ سَوْءٍ"، وأكثر ما جاء في المدح بفتح "اللام"، وفي الذم بتسكينها، وقد تحرَّك في الذم، وتسكّن في المدح، ومن ذلك في تسكينها في المدح قول حسان:

لَنَا القَدَمُ الأُولَى إِلَيْكَ وَخَلْفُنَا لأَوَّلِنَا فِي طَاعَةِ اللهِ تَابِعُ

وإذا وُجّه إلى الفساد، مأخوذ من قولهم: "خَلَفَ اللبن"، إذا حمض من طُول تَركه في السقاء حتى يفسد، فكأنَّ الرجل الفاسد مشبَّهٌ به. وقد يجوز أن يكون منه قولهم: "خَلَفَ فم الصائم"، إذا تغيرت ريحه. وأما في تسكين "اللام" في الذمّ، فقول لبيد:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ

=

قوله تعالى: {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا} [الأعراف: ١٦٩]، أي: "يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا من دنيء المكاسب كالرشوة وغيرها؛ وذلك لشدة حرصهم ونَهَمهم ويقولون مع ذلك: إن الله سيغفر لنا ذنوبنا تمنيًا على الله الأباطيل".

قال ابن كثير: "أي: يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعَرَض الحياة الدنيا، ويسرفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه".

قال الطبري: "فيأخذون الرشوة فيه من عَرَض هذا العاجل {الأدنى}، يعني: الأقرب من الآجل الأبعد، ويقولون إذا فعلوا ذلك: إن الله سيغفر لنا ذنوبنا، تمنِّيًا على الله الأباطيل، كما قال جل ثناؤه فيهم: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} [سورة البقرة: ٧٩].

قال ابن عباس: "يقول: يأخذون ما أصابوا ويتركون ما شاءوا من حلال أو حرام، ويقولون: {سيغفر لنا}.

قال سعيد بن جبير: "يعملون الذنب، ثم يستغفرون الله".

عن مجاهد: " {يأخذون عرض هذا الأدنى} قال: ما أشرف لهم من شيء في اليوم من الدنيا حلالٌ أو حرام يشتهونه أخذوه، ويبتغون المغفرة، فإن يجدوا الغد مثلَه يأخذوه". وفي رواية "يتمنَّون المغفرة".

قال ابن زيد في قوله: " {يأخذون عرض هذا الأدنى}، قال: الكتاب الذي كتبوه، {ويقولون سيغفر لنا}، لا نشرك بالله شيئًا".

قال ابن الجوزي: وفي وصفه بالأدنى قولان.

أحدهما: أنه من الدُّنُوِّ.

والثاني: أنه من الدناءة.

=

=

قال الخازن: والمعنى أنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام على تبديل الكلام وتغييره، وذلك الذي يأخذونه من حطام الدنيا هو الشيء التافه الخسيس الحقير، لأن الدنيا بأسرها فانية حقيرة، والراغب فيها أحقر منها، فاليهود ورثوا التوراة وعلموا ما فيها وضيعوا العمل بما فيها وتركوه وأخذوا الرشا في الأحكام ويعلمون أنها حرام ثم إنهم مع إقدامهم على هذا الذنب العظيم يصرون عليه.

قال ابن عاشور: ومهد لذلك بأنهم ورثوا الكتاب ليدل على أنهم يفعلون ذلك عن علم لا عن جهل، وذلك أشد مذمة، كما قال تعالى (وأضله الله على علمٍ)، والعَرَض بفتح العين وفتح الراء الأمر الذي يزول ولا يدوم، ويراد به المال، ويراد به أيضًا ما يعرض للمرء من الشهوات والمنافع.

(وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا) يعني ذنوبنا فيتمنون على الله الأماني الباطلة الكاذبة.

قوله تعالى: {وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ} [الأعراف: ١٦٩]، أي: "وإن يأت هؤلاء اليهودَ متاعٌ زائلٌ من أنواع الحرام يأخذوه ويستحلوه، مصرِّين على ذنوبهم وتناولهم الحرام".

أحدهما: أن المعنى: لا يشبعهم شيء، فهم يأخذون لغير حاجة، قاله الحسن.

والثاني: أنهم أهل إصرار على الذنوب، قاله مجاهد.

قال الخازن: وهذا إخبار عن حرصهم على الدنيا وإصرارهم على الذنوب، والمعنى أنهم إذا أتاهم شيء من الدنيا أخذوه حلالًا كان أو حرامًا، ويتمنون على الله المغفرة وإن وجدوا من الغد مثله أخذوه.

قال الطبري: "يقول: وإن شرع لهم ذنبٌ حرامٌ مثله من الرشوة بعد ذلك، أخذوه واستحلوه ولم يرتدعوا عنه. يخبر جل ثناؤه عنهم أنهم أهل إصرار على ذنُوبهم، وليسوا بأهل إنابة ولا تَوْبة".

قال قتادة: "إن جاءهم حلال أو حرامٌ أخذوه".

=

=

عن سعيد بن جبير: "{وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه}، قال: ذنبٌ آخر، يعملون به".

عن مجاهد: "{وإن يأتهم عرض مثله}، لا يشغلهم شيء عن شيء ولا ينهاهم عن ذلك، كلما أشرف لهم شيء من الدنيا أكلوه، لا يبالون حلالا كان أو حرامًا".

قال ابن زيد في قوله: " {وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه}، يأتهم المحقّ برشوة فيخرجوا له كتاب الله، ثم يحكموا له بالرشوة. وكان الظالم إذا جاءهم برشوة أخرجوا له «المثنّاة»، وهو الكتاب الذي كتبوه، فحكموا له بما في «المثنّاة»، بالرشوة، فهو فيها محق، وهو في التوراة ظالم، فقال الله: {أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ} "

عن السدي قوله: " {فخلف من بعدهم خلف} إلى قوله: {ودرسوا ما فيه}، قال: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيًا إلا ارتشى في الحكم، وإن خيارهم اجتمعُوا، فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا، فجعل الرجل منهم إذا استُقْضِي ارتشى، فيقال له: ما شأنك ترتشي في الحكم؟ فيقول: سيغفر لي!

فيطعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع. فإذا مات، أو نزع، وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه، فيرتشي. يقول: وإن يأت الآخرين عرضُ الدنيا يأخذوه. وأما «عرض الأدنى»، فعرض الدنيا من المال".

قوله تعالى: {أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ} [الأعراف: ١٦٩]، أي: "ألم يؤخذ عليهم العهد المؤكد في التوراة أن يقولوا الحق ولا يكذبوا على الله؟.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: {ألم يؤخذ}، على هؤلاء المرتشين في أحكامهم، القائلين: {سيغفر الله لنا فعلنا هذا}، إذا عوتبوا على ذلك {ميثاقُ

=

=

الكتاب}، وهو أخذ الله العهود على بني إسرائيل، بإقامة التوراة، والعمل بما فيها. فقال جل ثناؤه لهؤلاء الذين قص قصتهم في هذه الآية، موبخًا على خلافهم أمرَه، ونقضهم عهده وميثاقه: ألم يأخذ الله عليهم ميثاق كتابه، ألا يقولوا على الله إلا الحق، ولا يُضيفوا إليه إلا ما أنزله على رسوله موسى ﷺ في التوراة، وأن لا يكذبوا عليه؟.

قال ابن كثير: "قال: فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها، ولا يتوبون منها.

عن ابن عباس: " {ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق}، قال: فيما يوجبون على الله من غُفران ذنوبهم التي لا يَزَالون يعودون فيها ولا يَتُوبون منها".

قوله تعالى: {وَدَرَسُوا مَا فِيهِ} [الأعراف: ١٦٩]، أي: "والحال أنهم درسوا ما في الكتاب وعرفوا ما فيه المعرفة التامة من الوعيد على قول الباطل والافتراء على الله".

قال الطبري: أي: "قرأوا ما فيه، يقول: ورثوا الكتاب فعلموا ما فيه ودرسوه، فضيعوه وتركوا العمل به، وخالفوا عهد الله إليهم في ذلك".

عن ابن زيد: "{ودرسوا ما فيه}، قال: علّموه، علّموا ما في الكتاب الذي ذكر الله، وقرأ: {بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} [سورة آل عمران: ٧٩].

قال ابن عاشور: والمعنى: أنهم قد أخذ عليهم الميثاق بأن لا يقولوا على الله إلاّ الحق، وهم عالمون بذلك الميثاق، لأنهم درسوا ما في الكتاب فبمجموع الأمرين قامت عليهم الحجة.

قال الشوكاني: والمعنى: أنهم تركوا العمل بالميثاق المأخوذ عليهم في الكتاب، والحال أن قد درسوا ما في الكتاب وعلموه، فكان الترك منهم عن علم لا عن

=

=
جهل، وذلك أشدّ ذنبًا وأعظم جرمًا.

قوله تعالى: {وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} [الأعراف: ١٦٩]، أي: "والآخرة خير للذين يتقون الله بترك الحرام".

يعني وما في الدار الآخرة مما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته العاملين بما أمرهم الله به من كتابه، ولم يغيروا ولم يبدلوا ولم يرتشوا في الأحكام (خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ) يعني يتقون الله ويخافون عقابه.

كما قال تعالى (والآخرة خير وأبقى).

وقال تعالى (وللآخرة خير لك من الأولى).

وقال تعالى (وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون).

قال الطبري: "يقول جل ثناؤه: وما في الدار الآخرة، وهو ما في المعادِ عند الله، مما أعدّ لأوليائه، والعاملين بما أنزل في كتابه، المحافظين على حدوده خير للذين يتقون الله، ويخافون عقابه، فيراقبونه في أمره ونهيه، ويطيعونه في ذلك كله في دنياهم".

قال ابن كثير: "يرغبهم تعالى في جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه، أي: وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه.

قوله تعالى: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأعراف: ١٦٩]، أي: "أفلا يعقل هؤلاء الذين يأخذون دنيء المكاسب أن ما عند الله خير وأبقى للمتقين؟.

والاستفهام للإنكار، أي: أفلا ينزجرون ويعقلون، والمراد أنهم لو كانوا عقلاء لما آثروا الفانية على الباقية.

قال الطبري: "يقول: أفلا يعقل هؤلاء الذين يأخذون عرض هذا الأدنى على أحكامهم، ويقولون: {سيغفر لنا}، أنَّ ما عند الله في الدار الآخرة للمتقين العادِلين
=

=

بين الناس في أحكامهم، خير من هذا العرض القليل الذي يستعجلونه في الدنيا على خلافِ أمر الله، والقضاء بين الناس بالجور؟.

قال ابن كثير: "يقول: أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعَرَض الدنيا عما عندي عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير؟.

قال ابن عطية: "و «العقل»: الإدراك المانع من الخطأ مأخوذ منه عقال البعير، أي يمنعه من التصرف، ومنه المعقل أي موضع الامتناع".

قال ابن عثيمين: "و «"العقل» -هنا-: عقل الرشد، وليس عقل الإدراك الذي يناط به التكليف؛ لأن العقل نوعان: عقل هو مناط التكليف. وهو إدراك الأشياء، وفهمها.؛ وهو الذي يتكلم عليه الفقهاء في العبادات، والمعاملات، وغيرها؛ وعقل الرشد. وهو أن يحسن الإنسان التصرف.؛ وسمي إحسان التصرف عقلًا؛ لأن الإنسان عَقَل تصرفه فيما ينفعه".

والعَقْل:"يقال للقوّة المتهيّئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوّة عَقْلٌ. وإلى الأوّل أشار ﷺ بقوله: «ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل» ، وإلى الثاني أشار بقوله: «ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يردّه عن ردى» ، وهذا العقل هو المعنيّ بقوله: وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ [العنكبوت: ٤٣]، وكلّ موضع ذمّ الله فيه الكفّار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأوّل، نحو: وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ} [البقرة:١٧١]، إلى قوله: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ} [البقرة:١٧١]، ونحو ذلك من الآيات، وكلّ موضع رفع فيه التّكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى الأوّل. وأصل العَقْل: الإمساك والاستمساك".

والعقل أصله: المنع ، وعقل الإنسان هو "تمييزه الذي به فارق جميع الحيوان، سمي عقلًا لأنه يعقله أي يمنعه عن التورط في الهلكة، كما يعقل العقال البعير عن

=

=

ركوب رأسه، ومن هذا سميت الدية عقلًا لأنها إذا وصلت إلى ولي المقتول عقلته عن قتل الجاني، أي منعته".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ} [الأعراف: ١٧٠]، أي: "والذين يتمسَّكون بالكتاب، ويعملون بما فيه من العقائد والأحكام".

قال ابن الجوزي: وهذه الآية نزلت في مؤمني أهل الكتاب الذين حفظوا حدوده ولم يُحرِّفوه، منهم عبد الله بن سلام وأصحابه.

قال ابن كثير: "ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ، كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ}، أي: اعتصموا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره".

قال ابن زيد: "كتاب الله الذي جاء به موسى عليه السلام".

عن مجاهد قوله: " {والذين يمسكون بالكتاب}، من يهود أو نصارى".

عن الحسن قوله: " {والذين يمسكون بالكتاب}، قال: يعني: لأهل الإيمان منهم". عن الفرج قال: "سمعت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقول في قول الله: {والذين يمسكون بالكتاب} الذي جاء به موسى ﷺ".

وفي اختيار كلمة «يُمَسِّكُون» معنى زيادة «إِمْسَاك»، فلم يقل: «يَمْسِكُون»، لأن فإن الإنسان قد يتمسك ولا يستمسك. والله أعلم.

وقرأ عاصم وحده: «يُمْسِكُونَ»، بتخفيف الميم وتسكينها، من: أَمْسك يمسك.

قوله تعالى: {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} [الأعراف: ١٧٠]، أي: "ويحافظون على الصلاة بحدودها، ولا يضيعون أوقاتها".

قال الزهري: "إقامتها أن تصلي الصلاة لوقتها".

و «إقامة الصلاة»: هي:"أداؤها - بحدودها وفروضها والواجب فيها - على ما فُرِضَتْ عليه، كما يقال: أقام القومُ سُوقَهم، إذا لم يُعَطِّلوها من البَيع والشراء فيها"

=

=

، وكما قال الشاعر:

أَقَمْنَا لأَهْلِ الْعِرَاقَيْنِ سُوقَ الـ ـضِّرَاب فَخَامُوا وَوَلَّوْا جَمِيعَا.

قال السعدي: لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون الصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقام الصلاة، إقامتها ظاهرًا بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطنًا بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها.

- لم يأمر الله بالصلاة إلا بلفظ الإقامة، كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة) وقوله تعالى (والمقيمين الصلاة).

- إقامة الصلاة ليس مجرد أداؤها، وإنما المراد إقامتها بإدائها بتدبر وحضور قلب وخشوع، وهذه هي الصلاة التي قال الله عنها (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر).

فإن الله في هذه الآية علق حكم نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر بشرط إقامتها وليس فقط أداؤها، (والحكم المعلق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصه) فعلى قدر إقامة العبد لصلاته على قدر ما تؤثر فيه فتنهاه عن الفحشاء والمنكر، وبهذا يزول الإشكال الذي يورده البعض: وهو أن كثير من المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر.

- فإن قيل: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة، ومنها إقامة الصلاة فكيف أفردت بالذكر؟

قلنا: إظهارًا لعلو مرتبة الصلاة، وأنها أعظم العبادات بعد الإيمان.

- قال الخازن: قوله تعالى (وأقاموا الصلاة) يعني وداوموا على إقامتها في مواقيتها وإنما أفردها بالذكر وإن كانت الصلاة داخلة في التمسك بالكتاب تنبيهًا على عظم قدرها وأنها من أعظم العبادات بعد الإيمان بالله وبرسوله.

=

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١).

{وَ} اُذْكُرْ {إذْ نَتَقْنَا الْجَبَل} رَفَعْنَاهُ مِنْ أَصْله {فَوْقهمْ كَأَنَّهُ ظُلَّة وَظَنُّوا} أَيْقَنُوا {أَنَّهُ وَاقِع بِهِمْ} سَاقِط عَلَيْهِمْ بِوَعْدِ الله إيَّاهُمْ بِوُقُوعِهِ إنْ لَمْ يَقْبَلُوا أَحْكَام التَّوْرَاة وَكَانُوا أَبَوْهَا لِثِقَلِهَا فَقَبِلُوا وَقُلْنَا لَهُمْ {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ} بِجِدٍّ وَاجْتِهَاد {وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ} بالعمل به {لعلكم تتقون}[1].

=

- وقال الشوكاني: وإنما وقع التنصيص على الصلاة مع كونها داخلة في سائر العبادات التي يفعلها المتمسكون بالتوراة، لأنها رأس العبادات وأعظمها، فكان ذلك وجهًا لتخصيصها بالذكر.

قوله تعالى: {إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ} [الأعراف: ١٧٠]، أي: "فإن الله يثيبهم على أعمالهم الصالحة، ولا يضيعها".

عن الحسن قوله: " {إنا لا نضيع أجر المصلحين}، قال: هي لأهل الإيمان منهم".

ولم يقل «إنا لا نضيع أجرهم»؛ فأفاد ثلاثة أمور:

أولا: الحكم بالإصلاح للذين يمسكون الكتاب، ويقيمون الصلاة.

ثانيا: أن الله آجرهم لإصلاحهم.

ثالثا: أن كل مصلح فله أجر غير مضاع عند الله تعالى.

(١) قوله تعالى: {وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ} [الأعراف: ١٧١]، أي: "اذكر أيها الرسول- حين اقتلعنا جبل الطور ورفعناه فوق رءوس بني إسرائيل".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر، يا محمد، إذ اقتلعنا الجبل فرفعناه فوق بني إسرائيل".

=

=

قال مجاهد: "كما تنتق الزُّبْدَة".

واختلف في معنى: {نَتَقْنَا}، على أقوال:

أحدها: زعزعناه، قاله ابن قتيبة.

قال ابن قتيبة: "وكان نتق الجبل أنه قطع منه شيء على قدر عسكر موسى فأظل عليهم. وقال لهم موسى: إما أن تقبلوا التوراة وإما أن يسقط عليكم".

والثاني: بمعنى جذبناه، والنتق: الجذب ومنه قيل للمرأة الولود ناتق، حكاه الطبري عن بعضهم، ومنه قول النابغة:

لم يحرموا حسن الغذاء وأمهم طفحت عليك بناتقٍ مذكار.

واختلف في سبب تسميتها ناتقًا، فقيل لأن: خروج أولادها بمنزلة الجذب. وقيل: لأنها تجذب ماء الفحل تؤديه ولدًا.

والثالث: معناه: ورفعناه عليهم من أصله. قاله أبو عبيدة، والفراء، ومنه قول العجاج:

يَنْتُقُ أَقْتَادَ الشَّلِيلِ نَتْقَا

أي: يرفعه عن ظهره، ومنه قول رؤبه بن العجاج:

وَنَتَقُوا أَحْلامَنَا الأَثَاقِلا

قال الفراء: "رفع الجبل على عسكرهم فرسخا في فرسخ".

قال الواحدي: "وأحسن العبارات وأجمعها أن يقال: معنى {نَتَقْنَا الْجَبَلَ}: رفعناه باقتلاع له من أصله".

وهذا الذي ذكره الواحدي هو الظاهر واختيار أكثرهم.

وقال أبو حيان: "النتق الجذب بشدة وفسره بعضهم بغايته وهو القلع".

وقال ابن عطية: "أي: اقتلعنا ورفعنا. وقد جاء في القرآن بدل هذه اللفظة في هذه القصة بعينها {وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ} [البقرة: ٦٣].

=

=

واختلف في سبب رفع الجبل عليهم هل كان انتقامًا منهم أو إنعامًا عليهم؟ على قولين:

أحدهما: أنه كان انتقامًا بالخوف الذي دخل عليهم.

والثاني: كان إنعامًا لإقلاعهم به عن المعصية.

والمراد بالجبل الطور كما قال تعالى في سورة البقرة (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ) يقول تعالى مذكرًا بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له ، واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق، رفع الجبل فوق رؤوسهم.

- **قال الآلوسي**: تذكير بنعمة أخرى، لأنه سبحانه إنما فعل ذلك لمصلحتهم، والظاهر من الميثاق هنا العهد، ولم يقل: مواثيقكم، لأن ما أخذ على كل واحد منهم أخذ على غيره فكان ميثاقًا واحدًا ولعله كان بالانقياد لموسى عليه السلام.

- فالطور هو الجبل كما فسره به في الأعراف في قوله تعالى (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ). نتقنا: أي رفعنا.

- قال الشوكاني: والطور: اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، وأنزل عليه التوراة فيه.

- قال أبو حيان: سبب رفعه امتناعهم من دخول الأرض المقدّسة، أو من السجود، أو من أخذ التوراة والتزامها.

- قال في التسهيل: لما جاء موسى بالتوراة أبوا أن يقبلوها فرفع الجبل فوقهم وقيل لهم: إن لم تأخذوها وقع عليكم.

- **قال ابن الجوزي**: وجمهور العلماء على أنه إنما رفع الجبل عليهم لإبائهم التوراة.

=

=

- قيل: إن الله سبحانه اخترع وقت سجودهم الإيمان، لا أنهم آمنوا كرهًا، وقلوبهم غير مطمئنة، قاله ابن عطية.

وقيل: أكرههم الله على الإيمان، فآمنوا مكرهين، ورفع عنهم العذاب بهذا الإيمان، وهو نظير ما ثبت في شرعنا من رفع السيف عمن تكلم بكلمة الإسلام، قاله الشوكاني.

قوله تعالى: {كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ} [الأعراف: ١٧١]، أي: "كأنه سحابة تظلهم".

قال الطبري: أي: "كأنه ظلة غمام من الظلال".

قوله تعالى: {وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ} [الأعراف: ١٧١]، أي: "وأيقنوا أنه واقع بهم إن لم يقبلوا أحكام التوراة".

وفي قوله تعالى: {وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ} [الأعراف: ١٧١]، وجهان:

أحدهما: أنه غلب في نفوسهم انه واقع بهم على حقيقة الظن.

والثاني: أنهم تيقنوه لما عاينوا من ارتفاعه عليهم، قاله الحسن.

قوله تعالى: {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ} [الأعراف: ١٧١]، أي: "وقلنا لهم خذوا التوراة بجد وعزيمة".

قال قتادة: "أي: بجدّ".

قال الطبري: أي: "قلنا لهم: {خذوا ما آتيناكم بقوة}، من فرائضنا، وألزمناكم من أحكام كتابنا، فاقبلوه، اعملوا باجتهاد منكم في أدائه، من غير تقصير ولا توان".

وحكي الماردوي في قوله: "{بِقُوَّةٍ} :بنية صادقة وطاعة خالصة".

قال ابن عباس: "فقال: {خذوا ما آتيناكم بقوة}، وإلا أرسلته عليكم".

قال ابن عباس: "فقال لهم موسى: خذوا ما آتيناكم بقوة"، يقول: من العمل بالكتاب، وإلا خَرَّ عليكم الجبل فأهلككم! فقالوا: بل نأخذ ما آتانا الله بقوّة! ثم نكثُوا بعد ذلك".

=

=

وعن ابن عباس ايضا: "إنّي لأعلم خَلْقِ الله لأيِّ شيء سجدت اليهود على حَرْفِ وُجوههم: لما رفع الجبل فوقهم سَجَدُوا، وجعلوا ينظرون إلى الجبل مخافةَ أن يقع عليهم. قال: فكانت سجدةً رضيها الله، فاتخذوها سُنَّة".

قال ابن جريج:"كانوا أبوا التوراة أن يقبلوها أو يؤمنوا بها، {خذوا ما آتيناكم بقوّة}، قال: يقول: لتؤمنن بالتوراة ولتقبلُنَّها، أو ليقعَنَّ عليكم".

قوله تعالى: {وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأعراف: ١٧١]، أي: "اذكروا ما فيه بالعمل واعملوا به لتكونوا في سلك المتقين".

قال الطبري: "يقول ما في كتابنا من العهود والمواثيق التي أخذنا عليكم بالعمل بما فيه، كي تتقوا ربكم، فتخافوا عقابه بترككم العمل به إذا ذكرتم ما أخذ عليكم فيه من المَواثيق".

قال قتادة: "جبل نزعه الله من أصله ثم جعله فوق رؤوسهم، فقال: لتأخُذُنّ أمري، أو لأرمينَّكم به!"".

عن أبي بكر بن عبد الله قال: "هذا كتاب الله، أتقبلونه بما فيه، فإن فيه بيانُ ما أحلَّ لكم وما حرَّم عليكم، وما أمركم وما نهاكم! قالوا: انشُرْ علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها يسيرةً وحدودها خفيفةً، قبلناها! قال: اقبلوها بما فيها! قالوا: لا حتى نعلم ما فيها، كيف حدودها وفرائضها! فراجعوا موسى مرارًا، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء، حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربِّي؟ "لئن لم تقبلوا التوراةَ بما فيها لأرمينَّكم بهذا الجبل". قال: فحدثني الحسن البصريّ، قال: لما نظروا إلى الجبل خرَّ كلُّ رجل ساجدًا على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليُمْنَى إلى الجبلِ، فَرَقًا من أن يسقط عليه، فلذلك ليس في الأرض يهوديٌّ يسجدُ إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التي رُفِعت عنا بها العقوبة قال أبو بكر: فلما نشر الألواح فيها كتاب الله

=

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) .

{وَ} اذْكُرْ {إِذْ} حِين {أَخَذَ رَبّك مِنْ بَنِي آدَم مِنْ ظُهُورهمْ} بَدَل اشْتِمَال مِمَّا قبله بإعادة الجار {ذرياتهم} بِأَنْ أَخْرَجَ بَعْضهمْ مِنْ صُلْب بَعْض مِنْ صُلْب آدَم نَسْلًا بَعْد نَسْل كَنَحْوِ مَا يَتَوَالَدُونَ كَالذَّرِّ بِنُعْمَانَ يَوْم عَرَفَة وَنَصَبَ لَهُمْ دَلَائِل عَلَى رُبُوبِيَّته وَرَكَّبَ فِيهِمْ عَقْلًا {وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسهمْ} قَالَ {أَلَسْت بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} أنت ربنا {شهدنا} بذلك والإشهاد ل {أَنْ} لَا {يَقُولُوا} بِالْيَاءِ وَالتَّاء فِي الْمَوْضِعَيْنِ أَيْ الْكُفَّار {يَوْم الْقِيَامَة إنَّا كُنَّا عَنْ هذا} التوحيد {غافلين} لا نعرفه.

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣).

{أو يقولوا إنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْل} أَيْ قَبْلنَا {وَكُنَّا ذُرِّيَّة مِنْ بَعْدهمْ} فَاقْتَدَيْنَا بِهِمْ {أَفَتُهْلِكنَا} تُعَذِّبنَا {بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} مِنْ آبَائِنَا بِتَأْسِيسِ الشِّرْك الْمَعْنَى لَا يُمْكِنهُمْ الِاحْتِجَاج بِذَلِكَ مَعَ إشْهَادهمْ عَلَى أَنْفُسهمْ بِالتَّوْحِيدِ وَالتَّذْكِير بِهِ عَلَى لِسَان صَاحِب الْمُعْجِزَة قَائِم مَقَام ذِكْره فِي النفوس.

وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤).

=

كتبَه بيده، لم يبقَ على وجه الأرض جبلٌ ولا شجرٌ ولا حجرٌ إلا اهتزّ، فليس اليوم يهوديّ على وجه الأرضِ صغيرٌ ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتزّ، ونَفَضَ لها رأسَه".

{وَكَذَلِكَ نُفَصِّل الْآيَات} نُبَيِّنهَا مِثْل مَا بَيَّنَّا الْمِيثَاق لِيَتَدَبَّرُوهَا {وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} عَنْ كُفْرهمْ(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} [الأعراف: ١٧٢]، أي: "واذكر -أيها الرسول- إذ استخرج ربك أولاد آدم من أصلاب آبائهم".

في معنى هذه الآية قولان:

القول الأول: أن أخذ الذرية معناه: إيجادهم في الدنيا قرنًا بعد قرن.

وأما إشهادهم على أنفسهم فمعناه: أن الله جل وعلا نصب لبني آدم في خلقه الأدلة القاطعة الدالة على ربوبيته ووحدانيته، فشهدت بها عقولهم، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقال لهم: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ} [الأعراف:١٧٢] وكأنهم قالوا بلسان حالهم: (بلى أنت ربنا).

ونظير هذه الآية في إطلاق الشهادة على شهادة لسان الحال قوله جل وعلا: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧)} [العاديات:٦ - ٧] أي: شهيد على ذلك بلسان حاله.

وعلى هذا القول تكون هذه الآية: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ} [الأعراف:١٧٣] من باب التمثيل، كما في قوله جل وعلا: {فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت:١١].

- وهذا قول: بعض المفسرين كالزمخشري - والرازي - والبيضاوي - وأبي حيان - والقاسمي - ومحمد رشيد رضا.

القول الثاني: أن معنى الآية هو: أن الله جل وعلا أخرج ذرية آدم من صلبه، وصلب أولاده وهم في صورة الذر، فأخذ عليهم العهد والميثاق بأنه ربهم وخالقهم، فأقروا بذلك والتزموه، فقالوا: (بلى أنت ربنا) بلسان المقال لا بلسان =

=

الحال.

وهذا قول: جمهور المفسرين.

ومن أدلة هذا القول: ما ثبت عن الرسول ﷺ: مما أورده الإمام الطحاوي فيما تقدم.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد ربَّك إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم، فقرَّرهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض شهادَتَهم بذلك، وإقرارَهم به".

قوله تعالى: {وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا} [الأعراف: ١٧٢]، أي:"وقررهم بتوحيده بما أودعه في فطرهم من أنه ربهم وخالقهم ومليكهم، فأقروا له بذلك".

قال ابن كثير: "يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه".

قال محمد بن كعب القرظي: "أقرَّت الأرواح قبلَ أن تُخْلق أجسادها".

أُختلف في الذين أخرجهم وأخذ ذلك عليهم على قولين:

أحدهما: أنه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد وجعل فيها من المعرفة ما علمت به من خاطبها.

واختلف من قال بهذا هل كان ذلك قبل نزوله إلى الأرض على قولين:

أحدهما: أنه كان في الجنة قبل هبوطه إلى الأرض.

والثاني: أنه فعل ذلك بعد هبوطه إليها.

والقول الثاني: في الأصل أنه خلق الأرواح والأجساد معًا وذلك في الأرض عند جميع من قال بهذا التأويل.

=

=

فعلى هذا فيه قولان:

أحدهما: أنه أخرجهم كالذر وألهمهم هذا فقالوه، قال الكلبي ومقاتل: وذلك أن الله مسح ظهر آدم بين مكة والطائف فخرج من صفحة ظهره اليمنى ذرية كالذر بيض، فهم أصحاب الميمنة. وخرج من صفحة ظهره اليسرى ذرية كالذر سود، فهم أصحاب المشأمة، فلما شهدوا على أنفسهم جميعًا من آمن منهم ومن كفر أعادهم.

والثاني: أنه أخرج الذرية قرنًا بعد قرن وعصرًا بعد عصر. ذكره الماوردي.

وفي قوله تعالى: {وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِم أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ} [الأعراف: ١٧٢]، قولان:

أحدهما: هو أنه دلهم على أنفسهم بما شهدوه من قدرته، قاله بعض المتكلمين.

والثاني: هو إشهادهم على أنفسهم بما اعترفوا من ربوبيته ووحدانيته. وفيه على التأويل قولان:

أحدهما: أنه قال ذلك للآباء من بني آدم حين أخرج من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، ليعلمهم أنه خلق ذرياتهم بعد أن لم يكونوا كان هو الخالق لهم لأنهم كانوا ذرية مثلهم لمن تقدمهم كما صار هؤلاء ذرية لهم فاعترفوا بذلك حين ظهرت لهم الحجة، قاله ابن بحر.

والقول الثاني: أنه قال ذلك للذرية حين أخذهم من ظهور آبائهم، وهذا قول الأكثرين، فعلى هذا فيه قولان:

أحدهما: أنه قال لهم: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ} على لسان الأنبياء بعد أن كملت عقولهم.

والثاني: أنه جعل لهم عقولًا علموا بها ذلك فشهدوا به على أنفسهم.

وفي أصل الذرية قولان:

أحدهما: لأنهم يخرجون من الأصلاب كالذر.

=

=

والثاني: أنه مأخوذ من ذَرَأ الله الخلق إذا أحدثهم وأظهرهم.

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم}، قال:"أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس، فقال لهم: {ألست بربكم قالوا بلى}، قالت الملائكة: شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين}.

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: "أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنَعْمَان -يعني عرفة- فأخرج من صلبه كل ذرّية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذرِّ، ثم كلمهم قَبَلا، فقال: {ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا... } الآية، إلى {ما فعل المبطلون}.

وعن ابن عباس أيضا: "أول ما أهبط الله آدم، أهبطه بدَهْنَا، أرض بالهند، فمسح الله ظهره، فأخرج منه كل نَسَمة هو بارئها إلى أن تقوم الساعة، ثم أخذ عليهم الميثاق: {وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين}.

عن الحسن بن أبي الحسن، حدّثهم عن الأسود بن سريع من بني سعد قال: "غزوت مع رسول الله ﷺ أربعَ غزوات قال: فتناول القوم الذرّيّة بعد ما قَتَلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاشتدّ عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية؟»، فقال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناءَ المشركين؟ فقال: «إن خيارَكم أولادُ المشركين! ألا إنها ليست نسمة تُولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لِسَانها، فأبواها يهوِّدانها أو ينصرانها».

قال الحسن: والله لقد قال الله ذلك في كتابه، قال: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم}.

عن مسلم بن يسار الجهني: «أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: {وإذ أخذ

=

=

ربك من بني آدم من ظهورهم﴾، فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله خلق آدم ثم مسح على ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، فقال: "خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون". ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: "خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون". فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ قال: "إن الله إذا خلق العبدَ للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من عمل أهل الجنة، فيدخله الجنة؛ وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من عمل أهل النار، فيدخله النار"».

قال ابن عباس: "إن الله لما خلق آدم مسح ظهره، وأخرج ذريته كلّهم كهيئة الذر، فأنطقهم فتكلموا، وأشهدهم على أنفسهم، وجعل مع بعضهم النّور، وإنه قال لآدم: هؤلاء ذرّيتك آخذ عليهم الميثاق: أنا ربهم، لئلا يشركوا بي شيئًا، وعليَّ رزقهم. قال آدم: فمن هذا الذي معه النُّور؟ قال: هو داود. قال: يا رب كم كتبت له من الأجل؟ قال: ستين سنة. قال: كم كتبت لي؟ قال: ألف سنة، وقد كتبت لكل إنسان منهم كم يعمَّر وكم يلبث. قال: يا رب زده. قال: هذا الكتاب موضوعٌ فأعطه إن شئت من عمرك! قال: نعم. وقد جفَّ القلم عن أجل سائر بني آدم، فكتب له من أجل آدم أربعين سنة، فصار أجله مائة سنة. فلما عمر تسع مائة سنة وستين سنة جاءه ملك الموت؛ فلما رآه آدم قال: ما لك؟ قال له: قد استوفيت أجلك. قال له آدم: إنما عمرت تسعمئة وستين سنة، وبقي أربعون سنة. قال: فلما قال ذلك للملك، قال الملك: قد أخبرني بها ربي. قال: فارجع إلى ربك فاسأله! فرجع الملك إلى ربه، فقال: ما لك؟ قال: يا رب رجعت إليك لما كنت أعلم من تكرمتك إياه. قال الله: ارجع فأخبره أنه قد أعطى ابنه داود أربعين سنة".

عن هشام بن حكيم: "أن رجلا أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، أتبْدَأ الأعمال أم قد قُضِي القضاء؟ فقال رسول الله ﷺ: "إن الله أخذ ذرية آدم من

=

=

ظهورهم، ثم أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه، ثم قال: "هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار"، فأهل الجنة ميسَّرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ميسَّرون لعمل أهل النار".

قال ابن كثير: "فهذه الأحاديث دالة على أن الله، ﷻ، استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، كما تقدم.

ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فَطْرهم على التوحيد، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمَار المُجَاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سَرِيع. وقد فسر الحسن البصري الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ} ولم يقل: "من آدم"، {مِنْ ظُهُورِهِمْ} ولم يقل: "من ظهره" {ذُرِّيَّاتِهِمْ} أي: جعل نسلهم جيلا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ} [الأنعام: ١٦٥] وقال: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ} [النمل: ٦٢] وقال: {كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} [الأنعام: ١٣٣]. ثم قال: {وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} أي: أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالا وقالا. والشهادة تارة تكون بالقول، كما قال تعالى {قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا} [الأنعام: ١٣٠] الآية، وتارة تكون حالا كما قال تعالى: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ} [التوبة: ١٧] أي: حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكذلك قوله تعالى: {وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} [العاديات: ٧] كما أن السؤال تارة يكون بالقال، وتارة يكون بالحال، كما في قوله: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} [إبراهيم: ٣٤] قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا، أن جعل

=

=

هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره، ليكون حجة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول به كاف في وجوده، فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره. وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فُطِروا عليها من الإقرار بالتوحيد".

قال العلامة الألباني في الصحيحة (١٦٢٣): و في الحديث: " إن الله تعالى يقول للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا؟ فيقول: نعم. فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك بي. إذا عرف هذا فمن العجيب قول الحافظ ابن كثير عقب الأحاديث و الآثار التي سبقت الإشارة إلى أنه أخرجها: " فهذه الأحاديث دالة على أن الله ﷻ استخرج ذرية آدم من صلبه، و ميز بين أهل الجنة و أهل النار، و أما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، و في حديث عبد الله بن عمرو، و قد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدم. قلت: و ليس الأمر كما نفى، بل الإشهاد وارد في كثير من تلك الأحاديث:

الأول: حديث أنس هذا، ففيه كما رأيت قول الله تعالى: " قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئا. قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري " (٦/ ٢٨٤): " فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿و إذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم﴾ الآية. قلت: و لفظ حديث ابن عمرو الذي أعله ابن كثير بالوقف إنما هو: أخذ من ظهره... "، فأي فرق بينه و بين لفظ حديث أنس الصحيح؟!.

الثاني: حديث عمر بلفظ: (ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية....

=

=

الثالث: حديث أبي هريرة الصحيح:... مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة....

الرابع: حديث هشام بن حكيم: " إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم، ثم أشهدهم على أنفسهم....

الخامس: حديث أبي أمامة: " لما خلق الله الخلق و قضى القضية، أخذ أهل اليمين بيمينه، و أهل الشمال بشماله، فقال:... ألست بربكم، قالوا: بلى.... ففي ذلك رد على قول ابن القيم أيضا في كتاب " الروح " (ص ١٦١) بعد أن سرد طائفة من الأحاديث المتقدمة: " و أما مخاطبتهم و استنطاقهم و إقرارهم له بالربوبية و شهادتهم على أنفسهم بالعبودية - فمن قال من السلف فإنما هو بناء منه على فهم الآية، و الآية لم تدل على هذا بل دلت على خلافه. و قد أفاض جدا في تفسير الآية و تأويلها تأويلا ينافي ظاهرها بل و يعطل دلالتها أشبه ما يكون بصنيع المعطلة لآيات و أحاديث الصفات حين يتأولونها، و هذا خلاف مذهب ابن القيم رحمه الله الذي تعلمناه منه و من شيخه ابن تيمية، فلا أدري لماذا خرج عنه هنا لاسيما و قد نقل (ص ١٦٣) عن ابن الأنباري أنه قال: " مذهب أهل الحديث و كبراء أهل العلم في هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه و صلب أولاده و هم في صور الذر فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم و أنهم مصنوعون، فاعترفوا بذلك و قبلوا، و ذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبل عقلا حين خوطب، و كما فعل ذلك للبعير لما سجد، و النخلة حتى سمعت و انقادت حين دعيت. كما نقل أيضا عن إسحاق بن راهويه: " و أجمع أهل العلم أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، و أنه استنطقهم و أشهدهم. قلت: و في كلام ابن الأنباري إشارة لطيفة إلى طريقة الجمع بين الآية و الحديث و هو قوله: " إن الله أخرج ذرية آدم من صلبه و أصلاب أولاده.

=

=

و إليه ذهب الفخر الرازي في " تفسيره " (٤/ ٣٢٣) و أيده العلامة ملا على القاري في " مرقاة المفاتيح " (١/ ١٤٠ - ١٤١) و قال عقب كلام الفخر: " قال بعض المحققين: إن بني آدم من ظهره، فكل ما أخرج من ظهورهم فيما لا يزال إلى يوم القيامة هم الذين أخرجهم الله تعالى في الأزل من صلب آدم، و أخذ منهم الميثاق الأزلي ليعرف منه أن النسل المخرج فيما لا يزال من أصلاب بنيه هو المخرج في الأزل من صلبه، و أخذ منهم الميثاق الأول، و هو المقالي الأزلي، كما أخذ منهم فيما لا يزال بالتدريج حين أخرجوا الميثاق الثاني، و هو الحالي الإنزالي. و الحاصل أن الله تعالى لما كان له ميثاقان مع بني آدم أحدهما تهتدي إليه العقول من نصب الأدلة الحاملة على الاعتراف الحالي، و ثانيهما المقالي الذي لا يهتدي إليه العقل، بل يتوقف على توقيف واقف على أحوال العباد من الأزل إلى الأبد، كالأنبياء عليهم الصلاة و السلام، أراد عليه الصلاة و السلام أن يعلم الأمة و يخبرهم أن وراء الميثاق الذي يهتدون إليه بعقولهم ميثاقا آخر أزليا فقال (ما) قال من مسح ظهر آدم في الأزل و إخراج ذريته و أخذه الميثاق عليهم و بهذا يزول كثير من الإشكالات، فتأمل فيها حق التأمل. وجملة القول أن الحديث صحيح، بل هو متواتر المعنى كما سبق، و أنه لا تعارض بينه و بين آية أخذ الميثاق، فالواجب ضمه إليها، و أخذ الحقيقة من مجموعها وقد تجلت لك إن شاء الله مما نقلته لك من كلام العلماء، و بذلك ننجو من مشكلتين بل مفسدتين كبيرتين: الأولى: رد الحديث بزعم معارضته للآية. والأخرى: تأويلها تأويلا يبطل معناها، أشبه ما يكون بتأويل المبتدعة والمعتزلة. كيف لا و هم أنفسهم الذين أنكروا حقيقة الأخذ و الإشهاد و القول المذكور فيها بدعوى أنها خرجت مخرج التمثيل! و قد عز علي كثيرا أن يتبعهم في ذلك مثل ابن القيم و ابن كثير، خلافا للمعهود منهم من الرد على المبتدعة ما هو هو دون ذلك من التأويل....

=

=

ثم إنه ليلوح لي أننا و إن كنا لا نتذكر جميعا ذلك الميثاق الرباني و قد بين العلماء سبب ذلك - فإن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، و التي تشهد فعلا بأن الله هو الرب وحده لا شريك له،
إنما هي أثر ذلك الميثاق، و كأن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أشار إلى ذلك حين روى عن الأسود بن سريع مرفوعا: " ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة... " الحديث، قال الحسن عقبه: " و لقد قال الله ذلك في كتابه: (و إذ أخذ ربك...) الآية. أخرجه ابن جرير (١٥٣٥٣)، و يؤيده أن الحسن من القائلين بأخذ الميثاق الوارد في الأحاديث، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، و عليه فلا يصح أن يقال: إن الحسن البصري مع الخلف القائلين بأن المراد بالإشهاد المذكور في الآية إنما هو فطرهم على التوحيد، كما صنع ابن كثير. والله أعلم. انتهى.
وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الطحاوية: أن الميثاق الذي أخذ من آدم معناه على ما جاء في بعض الأحاديث: أن الله ؟ استخرج ذرية آدم من ظهره؛ استخرج صورهم، وأن هذا الاستخراج لأجل ظهور علم الله ؟ فيهم ولأجل أخذ العهد عليهم بما يشاؤه الله ؟.
والأحاديث في هذا متعارضة متنوعة مختلفة، لهذا يدخل أهل العلم تارة في بحث الميثاق دليل من القرآن على ذلك -وهو ليس بدليل في المسألة- وهو قول الله ؟ {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين (١٧٢) أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون (١٧٣) وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون} [الأعراف:١٧٢-١٧٤]، فيجعلون هذه الآية لأجل اختلاف الأحاديث وتنوع العبارات فيها يجعلونها من أدلة هذا الميثاق.

=

=

وسيأتي بيان أن هذا ليس بصحيح، وأن الميثاق الذي أخذه الله من آدم وذريته لا دليل عليه من القرآن.

الأحاديث تحتاج إلى عناية وإلى جمع، والاختلاف فيها كما ذكرنا والاضطراب والشذوذ كثير، فلعله أن يجمع ما صح من ذلك في الصحيحين ويطرح الضعيف أو المضطرب أو المختلف، مع أن كثيرا من العلماء دخل عليهم بعض تلك الألفاظ في بعض ولذلك اضطربت أقوالهم في المسألة.

هذا ذكر سبب الاضطراب في هذه المسألة العظيمة.

فإذا الميثاق أمر غيبي، والأخذ من آدم وذريته على ما جاء في الأحاديث حق وصواب، وأن هذا الميثاق لأجل مسألة القدر ولأجل العهد عليهم وهذا العهد أمر غيبي وليس متصلا بآية الأعراف.

[المسألة الثالثة]:

أن آية الأعراف التي ذكرنا وهي قوله {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم} لا يصح بها الاستدلال على ما أورده هنا الطحاوي في قوله (والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق).

والطحاوي في كتابه مشكل الآثار ذهب إلى تفسير الآية بالميثاق الذي أخذه ربنا من آدم وذريته، فجعل الآية مفسرة بما جاء في السنة من حديث عمر وحديث ابن عباس وحديث عبد الله بن عمرو في أن الميثاق مأخوذ من آدم وذريته تفسيرا لقول الله ؟ {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم} فقال إن التفسير الصحيح هو ما جاءت به السنة من أن آية الأعراف هذه تفسر بالميثاق وأن قوله {وإذ أخذ ربك من بني آدم} لأن آدم هو السبب فذكر المسبب وهم بنو آدم ولم يذكر آدم لأنه هو السبب كما قال ؟ {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين} [المؤمنون:١٢] ، ويعني بذلك آدم عليه السلام {ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا

=

=

للملائكة} [الأعراف:١١] ، يعني آدم عليه السلام.

ولأجل هذا المأخذ من الطحاوي ذكر الشارح ابن أبي العز عندك هذه الآية في أول بحثه على هذه المسألة لأجل أن الطحاوي نفسه ولأن كثيرين جدا من أهل العلم يوردون الآية دليلا.

وهذا الاستدلال من الطحاوي المصنف ومن عدد كثير من أهل العلم فيه نظر على هذه المسألة.

فالميثاق كما ذكرنا أمر غيبي، وأما الآية فليس فيها ذكر الميثاق بل قال الله ؟ فيها {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى} فهذا الذي في الآية:

١ - أن الله سبحانه أخذ من بني آدم ولم يأخذ من آدم.

٢ - وأخذ من الظهور على صفة الجمع ولم يأخذ من الظهر -ظهر آدم-.

٣ - وأنه أشهد بعضهم على بعض {وأشهدهم على أنفسهم} وهذا ليس موجودا في مسألة الميثاق.

٤ - وأن هذا الاشهاد هو متعلق بمسألة الربوبية {ألست بربكم} وأنهم أجابوا بـ {بلى} .

* لهذا نقول: إن الآية ليس فيها مسألة الميثاق، وإنما دلهم على أنها مسألة الميثاق وجعلوها دليلا على تلك المسألة ورتبوا عليها أشياء لأجل أمور:

الأمر الأول: أن الصيغة متشابهة {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم} وأنه جاء في الأدلة في السنة أن الله سبحانه أخرج ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر، فلما جاء هنا ذكر الظهر والاستخراج فجعلوا هذا تفسيرا لهذا كما ذكرت لكم من كلام الطحاوي ومن كلام كثيرين من أهل العلم من السلف والخلف.

الأمر الثاني: لأجل الربط ما بين الآية وبين مسألة الميثاق أنه قال {وأشهدهم على

=

=

أنفسهم} والإشهاد معناه الشهادة وهذا يقتضي أن يكون الاستخراج على ما جاء في الأحاديث وأن الله خاطبهم وأنهم ردوا عليه إلى آخره.

الأمر الثالث: هو أنهم أجابوه بالقول {ألست بربكم قالوا بلى} وهذا صريح في القول دون غيره.

* والجواب: أن هذه الأمور اشتبهت على من استدل بالآية على مسألة الميثاق، والآية ليست دليلا على مسألة الميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته، وأن تفسير الآية اختلف فيه على قولين:

١ - القول الأول:

هو الذي ذكرنا من أن الله استخرج من ظهر آدم ذريته إلى آخره، وجعلوا السنة تفسيرا لما جاء في الآية والآية دليلا، فلم يفرقوا بين هذا وهذا.

٢ - والقول الثاني:

وهو قول جماعات كثيرة من أهل العلم من جميع المذاهب والفرق والمحققين من أهل العلم أيضا فقالوا إن الآية تفسيرها هو: أن الله أخذ من بني آدم من ظهورهم يعني:

{أخذ} يعني خلق وجعل، فجعلهم يتناسلون، و (أخذ بعضهم من بعض) يعني أنشأ بعضهم من بعض كما قال سبحانه {كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين} [الأنعام:١٣٣].

(أنشأكم من ذرية قوم آخرين) يعني بما خلق من السبب من إراقة الماء في الأرحام إلى الحمل إلى الولادة.

فقوله {إذ أخذ ربك} لما ذكر الربوبية هنا في الأخذ دل على أن معنى الأخذ هنا الخلق.

قال {أخذ ربك} يعني خلق ربك.

=

=

(من ظهور بني آدم ذريتهم) هذا سبك الآية {من بني آدم من ظهورهم}.
فتكون {من ظهورهم} بدل بعض من كل من بني آدم.
{من ظهورهم} لأن أصلاب الرجال فيها الماء فقال {من بني آدم من ظهورهم ذريتهم}.
يعني خلق الذرية من الماء الذي في ظهور الآباء.
(أخذهم) يعني أخذ بعضهم من بعض وهذا يطلق من هذا وهذا يوجد بسبب هذا.
{وأشهدهم على أنفسهم} (أشهدهم) هنا الإشهاد في القرآن له معنيان:
- إشهاد بلسان المقال بأن يشهد بقوله (اشهد أنه كذا وكذا قولا).
- والثاني إشهاد بلسان الحال، يعني أن حالته تشهد.
والإشهاد هذا بلسان الحال بمعنى ما جاء في قوله تعالى {ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر} [التوبة:١٧] فشهودهم على أنفسهم بالكفر هو بلسان حالهم من تأليههم غير الله وعبادتهم لغير الله، أما هم فلا يقولون عن أنفسهم إنهم كفار؛ بل يقولون نحن الحنفاء.
وكذلك في قوله ؟ {إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد} [العاديات:٦] يعني شاهد بلسان حاله بأفعاله أنه كنود جاحد لنعمة الله ؟.
وهذا أيضا في مثل قول الله تعالى {كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم} [النساء:١٣٥]
هنا {شهداء لله ولو على أنفسكم} يعني بلسان الحال أو بلسان المقال.
فدل إذا على أن الإشهاد في القرآن له هذان المعنيان.
ولهذا لما كان الإشهاد على هذين المعنيين صار تفسير الآية {وأشهدهم على أنفسهم} أشهدهم على أنفسهم محتمل أن يكون بلسان المقال أو بلسان الحال.
ولما كان أول الآية فيه الأخذ بالخلق صار الإشهاد على الربوبية بلسان الحال لا

=

=

بلسان المقال.

{أشهدهم على أنفسهم} يعني بحالهم وما جعل الله ؟ فيهم، في كل الأنفس من دلائل ربوبيته ووحدانيته التي تؤدي وتدل على أنه سبحانه هو المستحق للعبادة وحده دونما سواه.

{وأشهدهم على أنفسهم} بما جعل في أنفسهم من العبرة والدلالة على أن الذي خلقهم وفطرهم وأوجدهم وأبدعهم وبرأهم هو الله ؟ كما قال سبحانه {أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون} [الطور:٣٥]، وكما قال {وفي أنفسكم أفلا تبصرون} [الذاريات:٢١].

فإذا تكون هنا الشهادة {أشهدهم على أنفسهم} يعني جعل حالهم وما هم مركبون عليه دال على الوحدانية وأيضا جعل بعضهم دليلا على بعض.

{أشهدهم على أنفسهم} يعني جعل هذه الذرية بعضها شاهدا على بعض بما أودع الله ؟ في الناس من دلائل وحدانيته وآثار ربوبيته ومعالم صنعته وبرءه ؟.

لهذا قاله سبحانه هنا {ألست بربكم} فذكر الربوبية التي هي الخلق وما يترتب عليه.

{ألست بربكم قالوا بلى} يعني أنهم جميعا جميع هذه الذرية إذا رجعوا لدلائل الوحدانية التي يشهدونها بلسان الحال فإنهم مقرون بالربوبية.

وهذا هو الذي ذكره الله ؟ عن جميع الفئات والمشركين في أنهم مقرون بالربوبية منكرون للإلهية.

{ألست بربكم قالوا بلى شهدنا} في قوله {بلى شهدنا} وجهان من الوقف:

- الوجه الأول: أن يوقف على {بلى} ثم تستأنف {شهدنا أن تقولوا يوم القيامة}.

- الوجه الثاني: أن يوقف على شهدنا {بلى شهدنا} ثم تقف، وتقول بعدها {أن

=

=

تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين}.

* والوجه الأول وهو أن يكون الوقف على {بلى} هذا أولى وأظهر في معنى الآية، {ألست بربكم قالوا بلى}.

{شهدنا} هذا من كلام بعضهم لبعض يعني بلسان الحال شهادة الحال.

شهد بعضهم على بعض بلسان الحال، لم؟

ليكون ذلك دليلا من الأدلة التي تكون دافعة لاحتجاجهم يوم القيامة، فإن الله ﷻ جعل دفع احتجاج المشركين يوم القيامة وتنصلهم من التكليف ورغبتهم في عدم التعذيب، جعل ثم حججا منها هذا الإشهاد؛ أن بعض هذه الذرية شاهد على بعض.

فهذه الآية فيها ذكر الشهداء وهم الذين يأتون يوم القيامة في قوله {وجيء بالنبيين والشهداء} [الزمر:٦٩] يشهد بعضهم على بعض بأن الدلائل ظاهرة وأنكم مقرون بالربوبية، مقرون بالوحدانية، ويشهد الآباء على الأبناء، ويشهد الأبناء على الآباء، ويشهد بعضهم على بعض، حتى لا تكون ثم حجة.

لكن هذه ليست الحجة التي يحاسبون عليها ويعذبون عليها وإنما هي دليل لقطع معذرتهم مع الدليل الآخر وهو الأعظم وهو بعث الرسل.

لهذا هذه الآية فيها ذكر دليل، وما رتب على هذا الإشهاد إنما هو مع بعثة الرسل.

وتأمل حين قال {شهدنا أن تقولوا يوم القيامة} من الذي شهد؟

الذرية شهد بعضهم على بعض {أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين}.

{عن هذا} الإشارة إلى أي شيء؟

لدليل الربوبية، ودليل الربوبية هو الذي احتجت به الرسل على ما جاءت به وهو توحيد الإلهية.

فإذا في قوله {شهدنا أن تقولوا} يعني أشهد الله بعض الذرية على بعض على

=

=

مسألة الربوبية لئلا يقولوا إنا كنا عن هذا غافلين.

والرسل جاءت بتقرير الحجة التي بعدها العذاب.

مستمسكة الرسل بالأصل الذي شهد بعضهم على بعض فيه بلسان الحال وهو الإيمان بالربوبية.

لهذا صارت الآية دليلا على الربوبية وهذه حجة عليهم؛ ولكنها ليست الحجة التي بها يعذبون، ولكنها قاطعة لنزاعهم ورغبتهم في التنصل من العذاب.

والثاني أن في قوله {شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا} يعني عن هذا الدليل الذي هو التوحيد -توحيد الربوبية أو الفطرة- الذي ذكرت به الرسل أو الذي جاءت الرسل بإحيائه في الأنفس ليدل الناس على ما يستحقه الله ؟ من توحيد العبادة.

{شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا} يعني الذين يحتجون بالغفلة أو يحتجون بالتقليد، {أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون} فهم احتجوا إما بالغفلة أو احتجوا بعدم الشرك، بمتابعة الآباء وهذا لو حصل يوم القيامة أن احتجوا به فإن الله سبحانه أقام عليهم الحجة بالشهداء وأقام عليهم الحجة بالرسل والعذاب إنما يكون بـ دلائل الصنعة وما أقام الله ؟ في الإنسان من عقل وفكر بحيث يستدل بهذه المخلوقات على خالقها أ، وإنما بالثاني مع الأول وهو بعثة الرسل.

إذا تبين لك ذلك فإن:

١ - أولا: الآية إذا ليس فيها حجة لمن ذهب بأن هذه الآية في الميثاق، ليس فيها دليل على الميثاق.

٢ - ثانيا: الآية ليس فيها حجة لمن قال إنه بالفطرة أو بالتوحيد أو بما أخذ من الميثاق الأول أن هذا كاف عن إقامة الحجة على العباد، وأنه بذلك الميثاق وذلك

=

=

الإشهاد وإقرارهم على أنفسهم والشهادة في الربوبية والعبادة؛ لأنه إذا لم تبلغهم الرسالات ولم تأتهم الرسل أن تلك الشهادة كافية في تعذيبهم، فليس فيها دليل على أن هذه حجة كافية في تعذيبهم، بل لابد من إقامة الحجة الرسالية.

لذلك ترى أن أئمة أهل العلم المحققين كشيخ الإسلام وأئمة الدعوة دائما يذكرون الحجة الرسالية، لابد من إقامة الحجة الرسالية.

لماذا لفظ الرسالية؟

حتى لا يتوهم المتوهم أن الحجة الفطرية كافية.

إذا تبين ذلك فإن تفسير الشهادة هنا وهذه الآية عند المحققين من أهل العلم على ما ذكرنا هو بالفطرة؛ الفطرة التي فطر الله ؟ الناس عليها، وهي الفطرة في الربوبية التي تدل على الألوهية، وهي في معنى قوله ؟ {فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله} [الروم: ٣٠] ، وفي معنى قوله ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة».

وهذا الذي ذكرت من تفسير الآية على وجه التفصيل والبسط هذا هو مذهب واختيار أئمة أهل السنة كشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره وشارح الطحاوية وأئمة الدعوة والشيخ عبد الرحمن بن سعدي في تفسيره وهو تفسير جماعات كثيرة من أهل العلم.

وهو الذي يتعين في الموافقة مع أصول التوحيد وأصول العقيدة بعامة.

وهو الذي يتعين موافقة لحكمة الله ؟.

وهو الذي يتعين موافقة لما هو مقرر في الشريعة من مسألة إقامة الحجة في أحكام المرتد.

لهذا غلط في هذه الآية جماعات، ومن المعاصرين جماعات أيضا فجعلوها حجة على أنه ليس ثم حاجة لإقامة الحجة على العباد؛ بل الفطرة كافية، والعهد الأول كافي وإلى آخره.

=

=

وهذا ولاشك ليس بمرضي.

والحجة لا تقوم على العباد بشيء لا يتذكرونه أصلا، وإنما العباد أمامهم الدلائل.

أما تذكر ميثاق وتذكر شهادة وتذكر هذه الأشياء، فإن أحدا لا يتذكر ذلك، وإنما الرسل تذكرهم بذلك فتكون الحجة بالرسل لا بذلك الأمر الأول.

لهذا ذكرت لك في أول البحث أن مسألة الميثاق مرتبطة بالقدر، وليست متصلة بالتكفير، ليست متصلة بالحجة، ليست متصلة بهذه المسائل، وإنما هي -يعني الميثاق- مرتبط بالقدر لا غير، وليس حجة على خلاف القدر، إنما هو دليل على القدر فقط دون ما سواه.

تقرؤون الكلام الطويل الذي ذكره شارح الطحاوية وفيه طول.

والمسألة بما ذكرت لك تكون قريبة واضحة، ولا يكون ثم إشكال في هذه الآية ولله الحمد، وهي من الآيات المشكلة كما ذكرت لك؛ لكن بتأمل قول المحققين والنظر في تصحيح الأحاديث وعللها وأن الأحاديث التي فيها الربط ما بين الآية والميثاق فيها اضطراب وفيها ضعف في بعضها ضعف في الإسناد وفي بعضها علة بالوقف وثم أشياء أخر لا نطيل بالكلام عليها.

بعدها ذكر مسألة القدر، مسألة القدر يطول الكلام عليها، ولعلنا نبحثها إن شاء الله المرة القادمة. انتهى.

قوله تعالى: {أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} [الأعراف: ١٧٢]، أي: "لئلا تقولوا يوم الحساب إنا كنا عن هذا الميثاق والإقرار بالربوبية غافلين لم ننبه عليه".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: شهدنا عليكم أيها المقرُّون بأن الله ربكم، كيلا تقولوا يوم القيامة: إنا كنا لا نعلم ذلك، وكنا في غفلة منه".

قال ابن كثير:"أي: لئلا يقولوا يوم القيامة: {إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا}، أي: عن التوحيد

=

=

{غَافِلِينَ....

وقرئ: «أَنْ يَقُولُوا»، بالياء، بمعنى: شهدنا لئلا يقولوا، على وجه الخبر عن الغَيَب.

قوله تعالى: {أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ} [الأعراف: ١٧٣]، أي: "أو لئلا تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبلنا ونقضوا العهد، فاقتدينا بهم من بعدهم".

قال الطبري: "أو تقولوا: {إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم}، اتبعنا منهاجهم".

قال الشوكاني: "أي: فعلنا ذلك كراهة أن تعتذروا بالغفلة أو تنسبوا الشرك إلى آبائكم دونكم، و {أو} لمنع الخلو دون الجمع، فقد يعتذرون بمجموع الأمرين {من قبل}، أي: من قبل زماننا {وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ}، لا نهتدي إلى الحق ولا نعرف الصواب".

قال الواحدي: "قال المفسرون: هذا قطع لعذر الكفار فلا يستطيع أحد من الذرية أن يقول يوم القيامة: {إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ}، أي: قبلنا، ونقضوا العهد. {وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ} صغارًا وكبارًا فاقتدينا بهم".

قوله تعالى: {أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} [الأعراف: ١٧٣]، أي: "أفتعذبنا بما فعل الذين أبطلوا أعمالهم بجعلهم مع الله شريكا في العبادة؟.

قال الطبري: أي: "{أفتهلكنا}، بإشراك من أشرك من أبائنا، واتباعنا منهاجَهم على جهل منا بالحق؟ ويعني بقوله: {بما فعل المبطلون}، بما فعل الذين أبطلوا في دَعواهم إلهًا غير الله".

قال الواحدي: "أي: أفتعذبنا بما فعل المشركون المكذبون بالتوحيد، وإنما اقتدينا بهم وكنا في غفلة عن الميثاق، وعما نطالب به الآن من التوحيد، وآباؤنا

=

=

أشركوا، وحملونا على مذهبهم في الشرك في صبانا، فجرينا على مذهبهم واقتدينا بهم، فلا ذنب لنا إذ كنا مقتدين بهم، والذنب في ذلك لهم، كما قالوا في موضع آخر: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ} الآية [الزخرف: ٢٢]. فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل هذا الكلام ، ويكون الآباء على الإشراك بعد تذكير الله تعالى بأخذ الميثاق بالتوحيد على كل واحد من الذرية، هذا هو الكلام على مذهب أهل الأثر".

قال الشوكاني: أي:"من آبائنا ولا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا عن النظر واقتفائنا آثار سلفنا: بين الله -سبحانه- في هذه الحكمة التي لأجلها أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم وأنه فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة ويعتلوا بهذه العلة الباطلة ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة".

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ} [الأعراف: ١٧٤]، أي: "وكما فَصَّلْنا الآيات، وبيَّنَّا فيها ما فعلناه بالأمم السابقة، كذلك نفصِّل الآيات ونبيِّنها لقومك أيها الرسول".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وكما فصلنا يا محمد لقومك آيات هذه السورة، وبيّنا فيها ما فعلنا بالأمم السالفة قبلَ قومك، وأحللنا بهم من المَثُلات بكفرهم وإشراكهم في عبادتي غيري، كذلك نفصل الآيات غيرِها ونبيّنها لقومك".

عن السدي قوله: " {وكذلك نفصل الآيات}، ما نفصل فنبين".

قوله تعالى: {وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأعراف: ١٧٤]، أي: "ورجاء أن يرجعوا عن شركهم، وينيبوا إلى ربهم".

قال الثعلبي: أي: " عن كفرهم".

قال الطبري: أي: "لينزجروا ويرتدعوا، فينيبوا إلى طاعتي ويتوبوا من شركهم وكفرهم، فيرجعوا إلى الإيمان والإقرار بتوحيدي وإفراد الطاعة لي وترك عبادة ما سواي".

=

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥).

{وَاتْلُ} يَا مُحَمَّد {عَلَيْهِمْ} أَيْ الْيَهُود {نَبَأ} خَبَر {الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتنَا فَانْسَلَخ مِنْهَا} خَرَجَ بِكُفْرِهِ كَمَا تَخْرُج الْحَيَّة مِنْ جِلْدهَا وَهُوَ بلعم بْن بَاعُوراءَ مِنْ عُلَمَاء بَنِي إسْرَائِيل سُئِلَ أَنْ يَدْعُو عَلَى مُوسَى وَأُهْدِيَ إلَيْهِ شَيْء فَدَعَا فَانْقَلَبَ عَلَيْهِ وَانْدَلَعَ لِسَانه عَلَى صدره {فأتبعه الشيطان} فأدركه فصار قرينه {فكان من الغاوين}.

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦).

{وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ} إلَى مَنَازِل الْعُلَمَاء {بِهَا} بِأَنْ نُوَفِّقهُ لِلْعَمَلِ {وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ} سَكَنَ {إلَى الْأَرْض} أَيْ الدُّنْيَا وَمَالَ إلَيْهَا {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} فِي دُعَائِهِ إلَيْهَا فَوَضَعْنَاهُ {فَمَثَله} صِفَته {كَمَثَلِ الْكَلْب إنْ تَحْمِل عَلَيْهِ} بِالطَّرْدِ وَالزَّجْر

=

قال الواحدي: "أي: ولكي يرجعوا عمّا هم عليه من الكفر والضلالة إلى التوحيد والطاعة ، وقيل: إلى ما أخذ عليهم من الميثاق في التوحيد، والرجوع إلى ذلك الميثاق رجوع إلى التوحيد.

قال صديق خان: وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، " أي: "إلى الحق، ويتركون ما هم عليه من الباطل، وقيل: يرجعون إلى الميثاق الأول فيذكرونه ويعملون بموجبه ومقتضاه، والمآل واحد".

{يَلْهَث} يَدْلَع لِسَانه {أَوْ} إنْ {تَتْرُكهُ يَلْهَث} وَلَيْسَ غَيْره مِنْ الْحَيَوَان كَذَلِكَ وَجُمْلَتَا الشَّرْط حَال أَيْ لَاهِثًا ذَلِيلًا بِكُلِّ حَال وَالْقَصْد التَّشْبِيه فِي الْوَضْع وَالْخِسَّة بِقَرِينَةِ الْفَاء الْمُشْعِرَة بِتَرْتِيبِ مَا بَعْدهَا عَلَى مَا قَبْلهَا مِنْ الْمَيْل إلَى الدُّنْيَا وَاتِّبَاع الْهَوَى وَبِقَرِينَةِ قَوْله {ذَلِكَ} الْمَثَل {مَثَل الْقَوْم الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَص} عَلَى الْيَهُود {لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} يَتَدَبَّرُونَ فِيهَا فيؤمنون.

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧).

{سَاءَ} بِئْسَ {مَثَلًا الْقَوْم} أَيْ مَثَل الْقَوْم {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسهمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ} بِالتَّكْذِيبِ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ قال: نزلت في أمية بن أبي الصلت الثقفي.

أخرجه النسائي في "تفسيره" (١/ ٥٠٨، ٥١١ رقم ٢١٢، ٢١٤)، والطبري في "جامع البيان" (٩/ ٨٣)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦١٦ رقم ٨٥٤٢)، ومسدد بن مسرهد في "مسنده"؛ كما في "إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ٧٨ رقم ٧٦٨٠) من طريق يعقوب ونافع ابني عاصم عن عبد الله بن عمرو به. وسنده صحيح. وذكره الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٢٥) وقال: "رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح". وقال البوصيري: "ورواته ثقات". وصححه ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٢٦٦)، وقال الحافظ في "فتح الباري" (٧/ ١٥٤): "وروى ابن مردويه بإسناد قوي عن عبد الله بن عمرو...".

وعن عبد الله بن مسعود؛ قال: هو بلعم بن أبر رجل من اليمن.

أخرجه النسائي في "تفسيره" (١/ ٥١٠ رقم ٢١٣)، والطبري في "جامع البيان" (٩/ ٨٢)، والطبراني في "الكبير" (٩/ ٢١٩ رقم ٩٠٦٤)، وعبد الرزاق في =

=

"تفسيره" (١/ ٢/ ٢٤٣)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٣٢٥)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦١٦ رقم ٨٥٤١) من طريق الأعمش ومنصور كلاهما عن أبي الضحى عن مسروق عنه به. وهذا سند صحيح على شرط الشيخين. وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٢٥): "رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح".

وعن عبد الملك بن عمير؛ قال: تذاكروا في جامع دمشق هذه الآية: {فَانْسَلَخَ مِنْهَا}، فقال بعضهم: نزلت في بلعم بن باعوراء، وقال بعضهم: نزلت في الراهب، فخرج عليهم عبد الله بن عمرو بن العاص، فقالوا: فيمن نزلت هذه؟ قال: نزلت في أمية بن أبي الصلت الثقفي.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ٨٣): ثنا ابن حميد ثنا حكام عن عنبسة عن عبد الملك به.

وهذا سند ضعيف جدًّا؛ ابن حميد ضعيف متهم.

وعن سالم أبي النضر؛ أنه حدث: أن موسى لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام؛ أتى قوم بلعم إلى بلعم، فقالوا له: يا بلعم! إن هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل ويسكنها؛ وإنا قومك، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة؛ فأخرج وادع الله عليهم، فقال: ويلكم! نبي الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! قالوا: ما لنا من منزل، فلم يزالوا به يرفعونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه؛ فافتتن، فركب حمارةً له متوجّهًا إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل، وهو جبل حُسبان، فلما سار عليها غير كثير؛ ربضت به فنزل عنها، فضربها، حتى إذا أذلقها قامت فركبها؛ فلم تسر به كثيرًا حتى ربضت به، ففعل بها مثل ذلك، فقامت فركبها؛ فلم تسر به كثيرًا حتى ربضت به؛ فضربها، حتى إذا أذلقها؛ أذن الله لها فكلمته حجة عليه، فقالت: ويحك يا بلعم! أين تذهب؟ أما

=

=

ترى الملائكة تردّني عن وجهي هذا؟ أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم فلم ينزع عنها، فضربها؛ فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك، قال: فانطلقت به، حتى إذا أشرفت على رأس جبل حسبان على عسكر موسى وبني إسرائيل؛ جعل يدعو عليهم، ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف به لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل، قال: فقال له قومه: أتدري يا بلعم ما تصنع؟! نما تدعو لهم وتدعو علينا، قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غلب الله عليه، قال: واندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لهم: قد ذهبت الآن مني الدنيا والآخرة؛ فلم يبق إلا المكر والحيلة؛ فسأمكر لكم وأحتال؛ جملوا النساء، وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها، ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها؛ فإنهم إن زنى منهم واحد كفيتموهم، ففعلوا، فلما دخل النساء العسكر؛ مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كستى ابنة صور -رأس أمته- برجل من عظماء بني إسرائيل، وهو زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: إني أظنك ستقول هذه حرام عليك، فقال: أجل؛ هي حرام عليك لا تقربها، قال: فوالله لا أطيعك في هذا، فدخل بها قبته فوقع عليها، وأرسل الله الطاعون في بني إسرائيل، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى، وكان رجلًا قد أعطي بسطة في الخلق وقوة في البطش، وكان غائبًا حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يجوس في بني إسرائيل، فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها، ثم دخل عليه القبة وهما متضاجعان، فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء، والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لحييه، وكان بكر العيزار، وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك؛ ورفع الطاعون، فحسب

=

=

من هلك من بني إسرائيل في الطاعون -فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص-؛ فوجدوا قد هلك منهم سبعون ألفًا، والمقلل يقول: عشرون ألفًا، في ساعة من النهار، فمن هنالك يعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص بن العيزار بن هارون من كل ذبيحة ذبحوها الفشة والذراع واللحى؛ لاعتماده بالحربة على خاصرته، وأخذه إياها بذراعه، وإسناده إياها إلى لحييه، والبكر من كل أموالهم وأنفسهم؛ لأنه كان بكر العيزار؛ ففي بلعم بن باعوراء أنزل الله على محمد ﷺ: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا}؛ يعني: بلعم، {فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ}، إلى قوله: {لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ٨٦)، و"تاريخ الأمم والملوك" (١/ ٤٣٧) -ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (١٠/ ٤٠١ - ٤٠٣) -: ثنا ابن حميد ثنا سلمة عن ابن إسحاق عن سالم به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علل: الأولى: الإعضال. والثانيه: سالم ذا؛ متروك.

و الثالثة: ابن إسحاق؛ مدلس، وقد عنعن. والرابعة: ابن حميد؛ متروك متهم.

وعن الزهري؛ قال: قال أمية بن أبي الصلت:

ألا رسول لنا منا يخبرنا ... ما بعد غايتنا من رأس نجرانا

قال: ثم خرج أمية إلى البحرين، وتنبأ رسول الله ﷺ، فأقام أمية بالبحرين ثماني سنين، ثم قدم فلقي رسول الله ﷺ في جماعة من أصحابه، فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام، وقرأ عليه: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢)} [يس: ١، ٢] "، حتى إذا فرغ منها؛ وثب أمية يجر رجليه، فتبعته قريش تقول: ما تقول يا أمية؟ قال: أشهد أنه على الحق، قالوا: فهل تتبعه؟ قال: حتى أنظر في أمره، ثم خرج أمية إلى الشام وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم، فلما أخبر بقتلى بدر؛ ترك الإسلام ورجع إلى الطائف فمات بها، قال: ففيه أنزل الله: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ

=

=

الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦٠٩) ونسبه لابن عساكر.

* قوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا} [الأعراف: ١٧٥]، أي: "واقصص -أيها الرسول- على أمتك خبر رجل من بني إسرائيل أعطيناه حججنا وأدلتنا، فتعلَّمها، ثم كفر بها، ونبذها وراء ظهره".

عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-؛ قال: نزلت في أمية بن أبي الصلت الثقفي. أخرجه النسائي في تفسيره (رقم ٢١٢، ٢١٤)، والطبري في تفسيره (٩/ ٨٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٥٤٢)، ومسدد بن مسرهد في مسنده كما في إتحاف الخيرة المهرة (٨/ ٧٨ رقم ٧٦٨٠) والحديث صححه ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٦٦)، وقال الحافظ في الفتح (٧/ ١٥٤): إسناده قوي، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٥) وقال: رجاله رجال الصحيح، وقال البوصيري: ورواته ثقات، وصححه صاحبا الإستيعاب (٢/ ١٦٩).

وعن عبد الله بن مسعود؛ قال: هو بلعم بن أبر رجل من اليمن. أخرجه النسائي في "تفسيره" (١/ ٥١٠ رقم ٢١٣)، والطبري في "جامع البيان" (٩/ ٨٢)، والطبراني في "الكبير" (٩/ ٢١٩ رقم ٩٠٦٤)، وعبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ٢/ ٢٤٣)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٣٢٥)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦١٦ رقم ٨٥٤١) من طريق الأعمش ومنصور كلاهما عن أبي الضحى عن مسروق عنه به. وهذا سند صحيح على شرط الشيخين. قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٢٥): "رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {واتل}، يا محمد، على قومك {نبأ الذي آتيناه آياتنا}، يعني خبره وقصته، وكانت آيات الله للذي آتاه الله إياها فيما يقال: اسم الله الأعظم، وقيل: النبوّة".

=

=

اختلف في قوله تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا} [الأعراف: ١٧٥]، على وجوه:

أحدها: أنه بلعام بن عوراء. قاله ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد، وعكرمة.

قال ابن عباس: "هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم، وكان يعلم اسم الله الأكبر، فلما نزل بهم موسى أتاه بنوا عمه وقومه فقالوا: إن موسى رجل جديد ومعه جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يردعنا موسى ومن معه. قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي، فلم يزاولوا به حتى دعا عليهم فسلخ ما كان عليه فذلك قوله: {فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين}.

والثاني: أنه أمية بن أبي الصلت الثقفي، قاله عبد الله بن عمرو، والكلبي.

والثالث: أنه صيفي بن الراهب. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا، وحكاه نافع بن عاصم عن بعضهم.

والرابع: أنه من اليهود والنصارى والحنفاء ممن أعطاه الله الحق فتركه. قاله عكرمة.

والخامس: قال قتادة: "هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فأبى أن يقبله وتركه".

وكما اختلفوا في اسمه اختلفوا في مكانه أيضا، وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كان من اليمن. قاله ابن عباس.

والثاني: وقيل كان من الكنعانيين. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا.

والثالث: وقيل من بني صال بن لوط. حكاه الماوردي.

وفي الآيات التي أوتيها ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه اسم الله الأعظم الذي تجاب به الدعوات، قاله ابن عباس، والسدي،

=

=

وابن زيد ، وكعب ، واختاره الطبري.

قال كعب: "كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب".

والثاني: أنها كتاب من كتب الله. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا.

وروي عن عكرمة: "أعطاه الله آياته وكتابه فانسلخ منها فجعله مثل الكلب".

والثالث: أنه أوتي النبوة فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم على ما هم عليه، قاله مجاهد ، وحكاه المعتمر سليمان عن أبيه.

قال الماوردي:"وهو غير صحيح، لأن الله لا يصطفي لنبوته إلا من يعلم أن لا يخرج عن طاعته إلى معصيته".

قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمرَ نبيه ﷺ أن يتلو على قومه خبرَ رجلٍ كان الله آتاه حُجَجه وأدلته، وهي «الآيات»، وقد دللنا على أن معنى "الآيات": الأدلة والأعلام، فيما مضى، بما أغنى عن إعادته، وجائز أن يكونَ الذي كان الله آتاه ذلك «بلعم»، وجائز أن يكون أمية. وكذلك «الآيات» إن كانت بمعنى الحجة التي هي بعض كتب الله التي أنزلها على بعض أنبيائه، فتعلمها الذي ذكره الله في هذه الآية، وعناه بها؛ فجائز أن يكون الذي كان أوتيها «بلعم»، وجائز أن يكون «أمية»، لأن «أمية» كان، فيما يقال، قد قرأ من كتب أهل الكتاب، وإن كانت بمعنى كتاب أنزله الله على مَنْ أمر نبيَّ الله عليه الصلاة والسلام أن يتلوَ على قومه نبأه أو بمعنى اسم الله الأعظم، أو بمعنى النبوّة، فغير جائز أن يكون معنيًّا به «أمية» "؛ لأن «أمية» لا تختلف الأمة في أنه لم يكن أوتي شيئًا من ذلك، ولا خبرَ بأيِّ ذلك المراد، وأيّ الرجلين المعنيّ، يوجب الحجة، ولا في العقل دلالة على أيِّ ذلك المعنيُّ به من أيٍّ. فالصواب أن يقال فيه ما قال الله، ونُقِرّ بظاهر التنزيل على ما جاء به الوحي من الله".

قال السعدي: يقول تعالى لنبيه ﷺ (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا) أي: علمناه

=

=

كتاب اللّه، فصار العالم الكبير والحبر النحرير. والمراد بالآيات هنا الشرعية.

(تنبيه): قول من يقول إنه كان نبيًا لا يصح.

قال الرازي: هذا بعيد، لأنه تعالى قال (الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) وذلك يدل على أنه تعالى لا يشرف عبدًا من عبيده بالرسالة، إلا إذا علم امتيازه عن سائر العبيد بمزيد الشرف، والدرجات العالية، والمناقب العظيمة، فمن كان هذا حاله، فكيف يليق به الكفر؟

وقال الماوردي عن هذا القول: وهو غير صحيح لأن الله لا يصطفي لنبوته إلا من يعلم أن لا يخرج عن طاعته إلى معصيته.

قوله (فَانْسَلَخَ مِنْهَا) خرج منها والعياذ بالله كما تنسلخ الحيّة من ثَوْبِهَا، ولم يعلق به منها شيء.

وفي قوله تعالى: {فَانْسَلَخَ مِنْهَا} [الأعراف: ١٧٥]، وجهان:

أحدهما: فانسلخ من العلم بها، لأنه سيسلب ما أوتي منها بالمعصية.

والثاني: أنه انسلخ منها، أي: من الطاعة بالمعصية مع بقاء علمه بالآيات حتى حكي أن بلعام رُيثي على أن يدعو على قوم موسى بالهلاك فسها فدعا على قومه فهلكوا.

قال الطبري: "يعني: خرج من الآيات التي كان الله آتاها إياه، فتبرَّأ منها".

قال ابن عباس:"كان الله آتاه آياته فتركها".

وعن ابن عباس ايضا: " {فانسلخ منها}، قال: نزع منه العلم".

قال السعدي: أي انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات اللّه، فإن العلم بذلك، يصير صاحبه متصفًا بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويرقى إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات، فترك هذا كتاب اللّه وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس.

=

=

قوله تعالى: {فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ} [الأعراف: ١٧٥]، أي: "اتّبعه الشيطان حتى لحق به وأدركه وجعله قرينًا له يذهب معه حيث يذهب فاستحوذ عليه الشيطان".

قال ابن كثير: "أي: استحوذ عليه وغلبه على أمره، فمهما أمره امتثل وأطاعه".

قال الطبري: "يقول: فصيَّره لنفسه تابعًا ينتهي إلى أمره في معصية الله، ويخالف أمر ربِّه في معصية الشيطان وطاعةِ الرحمن".

قال السعدي: أي تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين، وصار إلى أسفل سافلين، فأزه إلى المعاصي أزا.

وفي قوله تعالى: {فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ} [الأعراف: ١٧٥]، وجوه:

أحدها: أن الشيطان صيره لنفسه تابعًا بإجابته له حين أغواه.

والثاني: أن الشيطان متبع من الإنس على ضلالته من الكفر.

والثالث: أن الشيطان أدركه، أي: لحقه فأغواه، يقال اتبعت القوم إذا لحقتهم، وتبعتهم إذا سرت خلفهم، قاله ابن قتيبة.

والرابع: سجوده للشيطان حين تراءى له. قاله عبدالرحمن بن جبير بن نفير.

قوله تعالى: {فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الأعراف: ١٧٥]، أي: "فصار من الضالين الهالكين؛ بسبب مخالفته أمر ربه وطاعته الشيطان".

قال ابن كثير: "أي: من الهالكين الحائرين البائرين.

قال الطبري: "يقول: فكان من الهالكين، لضلاله وخلافه أمر ربه، وطاعة الشيطان".

قال مالك ابن دينار قال: "بعث نبي الله موسى بلعام وكان مجاب الدعوة وكان يقدمهم عند الشدائد، وكان من علماء بني إسرائيل فبعثه إلى ملك مدين يدعوه إلى الله، فأقطعه وأعطاه فتبع دينه وترك دين موسى فنزلت هذه الآية: {واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها} إلى قوله: {من الغاوين}.

=

عن حذيفة بن اليمان: قال رسول الله ﷺ: «"إن مما أتخوف عليكم رجُل قرأ القرآن، حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رِدْء الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله، انسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك". قال: قلت: يا نبي الله، أيهما أولى بالشرك: المرمي أو الرامي؟ قال: "بل الرامي"».

قوله تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا} [الأعراف: ١٧٦]، أي:"لو شئنا رفع هذا الذي آتيناه آياتنا بتلك الآيات لوفقناه للعمل بها فعمل بها حتى مات عليها فكان مرفوع الدرجة رفيع الذكر في الدنيا والآخرة.".

قال ابن كثير: "أي: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ولو شئنا لرفعنا هذا الذي آتيناه آياتنا بآياتنا التي آتيناه".

وفي قوله تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا} [الأعراف: ١٧٦]، وجوه:

أحدها: يعني: لرفعناه بعلمه بها. قاله ابن عباس.

والثاني: معناه: لرفعنا عنه الحال التي صار إليها من الكفر بالله بآياتنا. قاله مجاهد.

والثالث: يعني: لأمتناه فلم يكفر. ذكره الماوردي.

قال الطبري: "وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عمّ الخبر بقوله: {ولو شئنا لرفعناه بها}، أنه لو شاء رفعه بآياته التي آتاه إياها. والرفع يَعمُّ معاني كثيرة، منها الرفع في المنزلة عنده، ومنها الرفع في شرف الدنيا ومكارمها. ومنها الرفع في الذكر الجميلِ والثّناء الرفيع. وجائزٌ أن يكون الله عنى كلَّ ذلك: أنه لو شاء لرفعه، فأعطاه كل ذلك، بتوفيقه للعمل بآياته التي كان آتاها إياه. وإذ كان ذلك جائزًا، فالصواب من القول فيه أن لا يخصَّ منه شيء، إذ كان لا دلالة على خصوصه من خبرٍ ولا عقلٍ".

=

قوله تعالى: {وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ} [الأعراف: ١٧٦].

أي: ركن ومال إلى لَذَّاتِ الدّنْيَا وحطامها وشهواتها فآثَرَها على آيات الله فسَلَخَهُ الله من آياته (والعياذ بالله). والعرب تقول: أخلد إلى الشيء: إذا رَكَنَ ومَالَ إِلَيْهِ، وأصل الإخلاد: هو ملازمة الشيء والدوام فيه. فالعرب تقول: أخلد بهذا المكان: إذا لازَمَهُ ودَامَ فِيه، وهو معنى معروف في كلامها.

قال سعيد بن جبير: "يعني: ركن إلى الأرض".

عن مجاهد: "أخلد: سكن".

قال ابن قتيبة: "أي: ركن إلى الدنيا وسكن".

قال الطبري: "يقول: سكن إلى الحياة الدنيا في الأرض، ومال إليها".

قال ابن كثير: "أي: مال إلى زينة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرّته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهى.

قال ابن عباس: "كان في بني إسرائيل بلعام بن باعر أوتي كتابا، فأخلد إلى شهوات الأرض ولذتِها وأموالها، لم ينتفع بما جاء به الكتاب".

قال السدي: "أما {أخلد إلى الأرض}: فاتبع الدنيا، وركن إليها".

قال أبو جعفر: وأصل "الإخلاد" في كلام العرب: الإبطاء والإقامة، يقال منه: "أخلد فلان بالمكان"، إذا أقام به وأخلد نفسه إلى المكان" إذا أتاه من مكان آخر، ومنه قول زهير:

لِمَنْ الدِّيَارُ غَشِيتُهَا بِالْفَدْفَدِ ... كَالْوَحْيِ فِي حَجَرِ الْمَسِيلِ الْمُخْلِدِ

يعني المقيم، ومنه قول مالك بن نويرة:

بِأَبْنَاء حَيٍّ مِنْ قَبَائِلِ مَالِكٍ ... وَعَمْرِو بن يَرْبُوعٍ أَقَامُوا فَأَخْلَدُوا

وكان بعض البصريين يقول معنى قوله: "أخلد": لزم وتقاعسَ وأبطأ، و"المخلد" أيضًا: هو الذي يبطئ شيبُه من الرجال وهو من الدواب، الذي تبقى ثناياه حتى

=

=

تخرج رَباعيتاه.

قوله تعالى: {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} [الأعراف: ١٧٦]، أي: "واتبع هواه، وآثر لَذَّاته وشهواته على الآخرة، وامتنع عن طاعة الله وخالف أمره".

قال ابن زيد: "كان هَواهُ مع القوم".

قال الطبري:"وآثر لذتها وشهواتها على الآخرة، ورفض طاعة الله وخالَف أمرَه".

قوله تعالى: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ} [الأعراف: ١٧٦]، أي: "فَمَثَلُّ هذا الرجل مثل الكلب، إن تطرده أو تتركه يُخْرج لسانه في الحالين لاهثًا، فكذلك الذي انسلخ من آيات الله يظل على كفره إن اجتهدْتَ في دعوتك له أو أهملته".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فمثل هذا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، مثلُ الكلب الذي يلهث، طردْته أو تركته".

واختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله جَعَل الله مثَله كمثل الكلب، على قولين:

أحدهما: مثَّله به في اللهث، لتركه العمل بكتابِ الله وآياته التي آتاها إياه، وإعراضِه عن مواعظ الله التي فيها إعراض من لم يؤته الله شيئًا من ذلك، فقال جل ثناؤه فيه: إذْ كان سواء أمرُه، وُعِظَ بآيات الله التي آتاها إياه، أو لم يوعظ، في أنه لا يتَّعظ بها، ولا يترك الكفر به، مثل الكلب الذي سواءٌ أمره في لهثه، طرد أو لم يطرد، إذ كان لا يتركُ اللهث بحال. وهذا معنى قول ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة.

قال قتادة: "هذا مثلٌ ضربه الله لمن عُرِض عليه الهدى، فأبى أن يقبله وتركه، قال: وكان الحسن يقول: هو المنافق {ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث}، قال: هذا مثل الكافر ميتُ الفؤاد".

=

=

والثاني: مثّله جل ثناؤه بالكلب، لأنه كان يلهث كما يلهثُ الكلب. وهذا قول السدي.

قال الشنقيطي:... إن تشد عليه وتطرده وتُجْهِده يلهث وإن (تَتْرُكْهُ) في رخاء ودَعة (يَلْهَثْ) والعرب تقول: لَهَثَ الكلب -بفتح الهاء- يَلْهَث -بفتحها؛ لأنه حَلقِي العين- لَهْثًا ولُهاثًا: إذا فتح فاه ومَدَّ لسانه وصار يلهث، يطلع النَّفَسَ ويردها بقوة كفعل الذي أصابه إعياء وتَعَبٌ شَدِيد. وجميع الحيوانات لا يلهث شيء منها إلا إذا أصابه إِعْيَاء شديد، أو تعب شديد، أو عطش شديد، إلا الكلب وحده فإنه يلهث دائمًا، في حالة الرِّيّ يَلْهَث، وفي حالة العطش يلهث، وفي حالة الشد عليه والطرد والتعب يلهث، وفي حالة الرَّخاءِ يَلْهَث، فهو يلازم اللهْث في جميع حالاته. واللهث مِنْ أَخَسّ حالاته؛ لأنه فاتِحٌ فاه، مادٌّ لِسَانَهُ، يُطْلِع النَّفَس وينزلها بقوة، وهذه مِنْ أخسّ الحالات وأقبحها، فضربه الله مثلًا لهذا وإن تَرَكْتَهُ لم يَتَّعِظْ، فهو ملازم -والعياذ بالله- كفرانه وعصيانه على جميع الحالات.

- وأما قول من قال: إن بلعام بن باعوراء لما دعا على نبي الله موسى اندلع لسانه فصار على صدره، فصار لسانه متدليًا - كلسان الكلب - يلهث كلهاث الكلب، وأن هذا معنى قوله: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ...) الآية. هذا التفسير غير صحيح، بل الصحيح أنه مثل مضروب كما بيّنّا.

قال الرازي: قوله تعالى (إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ) فالمعنى أن هذا الكلب إن شد عليه وهيج لهث وإن ترك أيضًا لهث، لأجل أن ذلك الفعل القبيح طبيعة أصلية له، فكذلك هذا الحريص الضال إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال لأجل أن ذلك الضلال والخسارة عادة أصلية وطبيعية ذاتية له.

قال ابن الجوزي: قوله تعالى (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) معناه: أن هذا الكافر، إن زجرتَه لم ينزجر، وإن تركتَه لم يهتد، فالحالتان

=

=

عنده سواء كحالتي الكلب، فانه إن طُرد وحُمل عليه بالطرد كان لاهثًا، وإن تُرك وربض كان أيضًا لاهثًا، والتشبيه بالكلب اللاهث خاصة؛ فالمعنى: فمثله كمثل الكلب لاهثًا، وإنما شبهه بالكلب اللاهث، لأنه أخسُّ الأمثال على أخس الحالات وأبشعها.

وقال ابن قتيبة: كل لاهث إنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب، فانه يلهث في حال راحته وحال كلاله، فضربه الله مثلًا لمن كذَّب بآياته، فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال، كالكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث، أو تركته على حاله رابضًا لهث.

قال الطبري: "وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويلُ من قال: إنما هو مثلٌ لتركه العمل بآيات الله التي آتاها إياه، وأنّ معناه: سواء وعظ أو لم يوعظ، في أنه لا يترك ما هو عليه من خلافه أمر ربّه، كما سواءٌ حمل على الكلب وطُرِد أو ترك فلم يطرد، في أنه لا يدَع اللهث في كلتا حالتيه.

وإنما قلنا: ذلك أولى القولين بالصواب، لدلالة قوله تعالى: {ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا}، فجعل ذلك مثلَ المكذِّبين بآياته. وقد علمنا أن اللُّهَاث ليس في خِلقة كل مكذّب كُتب عليه ترك الإنابة من تكذيبه بآيات الله، وأن ذلك إنما هو مثل ضربه الله لهم، فكان معلوما بذلك أنه للذي وصف الله صفته في هذه الآية، كما هو لسائر المكذبين بآيات الله، مثلٌ".

قوله تعالى: {ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الأعراف: ١٧٦]، أي: "هذا الوصف -أيها الرسول- وصف هؤلاء القوم الذين كانوا ضالين قبل أن تأتيهم بالهدى والرسالة".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: هذا المثل الذي ضربتُه لهذا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، مثلُ القوم الذين كذبوا بحُججنا وأعلامنا وأدلَّتنا، فسلكوا في ذلك

=

=

سبيل هذا المنسلِخ من آياتنا الذي آتيناها إياه، في تركه العمل بما آتيناه من ذلك".
قوله تعالى: {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف: ١٧٦]، أي: "فاقصص -أيها الرسول- أخبار الأمم الماضية، ففي إخبارك بذلك أعظم معجزة، لعل قومك يتدبرون فيما جئتهم به فيؤمنوا لك".
قال الطبري: "يقول لنبيه محمد ﷺ: فاقصص، يا محمد، هذا القصص، الذي اقتصصته عليك من نبأ الذي آتيناه آياتنا، وأخبارَ الأمم التي أخبرتك أخبارهم في هذه السورة، واقتصَصْت عليك نبأهم ونبأ أشباههم، وما حلّ بهم من عقوبتنا، ونزل بهم حين كذبوا رسلَنا من نقمتنا على قومك من قريش، ومَنْ قِبَلَك من يهود بني إسرائيل، ليتفكروا في ذلك، فيعتبروا وينيبوا إلى طاعتنا، لئلا يحلّ بهم مثل الذي حلّ بمن قبلهم من النّقم والمثلات، ويتدبَّره اليهود من بني إسرائيل، فيعلموا حقيقةَ أمرك وصحَّة نبوّتك، إذ كان نبأ {الذي آتيناه آياتنا} من خفيّ علومهم، ومكنون أخبارهم، لا يعلمه إلا أحبارُهم، ومن قرأ الكُتب ودرسها منهم. وفي علمك بذلك وأنت أميٌّ لا تكتب، ولا تقرأ، ولا تدرس الكتب، ولم تجالس أهل العلم الحُجَّة البينة لك عليهم بأنك لله رسول، وأنك لم تعلم ما علِمت من ذلك، وحالُك الحال التي أنت بها، إلا بوحي من السماء".
قال ابن كثير: "يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ} أي: لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام، وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه – في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب – في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن، وشعب الإيمان، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان، كليم الله موسى بن عمران، عليه السلام؛ ولهذا قال: {لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} أي: فيحذروا أن يكونوا مثله؛ فإن الله قد أعطاهم علمًا، وميزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد

=

=

ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به؛ ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد، أحل الله به ذلا في الدنيا موصولا بذل الآخرة".

عن سالم أبي النضر: " {فاقصص القصص لعلهم يتفكّرون}، يعني: بني إسرائيل، إذ قد جئتهم بخبر ما كان فيهم ممّا يخفُون عليك، {لعلهم يتفكرون}، فيعرفون أنه لم يأت بهذا الخبر عمّا مضى فيهم إلا نبيٌّ يأتيه خبرُ السماء". وروي ع ابن إسحاق مثل ذلك.

قوله تعالى: {سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الأعراف: ١٧٧]، أي: "قَبُحَ مثلا مثلُ القوم الذين كذَّبوا بحجج الله وأدلته، فجحدوها".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ساءَ مثلا القوم الذين كذبوا بحجج الله وأدلته فجحدوها".

قال أبو الليث: "يعني: بئس مثل من كان مثل الكلب، وإنما ضرب المثل بالكلب تقبيحا لمذهبهم. ويقال: بئس مثل القوم الذين كذبوا وكانت صفتهم مثل صفة بلعم وهم أهل مكة كذبوا بآياتنا، فلم يؤمنوا بها مثل بلعم".

قال ابن كثير: "أي: ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حَيِّز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه، صار شبيها بالكلب، وبئس المثل مثله؛ ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه» .

قال أبو السعود: "{ساء مثلا} استئناف مسوق لبيان كمال قبح حال المكذبين بعد بيان كونه كحال الكلب أو المنسلخ".

قوله تعالى: {وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ} [الأعراف: ١٧٧]، أي: "وأنفسهم كانوا يظلمونها؛ بسبب تكذيبهم بهذه الحجج والأدلة".

=

مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)

{من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون}(١).

=

عن ابن عباس في قوله: " {أنفسهم كانوا يظلمون}، قال: يضرون".

قال أبو الليث: "يعني: يضرون بأنفسهم".

قال الطبري: أي: "وأنفسَهم كانوا ينقصُون حظوظَها، ويبخسونها منافعها، بتكذيبهم بها لا غيرَها".

قال ابن كثير: "أي: ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم، بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى".

قال الشوكاني: "أي: ما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم، لا يتعداها ظلمهم إلى غيرها، ولا يتجاوزها، والجملة معطوفة على التي قبلها، على معنى أنهم جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم".

(١) قوله تعالى: {مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي} [الأعراف: ١٧٨]، أي: "من يوفقه الله للإيمان به وطاعته فهو الموفَّق".

يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له، كما أن من أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ولهذا جاء في حديث ابن مسعود: إن الحمد لله، نحمده ونستعينه.... ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

- وفي هذا دليل أن المهتدي من هداه الله.

قال تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ).

=

=

وقال تعالى (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا).

وقال تعالى (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ).

وقال تعالى (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ).

وقال تعالى (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ).

وقال تعالى عن أهل الإيمان يوم القيامة (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ).

(ومن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم، لأن خسرانهم عام في كل أحوالهم، ليس لهم نوع من الربح، لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له، وهذا الخسار هو خسار الكفر.

- وأصل الخسران: نقصان مال التاجر من ربح أو رأس مال، وأكبر الخسارة غبن الإنسان بحظوظه من خالقه جل وعلا، وقد أقسم الله أنه لا ينجو منه أحد إلا بشروط معينة منصوصة في كتاب الله فقال تعالى (وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ).

- الإضلال بيد الله، فمن أضله الله فلا هادي:

قال تعالى (فيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

وقال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا).

وقال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ).

وقال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا).

وفي الحديث القدسي (كلكم ضال إلا من هديته).

ويقول الرسول ﷺ (والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا) متفق عليه.

- قال الشنقيطي: وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ الْعَبْدَ يَنْبَغِي لَهُ كَثْرَةُ التَّضَرُّعِ وَالِابْتِهَالِ

=

=

إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَهُ وَلَا يُضِلَّهُ ؛ فَإِنَّ مَنْ هَدَاهُ اللهُ لَا يَضِلُّ، وَمَنْ أَضَلَّهُ لَا هَادِيَ لَهُ، وَلِذَا ذَكَرَ عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا.

- لفظ الضلال في القرآن يطلق على ثلاثة إطلاقات:

الأول: إطلاق الضلال على الضلال عن طريق الهدى إلى طريق الزيغ، وعن طريق الجنة إلى طريق النار.

كما قال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ). ومنه قوله تعالى (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ).

ومنه قوله تعالى (قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)، وهذا أغلب استعمال الضلال.

والثاني: هو إطلاق الضلال على الغَيْبَة والاضمحلال.

ومنه قوله تعالى (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أي: غاب واضمحل ولم يبق له أثر.

ومنه قوله تعالى (وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) فمعنى (ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ) أي: اضمحلت عظامهم ولحومهم وجلودهم فيها فأكلتها واختلطت بها.

والثالث: إطلاق الضلال على الذهاب عن علم الشيء، فكل مالم يهتد إلى علم شيء تقول العرب: ضل.

ومنه قول أولاد يعقوب (إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) أي: ذهاب عن علم الحقيقة حيث يفضّل يوسف علينا.

وقوله (قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ) أي: ذهابك عن حقيقة العلم بالشيء، لأنك تظن يوسف حيًا، ولا يريدون الضلال، لأنهم لو أرادوا الضلال في الدين لكانوا كفرة لتضليلهم نبيًا من الأنبياء.

=

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩).

{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا} خَلَقْنَا {لِجَهَنَّم كَثِيرًا مِنْ الْجِنّ وَالْإِنْس لَهُمْ قُلُوب لَا يَفْقُهُونَ

=

ومنه قوله تعالى (لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى) أي: لا يذهب عنه علم شيء ولا ينسى شيئًا.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: الهداية والإضلال بيد الله، و «المهتدي» - وهو السالك سبيل الحق، الراكبُ قصدَ المحجّة-في دينه، مَن هداه الله لذلك، فوفَّقه لإصابته".

قال ابن كثير: "يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له".

قال أبو الليث: "يعني: من يهده الله لدينه فهو المهتدي من الضلالة".

قال الشوكاني: "من هداه فلا مضل له".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ١٧٨]، أي: "ومن يخذله فلم يوفقه فهو الخاسر الهالك، فالهداية والإضلال من الله وحده".

قال أبو الليث: "يعني: ومن يضله عن دينه ويخذله فأولئك هم الخاسرون بالعقوبة".

قال ابن كثير: "ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن".

قال الشوكاني: "ومن أضله فلا هادي له، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن".

قال الطبري: أي: "و «الضالُّ»: من خذله الله فلم يوفقه لطاعته، ومن فعل الله ذلك به فهو «الخاسر»: يعني: الهالك".

بِهَا} الْحَقّ {وَلَهُمْ أَعْيُن لَا يُبْصِرُونَ بِهَا} دَلَائِل قُدْرَة الله بَصَر اعْتِبَار {وَلَهُمْ آذَان لَا يَسْمَعُونَ بِهَا} الْآيَات وَالْمَوَاعِظ سَمَاع تَدَبُّر وَاتِّعَاظ {أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ} فِي عَدَم الْفِقْه وَالْبَصَر وَالِاسْتِمَاع {بَلْ هُمْ أَضَلّ} مِنْ الْأَنْعَام لِأَنَّهَا تَطْلُب مَنَافِعهَا وَتَهْرُب مِنْ مَضَارّهَا وَهَؤُلَاءِ يَقْدَمُونَ عَلَى النَّار معاندة {أولئك هم الغافلون(١)}.

---

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ} [الأعراف: ١٧٩]، أي: "ولقد خلقنا للنار -التي يعذِّب الله فيها مَن يستحق العذاب في الآخرة- كثيرًا من الجن والإنس".

وجَهَنَّمَ اسم من أسماء النار، سميت بذلك إما لبعد قعرها، من قولهم: بئر جهنام، إذا كانت عميقة القعر، وقيل: مشتقة من الجهومة وهي الغلظة، سميت بذلك لغلظ أمرها في العذاب، فتكون ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ولقد خلقنا لجهنّم كثيرًا من الجن والإنس.. وقال جل ثناؤه: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس}، لنفاذ علمه فيهم بأنهم يصيرون إليها بكفرهم بربِّهم".

والأحاديث في هذا كثيرة، ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها".

عن ابن عباس: " {ولقد ذرأنا لجهنم}، خلقنا".

عن الحسن، في قوله: "{ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس}، قال: مما خلقنا".

قال مجاهد: "لقد خلقنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس".

قال سعيد بن جبير: "أولاد الزنا ممّا ذرأ الله لجهنم".

عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: "إن الله لما ذرأ لجهنم ما ذرأ، كان ولدُ الزنا ممن ذرأ لجهنم".

قال ابن كثير: "يقول تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا} أي: خلقنا وجعلنا {لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ =

=

الْجِنِّ وَالإِنْسِ} أي: هيأناهم لها، وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلائق، علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء».

وفي صحيح مسلم أيضا، من حديث عائشة بنت طلحة، عن خالتها عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، أنها قالت: دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى له، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. فقال رسول الله ﷺ أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم».

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- ثم يبعث إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات، فيكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد».

وتقدم أن الله -تعالى- لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، قال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي».

(كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ) أي: هيأناهم لها، وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلائق، علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة كما تقدم قريبا.

وفي الآية أن الجني الكافر يدخل النار، وهذا بالإجماع.

كما قال تعالى (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ).

وقال تعالى (قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ).

=

=

وقال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ).

- واختلف العلماء في مؤمنهم على قولين:

القول الأول: لا ثواب لهم إلا النجاة من النار. وهذا قول أبي حنيفة.

لقوله تعالى: (يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ).

القول الثاني: أنهم يدخلون الجنة. وهذا مذهب الجمهور.

لقوله تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) والخطاب للإنس والجن.

ولقوله تعالى (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ).

ولقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا).

ومما يؤيد هذا أن الله سبحانه قد جازى كافرهم بالنار وهو مقام عدل، فكيف لا يجازي محسنهم بالجنة وهو مقام فضل. وهذا القول هو الصحيح.

قوله تعالى: {لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا} [الأعراف: ١٧٩]، أي: "لهم قلوب لا يفهمون بها الحق".

أي: لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون أمر الآخرة، فصاروا بترك استعمال القلوب في فقه الحق، والعيون في إبصار الرشد، والآذان في سماع الوعظ بمثابة من عدمها.

وهو قول كثير من المفسرين منهم: الطبري، والماوردي، وابن الجوزي، وابن كثير، والبيضاوي.

قال مجاهد: "لا يفقهون بها شيئًا من أمر الآخرة".

قال الطبري: "معناه: لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجهنم من خلقه قلوب لا يتفكرون بها في آيات الله، ولا يتدبرون بها أدلته على وحدانيته، ولا يعتبرون بها حُجَجه

=

=

لرسله، فيعلموا توحيد ربِّهم، ويعرفوا حقيقة نبوّة أنبيائهم. فوصفهم ربُّنا جل ثناؤه بأنهم: {لا يفقهون بها}، لإعراضهم عن الحق وتركهم تدبُّر صحة نبوّة الرسل، وبُطُول الكفر".

قال ابن الجوزي: (أراد بهذا كله أمر الآخرة، فإنهم يعقلون أمر الدنيا).

قوله تعالى: {وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا} [الأعراف: ١٧٩]، أي: ولهم أعين" لا يبصرون بها دلائل قدرة الله بصر اعتبار".

قال مجاهد: أي: "الهدى".

قال الطبري: "معناه: ولهم أعين لا ينظرون بها إلى آيات الله وأدلته، فيتأملوها ويتفكروا فيها، فيعلموا بها صحة ما تدعوهم إليه رسلهم، وفسادِ ما هم عليه مقيمون، من الشرك بالله، وتكذيب رسله؛ فوصفهم الله بتركهم إعمالها في الحقّ، بأنهم لا يبصرون بها".

قال ابن كثير: وقوله تعالى: { لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها } يعني: ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سببا للهداية، كما قال تعالى: { وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات !رَحِمَهُ اللَّهُ# وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون } [الأحقاف: ٢٦]، وقال تعالى: { صم بكم عمي فهم لا يرجعون } [البقرة: ١٨] هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: { صم بكم عمي فهم لا يعقلون } [البقرة: ١٧١]، ولم يكونوا صما بكما عميا إلا عن الهدى، كما قال تعالى: { ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون } [الأنفال: ٢٣]، وقال: { فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور } [الحج: ٤٦]، وقال: { ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين (٣٦) وإنهم ليصدونهم عن السبيل

=

=

ويحسبون أنهم مهتدون } [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقال في الوسيط: قوله تعالى (وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها) أي: لهم أعين لا يبصرون بها ما في هذا الكون من براهين تشهد بوحدانية الله، مع أنها معروضة للأبصار مكشوفة للأنظار، فهم كما قال تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ) فهم لهم أعين ترى وتبصر ولكن بدون تأمل أو اعتبار، فكأن وجودها وعدمه سواء.

قوله تعالى: {وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا} [الأعراف: ١٧٩]، أي: "يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ".

قال مجاهد: أي: "الحقَّ".

قال الطبري: "آيات كتاب الله، فيعتبروها ويتفكروا فيها، ولكنهم يعرضون عنها، ويقولون: [لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [سورة فصلت: ٢٦].

والعرب تقول ذلك للتارك استعمالَ بعض جوارحه فيما يصلح له، ومنه قول مسكين الدارمي:

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ   حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي السِّتْرُ

وَأَصَمُّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا   سَمْعِي وَمَا بِالسَّمْعِ مِنْ وَقْرِ

فوصف نفسه لتركه النظر والاستماع بالعمى والصمم.

ومنه قول الآخر:

وَعَوْرَاءُ الكلام صَمَمْتُ عَنْهَا   وَإِنِّي لَوْ أَشَاءُ بِهَا سَمِيعُ

وَبَادِرَةٍ وَزَعْتُ النَّفْسَ عَنْهَا   وَقَدْ تَثِقَتْ مِنَ الْغَضَبِ الضُّلُوعُ

وذلك كثير في كلام العرب وأشعارها.

=

=

قال ابن كثير: "يعني: ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله [سببا للهداية] كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأحقاف: ٢٦] وقال تعالى: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ} [البقرة: ١٨] هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ} [البقرة: ١٧١] ولم يكونوا صمًا بكمًا عميًا إلا عن الهدى، كما قال تعالى: {وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٣]، وقال: {فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: ٤٦]، وقال {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

قوله تعالى: {أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ} [الأعراف: ١٧٩]، أي: "أولئك كالحيوانات في عدم الفقه والبصر والاستماع، بل هم أسوأ حالًا من الحيوانات فإنها تدرك منافعها ومضارها وهؤلاء لا يميزون بين المنافع والمضار".

أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يعيشها من ظاهر الحياة الدنيا كما قال تعالى (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ) أي: ومثلهم - في حال دعائهم إلى الإيمان -كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول.

(بَلْ هُمْ أَضَلُّ) أي: من الدواب.

لأن الأنعام تلك هي بنيتها وخلقتها لا تقصر في شيء ولا لها سبيل إلى غير ذلك، وهؤلاء معدون للفهم وقد خلقت لهم قوى يصرفونها وأعطوا طرقًا في النظر فهم

=

=

بغفلتهم وإعراضهم يلحقون أنفسهم بالأنعام فهم أضل على هذا. (ابن عطية).
وقيل: لأن الأنعام تبصر منافعها ومضارها، فتلزم بعض ما تبصره، وهؤلاء يعلم أكثرهم أنه معاند، فيُقدِم على النار.
قال مجاهد: "ثم جعلهم كالأنعام سواءً، ثم جعلهم شرًّا من الأنعام، فقال: {بل هم أضل}.
قال الطبري: يعني: "هؤلاء الذين ذرأهم لجهنم، هم كالأنعام، وهي البهائم التي لا تفقه ما يقال لها، ولا تفهم ما أبصرته لما يصلح وما لا يَصْلُح، ولا تعقل بقلوبها الخيرَ من الشر، فتميز بينهما. فشبههم الله بها، إذ كانوا لا يتذكَّرون ما يرون بأبصارهم من حُجَجه، ولا يتفكرون فيما يسمعون من آي كتابه، ثم قال: {بل هم أضل}، يقول: هؤلاء الكفرة الذين ذَرَأهم لجهنم، أشدُّ ذهابًا عن الحق، وألزم لطريق الباطل من البهائم، لأن البهائم لا اختيار لها ولا تمييز، فتختار وتميز، وإنما هي مسَخَّرة، ومع ذلك تهرب من المضارِّ، وتطلب لأنفسها من الغذاء الأصلح. والذين وصفَ الله صفتهم في هذه الآية، مع ما أعطوا من الأفهام والعقول المميِّزة بين المصالح والمضارّ، تترك ما فيه صلاحُ دنياها وآخرتها، وتطلب ما فيه مضارّها، فالبهائم منها أسدُّ، وهي منها أضل، كما وصفها به ربُّنا جل ثناؤه".
قال ابن كثير: "أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يعيشها من ظاهر الحياة الدنيا كما قال تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ} [البقرة: ١٧١]، أي: ومثلهم - في حال دعائهم إلى الإيمان - كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول؛ ولهذا قال في هؤلاء: {بَلْ هُمْ أَضَلُّ} أي: من الدواب؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبس بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء؛ ولأن الدواب
=

=

تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر، كانت الدواب أتم منه؛ ولهذا قال تعالى: {أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}.

وليس الغرض مما ذكرناه نفي الإدراكات عن حواسهم جملة، وإنما الغرض نفيها من جهة ما، تقول: فلان أصم عن الخنا، كما قالوا:

أصم عما ساءه سميع

أي: لا يسمع ما ساءه مع كونه سميعا، يضرب مثلا للرجل يتغافل عما يكره.

وقال آخر:

وَعَوْرَاءُ اللِّئَامِ صَمَمْتُ عَنْهَا ... وَإِنِّي لَوْ أَشَاءُ بِهَا سَمِيعُ

وقال مسكين الدارمي:

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ ... حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي السِّتْرُ

وَأَصَمُّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا ... سَمْعِي وَمَا بِالسَّمْعِ مِنْ وَقْرِ

فوصف نفسه لتركه النظر والاستماع بالعمى والصمم.

قال في التفسير الوسيط وقوله (بَلْ هُمْ أَضَلُّ) تنقيص لهم عن رتبة الأنعام، أي: بل هم أسوأ حالًا من الأنعام، إذ أن الأنعام ليس لها سوى الاستعدادات الفطرية التي تهديها أما الإنسان فقد زود إلى جانب الفطرة بالقلب الواعي، والعقل المدرك، والعين المبصرة، وزود بالقدرة على اتباع الهدى أو اتباع الضلال، فإذا لم يفتح بصره وقلبه وسمعه على الحق فإنه يكون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية.

وقال الزجاج (بَلْ هُمْ أَضَلُّ) لأن الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتسعى في

=

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠).

{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى} التِّسْعَة وَالتِّسْعُونَ الْوَارِد بِهَا الْحَدِيث وَالْحُسْنَى مُؤَنَّث الْأَحْسَن {فَادْعُوهُ} سَمُّوهُ {بِهَا وَذَرُوا} اُتْرُكُوا {الَّذِينَ يُلْحِدُونَ} مِنْ أَلْحَدَ وَلَحَدَ يَمِيلُونَ عَنْ الْحَقّ {فِي أَسْمَائِهِ} حَيْثُ اشْتَقُّوا منها أسماء لآلهتهم كاللات مِنْ الله وَالْعُزَّى مِنْ الْعَزِيز وَمَنَاة مِنْ الْمَنَّان {سَيُجْزَوْنَ} فِي الْآخِرَة

=

تحصيل منافعها وتحترز عن مضارها، وهؤلاء الكفار وأهل العناد أكثرهم يعلمون أنهم معاندون ومع ذلك فيصرون عليه، ويلقون أنفسهم في النار وفي العذاب، وقيل إنها تفر أبدًا إلى أربابها، ومن يقوم بمصالحها، والكافر يهرب عن ربه وإلهه الذي أنعم عليه بنعم لا حد لها.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩]، أي: "أولئك هم الغافلون عن الإيمان بالله وطاعته".

قال مجاهد:"ثم أخبر أنهم هم الغافلون".

قال عطاء: "عما أعد الله لأوليائه من الثواب، وما أعد لأعدائه من العقاب".

وقال الكلبي: "عن أمر الآخرة، وما فيها من العذاب".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين وصفتُ صفتهم، القومُ الذين غفلوا -يعني: سهوًا- عن آياتي وحُججي، وتركوا تدبُّرها والاعتبارَ بها والاستدلالَ على ما دلّت عليه من توحيد ربّها، لا البهائم التي قد عرّفها ربُّها ما سخَّرها له".

قال القرطبي: "أي: تركوا التدبر وأعرضوا عن الجنة والنار".

جَزَاء {مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} وَهَذَا قَبْل الْأَمْر بِالْقِتَالِ[١].

(١) قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: ١٨٠]، أي: "ولله سبحانه وتعالى الأسماء الحسنى، الدالة على كمال عظمته، وكل أسمائه حسن، فاطلبوا منه بأسمائه ما تريدون".
قال البيضاوي: "{ولله الأسماء الحسنى}، لأنها دالة على معان هي أحسن المعاني، والمراد بها الألفاظ وقيل الصفات. {فادعوه بها} فسموه بتلك الأسماء".
قال القرطبي: "أمر بإخلاص العبادة لله، ومجانبة المشركين والملحدين".
عن ابن عباس: " {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها}، ومن أسمائه: «العزيز الجبار»، وكل أسمائه حسن".
عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة، وتسعين اسما، من حفظها دخل الجنة، والله وتر يحب الوتر». وفي رواية: «من أحصاها».
وفي أخرى: «لله تسعة وتسعون اسما، مائة إلا واحدا، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر».
قال البخاري: «أحصاها: حفظها»، وفي رواية لمسلم نحوه، وليس فيه ذكر "الوتر"، هذه رواية البخاري، ومسلم.
والحسنى تأنيث الأحسن، والمعنى: لله الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها، لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها.
فأسماء الله كلها حسنى بالغة الحسن غايته، فليس فيها نقص بوجه من الوجوه ولا بحال من الأحوال.
وقد ذكر سبحانه أن له الأسماء الحسنى في أربعة مواضع من القرآن الكريم:
قال تعالى: (وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).
=

=

وقال تعالى: (قُلِ ادْعُوا اللّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى).

وقال تعالى: (اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى).

وقال تعالى: (هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى).

مثال: (الحي) من أسماء الله متضمن للحياة الكاملة التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال.

مثال: (العليم) اسم من أسماء الله تعالى متضمن للعلم الكامل الذي لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان.

والحسن في أسماء الله تعالى، يكون باعتبار كل اسم على انفراده، ويكون باعتبار جمعه إلى غيره فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال.

مثال ذلك (العزيز الحكيم) فإن الله تعالى يجمع بينهما في القرآن كثيرًا، فيكون كل منهما دالًا على الكمال الخاص الذي يقتضيه، وهو العزة في العزيز، والحكم والحكمة في الحكيم، والجمع بينهما دال على كمال آخر وهو أن عزته تعالى مقرونة بالحكمة، فعزته لا تقتضي ظلمًا وجورًا وسوء فعل، كما قد يكون من أعزاء المخلوقين، فإن العزيز منهم قد تأخذه العزة بالإثم، فيظلم ويجور ويسيء التصرف. وكذلك حكمه تعالى وحكمته مقرونان بالعز الكامل بخلاف حكم المخلوق وحكمته فإنهما يعتريهما الذل.

* هل أسماء الله محصورة؟ لا، غير محصورة.

عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ (ما قال عبد قط إذا أصابه هَمٌّ وحَزَنٌ: اللهمِ إني عبدُك وابنُ عبدك وابنُ أَمَتك، ناصيتي بيدكِ، ماضٍ فيَّ حُكْمُك، عدْلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سمَّيْتِ به نفسَك أو أنزلتَه في كتابك، أو علّمته أحدًا من خَلْقك، أو استأثرت به في علم الغيبِ عندك، أن تجعل القرآنَ ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاءَ حزني، وذَهَاب هَمِّي، إلاَّ أذهب الله ﷻ هَمَّه، وأبدله مكان

=

=

حُزْنه فَرَحًا"، قالوا: يا رسول الله، ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات؟، قال: "أجَلْ، ينبغى لمن سمعهنَّ أن يتعلمهنّ) رواه أحمد.

وما استأثر الله تعالى به في علم الغيب لا يمكن لأحد حصره ولا الإحاطة به.

فقوله ﷺ (أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ) دليل على أن من أسماء الله تعالى الحسنى ما استأثر به في علم الغيب عنده، فلم يطلع عليه أحدًا من خلقه، وهذا يدل على أنها أكثر من تسعة وتسعين.

قال شيخ الإسلام عن هذا الحديث: فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلَّهِ أَسْمَاءً فَوْقَ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ.

وقال أيضًا: قَالَ الخطابي وَغَيْرُهُ: فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهُ أَسْمَاءً اسْتَأْثَرَ بِهَا وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ: (إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ) أَنَّ فِي أَسْمَائِهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: إنَّ لِي أَلْفَ دِرْهَمٍ أَعْدَدْتهَا لِلصَّدَقَةِ وَإِنْ كَانَ مَالُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. وَاَللَّهُ فِي الْقُرْآنِ قَالَ: (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) فَأَمَرَ أَنْ يُدْعَى بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى مُطْلَقًا، وَلَمْ يَقُلْ: لَيْسَتْ أَسْمَاؤُهُ الْحُسْنَى إلا تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا.

وقال الشيخ ابن عثيمين: أسماء الله ليست محصورة بعدد معين، والدليل على ذلك قوله ﷺ في الحديث الصحيح (اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك.. إلى أن قال: أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك).

وما استأثر الله به في علم الغيب لا يمكن أن يُعلم به، وما ليس معلومًا ليس محصورًا.

- فإن قيل: ما الجواب عن حديث الباب إن لله تسعة وتسعين اسمًا....)؟

قال العلماء: هذا لا يدل على الحصر بهذا العدد، ولو كان المراد الحصر لكانت

=

=

العبارة: إن أسماء الله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة.
قال النووي: وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاء عَلَى أَنَّ هَذَا الْحَدِيث لَيْسَ فِيهِ حَصْر لِأَسْمَائِهِ سُبْحَانه وَتَعَالَى، فَلَيْسَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَسْمَاء غَيْر هَذِهِ التِّسْعَة وَالتِّسْعِينَ، وَإِنَّمَا مَقْصُود الْحَدِيث أَنَّ هَذِهِ التِّسْعَة وَالتِّسْعِينَ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّة، فَالْمُرَاد الْإِخْبَار عَنْ دُخُول الْجَنَّة بِإِحْصَائِهَا لَا الْإِخْبَار بِحَصْرِ الْأَسْمَاء، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيث الْآخَر: " أَسْأَلك بِكُلِّ اِسْم سَمَّيْت بِهِ نَفْسك أَوْ اِسْتَأْثَرْت بِهِ فِي عِلْم الْغَيْب عِنْدك "،
وقال الشيخ ابن عثيمين: وأما قوله ﷺ (إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّة) فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء، لكن معناه أن من أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة، فقوله (مَنْ أَحْصَاهَا) تكميل للجملة الأولى وليست استئنافية منفصلة، ونظير هذا قول العرب: عندي مائة فرس أعددتها للجهاد في سبيل الله. فليس معناه أنه ليس عنده إلا هذه المائة؛ بل هذه المائة معدة لهذا الشيء" اهـ.
- ما معنى الإحصاء في قوله (مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّة)؟
اخْتَلَفُ العلماء فِي الْمُرَاد بِإِحْصَائِهَا على أقوال:
القول الأول: معناه حفظها.
قال النووي: فَقَالَ الْبُخَارِيّ وَغَيْره مِنْ الْمُحَقِّقِينَ: مَعْنَاهُ: حَفِظَهَا، وَهَذَا هُوَ الْأَظْهَر؛ لِأَنَّهُ جَاءَ مُفَسَّرًا فِي الرِّوَايَة الْأُخْرَى (مَنْ حَفِظَهَا). (شرح مسلم).
وقال في (الأذكار) وهو قول الأكثرين.
القول الثاني: أي: أَطَاقَهَا أَيْ: أَحْسَنَ الْمُرَاعَاة لَهَا، وَالْمُحَافَظَة عَلَى مَا تَقْتَضِيه، وَصَدَّقَ بِمَعَانِيهَا.
وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: الْعَمَل بِهَا وَالطَّاعَة بِكُلِّ اِسْمهَا، وَالْإِيمَان بِهَا لَا يَقْتَضِي عَمَلًا.
قال الشيخ ابن عثيمين: معنى إحصاء هذه التسعة والتسعين الذي يترتب عليه
=

=

دخول الجنة، ليس معنى ذلك أن تكتب في رقاع ثم تكرر حتى تحفظ فقط، ولكن معنى ذلك:

أولًا: الإحاطة بها لفظا.

ثانيًا: فهمها معنى.

ثالثًا: التعبد لله بمقتضاها، ولذلك وجهان:

الوجه الأول: أن تدعو الله بها؛ لقوله تعالى (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) بأن تجعلها وسيلة إلى مطلوبك، فتختار الاسم المناسب لمطلوبك، فعند سؤال المغفرة تقول: يا غفور، وليس من المناسب أن تقول: يا شديد العقاب اغفر لي، بل هذا يشبه الاستهزاء، بل تقول: أجرني من عقابك.

الوجه الثاني: أن تتعرض في عبادتك لما تقتضيه هذه الأسماء؛ فمقتضى الرحيم الرحمة، فاعمل العمل الصالح الذي يكون جالبا لرحمة الله، ومقتضى الغفور المغفرة، إذا افعل ما يكون سببا في مغفرة ذنوبك، هذا هو معنى إحصائها.

- أسماء الله توقيفية، لا يجوز أن نسمي الله إلا بما سمى به نفسه أو سمى به رسوله ﷺ.

لقوله تعالى: (وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ). وإثبات اسم لله لم يسم به نفسه هذا من القول عليه بلا علم.

ولقوله ﷺ: (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) وإثبات اسم لله لم يسم به نفسه من قفو ما ليس لنا به علم.

ولقوله ﷺ: (وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى) والحسنى البالغة في الحسن كماله، وأنت إذا سميت الله باسم، فليس عندك أنه بلغ كمال الحسن، بل قد تسميه باسم تظن أنه حسن، وهو سيء ليس بحسن.

- أسماء الله مشتقة، أي أن كل اسم يتضمن الصفة التي اشتق منها، ولولا ذلك لم

=

=

تكن حسنى.

الخلاق: يضمن صفة الخلق.

العليم: يتضمن صفة العلم.

السميع: يتضمن صفة السمع.

(فَادْعُوهُ بِهَا) أي: فادعوه بتلك الأسماء، كأن تقول: يا رحمن ارحمنا، يا رزاق ارزقني.

(وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (ذروا) معناه اتركوا: وصيغة الأمر هنا للتهديد على التحقيق، وقد تقرر في فن الأصول في مباحث الأمر، وفي فن المعاني: أنَّ من الصيغ التي تأتي لها (افْعَل) أنها تأتي للتهديد والتحقيق أن الصورة هنا للتهديد، وهو قوله (وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ) بدليل قوله (سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

قال البيضاوي: أي: " واتركوا تسمية الزائغين فيها الذين يسمونه بما لا توقيف فيه، إذ ربما يوهم معنى فاسدا كقولهم يا أبا المكارم يا أبيض الوجه، أو لا تبالوا بإنكارهم ما سمى به نفسه كقولهم: ما نعرف إلا رحمان اليمامة، أو وذروهم وإلحادهم فيها بإطلاقها على الأصنام واشتقاق أسمائها منها كاللات من «الله»، والعزى من «العزيز» ولا توافقوهم عليه أو أعرضوا عنهم فإن الله مجازيهم".

قال الطبري: "وكان إلحادهم في أسماء الله، أنهم عدَلوا بها عمّا هي عليه، فسموا بها آلهتهم وأوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فسموا بعضها «اللات» اشتقاقًا منهم لها من اسم الله الذي هو «الله»، وسموا بعضها «العُزَّى» اشتقاقًا لها من اسم الله الذي هو «العزيز».

وفي قوله تعالى: {وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} [الأعراف: ١٨٠]، ثلاثة وجوه:

=

=

أحدها: معناه: يكذبون، قاله ابن عباس.

الثاني: يشركون، قاله قتادة.

الثالث: يحوّرون، حكاه الماوردي عن الأخفش.

الرابع: معناه: يجورون عن الحق ويعدلون. قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة.

الخامس: يدخلون فيها ما ليس منها. قاله الأعمش.

وأصل "الإلحاد" في كلام العرب: العدول عن القصد، والجورُ عنه، والإعراض. ثم يستعمل في كل معوَجّ غير مستقيم، ولذلك قيل للحْد القبر: "لحد"، لأنه في ناحية منه، وليس في وسطه.

وفي إلحادهم فيها، قولان:

أحدهما: اشتقاقهم آلهتهم من أسماء الله، كما سموا بعضها باللات اشتقاقًا من الله، وبعضها بالعزى اشتقاقًا من العزيز، قاله ابن عباس ، ومجاهد.

قال ابن عباس: "إلحاد الملحدين: أن دعوا «اللات» في أسماء الله".

قال مجاهد: "اشتقوا «العزى» من «العزيز»، واشتقوا «اللات» من «الله».

والثاني: تسميتهم الأوثان آلهة والله ﷻ أبا المسيح وعزير.

والإلحاد في أسماء الله تعالى هو الميل بها عما يجب فيها، وهو أنواع:

الأول: أن ينكر شيئا منها أو مما دلت عليه من الصفات والأحكام، كما فعل أهل التعطيل من الجهمية وغيرهم. وإنما كان ذلك إلحادا لوجوب الإيمان بها وبما دلت عليه من الأحكام والصفات اللائقة بالله، فإنكار شيء من ذلك ميل بها عما يجب فيها.

الثاني: أن يجعلها دالة على صفات تشابه صفات المخلوقين، كما فعل أهل التشبيه، وذلك لأن التشبيه معنى باطل لا يمكن أن تدل عليه النصوص، بل هي دالة على بطلانه، فجعلها دالة عليه ميل بها عما يجب فيها.

=

=

الثالث: أن يسمى الله تعالى بما لم يسم به نفسه، كتسمية النصارى له: (الأب)، وتسمية الفلاسفة إياه (العلة الفاعلة)، وذلك لأن أسماء الله تعالى توقيفية، فتسمية الله تعالى بما لم يسم به نفسه ميل بها عما يجب فيها، كما أن هذه الأسماء التي سموه بها نفسها باطلة، ينزه الله تعالى عنها.

الرابع: أن يشتق من أسمائه أسماء للأصنام، كما فعل المشركون في اشتقاق العزى من العزيز، واشتقاق اللات من الإله على أحد القولين، فسموا بها أصنامهم، وذلك لأن أسماء الله تعالى مختصة به، لقوله تعالى: (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا).

- والإلحاد بجميع أنواعه محرم، لأن الله تعالى هَدَّدَ الملحدين بقوله (وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

ومنه ما يكون شركا أو كفرًا حسبما تقتضيه الأدلة الشرعية.

قوله تعالى: {سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٨٠]، أي: "ينالون جزاء ما عملوا في الآخرة". وفي حكم الآية قولان:

أحدهما انها محكمة. ومعناها تهديد لهم وهذا لا ينسخ. وهذا قول الجمهور.

والثاني: أنهما منسوخة، نسخها الأمر بالقتال. وهذا قول ابن زيد.

قال ابن زيد: "هؤلاء أهل الكفر، وقد نُسِخ، نَسَخه القتال".

قال الطبري: "ولا معنى لما قال ابن زيد في ذلك من أنه منسوخ، لأن قوله: {وذروا الذين يلحدون في أسمائه}، ليس بأمر من الله لنبيّه ﷺ بترك المشركين أن يقولوا ذلك، حتى يأذن له في قِتالهم، وإنما هو تهديدٌ من الله للملحدين في أسمائه، ووعيدٌ منه لهم، كما قال في موضع آخر: {ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [سورة الحجر: ٣] الآية، وكقوله: {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [سورة العنكبوت: ٦٦] وهو كلام خرج مخرج الأمر

=

=

بمعنى الوعيد والتهديد، ومعناه: أنْ مَهِّل الذين يلحدون، يا محمد، في أسماء الله إلى أجل هم بالغوه، فسوف يجزون، إذا جاءهم أجل الله الذي أجلهم إليه، جزاءَ أعمالهم التي كانوا يعملونها قبل ذلك من الكفر بالله، والإلحاد في أسمائه، وتكذيب رسوله"

(منبهة): يشكل على البعض كون الله سمى نفسه بصفات وسمى عباده بنظير ذلك، فيتردد عند ذلك هل يثبت تلك الصفات لله حقيقة أم لا؟.

اعلم وفقني الله وإياك أن الألفاظ منها:

١- ما هو مترادف: هو ما اختلف لفظه واتحد معناه. مثال ذلك: الليث- الأسد- أسامة- الغضنفر، هذه ألفاظ مختلفة والمسمى بها واحد، فتسمى الألفاظ المترادفة.

٢ - ما هو مشترك: وهو ما اتحد لفظه واختلف معناه. مثال ذلك: لفظ: " العين ": فهي تطلق على العين الباصرة- والعين الجارية- والجاسوس- والحسد، فاللفظ واحد والمعاني مختلفة، وهذه تسمى الألفاظ المشتركة.

٣ - ما هو متباين: وهو ما اختلف لفظه ومعناه: مثال ذلك: السماء والأرض- والجنة والنار، فلكل لفظ من هذه الألفاظ معنى يختلف عن الآخر، فهذه تسمى الألفاظ المتباينة.

٤ - ما هو متواطيء: وهو ما اتفق لفظه ومعناه، وهو نوعان:

الأول: التواطؤ المطلق: وذلك إذا كان المعنى متساويًا في الجميع. مثاله: لفظ "الرجل" يقال: زيد رجل وعمر رجل، فالمعنى متساو في الجميع.

الثاني: التواطؤ المشكِّك: وذلك إذا كان المعنى متفاوتا متفاضلًا، وسمي بالمشكك لتشكك السامع هل هذا اللفظ من قبيل المتواطيء أم من المشترك؟.

مثاله: لفظ " النور" فيقال: نور الشمس ونور السراج، فالمعنى في الاثنين واحد،

=

=

ولكن هناك تفاوت وتفاضل، فشتان بين نور الشمس ونور السراج، فالأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد هي من الألفاظ المتواطئة التواطؤ المشكك، فالحق فيها هو أن يقال إنه بالنسبة للأسماء والصفات التي تطلق على الله وعلى العباد كالحي، والسميع، والبصير، والعليم، والقدير، والحياة، والسمع، والبصر، والعلم ونحوها هي حقيقة في الرب وحقيقة في العبد. ولكن للرب تعالى منها ما يليق بجلاله، وللعبد منها ما يليق به، وذلك لأن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاثة اعتبارات:

الاعتبار الأول: اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى أو العبد.

الاعتبار الثاني: اعتباره مضافًا إلى الرب مختصًّا به.

الاعتبار الثالث: اعتباره مضافًا إلى العبد مقيدًا به.

فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتًا للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله، وللعبد منه ما يليق به، وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراك المسموعات.

والبصير الذي يلزمه رؤية المبصرات، والعليم والقدير وسائر الأسماء.

فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها، فما لزم هذه الأسماء لذاتها فإثباتها للرب تعالى لا محذور فيه بوجه، بل يثبت له على وجه لايماثله فيه خلقه ولا يشابههم، فمن نفاه عنه لإطلاقه على المخلوق ألحد في أسمائه وجحد صفات كماله، ومن أثبته على وجه لا يماثل فيه خلقه به، كما يليق بجلاله وعظمته فقد بريء من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريق أهل السنة.

وما لزم الصفة لإضافتها إلى العبد وجب نفيه عن الله كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلى الغذاء ونحو ذلك، وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به، وكذلك ما يلزم علوَّه من احتياجه إلى ما هو

=

عال عليه وكونه محمولًا به، مفتقرًا إليه، محاطا به، كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالى، وما لزم الصفة من جهة اختصاصه تعالى بها فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه، كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم، وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق.

ومن الأمثلة على ذلك أن الله سمى نفسه حيا فقال: اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ [البقرة: ٢٥٥]، وسمى بعض عباده حيا فقال: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ [الروم: ١٩]، ليس هذا الحي مثل هذا الحي، وسمى نفسه سميعا بصيرا فقال: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا [النساء: ٥٨]، وسمى بعض خلقه سميعا بصيرا فقال: إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا [الإنسان: ٢] وليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير، وسمى نفسه بالملك فقال: الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ [الحشر: ٢٣] وسمى بعض عباده بالملك فقال: وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي [يوسف: ٥٠].

وكذلك سمى صفاته بأسماء، وسمى صفات عباده بنظير ذلك فقال في صفة العلم وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء [البقرة: ٢٥٥] وقال عن المخلوق: فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ [غافر: ٨٣] وليس العلم كالعلم، وكذلك وصف نفسه بالمشيئة ووصف عبده بالمشيئة فقال: لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [التكوير: ٢٨ - ٢٩] وكذلك وصف نفسه بالمحبة ووصف عبده بالمحبة فقال: فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ [المائدة: ٥٤]، ووصف نفسه بالمناداة فقال: وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا [مريم: ٥٢] ووصف عبده بالمناداة فقال: إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ [الحجرات: ٤]، ووصف نفسه بالتكليم في قوله:

=

وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا [النساء: ١٦٤] ووصف عبده بالتكليم في مثل قوله: وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ [يوسف: ٥٤]، وغيرها كثير.

فهل إطلاق هذه الأسماء والصفات على الله وعلى المخلوق هو من باب المشترك اللفظي، أو باب المتواطئ أو المشكك؟.

وقد بين شيخ الإسلام أن هذا التوافق بين أسماء الله وصفاته وأسماء المخلوقين وصفاتهم لا يجوز أن يكون من باب المشترك اللفظي، بل هو من باب المتواطئ أو المشكك؛ لأن هناك معنى كليا يفهم من مطلق صفة السمع أو البصر أو الحياة أو الوجود، وإن كان سمع الله وبصره وحياته ووجوده، يخصه لا يشاركه فيه أحد من الخلق، كما أن سمع المخلوق وبصره وحياته ووجوده يخصه. ومع تجويز شيخ الإسلام أن تكون من باب المتواطئ أو المشكك، إلا أنه يتعمق في ذكر الفرق بينهما، ولذلك فهو يرى أن القول بأنه من المتواطئ واضح في هذا الباب، وأن القول بأن المعنى الذي هو مدلول اللفظ العام ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام، لا مانع منه ما دامت حقيقة كل قسم تخصه لا يشركه فيه غيره، وأما الذي ظنه بعض الناس من أنه يخلص من هذا الاشتراك بجعل لفظ "الوجود" أو غيره من باب التشكيك، لكون واجب الوجود أكمل، كما يقال في لفظ السواد المقول على سواد القار وسواد الحدقة، ولفظ البياض المقول على بياض الثلج وبياض العاج فإن شيخ الإسلام يجيب عن هذا بقوله: "ولا ريب أن المعاني الكلية قد تكون متفاضلة في مواردها، بل أكثرها كذلك: وتخصيص هذا القسم بلفظ المشكك أمر اصطلاحي، ولهذا كان من الناس من قال: هو نوع من المتواطئ؛ لأن واضع اللغة لم يضع اللفظ العام بإزاء التفاوت الحاصل لأحدهما، بل بإزاء القدر المشترك"، ثم يقول شيخ الإسلام: "وبالجملة، فالنزاع في هذا لفظي،

=

=

فالمتواطئة العامة تتناول المشككة، وأما المتواطئة التي تتساوى معانيها فهي قسيم المشككة، وإذا جعلت المتواطئة نوعين: متواطئا عاما وخاصا، كما جعل الإمكان نوعين عاما وخاصا زال اللبس".

والقول بأن هذا التوافق ليس من قبيل المشترك اللفظي هو قول جماهير المسلمين، يقول شيخ الإسلام: "إن مذهب عامة الناس، بل عامة الخلائق من الصفاتية كالأشعرية والكرامية وغيرهم، أن الوجود (ليس) مقولا بالاشتراك اللفظي فقط، وكذلك سائر أسماء الله التي سمي بها، وقد يكون لخلقه اسم كذلك، مثل الحي والعليم والقدير؛ فإن هذه ليست مقولة بالاشتراك اللفظي فقط، بل بالتواطؤ، وهي أيضا مشككة؛ فإن معانيها في حق الله تعالى أولى، وهي حقيقة فيهما، ومع ذلك فلا يقولون: إن ما يستحقه الله تعالى من هذه الأسماء إذا سمي بها مثل ما يستحقه غيره، ولا أنه في وجوده وحياته وعلمه وقدرته مماثلا لخلقه، ولا يقولون أيضا إن له أو لغيره في الخارج وجودا غير حقيقتهم الموجودة في الخارج؛ بل اللفظ يدل على قدر مشترك (إذا) أطلق وجرد عن الخصائص التي تميز أحدهما"، ثم بين أن هذا لا يستعمل في اسما الله فقط ولا في اللغة أيضا، وإنما يذكر في مواضع تجرد عن الخصائص لأجل المناظرة فيقدر الأمر تقديرا.

ومع أن هذا هو قول جماهير الصفاتية وغيرهم إلا أن بعض من خاض في الفلسفة والمنطق كالرازي والآمدى والشهرستاني ظنوا – في بعض أقوالهم – أنه يجب أن يكون ما بين أسماء الله وأسماء المخلوقين من توافق مقولا بالاشتراك اللفظي، وقد بين شيخ الإسلام أن الذي دفعهم إلى هذا القول شبهتان:

إحداهما: شبهة الوقوع في التشبيه والتركيب.

والثانية: ظن ثبوت الكليات المشتركة في الخارج. أما الشبهة الأولى فيقول شيخ الإسلام: إن كثيرا من الناس "تنازعوا في الأسماء التي تسمى الله بها وتسمى بها

=

=

عباده كالموجود والحي والعليم والقدير، فقال بعضهم: هي مقولة بالاشتراك اللفظي حذرا من إثبات قدر مشترك بينهما، لأنهما إذا اشتركا في مسمى الوجود لزم أن يمتاز الواجب عن الممكن بشيء آخر فيكون مركبا، وهذا قول بعض المتأخرين كالشهرستاني والرازي في أحد قوليهما، وكالآمدي مع توقفه أحيانا"، ثم رد على الرازي والآمدي حين ظنا أن الأشعري وغيره ممن ينفي الأحوال ويقول إن وجود كل شيء عين حقيقته - يقولون بهذا القول وأنها مقولة بالاشتراك اللفظي، وزعما أن هذا لازم لهم، لأنهم لو قالوا هو متواطئ لكان بينهما قدر مشترك، فيمتاز أحدهما عن الآخر بخصوص حقيقته، والمشترك ليس هو المميز، فلا يكون الوجود المشترك هو الحقيقة المميزة. وبين أن هذا غلط عليهم. هذه شبهة التركيب، أما شبهة التشبيه فإنهم قالوا: إذا قلنا موجود وموجود، وحي وحي، لزم التشبيه. وأما الشبهة الثانية: فبسببها غلط الرازي وغيره "فإنه ظن أنه إذا كان هذا موجودا وهذا موجودا، والوجود شامل لهما، كان بينهما وجود مشترك كل في الخارج، فلابد من مميز يميز هذا عن هذا، والمميز إنما هو الحقيقة فيجب أن يكون هناك وجود مشترك وحقيقة مميزة".

وهذه مبنية على مسألة طالما غلط فيها أهل المنطق والفلسفة وأتباعهم، وهي مسألة الكليات المطلقة التي تكون في الأذهان، وتوهمهم أنها قد تكون موجودة في الأعيان فبهاتين الشبهتين: شبهة التشبيه، وشبهة الكليات الذهنية قال بعض هؤلاء الأشاعرة: إن الوجود وغيره إذا أطلق على الخالق والمخلوق كان من قبيل المشترك اللفظي. وقد رد عليهم شيخ الإسلام من وجوه أهمها:

١ - أن القول الذي يقول به جماهير الناس: جمهور المعتزلة، والمتكلمة الصفاتية من الأشعرية والكرامية والسالمية، وأتباع الأئمة الأربعة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، وأهل الحديث، والصوفية، أن هذه الأسماء حقيقة

=

=

للخالق تعالى، وإن كانت تطلق على خلقه حقيقة.

وأما الأقوال الأخرى فهي باطلة:

مثل قول من يقول: إنها حقيقة في الخالق مجاز في المخلوق، وهو قول أبي العباس الناشئ. ومثل قول من يقول بالعكس، أي أنها حقيقة في المخلوق مجاز في الخالق، كما هو قول غلاة الجهمية والقرامطة والباطنية الذين ينفون عن الله الأسماء الحسنى بل ويقولون: إن الله ليس بحي ولا عالم ولا جاهل

والصواب أنها حقيقة فيهما، ولا معنى لهذا القول إلا بإثبات المعنى المشترك في كل اسم أو صفة، ثم إن وجود الخالق يخصه ووجود المخلوق يخصه، وهكذا بقية الصفات، وكل من قال بالمشتري اللفظي فقد جانب قول أهل الحق، ولزمه أن يقول بواحد من تلك الأقوال الفاسدة.

٢ - أن كل موجودين فلابد بينهما من قدر مشترك وقدر مميز، وهذه مسألة التشبيه والتمثيل، وقد سبق تفصيل القول فيها، مع بيان اعتراف الأشاعرة، بل وتقريرهم أن، إثبات الصفات لله كالوجود والسمع والبصر والحياة وغيرها، لا يقتضي أن يكون الله مشابها لخلقه.

٣ - أن هؤلاء الذين يقولون بالمشترك اللفظي متناقضون، لأنهم مع قولهم إن الوجود مقول بالاشتراك اللفظي إلا أنهم يجعلونه "ينقسم إلى واجب وممكن، أو قديم ومحدث، كما تنقسم سائر الأسماء العامة الكلية لا كما تنقسم الألفاظ المشتركة كلفظ سهيل المقول على "سهيل" الكوكب، وعلى سهيل بن عمرو، فإن تلك لا يقال فيها: إن هذا ينقسم إلى كذا وكذا، ولكن يقال: إن هذا اللفظ يطلق على هذا المعنى، وعلى هذا المعنى، وهذا أمر لغوي لا تقسيم عقلي، وهناك (أي في المتواطئ) تقسيم عقلي: تقسيم المعنى الذي هو مدلول اللفظ العام، ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام". وتناقضهم في هذا واضح جدا لأن

=

=

التقسيم لا يكون في الألفاظ المشتركة إن لم يكن المعنى مشتركا.

٤ - أنه لو لم تكن هذه الأسماء متواطئة لأدى ذلك إلى عدم فهم المعاني المرادة في كل سياق، لأنه إذا قيل: إنها من باب المشترك اللفظي، كان ورود هذا الاسم في موضع له معنى. فإذا ورد في موضع آخر وأراد به المعنى الآخر - الذي يختلف عن الأول تماما - فإنه لا يفهم ذلك المعنى إلا بدليل يدل عليه، فإذا قيل المخلوق موجود، ثم قيل والله تعالى موجود، فالقول أن الوجود مقول بالاشتراك اللفظي يقتضي أن معنى الوجود في العبارة الثانية له معنى آخر بعيد عن مدلول اللفظ الأول، ولابد من دليل يدل على المعنى المقصود منه، وهذا لو طبق يؤدى إلى تخبط عجيب في فهم مدلول الألفاظ والعبارات.

٥ - أن القول بالاشتراك اللفظي يؤدي إلى موافقة الملاحدة والقرامطة، "فإنهم إذا جعلوا أسماء الله تعالى كالحي والعليم والقدير والموجود ونحو ذلك مشتركة اشتراكا لفظيا، لم يفهم منها شيء إذا سمي بها الله، إلا أن يعرف ما هو ذلك المعنى الذي يدل عليه إذا سمي بها الله، لا سيما إذا كان المعنى المفهوم منها عند الإطلاق ليس هو المراد إذا سمي بها الله.

ومعلوم أن اللفظ المفرد إذا سمي به مسمى لم يعرف معناه حتى يتصور المعنى أولا، ثم يعلم أن اللفظ دال عليه، فإذا كان اللفظ مشتركا فالمعنى الذي وضع له في حق الله لم نعرفه بوجه من الوجوه، فلا يفهم من أسماء الله الحسنى معنى أصلا، ولا يكون فرق بين قولنا: حي، وبين قولنا: عليم، وبين قولنا: جهول، أو "ديز" أو "كجز"، بل يكون بمنزلة ألفاظ أعجمية سمعناها ولا نعلم مسماها، أو ألفاظ مهملة لا تدل على معنى، كديز وكجز ونحو ذلك. وهذا هو لب المسألة، لأن القول بالمشترك اللفظي يؤدي إلى اعتقاد أن هذه الأسماء أو الصفات بالنسبة لله تعالى لها معان أخرى بعيدة عن المعاني التي دلت عليها هذه النصوص التي

=

=

وردت بها، "وإذا لم تكن أسماؤه متواطئة لم يفهم العباد من أسمائه شيئا أصلا، إلا أن يعرفوا ما يخص ذاته، وهم لم يعرفوا ما يخص ذاته، فلم يعرفوا شيئًا"، وهذا هو الإلحاد في أسمائه وآياته.

٦ - والذين قالوا بالمشترك اللفظي طبقوه أو التزموه في لفظ الوجود بالنسبة لله وبالنسبة للمخلوق، فقالوا: يشتركان في الوجود، ويمتاز أحدهما عن الآخر بحقيقته. وهنا يجيبهم شيخ الإسلام بأن القول في الحقيقة كالقول في الوجود، "فإن هذا له حقيقة، وهذا له حقيقة، كما أن لهذا وجودا ولهذا وجودا، وأحدهما يمتاز عن الآخر بوجود المختص به، كما هو ممتاز عنه بحقيقته التي تختص به. فقول القائل: إنهما يشتركان في مسمى الوجود، ويمتاز كل واحد منهما بحقيقته التي تخصه كما لو قيل: هما مشتركان في مسمى الحقيقة ويمتاز كل منهما بوجوده الذي يخصه. وإنما وقع الغلط لأنه أخذ الوجود مطلقا لا مختصا، وأخذت الحقيقة مختصة لا مطلقة، ومن المعلوم أن كلا منهما يمكن أن يوجد مطلقا، ويمكن أن يوجد مختصا، فإذا أخذا مطلقين تساويا في العموم، وإذا أخذا مختصين تساويا في الخصوص، وأما أخذ أحدهما عاما والآخر مختصا فليس هذا بأولى من العكس".

وهذا المنهج الإلزامي الدقيق كثيرا ما يستخدمه شيخ الإسلام، ومن ذلك قوله في مسألة الصفات التي أولها الأشاعرة، مثل صفة المحبة التي أولوها بإرادة الإنعام، لأنهم قالوا: إن المحبة ميل القلب إلى المحبوب وهذه صفة المخلوق، ولا يجوز أن تكون صفة لله، فهنا يقال لهم: يلزمكم في تأويلكم نظير ما لزمكم في المعنى الذي فررتم منه، فإنه يقال لكم في قولكم: إن المحبة إرادة الإنعام: ونحن لا نعلم من الإرادة إلا ميل النفس إلى المراد. فافعلوا في الإرادة ما فعلتم في المحبة فأولوها، أو فافعلوا في المحبة ما فعلتم في الإرادة فأثبتوها، وهكذا بقية الصفات.٧

=

=

- أما مسألة الكليات المشتركة التي تكون في الأذهان - وتوهم بعض الفلاسفة وأتباعهم أنها قد تكون موجودة في الأعيان - فإن شيخ الإسلام ناقشها طويلا، وبين أثناء ذلك أن حجج هؤلاء مدارها على أن المطلق المشترك الكلي موجود في الخارج، قال: "وهذا هو الموضع الذي ضلت فيه عقول هؤلاء، حيث اعتقدوا أن الأمور الموجودة المعينة اشتركت في الخارج في شيء، وامتاز كل منها عن الآخر بشيء، وهذا عين الغلط". وفي (منهاج السنة) قال مجيبا عن هذا الاشتباه والغلط الذي وقع فيه الرازي والآمدي وغيرها: "وأما حل الشبهة فهو أنهم توهموا أنه إذا قيل: إنهما مشتركان في مسمى الوجود، يكون في الخارج وجود مشترك هو نفسه في هذا، وهو نفسه في هذا، فيكون نفس المشترك فيهما، والمشترك لا يميز، فلابد له من مميز. وهذا غلط؛ فإن قول القائل: يشتركان في مسمى الوجود، أي: يشتبهان في ذلك ويتفقان فيه، فهذا موجود، وهذا موجود، ولم يشرك أحدهما الآخر في نفس وجوده البتة.

وإذا قيل: يشتركان في الوجود المطلق الكلي، فذاك المطلق الكلي لا يكون مطلقا كليا إلا في الذهن، فليس في الخارج مطلق كلي يشتركان فيه، بل هذا له حصة منه، وهذا له حصة منه، وكل من الحصتين ممتازة عن الأخرى"، ثم قال بعد مناقشة أهل المنطق: "فمسألة الكليات والأحوال وعروض العموم لغير الألفاظ، من جنس واحد، ومن فهم الأمر على ما هو عليه، تبين له أن ليس في الخارج شيء هو بعينه موجود في هذا وهذا. وإذا قال: نوعه موجود، أو الكلي الطبيعي موجود، أو الحقيقة موجودة، أو الإنسانية من حيث هي موجودة، ونحو هذه العبارات، فالمراد به أنه وجد في هذا نظير ما وجد في هذا أو شبهه أو مثله، ونحو ذلك. والمتماثلات يجمعها نوع واحد، وذلك النوع هو الذي بعينه يعم هذا ويعم هذا، لا يكون عاما مطلقا إلا في الذهن، وأنت إذا قلت: الإنسانية موجودة في الخارج،

=

=

والكلي الطبيعي موجود في الخارج، كان صحيحا: بمعنى أن تصوره الذهن كليا يكون في الخارج، لكنه إذا كان في الخارج لا يكون كليان كما أنك إذا قلت: زيد في الخارج، فليس المراد هذا اللفظ، ولا المعنى القائم في الذهن، بل المراد المقصود بهذا اللفظ موجود في الخارج".

ثم طبق شيخ الإسلام كلامه في مسألة الكليات على شبهة التشبيه التي أوقعت هؤلاء بقولهم بالمشترك اللفظي في مسألة الله وصفاته وما وافقها من أسماء المخلوقين وصفاتهم فقال: "وبهذا يتبين غلط النفاة في لفظ التشبيه؛ فإنه يقال: الذي يجب نفيه عن الرب تعالى اتصافه بشيء من خصائص المخلوقين، كما أن المخلوق لا يتصف بشيء من خصائص الخالق، أو أن يثبت للعبد شيء يماثل فيه الرب، وأما إذا قيل: حي وحي وعالم وعالم، وقادر وقادر، أو قيل: لهذا قدرة ولهذا قدرة، ولهذا علم، ولهذا علم، كان نفس علم الرب لم يشركه في العبد، ونفس علم العبد لا يتصف به الرب، تعالى عن ذلك، وكذلك في سائر الصفات، بل ولا يماثل هذا هذا، وإذا اتفق العلماء في مسمى العلم، والعالمان في مسمى العالم، فمثل هذا التشبيه ليس هو المنفي، لا بشرع ولا بعقل، ولا يمكن نفي ذلك إلا بنفي وجود الصانع". وليس هذا خاصا بالصفات التي أثبتها الأشاعرة، بل يشمل غيرها من الصفات كالنزول والاستواء والمجيء، فإثباتها لله، مع أن المخلوق قد يوصف بالنزول والاستواء والمجيء لا يقتضي المشابهة، والقول بأن ذلك من قبيل المشترك اللفظي يعطل هذه الصفات عن معانيها.

وقد بين شيخ الإسلام أن الآمدي - في مسألة الكليات المشتركة ووجودها في الأذهان - قد بين في كتابه (أحكام الأحكام) ما يناقضها، يقول: "والآمدي قد بين فساد هذا (أي المشترك الكلي وكونه قد يوجد في الأعيان) في غير موضع من كتبه، مثل كلامه في الفرق بين المطلق والمقيد والكلي والجزئي، وغير ذلك، وزيف

=

=

ظن من يظن أن الكلي يكون جزءا من المعين، وبين خطأ من يقول ذلك كالرازي وغيره، فلو رجع إلى أصله الصحيح الذي ذكره في الكلي والجزئي والمطلق والمعين، لعلم فساد هذه الحجة، ولكن لفرط التباس أقوالهم وما دخلها من الباطل الذي اشتبه عليهم وعلى غيرهم، تزلق أذهان كثير من الأذكياء في حججهم، ويدخلون في ضلالهم من غير تفطن لبيان فسادها، كالرازي والآمدي ونحوهما: تارة يمنعون وجود الصور الذهنية، حتى يمنعوا ثبوت الكلي في الذهن، وتارة يجعلون ذلك ثابتا في الخارج". ثم ذكر شيخ الإسلام أن الآمدي في دقائق الحقائق أثبت المشترك الكلي في الخارج، وفي أحكام الأحكام نفاها ورد على الرازي، كما ذكر بأن الرازي نفاها أيضا في الملخص، وبيان هذا التناقض الذي وقع فيه هؤلاء هو جزء من منهج شيخ الإسلام في ردوده عليهم.

٨ - وإضافة إلى ما سبق من ردود فإن شيخ الإسلام يبين هذه المسألة ويوضحها من خلال بيان منهج السلف في الصفات، القائم على إثبات هذه الصفات لله تعالى كما وردت من غير تمثيل ولا تكييف، ولا تحريف ولا تعطيل، ونظرا لأن هؤلاء إنما أوقعهم بالقول بالمشترك اللفظي الخوف من التشبيه، فقد أوضح شيخ الإسلام المسألة وبينها وضرب لذلك بعض الأمثلة المهمة:

(أ) فقد بين أن الأسماء والصفات نوعان:

نوع يختص به الرب، مثل الإله، ورب العالمين، ونحو ذلك، فهذا لا يثبت للعبد بحال، ومن هنا ضل المشركون الذين جعلوا لله أندادا. والثاني: ما يوصف به العبد في الجملة، كالحي والعالم والقادر، فهذا لا يجوز أن يثبت للعبد مثل ما يثبت للرب أصلا، فإنه لو ثبت له مثل ما يثبت له للزم أن يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر، ويجب له ما يجب له، ويمتنع عليه ما يمتنع عليه، وذلك يستلزم اجتماع النقيضين. وقد سبق تفصيل هذا في مبحث الألوهية والربوبية.

=

=

(ب) وبالنسبة للنوع الثاني مما يتفقان فيه، فهل يلزم منه التماثل؟ يوضح شيخ الإسلام ذلك ببيان أن هذه الأمور لها ثلاث اعتبارات:

أحدها: ما يختص به الرب، فهذا ما يجب له ويجوز ويمتنع عليه ليس للعبد فيه نصيب.

والثاني: ما يختص بالعبد، كعلم العبد وقدرته وحياته، فهذا إذا جاز عليه الحدوث والعدم لم يتعلق بذلك بعلم الرب وقدرته وحياته، فإنه لا اشتراك فيه. والثالث: المطلق الكلي، وهو مطلق الحياة والعلم والقدرة، فهذا المطلق ما كان واجبا له كان واجبا فيهما، ما كان جائزا عليه كان جائزا عليهما، وما كان ممتنعا عليه كان ممتنعا عليهما، فالواجب أن يقال: هذه صفة كمال حيث كانت، فالحياة والعلم والقدرة صفة كمال لكل موصوف والجائز عليهما اقترانهما بصفة أخرى كالسمع والبصر والكلام، فهذه الصفات يجوز أن تقارن هذه في كل محل - اللهم إلا إذا كان هناك مانع من جهة المحل لا من جهة الصفة -. وأما الممتنع عليهما، فيمتنع أن تقوم بهذه الصفات إلا بموصوف قائم بنفسه، هذا ممتنع عليهما في كل موضع فلا يجوز أن تقوم صفات الله بأنفسها، بل بموصوف، وكذلك صفات العباد لا يجوز أن تقوم بأنفسها، بل بموصوف".

وهذا المطلق الكلي الذي هو النوع الثالث، هو الذي من خلاله نفهم ما خطوبنا به، ولذلك فنحن نعلم مثلا أنه إذا وصف أحد بصفة، فإن هذه الصفة لابد أن تقوم بالموصوف، كما أننا نفرق بين صفة الحياة، والعلم والكلام، من غير أن يرتبط ذلك بتخصيص الموصوف بها، هل هو الخالق أو العبد، ولولا ذلك لكانت معرفتنا بأسماء الله وصفاته وآياته ألغازا وألفاظا أعجمية لا تفهم، ومن أراد أن يلتزم نفي التشبيه بنفي أي نوع من أنواع التشابه الذي يرد في المطلق الكلي فلابد أن يؤدي به الأمر إلى نفي وجود الخالق، ومتى أقر بوجود الخالق وأنه غير هذه

=

المخلوقات لزمه شيء من هذا. (ج) ومن الأصول التي قررها السلف وركز عليها شيخ الإسلام أن القول في الصفات كالقول في الذات، يحتذى حذوه، فكما أن لله ذاتا لا تشبه ذوات المخلوقين، فكذلك له صفات لا تشبه صفات المخلوقين، وإذا كان إثبات الذات لله إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات كيفية، وهذا أصل عظيم، مقنع جدا لمن تدبره، وهو مرتبط بما سبق من صفات المخلوق تخصه كما أن له ذاتا تخصه، وكذلك ربنا تبارك وتعالى له صفات تخصه وتليق به كما أن له ذاتا تخصه، ولا يخلط بينهما إلا مشبه ممثل، أو معطل ملحد في أسمائه وصفاته يريد أن يجعل ذلك سلما لتعطيله وتحريفه.

(د) ضرب المثل بنعيم أهل الجنة، وبالروح:

وهذان المثلان يكثر ورودهما في مناقشات شيخ الإسلام للأشاعرة ولغيرهم، وفي بيانه للمنهج الحق في الصفات، البعيد عن التأويل والتفويض والتمثيل والتشبيه.

يقول شيخ الإسلام مستدلا لهذه المسألة: "بل أبلغ من ذلك أن الله أخبر أن في الجنة من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح ما ذكره في كتابه، كما أخبر أن فيها لبنا، وعسلا، وخمرا، ولحما، وحريرا، وذهبا، وفضة، وحورا، وقصورا، ونحو ذلك، وقد قال ابن عباس: (ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء)، فتلك الحقائق التي في الآخرة ليست مماثلة لهذه الحقائق التي في الدنيا، وإن كانت مشابهة المخلوق، فكيف يجوز أن يظن أن فيما أثبته الله تعالى من أسمائه وصفاته مماثلا لمخلوقاته وأن يقال: ليس ذلك بحقيقة، وهل يكون أحق بهذه الأسماء الحسنى والصفات العليا من رب السموات والأرض؟ مع أن مباينة المخلوقات أعظم من مباينة كل مخلوق".

وفي موضع آخر شرح ذلك فقال: "إنه يعلم الإنسان أنه حي عليم قدير سميع

=

بصير متكلم، فيتوصل بذلك إلى أن يفهم ما أخبر الله به عن نفسه من أنه حي عليم قدير سميع بصير متكلم، فإنه لو لم يتصور لهذه المعاني من نفسه ونظره إليه لم يمكن أن يفهم ما غاب عنه، كما أنه لولا تصوره لما في الدنيا من العسل واللبن والماء والخمر والحرير والذهب والفضة، لما أمكنه أن يتصور ما أخبر به من ذلك من الغيب، لكن لا يلزم أن يكون الغيب مثل الشهادة فقد قال ابن عباس... "وذكر قوله السابق، وشرح الفرق بين نعيم الجنة والدنيا وأن نعيم الجنة لا يفسد ولا يتغير، ثم قال: "فإذا كان ذلك المخلوق يوافق ذلك المخلوق في الاسم، وبينهما قدر مشترك وتشابه، علم به معنى ما خوطبنا به، مع أن الحقيقة ليست مثل الحقيقة، فالخالق جل جلاله أبعد عن مماثلة مخلوقاته، مما في الجنة لما في الدنيا. فإذا وصف نفسه بأنه حي عليم سميع بصير قدير، لم يلزم أن يكون مماثلا لخلقه، إذ كان بعدها عن مماثلة خلقه أعظم من بعد مماثلة كل مخلوق لكل مخلوق....

وهذا المثل واضح جدا، مبين للمسألة، وقد وفق شيخ الإسلام في عرضه وشرحه، وهو مما يسلم به مؤولة الصفات، لأنهم يثبتون البعث والجنة والنار، وقد سبق في موضوع تسلط الفلاسفة والقرامطة على المتكلمين بيان أن هؤلاء الملاحدة وصموهم بالتناقض لكونهم أولوا نصوص الصفات ولم يؤولوا نصوص المعاد والجنة والنار، ومعلوم أن الملاحدة طردوا الأمرين نفيا، وأهل السنة طردوهما إثباتا، وهؤلاء تناقضوا، وشيخ الإسلام بينما يضرب هذا المثل - مثل نعيم الجنة - كأنه يريد أن يقرن بين مسألة دلالة النصوص وأنها واحدة في الصفات والمعاد، - وقد شرحها في عرضه لتسلط الملاحدة - ومسألة ما يفهم من النصوص، وأن نصوص النعيم إذا كانت تفهم لأنها تشبه نعيم الدنيا مع ما بينهما من الاختلاف في الحقيقة والكيفية، فكذلك نصوص الصفات تفهم وتعلم ولا تقتضي موافقتها في الاسم لصفات العباد أن تكون مثلها أو مشابهة لها. وكذلك مثل الروح، فإنها "إذا

=

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)

{وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّة يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} هُمْ أُمَّة مُحَمَّد ﷺ كَمَا فِي حَدِيثٍ(١).

=

كانت موجودة، حية، عالمة، قادرة، سميعة بصيرة، تصعد وتنزل، وتذهب وتجيء، ونحو ذلك من الصفات، والعقول قاصرة عن تكييفها وتحديدها؛ لأنهم لم يشاهدوا لها نظيرا، والشيء إنما تدرك حقيقته: إما بمشاهدته، أو بمشاهدة نظيره، فإذا كانت الروح متصفة بهذه الصفات مع عدم ماثلتها لما يشاهد من المخلوقات، فالخالق أولى بمباينته لمخلوقاته، مع اتصافه بما يستحقه من أسمائه وصفاته، وأهل العقول أعجز عن أن يحدوه أو يكيفوه منهم عن أن يحدوا الروح أو يكيفوها....

فإذا أحطت بهذه القاعدة خبراً وعقلتها كما ينبغي خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين: آفة التعطيل وآفة التشبيه.

فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور أثبت لله الأسماء الحسنى والصفات العلى حقيقة فخلصت من التعطيل، ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم، فخلصت من التشبيه، فتدبر هذا الموضع واجعله جنتك التي ترجع إليها في هذا الباب، والله الموفق للصواب.

(١) قوله تعالى: (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ) أي: يعملون به، (وَبِهِ يَعْدِلُونَ) أي: وبالعمل به يعدلون.

قال الطبري: يقول: "ومن الخلق الذين خلقنا.

قوله تعالى: {أُمَّةٌ يَهْدُونَ} [الأعراف: ١٨١]، أي:"أمة مستمسكة بشرع الله قولًا وعملًا يدعون الناس إلى الحق".

قال الطبري: "يعني جماعة يهتدون بالحق".

=

=

قال ابن كثير: أي: "قائمة بالحق، قولا وعملا، {يَهْدُونَ بِالْحَقِّ} يقولونه ويدعون إليه".

قوله تعالى: {وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف: ١٨١]، أي: "وبه يعملون ويقضون".

قال الطبري: "يقول: وبالحق يقضُون ويُنصفون الناس".

قال ابن كثير: أي: "يعملون ويقضون، وقد جاء في الآثار: أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية، هي هذه الأمة المحمدية".

قال القرطبي: "وقيل: هم الذين آمنوا بنبينا محمد عليه السلام من أهل الكتاب. وقيل: هم قوم من بني إسرائيل تمسكوا بشرع موسى قبل نسخه، ولم يبدلوا ولم يقتلوا الأنبياء".

عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة - وفي رواية -: حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك - وفي رواية -: وهم بالشام".

وعن ابن جريج، قوله: " {أمة يهتدون بالحق وبه يعدلون}، قال ابن جريج: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: هذه أمتي! قال: بالحق يأخُذون ويعطون ويَقْضُون".

وعن قتادة، قوله: " {وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون}، بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول إذا قرأها: هذه لكم، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلَها: (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)، [سورة الأعراف: ١٥٩].

عن الربيع بن أنس في قوله: " {وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون}، قال: قال النبي ﷺ: إن من أمتي قوما على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى أنزل".

قال السعدي: (وَبِهِ يَعْدِلُونَ) بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء والحقوق والمقالات، وغير ذلك، وهؤلاء هم أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، وهم الذين أنعم اللّه عليهم بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي

=

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢).

{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} الْقُرْآن مِنْ أَهْل مَكَّة {سنستدرجهم} نأخذهم قليلا قليلا {من حيث لا يعلمون}.

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣).

=

بالصبر، وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله وعلو منزلته، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قال الرازي: اعلم أنه تعالى ذكر في قصة موسى قوله (وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ) فلما أعاد الله تعالى هذا الكلام ههنا حمله أكثر المفسرين على أن المراد منه قوم محمد ﷺ.

قال ابن عطية: هذه آية تتضمن الخبر عن قوم مخالفين لمن تقدم ذكرهم في أنهم أهل إيمان واستقامة وهداية، وظاهر لفظ هذه الآية يقتضي كل مؤمن كان من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، قال النحاس: فلا تخلو الدنيا في وقت من الأوقات من داع يدعو إلى الحق.

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) من أهل مكة وغيرهم.

قال القاضي ابو محمد: سواء بعد صوته أو كان خاملًا، وروي عن كثير من المفسرين أنها في أمة محمد ﷺ، وروي في ذلك حديث رسول الله ﷺ قال: هذه الآية لكم، وقد تقدم مثلها لقوم موسى.

- قال القرطبي: دلّت الآية على أن الله ﷻ لا يُخْلِي الدنيا في وقت من الأوقات من داعٍ يدعُو إلى الحق.

{وَأُمْلِي لَهُمْ} أَمْهِلْهُمْ {إِنَّ كَيْدِي مَتِين} شَدِيد لا يطاق[(١)].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن السدي: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)}؛ يقول: كف عنهم وأخرهم على رسلهم إن مكري شديد، ثم نسخها الله؛ فأنزل: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} [التوبة: ٥] الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦١٨) ونسبه إلى أبي الشيخ.

* قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الأعراف: ١٨٢]، أي: "والذين كذَّبوا بآياتنا، من أهل مكة وغيرهم، فجحدوها، ولم يتذكروا بها".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: والذين كذبوا بأدلتنا وأعلامِنا، فجحدوها ولم يتذكروا بها".

قال السعدي: "أي: والذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺ، من الهدى فردوها ولم يقبلوها".

قوله تعالى: {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف: ١٨٢]، أي: "سنأخذهم قليلًا وندنيهم من الهلاك نم حيث لا يشعرون".

أي: سنأخذهم قليلا، قليلا، ونقربهم من الهلاك من حيث لا يشعرون، قال البيضاوي: وذلك بأن تتواتر عليهم النعم، فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم، فيزدادوا بطرا وانهماكا في الغى، حتى تحق عليهم كلمة العذاب.

قال الطبري: يقول: "سنمهله بغِرَّته ونزين له سوء عمله، حتى يحسب أنه فيما هو عليه من تكذيبه بآيات الله إلى نفسه محسن، وحتى يبلغ الغايةَ التي كُتِبَتْ له من المَهَل، ثم يأخذه بأعماله السيئة، فيجازيه بها من العقوبة ما قد أعدَّ له. وذلك استدراج الله إياه".

قال ابن كثير: "معناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا، حتى =

=
يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

قال التستري: "يعني: نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها، فإذا سكنوا وحجبوا عن المنعم أخذوا".

قال الكلبي: "نزين لهم أعمالهم فنهلكهم".

وقال الضحاك: "كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة".

وقال عطاء: "سنمكر بهم من حيث لا يعلمون".

قال السدي: "سنأخذهم من حيث لا يعلمون".

قال سفيان الثوري: "نسبغ عليهم النعمة وننسيهم الشكر".

وقال الخليل بن أحمد: "سنطوي وإن أعمارهم في اغترار منهم".

قال السعدي: "بأن يدر لهم الأرزاق".

قال البغوي: "قيل: نأتيهم من مأمنهم، كما قال: {فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا} [الحشر: ٢].

قال الشوكاني: "أي: سنستدنيهم إلى إهلاكهم بتوافر النعم وتزايدها عليهم ليزدادوا بطرًا وغفلة حتى يهلكهم الله وهم في أشدّ الغفلة... {مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ} أي: من المكان الذي لا يعلمون أنّا سنستدرجهم، بل هم يظنون أن تلك النعم مسابقة لهم في الخيرات، وأنهم ينالون بعد ذلك أحسن منه، كما قال جل وعلا: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ (٥٦)} [المؤمنون: الآيتان ٥٥، ٥٦].

قال الزمخشري: "ومعنى {سنستدرجهم}: سنستدنيهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم
=

=

ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم. وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم في الغى، فكلما جدد عليهم نعمة ازدادوا بطرا وجددوا معصية، فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم، ظانين أن مواترة النعم أثرة من الله وتقريب، وإنما هي خذلان منه وتبعيد، فهو استدراج الله تعالى، نعوذ بالله منه".

قال السمعاني: "قال الأزهري: الاستدراج: هو الأخذ قليلا قليلا، ومنه درج الكتاب، وقيل: الاستدراج من الله هو أن العبد كلما ازداد معصية زاده الله – تعالى – نعمة، وقيل: هو أن يكثر عليه النعم وينسيه الشكر، ثم يأخذه بغتة؛ فهذا هو الاستدراج من حيث لا يعلمون".

قال الماوردي: {من حيث} " لا يعلمون بالاستدراج، أو لا يعلمون بالهلكة، و «الاستدراج» أن تنطوي على حالة منزلة بعد منزلة".

وأصل "الاستدراج": اغترارُ المستدرَج بلطف من استدرجه، حيث يرى المستدرَج أن المستدرِج إليه محسنٌ، حتى يورِّطه مكروهًا.

و «الاستدراج»: "استفعال" من "الدرجة"، بمعنى: الاستصعاد، أو الاستنزال درجة بعد درجة، قال الأعشى:

لئنْ كُنتَ في جُبٍّ ثمانينَ قَامةً ... ورُقِّيتَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بسُلَّمِ

ليسْتَدْرِجَنْكَ القولُ حتى تَهرَّهُ ... وتَعْلَمَ أني عنكُم غير مُفْحَم

وتَشْرق بالأمرِ الذي قد أَذَعْتَه ... كما شَرِقَتْ صدرُ القناةِ من الدَّمِ

فقوله: «ليستدرجنك القول» أي: لينزلنك درجة درجة حتى ترى ما تكرهه ومنه: درج الصبى، إذا قارب بين خطاه. وأدرج الكتاب: طواه شيئا بعد شيء. ودرج القوم: مات بعضهم في أثر بعض.

وفي اشتقاق: «الاستدراج»، قولان:

=

=

أحدهما: أنه مشتق من الدرج لانطوائه على شيء بعد شيء.

والثاني: أنه مشتق من الدرجة لانحطاطه من منزلة بعد منزلة.

قال الثعلبي: "قال أهل المعاني: الاستدراج أن ندرج إلى الشيء في خفية قليلا قليلا ولا يباغت ولا يجاهر. يقال: استدرج فلانا حتى تعرف ما صنع أي لا يجاهر ولا يهجم عليه، قال: ولكن استخرج ما عنده قليلا قليلا وأصله من [الدرج] وذلك أن الراقي والنازل يرقى وينزل مرقاة مرقاة فاستعير [هذا عنه]. ومنه: الكتاب إذا طوى شيئا بعد شيء، ودرج القوم إذا مات بعضهم في دار بعض، ودرج الصبي إذا قارب من خطاه في المشي".

قال القرطبي: "قيل لذي النون: ما أقصى ما يخدع به العبد؟ قال: بالألطاف والكرامات، لذلك قال سبحانه وتعالى: {سنستدرجهم من حيث لا يعلمون}، نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر، وأنشدوا:

أَحسنتَ ظنَّك بالأيَّام إِذْ حَسُنت ... ولم تخَفْ سُوءَ ما يأتي به القَدَرُ

وسالَمَتْكَ اللَّيالي فاغتررتَ بها ... وعند صفْو الليالي يحدُث الكَدَرُ"

قوله تعالى: {وَأُمْلِي لَهُمْ} [الأعراف: ١٨٣]، أي: "وأمهل هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا حتى يظنوا أنهم لا يعاقبون، فيزدادوا كفرًا وطغيانًا، ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما في الحديث الشريف " إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته".

قال السمعاني: "أي: أمهل لهم وأؤخر لهم".

قال ابن كثير: "أي: وسأملي لهم، أطول لهم ما هم فيه.

قال القرطبي: "أي: أطيل لهم المدة وأمهلهم وأؤخر عقوبتهم".

قال البغوي: "أي: أمهلهم وأطيل لهم مدة عمرهم ليتمادوا في المعاصي".

قال السعدي: "أي: أُمْهِلُهُم حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون ولا يعاقبون، فيزدادون كفرا وطغيانا، وشرا إلى شرهم، وبذلك تزيد عقوبتهم، ويتضاعف عذابهم،

=

فيضرون أنفسهم من حيث لا يشعرون".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وأُؤخر هؤلاء الذين كذّبوا بآياتنا، ليبلغوا بمعصيتهم ربهم، المقدارَ الذي قد كتبه لهم من العقاب والعذاب ثم يقبضهم إليه.. وأصل «الإملاء»: من قولهم: مضى عليه مليٌّ، ومِلاوَة ومُلاوَة، ومَلاوة- بالكسر والضم والفتح- من الدهر، وهي الحين، ومنه قيل: انتظرتُك مليًّا".

قال الثعلبي: "يعني: أمهلهم وأطيل من الملاواة وهو الدهر، ومنه مليت أي غشت دهرا".

قال الشوكاني: "عبّر في الفعل الأول بصيغة الجمع للتعظيم قال: {سَنَسْتَدْرِجُهُم} وعبّر في الثاني بهمزة المتكلم {وَأُمْلِي لَهُمْ} ومعنى قوله جل وعلا: {وَأُمْلِي لَهُمْ} أي: سأملي لهم، وأصل مادة (أملى): وأملى يملي أصلها من (المَلاَوَة) بالواو، فلام المادة: واو. والمَلاَوَة: الزمن. ومعنى {وَأُمْلِي لَهُمْ}: أُؤَخِّرهم وأمهلهم مَلاَوَة، أي: زمنًا غير قليل كما هو معروف، فالعرب تقول: «أمليت له» و «أملى له»: إذا أخَّره مَلاَوَة من الزمن، فأصل الياء مبدلة من واو، والمَلاَوَة: هي الزمن، ومنه قوله تعالى عن أبي إبراهيم: {وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا} [مريم: آية ٤٦] أصل إحدى الياءين واو. أي: زمنًا غير قصير. وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول المهلهل يرثي أخاه كليبًا:

فَتَصَدَّعَتْ صُمُّ الجِبَالِ لِفَقْدِهِ ... وَبَكَتْ عَلَيْهِ المُرْمِلاتُ مَلِيَّا

أي: مَلاَوَة من الزمن غير قليلة.

ومن هنا كانت العرب تقول لليل والنهار: المَلَوَانِ، ومنه قول تميم بن مقبل:

أَلاَ يا ديَارَ الحيِّ بالسَّبُعَان ... أملَّ عليها بالبِلَى المَلَوَان

وتقول العرب: «مَلَوُ الليل والنهار» معناه: زمن الليل والنهار، ومنه قوله:

=

نَهارٌ ولَيْلٌ دائِمٌ مَلَواهُما على كُلِّ حالِ المَرءِ يَختَلِفَانِ

وتقول العرب: «تمليت العيش» و «تملى فلان العيش» أي: عاش في حياته مَلاَوَة من الزمن، وهو معنى معروف في كلامها، ومنه قول الأعلم بن جرادة السعدي -أو شاعر آخر من شعراء تيم، أعني تيم الرباب- قوله:

ألَمْ ترَ ما لاقيتُ والدَّهر أعصرٌ ومن يَتَمَلَّ العيش يَرْأَى ويسمعُ

فقوله: {وَأُمْلِي لَهُمْ} أي: أُمهلهم وأُؤخرهم ملاوة من الزمن -والملاوة مثلثة الميم- أي: زمنًا غير قصير، وأُنعم عليهم حتى يغتروا بتلك النعم فأُهلكهم وهم في أشد غفلة، هذا معنى: {وَأُمْلِي لَهُمْ}، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) أنّ النبي ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم» يعني: يمهله ويؤخره ملاوة من الزمن «حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم تلا رسول الله ﷺ: {وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} " [هود: آية ١٠٢].

قوله تعالى: {إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [الأعراف: ١٨٣]، أي:"إن أخذي وعقابي قوي شديد".

قال ابن عباس: "إن مكري شديد".

قال ابن كثير: "أي: قوي شديد".

قال السعدي: "أي: قوي بليغ".

قال البغوي: "أي: إن أخذي قوي شديد".

قال الثعلبي: "أي: أخذي قوي مديد، [قيل: نزلت]: في المستهزئين، فقتلهم الله في ليلة واحدة".

قال القرطبي: "أي شديد قوي. وأصله من المتن، وهو اللحم الغليظ الذي عن جانب الصلب. قيل: نزلت في المستهزئين من قريش قتلهم الله في ليلة واحدة بعد أن أمهلهم مدة. نظيره: {حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً} [الأنعام: ٤٤].

=

=

قال الزمخشري: "سماه «كيدا»، لأنه شبيه بالكيد، من حيث أنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان".

قال الطبري: "«الكيد»: هو المكر، وقوله: {متين}، يعني: قويٌّ شديدٌ، ومنه قول الشاعر:

عدلن عدول الناس وأقبح   يَبْتَلِي أَفَانِينَ مِنْ أُلْهُوبِ شَدٍّ مُمَاتِنِ

يعني: سيرًا شديدًا باقيًا لا ينقطع".

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "إن الله سبحانه وتعالى يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده، وكيده سبحانه استدراجهم من حيث لا يعلمون، والإملاء لهم حتى يأخذهم على غِرّة، فإذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسنًا لا قُبْحَ فيه فيعطيهم ويعافيهم وهو يستدرجهم حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة".

قال الشنقيطي: الكيد: في لغة العرب معناه: المكر، وهو أن يكون الفاعل يبطن غير ما يظهر، وسمى الله هذا الاستدراج كيدًا لأن ظاهره إنعام وإغداق نعم وباطنه استدراج يستدنيهم به ويستدرجهم إلى الموت والعذاب الدائم الذي يخلدون فيه.

قلت قد تقدم القول في صفة المكر والخداع والإسهزاء تحت الآية رقم (١٥) من سورة البقرة.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: بيّن الله (جل وعلا) في هذه الآية أنّه يستدرج الكافرين فيغدق عليهم نعمه وهم يصرون على الكفر به، حتى تبطرهم النعم وتتزايد غفلتهم، فيستمروا على ذلك حتى تنتهي آجالهم فيأخذهم الله (جل وعلا) في غفلتهم بعذابه وإهلاكه ثم يصيرون إلى النار.

قال تعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا

=

=
أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ) أي: فلما تركوا وأعرضوا عما جاءهم من التذكير وجعلوه وراء ظهورهم.

فالنسيان هنا الترك، لأن النسيان لو كان على حقيقته لم يؤاخذوا به ، إذ ليس هو من فعلهم (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق والرخاء والأنعام ومن كل ما يختارون ، استدراجًا منه تعالى وإملاء لهم ، عياذًا بالله من مكره ، ولهذا قال (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا) فرح بطر ومرح ، وهذا الفرح المذموم كما قال تعالى (إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) وهو الفرح على المعصية (بِمَا أُوتُوا) أي: بما أعطوا من الأموال والأولاد والأرزاق (أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً) أي استأصلناهم وسطونا بهم.

(أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً) أي: فجأة ، أهلكناهم من غير مقدمات.

وهذا أشد ما يكون من العذاب ، أن يؤخذوا على غرة وغفلة وطمأنينة ، ليكون أشد لعقوبتهم وأعظم لمصيبتهم.

(فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) آيسون من كل خير.

عن عقبة بن عامر. عن النبي ﷺ قال (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج ، ثم تلا رسول الله ﷺ: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ).

قال الحسن: مكَر بالقوم ورب الكعبة ، أعطُوا حاجتهم ثم أخذوا.

وقال الحسن: من وسّع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له.

وفي حكم الآية قولان:

=

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤).

{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا} فَيَعْلَمُوا {مَا بِصَاحِبِهِمْ} مُحَمَّد ﷺ {مِنْ جِنَّة} جُنُون {إِنْ} مَا {هُوَ إِلَّا نَذِير مُبِين} بَيِّن الْإِنْذَار[1].

=

أحدهما: أنهما محكمة، والمراد بكيده: مجازاة أهل الكيد، والمكر، وهذه خبر.

والثاني: أن معنى الآية الأمر للنبي ﷺ بمتاركتهم، ونسخ معناها بآية السيف.

قال ابن الجوزي: "وهذا قول لا يلتفت إليه".

(١) ذكر سبب النزول.

عن قتادة؛ قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا، فدعا قريشًا؛ فجعل يفخذهم فخذًا فخذًا: يا بني فلان، يا بني فلان فحذرهم بأس الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون؛ بات يصوت إلى الصباح أو حتى أصبح؛ فأنزل الله تبارك وتعالى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ٩٣)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٢٤ رقم ٨٥٩٢) من طريق يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به.

وهذا مرسل صحيح الإسناد.

* قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ} [الأعراف: ١٨٤]، أي: "أو لم يتفكر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا فيتدبروا بعقولهم، ويعلموا أنه ليس بمحمد جنون؟".

والتفكر: هو أنْ يُعمل الإنسان فكره حتى يدرك حقيقة الشيء.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: أو لم يتفكر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، فيتدبروا بعقولهم، ويعلموا أن رسولَنا الذي أرسلناه إليهم، لا جنَّة به ولا خَبَل، وأن الذي دعاهم إليه هو الرأي الصحيح، والدين القويم، والحق المبين؟".

=

قال القرطبي: "{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا} أي: فيما جاءهم به محمد ﷺ. والوقف على {يتفكروا}، حسن. ثم قال: {ما بصاحبهم من جنة}، رد لقولهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [الحجر: ٦].

قال ابن كثير: "يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا} هؤلاء المكذبون بآياتنا {مَا بِصَاحِبِهِمْ} يعني محمدًا - صلوات الله وسلامه عليه {مِنْ جِنَّةٍ} أي: ليس به جنون، بل هو رسول الله حقًا دعا إلى حق، أي: ظاهر لمن كان له قلب ولب يعقل به ويعي به، كما قال تعالى: {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ} [التكوير: ٢٢]، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [سبأ: ٤٦] يقول إنما أطلب منكم أن تقوموا لله قياما خالصا لله، ليس فيه تعصب ولا عناد، {مَثْنَى وَفُرَادَى} أي: مجتمعين ومتفرقين، {ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا} في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله: أبه جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك، بان لكم وظهر أنه رسول الله حقًا وصدقًا".

قال الزمخشري: "{ما بصاحبهم}: بمحمد ﷺ {من جنة} من جنون، وكانوا يقولون: شاعر مجنون".

قال السعدي: "أي: أَوَ لَمْ يُعْمِلُوا أفكارهم، وينظروا: هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء، هل هو مجنون؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه، ودله وصفاته، وينظروا في ما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا أتمها، ولا من العقل والرأي إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شر. أفبهذا يا أولي الألباب من جنة؟ أم هو الإمام العظيم والناصح المبين، والماجد الكريم، والرءوف الرحيم؟.

قوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الأعراف: ١٨٤]، أي: "ما هو إلا نذير لهم

أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥).

{أولم ينظروا في ملكوت} ملك {السماوات وَالْأَرْض وَ} فِي {مَا خَلَقَ الله مِنْ شَيْء} بَيَان لِمَا فَيَسْتَدِلُّوا بِهِ عَلَى قُدْرَة صَانِعه وَوَحْدَانِيّته {و} فِي {أَنْ} أَيْ أَنَّهُ {عَسَى أَنْ يَكُون قَدْ اقْتَرَبَ} قَرُبَ {أَجَلهمْ} فَيَمُوتُوا كُفَّارًا فَيَصِيرُوا إلَى النَّار فَيُبَادِرُوا إلَى. الإيمان {فبأي حديث بعده} أي القرآن {يؤمنون}.

مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦).

{مَنْ يَضْلِلْ الله فَلَا هَادِي لَهُ وَيَذَرهُمْ} بِالْيَاءِ وَالنُّون مَعَ الرَّفْع اسْتِئْنَافًا وَالْجَزْم عَطْفًا عَلَى مَحَلّ مَا بَعْد الْفَاء {فِي طُغْيَانهمْ يَعْمَهُونَ} يَتَرَدَّدُونَ تَحَيُّرًا[1].

=

من عقاب الله على كفرهم به إن لم يؤمنوا، ناصح مبين".

قال الطبري: يعني: "ما هو إلا نذيرٌ ينذركم عقاب الله على كفركم به، إن لم تنيبوا إلى الإيمان به، ويعني بقوله: {مبين}، قد أبان لكم، أيها الناس، إنذارُه ما أنذركم به من بأس الله على كفركم به".

قال السعدي: "أي: يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب".

قال البقاعي: قوله تعالى (إلا نَذِيرٌ مُبِينٌ) أي: موضح للطريق إيضاحًا لا يصل إلى غيره، ومن أدلة ذلك عجز الخلق عن معارضة شيء مما يأتي به من أنه أحسن الناس خَلقًا وأعلاهم خُلقًا وأفضلهم عشرة وأرضاهم طريقة وأعدلهم سيرة وأطهرهم سريرة وأشرفهم عملًا وأحكمهم علمًا وأرصنهم رأيًا وأعظمهم عقلًا وأشدهم أمانة وأظهرهم نبلًا.

(١) قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ
=

=

شَيْءٍ} [الأعراف: ١٨٥]، أي: "أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله في ملك الله العظيم وسلطانه القاهر في السموات والأرض وما خلق الله -جلَّ ثناؤه- من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله، في ملك الله وسلطانه في السموات وفي الأرض وفيما خلق جل ثناؤه من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك، ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمنْ لا نظير له ولا شبيه، ومِنْ فِعْلِ من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان".

قال ابن كثير: "يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا} - هؤلاء المكذبون بآياتنا - في ملك الله وسلطانه في السماوات والأرض، وفيما خلق الله من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومِنْ فِعْل من لا ينبغي أن تكون العبادة. والدين الخالص إلا له. فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه".

قال الزمخشري: أي: "نظر استدلال، {في ملكوت السماوات والأرض} فيما تدلان عليه من عظم الملك. و «الملكوت»: الملك العظيم، {وما خلق الله من شيء}، وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء، من أجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف".

قال القرطبي: "عجب من إعراضهم عن النظر في آياته، ليعرفوا كمال قدرته.. و «الملكوت» من أبنية المبالغة ومعناه: الملك العظيم".

قال ابن عطية: هذا أيضًا توبيخ للكفار وتقرير، والنظر هنا بالقلب عبرة وفكرًا، و (ملكوت) بناء عظمة ومبالغة (فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) أي: ملك الله

=

=

وسلطانه في السماوات والأرض الذي يدل على عظمة الله وكمال القدرة، والاستفهام للإنكار والتوبيخ.

قال ابن عاشور: قوله تعالى (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ) ترق في الإنكار والتعجيب من حالهم في إعراضهم عن النظر في حال رسولهم. إلى الإنكار والتعجيب من إعراضهم عن النظر فيما هو أوضح من ذلك وأعم، وهو ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شيء مما هو آيات من آيات وحدانية الله تعالى التي دعاهم الرسول ﷺ إلى الإيمان بها.

قال السعدي: "فإنهم إذا نظروا إليها، وجدوها أدلة دالة على توحيد ربها، وعلى ما له من صفات الكمال، {و} كذلك لينظروا إلى جميع {مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ} فإن جميع أجزاء العالم، يدل أعظم دلالة على الله وقدرته وحكمته وسعة رحمته، وإحسانه، ونفوذ مشيئته، وغير ذلك من صفاته العظيمة، الدالة على تفرده بالخلق والتدبير، الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود، المسبح الموحد المحبوب".

قوله تعالى: {وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ} [الأعراف: ١٨٥]، أي: "وينظروا في آجالهم التي عسى أن تكون قَرُبَتْ فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه؟.

قال الخازن: قوله تعالى (وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) والمعنى ولعل أجلهم يكون قد اقترب فيموتوا على الكفر قبل أن يؤمنوا فيصيروا إلى النار وإذا كان الأمر كذلك وجب على العاقل المبادرة إلى التفكر والاعتبار والنظر المؤدي إلى الفوز بالنعيم المقيم.

وقال ابن عاشور: ومعنى النظر في توقع اقتراب الأجل، التخوفُ من ذلك.

قال السعدي: "أي: لينظروا في خصوص حالهم، وينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم، ويفجأهم الموت وهم في غفلة معرضون، فلا يتمكنون حينئذ، من

=

=
استدراك الفارط".
قال الطبري: أي: "ويحذرُوا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه".
قال ابن كثير: أي: "ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه".
قال الزمخشري: "المعنى: أو لم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ولعلهم يموتون عما قريب، فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق وما ينجيهم. قبل مغافصة الأجل وحلول العقاب. ويجوز أن يراد باقتراب الأجل: اقتراب الساعة، ويكون من «كان» التي فيها ضمير الشأن".
قوله تعالى: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ١٨٥].
الضمير يرجع إلى ما تقدّم من التفكر والنظر في الأمور المذكورة، أي فبأيّ حديث بعد هذا الحديث المتقدم بيانه يؤمنون؟ وفي هذا الاستفهام من التقريع والتوبيخ ما لا يقادر قدره؛ وقيل الضمير للقرآن، وقيل لمحمد ﷺ، وقيل للأجل المذكور قبله.
قال الطبري: "يقول: فبأيّ تخويفٍ وتحذير ترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبِه الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه، يصدِّقون، إن لم يصدقوا بهذا الكتاب الذي جاءهم به محمد ﷺ من عند الله تعالى؟.
قال ابن كثير: "يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب - بعد تحذير محمد وترهيبه، الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه - يصدقون، إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله، ﷻ؟!.
قال القرطبي: "أي: بأي قرآن غير ما جاء به محمد -ﷺ- يصدقون. وقيل: «الهاء» للأجل، على معنى: بأي حديث بعد الأجل يؤمنون حين لا ينفع الإيمان،
=

=

لأن الآخرة ليست بدار تكليف".

قال السعدي: "أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل، فبأي حديث يؤمنون به؟ أبكتب الكذب والضلال؟ أم بحديث كل مفتر دجال؟ ولكن الضال لا حيلة فيه، ولا سبيل إلى هدايته".

قال الزمخشري: "فإن قلت: بم يتعلق قوله: {فبأي حديث بعده يؤمنون}؟ قلت: بقوله {عسى أن يكون قد اقترب أجلهم}، كأنه قيل: لعل أجلهم قد اقترب، فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفوت، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق، وبأيّ حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "رأيت ليلة أسري بي، لما انتهينا إلى السماء السابعة، فنظرت فوقي، فإذا أنا برعد وبرق وصواعق"، قال: "وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا. فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل مني، فإذا أنا برَهج ودخان وأصوات فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يُحَرِّفون على أعين بني آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب".

قوله تعالى: {مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ} [الأعراف: ١٨٦]، أي: "مَن يضلله الله عن طريق الرشاد فلا هادي له".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: إن إعراض هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، التاركي النظر في حجج الله والفكر فيها، لإضلال الله إياهم، ولو هداهم الله لاعتبرُوا وتدبَّروا فأبصروا رُشْدهم؛ ولكن الله أضلَّهم، فلا يبصرون رشدًا ولا يهتدون سبيلا ومن أضلَّه عن الرشاد فلا هادي له إليه".

قال ابن كثير: "يقول تعالى: من كُتِب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر

=

=

لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزي عنه شيئا، {وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا} [المائدة: ٤١] قال تعالى: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ١٠١].

قوله تعالى: {وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأعراف: ١٨٦]، أي: "ويتركُهم في كفرهم يتحيرون ويترددون".

قال الطبري: أي: "ولكن الله يدعهم في تَمَاديهم في كفرهم، وتمرُّدهم في شركهم، يترددون، ليستوجبوا الغايةَ التي كتبها الله لهم من عُقوبته وأليم نَكاله".

وقوله تعالى: {يَعْمَهُونَ} [الأعراف:٨٦]، فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: يترددون، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والربيع ، ومنه قول ابن بري:

مَتى تَعْمَهْ إلى عُثْمانَ تَعْمَه إلى ضَخْم السُّرادِقِ والقِبابِ

أَي: تُرَدِّدُ النظرَ.

والثاني: معناه يتحيرون، قاله ابن عباس ، ومنه قول رؤية بن العجاج:

ومهمه أطرافه في مهمه أعمى الهدى بالجاهلين العمه

والثالث: يعمهون عن رشدهم، فلا يبصرونه، لأن من عمه عن الشيء كمن كمه عنه، قال الأعشى:

أراني قد عمهت وشاب رأسي وهذا اللعب شين للكبير

والرابع: يتمادَوْن. قاله ابن عباس.

قال الثعلبي: {يعمهون}، أي: "يمضون، يترددون في الضلالة متحيرين، يقال: عمه يعمه عمها وعموها، وعمها فهو عمه، وعامه: إذا كان جائرا عن الحق". ثم استشهد بقول رؤبة السابق.

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر " «ونذرهم» بالنون والرفع، وقرأ حمزة والكسائي

=

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧).

{يَسْأَلُونَك} أَيْ أَهْل مَكَّة {عَنْ السَّاعَة} الْقِيَامَة {أَيَّانَ} مَتَى {مُرْسَاهَا قُلْ} لَهُمْ {إِنَّمَا عِلْمهَا} مَتَى تَكُون {عِنْد رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا} يُظْهِرهَا {لِوَقْتِهَا} اللَّام بِمَعْنَى فِي {إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ} عَظُمَتْ {فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض} عَلَى أَهْلهَا لِهَوْلِهَا {لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَة} فَجْأَة {يَسْأَلُونَك كَأَنَّك حَفِيّ} مُبَالِغ فِي السُّؤَال {عَنْهَا} حَتَّى عَلِمْتَهَا {قُلْ إِنَّمَا عِلْمهَا عِنْد الله} تَأْكِيد {وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاس لَا يَعْلَمُونَ} أَنَّ عِلْمهَا عِنْده تعالى(١).

=

وعاصم -في رواية هبيرة عن حفص-: «ويذرهم» بالياء مع الجزم.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: قال حمل بن أبي قشير وسمول بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمد! أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًا كما تقول، فإنا نعلم متى هي؟! فأنزل الله -تعالى-: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)}.

أخرجه ابن إسحاق في "السيرة" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ٩٣، ٩٤) -: حدثنا محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وإسناده ضعيف؛ فيه محمد هذا؛ مجهول تفرد عنه ابن إسحاق.

وعن مخارق بن شهاب؛ قال: كان النبي ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا}.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ٩٤): ثنا سفيان بن وكيع ثنا وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن مخارق. وهذا إسناد ضعيف؛ سفيان بن وكيع؛ قال الحافظ: "كان صدوقًا؛ إلا أنه ابتلي بوراقه، فأدخل عليه ما ليس من حديثه؛ فنصح؛ فلم يقبل؛ فسقط حديثه".

وعن قتادة؛ قال: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة؛ فأسر إلينا متى الساعة، فقال الله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ٩٣)؛ ثنا محمد بن عبد الأعلى ثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة به. وهذا إسناده صحيح؛ رجاله ثقات؛ لكنه مرسل.

* قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ} [الأعراف: ١٨٧]، أي: "يسألونك يا محمد عن القيامة".

قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن قومًا سألوا رسول الله ﷺ عن الساعة، فأنزل الله هذه الآية وجائز أن يكون كانوا من قريش وجائز أن يكونوا كانوا من اليهود؛ ولا خبر بذلك عندنا يجوِّز قَطْعَ القول على أيّ ذلك كان".

وقال الطبري أيضا: "يقول: متى قيامها؟.

عن قتادة قوله: " {يسألونك عن الساعة أيان مرساها}: متى قيامها؟.

عن السدي: " {يسألونك عن الساعة أيان مرساها}: يقول: متى قيامها".

قال السعدي: "يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: {يَسْأَلُونَكَ} أي: المكذبون لك، المتعنتون {عَنِ السَّاعَةِ}.

قال الزمخشري: "«الساعة» من الأسماء الغالبة، كالنجم للثريا. وسميت القيامة بالساعة، لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها، أو على العكس لطولها، أو لأنها عند الله

=

=

على طولها كساعة من الساعات عند الخلق".

وفي قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ} [الأعراف: ١٨٧]، وجهان:

أحدهما: أن السائل عنها قريش، قاله الحسن ، وقتادة.

والثاني: أن السائل عنها اليهود، قاله ابن عباس.

قال الزمخشري: "قيل: إن قوما من اليهود قالوا: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا، فإنا نعلم متى هي، وكان ذلك امتحانا منهم، مع علمهم أن الله تعالى قد استأثر بعلمها".

قال ابن كثير: القول" الأول أشبه؛ لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة، استبعادًا لوقوعها، وتكذيبًا بوجودها؛ كما قال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأنبياء: ٣٨]، وقال تعالى: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ} [الشورى: ١٨].

قوله تعالى: {أَيَّانَ مُرْسَاهَا} [الأعراف: ١٨٧]، أي: "متى وقوعها وحدوثها؟.

قال السعدي: "أي: متى وقتها الذي تجيء به، ومتى تحل بالخلق؟.

قال ابن كثير: "أي: متى محطها؟ وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة؟.

قال الطبري: "ومعنى {أيان}: «متى»، في كلام العرب، ومنه قول الراجز:

أَيَّانَ تَقْضِي حَاجَتِي أَيَّانَا ... أَمَا تَرَى لِنُجْحِهَا إِبَّانَا".

وفي قوله تعالى: {أَيَّانَ مُرْسَاهَا} [الأعراف: ١٨٧]، ثلاثة وجوه:

أحدها: قيامها، قاله قتادة ، والسدي.

والثاني: منتهاها، قاله ابن عباس.

والثالث: ظهورها، قاله الأخفش.

=

=

قال الطبري:"ومعنى قوله: {مرساها}، قيامها، من قول القائل: أرساها الله فهي مُرْسَاة، وأرساها القوم، إذا حبسوها، ورسَت هي، ترسُو رُسُوًّا".

قال الزمخشري: "المعنى: متى يرسيها الله، [و] {مرساها} إرساؤها، أو وقت إرسائها، أي: إثباتها وإقرارها. وكل شيء ثقيل رسوه ثباته واستقراره. ومنه: رسى الجبل وأرسى السفينة. والمرسى: الأنجر الذي ترسى به، ولا أثقل من الساعة، بدليل قوله: {ثقلت في السماوات والأرض}.

وقرأ السلمى: «إيان»، بكسر الهمزة.

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي} [الأعراف: ١٨٧]، أي: "قل لهم يا محمد لا يعلم الوقت الذي يحصل قيام القيامة فيه إلا الله".

قال قتادة: "يقول: علمها عند الله".

قال السعدي: "أي: إنه تعالى مختص بعلمها".

قال الزمخشري: "أى: علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به، لم يخبر به أحدا من ملك مقرب ولا نبى مرسل، يكاد يخفيها من نفسه، ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الأجل الخاص وهو وقت الموت".

قال ابن كثير: "أمر تعالى نبيه ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة، أن يرُدَّ علمها إلى الله تعالى".

قال الفخر: "قال المحققون: والسبب في إخفاء الساعة عن العباد؟ أنهم إذا لم يعلموا متى تكون، كانوا على حذر منها، فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة، / وأزجر عن المعصية".

قوله تعالى: {لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ} [الأعراف: ١٨٧]، أي: "لا يكشف أمرها ولا يظهرها للناس إلا الرب سبحانه".

قال السعدي: "أي: لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو".

=

=

قال ابن كثير: أي: "فإنه هو الذي يجليها لوقتها، أي: يعلم جلية أمرها، ومتى يكون على التحديد، أي: لا يعلم ذلك أحد إلا هو تعالى.

قال السدي: "يقول: لا يرسلها لوقتها إلا هو".

عن مجاهد: " {لا يجليها} : لا يأتي بها إلا هو".

قال قتادة:... هو يجليها لوقتها، لا يعلم ذلك إلا الله".

قال الزمخشري: "أى: لا تزال خفية، لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده إذا جاء بها في وقتها بغتة، لا يجليها بالخبر عنها قبل مجيئها أحد من خلقه، لاستمرار الخفاء بها على غيره إلى وقت وقوعها".

قوله تعالى: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف: ١٨٧]، أي: "عظَّمت على أهل السماوات والأرض حيث يشفقون منها ويخافون شدائدها وأهوالها".

قال السعدي: "أي: خفي علمها على أهل السماوات والأرض، واشتد أمرها أيضا عليهم، فهم من الساعة مشفقون".

قال الزمخشري: "أى: كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة، ويوده أن يتجلى له علمها وشق عليه خفاؤها وثقل عليه. أو ثقلت فيها لأن أهلها يتوقعونها ويخافون شدائدها وأهوالها. أو لأن كل شيء لا يطيقها ولا يقوم لها فهي ثقيلة فيها".

وفي قوله تعالى: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف: ١٨٧]، أربعة تأويلات:

أحدها: كبر على أهل السموات والأرض مجيء الساعة، قاله الحسن.

عن السدي قال: "قال بعض الناس في {ثقلت} : عظمت".

والثاني: ثقلت الساعة على أهل السموات والأرض أن يعرفوا وقتها ومجيئها، لخفائها عنهم، واستئثار الله بعلمها. قاله السدي.

=

=

عن معمر، عن بعض أهل التأويل: " {ثقلت في السموات والأرض}، قال: ثقل علمها على أهل السموات وأهل الأرض، إنهم لا يعلمون".

والثالث: معناه: عظم وصفها على أهل السموات والأرض، وهذا معنى قول ابن جريج.

قال ابن جريج: "إذا جاءت انشقت السماء، وانتثرت النجوم، وكوِّرت الشمس، وسُيِّرت الجبال، وكان ما قال الله؛ فذلك ثقلها".

والرابع: معنى قوله: {في السموات والأرض}: على السموات والأرض. قاله قتادة.

قال الطبري: "وأولى ذلك عندي بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: ثقلت الساعة في السموات والأرض على أهلها، أن يعرفوا وقتها وقيامها؛ لأن الله أخفى ذلك عن خلقه، فلم يطلع عليه منهم أحدًا. وذلك أن الله أخبرَ بذلك بعد قوله: {قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو}، وأخبر بعده أنها لا تأتي إلا بغتة،

فالذي هو أولى: أن يكون ما بين ذلك أيضًا خبرًا عن خفاء علمها عن الخلق، إذ كان ما قبله وما بعده كذلك".

قوله تعالى: {لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً} [الأعراف: ١٨٧]، أي: "لا تجيء الساعة إلا فجأة".

قال السدي: "يقول: يبغتهم قيامها، تأتيهم على غفلة".

قال الطبري: "يقول: لا تجيء الساعة إلا فجأة، لا تشعرون بمجيئها".

قال الماوردي: "يعني: على غفلة لأنه لا يعلمها غير الله، ولم ترد الأخبار عنها من جهة الله فصار مجيئها بغتة وذلك أشد لها".

قال السعدي: "أي: فجأة من حيث لا تشعرون، لم يستعدوا لها، ولم يتهيأوا

=

=

لقيامها".

قال الزجاج: "كل ما جاء فجاءة فقد بغت، يقال: قد بغته الأمر يبغته بغتا وبغتة، إذا أتاه

فجاءة. قال الشاعر:

ولكنهم ماتوا ولم أخش بغتة وأفظع شيء حين يفجؤك البغت".

عن قتادة: "{لا تأتيكم إلا بغتة}، قضى الله أنها لا تأتيكم إلا بغتة. قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: إن الساعة تهيج بالناس والرجل يُصْلِح حوضه، والرجلُ يسقي ماشيته، والرجل يقيم سلعته في السوق، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه".

عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومَنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لِقْحَته فلا يَطْعَمُه. ولتقومَنّ الساعة وهو يَلِيط حوضه فلا يسقي فيه. ولتقومَنّ الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها".

وعن أبي هريرة: يبلغ به النبي ﷺ قال: "تقوم الساعة والرجل يحلب اللِّقْحَة، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة. والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم. والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم".

قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا} [الأعراف: ١٨٧]، أي: "يسألك هؤلاء القوم عنها كأنك حريص على العلم بها، مستقص بالسؤال عنها".

قال السعدي: "أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة، كأنك مستحف عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك - لكمال علمك بربك، وما ينفع السؤال عنه - غير مبال بالسؤال عنها، ولا حريص على ذلك، فلم لا يقتدون بك، ويكفون عن

=

=

الاستحفاء عن هذا السؤال الخالي من المصلحة المتعذر علمه، فإنه لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب. وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، لكمال حكمته وسعة علمه".

قال الطبري: يقول: "يسألك هؤلاء القوم عن الساعة، كأنك حَفِيٌّ عنها".

عن السدي: " {يسألونك كأنك حفي عنها}، كأنك صديق لهم".

قال الزمخشري: أي: "كأنك عالم بها. وحقيقته: كأنك بليغ في السؤال عنها، لأن من بالغ في المسألة عن الشيء والتنقير عنه، استحكم علمه فيه ورصن وهذا التركيب معناه المبالغة. ومنه: إحفاء الشارب. واحتفاء البقل: استئصاله. وأحفى في المسألة، إذا ألحف. وحفى بفلان وتحفى به: بالغ في البر به".

وفي قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا} [الأعراف: ١٨٧]، وجوه:

أحدها: معناه عالِمٌ بها، قاله مجاهد، والضحاك، وابن زيد، وحكاه معمر عن بعضهم.

والثاني: معنى الكلام: يسألونك عنها كأن حفي بهم، على التقديم والتأخير، أي: كأنك بينك وبينهم مودة توجب برهم، من قوله: {إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا} [مريم: ٤٦] قاله ابن عباس، وأبو مالك، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، والسدي.

عن ابن عباس، قوله: " {يسألونك كأنك حفيّ عنها}، يقول: كأن بينك وبينهم مودة، كأنك صديق لهم. قال ابن عباس: لما سأل الناسُ محمدًا ﷺ عن الساعة، سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمدًا حفي بهم، فأوحى الله إليه: إنما علمها عنده، استأثر بعلمها، فلم يطلع عليها ملكًا ولا رسولا".

قال قتادة: "قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة، فأسِرَّ إلينا متى الساعة! فقال الله: {يسألونك كأنك حفي عنها}.

والثالث: معناه: كأنك يعجبك سؤالهم إياك. وهذا مروي عن ابن عباس ايضا.

=

قال الطبري: والصواب "قول من قال: معناه: كأنك حفي بالمسألة عنها فتعلمها. فإن قال قائل: وكيف قيل: {حفي عنها}، ولم يُقَل: «حفي بها»، إن كان ذلك تأويل الكلام؟

قيل: إن ذلك قيل كذلك، لأن الحفاوة إنما تكون في المسألة، وهي البشاشة للمسئول عند المسألة، والإكثار من السؤال عنه، والسؤال يوصل بـ «عن» مرة، وبـ «الباء» مرة. فيقال: سألت عنه، وسألت به. فلما وضع قوله: "حفي" موضع السؤال، وصل بأغلب الحرفين اللذين يوصل بهما السؤال، وهو «عن»، كما قال الشاعر:

سُؤَالَ حَفِيٍّ عَنْ أَخِيهِ كَأَنَّهُ بِذِكْرَتِهِ وَسْنَانُ أَوْ مُتَوَاسِنُ".

وقرأ ابن مسعود: «كأنك حفى بها»، أى: عالم بها بليغ في العلم بها.

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ} [الأعراف: ١٨٧]، أي: "قل لهم: إنما علمها عند الله الذي يعلم غيب السموات والأرض".

قال الطبري: "معناه: قل، يا محمد، لسائليك عن وقت الساعة وحين مجيئها: لا علم لي بذلك، ولا علم به إلا عند الله الذي يعلم غيب السموات والأرض".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف: ١٨٧]، أي: "ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون أن ذلك لا يعلمه إلا الله".

قال الزمخشري: أي: "أنه العالم بها، وأنه المختص بالعلم بها".

قال الطبري: "يقول: ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن ذلك لا يعلمه إلا الله، بل يحسبون أن علم ذلك يوجد عند بعض خلقه".

قال الصابوني: أي: "لا يعلمون السبب الذي لأجله أُخفيتْ".

قال السعدي: "فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، وخصوصا مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم، ويدعون ما يجب عليهم من العلم،

=

ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه، ولا هم مطالبون بعلمه".

قال ابن كثير: "فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه نبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب والمُقَفَّي، والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «بعثت أنا والساعة كهاتين» ، وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها. ومع هذا كله، قد أمره الله تعالى أن يَرُد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} .

عن عمر بن الخطاب-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرنى عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا قال صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرنى عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال: صدقت، قال فأخبرنى عن الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال فأخبرنى عن الساعة قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرنى عن أماراتها، قال أن تلد المرأة ربتها وأن ترى الحفاه العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال يا عمر أتدرى من السائل قلت الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم".

وعن على-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "أنه سئل متى الساعة؟ فقال: لقد سألتمونى عن أمر ما يعلمه جبريل ولا ميكائيل ولكن إن شئتم أنبأتكم بأشياء إذا كانت لم يكن للساعة خبر إذا كانت الألسن لينة والقلوب تناول ورغب الناس فى الدنيا وظهر البناء على وجه

=

=

الأرض واختلف الأخوان فصار هواهما شتى وبيع حكم الله بيعا".

* مباحث في اليوم الآخر.

الإيمان باليوم الآخر.

المبحث الأول: أشراط الساعة وأنواعها.

تعريف أشراط الساعة: الأشراط: جمع شرط وهو: العلامة. وقيل أشراط الشيء: أوائله.

جاء في لسان العرب: والاشتقاقان متقاربان لأن علامة الشيء أوله.

والساعة: جزء من أجزاء الزمن ، ويعبر به عن القيامة. قال تعالى: { وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ } (الزخرف: ٨٥). والساعة من أشهر أسماء يوم القيامة في النصوص الشرعية وكلام الناس ، وسمي ذلك اليوم بالساعة: لأنه يأتي بغتة فيفاجأ الناس في ساعة.

وأشراط الساعة: علاماتها وأماراتها التي تقع قبل قيامها. قال تعالى: { فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا } (محمد: ١٨).

أقسام أشراط الساعة: أشراط الساعة وأماراتها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الأمارات البعيدة: وهي التي ظهرت وانقضت.

منها بعثة الرسول ﷺ على ما جاء في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « بعثت أنا والساعة كهاتين. وضم السبابة والوسطى. ومنها انشقاق القمر على ما أخبر الله في كتابه ، قال تعالى: { اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ } (القمر: ١). ومنها خروج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى على ما أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى. وقد خرجت هذه النار على ما أخبر النبي ﷺ في مستهل جمادى الآخرة سنة أربع

=

=

وخمسين وستمائة وكان خروجها من شرقي المدينة النبوية وسالت بسببها أودية من نار وارتاع الناس منها ورأى ضوءها أهل الشام ورأى أهل بصرى - وهي إحدى قرى دمشق - ، أعناق الإبل في ضوئها كما أخبر النبي ﷺ.

القسم الثاني: الأمارات المتوسطة: وهي التي ظهرت ولم تنقض بل تتزايد وتكثر وهي كثيرة جدا.

منها أن تلد الأمة ربتها وتطاول الحفاة العراة رعاء الشاء في البنيان على ما جاء في حديث جبريل المشهور الذي أخرجه مسلم وقد تقدم في الفصل الأول من هذا الباب وفيه: « قال فأخبرني عن الساعة ؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها ، قال: أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان.

ومنها خروج دجالين ثلاثين يدعون النبوة كما جاء في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله. وفي سنن أبي داود والترمذي من حديث ثوبان عن النبي ﷺ: « وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي. ومنها انحسار الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه على ما جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: « لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه ، فيقتل من كل مائة تسعة تسعون ويقول كل رجل منهم لعلي أكون أنا الذي أنجو » وهذه العلامة لم تقع بعد.

القسم الثالث: العلامات الكبرى: وهي التي تعقبها الساعة إذا ظهرت. وهي عشر علامات ولم يظهر منها شيء. روى مسلم في صحيحه من حديث حذيفة بن أسيد قال: « اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر ، فقال: ما تذاكرون ؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: فذكر الدخان والدجال ،

=

=

والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم. وجاء في بعض الأحاديث الأخرى ذكر المهدي ، وهدم الكعبة ، ورفع القرآن من الأرض على ما سيأتي ذكر الأحاديث في ذلك. والذي عليه أكثر المحققين من أهل العلم أن العلامات العشر العظمى هي هذه الثلاث وما ذكر في حديث حذيفة بن أسيد سوى الخسوف فإنها وإن كانت من علامات الساعة بلا شك كما هو نص الحديث إلا أنها تقع قبل العشر العظمى ، وهي مقدمة لها ، ويشهد لهذا ما جاء في رواية أخرى من حديث حذيفة بن أسيد وقد خرجها مسلم أيضا وفيها تقديم الخسوف في الذكر على غيرها من العلامات حيث قال ﷺ: « إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف في جزيرة العرب والدخان والدجال..) ثم ذكر بقية العلامات. قال القرطبي: (فأول الآيات على ما في هذه الرواية الخسوفات الثلاثة وقد وقع بعضها في زمن النبي ﷺ ذكره ابن وهب...). وفيما يلي عرض لهذه العلامات العشر مفصلة بأدلتها:

العلامة الأولى: خروج المهدي: وهو رجل من أهل البيت من ولد الحسن بن علي رضي الله عنهما يخرج وقد ملئت الأرض جورا وظلما فيملؤها قسطا وعدلا يوافق اسمه اسم النبي ﷺ واسم أبيه اسم أب النبي ﷺ على ما روى أبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما.

العلامة الثانية: ظهور المسيح الدجال: وهو رجل من بني آدم يخرج في آخر الزمان فيفتن به كثير من الخلق ، يجري الله على يديه بعض الأعمال الخارقة ، ويدعي

=

=

الربوبية ولا يروج باطله على المؤمن ويدخل الأمصار كلها إلا مكة والمدينة ، ومعه نار وجنة فناره جنة وجنته نار. وقد دلت الأحاديث الصحيحة على خروجه ، منها حديث عبد الله بن عمرو بن العاص الذي أخرجه مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: « يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين لا أدري أربعين يوما أو أربعين شهرا أو أربعين عاما فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه...) الحديث. وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال: قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال: « إني أنذركموه وما من نبي إلا قد أنذره قومه لقد أنذره نوح قومه ولكن سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه تعلمون أنه أعور ، وأن الله ليس بأعور ».

العلامة الثالثة: نزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء إلى الأرض حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويقضي على الدجال كما دلت على ذلك النصوص من الكتاب والسنة. أما الكتاب فيقول الله تعالى: { وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ } (الزخرف: ٦١) ، وقد استدل بهذه الآية على نزول عيسى كثير من المفسرين وينقل هذا عن ابن عباس على ما أخرج أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية قال: « هو خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة ». كما دلت على نزول عيسى عليه السلام الأحاديث الصحيحة: ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها.

العلامة الرابعة: خروج يأجوج ومأجوج: وهم خلق كثير لا يدين لأحد بقتالهم قيل إنهم من ولد يافث من ولد نوح عليه السلام وقد دل على خروجهم الكتاب والسنة.

=

=

قال تعالى: { حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ } { وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا } (الأنبياء: ٩٦ ، ٩٧). وأخرج الشيخان عن زينب بنت جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوما فزعا يقول: « لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه " وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها.. ") الحديث

العلامة الخامسة: هدم الكعبة وسلب حليها على يد ذي السويقتين من الحبشة كما صحت بذلك السنة. فقد أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ». وروى الإمام أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ، ويسلبها حليها ويجردها من كسوتها ، ولكأني أنظر إليه أصيلع أفيدع يضرب عليها بمسحاته ومعوله.

العلامة السادسة: الدخان: وهو انبعاث دخان عظيم من السماء يغشى الناس ويعمهم ، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة. قال تعالى: { فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ } { يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ } (الدخان: ١٠ ، ١١). ومن السنة حديث حذيفة بن أسيد المتقدم عن النبي ﷺ أنه قال: « إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة » الحديث.

العلامة السابعة: رفع القرآن من الأرض إلى السماء فلا يبقى منه آية في سطر ولا صدر إلا رفعت. وقد دلت على ذلك السنة فقد أخرج ابن ماجه والحاكم من حديث حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: « يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ، وليسرى على كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية »...).

العلامة الثامنة: طلوع الشمس من مغربها. وقد دلت على هذه الآية النصوص من

=

=

الكتاب والسنة. قال تعالى: { يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا } (الأنعام: ١٥٨). فقد ذهب جمع من المفسرين إلى أن بعض آيات ربك ، هي طلوع الشمس من مغربها. قال الطبري بعد ذكره أقوال المفسرين في الآية: (وأولى الأقوال بالصواب في ذلك ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال ذلك حين تطلع الشمس من مغربها) ، وروى الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون فذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا.

العلامة التاسعة: خروج الدابة: وهي مخلوق عظيم قيل إن طولها ستون ذراعًا ذات قوائم ووبر ، وقيل هي مختلفة الخلقة تشبه عدة من الحيوانات وقد دل الكتاب والسنة على خروجها قبل قيام الساعة. قال تعالى: { وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ } (النمل: ٨٢). وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا ، طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض). وأخرج الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « تخرج الدابة فتسم الناس على خراطيمهم ثم يغمرون فيكم حتى يشتري الرجل البعير فيقول ممن اشتريته فيقول: من أحد المخطمين » وقد صحح سند الحديث الهيثمي وغيره من المحدثين.

العلامة العاشرة: خروج نار عظيمة تخرج من عدن تحشر الناس إلى محشرهم وهي آخر العلامات العظام. وقد دلت على هذه العلامة السنة كما جاء في حديث حذيفة بن أسيد المتقدم والذي أخرجه مسلم وفيه: « وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم. وفي رواية من حديث حذيفة « ونار تخرج من

=

=

قعرة عدن ترحل الناس.

فهذه الأمارات أعظم أشراط الساعة التي تقع قبل قيامها فإذا انقضت قامت الساعة بإذن الله تعالى وقد ورد أن هذه الأمارات متتابعة كتتابع الخرز في النظام فإذا ظهرت إحداها تبعتها الأخرى. روى الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « خروج الآيات بعضها على إثر بعض ، يتتابعن كما تتابع الخرز في النظام.

المبحث الثاني: نعيم القبر وعذابه

وبحث هذا الموضوع يتم من خلال ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الإيمان بنعيم القبر وعذابه وأدلة ذلك: الإيمان بنعيم القبر لأهل الطاعة وبعذاب القبر لمن كان مستحقا له من أهل المعصية والفجور من أصول الإيمان التي دلت عليها نصوص الكتاب والسنة.

فمن أدلة الكتاب على نعيم القبر قول الله تعالى: { يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ } (إبراهيم: ٢٧) ، فدلت الآية على تثبيت الله تعالى للمؤمنين عند السؤال في القبر وما يتبع ذلك من النعيم. أخرج البخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا أقعد المؤمن في قبره أتي ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله: { يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ } ». ودليل عذاب القبر من القرآن قول الله تعالى: { وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ } { النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } (غافر: ٤٥ ، ٤٦) ، قال القرطبي: (الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ وهو حجة في تثبيت عذاب القبر). وقال الحافظ ابن كثير: (وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور).

=

=

كما دل على عذاب القبر من القرآن أيضا قوله تعالى: { سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ } (التوبة: ١٠١) ، فقد استدل بها كثير من السلف على عذاب القبر ، فعن مجاهد أنه قال في تفسير الآية: (بالجوع وعذاب القبر ، قال: " ثم يردون إلى عذاب عظيم " يوم القيامة). وعن قتادة قال: (عذاب الدنيا وعذاب القبر ثم يردون إلى عذاب عظيم) ، وقد استدل بهذه الآية والتي قبلها على عذاب القبر الإمام البخاري في ترجمته للأحاديث في عذاب القبر.

وأما ما جاء في السنة من الأدلة على نعيم القبر وعذابه فكثير جدا من ذلك ما جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة ». وفي صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر. والأدلة على هذا كثيرة من الكتاب والسنة وقد ذكرت ما يستدل به في إثبات عذاب القبر ونعيمه ، والله أعلم.

المطلب الثاني: وقوع نعيم القبر وعذابه على الروح والجسد معا:

نعيم القبر وعذابه يكون للروح والبدن جميعا ، فتنعم الروح أو تعذب متصلة بالبدن فيكون النعيم والعذاب عليهما جميعا كما أنه قد تنعم الروح أو تعذب أحيانا منفصلة عن البدن ، فيكون النعيم أو العذاب للروح منفردا عن البدن. وقد دلت على هذا النصوص وعليه اتفق أهل السنة والجماعة ، خلافا لمن زعم أن عذاب القبر ونعيمه يكون للروح فقط على كل حال ولا يتعلق بالبدن.

فمن الأدلة على ذلك حديث أنس بن مالك الذي أخرجه البخاري أن رسول الله ﷺ قال: « إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل (لمحمد ﷺ) فأما

=

=

المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة فيراهما جميعا. وأما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال: لا دريت ولا تليت ، ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين. وفي حديث البراء بن عازب الطويل الذي أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم وغيرهم مرفوعا للنبي ﷺ قال بعد أن ذكر خروج الروح وصعود روح المؤمن إلى السماء: « فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك » الحديث ، وقد صحح هذا الحديث الحاكم وغيره ، فدل الحديثان على وقوع النعيم أو العذاب في القبر على الروح والجسد جميعا ففي قول النبي ﷺ: « إن العبد إذا وضع في القبر » دلالة ظاهرة على هذا إذ لفظ (العبد) مسمى للروح والجسد جميعا ، وكذلك تصريحه بإعادة الروح إلى الجسد عند السؤال كما في حديث البراء بن عازب هذا مع ما جاء في الحديثين من الألفاظ التي هي من صفات الجسد كقوله: « يسمع قرع نعالهم » (فيقعدانه) ، « ويضرب بمطارق من حديد »« فيصيح صيحة » ، فإن هذا كله يفيد أن ما يحصل في القبر من النعيم أو العذاب متعلق بالروح والجسد جميعهما.

هذا مع أنه قد جاء في بعض النصوص ما يفيد أن النعيم أو العذاب قد يقع على الروح منفردة في بعض الأحوال على ما جاء في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « لما أصيب إخوانكم يعني يوم أحد - جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش.

فتلخص من هذا أن النعيم والعذاب يقع على الروح والجسد جميعا في القبر وقد تنفرد الروح بهذا أحيانا. قال بعض الأئمة المحققين في السنة في تقرير هذه

=

=

المسألة: (والعذاب والنعيم على النفس والبدن جميعا باتفاق أهل السنة والجماعة ، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن ، وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها ، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعتين كما يكون للروح منفردة عن البدن).

المطلب الثالث: الإيمان بالملكين منكر ونكير: تقدم في مبحث الملائكة ذكر منكر ونكير وأنهما الملكان الموكلان بسؤال الميت في قبره في معرض الحديث عن وظائف الملائكة. والقصد هنا تقرير الإيمان بهما إيمانا مفصلا وما يحصل منهما من فتنة المقبورين إذ تقرير هذا هنا فرع عن الإيمان بنعيم القبر وعذابه في الجملة

وقد دلت الأحاديث الصحيحة على وصف هذين الملكين وسؤالهما أهل القبور بعد الدفن كما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي وابن حبان عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا قبر الميت أو قال أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير ، فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل ، فيقول: ما كان يقول هو عبد الله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له في قبره سبعون ذرعا في سبعين.. ، وإن كان منافقا قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثله لا أدري: فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، فيقال للأرض التئمي عليه فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ». وقد دل على سؤال الملكين أيضا حديث أنس المتقدم في المطلب السابق.

فيجب الإيمان بما دلت عليه الأحاديث من اسم الملكين ووصفهما وسؤالهما المقبورين وكيفية ذلك وما يجيب به المؤمن وما يجيب به المنافق وما يعقب ذلك من النعيم أو العذاب على التفصيل الذي جاءت به الأحاديث.

=

=

وقد اختلف العلماء هل السؤال في القبر خاص بهذه الأمة كما ذهب لذلك البعض أم أنه عام في كل الأمم كما هو قول فريق آخر من أهل العلم ، والذي يظهر من النصوص عدم اختصاص هذه الأمة به بل هو عام في كل الأمم وعلى هذا أكثر المحققين من أهل العلم والله تعالى أعلم.

المبحث الثالث

الإيمان بالبعث

الإيمان بالبعث من أعظم أصول الإيمان في هذا الدين وهو مشتمل على جوانب متعددة مما دلت عليه النصوص في هذا الباب ، وسيكون بحثه هنا من خلال عدة مطالب تجلي حقيقته وتبرز أهمية الإيمان به وما يجب على المؤمن أن يؤمن به من أحواله وأحداثه:

المطلب الأول: معنى البعث وحقيقته: البعث في كلام العرب يأتي على وجهين:

أحدهما: الإرسال ، ومنه قوله تعالى: { ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى } (الأعراف: ١٠٣) ، أي: أرسلنا.

والثاني: الإثارة والتحريك ، تقول بعثت البعير فانبعث أي أثرته فثار ، ومنه بعث الموتى وذلك بإحيائهم وإخراجهم من قبورهم. قال تعالى: { ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ } ... الآية (البقرة: ٥٦) ، أي: أحييناكم.

والبعث في الشرع: هو إحياء الله للموتى وإخراجهم من قبورهم.

وحقيقة البعث: أن الله تعالى يجمع أجساد المقبورين التي تحللت ويعيدها بقدرته كما كانت ثم يعيد الأرواح إليها ويسوقهم إلى محشرهم لفصل القضاء. قال تعالى: { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } { قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } (يس: ٧٨ ، ٧٩).

وعن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن رجلًا حضره الموت لما أيس

=

=

من الحياة أوصى أهله: إذا مت فاجمعوا لي حطبًا كثيرًا ثم أوروا نارًا حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فخذوها فاطحنوها فذروني في اليم في يوم حار أو راح فجمعه الله فقال: لم فعلت ؟ قال: خشيتك ، فغفر له. فدلت الآية والأحاديث على أن الله تعالى يعيد الأجساد نفسها ويجمع رفاتها المتحلل حتى تعود كما كانت فيعيد إليها أرواحها فسبحان من لا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير.

وقد جاء في السنة بيان كيفية البعث وأن الله ينزل إلى الأرض ماءً فينبت به أهل القبور كما ينبت العشب وقد دل على ذلك حديث أبي هريرة الذي أخرجه الشيخان « أن رسول الله ﷺ قال: (ما بين النفختين أربعون) قال: أربعون يومًا. قال: أَبَيْت ، قال: أربعون شهرًا ؟ قال: أبيت ، قال: أربعون سنة ؟ قال: أبيت ، قال: (ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا ، وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة ». فقد دل هذا الحديث على كيفية البعث وأن أهل القبور يبقون في قبورهم أربعين بين النفختين وهما نفخة الإماتة ونفخة البعث ولم يجزم الراوي بتحديد الأربعين ما هي وهل المراد أربعون يومًا أو شهرًا أو سنة على أنه جاء في بعض الروايات أنها أربعون سنة. ثم إذا أراد الله بعث الخلائق أنزل مطرًا من السماء. جاء في بعض الروايات أنه مثل مني الرجال فينبت أهل القبور من ذلك الماء كما ينبت العشب بعد أن فتت أجسادهم إلا عجب الذنب وهذا بخلاف الأنبياء فإن أجسادهم لا تبلى كما تقدم تقريره فتبين بهذا حقيقة البعث ووقته وكيفيته والله أعلم.

المطلب الثاني: أدلة البعث من الكتاب والسنة والنظر: دَلّ الكتابُ والسنة على بعث الله تعالى للأموات وجاء تقريره في مواطن كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

=

فمن الكتاب قوله تعالى: { ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (البقرة: ٥٦)، وقوله ﷻ: { مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } (لقمان: ٢٨)، وقوله تعالى: { زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ } (التغابن: ٧). ومن السنة حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « لا تفضلوا بين أنبياء الله فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله قال: ثم ينفخ فيه مرة أخرى فأكون أول من بعث أو في أول من بعث فإذا موسى آخذ بالعرش..). وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في الصحيحين: « فأكون أول من تنشق عنه الأرض. فدل الحديثان على بعث الله تعالى للأموات يوم القيامة من قبورهم إلى أرض المحشر وفيهما فضيلة للنبي ﷺ لكونه أول من يبعث.

كما دل النظر الصحيح على تقرير البعث وذلك أن البعث هو إعادة للخلق ومعلوم لكل عاقل أن الإعادة للشيء أهون من إنشائه وابتدائه ولهذا قال الله تعالى في كتابه مقررًا للبعث ووقوعه بإبداء خلق الإنسان ونشأته الأولى وبأن القادر على الابتداء قادر على الإعادة من باب أولى، فقال المعترض على البعث كما حكى الله عنه: { مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ } (يس: ٧٨)، قال تعالى: { قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ } (يس: ٧٩)، وقال تعالى: { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } (الروم: ٢٧). فهذا دليل شرعي عقلي من كتاب الله للرد على كل معاند مكذب بالبعث، وهو دليل لا يستطيع رده.

المطلب الثالث: الحشر: دلت النصوص على حشر العباد بعد بعثهم إلى أرض المحشر حفاة عراة غرلا قال تعالى: { وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا } (الكهف: ٤٧)، وقال تعالى: { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } (إبراهيم: ٤٨). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله

=

ﷺ يقول: « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلا) قلت: يا رسول الله! النساء والرجال جميعًا ، ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال ﷺ: (يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض. هذا الحشر عام لجميع الخلائق. وقد دلت النصوص أن هناك حشرا آخر إما في الجنة وإما في النار فيحشر المؤمنون إلى الجنة وفدا والوفد هم القائمون الركبان. قال تعالى: { يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا } (مريم: ٨٥).

أخرج الطبري عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: { يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا } قال: (أما والله ما يحشر الوفد على أرجلهم ، ولا يساقون سوقا ولكنهم يؤتون بنوق لم ير الخلائق مثلها ، عليها رحال الذهب ، وأزمتها الزبرجد فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة). وأما الكفار فإنهم يحشرون إلى النار على وجوههم عميا وبكما وصما. قال تعالى: { الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا } (الفرقان: ٣٤). قال تعالى: { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا } (الإسراء: ٩٧).

المطلب الرابع: الحوض ، صفته وأدلته: لحوض مورد عظيم أعطاه الله لنبينا محمد ﷺ في المحشر يرده هو وأمته. جاء وصفه في النصوص أنه أشد بياضا من اللبن ، وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ، وأطيب ريحا من المسك ، وهو في غاية الاتساع ، عرضه وطوله سواء ، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر ، يمد ماؤه من الجنة ، فيه ميزابان يمدانه من الجنة ، أحدهما من ذهب والآخر من فضة ، وآنيته كعدد نجوم السماء. وقد دل على ثبوت الحوض وأنه حق كثير من الأحاديث الصحيحة ذكر بعض المحققين أنها تبلغ حد التواتر ورواها عن النبي ﷺ بضعة وثلاثون صحابيًا. منها حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: « إن قدر حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم

=

=

السماء. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: « حوضي مسيرة شهر وزواياه سواء ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء من يشرب منها فلا يظمأ أبدًا »

والحوض يكون في أرض المحشر ويمد ماؤه من الكوثر وهو نهر آخر أعطاه الله لنبينا ﷺ في الجنة قال تعالى: { إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ } (الكوثر: ١). وقد اختلف أهل العلم في الميزان والحوض أيهما يكون قبل الآخر فقيل الميزان قبل ، وقيل: الحوض. والصحيح أن الحوض قبل. قال القرطبي: والمعنى يقتضيه فإن الناس يخرجون عطاشا من قبورهم.

المطلب الخامس: الميزان صفته وأدلته: ما يجب الإيمان به في أحداث اليوم الآخر: الميزان. وهو ميزان حقيقي له لسان وكفتان ، توزن فيه أعمال العباد فيرجح بمثقال ذرة من خير أو شر ، وقد دلت الأدلة من الكتاب والسنة على ثبوت الميزان. قال تعالى: { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا } .. الآية (الأنبياء: ٤٧) ، وقال ﷻ: { فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ } { فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ } { وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ } { فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ } (القَارعة: ٦-٩). وأخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ». وروى الإمام أحمد والحاكم وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه « أنه تسلق أراكة وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفؤه (أي تحركه) فضحك القوم فقال رسول الله ﷺ: (مم تضحكون ؟) قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه. فقال: (والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد) » صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

والذي يوزن في الميزان ثلاثة ، وقد دلت على ذلك النصوص:

١ - الأعمال ، فقد ثبت أنها تجسم وتوزن في الميزان ودل عليه حديث أبي هريرة

=

=

السابق: (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن...) الحديث.
٢ - صحف الأعمال ، وقد دل على ذلك حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تَسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: ألك عذر أو حسنة ؟ فيبهت الرجل ، فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة واحدة ، لا ظلم عليك اليوم فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فيقول: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم ».
٣ - العامل نفسه ، وقد دل على وزنه قوله تعالى: { فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا } (الكهف: ١٠٥) ، وكذلك حديث عبد الله بن مسعود السابق وأن ساقيه في الميزان أثقل من أحد.
المطلب السادس: الشفاعة ، تعريفها وأنواعها وأدلتها:
الشفاعة في اللغة: الوسيلة والطلب. وفي العرف: سؤال الخير للغير.
والشفاعة عند اللهّ: سؤال الله التجاوز عن الذنوب والآثام للغير.
وحقيقتها أن الله تعالى بلطفه وكرمه يأذن يوم القيامة لبعض الصالحين من خلقه من الملائكة والمرسلين والمؤمنين أن يشفعوا عنده في بعض أصحاب الذنوب من أهل التوحيد إظهارًا لكرامة الشافعين عنده ورحمة بالمشفوع فيهم.
ولا تصح الشفاعة عند الله تعالى إلا بشرطين:
أحدهما: إذن الله تعالى للشافع أن يشفع ، وقد دل على هذا الشرط قوله تعالى: { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ } (البقرة: ٢٥٥). وقوله تعالى: { وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } (سبأ: ٢٣).

=

=

الثاني: رضا الله عن المشفوع له أن يشفع فيه ، وقد دل على هذا الشرط قوله تعالى: { وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى } (الأنبياء: ٢٨). وقد دلت النصوص أن الله لا يرضى أن يشفع إلا في أهل التوحيد لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا. وقال تعالى في الكفار: { فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ } (المدثر: ٤٨). وقد دلت الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات الشفاعة عند الله يوم القيامة. أما الكتاب فقد تقدم ذكر بعضها ، وأما من السنة فالأحاديث في إثبات الشفاعة كثيرة منها حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (.. « فيقول الله تبارك وتعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط.

والأحاديث في إثبات الشفاعة كثيرة جدًّا وقد صرح الأئمة المحققون بتواترها واشتهارها في كتب الصحاح والمسانيد. ففي الصحيحين: « يُخرج من النار من كان في قلبه حبة من خردل من إيمان».

أقسام الشفاعة:

والشفاعة تنقسم من حيث القبول والرد إلى قسمين: مردودة وهي ما فقدت أحد شروط الشفاعة السابقة ، ومقبولة وهي ما تحققت فيها شروط الشفاعة. وقد ثبت لنبينا محمد ﷺ منها ثمانية أنواع ، وهي:

١ - الشفاعة العظمى وهي شفاعته ﷺ في أهل الموقف أن يقضي الله بينهم وهي المقام المحمود وهذه الشفاعة مما اختص بها نبينا ﷺ على غيره من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين.

٢ - شفاعته ﷺ في قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع فيهم أن يدخلوا الجنة.

=

=

٣ - شفاعته في أقوام استحقوا النار أن لا يدخلوها.

٤ - شفاعته ﷺ رفع درجات أهل الجنة في الجنة.

٥ - شفاعته ﷺ في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب.

٦ - شفاعته ﷺ في تخفيف العذاب عمن كان يستحقه كشفاعته في عمه أبي طالب.

٧ - شفاعته ﷺ في أهل الجنة أن يؤذن لهم بدخول الجنة.

٨ - شفاعته ﷺ في أهل الكبائر من أمته ممن دخل النار أن يخرج منها.

وقد دلت النصوص الصحيحة على هذه الأنواع كلها وهي مبسوطة في مواضعها من كتب السنة والاعتقاد. وهذه الأنواع منها ما هو خاص بالنبي ﷺ كالشفاعة العظمى وشفاعته في عمه أبي طالب وشفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها ومنها ما يشاركه فيها غيره من الأنبياء والصالحين كالشفاعة في أهل الكبائر وغيرها من الأنواع الأخرى على اختلاف بين أهل العلم في اختصاصه ببعضها من عدمه ، والله تعالى أعلم.

المطلب السابع: الصراط ، صفته وأدلته: لصراط في اللغة: الطريق الواضح.

وفي الشرع: جسر ممدود على متن جهنم يرده الأولون والآخرون وهو طريق أهل المحشر لدخول الجنة. وقد دلت الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات الصراط قال تعالى: { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا } { ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا } (مريم: ٧١ ، ٧٢) ذهب أكثر المفسرين أن المقصود بورود النار هنا: المرور على الصراط وهو منقول عن ابن عباس وابن مسعود وكعب الأحبار وغيرهم. وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وهو حديث طويل في الرؤية والشفاعة وفيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: (.. « ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم قلنا يا رسول الله وما الجسر ؟ قال:

=

=

مدحضة مزلة ، عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها السعدان ، المؤمن عليها كالطرف وكالبرق ، وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم وناج مخدوش ومكدوس في نار جهنم يمر آخرهم يسحب سحبا. وقد جاء وصف الصراط في نصوص كثيرة وملخص ما جاء فيها أنه أدق من الشعر وأحد من السيف دحض مزلة لا تثبت عليه قدم إلا من ثبته الله وأنه ينصب في ظلمة فيعطى الناس أنوارا على قدر إيمانهم ويمرون فوقه على قدر إيمانهم على ما جاء في الحديث السابق.

المطلب الثامن: الجنة والنار ، صفتهما وكيفية الإيمان بهما وأدلة ذلك:

مما يجب اعتقاده والإيمان به الجنة والنار. والجنة هي دار الثواب لمن أطاع الله وموضعها في السماء السابعة عند سدرة المنتهى. قال تعالى: { وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى } { عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى } { عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى } (النجم: ١٣-١٥) ، والجنة مائة درجة بين كل درجة والأخرى كما بين السماء والأرض كما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض. وأعلى الجنة الفردوس الأعلى وفوقه العرش ومنه تتفجر أنهار الجنة كما جاء في حديث أبي هريرة السابق عن النبي ﷺ قال: « فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة. وللجنة ثمانية أبواب كما جاء في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: « في الجنة ثمانية أبواب فيها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون » وقد أعد الله لأهل الجنة فيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وأما النار فهي دار العقاب الأبدي للكافرين والمشركين والمنافقين النفاق الاعتقادي ، ولمن شاء الله من عصاة الموحدين

=

=

بقدر ذنوبهم ثم مآلهم إلى الجنة. كما قال تعالى: { إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } (النساء: ٤٨) وموضعها في الأرض السابعة كذا نقل عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وللنار دركات بعضها أسفل من بعض، قال عبد الرحمن بن أسلم: (درجات الجنة تذهب علوا ودرجات النار تذهب سفولا ، وأسفل الدركات هي دار المنافقين كما قال تعالى: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ }... الآية (النساء: ١٤٥)، وللنار سبعة أبواب، قال تعالى: { لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ } (الحجر: ٤٤)، ونار الدنيا جزء من سبعين جزءا من نار جهنم على ما جاء في حديث أبي هريرة الذيَ أخرجه الشيخان عن النبي ﷺ قال: « ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم.

والإيمان بالجنة والنار يتحقق بثلاثة أمور:

الأول: الاعتقاد الجازم بأنهما حق وأن الجنة دار المتقين والنار دار الكافرين والمنافقين. قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا } { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا } (النساء: ٥٦، ٥٧).

الثاني: اعتقاد وجودهما الآن. قال تعالى في الجنة. { أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ } (آل عمران: ١٣٣)، وقال تعالى في النار: { أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } (البقرة: ٢٤)، وجاء في الصحيحين من حديث عمران بن حصين عن النبي ﷺ أنه قال: « اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء.

الثالث: اعتقاد دوامهما وبقائهما وأنهما لا تفنيان ولا يفنى من فيهما. قال تعالى في الجنة: { خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (النساء: ١٣)، وقال تعالى عن النار: { وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا } (الجن: ٢٣).

=

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨).

{قُلْ لَا أَمْلِك لِنَفْسِي نَفْعًا} أَجْلُبهُ {وَلَا ضَرًّا} أَدْفَعه {إِلَّا مَا شَاءَ الله وَلَوْ كُنْت أَعْلَم الْغَيْب} مَا غَابَ عَنِّي {لَاسْتَكْثَرْت مِنْ الْخَيْر وَمَا مَسَّنِيَ السُّوء} مِنْ فَقْر وَغَيْره لِاحْتِرَازِي عَنْهُ بِاجْتِنَابِ الْمَضَارّ {إِنْ} مَا {أَنَا إِلَّا نَذِير} بِالنَّارِ لِلْكَافِرِينَ {وَبَشِير} بِالْجَنَّةِ {لقوم يؤمنون}[1].

=

والمقصود من المعصية هنا الكفر ، لتأكيد الخلود في النار بالتأبيد ، قال القرطبي قوله (أبدا) دليل على أن العصيان هنا هو الشرك. وروى الشيخان من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « يدخل الله أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت كل خالد فيما هو فيه ».

(١) قوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ} [الأعراف: ١٨٨]، أي: "قل -أيها الرسول-: لا أقدرُ على جَلْبِ خير لنفسي ولا دفع شر يحل بها إلا ما شاء الله".

أمره الله تعالى أن يفوّض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لسائليك عن الساعة: {أيان مرساها}؟ لا أقدر على اجتلاب نفع إلى نفسي، ولا دفع ضر يحلّ

=

=

بها عنها إلا ما شاء الله أن أملكه من ذلك، بأن يقوّيني عليه ويعينني".
قال ابن الجوزي: وفي المراد بالنفع والضر قولان.
أحدهما: أنه عامّ في جميع ما ينفع ويضر، قاله الجمهور.
والثاني: أن النفع: الهدى، والضَّر: الضلالة، قاله ابن جريج.
قال القرطبي: "أي: لا أملك أن أجلب إلى نفسي خيرا ولا أدفع عنها شرا، فكيف أملك علم الساعة. وقيل: لا أملك لنفسي الهدى والضلال. {إلا ما شاء الله} في موضع نصب بالاستثناء. والمعنى: إلا ما شاء الله أن يملكني يمكنني منه".
قال السعدي: أي: "فإني فقير مدبر، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى".
قال ابن كثير: "أمره الله تعالى أن يفوّض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} [الجن: ٢٦، ٢٧].
قال الزمخشري: "{قل لا أملك لنفسي} هو إظهار للعبودية والانتفاء عما يختص بالربوبية من علم الغيب: أى: أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر كالمماليك والعبيد، {إلا ما شاء} ربى ومالكى من النفع لي والدفع عنى".
قال ابن عاشور: وخص هذا المقول بالإخبار عن حال الرسول عليه الصلاة والسلام نحو معرفة الغيب ليقلع من عقول المشركين توهمَ ملازمة معرفة الغيب لصفة النبوة، إعلانًا للمشركين بالتزام أنه لا يَعلم الغيب، وأن ذلك ليس بطاعن في نبوته حتى يستيْئسوا من تحديه بذلك، وإعلامًا للمسلمين بالتمييز بين ما تقتضيه النبوة وما لا تقتضيه، ولذلك نفى عن نفسه معرفة أحواله المغيّبة، فضلًا على

=

=

معرفة المغيبات من أحوال غيره إلاّ ما شاء الله.

قوله تعالى: {وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ} [الأعراف: ١٨٨]، أي: "ولو كنت أعلم الغيب لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تكثّر لي المصالح والمنافع".

قال الطبري: "يقول: لو كنت أعلم ما هو كائن مما لم يكن بعد لأعددت الكثير من الخير".

قال الزمخشري: أي: "ولو كنت أعلم الغيب لكانت حالى على خلاف ما هي عليه، ومن استكثار الخير، واستغزار المنافع، واجتناب السوء والمضار، حتى لا يمسني شيء منها. ولم أكن غالبا مرة ومغلوبا أخرى في الحروب، ورابحا وخاسرا في التجارات، ومصيبا مخطئا في التدابير".

قال القرطبي:"المعنى لو كنت أعلم ما يريد الله ﷻ مني من قبل أن يعرفنيه لفعلته".

قال ابن كثير: قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن منصور، عن مجاهد (وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ) قال: لو كنت أعلم متى أموت، لعملت عملا صالحًا، وفيه نظر؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان دَيمة. وفي رواية: كان إذا عمل عملا أثبته، فجميع عمله كان على منوال واحد، كأنه ينظر إلى الله، ﷻ، في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المرادُ أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم.

- **قال ابن عطية**:... وأخبر أنه لو كان يعلم الغيب لعمل بحسب ما يأتي ولأستعد لكل شيء استعداد من يعلم قدر ما يستعد له، وهذا لفظ عام في كل شيء، وقد خصص الناس هذا فقال ابن جريج ومجاهد: " لو كنت أعلم أجلي لاستكثرت من العمل الصالح. وقالت فرقة: أوقات النصر لتوخيتها، وحكى مكي عن ابن عباس أن معنى لو كنت أعلم السنة المجدبة لأعددت لها من المخصبة.

=

=

قال القاضي أبو محمد: وألفاظ الآية تعم هذا وغيره، وقوله (وما مسني) يحتمل وجهين وبكليهما قيل، أحدهما أن (ما) معطوفة على قوله: (لاستكثرت) أي ولما مسني السوء، والثاني أن يكون الكلام مقطوعًا تم في قوله (لاستكثرت من الخير) وابتدأ يخبر بنفي السوء عنه وهو الجنون الذي رموه به.

قال السعدي: "أي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكروه، لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تفضي إليه".

وفي قوله تعالى: {وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ} [الأعراف: ١٨٨]، خمسة أقوال:

أحدها: لاستكثرت من العمل الصالح، قاله الحسن ، ومجاهد ، وابن جريج.

قال ابن كثير: "فيه نظر؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان دَيمة. وفي رواية: «كان إذا عمل عملا أثبته» ، فجميع عمله كان على منوال واحد، كأنه ينظر إلى الله، ﷻ، في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المرادُ أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم".

والثاني: معناه: لعلمت إذا اشتريت شيئا ما أربح فيه فلا أبيع شيئا إلا ربحت فيه ولا يصيبني الفقر. وهذا قول ابن عباس ، ورجحه ابن كثير قائلا: "والأحسن في هذا ما رواه الضحاك، عن ابن عباس".

والثالث: لاجتنبت ما يكون من الشرّ واتَّقيته. قاله ابن زيد.

والرابع: لأعددت من السنة المخصبة للسنة المجدبة، قاله الفراء.

والخامس: لعرفت الغلاء فاستعددت له في الرخص. ذكره الفراء ، والطبري. قال الماوردي:"وهو شاذ".

قال القرطبي: "المعنى لو كنت أعلم ما يريد الله ﷻ مني من قبل أن يعرفنيه لفعلته.

=

=

وقيل: لو كنت أعلم متى يكون لي النصر في الحرب لقاتلت فلم أغلب. وقال ابن عباس: لو كنت أعلم سنة الجدب لهيأت لها في زمن الخصب ما يكفيني. وقيل: المعنى لو كنت أعلم التجارة التي تنفق لاشتريتها وقت كسادها. وقيل: المعنى لو كنت أعلم متى أموت لاستكثرت من العمل الصالح، عن الحسن وابن جريج. وقيل: المعنى لو كنت أعلم الغيب لأجبت عن كل ما أسأل عنه. وكله مراد، والله أعلم".

قوله تعالى: {وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ} [الأعراف: ١٨٨]، أي: "ولاتَّقيتُ ما يكون من الشر قبل أن يقع".

قال الطبري: "يقول: وما مسني الضر".

وفي قوله تعالى: {وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ} [الأعراف: ١٨٨]، وجوه:

قال ابن الجوزي: قوله تعالى (وما مسنيَ السوء) فيه أربعة اقوال:

أحدها: أنه الفقر، قاله ابن عباس.

والثاني: أنه كل ما يسوء، قاله ابن زيد.

والثالث: الجنون، قاله الحسن.

والرابع: التكذيب، قاله الزجاج.

فعلى قول الحسن، يكون هذا الكلام مبتدأ، والمعنى: وما بي من جنون إنما أنا نذير، وعلى باقي الأقوال يكون متعلقًا بما قبله.

- قال القرطبي: قوله تعالى (وَمَا مَسَّنِيَ السوء) هذا استئناف كلام، أي ليس بي جنون؛ لأنهم نسبوه إلى الجنون.

وقيل: هو متصل، والمعنى لو علمتُ الغيب لما مسّني سوءٌ ولحذِرت.

قال السعدي: أي: "ولكني - لعدم علمي - قد ينالني ما ينالني من السوء، وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدنيا ومنافعها، فهذا أدل دليل على أني لا علم لي

=

=

بالغيب".

قوله تعالى: {إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ١٨٨]، أي:"، ما أنا إلا رسول الله أرسلني إليكم، أخوِّف من عقابه، وأبشر بثوابه قومًا يصدقون بأني رسول الله، ويعملون بشرعه".

قال القرطبي: "هذا استئناف كلام، أي ليس بي جنون، لأنهم نسبوه إلى الجنون، وقيل: هو متصل، والمعنى لو علمت الغيب لما مسني سوء ولحذرت".

قال الطبري: "يقول: ما أنا إلا رسولٌ لله أرسلني إليكم، أنذر عقابه مَن عصاه منكم وخالف أمره، وأبشّرَ بثوابه وكرامته من آمن به وأطاعه منكم، وقوله: {لقوم يؤمنون}، يقول: يصدقون بأني لله رسول، ويقرون بحقية ما جئتهم به من عنده".

قال ابن كثير: "ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير، أي: نذير من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} [مريم: ٩٧].

قال الزمخشري: أي: "إن أنا إلا عبد أرسالات نذيرا وبشيرا، وما من شأنى أنى أعلم الغيب لقوم يؤمنون يجوز أن يتعلق بالنذير والبشير جميعا، لأن النذارة والبشارة إنما تنفعان فيهم. أو يتعلق بالبشير وحده ويكون المتعلق بالنذير محذوفا أى إلا نذير للكافرين، وبشير لقوم يؤمنون".

قال السعدي: أي: "{نَذِيرٌ} أنذر العقوبات الدينية والدنيوية والأخروية، وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك، وأحذر منها.

{وَبَشِيرٌ} بالثواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة، وإنما ينتفع بذلك ويقبله المؤمنون، وهذه الآيات الكريمات، مبينة جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضر.

=

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩).

{هُوَ} أَيْ الله {الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْس وَاحِدَة} أَيْ آدَم {وَجَعَلَ} خَلَقَ {مِنْهَا زَوْجهَا} حَوَّاء {لِيَسْكُن إِلَيْهَا} وَيَأْلَفهَا {فَلَمَّا تَغَشَّاهَا} جَامَعَهَا {حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا} هُوَ النُّطْفَة {فَمَرَّتْ بِهِ} ذَهَبَتْ وَجَاءَتْ لِخَفَّتِهِ {فَلَمَّا أَثْقَلَتْ} بِكِبَرِ الْوَلَد فِي بَطْنهَا وَأَشْفَقَا أَنْ يَكُون بَهِيمَة {دَعَوْا الله رَبّهمَا لَئِنْ آتَيْتنَا} وَلَدًا {صَالِحًا} سَوِيًّا {لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ} لَك عَلَيْهِ.

فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠).

{فَلَمَّا آتَاهُمَا} وَلَدًا {صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاء} وَفِي قِرَاءَة بِكَسْرِ الشِّين وَالتَّنْوِين أَيْ شَرِيكًا {فِيمَا آتَاهُمَا} بِتَسْمِيَتِهِ عَبْد الْحَارِث وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُون عَبْدًا إِلَّا لِلَّهِ وَلَيْسَ بِإِشْرَاكٍ فِي الْعُبُودِيَّة لِعِصْمَةِ آدَم وَرَوَى سَمُرَة عَنْ النَّبِيّ ﷺ قَالَ لَمَّا وَلَدَتْ حَوَّاء طَافَ بِهَا إِبْلِيس وَكَانَ لَا يَعِيش لَهَا وَلَد فَقَالَ سَمِّيهِ عَبْد

=

فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضر عمن لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله تعالى، وإنما ينفع من قبل ما أرسل به من البشارة والنذارة، وعمل بذلك، فهذا نفعه ﷺ، الذي فاق نفع الآباء والأمهات، والأخلاء والإخوان بما حث العباد على كل خير، وحذرهم عن كل شر، وبينه لهم غاية البيان والإيضاح".

الْحَارِث فَإِنَّهُ يَعِيش فَسَمَّتْهُ فَعَاشَ فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْي الشَّيْطَان وَأَمْره رَوَاهُ الْحَاكِم وَقَالَ صَحِيح وَالتِّرْمِذِيّ وَقَالَ حَسَن غَرِيب {فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} أَيْ أَهْل مَكَّة بِهِ مِنْ الْأَصْنَام وَالْجُمْلَة مُسَبَّبَة عَطْف عَلَى خَلَقَكُمْ وَمَا بَيْنهمَا اعتراض(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كانت حواء تلد لآدم، فتعبدهم لله وتسميه عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاها إبليس وآدم فقال: إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه لعاش، فولدت له رجلًا فسماه عبد الحارث؛ ففيه أنزل الله تبارك وتعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ٩٩): ثنا ابن حميد ثنا سلمة بن الأبرش عن ابن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس. وهذا حديث منكر؛ فيه علل: الأولى: رواية داود بن الحصين عن عكرمة خاصة منكرة.

والثانية: ابن إسحاق؛ مدلس، وقد عنعن.

والثالثة: ابن حميد؛ ضعيف، وقد اتهمه بعضهم.

وقد جاء الحديث عن سمرة بنحوه ليس فيه التصريح بسبب النزول.

أخرجه ابن جرير في تفسيره (٦/ ١٤٤)، والترمذي (٣٠٧٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٤)، والروياني في مسنده (٢/ ٥٢)، جميعهم من طريق: عبد الصمد بن عبد الوارث، عن عمر بن إبراهيم، عن قتادة، عن الحسن البصري، عن سمرة، به مرفوعا. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٣١) عن أبي زرعة الرازي، عن هلال بن الفياض، عن عمر بن إبراهيم، به. مرفوعا. وأخرجه ابن =

=

مردويه كما في تفسير الحافظ ابن كثير (٢/ ٢٨٦)، والطبراني في الكبير (٧/ ٢١٥)، وابن عدي في الكامل (٥/ ٤٣) جميعهم من طريق شاذ بن فياض، عن عمر بن إبراهيم، عن قتادة، به مرفوعا، قال الحافظ ابن كثير، في تفسيره (٢/ ٢٨٦):"وشاذ هو هلال، وشاذ لقبه "، والحديث صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: "حسن غريب، لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث عمر بن إبراهيم، عن قتادة. ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه. عمر بن إبراهيم شيخ بصري.ا. هـ قلت: الحديث لا يصح مرفوعا، وهو معلول من أوجه، وهاك تفصيلها:

العلة الأولى: أنه من رواية "عمر بن إبراهيم" وهو: العبدي أبو حفص البصري، صاحب الهروي، وهو ضعيف في روايته عن قتادة.

قال الإمام أحمد: يروي عن قتادة أحاديث مناكير يخالف. وقال ابن عدي: يروي عن قتادة أشياء لا يوافق عليها، وحديثه خاصة عن قتادة مضطرب. وذكره ابن حبان في الثقات، وقال: يخطئ ويخالف، وذكره في الضعفاء فقال: كان ممن يتفرد عن قتادة بما لا يشبه حديثه؛ فلا يعجبني الاحتجاج به إذا انفرد، فأما فيما روى عن الثقات فإن اعتبر به معتبر لم أر بذلك بأسا. انظر: تهذيب التهذيب (٧/ ٣٧٣).

وقد توبع عمر بن إبراهيم في روايته عن قتادة من طريقين، غير أنهما لا يصح اعتبارهما:

الطريق الأول: أخرجه ابن مردويه [كما في تفسير الحافظ ابن كثير (٢/ ٢٨٦)] من حديث المعتمر، عن أبيه، عن الحسن، عن سمرة، به. مرفوعا. والمعتمر هو: ابن سليمان بن طرخان. والإسناد رجاله ثقات؛ إلا أني لم أقف على الرواة بين ابن مردويه، والمعتمر.

الطريق الثاني: أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ٢٩٨) من طريق سليمان

=

=

الشاذكوني، عن غندر، عن شعبة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، به. مرفوعا.
قال ابن عدي: "وهذا من حديث شعبة، عن قتادة منكر، لا أعرفه إلا من حديث الشاذكوني، عن غندر، عنه، وإنما يروي هذا عن قتادة: عمر بن إبراهيم.أهـ
والشاذكوني هو: سليمان بن داود المنقري - نسبة إلى منقر بن عبيد بن قيس بن غيلان - البصري، قال البخاري: فيه نظر. وكذبه ابن معين في حديث ذكر له عنه، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال النسائي: ليس بثقة، وقد ساق له ابن عدى أحاديث خولف فيها ثم قال: وللشاذكونى حديث كثير مستقيم، وهو من الحفاظ المعدودين، وما أشبه أمره بما قال عبدان: ذهبت كتبه فكان يحدث حفظا فيغلظ.
انظر: لسان الميزان (٣/ ٨٤ - ٨٥).
العلة الثانية: أن الحديث قد روي من قول سمرة رضي الله عنه موقوفا عليه. أخرجه ابن جرير في تفسيره (٦/ ١٤٤) قال حدثني محمد بن عبد الأعلى، قال حدثنا معتمر، عن أبيه قال: حدثنا أبو العلاء يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن سمرة رضي الله عنه، أنه حدث أن آدم عليه السلام سمى ابنه عبد الحارث. وأخرجه عن محمد بن عبد الأعلى، قال: حدثنا المعتمر، عن أبيه قال: حدثنا ابن علية، عن سليمان التيمي، عن أبي العلاء، عن سمرة رضي الله عنه قال: سمى آدم ابنه عبد الحارث.
وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٤/ ٨٣) قال: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة، ثنا أبو الجماهر، ثنا سعيد بن بشير، حدثني عمران، عن عقبة، عن قتادة، عن يزيد بن عبد الله بن الشخير، عن سمرة رضي الله عنه قال: سمياه عبد الحارث، في قوله: {فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون}
والأثر صحيح من رواية ابن جرير.
العلة الثالثة: أن في سماع الحسن من سمرة خلاف مشهور بين علماء الحديث، ثم هو مدلس ولم يصرح في هذا الحديث بسماعه من سمرة، قال الذهبي في ميزان
=

=

الاعتدال (٢/ ٢٨١): "كان الحسن كثير التدليس؛ فإذا قال في حديث (عن فلان) ضعف احتجاجه.ا. هـ

العلة الرابعة: أن الحديث قد روي عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قوله، وهذا يدل على أن أصله من الإسرائيليات المتلقفة عن مسلمة أهل الكتاب.

أخرج أثر أبي: ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٣٣) قال: حدثنا أبى، ثنا أبو الجماهر، أنبا سعيد بن بشير، عن عقبة، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: "لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال: أتطيعيني ويسلم لك ولدك؟ سميه عبد الحارث، فلم تفعل، فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل، ثم حملت الثالث فجاءها فقال: إن تطيعيني يسلم وإلا فإنه يكون بهيمة، فهيبهما فأطاعاه. والأثر في إسناده: " سعيد بن بشير الأزدي، أبو عبد الرحمن " وهو ضعيف، كما في التقريب (١/ ٢٨٤).

العلة الخامسة: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه، وقد فسر قوله تعالى: {جعلا له شركاء فيما آتاهما} فقال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم وعنه قال: عني بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده. وعنه قال: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهودوا ونصروا.

ذكر ذلك الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٨٦) من طرق عنه، ثم قال: "وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظا عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم، مثل كعب أو وهب بن منبه، وغيرهما.ا. هـ والحديث ضعفه ابن عدي في الكامل (٦/ ٨٧)، وابن القيسراني في ذخيرة الحفاظ (٤/ ١٩٧١)، وقال الذهبي في

=

=

الميزان (٣/ ١٧٩): حديث منكر، وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٦): هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه ثم ذكرها، وضعفه الشيخ ناصر في الضعيفة (٣٤٢)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٣/ ٣٠٥): إسناده ضعيف، عمر بن إبراهيم- وهو العبدي أبو حفص البصري- في روايته عن قتادة ضعف، والحسن مشهور بالتدليس ولم يذكر سماعه من سمرة. انظر رسالة التحقيق فيما نسب لآدم وحواء في قوله تعالى (جعلا له شركاء).

* قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [الأعراف: ١٨٩]، أي: "هو الذي خلقكم -أيها الناس- من نفس واحدة، وهي آدم عليه السلام".

قال الطبري: "يعني بالنفس الواحدة: آدم".

قال ابن كثير: "ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم، عليه السلام".

عن مجاهد: " {خلقكم من نفس واحدة}، قال: آدم عليه السلام". وروي عن قتادة مثله.

قال القرطبي: "قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة آدم".

قوله تعالى: {وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} [الأعراف: ١٨٩]، أي: "وخَلَق منها زوجها، وهي حواء؛ ليأنس بها ويطمئن".

قال الطبري: يعني: "وجعل من النفس الواحدة، وهو آدم، زوجها حواء، ليأوي إليها لقضاء حاجتة ولذته".

قال القرطبي: أي: "ليأنس بها ويطمئن، وكان هذا كله في الجنة".

قال ابن كثير: أي: "وأنه خلق منه زوجه حواء، ليألفها ويسكن بها، كما قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} [الروم: ٢١] فلا ألفة بين زَوْجين أعظم مما بين الزوجين؛ ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه.

=

=

قال السعدي: "أي: خلق من آدم زوجته حواء لأجل أن يسكن إليها لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمام الشهوة".

عن قتادة. " {وجعل منها زوجها}،: حواء، فجعلت من ضلع من أضلاعه، ليسكن إليها".

قال الزمخشري: "{ليسكن إليها}، ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر، لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس، وإذا كانت بعضا منه كان السكون والمحبة أبلغ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه. وقال {ليسكن} فذكر بعد ما أنث في قوله: {واحدة}. {منها زوجها}، ذهابا إلى معنى «النفس»، ليبين أن المراد بها آدم، ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها، فكان التذكير أحسن طباقا للمعنى".

قوله تعالى: {فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا} [الأعراف: ١٨٩]، أي: "فلما جامعها -والمراد جنس الزوجين من ذرية آدم- حملت ماءً خفيفًا".

قال الطبري: يعني: "فلما تدثَّرها لقضاء حاجته منها، فقضى حاجته منها، {حملت حملا خفيفًا}، وفي الكلام محذوف، ترك ذكرُه استغناءً بما ظهر عما حذف، وذلك قوله: (فلما تغشاها حملت)، وإنما الكلام: فلما تغشاها -فقضى حاجته منها- حملت".

قال ابن كثير: "{فَلَمَّا تَغَشَّاهَا} أي: وطئها {حَمَلَتْ حَمْلا خَفِيفًا} وذلك أول الحمل، لا تجد المرأة له ألما، إنما هي النُّطفة، ثم العَلَقة، ثم المُضغة".

قال السعدي: "{فَلَمَّا تَغَشَّاهَا}، أي: تجللها مجامعا لها قدَّر الباري أن يوجد من تلك الشهوة وذلك الجماع النسل، وحينئذ {حَمَلَتْ حَمْلا خَفِيفًا}، وذلك في ابتداء الحمل، لا تحس به الأنثى، ولا يثقلها".

=

=

قال القرطبي: "ثم ابتدأ بحالة أخرى هي في الدنيا بعد هبوطهما فقال: {فلما تغشاها} كناية عن الوقاع".

قال الزمخشري: "و «التغشى»: كناية عن الجماع، وكذلك الغشيان والإتيان، {حملت حملا خفيفا} خف عليها، ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذى، ولم تستثقله كما يستثقلنه، وقد تسمع بعضهن تقول في ولدها: ما كان أخفه على كبدي حين حملته".

عن السدي، قوله: " {حملت حملا خفيفًا}، قال: هي النطفة".

ويعني بـ «خفة الحمل»: الماء الذي حملته حواء في رَحِمِها من آدم، أنه كان حملا خفيفًا، وكذلك هو حملُ المرأة ماءَ الرجل خفيفٌ عليها.

قال أبو السعود: "فإنه عند كونه نطفة أو علقة أو مضغة أخف عليها بالنسبة إلى ما بعد ذلك من المراتب والتعرض لذكر خفته للإشارة إلى نعمته تعالى عليهم في إنشائه تعالى إياهم متدرجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ومن الضعف إلى القوة".

قوله تعالى: {فَمَرَّتْ بِهِ} [الأعراف: ١٨٩]، أي: "فاستمرت به إلى حين ميلاده".

قال الفراء: "قامت به وقعدت".

قال الطبري: يعني: "يعني: استمرَّت بالماء: قامت به وقعدت، وأتمت الحمل".

عن مجاهد: " {فمرت به}، قال: استمرّ حملها".

قال القرطبي: "يعني: المني، أي استمرت بذلك الحمل الخفيف. يقول: تقوم وتقعد وتقلب، ولا تكترث بحمله إلى أن ثقل".

قال الزمخشري: أي: "فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق".

عن أيوب قال: "سألت الحسن عن قوله: {حملت حملا خفيفًا فمرت به}، قال: لو كنت امرءًا عربيًّا لعرفت ما هي؟ إنما هي: فاستمرَّت به".

=

=

عن قتادة: " {فلما تغشاها حملت حملا خفيفًا فمرت به}، استبان حملها".

وروي عن ابن عباس، في قوله: " {فمرت به}، قال: فشكت، أحملت أم لا؟.

وقرأ ابن عباس رضى الله عنه: «فاستمرت به»، وقرأ يحيى بن يعمر: «فمرت به»، بالتخفيف. وقرأ غيره: «فمارت به»، من المرية، كقوله: {أَفَتُمَارُونَهُ} [النجم: ١٢]، وأ فتمرونه. ومعناه: فوقع في نفسها ظن الحمل، فارتابت به.

قوله تعالى: {فَلَمَّا أَثْقَلَتْ} [الأعراف: ١٨٩]، أي: "فلما قَرُبت ولادتها وأثقلت".

قال الفراء: "دنت ولادتها".

قال الزمخشري: أي:"حان وقت ثقل حملها، كقولك: أقربت".

قال ابن كثير: "أي: صارت ذات ثقل بحملها.

قال الطبري: يعني: "فلما صار ما في بطنها من الحمل الذي كان خفيفًا، ثقيلا ودنت ولادتها".

قال السعدي: "{فَلَمَّا} استمرت به و {أَثْقَلَتْ} به حين كبر في بطنها، فحينئذ صار في قلوبهما الشفقة على الولد، وعلى خروجه حيا، صحيحا، سالما لا آفة فيه كذلك".

عن السدي: " {فلما أثقلت}،: كبر الولد في بطنها".

وقرئ: «أثقلت»، على البناء المفعول: أى: أثقلها الحمل.

قوله تعالى: {دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف: ١٨٩]، أي: "دعا الزوجان ربهما: لئن أعطيتنا بشرًا سويًا صالحًا لنكونن ممن يشكرك على ما وهبت لنا من الولد الصالح".

قال الطبري: "يقول: نادى آدم وحواء ربهما وقالا يا ربنا، لنكونن ممن يشكرك على ما وهبت له من الولد صالحًا".

=

=

قال الزمخشري: أي: "دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما الذي هو الحقيقي بأن يدعى ويلتجأ إليه فقالا لئن آتيتنا لئن وهبت لنا صالحا ولدا سويا قد صلح بدنه وبريء. وقيل. ولدا ذكرا، لأن الذكورة من الصلاح والجودة. والضمير في آتيتنا ولنكونن. لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما .

قال ابن كثير: " {صَالِحًا}، أي: بشرا سويا.

قال السعدي: "فدعوا {اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا} ولدا {صَالِحًا} أي: صالح الخلقة تامها، لا نقص فيه {لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}.

واختلف في معنى «الصلاح» هنا، على قولين:

أحدهما: معناه: أن يكون الحمل غلاما. قاله الحسن.

والثاني: معناه: أن يكون المولود بشرًا سويًّا مثلهما، ولا يكون بهيمة، وهذا قول ابن عباس، وأبي صالح، وأبي البختري، وسعيد بن جبير، والسدي.

قال سعيد بن جبير: لما هبط آدم وحواء، ألقيت الشهوة في نفسه فأصابها، فليس إلا أن أصابها حملت، فليس إلا أن حملت تحرك في بطنها ولدها، قالت: ما هذا؟ فجاءها إبليس، فقال لها: إنك حملت فتلدين! قالت: ما ألد؟ قال: أترين في الأرض إلا ناقةً أو بقرة أو ضائنة أو ماعزة، أو بعض ذلك! ويخرج من أنفك، أو من أذنك، أو من عينك. قالت: والله ما مني شيء إلا وهو يضيق عن ذلك! قال: فأطيعيني وسميه «عبد الحارث» -وكان اسمه في الملائكة الحارث- تلدي شبهكما مثلكما! قال: فذكرت ذلك لآدم عليه السلام، فقال: هو صاحبنا الذي قد علمت! فمات، ثم حملت بآخر، فجاءها فقال: أطيعيني وسميه عبد الحارث -وكان اسمه في الملائكة الحارث- وإلا ولدت ناقة أو بقرة أو ضائنة أو ماعزة، أو قتلته، فإني أنا قتلت الأول! قال: فذكرت ذلك لآدم، فكأنه لم يكرهه، فسمته «عبد الحارث»، فذلك قوله: {لئن آتيتنا صالحًا}، يقول: شبهنا مثلنا {فلما آتاهما

=

=

صالحًا}، قال: شبههما مثلهما".

عن السدي: " {فلما أثقلت}، كبر الولد في بطنها، جاءها إبليس، فخوَّفها وقال لها: ما يدريك ما في بطنك؟ لعله كلب، أو خنزير، أو حمار! وما يدريك من أين يخرج؟ أمن دبرك فيقتلك، أو من قُبُلك، أو ينشق بطنك فيقتلك؟ فذلك حين {دعوا الله ربهما لئن آتينا صالحًا}، يقول: مثلنا {لنكونن من الشاكرين}.

قال ابن كثير-بعد أن ذكر طرفا من تلك الآثار-: "وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إذا حَدَّثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم"، ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام: فمنها: ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله. ومنها ما علمنا كذبه، بما دُلَّ على خلافه من الكتاب والسنة أيضًا. ومنها: ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته، بقوله، عليه السلام: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حَرج»، وهو الذي لا يصدَّق ولا يكذب، لقوله: «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم». وهذا الأثر: هل هو من القسم الثاني أو الثالث؟ فيه نظر. فأما من حدث به من صحَابي أو تابعي، فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري، رحمه الله، في هذا والله أعلم وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته؛ ولهذا قال الله: {فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن آدم وحواء أنهما دعَوا الله ربهما بحمل حواء، وأقسما لئن أعطاهما ما في بطن حواء، صالحًا ليكونان لله من الشاكرين.

و «الصلاح» قد يشمل معاني كثيرة: منها «الصلاح» في استواء الخلق، ومنها "الصلاح" في الدين، و"الصلاح" في العقل والتدبير.

=

=

وإذ كان ذلك كذلك، ولا خبر عن الرسول يوجب الحجة بأن ذلك على بعض معاني «الصلاح» دون بعض، ولا فيه من العقل دليل، وجب أن يُعَمَّ كما عمَّه الله، فيقال: إنهما قالا {لئن آتيتنا صالحًا} بجميع معاني «الصلاح».

قوله تعالى: {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا} [الأعراف: ١٩٠]، أي: "فلما رزق الله الزوجين ولدًا صالحًا".

قال السعدي: "{فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا} على وفق ما طلبا، وتمت عليهما النعمة فيه".

قال الزمخشري: أي: "من الولد الصالح السوى".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فلما رزقهما الله ولدًا صالحًا كما سألا".

قوله تعالى: {جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا} [الأعراف: ١٩٠]، أي: "جعلا لله شركاء في ذلك الولد الذي انفرد الله بخلقه فعبَّداه لغير الله".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: جعلا له شركاء فيما آتاهما ورزقهما".

قال الزمخشري: "أي: جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك فيما آتاهما أي آتى أولادهما، وقد دل على ذلك بقوله {فتعالى الله عما يشركون} حيث جمع الضمير. وآدم وحواء بريئان من الشرك. ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله: تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبد مناة وعبد شمس وما أشبه ذلك، مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم. ووجه آخر وهو أن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، وهم آل قصى ألا ترى إلى قوله في قصة أم معبد:

فيا لقصى ما زوى الله عنكم ... به من فخار لا يبارى وسودد

ويراد هو الذي خلقكم من نفس قصى، وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوى جعلا له شركاء فيما

=

=

آتاهما، حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبد العزى وعبد قصى وعبد الدار، وجعل الضمير في يشركون لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك، وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه".

قال الفراء: [فلما] " دنت ولادتها، أتاها إبليس فقال: ماذا في بطنك؟ فقالت: لا أدري. قال: فلعله بهيمة، فما تصنعين لي إن دعوت الله لك حتى يجعله إنسانا؟ قالت: قل، قال: تسمينه باسمي. قالت: وما اسمك؟ قال: الحرث. فسمته عبد الحارث، ولم تعرفه أنه إبليس، وقوله: {جعلا له شركاء} إذ قالت: عبد الحارث، ولا ينبغي أن يكون عبدا إلا لله".

قال السعدي: "أي: جعلا لله شركاء في ذلك الولد الذي انفرد الله بإيجاده والنعمة به، وأقرَّ به أعين والديه، فَعَبَّدَاه لغير الله. إما أن يسمياه بعبد غير الله كـ «عبد الحارث» و «عبد العزيز» و «عبد الكعبة» ونحو ذلك، أو يشركا بالله في العبادة، بعدما منَّ الله عليهما بما منَّ من النعم التي لا يحصيها أحد من العباد.

وهذا انتقال من النوع إلى الجنس، فإن أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل إلى الكلام في الجنس، ولا شك أن هذا موجود في الذرية كثيرا، فلذلك قررهم الله على بطلان الشرك، وأنهم في ذلك ظالمون أشد الظلم، سواء كان الشرك في الأقوال، أم في الأفعال، فإن الخالق لهم من نفس واحدة، الذي خلق منها زوجها وجعل لهم من أنفسهم أزواجا، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة ما يسكن بعضهم إلى بعض، ويألفه ويلتذ به، ثم هداهم إلى ما به تحصل الشهوة واللذة والأولاد والنسل.

ثم أوجد الذرية في بطون الأمهات، وقتا موقوتا، تتشوف إليه نفوسهم، ويدعون الله أن يخرجه سويا صحيحا، فأتم الله عليهم النعمة وأنالهم مطلوبهم. أفلا يستحق أن يعبدوه، ولا يشركوا به في عبادته أحدا، ويخلصوا له الدين".

=

=

واختلف في «الشركاء» التي جعلاها فيما أوتيا من المولود، على قولين:

أحدهما: جعلا له شركاء في الاسم. وهذا قول ابن عباس ، وسمرة بن جندب ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، وعكرمة ، والسدي.

عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ قال: "كانت حوّاء لا يعيش لها ولد، فنذرت لئن عاش لها ولد لتسمينه «عبد الحارث»، فعاش لها ولد، فسمته «عبد الحارث»، وإنما كان ذلك عن وحي الشيطان".

والثاني: أن المعنيّ بذلك رجل وامرأة من أهل الكفر من بني آدم، جعلا لله شركاء من الآلهة والأوثان حين رزقهما ما رزقهما من الولد. وهذا قول الحسن.

قال الطبري: "وأولى القولين بالصواب، قول من قال: عنى بقوله: {فلما آتاهما صالحًا جعلا له شركاء} في الاسم لا في العبادة وأن المعنيَّ بذلك آدم وحواء، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك".

وقرئ: «شركاء»، أى: ذوى شرك وهم الشركاء، أو أحدثا الله شركا في الولد.

قوله تعالى: {فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الأعراف: ١٩٠]، أي: "فتعالى الله وتنزه عن كل شرك".

قال الطبري: يقول: "فتعالى الله عما يشرك به مشركو العرب من عبدة الأوثان، وقوله: {فتعالى الله عما يشركون}، تنزيه من الله تبارك وتعالى نفسَه، وتعظيم لها عما يقول فيه المبطلون، ويدَّعون معه من الآلهة والأوثان".

قال الزمخشري: "أى: جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك فيما آتاهما أى آتى أولادهما".

عن ابن جريج: " {فتعالى الله عما يشركون}، قال: هو الإنكاف، أنكف نفسه جل وعز- يقول: عظَّم نفسه - وأنكفته الملائكة وما سبَّح له".

عن عيينة قال: "سمعت صدقة يحدِّث عن السدي قال: هذا من الموصول

=

=

والمفصول، قوله: {جعلا له شركاء فيما آتاهما}، في شأن آدم وحواء، ثم قال الله تبارك وتعالى: {فتعالى الله عما يشركون}، قال: عما يشرك المشركون، ولم يعنهما".

عن السدي، قوله: {فتعالى الله عما يشركون}، يقول: هذه فصْلٌ من آية آدم، خاصة في آلهة العرب".

وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر: «جَعَلا لَهُ شِرْكًا» بكسر الشين، بمعنى: الشَّرِكَة.

(تنبيه): (فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا) في هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف وجهان معروفان من التفسير للعلماء:

أحدهما: جاءت به أحاديث وآثار، والتحقيق أنها لا يثبت شيء من تلك الأحاديث والآثار، وإن صحح بعض العلماء بعضها.

والثاني دلّ عليه القرآن، وما دلّ عليه القرآن أرجح من غيره.

القول الأول: أن قوله (فلما آتاهما) الضمير يعود على الجنس، أي الذكر والأنثى، وهذا ما اختاره ابن القيم وابن كثير. ويكون معنى الآية:

يخبر الله سبحانه وتعالى أنه خلق الناس من أصل واحد وشخص واحد، وأنه خلق منه زوجه ليسكن إليها، ويطمئن إلى عشرتها، وأنه خلق فيهما حب الجماع وأباحه لهما، وذلك ليكمل لهما الاستقرار، ويستمر نسلهما، فلما حملت وحان وقت الولادة، سألا ربهما أن يرزقهما بشرًا سويًا، لتقر به أعينهما، وتزيل وحشتهما، فلما استجاب الله دعوتهما وأعطاهما ما سألا، سمياه عبد الحارث، فأشركوا مع الله غيره، فتعالى الله عما يشركون.

القول الثاني: أن الضمير في قوله (آتاهما) عائد على آدم وحواء. ويكون معنى الآية:

=

=

يخبر تعالى عن مبدأ الجنس الإنساني، وما فيه لله من عجائب القدرة، فأوجد هذا الجنس على كثرته واختلاف أنواعه من نفس واحدة، وهو آدم عليه السلام، وجعل منها زوجها ليسكن إليها، فلما تغشاها ـ أي وطئها ـ وحملت حملًا خفيفًا وذلك الحمل لا تجد المرأة له ألمًا (فمرت به) أي تجاوزت هذا الحمل الخفيف من غير تعب ولا إعياء (فلما أثقلت) أي صارت ذات ثقل بحملها، (دعوا الله ربهما) أي آدم وحواء عليهما السلام دعوا الله (لئن آتيتنا صالحًا) بشرًا سويًا (لنكونن من الشاكرين) أي لنشكرك على ذلك (فلما آتاهما صالحًا جعلا له شركاء) أي لله شركاء فيما آتاهما، أي لم يقوما بشكر ذلك على الوجه المرضي كما وعدا بذلك، أي جعلا لي فيه شركاء فيما أعطيتهما من الولد الصالح والبشر السوي، بأن سمياه عبد الحارث، فإن من تمام الشكر أن لا يعبّد الاسم إلا لله.

وقد جاء: أن إبليس -لعنه الله- لما عظُم الجنين في بطن حواء جاءها وقال لها: إنه إذا خرج قد يشق بطنك، وقد يكون بهيمة، فهل أدلك على شيء إن فعلته خرج منك بسلام، وخرج بشرًا سويًّا؟ وهو أن تسميه عبد الحارث. ويزعمون أن الحارث من أسماء الشيطان، وأنها سمته عبد الحارث، وأنها جعلت لله شركًا حيث نسبت ذلك الولد الصالح الذي أعطاها الله نسبت عبوديته للشيطان، هذا المعنى جاء عن بعض الصحابة، وجاء في بعض الأحاديث المرفوعة، وصحح الحاكم بعضها وغيره.

ورجح هذا القول ـ أن القصة في آدم وحواء، كثير من السلف.

وقالوا: هذا إشراك طاعة لا إشراك عبادة، لكونهما أطاعاه في التسمية بعبد الحارث، لا أنهما عبداه.

وقد ضعف هذا القول جماعة من العلماء منهم ابن كثير ورجح القول الأول.

قال الشنقيطي: والدليل على أنه أطلق آدم وحواء وأراد ذريتهما من القرآن أنه قال

=

=

بعده (فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) ثم قال (أَيُشْرِكُونَ) بصيغة الجمع (مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) ثم ذكر علامات الأصنام التي يُشرك بها أولادهم كما هو واضح.

جاء عن الحسن -رَحِمَهُ اللهُ- قال: إن المراد بالآية غير آدم وحواء، وإن المراد بها المشركون من بني آدم كما ذكر ذلك ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في "تفسيره" وقال: أما نحن؛ فعلى مذهب الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته.

قال ابن عثيمين: وهذه القصة باطلة من وجوه:

الوجه الأول: أنه ليس في ذلك خبر صحيح عن النبي ﷺ وهذا من الأخبار التي لا تتلقى إلا بالوحي، وقد قال ابن حزم عن هذه القصة: إنها رواية خرافة مكذوبة موضوعة.

الوجه الثاني: أنه لو كانت هذه القصة في آدم وحواء؛ لكان حالهما إما أن يتوبا من الشرك أو يموتا عليه، فإن قلنا: ماتا عليه؛ كان ذلك أعظم من قول بعض الزنادقة:

إذا ما ذكرنا آدما وفعاله ... وتزويجه بنتيه بابنيه بالخنا

علمنا بأن الخلق من نسل فاجر ... وأن جميع الناس من عنصر الزنا

فمن جوز موت أحد من الأنبياء على الشرك فقد أعظم الفرية، وإن كان تابا من الشرك؛ فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ولا يذكر توبتهما منه، فيمتنع غاية الامتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحواء وقد تابا، ولم يذكر توبتهما، والله تعالى إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم منها، كما في قصة آدم نفسه حين أكل من الشجرة وزوجه، وتابا من ذلك.

الوجه الثالث: أن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء.

الوجه الرابع: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم يطلبون منه

=

=

الشفاعة، فيعتذر بأكله من الشجرة وهو معصية، ولو وقع منه الشرك؛ لكان اعتذاره به أقوى وأولى وأحرى.

الوجه الخامس: أن في هذه القصة أن الشيطان جاء إليهما وقال: "أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة"، وهذا لا يقوله من يريد الإغواء، وإنما يأتي بشيء يقرب قبول قوله، فإذا قال: "أنا صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة"، فسيعلمان علم اليقين أنه عدو لهما، فلا يقبلان منه صرفا ولا عدلا.

الوجه السادس: أن في قوله في هذه القصة: "لأجعلن له قرني أيل": إما أن يصدقا أن ذلك ممكن في حقه؛ فهذا شرك في الربوبية؛ لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله، أو لا يصدقا؛ فلا يمكن أن يقبلا قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقه.

الوجه السابع: قوله تعالى ﴿فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُون﴾ بضمير الجمع، ولو كان آدم وحواء؛ لقال: عما يشركان.

فهذه الوجوه تدل على أن هذه القصة باطلة من أساسها، وأنه لا يجوز أن يعتقد في آدم وحواء أن يقع منهما شرك بأي حال من الأحوال، والأنبياء منزهون عن الشرك، مبرءون منه باتفاق أهل العلم، وعلى هذا؛ فيكون تفسير الآية كما أسلفنا أنها عائدة إلى بني آدم الذين أشركوا شركًا حقيقيًا، فإن منهم مشركًا، ومنهم موحدًا.

(تتمة): اتفق المفسرون على تنزيه مقام آدم عليه السلام من الشرك، وأن ذلك لم يقع منه، ولا من الأنبياء قط، وقد عدوا هذه الآية -والحديث الوارد في تفسيرها- من مشكلات التفسير، ولهم في تأويلهما أقوال خلاصتها راجعة إلى مذهبين:

الأول: مذهب قبول الحديث، وإجراء الآية على ظاهرها في قصة آدم وحواء وهذا رأي الجمهور من المفسرين، حيث ذهبوا إلى أن الآية معني بها آدم وحواء عليهما السلام حيث سميا ابنهما عبد الحارث، روي ذلك عن: أبي بن كعب، وسمرة بن

=

=

جندب، وابن عباس، رضي الله عنهم، وعن عكرمة، ومجاهد، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وبكر بن عبد الله المزني.

وهو اختيار جمع من المفسرين كما سيأتي ذكرهم، واختلف هؤلاء في معنى الشرك المضاف إلى آدم وحواء عليهما السلام على أقوال:

القول الأول: أنه كان شركا في التسمية، ولم يكن شركا في العبادة، وهذا هو المروي عن قتادة، وسعيد بن جبير، والسدي، واختيار ابن جرير الطبري، وأبي المظفر السمعاني، والبغوي، وابن عطية، وابن الجوزي، والسيوطي، والآلوسي، والإمام محمد بن عبد الوهاب، وعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.

قال البغوي في تفسيره (٢/ ٢٢١): جعلا له شريكا إذ سمياه عبد الحارث، ولمن يكن هذا إشراكا في العبادة، ولا أن الحارث ربهما؛ فإن آدم كان نبيا معصوما من الشرك، ولكن قصد إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمة، وقد يطلق اسم العبد على من يراد به أنه معبود هذا، كالرجل إذا نزل به ضيف يسمي نفسه عبد الضيف، على وجه الخضوع، لا على وجه أن الضيف ربه، ويقول للغير أنا عبدك، وقال يوسف عليه السلام لعزيز مصر: {إنه ربي أحسن مثواي} [يوسف: ٢٣] ولم يرد به أنه معبوده، كذلك هذا. ا. هـ

القول الثاني: أنه كان شركا في الطاعة، ولم يكن شركا في العبادة، وهذا هو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة.

القول الثالث: أن الإشراك وقع من حواء لا من آدم عليه السلام، ولم يشرك آدم قط، وأما قوله: {جعلا له شركاء فيما آتاهما} بصيغة التثنية فلا ينافي ذلك؛ لأنه قد يسند فعل الواحد إلى الاثنين، بل إلى جماعة، وهو شائع في كلام العرب.

وهذا قول القنوجي كما في في تحفة الأحوذي (٨/ ٣٦٧).

واعترض: بأن الله تعالى قال {جعلا} حيث نسب الجعل إليهما، والأصل حمل

=

=

اللفظ على ظاهره، وبأن آدم عليه السلام قد أقر حواء على ذلك، وبأن في حديث سمرة رضي الله عنه التصريح بأنهما سمياه بذلك معا.

واستدل القائلون بأن الآية معني بها آدم وحواء عليهما السلام بأدلة منها:

الدليل الأول: حديث سمرة رضي الله عنه، حيث أورده أصحاب هذا المذهب وجعلوه عمدة في تفسير الآية، وقد صرح بعضهم بصحته، والبعض الآخر أورده وسكت عنه، وهو مشعر باعتماده له.

الدليل الثاني: أن هذا المذهب هو المروي عن سمرة، وأبي بن كعب، وابن عباس رضي الله عنهم، ومثل هذا لا يقال بالرأي، فدل على أن للقصة أصل؛ فيكون لها حكم الرفع.

الدليل الثالث: إجماع الحجة من أهل التأويل على أن المعني بالآية آدم وحواء. حكى الإجماع ابن جرير (٢) في تفسيره (٦/ ١٤٧).

واعترض على هذا المذهب بقوله تعالى في آخر الآية: {فتعالى الله عما يشركون} بصيغة الجمع، فلو كان المراد آدم وحواء عليهما السلام لقال يشركان، بصيغة التثنية، وفي هذا دلالة واضحة بأن الآية معني بها الذرية لا آدم وحواء.

وقد أجاب بعض أصحاب هذا المذهب عن هذا الاعتراض بأن آخر الآية معني بها مشركو العرب من عبدة الأوثان، وأن الخبر عن آدم وحواء قد انقضى عند قوله: {جعلا له شركاء فيما آتاهما} وهذا رأي ابن جرير الطبري، والسيوطي، وهو المروي عن السدي، وأبي مالك.

المذهب الثاني: مذهب تضعيف الحديث، وتأويل الآية في غير آدم وحواء: حيث ذهب آخرون إلى تضعيف حديث سمرة رضي الله عنه، وأن الشرك المذكور في الآية معني به غير آدم وحواء عليهما السلام، واختلف هؤلاء بالمعني به على أقوال:

القول الأول: أن الشرك نسب إلى آدم وحواء، والمعني به أولادهما، كاليهود

=

=

والنصارى، والمشركين وآدم وحواء بريئان من الشرك، والآية فيها انتقال من ذكر النوع إلى الجنس؛ فإن أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل الكلام إلى الجنس من أولادهما، وقد اشتهر هذا القول عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وروي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا - في إحدى الروايات عنه.

قال الحسن في تفسير الآية: "كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم.

وعنه قال: "عني بهذا ذرية آدم من أشرك منهم بعده.

وعنه قال: "هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهودوا ونصروا".

واختار هذا القول جمع من المفسرين، والمحققين، منهم الزمخشري، وأبو عبد الله القرطبي، والنسفي، وابن جزي، وابن القيم، وابن كثير، والثعالبي، وأبو السعود، والمباركفوري، والسعدي، والشنقيطي.

قال الزمخشري في الكشاف (٢/ ١٨٠): في قوله تعالى {جعلا له شركاء}: "أي جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك فيما آتاهما، أي آتى أولادهما، وآدم وحواء بريئان من الشرك، ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله تسميتهم أولادهم بعبد العزى، وعبد مناة، وعبد شمس، وما أشبه ذلك، مكان عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الرحيم" ا. هـ

وقال الحافظ ابن كثير: "وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، فذكر آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس؛ كما في قوله تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين} [المؤمنون: ١٢ - ١٣]، وقال تعالى {ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين} [الملك: ٥] ومعلوم أن المصابيح - وهي النجوم التي زينت بها السماء - ليست هي التي

=

=

يرمى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر في القرآن، والله أعلم.ا. هـ

واعترض على هذا القول بأن فيه تشتيت للضمائر، والأصل اتساق الضمائر وعودها لمذكور واحد.

القول الثاني: أن الآية معني بها المشركون من بني آدم عموما، وليس فيها تعرض لآدم وحواء بوجه من الوجوه، وهذا اختيار النحاس، والقفال، وابن حزم، وابن العربي، والرازي، وابن المنير، والقاسمي، وابن عثيمين.

قال القفال كما في تفسير الرازي (١٥/ ٧١): "ذكر الله تعالى هذه القصة على تمثيل ضرب المثل، وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم، وقولهم بالشرك، وتقرير هذا الكلام، كأنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة، وجعل من جنسها زوجها، إنسانا يساويه في الإنسانية، فلما تغشى الزوج زوجته، وظهر الحمل؛ دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولدا صالحا سويا لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك؛ فلما آتاهما الله ولدا صالحا سويا جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما؛ لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع، كما هو قول الطبائعيين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام، ثم قال تعالى: {فتعالى الله عما يشركون} أي تنزه الله عن ذلك الشرك "ا. هـ

واعترض هذا القول:

١ - بأن قوله تعالى {هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها} لا يصح حمله على غير آدم وحواء - عليهما السلام.

٢ - وبقوله {دعوا الله ربهما} فإن كل مولود يولد بين الجنسين لا يكون منهما عند مقاربة وضعه هذا الدعاء.

=

=

القول الثالث: أن المشركين كانوا يقولون: إن آدم عليه السلام كان يعبد الأصنام ويرجع في طلب الخير ودفع الشر إليها، فذكر تعالى قصة آدم وحواء عليهما السلام وحكى عنهما أنهما قالا: {لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين} أي ذكرا أنه تعالى لو آتاهما ولدا سويا صالحا لاشتغلوا بشكر تلك النعمة، ثم قال: {فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء} فقوله: {جعلا له شركاء} ورد بمعنى الاستفهام على سبيل الإنكار والتبعيد والتقرير، والمعنى: أجعلا له شركاء فيما آتاهما؟ ثم قال: {فتعالى الله عما يشركون} أي تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين الذين يقولون بالشرك وينسبونه إلى آدم عليه السلام، ذكر هذا التأويل: الفخر الرازي في تفسيره (١٥/ ٧١).

ويرده: أن الآية وردت بصيغة الخبر، وحملها على معنى الاستفهام يفتقر إلى دليل، وليس ثمة دليل.

القول الرابع: أن الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، وهم آل قصي، والمراد من قوله: {هو الذي خلقكم من نفس واحدة} قصي، وجعل من جنسها زوجها، عربية قرشية ليسكن إليها، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوي جعلا له شركاء فيما آتاهما، حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي، وعبد اللات، وجعل الضمير في {يشركون} لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك.

ذكر هذا التأويل: الزمخشري واستحسنه، واختاره البيضاوي، وأشار إليه الفخر الرازي في تفسيره.

الإيرادات والاعتراضات على هذا القول، قال ابن جزي في التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٣١٦): "وهذا القول بعيد لوجهين أحدهما أن الخطاب على هذا خاص بذرية قصي من قريش، والظاهر أن الخطاب عام لبني آدم، والآخر أن قوله

=

=

{وجعل منها زوجها}، فإن هذا يصح في حواء؛ لأنها خلقت من ضلع آدم، ولا يصح في زوجة قصي "ا. هـ

القول الخامس: أن الضمير في قوله {جعلا} راجع إلى الولد الصالح، والمعنى جعل ذلك الولد الصالح - الذي رزقهما الله إياه - جعل لله شركاء، وإنما قال: {جعلا}؛ لأن حواء كانت تلد في كل بطن ذكرا وأنثى.

ذكر هذا التأويل الجصاص في أحكام القرآن (٣/ ٤٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٣١).

استدل القائلون بأن الآية معني بها غير آدم وحواء عليهما السلام بأدلة منها:

الدليل الأول: قوله تعالى في آخر الآية {فتعالى الله عما يشركون} وهذا يدل على أن الذين أتوا بهذا الشرك جماعة، ولو كان المراد آدم وحواء عليهما السلام لعبر عنهما بصيغة التثنية.

الدليل الثاني: أنه تعالى قال بعد هذه الآية {أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون} وهذا يدل على أن المقصود من هذه الآية الرد على من جعل الأصنام شركاء لله تعالى، وليس المراد بها آدم وحواء عليهما السلام.

الدليل الثالث: لو كان المراد إبليس لقال أيشركون "من" لا يخلق شيئا، ولم يقل "ما"؛ لأن العاقل إنما يذكر بصيغة "من" لا بصيغة "ما".

الدليل الرابع: أن هذا القول فيه تنزيه لمقام آدم عليه السلام من الشرك، والقول الذي فيه تنزيه لمقام الأنبياء وإجلال لمقامهم، مقدم في التفسير على القول الذي فيه قدح بعصمتهم، وحط من منزلتهم.

الدليل الخامس: أن المروي عن سمرة رضي الله عنه في تفسير الآية لم يثبت بسند صحيح، وعليه فلا يصح حمل الآية على أمور مغيبة لم يثبت فيها دليل من كتاب أو سنة.

الدليل السادس: أنه لو كانت هذه القصة في أدم وحواء، لكان حالهما إما أن يتوبا

=

=

من ذلك الشرك أو يموتا عليه فإن قلنا ماتا عليه، كان هذا القول فيه فرية عظيمة؛ لأنه لا يجوز موت أحد من الأنبياء على الشرك، وإن كان تابا من الشرك، فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ولا يذكر توبتهما منه، فيمتنع غاية الامتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحواء وقد تابا، ثم لا يذكر توبتهما، والله تعالى إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم منها، كما في قصة آدم نفسه حين أكل من الشجرة هو وزوجه وتابا من ذلك.

الدليل السابع: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعتذر بأكله من الشجرة - التي عصى الله تعالى بالأكل منها في الجنة - فلو كان وقع منه الشرك، لكان اعتذاره منه أقوى وأولى وأحرى.

الدليل الثامن: أن الله تعالى أسند فعل الذرية إلى آدم وحواء؛ لأنهما أصل لذريتهما، كما في قوله تعالى: {ولقد خلقناكم ثم صورناكم} [الأعراف: ١١] أي بتصويرنا لأبيكم آدم؛ لأنه أصلهم، بدليل قوله بعده {ثم قلنا للملآئكة اسجدوا لآدم}.

الإيرادات والاعتراضات على هذا المذهب وأدلته:

١ - اعترض القاضي ابن عطية على الاستدلال بقوله تعالى {فتعالى الله عما يشركون} وأن المراد بها مشركو العرب، قائلا في المحرر الوجيز (٢/ ٤٨٧): " وهذا تحكم لا يساعده اللفظ، ويتجه أن يقال تعالى الله عن ذلك اليسير المتوهم من الشرك في عبودية الاسم، ويبقى الكلام في جهة أبوينا آدم وحواء عليهما السلام وجاء الضمير في " يشركون " ضمير جمع؛ لأن إبليس مدبر معهما تسمية الولد عبد الحارث.اهـ

٢ - واعترض أيضا: بأن هذا المذهب يرده قوله تعالى: {جعلا} بصيغة التثنية، فلو كان المراد المشركين من ذرية آدم عليه السلام لورد اللفظ بصيغة الجمع.

=

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١).

{أيشركون} به في العبادة {ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون.

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢).

{وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ} أَيْ لِعَابِدِيهِمْ {نَصْرًا وَلَا أَنْفُسهمْ يَنْصُرُونَ} بِمَنْعِهَا مِمَّنْ أَرَادَ بِهِمْ سُوءًا مِنْ كَسْر أَوْ غَيْره وَالِاسْتِفْهَام لِلتَّوْبِيخ.

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣)

{وَإِنْ تَدْعُوهُمْ} أَيْ الْأَصْنَام {إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد {سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ} إِلَيْهِ {أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ} عَنْ دُعَائِهِمْ لَا يَتَّبِعُوهُ لعدم سماعهم.

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤).

{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ} تَعْبُدُونَ {مِنْ دُون الله عِبَاد} مَمْلُوكَة {أَمْثَالكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ} دُعَاءَكُمْ {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} فِي أَنَّهَا آلِهَة ثُمَّ بين غاية عجزهم وفضل عابديهم عليهم فقال.

=

وقد أجاب الفخر الرازي عن هذا الاعتراض فقال هنا: " فإن قيل: فعلى هذا التأويل ما الفائدة في التثنية في قوله: {جعلا}؟ قلنا لأن ولده قسمان ذكر وأنثى؛ فقوله {جعلا} المراد منه الذكر والأنثى، مرة عبر عنهما بلفظ التثنية؛ لكونهما صنفين ونوعين، ومرة عبر عنهما بلفظ الجمع، وهو قوله تعالى {فتعالى الله عما يشركون}.

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥).

{ألهم أرجل يمشون بها أم} بل أ {لهم أيد} جمع يد {يبطشون بها أم} بل أ {لهم آذان يسمعون بها} اسْتِفْهَام إنْكَارِيّ أَيْ لَيْسَ لَهُمْ شَيْء مِنْ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ لَكُمْ فَكَيْفَ تَعْبُدُونَهُمْ وَأَنْتُمْ أَتَمّ حَالًا مِنْهُمْ {قُلْ} لَهُمْ يَا مُحَمَّد {ادعوا شركاءكم} إلى هلاكي {ثم كيدون فلا تنظرون} تمهلون فإني لا أبالي بكم.

إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦).

{إن وليي الله} مُتَوَلِّي أُمُورِي {الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَاب} الْقُرْآن {وهو يتولى الصالحين}.

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧).

{وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونه لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْركُمْ وَلَا أَنْفُسهمْ يَنْصُرُونَ} فَكَيْفَ أُبَالِي بِهِمْ.

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨).

{وَإِنْ تَدْعُوهُمْ} أَيْ الْأَصْنَام {إلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ} أَيْ الْأَصْنَام يَا مُحَمَّد {يَنْظُرُونَ إليك} أي يقابلونك كالناظر {وهم لا يبصرون}(١).

---

(١) قوله تعالى: (أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) أي: أيعبدون ما لا يقدر على أن يخلق شيئًا؟ وهم يخلقون، أي وهم مخلوقون يعني الأصنام.

قال الطبري: يقول: " أيشرك هؤلاء المشركون في عبادة الله ما لا يخلق شيئًا من خلق الله".

=

=

قال ابن كثير: "هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئا من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تنصرولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم؛ ولهذا قال: {أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ} أي: أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئًا ولا يستطيع ذلك، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٧٣، ٧٤] أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلها، ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو أستَلبتهم الذبابة شيئا من حَقير المطاعم وطارت، لما استطاعوا إنقاذ ذلك منها، فمن هذه صفته وحاله، كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟.

قال الشوكاني: وَالِاسْتِفْهَامُ فِي (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا) لِلتَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ، أَي: كَيْفَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ شَرِيكًا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى نَفْعٍ لَهُمْ وَلَا دَفْعٍ عَنْهُمْ (وَهُمْ يُخْلَقُونَ) أَيْ: وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَعَلُوهُمْ شُرَكَاءَ مِنَ الْأَصْنَامِ أَوِ الشَّيَاطِينِ مَخْلُوقُونَ، وَجَمْعُهُمْ جَمْعَ الْعُقَلَاءِ لِاعْتِقَادِ مَنْ جَعَلَهُمْ شُرَكَاءَ أَنَّهُمْ كَذَلِكَ.

قال ابن كثير: هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئا من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تنصر ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم؛ ولهذا قال: (أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) أي: أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئًا ولا يستطيع ذلك، كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ

=

=

فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)، أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلها، ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو أستلبتهم الذبابة شيئًا من حَقير المطاعم وطارت، لما استطاعوا إنقاذ ذلك منها، فمن هذه صفته وحاله، كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالى (لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) أي: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ).

قوله (وَهُمْ يُخْلَقُونَ).

قال الطبري: أي:"والله يخلقها وينشئها؟ وإنما العبادة الخالصة للخالق لا للمخلوق".

قال ابن كثير: "أي: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: {قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٥، ٩٦].

قال القرطبي: "أي: الأصنام مخلوقة. وقال: {يخلقون}، بالواو والنون، لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تضر وتنفع، فأجريت مجرى الناس، كقوله: {فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [الأنبياء: ٣٣ - يس: ٤٠]، وقوله: {يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ} [النمل: ١٨].

قال الزمخشري: "أجريت الأصنام مجرى أولى العلم في قوله {وهم يخلقون} بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم إياها آلهة. والمعنى: أيشركون ما لا يقدر على خلق شيء كما يخلق الله، وهم يخلقون؟ لأن الله ﷻ خالقهم. أو لا يقدر على اختلاق شيء، لأنه جماد، وهم يخلقون، لأن عبدتهم يختلقونهم، فهم أعجز من عبدتهم".

قال ابن زيد: "ولد لآدم وحواء ولد، فسمياه «عبد الله»، فأتاهما إبليس فقال: ما

=

=

سميتما يا آدم ويا حواء ابنكما؟ قال: وكان وُلد لهما قبل ذلك ولد، فسمياه "عبد الله"، فمات. فقالا سميناه "عبد الله". فقال إبليس: أتظنان أن الله تارك عبده عندكما؟ لا والله، ليذهبن به كما ذهبَ بالآخر! ولكن أدلكما على اسم يبقى لكما ما بقيتما، فسمياه «عبد شمس»! قال: فذلك قول الله تبارك وتعالى: {أيشركون ما لا يخلق شيئًا وهم يخلقون}، آلشمس تخلق شيئًا حتى يكون لها عبد؟ إنما هي مخلوقة! وقد قال رسول الله ﷺ: «خدعهما مرتين، خدعهما في الجنة، وخدعهما في الأرض».

- قال الشنقيطي: وقد جرت العادة في القرآن في آيات كثيرة أنه يجعل سبب العبادة التي تُستحق به هو الخلق والإبراز مِنَ العَدَمِ إلى الوجود، فمن يبرزكم من العدم إلى الوجود، ويوجدكم بعد أن كنتم عدمًا هذا هو ربكم الذي يستحق أن تعبدوه وحده، أما الذي يحتاج إلى من يخلقه فهو عبد مربوب فقير مثلكم، عليه أن يَعْبُدَ مَنْ خَلَقَه.

قال تعالى (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

وكما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي).

فقوله (إلا الذي فطرني) ولم يقل إلا الله لفائدتين:

الأولى: الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة ، لأنه كما أنه متفرد بالخلق ، فيجب أن

=

=

ينفرد بالعبادة.

والثانية: الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام، ولأنها لم تفطركم حتى تعبدوها، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات.

- قال بعض العلماء: إنما نص الله تعالى على صفة الخلق دون غيرها من الصفات، لأن المشركين كانوا يعترفون أن الله خالقهم، كما قال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ) وقال تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ).

وقيل: ليذكرهم بذلك نعمته عليهم.

قوله تعالى: {وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا} [الأعراف: ١٩٢]، أي: "ولا يستطيع هذه الأصنام نصر عابديها".

قال ابن كثير: "أي: لعابديهم".

قال الزمخشري: أي:"لعبدتهم نصرا".

قال الطبري: "ولا يستطيع أن ينصرهم إن أراد الله بهم سوءًا، أو أحلّ بهم عقوبة".

قال الشوكاني: قوله تعالى (وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ) أَيْ: لِمَنْ جَعَلَهُمْ شُرَكَاءَ نَصْرًا إِنْ طَلَبَهُ مِنْهُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ إِنْ حَصَلَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْ جِهَةِ غَيْرِهِمْ، وَمَنْ عَجَزَ عَنْ نَصْرِ نَفْسِهِ فَهُوَ عَنْ نَصْرِ غَيْرِهِ أَعْجَزُ.

- قال الرازي: يريد أن الأصنام لا تنصر من أطاعها ولا تنتصر ممن عصاها، والنصر: المعونة على العدو، والمعنى أن المعبود يجب أن يكون قادرًا على إيصال النفع ودفع الضرر وهذه الأصنام ليست كذلك.

فكيف يليق بالعاقل عبادتها؟ ثم قال (وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ) أي: ولا يدفعون عن أنفسهم مكروهًا فإن من أراد كسرهم لم يقدروا على دفعه.

- قال القاسمي: قوله تعالى (وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ) أي: لعبدتهم إذا حزبهم أمر

=

=

(نَصْرًا) أي: بجلب نفع، أو دفع ضر (وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ) إذا اعترتهم حادثة من الحوادث، كما قال تعالى (وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ).

- **قال ابن كثير**: كما كان الخليل عليه السلام يكسر أصنام قومه ويهينُها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ) وقال تعالى (فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ) وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل، رضي الله عنهما -وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة -فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطبا للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك، ويرتئوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح -وكان سيدًا في قومه - كان له صنم يعبده ويطيبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخانه بالعَذِرة، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفا، ويقول له (انتصر) ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضا، حتى أخذاه مرة فقرنا معه جرو كلب ميت، ودلَّياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تَاللهِ لو كُنتَ إِلَها مُسْتَدن ... لم تَكُ والكَلْبُ جَمِيعًا في قَرنْ.

ثم أسلم فَحسُن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيدًا رضي الله عنه وجعل جنة الفردوس مأواه.

وقال ابن عاشور: والمعنى: أن الأصنام لا ينصرون من يعبدونهم إذا احتاجوا لنصرهم ولا ينصرون أنفسهم إن رام أحد الاعتداء عليها.

قوله تعالى: {وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} [الأعراف: ١٩٢]، أي: "ولا ينصرون أنفسهم ممن أرادهم بسوء، فهم في غاية العجز والذلة فكيف يكونون آلهة؟.

قال الزمخشري: أي: "فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث، بل عبدتهم هم الذين يدفعون عنهم ويحامون عليهم".

قال الطبري: "ولا هو قادر إن أراد به سوءًا نصر نفسه ولا دفع ضر عنها؟ وإنما

=

=

العابد يعبد ما يعبده لاجتلاب نفع منه أو لدفع ضر منه عن نفسه، وآلهتهم التي يعبدونها ويشركونها في عبادة الله لا تنفعهم ولا تضرهم، بل لا تجتلب إلى نفسها نفعًا ولا تدفع عنها ضرًّا، فهي من نفع غير أنفسها أو دفع الضر عنها أبعدُ؟ يعجِّب تبارك وتعالى خلقه من عظيم خطأ هؤلاء الذين يشركون في عبادتهم اللهَ غيرَه".

والظاهر أن تخصيص النصر من بين الأعمال التي يتخيلون أن تقوم بها الأصنام مقصود منه تنبيه المشركين على انتفاء مقدرة الأصنام على نفعهم، إذ كان النصر أشد مرغوب لهم، لأن العرب كانوا أهل غارات وقتال وتراث، فالانتصار من أهم الأمور لديهم قال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهةً لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم) وقال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهةً ليكونوا لهم عزًا كلا سيكفرون بعبادتهم)، قال أبو سفيان يوم أُحد "أعْلُ هبل" وقال أيضًا (لنا العُزى ولا عُزى لكم) وأن الله أعلم المسلمين بذلك تعريضًا بالبشارة بأن المشركين سيُغلبون قال (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) وأنهم سيمحقون الأصنام ولا يستطيع أحد الذب عنها.

قوله تعالى: {وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ} [الأعراف: ١٩٣]، أي: "وإن ندعوا -أيها المشركون- هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله إلى الهدى، لا تسمع دعاءكم ولا تتبعكم".

قال الزمخشري: أي: "وإن تدعوا هذه الأصنام إلى الهدى أى إلى ما هو هدى ورشاد، وإلى أن يهدوكم. والمعنى: وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى، لا يتبعوكم إلى مرادكم وطلبتكم، ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله، ويدل عليه قوله: {فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأعراف: ١٩٤].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره في وصفه وعيبه ما يشرك هؤلاء المشركون في عبادتهم ربَّهم إياه: ومن صفته أنكم، أيها الناس، إن تدعوهم إلى الطريق

=

=
المستقيم، والأمر الصحيح السديد لا يتبعوكم، لأنها ليست تعقل شيئًا، فتترك من الطرق ما كان عن القصد منعدلا جائرًا، وتركب ما كان مستقيمًا سديدً، وإنما أراد الله جل ثناؤه بوصف آلهتهم بذلك من صفتها، تنبيهَهم على عظيم خطئهم، وقبح اختيارهم. يقول جل ثناؤه: فكيف يهديكم إلى الرشاد مَنْ إن دُعي إلى الرشاد وعُرِّفه لم يعرفه، ولم يفهم رشادًا من ضلالا".

قال أبو الليث: "قال الكلبي يعني: الآلهة. وإن يدع المشركون آلهتهم إلى أمر لا يتبعوكم يعني: لا يتبعهم آلهتهم".

قال ابن كثير: "يعني: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها".

قوله تعالى: {سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ} [الأعراف: ١٩٣]، أي: "يستوي دعاؤكم لها وسكوتكم عنها؛ لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تَهدِي ولا تُهدى".

قال أبو الليث: "سواء عليكم يا أهل مكة أدعوتموهم أم أنتم صامتون لا تعقل شيئا لأنه ليس فيها روح".

قال الطبري: "وكان سواءً دعاءُ داعيه إلى الرشاد وسكوته، لأنه لا يفهم دعاءه، ولا يسمع صوته، ولا يعقل ما يقال له. يقول: فكيف يُعبد من كانت هذه صفته، أم كيف يُشْكِل عظيمُ جهل من اتخذ ما هذه صفته
إلهًا؟ وإنما الرب المعبود هو النافع من يعبده، الضارّ من يعصيه، الناصرُ وليَّه، الخاذل عدوه، الهادي إلى الرشاد من أطاعه، السامع دعاء من دعاه".

قال ابن كثير: أي: "وسواء لديها من دعاها ومن دحاها، كما قال إبراهيم: {يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا} [مريم: ٤٢]؟.

قال السعدي: "فصار الإنسان أحسن حالة منها، لأنها لا تسمع، ولا تبصر، ولا تهدِي ولا تُهدى، وكل هذا إذا تصوره اللبيب العاقل تصورا مجردا، جزم ببطلان
=

=

إلهيتها، وسفاهة من عبدها".

قال الزمخشري: أي: "سواء عليكم أدعوتموهم أم صمتم عن دعائهم، في أنه لا فلاح معهم. فإن قلت: هلا قيل: أم صمتم؟ ولم وضعت الجملة الاسمية موضع الفعلية؟ قلت: لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر دعوا الله دون أصنامهم، كقوله: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ} [الروم: ٣٣]، فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم، فقيل: إن دعوتموهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم، وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم".

فعطف بقوله: {صامتون}، وهو اسم على قوله: {أدعوتموهم}، وهو فعل ماض، ولم يقل: أم صمتم، كما قال الشاعر:

سَوَاءٌ عَلَيْكَ النَّفْرُ أَمْ بِتَّ لَيْلَةً ... بِأَهْلِ الْقِبَابِ مِنْ نُمَيْرِ بنِ عَامِرِ

قال الشنقيطي: قوله تعالى (وَإِن تَدْعُوهُمْ) أي: تدعوا هؤلاء المعبودين الأوثان التي تعبدونها من دون الله التي لا تخلق شيئًا وهي تُخلق (وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى) معناها: تدعوهم إلى طريق الهدى (لاَ يَتَّبِعُوكُمْ) لأنهم جماد. ومن إذا دُعي إلى الهدى لا يتبع كيف يُطلب منه الهدى؟ (أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) وهؤلاء إن هُدوا لا يهتدون!!.

قال الخازن: ثم خاطب المؤمنين فقال سبحانه وتعالى (وإن تدعوهم إلى الهدى) يعني وإن تدعوا أيها المؤمنون المشركين إلى الهدى (لا يتبعوكم) لأن الله سبحانه وتعالى حكم عليهم بالضلالة فلا يقبلون الهداية (سواء عليكم أدعوتموهم) إلى الدين والهداية (أم أنتم صامتون) أي: ساكتون عن دعائهم فهم في كلا الحالين لا يؤمنون.

وقيل: إن الله سبحانه وتعالى لما بيّن في الآية المتقدمة عجز الأصنام بيّن في هذه

=

=

الآية أنه لا علم لها بشيء البتة؛ والمعنى أن هذه الأصنام التي يعبدها المشركون معلوم من حالها أنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع لمن دعاها إلى خير وهدى ثم قوى هذا المعنى بقوله سبحانه وتعالى (سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) وذلك أن المشركين كانوا إذا وقعوا في شدة وبلاء تضرعوا لأصنامهم فإذا لم تكن لهم إلى الأصنام حاجة سكتوا وصمتوا فقيل لهم لا فرق بين دعائكم للأصنام أو سكوتكم عنها فإنها عاجزة في كل حال.

قال الشوكاني: وَجُمْلَةُ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ مُقَرِّرَةٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهَا، أَيْ: دُعَاؤُكُمْ لَهُمْ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَعَدَمُهُ سَوَاءٌ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، لِأَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُونَ وَلَا يَضُرُّونَ، وَلَا يَسْمَعُونَ وَلَا يُجِيبُون.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ} [الأعراف: ١٩٤]، لها معنيان، المعنى الأول يعني أنكم قد تتخذونهم آلهة وتعبدونهم، والمعنى الثاني هو أن يقال: " تدعونه " أي تطلب منه شيئًا. والمعنيان يجيئان في هذه الآية (إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فادعوهم).

(عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ) إنما أطلق على الأصنام اسم العباد وعبّر عنها بضمائر العقلاء؛ لأن الكفار يصفونها بصفات من هو خير من مطلق العقلاء، أنها معبودات، وأنها تشفع وتقرِّبُ إلى اللهِ زُلْفَى، فبهذا الاعتبار أجرى عليها ضمائر العقلاء، وعبّر عنها بالعباد. ووجه مماثلتهم هنا: أن الكفار العابدين، والأصنام المعبودات كلهم مخلوقات لله لا تقدر أن تجلب لنفسها نفعًا ولا أن تدفع عنها ضرًّا. فهم من قبيل تَسْخِيرِ الله لهم، وخلقه للجميع، وقدرته على الجميع، بهذا الاعتبار هم سواء؛ ولذا قال: (عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ) بهذا الاعتبار، وفي الآية التي بعدها سيبيّن انحطاط درجة المعبودين عن العابدين،

- وقَوْلُهُ: (عِبادٌ أَمْثَالُكُمْ) قِيلَ: إِنَّمَا سَمَّاهَا عِبَادًا لِأَنَّهَا مَمْلُوكَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَقِيلَ:

=

=

لِأَنَّهُمْ تَوَهَّمُوا أَنَّهَا تَضُرُّ وَتَنْفَعُ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَيْسَ يَخْرُجُ بِذَلِكَ عَنْ حُكْمِ الْعِبَادِ الْمَخْلُوقِينَ.

قال أبو الليث: "يعني: تعبدون {من دون الله} يعني: الأصنام، {عباد أمثالكم} يعني: مخلوقين مملوكين أشباهكم وليسوا بآلهة فادعوهم".

قال القرطبي: "حاجهم في عبادة الأصنام، {تدعون} تعبدون. وقيل: تدعونها آلهة، {من دون الله}، أي: من غير الله. وسميت الأوثان عباد الأنها مملوكة لله مسخرة".

قال ابن كثير: "ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها، أي: مخلوقات مثلهم، بل الأناسي أكمل منها، لأنها تسمع وتبصر وتبطش، وتلك لا تفعل شيئا من ذلك"

قال الطبري: "يقول جل ثناؤه لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان، موبِّخهم على عبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم من الأصنام: {إن الذين تدعون} أيها المشركون، آلهةً {من دون الله}، وتعبدونها، شركًا منكم وكفرًا بالله، {عباد أمثالكم}، يقول: هم أملاك لربكم، كما أنتم له مماليك".

قال الزمخشري: "أى: تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون الله عباد أمثالكم وقوله {عباد أمثالكم} استهزاء بهم، أى: قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم، ثم أبطل أن يكونوا عبادا أمثالهم فقال: {ألهم أرجل يمشون بها}، وقيل: عباد أمثالكم مملوكون أمثالكم".

قال السعدي: "وهذا من نوع التحدي للمشركين العابدين للأوثان، يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ} أي: لا فرق بينكم وبينهم، فكلكم عبيد لله مملوكون، فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنها تستحق من العبادة شيئا".

وقرأ سعيد بن جبير: «إن الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم»، بتخفيف «إن»

=

=

ونصب «عبادا أمثالكم»، والمعنى: ما الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم، على إعمال «إن» النافية عمل «ما» الحجازية.

قوله تعالى: {فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأعراف: ١٩٤]، أي: "فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنها تستحق من العبادة شيئًا فادعوهم فليستجيبوا لكم، فإن استجابوا لكم وحصَّلوا مطلوبكم، وإلا تبين أنكم كاذبون مفترون على الله أعظم الفرية".

قال الطبري: أي: "فإن كنتم صادقين أنها تضر وتنفع، وأنها تستوجب منكم العبادة لنفعها إياكم، فليستجيبوا لدعائكم إذا دعوتموهم، فإن لم يستجيبوا لكم، لأنها لا تسمع دعاءكم، فأيقنوا بأنها لا تنفع ولا تضر؛ لأن الضر والنفع إنما يكونان ممن إذا سُئل سمع مسألة سائله وأعطى وأفضل، ومن إذا شكي إليه من شيء سمع، فضرّ من استحق العقوبة، ونفع من لا يستوجب الضر".

قال أبو الليث: "{إن كنتم صادقين} أنها آلهة".

قال الصابوني: "أمرٌ على جهة التعجيز والتبكيت أي أدعوهم في جلب نفع أو دفع ضرٍّ إن كنتم صادقين في دعوى أنها آلهة".

قال السعدي: "فإن استجابوا لكم وحصلوا مطلوبكم، وإلا تبين أنكم كاذبون في هذه الدعوى، مفترون على الله أعظم الفرية، وهذا لا يحتاج إلى التبيين فيه، فإنكم إذا نظرتم إليها وجدتم صورتها دالة على أنه ليس لديها من النفع شيء، فليس لها أرجل تمشي بها، ولا أيد تبطش بها، ولا أعين تبصر بها، ولا آذان تسمع بها، فهي عادمة لجميع الآلات والقوى الموجودة في الإنسان.

فإذا كانت لا تجيبكم إذا دعوتموها، وهي عباد أمثالكم، بل أنتم أكمل منها وأقوى على كثير من الأشياء، فلأي شيء عبدتموها".

عن سعيد بن جبير قال: "يجاء بالشمس والقمر يوم القيامة حتى يلقيان بين يدي

=

=

الله، ويجاء بمن كان يعبدهما، فيقال: {فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين}.

قوله تعالى: {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا} [الأعراف: ١٩٥]، أي: "ألهذه الآلهة والأصنام أرجل يسعَوْن بها معكم في حوائجكم؟.

ثم بيّن انحطاط درجة المعبودات عن درجة العابدين، وكأنه يقول لهم: بلغت عقولكم من السخافة حتى عبدتم من أنتم خير منه وأكمل!! ومعبود يكون عابده أكمل منه فهذا لا ينبغي لأحد أن يعبده.

والاستفهام للإنكار، والمعنى: أن هذه الأصنام التي تزعمون أنها تقربكم إلى الله زلفى هي أقل منكم مستوى لفقدها الحواس التي هي مناط الكسب إنها ليس لها أرجل تسعى بها إلى دفع ضر أو جلب نفع وليس لها أيد تبطش بها؛ أي تأخذ بها ما تريد أخذه، وليس لها أعين تبصر بها شئونكم وأحوالكم وليس لها آذان تسمع بها أقوالكم، وتعرف بواسطتها مطالبكم، فأنتم أيها الناس تفضلون هذه الأصنام بما منحكم الله تعالى من حواس السمع والبصر وغيرها فكيف يعبد الفاضل المفضول، وكيف ينقاد الأقوى للأضعف؟.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لهؤلاء الذين عبدوا الأصنام من دونه، معرِّفَهم جهل ما هم عليه مقيمون: ألأصنامكم هذه، أيها القوم {أرجل يمشون بها}، فيسعون معكم ولكم في حوائجكم، ويتصرفون بها في منافعكم".

وقال ابن الجوزي: وفي هذا تنبيه على تفضيل العابدين على المعبودين، وتوبيخ لهم حيث عبدوا مَنْ هم أفضل منه.

قال ابن عطية: الغرض من هذه الآية، ألهم حواس الحي وأوصافه؟ فإذا قالوا لا، حكموا بأنها جمادات فجاءت هذه التفصيلات لذلك المجمل الذي أريد التقرير عليه فإذا وقع الإقرار بتفصيلات القضية لزم الإقرار بعمومها وكان بيانها أقوى

=

=

ولم تبق بها استرابة، قال الزهراوي: المعنى أنتم أفضل منهم بهذه الجوارح النافعة فكيف تعبدونهم؟

قال ابن عباس: "يريد: مثل بني آدم ممن جعلت فيه الروح".

قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا} [الأعراف: ١٩٥]، أي: "أم لهم أيدٍ يدفعون بها عنكم وينصرونكم على من يريد بكم شرًا ومكروهًا؟.

قال الطبري: "فيدفعون عنكم وينصرونكم بها عند قصد من يقصدكم بشرّ ومكروه".

قال ابن عباس: " مثل ما يبطش بنو آدم".

قال الواحدي: "ومعنى (البَطش): التناول عند الصولة، والأخذ الشديد في كل شيء: بَطش، ومنه قوله عز وتعالى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ} [البروج: ١٢].

قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا} [الأعراف: ١٩٥]، أي: "أم لهم أعين ينظرون بها فيعرِّفونكم ما عاينوا وأبصروا مما يغيب عنكم فلا ترونه؟.

قال الطبري: "فيعرفونكم ما عاينوا وأبصروا مما تغيبون عنه فلا ترونه".

قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا} [الأعراف: ١٩٥]، أي: "أم لهم آذان يسمعون بها فيخبرونكم بما لم تسمعوه؟.

قال الطبري: "فيخبروكم بما سمعوا دونكم مما لم تسمعوه؟ يقول جل ثناؤه: فإن كانت آلهتكم التي تعبدونها ليس فيها شيء من هذه الآلات التي ذكرتُها، والمعظَّم من الأشياء إنما يعظَّم لما يرجى منه من المنافع التي

توصل إليه بعض هذه المعاني عندكم، فما وجه عبادتكم أصنامكم التي تعبدونها، وهي خالية من كل هذه الأشياء التي بها يوصل إلى اجتلاب النفع ودفع الضر؟.

قال الشنقيطي: أجرى الله العادة أنه إذا أرسل الأنبياء وعابوا الأصنام وقالوا: إنها لا تنفع ولا تضر، وأن عبادتها كفر بالله مُخلّد في النار، أن أصحاب الأصنام الذين

=

=

يعبدونها يقولون للرسل: ستضركم هذه الآلهة، ستخبلكم وتخرب عقولكم، ويأتيكم منها الضر؛ لأنكم عبتموها!! والرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) لا يخافون هذا؛ لأن الخوف من الأصنام كفر بالله وعدم توكل عليه، فقد خوفوا النبي ﷺ بأن أصنامهم تضره؛ لأنه عابها، كما سيأتي إيضاحه في الزمر في قوله (أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ) وقد خوفوا بها نبي الله إبراهيم كما قال الله عنه أنه قال (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ) وقد قالوا لنبي الله هود: إن آلهتهم اعترته بسوء فَخَبَّلَتْه وجننته، فزعموا أنه مجنون، وأن الذي أضر عقله آلهتهم، كما في قولهم لهود (إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ) هذا الذي قال لهم نبي الله هود هو الذي قال لهم نبينا محمد ﷺ.

(تنبيه): قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٥/ ٢٢٣): الوجه التاسع: أنه سبحانه قال في الأعراف: {ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها} وللناس في هذه الآية قولان:

أحدهما: أنه وصفهم بهذه النقائص ليبين أن العابد أكمل من المعبود.

الثاني: أنه ذكر ذلك لأن المعبود يجب أن يكون موصوفا بنقيض هذه الصفات فإن قيل بالقول الأول أمكن أن يقال بمثله في آية العجل. فلا يكون فيه تعرض لصفات الإله؛ وإن قيل بالثاني: وجب أن يتصف الرب تعالى بما نفاه عن الأصنام. وحينئذ: فإن كانت هذه الأمور أجساما كانت هذه الدلالة معارضة لما ذكر في تلك الآية وإن لم تكن أجساما بطل نفيهم لها عن الله تعالى؛ ووجب أن يوصف الله ﷻ بما جاء به الكتاب والسنة من الأيدي وغيرها ولا يجب أن تكون أجساما ولا يكون تجسيما وإذا لم يكن هذا تجسيما فإثبات العلو أولى أن لا يكون تجسيما

=

=

فدل على أنه لا يكون تجسيما فدل على أن الشرع مناقض لما ذكروه ا.هـ

قال ابن القيم في الصواعق المرسلة (٣/ ٩١٥): قال تعالى في آلهة المشركين المعطلين: {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا} [الأعراف: ١٩٥] فجعل سبحانه عدم البطش والمشي والسمع والبصر دليلًا على عدم إلهية من عُدمت فيه هذه الصِّفات، فالبطش والمشي من أنواع الأفعال، والسمع والبصر من أنواع الصفات. وقد وصف نفسه سبحانه بضد صفة أوثانهم، وبضد ما وصفه به المعطلة والجهمية، فوصف نفسه بالسمع والبصر، والفعل باليدين، والمجيء والإتيان، وذلك ضد صفات الأصنام التي جعل امتناع هذه الصِّفات عليها منافيًا لإلهيتها.

فتأمَّل آيات التوحيد والصفات في القرآن على كثرتها وتفنُّنها واتساعها وتنوعها، كيف تجدها كلها قد أثبتت الكمال للموصوف بها، وأنه المتفرد بذلك الكمال، فليس له فيه شَبَهٌ ولا مثالٌ. وأي دليلٍ في العقل أوضح من إثبات الكمال المطلق لخالق هذا العالم ومدبِّره، ومَلِك السماوات والأرض وقيُّومهما، فإذا لم يكن في العقل إثبات جميع أنواع الكمال له فأي قضيةٍ تصح في العقل بعد هذا؟!

ومن شكَّ في أن صفة السمع والبصر والكلام والحياة والإرادة والقدرة والغضب والرضا والفرح والرحمة والرَّأفة كمالٌ فهو ممن سُلب خاصة الإنسانية، وانسلخ من العقل. بل مَن شكَّ أن إثبات الوجه واليدين وما أثبته لنفسه معهما كمالٌ، فهو مَؤُوفٌ مصابٌ في عقله.

ومن شكَّ أن كونه يفعل باختياره ما يشاء، ويتكلم إذا شاء، وينزل إلى حيث شاء، ويجيء إلى حيث شاء= كمالٌ، فهو جاهلٌ بالكمال، والجامد عنده أكمل من الحي الذي تقوم به الأفعال الاختيارية. كما أن عند شقيقه الجهمي أن الفاقد لصفات الكمال أكمل من الموصوف بها، كما أن عند أستاذهما [ق ٥٦ أ]

=

=

وشيخهما الفيلسوف أن من لا يسمع ولا يُبصر ولا يعلم، ولا له حياة ولا قدرة ولا إرادة ولا فعل ولا كلام، ولا يُرسل رسولًا، ولا يُنزل كتابًا، ولا يتصرف في هذا العالم بتحويلٍ وتغييرٍ وإزالةٍ ونقلٍ وإماتةٍ وإحياءٍ؛ أكمل ممَّن يتصف بذلك.

فهؤلاء كلهم قد خالفوا صرائح المعقول، وسلبوا الكمال عمَّن هو أحق بالكمال من كل ما سواه. ولم يكفهم ذلك حتى جعلوا الكمال نقصًا، وعدمه كمالًا، فعكسوا الأمر، وقلبوا الفِطَر، وأفسدوا العقول.

فتأمَّل شُبههم الباطلة، وخيالاتهم الفاسدة، التي عارضوا بها الوحي هل تُقاوِم هذا الدليل الدَّال على إثبات الصِّفات والأفعال للربِّ سبحانه؟ ثم اختر لنفسك بعدُ ما شئت.

وهذا قطرةٌ من بحرٍ نبَّهنا به تنبيهًا يعلم به اللبيب ما وراءه، وإلا فلو أعطينا هذا الموضع حقَّه - وهيهات أن يصل إلى ذلك علمنا أو قدرتنا - لكتبنا فيه عدة أسفارٍ. وكذا كل وجهٍ من هذه الوجوه، فإنه لو بُسط وفُصِّل لاحتمل سفرًا أو أكثر، والله المستعان، وبه التوفيق ا.هـ

قوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ} [الأعراف: ١٩٥]، أي: "قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان: ادعوا آلهتكم الذين جعلتموهم لله شركاء في العبادة".

قال الزمخشري: أي: "واستعينوا بهم في عداوتي".

قال الطبري: "قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان: ادعوا شركاءكم الذين جعلتموهم لله شركاء في العبادة".

قال ابن كثير: "أي: استنصروا بها علي، فلا تؤخروني طرفة عين، واجهدوا جهدكم!.

قال السعدي: "أي: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم على إيقاع السوء والمكروه بي.

=

=

قوله تعالى: {ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ} [الأعراف: ١٩٥]، أي: "ثم اجتمعوا على إيقاع السوء والمكروه بي، فلا تؤخروني وعجِّلوا بذلك، فإني لا أبالي بآلهتكم؛ لاعتمادي على حفظ الله وحده".

قال الزمخشري: "{ثم كيدون} جميعا أنتم وشركاؤكم {فلا تنظرون} فإنى لا أبالى بكم، ولا يقول هذا إلا واثق بعصمة الله، وكانوا قد خوفوه آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك، كما قال قوم هود له: إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال لهم: أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون".

قال الطبري: أي: {ثُمَّ كِيدُونِ} " أنتم وهي {فَلَا تُنْظِرُونِ}، يقول: فلا تؤخرون بالكيد والمكر، ولكن عجِّلوا بذلك. يُعْلِمه جل ثناؤه بذلك أنهم لن يضروه، وأنه قد عصمه منهم، ويُعَرِّف الكفرة به عجز أوثانهم عن نصرة من بغى أولياءهم بسوء".

قال الصابوني: أي: "ابذلوا جهدكم أنتم وهم في الكيد لي وإلحاق الأذى والمضرة بي ولا تمهلون طرفة عين، فإني لا أبالي بكم لاعتمادي على الله".

قال أبو الليث: "يعني: اعملوا بي ما شئتم فلا تنظرون، يعني: لا تمهلون ولا تؤجلون لأنهم خوفوه بآلهتهم".

قوله تعالى: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ} [الأعراف: ١٩٦]، أي: "إن وليِّيَ الله، الذي يتولى حفظي ونصري، هو الذي نزَّل عليَّ القرآن بالحق".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، للمشركين من عبدة الأوثان {إن وليي}، نصيري ومعيني وظهيري عليكم {الله الذي نزل الكتاب} عليّ بالحق".

قال الزمخشري: "أى: ناصري عليكم الله {الذي نزل الكتاب}، الذي أوحى إلى كتابه وأعزنى برسالته".

=

قال السعدي: أي: "الذي يتولاني فيجلب لي المنافع ويدفع عني المضار، {الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ} الذي فيه الهدى والشفاء والنور، وهو من توليته وتربيته لعباده الخاصة الدينية.

قال ابن كثير: "أي: الله حسبي وكافيّ، وهو نصيري وعليه متكلي، وإليه ألجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة، وهو ولي كل صالح بعدي. وهذا كما قال هود، عليه السلام، لما قال له قومه: {إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُون * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود: ٥٤ - ٥٦] وكقول الخليل -عليه السلام-: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ *وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء: ٧٥ - ٨٠] الآيات، وكقوله لأبيه وقومه {إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

وقال الأخفش: "وقرئ: «إن ولي الله الذي نزل الكتاب»، يعني: جبريل- صلى الله عليه وسلم-". وهي قراءة عاصم الجحدري.

قال القرطبي:"والقراءة الأولى أبين، لقوله: {وهو يتولى الصالحين}.

قوله تعالى: {وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} [الأعراف: ١٩٦]، أي: "وهو يتولى الصالحين مِن عباده، وينصرهم على أعدائهم ولا يخذلهم".

قال القرطبي: "أي: يحفظهم".

قال الطبري: أي: "وهو الذي يتولى من صلح عمله بطاعته من خلقه".

قال السعدي: "{الصَّالِحِينَ} الذين صلحت نياتهم وأعمالهم وأقوالهم، كما قال تعالى: {اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} فالمؤمنون

=

الصالحون - لما تولوا ربهم بالإيمان والتقوى، ولم يتولوا غيره ممن لا ينفع ولا يضر - تولاهم الله ولطف بهم وأعانهم على ما فيه الخير والمصلحة لهم، في دينهم ودنياهم، ودفع عنهم بإيمانهم كل مكروه، كما قال تعالى: {إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا}.

قال الزمخشري: "ومن عادته أن ينصر الصالحين من عباده وأنبيائه ولا يخذلهم".

عمرو بن العاص رضي الله عنه: قال: سمعتُ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم- يقول جهارًا غير سِرّ: «إِن آل أبي ليسوا بأوليائي، إِنما وَلِيِّيَ اللهُ وصالحُ المؤمنين». وفي رواية: «إِن آل أبي فلان».

عن عمارة بن أبي حفصة، قال: "دخل مسلمة على عمر بن عبد العزيز يعوده في مرضه الذي مات فيه فقال له من توصي بأهلك؟ فقال: إذا نسيت الله فذكرني، فأعاد عليه ثلاثا، فقال: {إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين}.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ} [الأعراف: ١٩٧]، أي: "والذين تدعون -أنتم أيها المشركون- مِن غير الله من الآلهة لا يستطيعون نصركم".

قال الطبري: "وهذا أيضًا أمر من الله جل ثناؤه لنبيه أن يقوله للمشركين. يقول له تعالى ذكره: قل لهم، إن الله نصيري وظهيري، والذين تدعون أنتم أيها المشركون من دون الله من الآلهة، لا يستطيعون نصركم".

قال مقاتل: "يقول: لا تقدر الآلهة منع السوء إذا نزل بمن يعبدها من كفار مكة".

قال القرطبي: "قوله تعالى: {والذين تدعون من دونه} كرره ليبين أن ما يعبدونه لا ينفع ولا يضر".

عن قتادة، قوله: " {والذين تدعون من دونه}، قال: هذا الوثن".

قوله تعالى: {وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} [الأعراف: ١٩٧]، أي: "ولا يقدرون على

=

=

نصرة أنفسهم".

قال أبو الليث: "يعني: لا يستطيعون أن يمتنعوا مما نزل بهم من العذاب".

قال الطبري: أي: "ولا هم مع عجزهم عن نصرتكم يقدرون على نصرة أنفسهم، فأي هذين أولى بالعبادة وأحق بالألوهة؟ أمن ينصر وليه ويمنع نفسه ممن أراده، أم من لا يستطيع نصر وليه ويعجز عن منع نفسه ممن أراده وبَغاه بمكروه؟.

قال مقاتل: "يقول: ولا تمنع الآلهة من أراد بها سوءا فكيف تعبدون من هذه منزلته وتتركون عبادة ربكم".

قال الماتريدي: "يذكر سفههم بعبادتهم من عجز عن دفع الضرر عن نفسه، فضلا أن يدفع ذلك عنهم أو يجروا إلى أنفسهم منفعة، وأخبر عن جهلهم أنهم يعبدون من لا يملك دفع ضر ولا جر نفع".

قال السعدي: "وهذا أيضا في بيان عدم استحقاق هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله لشيء من العبادة، لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار في نصر أنفسهم، ولا في نصر عابديها".

قوله تعالى: {وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا} [الأعراف: ١٩٨]، أي: "وإن تدعوا -أيها المشركون- آلهتكم إلى الاستقامة والسداد لا يسمعوا دعاءكم".

قال الطبري: "يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: قل للمشركين: وإن تدعوا، أيها المشركون، آلهتكم إلى الهدى -وهو الاستقامة إلى السداد- لا يسمعوا دعاءكم".

قوله تعالى: {وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [الأعراف: ١٩٨]، أي: "وترى -أيها الرسول- آلهة هؤلاء المشركين مِن عبدة الأوثان يقابلونك كالناظر إليك وهم لا يبصرون؛ لأنهم لا أبصار لهم ولا بصائر".

قال الطبري: "وهذا خطاب من الله نبيَّه ﷺ. يقول: وترى، يا محمد، آلهتهم

=

=

ينظرون إليك وهم لا يبصرون، ولذلك وحّد. ولو كان أمر النبي ﷺ بخطاب المشركين، لقال: «وترونهم ينظرون إليكم».

قال ابن كثير: "إنما قال: {يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ} أي: يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة، وهي جماد؛ ولهذا عاملهم معاملة من يعقل؛ لأنها على صور مصورة كالإنسان، فقال: {وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ} فعبر عنها بضمير من يعقل".

قال الزمخشري: " {ينظرون إليك} يشبهون الناظرين إليك، لأنهم صوروا أصنامهم بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه وهم لا يدركون المرئى.

وروي عن السدي: " {وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك هم لا يبصرون}، قال: هؤلاء المشركين".

قال الطبري: "وقد يحتمل قول السدي هذا أن يكون أراد بقوله: "هؤلاء المشركون"، قول الله: {وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا} وقد كان مجاهد يقول: «{وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون}، ما تدعوهم إلى الهدى». وكأنّ مجاهدًا وجّه معنى الكلام إلى أن معناه: وترى المشركين ينظرون إليك وهم لا يبصرون، فهو وجهٌ، ولكن الكلام في سياق الخبر عن الآلهة، فهو بوصفها أشبه".

وقد روي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: " {وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون}، ما تدعوهم إلى الهدى. وكأنّ مجاهدًا وجّه معنى الكلام إلى أن معناه: وترى المشركين ينظرون إليك وهم لا يبصرون، فهو وجهٌ، ولكن الكلام في سياق الخبر عن الآلهة، فهو بوصفها أشبه".

فإن قال قائل: "فما معنى قوله: {وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون}؟ وهل يجوز أن يكون شيء ينظر إلى شيء ولا يراه؟

قيل: إن العرب تقول للشيء إذا قابل شيئًا أو حاذاه: هو ينظر إلى كذا، ويقال: منزل فلان ينظر إلى منزلي، إذا قابله. وحكي عنها: إذا أتيتَ موضع كذا وكذا،

=

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩).

{خُذْ الْعَفْو} الْيُسْر مِنْ أَخْلَاق النَّاس وَلَا تَبْحَث عَنْهَا {وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ}

=

فنظر إليك الجبل، فخذ يمينًا أو شمالا. وحدثت عن أبي عبيد قال: قال الكسائي: الحائط ينظر إليك، إذا كان قريبًا منك حيث تراه، ومنه قول الشاعر:

إِذَا نَظَرْتَ بِلادَ بَنِي تَمِيمٍ ... بِعَيْنٍ أَوْ بِلادَ بَنِي صُبَاحِ

يريد: تقابل نبتُها وعُشْبها وتحاذَى".

قال السعدي: وهذه الأصنام" ليس لها قوة العقل والاستجابة. فلو دعوتها إلى الهدى لم تهتد، وهي صور لا حياة فيها، فتراهم ينظرون إليك، وهم لا يبصرون حقيقة، لأنهم صوروها على صور الحيوانات من الآدميين أو غيرهم، وجعلوا لها أبصارا وأعضاء، فإذا رأيتها قلت: هذه حية، فإذا تأملتها عرفت أنها جمادات لا حراك بها، ولا حياة، فبأي رأي اتخذها المشركون آلهة مع الله؟ ولأي مصلحة أو نفع عكفوا عندها وتقربوا لها بأنواع العبادات؟

فإذا عرف هذا، عرف أن المشركين وآلهتهم التي عبدوها، لو اجتمعوا، وأرادوا أن يكيدوا من تولاه فاطر الأرض والسماوات، متولي أحوال عباده الصالحين، لم يقدروا على كيده بمثقال ذرة من الشر، لكمال عجزهم وعجزها، وكمال قوة الله واقتداره، وقوة من احتمى بجلاله وتوكل عليه.

وقيل: إن معنى قوله {وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ} أن الضمير يعود إلى المشركين المكذبين لرسول الله ﷺ، فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله نظر اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك وما يتوسمه المتوسمون فيك من الجمال والكمال والصدق".

بِالْمَعْرُوفِ {وَأَعْرِض عَنْ الْجَاهِلِينَ} فَلَا تَقَابُلهمْ بِسَفَهِهِمْ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن الزبير؛ قال: ما أنزلها الله إلا في أخلاق الناس.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (٨/ ٣٠٥ رقم ٤٦٤٣، ٤٦٤٤).

وعن السدي؛ قال: نزلت هذه الآية: {خُذِ الْعَفْوَ}؛ فكان الرجل يمسك من ماله ما يكفيه ويتصدق بالفضل، فنسخها الله بالزكاة: {وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ}؛ قال: بالمعروف، {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}؛ قال: نزلت هذه الآية قبل أن تفرض الصلاة والزكاة والقتال، أمره الله بالكف ثم نسخها القتال؛ فأنزل: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا} [الحج: ٣٩] الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦٣١) ونسبه لأبي الشيخ. وهو ضعيف.

* قوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ} [الأعراف: ١٩٩]، أي: "اقْبَلْ -أيها النبي أنت وأمتك- الفضل من أخلاق الناس وأعمالهم، ولا تطلب منهم ما يشق عليهم حتى لا ينفروا".

عن عبد الله بن الزبير؛ قال: "ما أنزلها الله إلا في أخلاق الناس".

قال القرطبي: "لما أمره بمحاجة المشركين دله على مكارم الأخلاق، فإنها سبب جر المشركين إلى الإيمان. أي اقبل من الناس ما عفا لك من أخلاقهم وتيسر، تقول: أخذت حقي عفوا صفوا، أي سهلا".

قال ابن القيم: " وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)".

وقال القرطبي: وهذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات.

وقال السعدي: وهذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في =

=

معاملتهم.

قال الزمخشري: " العفو ضد الجهد: أى خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم، وتسهل من غير كلفة، ولا تداقهم، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا، كقوله ﷺ «يسروا ولا تعسروا» ، قال:

خُذِي العَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي ولاَ تَنْطِقِي فِي سَوْرَتي حِينَ أغضبُ

وقيل: خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم، وذلك قبل نزول آية الزكاة، فلما نزلت أمر أن يأخذهم بها طوعا أو كرها. والعرف: المعروف والجميل من الأفعال".

قال الشنقيطي: "«العفو»: الشيء الزائد الذي لا يُجهد الزائد على قدر الخَلَّة الضرورية على أصح التفسيرين. وهو معنى معروف في كلام العرب، تقول لك: «خذ العفو مني» خذ ما تسهّل لك مني، وما تعصَّى عليك لا تكلِّمني فيه... ومنه قول حسان -رضي الله عنه- يمدح المهاجرين في شعره المشهور الذي فاخر به وفد تميم:

خُذْ مِنْهُمُ مَا أَتَوْا عَفْوًا إذا غَضِبُوا ولا يكُنْ همُّكَ الأَمْرَ الَّذِي مَنَعُوا

وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الآخر:

إِذَا مَا بُلْغَةٌ جَاءَتْكَ عَفْوًا فَخُذْهَا فالغِنَى مَرْعًى وَشرْبُ

قال السعدي: " (خُذِ الْعَفْوَ) أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم".

فعلى هذا {خُذِ الْعَفْوَ} ما تسهَّل لك من أخلاق الناس ووجدت منهم طيبًا بلا

=

=

كلفة فخذه".

وفي قوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ} [الأعراف: ١٩٩]، وجوه:

أحدها: معناه: {خذ العفو} من أخلاق الناس، وهو الفضل وما لا يجهدهم، قاله ابن عمر، وعروة، وعبد الله بن الزبير، ومجاهد.

والثاني: معناه: خذ العفو من أموال الناس، وهو الفضل. قالوا: وأمر بذلك قبل نزول الزكاة، فلما نزلت الزكاة نُسِخ. وهذا قول ابن عباس، والضحاك، والسدي.

قال القرطبي: "وقيل: المراد بقوله: {خذ العفو}، أي: الزكاة، لأنها يسير من كثير. وفيه بعد، لأنه من عفا إذا درس. وقد يقال: خذ العفو منه، أي لا تنقص عليه وسامحه. وسبب النزول يرده، والله أعلم".

والثالث: أن ذلك أمرٌ من الله نبيَّه ﷺ بالعفو عن المشركين، وترك الغلظة عليهم قبل أن يفرض قتالهم عليه. وهذا قول ابن زيد.

قال ابن زيد: "عفا عن المشركين عشر سنين بمكة".

وروي: "لما أنزل الله على نبيه ﷺ {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين}، قال: النبي ﷺ: ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك وتصل من قطعك".

والرابع: معناه: ما لم يسرفوا. قاله عطاء.

قال الطبري: "وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معناه: خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم وقال: أُمر بذلك نبيّ الله ﷺ في المشركين. وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن الله جل ثناؤه أتبع ذلك تعليمَه نبيَّه ﷺ محاجَّته المشركين في الكلام، وذلك قوله: {قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون}، وعقَّبه بقوله: {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا}، فما بين ذلك بأن يكون من تأديبه نبيَّه ﷺ في

=

=

عشرتهم به، أشبهُ وأولى من الاعتراض بأمره بأخذ الصدقة من المسلمين".

قوله تعالى: {وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} [الأعراف: ١٩٩]، أي: "وأمر بكل قول حسن وفِعْلٍ جميل".

وفي قوله تعالى: {وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} [الأعراف: ١٩٩]، وجهان:

أحدهما: معناه ما روي عن سفيان، عن أمَيّ قال: "لما أنزل الله على نبيه ﷺ: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين} قال النبي ﷺ: ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله يأمرك أن تعفوَ عمن ظلمك، وتعطيَ من حرمك، وتصل من قطعك" وهو حديث ضعيف.

والثاني: معناه: بالمعروف. قاله ابن عباس، وعروة، وقتادة، والسدي، وسفيان الثوري.

قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر نبيه ﷺ أن يأمر الناس بالعرف وهو المعروف في كلام العرب، مصدر في معنى: "المعروف". قال: "أوليته عُرْفًا، وعارفًا، وعارفةً" كل ذلك بمعنى: «المعروف» فإذا كان معنى العرف ذلك، فمن «المعروف» صلة رحم من قطع، وإعطاء من حرم، والعفو عمن ظلم. وكل ما أمر الله به من الأعمال أو ندب إليه، فهو من العرف. ولم يخصص الله من ذلك معنى دون معنى؛ فالحق فيه أن يقال: قد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف كله، لا ببعض معانيه دون بعض".

قال البخاري: "العرف المعروف".

قال السعدي: "أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو برِّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية".

=

=

قال القرطبي: "«العرف» و «المعروف» و «العارفة»: كل خصلة حسنة ترتضيها العقول، وتطمئن إليها النفوس. قال الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لا يَعْدَمْ جَوازِيَهُ   لا يَذهبُ العُرْفُ بيْنَ اللهِ والنَّاسِ

وقال عطاء: {وأمر بالعرف}، يعني: بلا إله إلا الله".

قوله تعالى: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩]، أي: "وأعرض عن منازعة السفهاء ومساواة الجهلة الأغبياء".

قال الطبري: "أمر من الله تعالى نبيّه ﷺ أن يعرض عمن جهل. وذلك وإن كان أمرًا من الله نبيَّه، فإنه تأديب منه عز ذكره لخلقه باحتمال من ظلمهم أو اعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الواجبَ عليه من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حَرْبٌ".

قال الزمخشري: أي: "ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم، ولا تمارهم، واحلم عنهم، وأغض على ما يسوؤك منهم".

قال القرطبي: "أي: إذا أقمت عليهم الحجة وأمرتهم بالمعروف فجهلوا عليك فأعرض عنهم، صيانة له عليهم ورفعا لقدره عن مجاوبتهم. وهذا وإن كان خطابا لنبيه عليه السلام فهو تأديب لجميع خلقه".

قال الماوردي: "فإن قيل فكيف أمر بالإعراض مع وجوب الإنكار عليهم؟

قيل: إنما أراد الإعراض عن السفهاء استهانة بهم. وهذا وإن كان خطابًا لنبيِّه عليه السلام فهو تأديب لجميع خلقه".

قال قتادة: "قوله: {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين}، أخلاقٌ أمر الله بها نبيه ﷺ، ودلَّه عليها".

وقال قتادة أيضا: "الإعراض عن الناس: أن يكلمك أحد وأنت معرض عنه وتتكبر".

=

قال ابن زيد: "أمره فأعرض عنهم عشر سنين، ثم أمره بالجهاد".
عن عبد الله بن نافع أن سالم بن عبد الله مر على عير لأهل الشام وفيها جرس فقال: إن هذا ينهى عنه فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنما يكره الجلجل الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به، فسكت سالم وقال: {وأعرض عن الجاهلين}.
عن ابن عباس: "قدم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يدينهم عمر بن الخطاب فقال عيينة لابن أخيه: هل لك وجه عند هذا الأمير فتستأذن لي عليه؟ فقال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر فلما دخل عليه قال: هيا ابن الخطاب والله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله قال لنبيه: خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وإن هذا من الجاهلين، قال: فو الله ما جوزها حين تلاها وكان وقافا عن كتاب الله".
قال ابن كثير: "وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى، فسبكه في بيتين فيهما جناس فقال:

خُذ العفو وأمر بعُرفٍ كَمَا ... أُمِرتَ وأعْرض عن الجَاهلينْ
وَلِنْ في الكَلام لكُلِّ الأنام ... فَمُسْتَحْسَن من ذَوِي الجاه لين

وقال بعض العلماء: الناس رجلان: فرجل محسن، فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه. وإما مسيء، فمره بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله، واستعصى عليك، واستمر في جهله، فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ} [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨]، وقال تعالى: {وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

=
فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا} أي هذه الوصية {إلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [فصلت: ٣٤ - ٣٦] وقال في هذه السورة الكريمة أيضا: {وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} فهذه الآيات الثلاث في "الأعراف" و "المؤمنون" و "حم السجدة"، لا رابع لهن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف والتي هي أحسن، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى؛ ولهذا قال: {فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه عنك الإحسان، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك".

وفي حكم قوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} [الأعراف: ١٩٩]، قولان:

أحدهما: أنها محكمة، وأن الذي أمر بأخذ العفو هو أخلاق الناس قاله ابن عمر ، وعروة ، وعبد الله بن الزبير ، ومجاهد ،وهو اختيار النحاس ، ومكي بن أبي طالب.

والثاني: أنها منسوخة. وفي الذي أمر بالعفو قولان:

القول الأول: أنه الصدقة كانت تؤخذ قبل فرض الزكاة، ثم نسخت بالزكاة. وهذا قول ابن عباس ، والضحاك ، والسدي.

والقول الثاني: أن المراد به مساهلة المشركين والعفو عنهم، ثم نسخ بآية السيف، قاله ابن زيد.

وقوله: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩]، فيهم قولان:

أحدهما: أنهم المشركون أمر بالإعراض عنهم، ثم نسخ ذلك بآية السيف.

والثاني: أنه عام فيمن جهل، أمر بصيانة النفس عن مقابلتهم على سفههم، وأن
=

=

واجب الإنكار عليهم. وعلى هذا تكون الآية محكمة. وهو الصحيح.

قال ابن الجوزي: "هذه الآية عند الأكثرين كلها محكمة، وعند بعضهم أن وسطها محكم، وطرفيها منسوخان على ما بينا، ونص مكي بن أبي طالب على إحكامها بقوله: «أن معناها: أعرض عن مجالستهم، وهذا لا ينسخ إلا بالأمر بالمجالسة، وهذا لا يجوز».

قال السعدي: "هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم.

{وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو بِرّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية، ولما كان لا بد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله، فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فَصِلْهُ، ومن ظلمك فاعدل فيه".

قال القرطبي: تضمنت "هذه الآية من ثلاث كلمات، تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات. فقوله: {خذ العفو} دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين ودخل في قوله:

=

=

{وأمر بالعرف} صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار. وفي قوله {وأعرض عن الجاهلين} الحض على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة.

قلت: هذه الخصال تحتاج إلى بسط، وقد جمعها رسول الله ﷺ لجابر بن سليم. قال جابر بن سليم أبو جري: ركبت قعودي ثم أتيت إلى مكة فطلبت رسول الله ﷺ، فأنخت قعودي بباب المسجد، فدلوني على رسول الله ﷺ، فإذا هو جالس عليه برد من صوف فيه طرائق حمر، فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فقال: "وعليك السلام". فقلت: إنا معشر أهل البادية، قوم فينا الجفاء، فعلمني كلمات ينفعني الله بها. قال: "ادن" ثلاثا، فدنوت فقال: "أعد علي" فأعدت عليه فقال: «اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئا وأن تلقى أخاك بوجه منبسط وأن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي وإن امرؤ سبك بما لا يعلم منك فلا تسبه بما تعلم فيه فإن الله جاعل لك أجرا وعليه وزرا ولا تسبن شيئا مما خولك الله تعالى». قال أبو جري: فوالذي نفسي بيده، ما سببت بعده شاة ولا بعيرا..

وروى أبو سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق».

وروى سفيان بن عيينة عن الشعبي أنه قال: «إن جبريل نزل على النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: "ما هذا يا جبريل"؟ فقال: "لا أدري حتى أسأل العالم" في رواية" لا أدري حتى أسأل ربي" فذهب فمكث ساعة ثم رجع فقال: "إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك». فنظمه بعض الشعراء فقال:

مكارم الأخلاق في ثلاثة ... وممن كملت فيه فذلك الفتى

=

=

إعطاء من تحرمه ووصل من تقطعه والعفو عمن اعتدى

وقال جعفر الصادق: "أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق في هذه الآية، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية".

وقال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وقال الشاعر:

كل الأمور تزول عنك وتنقضي إلا الثناء فإنه لك باقي

ولو أنني خيرت كل فضيلة ما اخترت غير مكارم الأخلاق

وقال سهل بن عبد الله: «كلم الله موسى بطور سيناء. قيل له: بأي شي أوصاك؟ قال: بتسعة أشياء، الخشية في السر والعلانية، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وأمرني أن أصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأعفو عمن ظلمني، وأن يكون نطقي ذكرا، وصمتي فكرا، ونظري عبرة».

وقد روي عن نبينا محمد أنه قال، «أوصاني خليلي أبو القاسم ﷺ بسبع خصال، فلن أدعهن حتى ألقاه: أمرني بحب المساكين ومجالستهم، وأن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي، ولا أسأل الناس شيئا، وأن أعفو عمن ظلمني، وأصل من قطعني، وأن آخذ الحق وإن كان أمر من الصبر، ولا تأخذني في الله لومة لائم، وأن أكثر من قول: لا حوله ولا قوة إلا بالله» .

(تتمة): العرف لغة: كل ماتعرفه النفس من الخير وتطمئن إليه، وهو ضد النّكُرِ. واصطلاحًا عند الحنفية: ما استقر في النفوس من جهة العقول وتلقته الطباع السليمة بالقبول، ولا خلاف بين الفقهاء في أن العرف إذا كان مخالفًا لأدلة الشرع مناقضًا لحكمة وأهدافه ، لا يعتد به بل يجب إلغاؤه ، لأنه في بقائه من المفاسد ما لا يعلمها إلا الله ، ولذلك فإن الشرع الحكيم قد ألغى جميع الأعراف الفاسدة الموجودة عند العرب قبل الإسلام مثل الطواف بالبيت عراة ، و وأد البنات ،

=

=

وحرمان النساء من الميراث ، ونكاح الرهط ، ونحو ذلك من الأعراف التي كانت قبل مجيء الإسلام.

والعرف أربعة أنواع.

أولًا: عرف قولي: إذا تعارف الناس على إطلاق لفظ ما للدلالة على معنى معين كما لو تعارفوا على إطلاق اللحم على الحيوان وعدم إطلاقه على السمك والطير.

ثانيًا: عرفٌ عملي: كما لو تعارف الناس على تقسيم المهر إلى معجل ومؤجل.

ثالثًا: عرف عام: هو ما كان متفقًا على التعامل فيه في سائر البلاد.

رابعًا: عرف خاص: هو عرف جماعة بعينهم كعرف التجار وعرف الحاكَةِ وعرف الحرفيين.

واتفق الفقهاءُ على أن العرفَ حجةٌ شرعية إذا احتفَّ بغيره من الأدلة ولكن اختلفوا هل يكون وحده دليلا شرعيًا إذا لم يوجد سواه فقال المالكية والحنفية والحنابلة: يحتج بالعرف وحده في الأحكام، بمعنى أن كل ما ورد به الشرع مطلقًا ولا ضابط له فيه، ولا في اللغة يُرْجع فيه إلى العرف كالحرز في السرقة، وإحياء الموات. والعرف المقبول بالاتفاق هو العرف الصحيح العام المطرد من عهد الصحابة، ومن بعدهم الذي لم يخالف نصًا شرعيًا ولا قاعدة أساسية.

الشرط الثاني: أن لا يكون مخالفًا لشرط صريح ، فإذا خالف العرف شرطًا صريحًا لا يعمل به، مثال ذلك: إذا كان عرف أهل البلد تعجيل نصف الصداق وتأجيل النصف الآخر ، واشترطت الزوجة على الزوج تعجيله كله وقبل هو هذا الشرط وجب عليه تعجيله كله ، ولا يلتفت إلى العرف في هذه الحالة.

الشرط الثالث: أن يكون العرف موجودا عند إنشاء التصرف، وبناءًا على ذلك فلا يعتد بأي عرف طرأ بعد النزاع، مثال ذلك: لو حلف شخص أن لا يأكل لحمًا

=

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠).

{وَإِمَّا} فِيهِ إدْغَام نُون إنْ الشَّرْطِيَّة فِي مَا الْمَزِيدَة {يَنْزِغَنك مِنْ الشَّيْطَان نَزْغ} أَيْ إنْ يَصْرِفك عَمَّا أَمَرْت بِهِ صَارِف {فَاسْتَعِذْ بِاَللهِ} جَوَاب الشَّرْط وَجَوَاب الْأَمْر مَحْذُوف أَيْ يَدْفَعهُ عَنْك {إنَّهُ سَمِيع} لِلْقَوْلِ {عَلِيم} بِالْفِعْلِ[1].

=

وكان عرف أهل البلد أن اللحم كل لحم سوى السمك ، فإذا ما تغير هذا العرف في هذه البلدة بعد ذلك واصبح يطلق على السمك لحمًا ، فإن هذا العرف المتغير لا يؤثر على هذا الشخص لأن اليمين سبق هذا العرف ، وإنما يؤثر فيما يحدث بعده.

الشرط الرابع: أن يكون العرف ملزما؛ أي: يتحتم العمل بمقتضاه في نظر الناس.

الشرط الخامس: أن يكون العرف غير مخالف لدليل معتمد فإذا كان هناك نص يمنع من فعل الشيء المتعارف عليه فإنه لا يعمل بهذا العرف.

الشرط السادس: أن يكون العرف غير معارض بعرف آخر في نفس البلد.

(ملاحظة) إن السيمة المميزة للأحكام المستندة إلى العرف إنها غير ثابتة بل إنها تتغير بتغير العرف ، وعلى هذا قد يتغير رأى الفقيه في القضية الواحدة بتغير العرف ويعبر الفقهاء عن هذا الاختلاف بأنه (اختلاف عصر وزمان لا اختلاف حجة وبرهان).

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الرحمن بن زيد؛ قال: في قوله: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)}؛ قال رسول الله ﷺ: "فكيف بالغضب يا رب؟ "، قال: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٠٦): ثني يونس: نا ابن وهب؛ قال ابن زيد به. وهذا معضل مع ضعف عبد الرحمن، بل إنه اتهم بالكذب.

=

=

* قوله تعالى: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ} [الأعراف: ٢٠٠].

أي: إذا نزغك هذا النزغ من الشيطان بأن وسوس لك حتى زين لك أن تعصيه، أو أغضبك حتى خرجت عن حدود الطاعة، وكان هذا النزغ سيؤديك إلى أن تفعل ما لا ينبغي.

قال السعدي: "أي: أي وقت، وفي أي حال {يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ} أي: تحس منه بوسوسة، وتثبيط عن الخير، أو حث على الشر، وإيعاز إليه".

قال الطبري: أي: "وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدُّك عن الإعراض عن الجاهلين، ويحملك على مجازاتهم".

قال الزمخشري: أي: "وإما ينخسنك منه نخس، بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به... النزغ والنسغ: الغرز والنخس، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي. وجعل النزغ نازغا، كما قيل جد جده".

قال الزجاج: "«النزغ» أدنى حركة تكون، تقوك: قد نزغته إذا حركته، المعنى إن نالك من الشيطان أدنى نزغ، أي: وسوسة".

قال الرازي: "اعلم أن نزغ الشيطان، عبارة عن وساوسه ونخسه في القلب بما يسول للإنسان من المعاصي".

قال القرطبي: "ونزغ الشيطان: وساوسه. وفيه لغتان: نزغ ونغز، يقال: إياك والنزاغ والنغاز، وهم المورشون ،... قال سعيد بن المسيب: شهدت عثمان وعليا وكان بينهما نزغ من الشيطان فما أبقى واحد منهما لصاحبه شيئا، ثم لم يبرحا حتى استغفر كل واحد منهما لصاحبه. ومعنى {ينزغنك} يصيبنك ويعرض لك عند الغضب وسوسة بما لا يحل".

وفي قوله تعالى: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ} [الأعراف: ٢٠٠]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أن النزغ الانزعاج. ذكره الماوردي.

=

=

والثاني: الغضب. قاله الطبري ، وهو معنى قول ابن زيد.

قال ابن زيد، في قوله: " {خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين} ، قال رسول الله ﷺ: فكيف بالغضب يا رب؟ قال: {وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم} .

قال الزمخشري: "ويجوز أن يراد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب، كقول أبى بكر رضى الله عنه: «إن لي شيطانا يعتريني» .

والثالث: الفتنة، قاله مقاتل.

قال مقاتل: "يعني: وإما يفتننك من الشيطان فتنة في أمر أبي جهل".

وأصل "النزغ": الفساد، يقال: نزغ الشيطان بين القوم، إذا أفسد بينهم وحمّل بعضهم على بعض. ويقال منه: نزغ ينزغ، ونغز ينغز ، قال الله تعالى: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزغُ بَيْنَهُمْ} [الإسراء: ٥٣] و"العياذ": الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر، وأما "الملاذ" ففي طلب الخير، كما قال أبو الطيب الحسن بن هانئ المتنبي:

يَا مَنْ ألوذُ به فيمَا أؤمِّلُه وَمَنْ أعوذُ به مما أحَاذرُه

لا يَجْبر الناس عَظمًا أنت كاسرُه ولا يَهِيضُون عَظمًا أنت جَابِره.

قوله تعالى: {فَاسْتَعِذْ بِاللهِ} [الأعراف: ٢٠٠]، أي: "فالجأ إلى الله مستعيذًا به".

قال الطبري: أي: "فاستجر بالله من نزغه".

قال الزمخشري: أي: "فاستعذ بالله ولا تطعه".

قال السعدي: "أي: التجئ واعتصم بالله، واحتم بحماه".

عن قتادة، قوله: " {وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم} ، قال: علم الله أن هذا العدوَّ مَنِيع ومَرِيد".

عن أبي سليمان الداراني، يقول: "لولا أن الله تبارك وتعالى أمرنا بالتعوذ من

=

=

الشيطان ما تعوذت منه أبدا لأنه لا يملك ضرا ولا نفعا، وكان أبو سليمان لا يذكر قبلها من الشيطان اتباعا لقول الله ﷻ".

قوله تعالى: {إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأعراف: ٢٠٠]، أي: "إنه سميع لكل قول، عليم بكل فعل".

قال الطبري: "قول: إن الله الذي تستعيذ به من نزع الشيطان {سميع} لجهل الجاهل عليك، ولاستعاذتك به من نزغه، ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، {عليم} بما يذهب عنك نزغ الشيطان، وغير ذلك من أمور خلقه".

قال السعدي: "فإنه {سَمِيعٌ} لما تقول. {عَلِيمٌ} بنيتك وضعفك، وقوة التجائك له، فسيحميك من فتنته، ويقيك من وسوسته، كما قال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} إلى آخر السورة.

ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطا ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، ومسه طائف من الشيطان، فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أي باب أُتِيَ، ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئا حسيرا، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه".

عن محمد ابن إسحاق: " {إنه سميع عليم}، أي: سميع ما يقولون، عليم بما يخفون".

قال ابن كثير: "وقد تقدم في أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبي ﷺ، فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزع غضبًا، فقال رسول الله ﷺ: " «إني لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه الذي يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان

=

الرجيم ذهب ما يجد»، فانطلق إليه رجلٌ فقال له: تعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقال: أترى بي بأسٌ أمجنون أنا؟ اذهب".

* في الآية أنه لا ينجي من شيطان الجن إلا الله، ولهذا أمر بالاستعاذة منه، لأن المُلاينةَ لا تزيدُه إلا طغيانًا، وأنتَ لا تَرَاهُ لتنتصفَ منه، فلاَ دواءَ له إلا الاستعاذةَ بالله (جل وعلا) من شَرِّهِ.

- **قال ابن كثير**: فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عمَّا هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة.

قوله في الأعراف (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِين) فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال: (وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).

وقال تعالى في سورة (قد أفلح المؤمنون) (ادفع بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ).

وقال تعالى في سورة " حم السجدة " (وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). (تفسير ابن كثير).

- وقال الشنقيطي: بَيَّنَ فيها أن هذا العلاجَ السماويَّ لاَ يُعْطِيهِ اللهُ لكلِّ أحدٍ، بل لا يُعْطِيهِ إلا لِمَنْ جَعَلَ له البختَ الأعظمَ والنصيبَ الأوفرَ عنده؛ ولذا قال تعالى

إِنَّ الَّـذِينَ اتَّقَـوْا إِذَا مَـسَّهُمْ طَـائِفٌ مِـنَ الـشَّيْطَانِ تَـذَكَّرُوا فَـإِذَا هُـمْ مُبْـصِرُونَ (٢٠١).

{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذَا مَسَّهُمْ} أَصَابَهُمْ {طَيْف} وَفِي قِرَاءَة طَائِف أَيْ شَيْء أَلَـمَّ بِهِمْ {مِنْ الـشَّيْطَان تَـذَكَّرُوا} عِقَـاب الله وَثَوَابه {فَـإِذَا هُـمْ مُبْصِرُونَ} الْحَـقّ مِنْ غَيْره فَيَرْجِعُونَ.

وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢).

{وَإِخْوَانهمْ} أَيْ إخْوَان الشَّيَاطِين مِنْ الْكُفَّار {يُمِدُّونَهُمْ} أَيْ الـشَّيَاطِين {فِي الْغَيّ ثُمَّ} هُمْ {لَا يُقْصِرُونَ} يَكُفُّونَ عَنْهُ بِالتَّبَصُّرِ كَمَا تَبَصَّرَ الْمُتَّقُونَ(١).

=

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) يعني: ادْفَعْ عداوةَ شيطانِ الإنسِ بالتي هي أحسنُ، ثم قال: (فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) أي: صديقٌ في غايةِ الصداقةِ، ثم بَيَّنَ أن هذا لاَ يُعْطَى لكلِّ الناسِ، قال (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) ثم قال في شيطانِ الجنِّ (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

فعلينا معاشرَ المؤمنين أن نقدرَ هذا العلاجَ السماويَّ، ونعاملَ مَنْ عَادَانَا وأرادَ ضُرَّنَا من إخوانِنا المؤمنين بالصفحِ والإحسانِ، ومقابلةِ السَّيِّئِ بالجميلِ، حتى تنكسرَ شوكةُ شُؤْمِهِ، فيرجع خَجِلًا صديقًا حميمًا، ونستعيذُ من الشيطانِ بخالقِ السماواتِ والأرضِ لِيَكْفِيَنَا شَرَّهُ.

(١) قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا} [الأعراف: ٢٠١]، أي: "إن الذين اتقوا الله مِن خلقه، فخافوا عقابه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: {إن الذين اتقوا}، اللهَ من خلقه، فخافوا عقابه، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه".

=

=

قال ابن كثير: "يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر".

قال مجاهد: "هم المؤمنون".

قوله تعالى: {إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ} [الأعراف: ٢٠١]، أي: "إذا أصابهم عارض من وسوسة الشيطان".

قال أبو عبيدة: "مجازه: لمم، قال [الأعشى]:

وتصبح عن غب السّرى وكأنّما ... ألمَّ بها من طائف الجنّ أولق

وهو من طفت به أطيف طيفا، قال:

أنّى ألمَّ بِكَ الخيالُ يَطِيفُ ... ومطَافُهُ لَكَ ذُكْرَةٌ وشُغُوفُ"

قال الطبري: "يقول: إذا ألمَّ بهم لَمَمٌ من الشيطان، من غضب أو غيره مما يصدّ عن واجب حق الله عليهم".

قال ابن كثير: "أي: أصابهم «طيف».

قال الزمخشري: "{طائف من الشيطان} لمة منه، مصدر، من قولهم: طاف به الخيال يطيف طيفا... أو هو تخفيف «طيف» فيعل، من طاف يطيف كلين. أو من «طاف يطوف» كهين"

قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة: «طَآئِفٌ»، وقرأ الباقون: «طَيْفٌ»، واختلف في هاتين القراءتين على قولين:

أحدهما: أن معناهما واحد وإن اختلف اللفظان، فعلى هذا اختلف في تفسير ذلك على أربعة وجوه:

أحدها: أن «الطائف» اللَّمَّة من الشيطان. قاله ابن عباس.

وروي عن السدي: " {إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا}، يقول: إذا زلُّوا تابوا".

=

=

والثاني: أنه الغضب، قاله مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وابن زيد ، وهو مروي عن ابن عباس أيضا.

قال الطبري: "وهذان التأويلان متقاربا المعنى، لأن «الغضب» من استزلال الشيطان، و «اللّمة» من الخطيئة أيضًا منه، وكل ذلك من طائف الشيطان، وإذ كان ذلك كذلك، فلا وجه لخصوص معنى منه دون معنى، بل الصواب أن يعم كما عمه جل ثناؤه، فيقال: إن الذين اتقوا إذا عرض لهم عارض من أسباب الشيطان، ما كان ذلك العارض، تذكروا أمر الله وانتهوا إلى أمره".

والثالث: أنه الوسوسة، قاله أبو عمرو بن العلاء.

والرابع، أنه الفزع، قاله سعيد بن جبير.

والقول الثاني: أن معنى الطيف والطائف مختلفان، فالطيف اللمم، والطائف كل شيء طاف بالإنسان.

قوله تعالى: {تَذَكَّرُوا} [الأعراف: ٢٠١]، أي: "تذكَّروا ما أوجب الله عليهم من طاعته، والتوبة إليه".

قال الطبري: أي: "تذكروا عقاب الله وثوابه، ووعده ووعيده".

قال ابن كثير: "أي: عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده، فتابوا وأنابوا، واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب".

قال الزجاج: "أي: تفكروا فيما هو أوضح لهم من الحجة".

عبد الله بن يسار قال: "سمعت عبد الله بن الزبير يقول: إذا مسهم طائف من الشيطان تأملوا".

عن الضحاك قوله: " {إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان}، بالآلام {تذكروا}، قال: هم بفاحشة ولم يعملها، قال الحر بن جرموز، وقال العلا بن بدر: قد عملها".

=

=

قوله تعالى: {فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: ٢٠١]، أي: "فإذا هم منتهون عن معصية الله على بصيرة، آخذون بأمر الله، عاصون للشيطان".

قال الزجاج: أي: "على بصيرة".

قال الطبري: "يعني: فإذا هم مبصرون هدى الله وبيانه وطاعته فيه، فمنتهون عما دعاهم إليه طائف الشيطان".

قال ابن كثير: "أي: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه.

عن ابن عباس: " {فإذا هم مبصرون}، يقول: إذا هم منتهون عن المعصية، آخذون بأمر الله، عاصون للشيطان".

وفي قوله تعالى: {فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: ٢٠١]، وجوه:

أحدها: فإذا هم منتهون عن المعصية، آخذون بأمر الله عاصون للشيطان. قاله ابن عباس.

والثاني: يبصرون ما هم فيه. قاله ابن زيد.

والثالث: فإذا هم مهتدون.

قال الزمخشري: "وهذا تأكيد وتقرير لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان، وأن المتقين هذه عادتهم: إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان وإلمام بوسوسته تذكروا ما أمر الله به ونهى عنه، فأبصروا السداد ودفعوا ما وسوس به إليهم ولم يتبعوه أنفسهم".

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يشفيني. فقال: "إن شئت دعوت الله فشفاك، وإن شئت فاصبري ولا حساب عليك". فقالت: بل أصبر، ولا حساب علي.

ورواه غير واحد من أهل السنن، وعندهم: قالت: يا رسول الله، إني أصرع وأتكشف، فادع الله أن يشفيني. فقال: إن شئت دعوت الله أن يشفيك، وإن شئت

=

=

صبرت ولك الجنة؟ " فقالت: بل أصبر، ولي الجنة، ولكن: ادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها، فكانت لا تتكشف.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة «عمرو بن جامع» من تاريخه: "أن شابًا كان يتعبد في المسجد، فهويته امرأة، فدعته إلى نفسها، وما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل، فذكر هذه الآية: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} فخر مغشيًا عليه، ثم أفاق فأعادها، فمات. فجاء عمر فَعزَّى فيه أباه وكان قد دفن ليلا فذهب فصلى على قبره بمن معه، ثم ناداه عمر فقال: يا فتى {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٤٦] وأجابه الفتى من داخل القبر: يا عمر، قد أعطانيهما ربي، ﷻ، في الجنة مرتين".

قال ابن رجب: ولما كان العبدُ مأمورًا بالتقوى في السرِّ والعلانية مع أنَّه لابُدَّ أنْ يقع منه أحيانًا تفريط في التقوى، إما بترك بعض المأمورات، أو بارتكاب بعض المحظورات، فأمره أنْ يفعل ما يمحو به هذه السيئة وهو أنْ يتبعها بالحسنة، قال الله (وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ).

وفي " الصحيحين عن ابنِ مسعود (أنَّ رجلًا أصاب من امرأة قُبلَةً، ثم أتى النَّبيَّ ﷺ، فذكر ذلك له، فسكت النَّبيُّ ﷺ حتى نزلت هذه الآية، فدعاه فقرأها عليه، فقال رجل: هذا له خاصة؟ قال: (بل للناس عامة). (جامع العلوم والحكم).

- قال السعدي: ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطا ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، ومسه طائف من الشيطان، فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أي باب أُتِيَ، ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب اللّه عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر اللّه تعالى، واستدرك ما فرط منه

=

=

بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئا حسيرا، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

قوله تعالى: {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ} [الأعراف: ٢٠٢]، أي: "وإخوان الشياطين، وهم الفجَّار من ضلال الإنس تمدهم الشياطين من الجن في الضلالة والغَواية".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وإخوان الشياطين تمدهم الشياطين في الغي، يعني بقوله: {يمدونهم}، يزيدونهم".

قال ابن كثير: "أي: وإخوان الشياطين من الإنس، كقوله: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} [الإسراء: ٢٧] وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم {يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ} أي: تساعدهم الشياطين على فعل المعاصي، وتسهلها عليهم وتحسنها لهم، [و] «المد»: الزيادة. يعني: يزيدونهم في الغي، يعني: الجهل والسفه".

قال الزجاج: {وإخوانهم}، "يعني: الشياطين، لأن الكفار إخوان الشياطين، والغي الجهل، والوقوع في الحركة".

قال الزمخشري: "وأما «إخوان الشياطين» الذين ليسوا بمتقين، فإن الشياطين {يمدونهم في الغى}، أى: يكونون مددا لهم فيه ويعضدونهم.. قوله وإخوانهم يمدونهم كقوله:

قوم إذا الخيل جالوا فى كواثبها

في أن الخبر جار على ما هو له. ويجوز أن يراد بالإخوان الشياطين، ويرجع الضمير المتعلق به إلى {الجاهلين}، فيكون الخبر جاريا على ما هو له، والأول أوجه، لأن {إخوانهم} في مقابلة {الذين اتقوا}. فإن قلت: لم جمع الضمير في {إخوانهم} و {الشيطان} مفرد؟

=

=

قلت: المراد به الجنس، كقوله: {أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوت} [البقرة: ٢٥٧].

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائى {يمدونهم} بفتح الياء وضم الميم، وقرأ نافع وحده {يمدونهم} بضم الياء وكسر الميم.

قوله تعالى: {ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ} [الأعراف: ٢٠٢]، أي: "ولا تدَّخر شياطين الجن وُسْعًا في مدِّهم شياطين الإنس في الغيِّ، ولا تدَّخر شياطين الإنس وُسْعًا في عمل ما توحي به شياطين الجن".

قال الزمخشري: أي: "ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصروا ولا يرجعوا".

قال ابن كثير: "قيل: معناه إن الشياطين تمد، والإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك".

قال الطبري: أي: "ثم لا ينقصون عما نقص عنه الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان، وإنما هذا خبرٌ من الله عن فريقي الإيمان والكفر، بأن فريق الإيمان وأهل تقوى الله إذا استزلهم الشيطان تذكروا عظمة الله وعقابه، فكفَّتهم رهبته عن معاصيه، وردّتهم إلى التوبة والإنابة إلى الله مما كان منهم زلَّةً وأن فريق الكافرين يزيدهم الشيطان غيًّا إلى غيهم إذا ركبوا معصية من معاصي الله، ولا يحجزهم تقوى الله، ولا خوف المعاد إليه عن التمادي فيها والزيادة منها، فهو أبدًا في زيادة من ركوب الإثم، والشيطان يزيده أبدًا، لا يقصر الإنسي عن شيء من ركوب الفواحش، ولا الشيطان من مدِّه منه".

عن ابن عباس: " {وإخوانهم يمدونهم في الغيّ ثم لا يقصرون}، قال: لا الإنس يقصرون عما يعملون من السيئات، ولا الشياطين تُمْسك عنهم".

وعن عن ابن عباس، أيضا قوله: " {وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون}، يقول: هم الجن، يوحون إلى أوليائهم من الإنس، {ثم لا يقصرون}، يقول: لا يسأمون".

=

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا

=

عن السدي: " {وإخوانهم يمدونهم في الغيّ}، إخوان الشياطين من المشركين، يمدهم الشيطان في الغيّ، {ثم لا يقصرون}.

عن ابن جريج:"قال عبد الله بن كثير: وإخوانهم من الجن، يمدون إخوانهم من الإنس {ثم لا يقصرون}، يقول لا يقصر الإنسان. قال: و «المد» الزيادة، يعني: أهل الشرك، يقول: لا يُقصر أهل الشرك، كما يقصر الذين اتقوا، لا يرعَوُون، لا يحجزهم الإيمان، قال ابن جريج قال مجاهد {وإخوانهم}، من الشياطين {يمدونهم في الغي ثم

لا يقصرون}، استجهالا يمدون أهل الشرك، قال ابن جريج: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ}، [سورة الأعراف: ١٧٩]. قال: فهؤلاء الإنس. يقول الله: {وإخوانهم يمدونهم في الغي}.

عن مجاهد: " {وإخوانهم}، من الشياطين. {يمدونهم في الغي}، استجهالا".

عن قتادة: "لآوإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون} قال: إخوان الشياطين، يمدهم الشياطين في الغيّ {ثمّ لا يقصرون}.

وروي عن قتادة أيضا، قوله: " {وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون}، عنهم، ولا يرحمونهم".

فعلى هذا التأويل: " قوله: {ثم لا يقصرون}، بمعنى: ولا الشياطين يقصرون في مدِّهم إخوانَهم من الغيّ".

قال السعدي: "وأما إخوان الشياطين وأولياؤهم، فإنهم إذا وقعوا في الذنوب، لا يزالون يمدونهم في الغي ذنبا بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك، فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء، لأنها طمعت فيهم، حين رأتهم سلسي القياد لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر".

بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣).

{وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ} أَيْ أَهْل مَكَّة {بِآيَةٍ} مِمَّا اقْتَرَحُوا {قَالُوا لَوْلَا} هَلَّا {اجْتَبَيْتَهَا} أَنْشَأْتهَا مِنْ قِبَل نَفْسك {قُلْ} لَهُمْ {إِنَّمَا أَتَّبِع مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي} وَلَيْسَ لِي أَنْ آتِي مِنْ عِنْد نَفْسِي بِشَيْءٍ {هَذَا} القرآن {بصائر} حجج {من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون[1]}.

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ} [الأعراف: ٢٠٣]، أي: "وإذا لم تجئ -أيها الرسول- هؤلاء المشركين بآية، يعني بمعجزة كما اقترحوا.

قال السعدي: أي: "من آيات الاقتراح التي يعينونها".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وإذا لم تأت، يا محمد، هؤلاء المشركين بآية من الله".

قال ابن كثير: "أي: معجزة، وخارق، كما قال تعالى: {إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} [الشعراء: ٤].

قوله تعالى: {قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا} [الأعراف: ٢٠٣]، أي: "قالوا: هلا أحدَثْتها واختلقتها من عند نفسك".

قال الزجاج: "أي: هلا اختلقتها، أي: هلا أتيت بها من نفسك".

قال الطبري: "يقول: قالوا: هلا اخترتها واصطفيتها".

قال ابن كثير: "يقولون للرسول ﷺ: ألا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها.

قال السعدي: "أي: هلا اخترت الآية، فصارت الآية الفلانية، أو المعجزة الفلانية كأنك أنت المنزل للآيات، المدبر لجميع المخلوقات، ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شيء، أو أن المعنى: لولا اخترعتها من نفسك".

وفي قوله تعالى: {قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا} [الأعراف: ٢٠٣]، ثلاثة أقوال:

=

=

أحدها: معناه: هلا أتيتنا بها من قبل نفسك، وهذا قول ابن عباس ، مجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد.

قال ابن عباس: "يقول: لولا تلقَّيتها، وقال مرة أخرى: لولا أحدَثتها فأنشأتها".

والثاني: معناه: هلا اخترتها لنفسك. حكاه الماوردي ، وهو معنى قول الفراء.

وحكي عن الفراء أنه كان يقول: "اجتبيت الكلام واختلقته، وارتجلته: إذا افتعلته من قِبَل نفسك".

والثالث: هلا أخذتها من ربك وتقبَّلتها منه؟ وهذا مروي عن ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك.

والراجح -والله أعلم- أن معناه: "هلا أحدثتها من نفسك! لدلالة قول الله: {قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ}، فبيَّن ذلك أن الله إنما أمر نبيه ﷺ، بأن يجيبهم بالخبر عن نفسه أنه إنما يتبع ما ينزل عليه ربه ويوحيه إليه، لا أنه يحدث من قبل نفسه قولا وينشئه فيدعو الناس إليه".

قال الزمخشري: "اجتبى الشيء، بمعنى جباه لنفسه: أى: جمعه، كقولك: اجتمعه، أو جبى إليه فاجتباه: أى أخذه، كقولك: جليت إليه العروس فاجتلاها، ومعنى لولا اجتبيتها هلا اجتمعتها، افتعالا من عند نفسك، لأنهم كانوا يقولون: ما هذا إلا إفك مفترى أو هلا أخذتها منزلة عليك مقترحة؟.

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي} [الأعراف: ٢٠٣]، أي: "قل لهم يا محمد ليس الأمر إليَّ حتى آتي بشيءٍ من عند نفسي وإنما أنا عبدٌ امتثل ما يوحيه الله إليَّ".

قال ابن كثير: "أي: أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إلي، فإن بعث آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها؛ إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم.

=

=

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، للقائلين لك إذا لم تأتهم بآية: «هلا أحدثتها من قبل نفسك!»: إن ذلك ليس لي، ولا يجوز لي فعله؛ لأن الله إنما أمرني باتباع ما يوحى إليّ من عنده، فإنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي، لأني عبده، وإلى أمره أنتهي، وإياه أطيع".

قال الزمخشري: أي: "لست بمفتعل للآيات، أو لست بمقترح لها.

قال السعدي: أي: "فأنا عبد متبع مدبَّر، والله تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضاه حمده، وطلبتْه حكمته البالغة، فإن أردتم آية لا تضمحل على تعاقب الأوقات، وحجة لا تبطل في جميع الآنات".

قوله تعالى: {هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ} [الأعراف: ٢٠٣]، أي: "هذا القرآن الجليل حججٌ بيّنة، وبراهين نيّرة يغني عن غيره من المعجزات فهو بمنزلة البصائر للقلوب به يُبْصر الحق ويُدرك".

قال الطبري: "يقول: هذا القرآن والوحي الذي أتلوه عليكم حجج عليكم، وبيان لكم من ربكم".

قال الزمخشري: "هذا القرآن {بصائر من ربكم}، أي: حجج بينة يعود المؤمنون بها بصراء بعد العمى، أو هو بمنزلة بصائر القلوب".

قال السعدي: "فـ {هَذَا} القرآن العظيم، والذكر الحكيم {بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ} يستبصر به في جميع المطالب الإلهية والمقاصد الإنسانية، وهو الدليل والمدلول فمن تفكر فيه وتدبره، علم أنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبه قامت الحجة على كل من بلغه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون".

قال ابن كثير: "ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات، وأبين الدلالات، وأصدق الحجج والبينات، فقال: {هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

=

=

قال الزجاج: "أي: هذا القرآن الذي أتيت به بصائر من ربكم، واحدة البصائر بصيرة. والبصيرة والبصائر طرائق الدم، قال الأشعر الجعفي:

حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ وَبَصِيرَتِي يَعْدُو بِهَا عَتَدٌ وَأَى

و «البصيرة» الترس، وجمعها «بصائر»، وجميع هذا أيضا معناه ظهور الشيء وبيانه".

قال أبو عبيدة: "{بصائر}، أي: حجج وبيان وبرهان، واحدتها: «بصيرة»، وقال الجعفيّ:

حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَكْتَافِهِمْ وَبَصِيرَتِي يَعْدُو بِهَا عَتَدٌ وَأَى

«البصيرة» الترس، و «البصيرة» الحلقة من حلق الدرع، فيجوز أن يقال للدرع كلها بصيرة، و «البصيرة» من الدم الذي بمنزلة الورق الرّشاش منه: والجديّة أوسع من البصيرة، و «البصيرة» مثل فرسن البعير فهو بصيرة والجديّة أعظم من ذلك، والإسبأة والأسابىّ فى طول ، قال:

والعاديات أسابىّ الدّماء بها كأنّ أعناقها أنصاب ترجيب".

وقد بين الله جل وعلا في سورة بني إسرائيل أنه إنما لم يرسله بخارق مثل خارق الرسل المتقدمة كناقة صالح ونحو ذلك أنه إن فعل ذلك كذبوا فأهلكهم، كما قال: (وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا) لأن الله تبارك وتعالى لما اقترحوا هذه الآيات بيّن لهم هنا وفي سورة العنكبوت أنه أنزل لهم آية هي أعظم من جميع الآيات وأكبر، وهي هذا القرآن العظيم، فهذا القرآن العظيم أعظم آية من ناقة صالح، ويد موسى البيضاء، وعصاه التي تكون ثعبانًا.

ومما يدل على أنها أعظم الآيات: أنها تتردد في أسماع الخلائق إلى يوم القيامة،

=

=

وأنها كلام رب العالمين الذي يعجز عن الإتيان بمثله جميع الخلائق، وقد تحدى الله العرب بسورة من هذا القرآن العظيم في سورة البقرة قال: (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) وتحداهم بسورة منه في سورة يونس قال: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) وتحداهم بعشر سور في سورة هود (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) وتحداهم به كله في سورة الطور: (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ) ثم بيّن في سورة بني إسرائيل أن عامة الخلائق لو تعاونوا واجتمعوا لا يقدرون على الإتيان بمثل هذا القرآن: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) فلما كان معجزة يعجز عن مضاهاتها جميع الإنس والجن، وهي معجزة باقية تتردد في آذان الخلائق إلى يوم القيامة، محفوظة، تَوَلَّى رَبُّ العَالمين حِفْظَهَا، لو أراد أحد أن يزيد في هذا القرآن العظيم نقطة واحدة، أو يغير شكلة حرف لرد عليه الآلاف من صغار أطفال المسلمين في أقطار الدنيا (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ولأجل عظم هذه الآية وكبرها وأنها أعظم الآيات وأكبرها أنكر (جلّ وعلا) على مَنْ طَلَب آية غيرها إنكارًا شديدًا في سورة العنكبوت حيث قال تعالى (وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) ثم أنكر عليهم طلب آية غيره قال (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً)، فمن لم يكتف بهذه الآية العظمى عن جميع الآيات فهو جدير بأن ينكر عليه؛ ولذلك قال هنا في أخريات الأعراف لما قال عنهم إنهم قالوا: (لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا) بيّن لهم أن هذا القرآن العظيم أعظم آية، لا ينبغي للإنسان أن يطلب آية غيره حيث قال: (هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) فمن لم تهده هذه البصائر

=

=

والأدلة القاطعة والبراهين الساطعة والمعجزة العظمى، والهدى والرحمة فلا آية تهديه ألبتة. وهذا معنى قوله: (قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي) لا أختلق آية ولا أقترح أخرى.

(هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ) أي: هذا القرآن الذي هو أعظم آية وأنتم تقترحون آيات غيره (بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ) البصائر جمع البصيرة، والبصيرة المراد بها: البرهان القاطع والدليل الساطع الذي يُبْصَر في ضوئه الحق واضحًا لا لبس فيه. فالبصائر: الحُجج القاطعات، والبينات الواضحات التي لا تترك في الحق لبسًا، وواحدها (بصيرة)، ومنه قوله تعالى في أخريات يوسف: (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي).

قوله تعالى: {وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ٢٠٣]، أي: "وهداية ورحمة للمؤمنين لأنهم المقتبسون من أنواره والمنتفعون من أحكامه".

قال الطبري: "قوله: {وهدى}، يقول: وبيان يهدي المؤمنين إلى الطريق المستقيم، {ورحمة}، رحم الله به عباده المؤمنين، فأنقذهم به من الضلالة والهلكة، {لقوم يؤمنون}، يقول: هو بصائر من الله وهدى ورحمة لمن آمن، يقول: لمن صدَّق بالقرآن أنه تنزيل الله ووحيه، وعمل بما فيه، دون من كذب به وجحده وكفر به، بل هو على الذين لا يؤمنون به عمًى وخزي".

قال السعدي: "فمن آمن، فهو {هُدًى} له من الضلال {وَرَحْمَةٌ} له من الشقاء، فالمؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وأخراه، وأما من لم يؤمن به، فإنه ضال شقي، في الدنيا والآخرة".

عن الشعبي: " {هدى}، قال: من الضلالة".

عن السدي قوله: " {هدى}، قال: نور".

عن أبي العالية، قوله: "{ورحمة}، قال: رحمته القرآن".

=

=

(وَهُدًى) أي: بيان ودلالة، أي: أي هاد لمن اتبعه وعمل بما فيه لكل خير وسعادة في الدنيا والآخرة.

- فالقرآن العظيم يُطلق هداه على الهدى العام، ويطلق هداه على الهدى الخاص، فالهدى العام معناه بيان الطريق وإيضاح المحجة البيضاء، وبيان الحق من الباطل، والنافع من الضار، ومنه (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) أي: بينا الحق على لسان نبينا صالح، ومنه قوله تعالى (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ). وأما الهدى الخاص فمعناه توفيق الله لعبده حتى يهتدي إلى ما يرضي ربه، ويكون سبب دخوله الجنة، ومنه قوله (مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي).

- وكون الهدى يُطلق إطلاقًا عامًّا وإطلاقًا خاصًّا إذا فهم الإنسان ذلك زالت عنه إشكالات في كتاب الله، ومناقضات يظنها الجاهل ببعض آيات الله، كقوله تعالى في نبينا ﷺ (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) مع قوله فيه (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) فنفى عنه الهدى في آية وأثبته له في آية، فالهدى المُثبت له في قوله (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) هو الهدى بمعناه العام، وهو البيان والإيضاح. وقد بين ﷺ هذه المحَجَّة البيضاء حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ﷺ أما الهدى المنفي عنه في قوله (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) فهو التفضل بالتوفيق وسعادة المرء؛ لأن هذا بيد الله وحده (وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ) (إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ).

فالمراد بالهدى هنا الهدى الخاص، وهو التوفيق والتيسير للأعمال التي يحبها الله.

قال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)

=

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤).

{وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآن فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا} عَنْ الْكَلَام {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} نَزَلَتْ فِي تَرْك الْكَلَام فِي الْخُطْبَة وَعَبَّرَ عَنْهَا بِالْقُرْآنِ لِاشْتِمَالِهَا عَلَيْهِ وَقِيلَ فِي قِرَاءَة الْقُرْآن مُطْلَقًا[1].

=

وقوله (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا).

وقوله (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ).

(وَرَحْمَةٌ) فإن العمل بكتاب الله رحمة وهداية ونور للبشرية، وبها تحصل السعادة والخير الكثير.

(لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أما القوم الذين سبق لهم الشقاء فهو حجة عليهم يدخلون به النار، كما قال تعالى (وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) لأن الله (تبارك وتعالى) منذ أنزل هذا الكتاب المنزل كان واجبًا شرعًا ألا يدخل أحد الجنة كائنًا من كان إلا عن طريق العمل به، وألا يدخل أحد النار إلا عن طريق الإعراض عنه (وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) فالعمل به مفتاح الجنة، والإعراض عنه سبب دخول النار.

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي هريرة ﵁؛ قال: كانوا يتكلمون في الصلاة؛ فنزلت: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ...}.

أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٧٨)، وابن المنذر في الأوسط (٣/ ١٠٥ رقم ١٣١٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٤٥ رقم ٨٧٢٨)، والطبري في جامع

=

=

البيان (٩/ ١١٠)، والبيهقي في الكبرى (٢/ ١٥٥)، وجزء القراءة خلف الإمام (ص ١١٤ رقم ٢٧٤ - ٢٧٧) من طريق إبراهيم الهجري عن أبي عياض عن أبي هريرة به. والحديث قال عنه صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٢/ ١٧٧): وهذا إسناد ضعيف؛ فيه إبراهيم الهجري، وهو لين الحديث: رفع موقوفات؛ كما في "التقريب"، وأبو عياض -اسمه عمرو بن الأسود-؛ ثقة عابد. لكنه توبع؛ فأخرجه البيهقي في "جزء القراءة خلف الإمام" (ص ١١٤، ١١٥ رقم ٢٧٨) من طريق مؤمل بن إسماعيل نا عبد العزيز بن مسلم القسلمي نا محمد بن زياد عن أبي هريرة به. قلت: ومؤمل صدوق سيئ الحفظ. وأخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٤٥ رقم ٨٧٢٦)، والطبري في "جامع البيان" (٩/ ١١٠)، والدارقطني (١/ ٣٢٦) -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٥٤)، و"الوسيط" (٢/ ٤٤٠) -، والبيهقي في "جزء القراءة" (ص ١١٥ رقم ٢٧٩) من طريق الأوزاعي نا عبد الله بن عامر ثنا زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة به. قلنا: وعبد الله بن عامر هذا؛ ضعيف، وبه أعله الدارقطني عقبه. فالحديث بمجموعها صحيح -إن شاء الله-، على أن له شواهد كثيرة يصح بها.

وعن قتادة؛ قال: كانوا يتكلمون في صلاتهم بحوائجهم أول ما فرضت عليهم؛ فأنزل الله ما تسمعون: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٩/ ١١١): ثنا بشر العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد، ويزيد بن زريع روى عن سعيد قبل اختلاطه.

وهو شاهد قوي لحديث أبي هريرة.

ثم أخرجه (٩/ ١١١) من طريق محمد بن ثور، وعبد الرزاق في "تفسيره" (١/

=

=

٢/ ٢٤٧) كلاهما عن معمر عن قتادة؛ قال: كان الرجل يأتي وهم في الصلاة فيسألهم: كم صليتم؟ كم بقي؟ فأنزل الله: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)}. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦٣٦) وزاد نسبته لعبد بن حميد وأبي الشيخ، وله شاهد من حديث معاوية بن قرة بنحوه:

أخرجه سعيد بن منصور في "سننه" (٥/ ١٨٤ رقم ٩٨١ - تكملة) -ومن طريقه البيهقي في "جزء القراءة" (ص ١١٦ رقم ٢٨٣)، و"السنن الكبرى" (٩/ ١٥٥) -، وهو مرسل صحيح الإسناد.

ويشهد له في الجملة ما ثبت في "الصحيحين" من حديث زيد أرقم -وتقدم تخريجه في سورة البقرة- قال: كان أحدنا يكلم صاحبه إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت: {وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ}؛ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ أنه كان يقول -في هذه {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً} -: هذا في المكتوبة، وأما ما كان من قصص أو قراءة بعد ذلك؛ فإنما هي نافلة، إن نبي الله ﷺ قرأ في صلاة مكتوبة وقرأ أصحابه وراءه فخلطوا عليه، قال: فنزل القرآن: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)}؛ فهذا في المكتوبة.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١١١، ١١٢)، والبيهقي في "جزء القراءة" (ص ١٠٩ رقم ٢٥٥) من طريقين عن ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن ابن عباس به. وإسناده ضعيف لحال ابن لهيعة، وإن والراوي عن ابن لهيعة عند الطبري ابن المبارك وهو من قدماء أصحابه، لأ ابن لهيعة ضعيف في كل أحواله.

وأخرج الطبري -أيضًا- (٩/ ١١١)، والبيهقي (ص ١٠٩ رقم ٢٥٤) من طريق عبد الله بن صالح ثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس؛

=

=

قال: في الصلاة المفروضة.

قلنا: وسنده ضعيف؛ لضعف عبد الله بن صالح.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦٣٤) وزاد نسبته لابن المنذر.

وأخرجه البيهقي في "جزء القراءة" (رقم ٢٥٣)، و"السنن الكبرى" (٢/ ١٥٥)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٤٦ رقم ٨٧٣٣) من طريق مسكين بن بكير الحراني عن ثابت بن عجلان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس؛ قال: المؤمن في سعة من الاستماع إليه؛ إلا في صلاة مفروضة، أو مكتوبة، أو يوم جمعة، أو يوم فطر، أو يوم أضحى بعد قوله: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)} . وهذا إسناد حسن -إن شاء الله-؛ مسكين هذا وثقه ابن حبان والبزار، وقال أحمد: "لا بأس به"، وقال الذهبي: "صدوق يغرب"، وقال ابن حجر: "صدوق يخطئ"؛ فرجل هذا حاله حديثه حسن ما لم يخالف -والله أعلم-.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦٣٧) وزاد نسبته لأبي الشيخ.

وأخرجه ابن مردويه؛ كما في "الدر المنثور": عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا} ؛ قال: نزلت في رفع الأصوات خلف رسول الله ﷺ في الصلاة، وفي الخطبة؛ لأنها صلاة، وقال: من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب؛ فلا صلاة له.

وعن عبد الله بن مغفل؛ قال: في الصلاة.

أخرجه البيهقي في "جزء القراءة" (رقم ٢٥٠) من طريق هشام بن زياد بن المقدام عن الحسن عنه به.

قال البيهقي عقبه: "هذا حديث مداره على هشام بن زياد بن المقدام واختلف عليه في إسناده، وليس بالقوي". بل هو متروك الحديث، والحسن مدلس وقد

=

=

عنعن.

ثم أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٧٨)، والبيهقي (رقم ٢٥١، ٢٥٢)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٤٦ رقم ٨٧٣٢) من طريق أبي أسامة وكثير بن هشام كلاهما عن هشام أبي المقدام عن معاوية بن قرة عن عبد الله به. وهذا من وجوه الاختلاف التي ذكرها البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وسببه ضعف هشام هذا.

وخالف أبا المقدام هذا عون بن موسى؛ فرواه عن معاوية بن قرة قال: إن الله ﷻ أنزل هذه الآية: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا} في الصلاة؛ إن الناس كانوا يتكلمون في الصلاة، وأنزلها القصاص في القصص.

أخرجه سعيد بن منصور في "سننه" (٥/ ١٨٢ رقم ٩٧٩ - تكلمة)، والبيهقي (٢/ ١٥٥) بسند صحيح عنه. وعون أوثق من أبي المقدام بكثير.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦٣٥) وزاد نسبته لأبي الشيخ وابن مردويه.

وعن مجاهد؛ قال: نزلت في الصلاة والخطبة يوم الجمعة.

أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (٢/ ٤٧٨، ٤٧٩)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٤٦ رقم ٨٧٣١)، والطبري في "جامع البيان" (٩/ ١١٠، ١١١، ١١٢)، وسعيد بن منصور في "سننه" (٥/ ١٧٩ رقم ٩٧٦)، وعبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ٢/ ٢٤٧)، والبيهقي في "السنن "الكبرى" (٢/ ١٥٥)، و"القراءة خلف الإمام" (رقم ٢٤٨، ٢٦٠ - ٢٦٨) وغيرهم من طرق عن مجاهد، وهو صحيح بمجموعها عن مجاهد.

وعن محمد بن كعب القرظي؛ قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ في الصلاة أجابه من وراءه، إذا قال: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؛ قالوا: مثل ما يقول، حتى تنقضي فاتحة الكتاب والسورة، فلبث ما شاء الله أن يلبث ثم نزلت: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا

=

=

لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)}.

أخرجه سعيد بن منصور في "سننه" (٥/ ١٨١ رقم ٩٧٨) -ومن طريقه البيهقي "جزء القراءة" (رقم ٢٥٩) -، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٤٥ رقم ٨٧٢٧). وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن إبراهيم؛ قال: كان النبي ﷺ يقرأ ورجل يقرأ؛ فنزلت: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)}.

أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (٢/ ٤٧٨) من طريق أشعث عن إبراهيم. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. والثانية: أشعث بن سوار هذا؛ ضعيف؛ كما في "التقريب".

وعن الزهري؛ قال: نزلت هذه الآية في فتى من الأنصار، كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئًا قرأه؛ فنزلت: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١١٠، ١١١) من ثلاثة طرق عن أشعث بن سوار عن الزهري به. وسنده ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. والثانية: ضعف أشعث.

وعن أبي العالية؛ قال: كان النبي ﷺ إذا صلى فقرأ أصحابه؛ فنزلت: {فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا}؛ فسكت القوم وقرأ النبي ﷺ.

أخرجه البيهقي في "جزء القراءة" (رقم ٢٤٩) من طريق المهاجر عن أبي العالية به.

قال البيهقي عقبه: "وهذا منقطع". يعني: مرسل؛ فهو ضعيف.

وعن عبد الله بن مسعود؛ أنه سلَّم على رسول الله ﷺ وهو يصلي، فلم يرد عليه -وكان الرجل قبل ذلك يتكلم في صلاته ويأمر بحاجته- فلما فرغ ردّ عليه، وقال:

=

=

"إن الله يفعل ما يشاء، وإنها نزلت: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)}.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٤٥ رقم ٨٧٢٩): حدثنا أبي ثنا محمد بن يحيى القطعي ثنا محمد بن بكر عن عمران أبي العوام عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عنه به. وهذا سند حسن.

وعن عطاء بن أبي رباح؛ قال: بلغني أن المسلمين كانوا يتكلمون في الصلاة كما يتكلم اليهود والنصارى، حتى نزلت: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)}.

أخرجه عبد الرزاق في "مصنفه" (٢/ ٤٥٠ رقم ٤٠٤٤) عن ابن جريج عن عطاء به. وهذا مرسل رجاله ثقات، ورواية ابن جريج عن عطاء خاصة محمولة على السماع.

وعن الكلبي: كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار؛ فأنزل الله: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)}.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ٢/ ٢٤٧) من طريق الكلبي به. والكلبي كذاب.

وعن الضحاك؛ قال: كانوا يتكلمون في الصلاة؛ فأنزل الله: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦٣٦) ونسبه لعبد بن حميد. وهو ضعيف لا يثبت.

* قوله تعالى: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا} [الأعراف: ٢٠٤]، أي: "وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له أيها الناس وأنصتوا".

عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-؛ قال: كانوا يتكلمون في الصلاة؛ فنزلت: {وإذا قرئ

=

=

القرآن...} أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٧٨)، وابن المنذر في الأوسط (٣/ ١٠٥ رقم ١٣١٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٤٥ رقم ٨٧٢٨)، والطبري في جامع البيان (٩/ ١١٠)، والبيهقي في الكبرى (٢/ ١٥٥)، وجزء القراءة خلف الإمام (ص ١١٤ رقم ٢٧٤ - ٢٧٧) من طريق إبراهيم الهجري عن أبي عياض عن أبي هريرة به. والحديث قال عنه صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٢/ ١٧٧): وهذا إسناد ضعيف؛ فيه إبراهيم الهجري، وهو لين الحديث: رفع موقوفات؛ كما في "التقريب"، وأبو عياض -اسمه عمرو بن الأسود-؛ ثقة عابد. لكنه توبع؛ فأخرجه البيهقي في "جزء القراءة خلف الإمام" (ص ١١٤، ١١٥ رقم ٢٧٨) من طريق مؤمل بن إسماعيل نا عبد العزيز بن مسلم القسلمي نا محمد بن زياد عن أبي هريرة به. قلت: ومؤمل صدوق سيئ الحفظ. وأخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٤٥ رقم ٨٧٢٦)، والطبري في "جامع البيان" (٩/ ١١٠)، والدارقطني (١/ ٣٢٦) -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٥٤)، و"الوسيط" (٢/ ٤٤٠) -، والبيهقي في "جزء القراءة" (ص ١١٥ رقم ٢٧٩) من طريق الأوزاعي نا عبد الله بن عامر ثنا زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة به. قلنا: وعبد الله بن عامر هذا؛ ضعيف، وبه أعله الدارقطني عقبه. فالحديث بمجموعها صحيح -إن شاء الله-، على أن له شواهد كثيرة يصح بها.

وعن عبد الله بن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-؛ أنه كان يقول -في هذه {واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة} -: هذا في المكتوبة، وأما ما كان من قصص أو قراءة بعد ذلك؛ فإنما هي نافلة، إن نبي الله ﷺ قرأ في صلاة مكتوبة وقرأ أصحابه وراءه فخلطوا عليه، قال: فنزل القرآن: {وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون (٢٠٤)}؛ فهذا في المكتوبة. قال صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٢/ ١٧٧): أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١١١)، والبيهقي في جزء القراءة (ص ١٠٩ رقم

=

=

٢٥٥) من طريقين عن ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن ابن عباس به. قلنا: وهذا إسناد حسن لذاته، والراوي عن ابن لهيعة عند الطبري ابن المبارك وهو من قدماء أصحابه. وأخرج الطبري -أيضًا- (٩/ ١١١)، والبيهقي (ص ١٠٩ رقم ٢٥٤) من طريق عبد الله بن صالح ثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس؛ قال: في الصلاة المفروضة. قلنا: وسنده ضعيف؛ لضعف عبد الله بن صالح. وأخرجه البيهقي في جزء القراءة (رقم ٢٥٣)، والكبرى (٢/ ١٥٥)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٤٦ رقم ٨٧٣٣) من طريق مسكين بن بكير الحراني عن ثابت بن عجلان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس؛ قال: المؤمن في سعة من الاستماع إليه؛ إلا في صلاة مفروضة، أو مكتوبة، أو يوم جمعة، أو يوم فطر، أو يوم أضحى بعد قوله: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)}. قلنا: وهذا إسناد حسن -إن شاء الله-؛ مسكين هذا وثقه ابن حبان والبزار، وقال أحمد: "لا بأس به"، وقال الذهبي: "صدوق يغرب"، وقال ابن حجر: "صدوق يخطئ"؛ فرجل هذا حاله حديثه حسن ما لم يخالف -والله أعلم-.

وعن عبد الله بن مسعود؛ أنه سلم على رسول الله ﷺ وهو يصلي، فلم يرد عليه -وكان الرجل قبل ذلك يتكلم في صلاته ويأمر بحاجته- فلما فرغ رد عليه، وقال: "إن الله يفعل ما يشاء، وإنها نزلت: {وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون (٢٠٤)} أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٤٥ رقم ٨٧٢٩): حدثنا أبي ثنا محمد بن يحيى القطعي ثنا محمد بن بكر عن عمران أبي العوام عن عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عنه به. وإسناده حسن.

والآية أمر من الله تعالى بالاستماع والإنصات عند تلاوة القرآن الكريم.

والاستماع: هو التدبر في الشيء والإصغاء إليه بتدبر، والإنصات: هو السكوت

=

=

وترك الكلام.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره للمؤمنين به، المصدقين بكتابه، الذين القرآنُ لهم هدى ورحمة: {إذا قرئ}، عليكم، أيها المؤمنون، أصغوا له سمعكم، لتتفهموا آياته، وتعتبروا بمواعظه {وأنصتوا} إليه لتعقلوه وتتدبروه، ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه".

قال ابن كثير: "لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظامًا له واحترامًا، لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون في قولهم: {لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت: ٢٦] ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما ورد الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، من حديث أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا» .

قال الحسن: "إذا جلست إلى القرآن فأنصت له".

قال الزمخشري: قوله: "{وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا}، ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في صلاة وغير صلاة. وقيل: كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت، ثم صار سنة في غير الصلاة أن
ينصت القوم إذا كانوا في مجلس يقرأ فيه القرآن. وقيل معناه: وإذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له. وقيل: معنى فاستمعوا له: فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه".

واختلفوا في موضع هذا الإنصات على أقوال:

أحدها: أنها نزلت في المأموم خلف الإمام ينصت ولا يقرأ، وهذا قول أبي هريرة، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والزهري، والسدي، وابن زيد، وعبيد بن عمير

=

=

، وعطاء ، ومحمد بن كعب القرظي.
عن الزهري قال: "نزلت هذه الآية في فتى من الأنصار، كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئًا قرأه، فنزلت: {وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا}.
وعن بشير بن جابر قال: "صلى ابن مسعود، فسمع ناسًا يقرأون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما آن لكم أن تفقهوا! أما آن لكم أن تعقلوا؟ {وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا}، كما أمركم الله".
وعن أبي هريرة: "أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة، فقال: "هل قرأ أحد منكم معي آنفا؟ " قال رجل: نعم يا رسول الله. قال: إني أقول: ما لي أنازع القرآن؟ " قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه رسول الله ﷺ بالقراءة من الصلوات حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ".
والثاني: أنها نزلت في خطبة الجمعة ينصت الحاضر لاستماعها ولا يتكلم، قاله مجاهد أيضا.
والثالث: عني بذلك: الإنصات في الصلاة، وفي الخطبة. قاله عطاء ، وسعيد بن جبير ، وهو مروي عن مجاهد أيضا.
والرابع: ما قاله ابن مسعود: "كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة، سلام على فلان، سلام على فلان، فجاء القرآن {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا}.
عن أبي هريرة قال: "كانوا يتكلمون في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: {وإذا قرئ القرآن}، والآية الأخرى، أمروا بالإنصات".
والخامس: أنها نزلت في الصلاة وحين ينزل الوحي عن الله ﷻ. قاله ابن عباس في رواية عكرمة عنه.
قال الطبري: "أولى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ من قال: أمروا باستماع القرآن في الصلاة إذا قرأ الإمام، وكان من خلفه ممن يأتمّ به يسمعه، وفي الخطبة،
=

=

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إذا قرأ الإمام فأنصتوا» ، وإجماع الجميع على أن على من سمع خطبة الإمام ممن عليه الجمعة، الاستماعَ والإنصاتَ لها، مع تتابع الأخبار بالأمر بذلك، عن رسول الله ﷺ، وأنه لا وقت يجب على أحد استماع القرآن والإنصات لسامعه، من قارئه، إلا في هاتين الحالتين، على اختلاف في إحداهما، وهي حالة أن يكون خلف إمام مؤتم به. وقد صح الخبر عن رسول الله ﷺ بما ذكرنا من قوله: «إذا قرأ الإمام فانصتوا» ، فالإنصات خلفه لقراءته واجب على من كان به مؤتمًّا سامعًا قراءته، بعموم ظاهر القرآن والخبر عن رسول الله ﷺ.

قال السعدي: "هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرا كثيرا وعلما غزيرا، وإيمانا مستمرا متجددا، وهدى متزايدا، وبصيرة في دينه،

ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تُلِيَ عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير.

ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه، فإنه مأمور بالإنصات، حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات، أولى من قراءته الفاتحة، وغيرها".

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: ٢٠٤]، أي: "رجاء أن يرحمكم الله به".

قال الطبري: "يقول: ليرحمكم ربكم باتعاظكم بمواعظه، واعتباركم بعبره،
=

=

واستعمالكم ما بينه لكم ربكم من فرائضه في آيه".

قال ابن كثير: "قال عبد الله بن المبارك، عن يونس عن الزهري قال: لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته، ولكنهم يقرءون فيما لا يجهر به سرًا في أنفسهم، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرًا ولا علانية، فإن الله تعالى قال: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}

قلت: هذا مذهب طائفة من العلماء: أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها، وهو أحد قولي الشافعي، وهو القديم كمذهب مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة. وقال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلا في السرية ولا الجهرية، لما ورد في الحديث: "من كان له إمام فقراءته له قراءة". وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعًا، وهو في موطأ مالك عن وهب بن كيسان، عن جابر موقوفًا، وهذا أصح. وهذه المسألة مبسوطة في غير هذا الموضع وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفًا على حدة واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضا، والله أعلم".

وعن أبي هريرة، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله ﷺ قال: "من استمع إلى آية من كتاب الله، كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نورًا يوم القيامة".

قال ابن القيم: إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه فانه خاطب منه لك على لسان رسوله قال تعالى (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى

=

وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥).

{وَاذْكُرْ رَبّك فِي نَفْسك} أَيْ سِرًّا {تَضَرُّعًا} تَذَلُّلًا {وَخِيفَة} خَوْفًا مِنْهُ {و} فَوْق السِّرّ {دُون الْجَهْر مِنْ الْقَوْل} أَيْ قَصْدًا بَيْنهمَا {بِالْغُدُوِّ وَالْآصَال} أَوَائِل النَّهَار وَأَوَاخِره {وَلَا تَكُنْ مِنْ الْغَافِلِينَ} عَنْ ذِكْر الله.[1]

=

السمع وهو شهيد) وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفا على مؤثر مقتض ومحل قابل وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد فقوله (إن في ذلك لذكرى) اشار إلى ما تقدم من أول السورة الى ههنا وهذا هو المؤثر وقوله (لمن كان له قلب) فهذا هو المحل القابل والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله كما قال تعالى (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا) أي حي القلب وقوله (أو ألقى السمع) أي وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له وهذا شرط التأثر بالكلام وقوله (وهو شهيد) أي شاهد القلب حاضر غير غائب قال ابن قتيبة استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساه وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله فإذا حصل المؤثر وهو القرآن والمحل القابل وهو القلب الحي ووجد الشرط وهو الإصغاء وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر.

(١) قوله تعالى: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ} [الأعراف: ٢٠٥]، أي: "واذكر ربك سرًا مستحضرًا لعظمته وجلاله".

الخطاب للنبي ﷺ ويدخل فيه غيره من أمته لأنه عام لسائر المكلفين.

=

=

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: {واذكر} أيُّها المستمع المنصت للقرآن، إذا قرئ في صلاة أو خطبة، {ربك في نفسك}، يقول: اتعظ بما في آي القرآن، واعتبر به، وتذكر معادك إليه عند سماعكه".

قال الزمخشري: قوله: "{واذكر ربك في نفسك}، هو عام في الأذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك".

قال الشنقيطي: إن الله علم نبيه ﷺ آداب الذكر، وجعل له الذكر على نوعين على التحقيق: ذكر نفساني، وذكر لساني، أما الذكر النفساني فهو هذا الذي يذكره العبد في نفسه بالتدبر والتفكر والاعتبار ولا ينطق به. وما قاله ابن عطية (رَحِمَهُ اللَّهُ) من أنه لا ذكر إلا بحركة اللسان خلاف ظاهر هذه الآية الكريمة؛ لأن الله قال لنبيه (وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ) أي: فيما بينك وبين ربك في نفسك من غير كلام، فتذكر عظمته وكماله وجلاله وصفاته، وما عنده من الثواب لمن أطاعه، ومن العقاب لمن عصاه، ويكون هذا التذكر والتفكر في عظمة الله (جل وعلا) وفي صفاته العظمى، وفي ثوابه وعقابه يكون في نفسك لأجل التضرُّع والخوف.

- وقال الخازن: وهاهنا لطيفة وهي أن قوله سبحانه وتعالى) واذكر ربك في نفسك) فيه إشعار بقرب العبد من الله وهو مقام الرجاء لأن لفظ الرب مشعر بالتربية والرحمة والفضل والإحسان فإذا تذكر العبد إنعام الله عليه وإحسانه إليه فعند ذلك يقوى مقام الرجاء ثم أتبعه بقوله تضرعًا وخيفة وهذا مقام الخوف فإذا حصل في قلب العبد داعية الخوف والرجاء قوي إيمانه والمستحب أن يكون الخوف أغلب على العبد في حال صحته وقوته فإذا قارب بالموت ودنا آخر أجله فيستحب أن يغلب رجاؤه على خوفه.

قال السعدي: "الذكر لله تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر الله عبده ورسوله محمدا أصلا وغيره تبعا، بذكر

=

=

ربه في نفسه، أي: مخلصا خاليا".

عن عبيد بن عمير، في قوله: " {واذكر ربك في نفسك}، قال: يقول الله إذا ذكرني عبدي في نفسه، ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني عبدي وحده ذكرته وحدي، وإذا ذكرني في ملإ ذكرته في أحسنَ منهم وأكرم".

وفي قوله تعالى: {وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ} [الأعراف: ٢٠٥]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه ذكر القرءاة في الصلاة خلف الإمام سرًا في نفسه. قاله الحكم ابن عتيبة.

والثاني: أنه ذكر بالقلب باستدامة الفكر حتى لا ينسى نعم الله الموجبة لطاعته.

والثالث: ذكره باللسان إما رغبة إليه في دعائه أو تعظيمًا له بالآية.

وفي المخاطب بهذا الذكر قولان:

أحدهما: أنه المستمع للقرآن إما في الصلاة أو الخطبة، قاله ابن زيد ، واختاره الطبري.

قال ابن كثير: "وقد زعم ابن جرير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله: أن المراد بهذه الآية: أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة. وهذا بعيد مناف للإنصات المأمور به، ثم المراد بذلك

في الصلاة، كما تقدم، أو الصلاة والخطبة، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان، سواء كان سرًا أو جهرًا، فهذا الذي قالاه لم يتابعا عليه، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين".

والثاني: أنه خطاب للنبي ﷺ ومعناه عام في جميع المكلفين. ذكره الماوردي.

قوله تعالى: {تَضَرُّعًا وَخِيفَةً} [الأعراف: ٢٠٥]، أي: "متضرعًا إليه وخائفًا منه".

قال الطبري: "يقول: افعل ذلك تخشعًا لله وتواضعًا له، وخوفًا من الله أن يعاقبك على تقصير يكون منك في الاتعاظ به والاعتبار، وغفلة عما بين الله فيه من حدوده".

=

=

قال ابن كثير: "أي: اذكر ربك في نفسك رهبة ورغبة.

قال الزمخشري: أي: " متضرعا وخائفا".

قال السعدي: "{تَضَرُّعًا} أي: متضرعا بلسانك، مكررا لأنواع الذكر، {وَخِيفَةً} في قلبك بأن تكون خائفا من الله، وَجِلَ القلب منه، خوفا أن يكون عملك غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه، والنصح به".

قال مجاهد: "أمروا أن يذكروه في الصدور تضرعًا وخيفة".

عن ابن جريج، قوله: " {واذكر ربك في نفسك تضرعًا وخيفة}، قال: يؤمر بالتضرع في الدعاء والاستكانة، ويكره رفع الصوت والنداء والصياح بالدعاء".

قال أبو عبيدة: {وَخِيفَةً} " أي: خوفا وذهبت «الواو» بكسرة «الخاء».

قوله تعالى: {وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [الأعراف: ٢٠٥]، أي: "وادعه متوسطًا بين الجهر والمخافتة في أول النهار وآخره".

قال ابن زيد: "لا يجهر بذلك".

وفي رواية أخرى عن ابن زيدعن أبيه قال: "دون الجهر من القول بالغدو والآصال قال: فالآصال لا يجهر فيها".

قال الزمخشري: قوله: "{ودون الجهر}، ومتكلما كلاما دون الجهر، لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكر، بالغدو والآصال لفضل هذين الوقتين. أو أراد الدوام. ومعنى {بالغدو}: بأوقات الغدو، وهي الغدوات".

قال الطبري: "يقول: ودعاء باللسان لله في خفاء لا جهار. يقول: ليكن ذكر الله عند استماعك القرآن في دعاء إن دعوت غير جهار، ولكن في خفاء من القول، وقوله: {بالغدو والآصال}، فإنه يعني بالبُكَر والعشِيَّات".

قال ابن كثير: "وبالقول لا جهرًا، وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء

=

=

ولا جهرًا بليغًا؛ ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: ١٨٦]، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النبي ﷺ: «أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا؛ إن الذي تدعونه سميع قريب»، وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى: {وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا} [الإسراء: ١١٠] فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه، وسبوا من أنزله، وسبوا من جاء به؛ فأمره الله تعالى ألا يجهر به، لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم، وليتخذ سبيلا بين الجهر والإسرار. وكذا قال في هذه الآية الكريمة: {وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ}.

قال السعدي: "{وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ} أي: كن متوسطا، لا تجهر بصلاتك، ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلا. {بِالْغُدُوِّ} أول النهار {وَالآصَالِ} آخره، وهذان الوقتان لذكر الله فيهما مزية وفضيلة على غيرهما".

وفي قوله تعالى: {بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} [الأعراف: ٢٠٥]، وجهان:

أحدهما: بالبكر والعشيّ. قاله ابن زيد.

عن معرّف بن واصل السعدي، قال: "سمعت أبا وائل يقول لغلامه عند مغيب الشمس: آصَلْنا بعدُ؟.

والثاني: أن الغدو آخر الفجر صلاة الصبح، والآصال آخر العشي صلاة العصر، قاله مجاهد، ونحوه عن قتادة.

وعن أبي صخر في قوله: {بالغدو والآصال}، {والآصال}، ما بين الظهر والعصر".

=

=

قال ابن كثير: "يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} [ق: ٣٩] وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية وقال هاهنا بالغدو - وهو أوائل النهار: {وَالآصَالِ} جمع «أصيل»، كما أن: الأيمان جمع «يمين».

وقرئ: «والإيصال»، من: آصل إذا دخل في الأصيل، كأقصر وأعتم وهو مطابق للغدو.

قال بعض العلماء: كان قبل فرض الصلاة ليلة المعراج يصلون صلاتين: آخر النهار، وأوله، وأنه هو المُراد هنا.

وقال بعضهم: خص هذين الوقتين من النهار - أول النهار وآخره- لفضلهما.

قال بعض العلماء: الذِّكْر بالغدو: صلاة الصبح، وبالآصال: صلاة العصر. والله تعالى أعلم، وهذا معنى قوله (بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ)

وقيل: المعنى جميع الأوقات وعبر بالطرفين المشعرين بالليل والنهار.

قال الخازن: وإنما خص هذين الوقتين بالذكر لأن الإنسان يقوم بالغداة من النوم الذي هو أخو الموت فاستحب له أن يستقبل حالة الانتباه من النوم وهو وقت الحياة من موت النوم بالذكر ليكون أول أعماله ذكر الله وأما وقت الآصال وهو آخر النهار فإن الإنسان يريد أن يستقبل النوم الذي هو أخو الموت فيستحب له أن يستقبله بالذكر لأنها حالة تشبه الموت ولعله لا يقوم من تلك النومة فيكون موته على ذكر الله.

وقيل: إن أعمال العبد تصعد أول النهار وآخره فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر ويصعد عمل النهار بعد العصر إلى المغرب فاستحب له الذكر في هذين الوقتين ليكون ابتداء عمله بالذكر واختتامه بالذكر.

=

=

وقيل: لما كانت الصلاة بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر مكروهة استحب للعبد أن يذكر الله في هذين الوقتين ليكون في جميع أوقاته مشتغلًا بما يقربه إلى الله من صلاة أو ذكر.

وقيل: لأنهما وقتا فراغ فيكون الذكر فيهما ألصق بالقلب، وقيل: لأنهما وقتان يتعاقب فيهما الملائكة على ابن آدم، وقيل: ليس المراد التخصيص بل دوام الذكر واتصاله أي اذكر كل وقت.

- وقال القاسمي: فتدل الآية على مزية هذين الوقتين، لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد، وما بينهما الغالب فيه الانقطاع إلى أمر المعاش.

قوله تعالى: {وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} [الأعراف: ٢٠٥]، أي: "ولا تكن من الذين يَغْفُلون عن ذكر الله، ويلهون عنه في سائر أوقاتهم".

قال الطبري: "يقول: ولا تكن من اللاهين إذا قرئ القرآن عن عظاته وعبره، وما فيه من عجائبه، ولكن تدبر ذلك وتفهمه، وأشعره قلبك بذكر الله، وخضوعٍ له، وخوفٍ من قدرة الله عليك، إن أنت غفلت عن ذلك".

قال الزمخشري: أي: "من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه".

عن زيد بن أسلم قال: " {ولا تكن من الغافلين}، قال: مع الغافلين".

وفي قوله تعالى: {وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} [الأعراف: ٢٠٥]، وجهان:

أحدهما: عن الذكر. ذكره الماوردي ، واختاره القرطبي.

والثاني: عن طاعته في كل أوامره ونواهيه، حكاه الماوردي عن الجمهور.

قال السعدي: "{وَلا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ} الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عمن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على من كل الشقاوة والخيبة في الاشتغال به، وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار،

=

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)

{إِنَّ الَّذِينَ عِنْد رَبّك} أَيْ الْمَلَائِكَة {لَا يَسْتَكْبِرُونَ} يَتَكَبَّرُونَ {عَنْ عِبَادَته وَيُسَبِّحُونَهُ} يُنَزِّهُونَهُ عَمَّا لَا يَلِيق بِهِ {وَلَهُ يَسْجُدُونَ} أَيْ يَخُصُّونَهُ بِالخضوع والعبادة فكونوا مثلهم[1].

=

خصوصا طَرَفَيِ النهار، مخلصا خاشعا متضرعا، متذللا ساكنا، وتواطئا عليه قلبه ولسانه، بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه وعدم غفلة، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه".

عن بكير بن الأخنس قال: "ما أتى يوم الجمعة على أحد وهو لا يعلم أنه يوم جمعة إلا كتب من الغافلين".

قال القاسمي: قوله تعالى (وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ) أي: من الذين يغفلون عن ذكر الله، ويلهون عنه، وفيه إشعار بطلب دوام ذكره تعالى، واستحضار عظمته وجلاله وكبريائه، بقدر الطاقة البشرية.

- قال الماوردي: قوله تعالى (وَلاَ تَكُنِ مِّنَ الْغَافِلِينَ) يحتمل وجهين:

أحدهما: عن الذكر.

والثاني: عن طاعته في كل أوامره ونواهيه، قاله الجمهور.

قال ابن القيم: وكل شيء له صدأ، وصدأ القلب الغفلة والهوى، وجلاؤه الذكر والتوبة.

- من المعلوم أنه ﷺ لا يغفل عن ذكر ربه ولكنه يُؤمر ويُنهى ليُشرَّع لأُمته على لسانه. وفي هذه الآية الكريمة نهي للمسلمين عن الغفلة عن ذكر الله (جل وعلا)، فعلينا معاشر المسلمين ألا نغفل عن ذكر الله.

(١) قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ} [الأعراف: ٢٠٦]، أي: "إن الذين عند ربك من الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله، بل ينقادون

=

=

لأوامره".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: لا تستكبر، أيها المستمع المنصت للقرآن، عن عبادة ربك، واذكره إذا قرئ القرآن تضرعًا وخيفة ودون الجهر من القول، فإن الذين عند ربك من ملائكته لا يستكبرون عن التواضع له والتخشع، وذلك هو «العبادة».

قال الزمخشري: قوله: "{إن الذين عند ربك}، هم الملائكة صلوات الله عليهم. ومعنى {عند} دنو الزلفة، والقرب من رحمة الله تعالى وفضله، لتوفرهم على طاعته وابتغاء مرضاته".

قال القرطبي: قوله: "{إن الذين عند ربك}، يعني: الملائكة بإجماع. وقال: {عند ربك} والله تعالى بكل مكان لأنهم قريبون من رحمته، وكل قريب من رحمة الله ﷻ فهو عنده، عن الزجاج. وقال غيره لأنهم في موضع لا ينفذ فيه إلا حكم الله. وقيل: لأنهم رسل الله، كما يقال: عند الخليفة جيش كثير. وقيل: هذا على جهة التشريف لهم، وأنهم بالمكان المكرم، فهو عبارة عن قربهم في الكرامة لا في المسافة".

قلت تأويل الزمخشري والقرطبي للعنديه المراد به نفي علوالله على خلقه فتنبه.

وقد القول في تفسير العندية تحت الآية رقم (٧٦) من سورة البقرة.

قال السعدي: "ثم ذكر تعالى أن له عبادا مستديمين لعبادته، ملازمين لخدمته وهم الملائكة، فلتعلموا أن الله لا يريد أن يتكثر بعبادتكم من قلة، ولا ليتعزز بها من ذلة، وإنما يريد نفع أنفسكم، وأن تربحوا عليه أضعاف أضعاف ما عملتم، فقال: {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ}، {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ} من الملائكة المقربين، وحملة العرش والكروبيين، {لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ} بل يذعنون لها وينقادون لأوامر ربهم".

=

=

قوله تعالى: {وَيُسَبِّحُونَهُ} [الأعراف: ٢٠٦]، أي: "ويسبحونه بالليل والنهار، وينزهونه عما لا يليق به".

قال السعدي: أي: "الليل والنهار لا يفترون".

قال الزجاج: "ينزهونه عن السوء".

قال الطبري: "يقول: ويعظمون ربهم بتواضعهم له وعبادتهم".

قال الزمخشري: أي: "ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره، وهو تعريض بمن سواهم من المكلفين".

عن السدي: "«يسبح»، قال: يصلي".

قال ابن عاشور: ليس المقصود به التنويه بشأن الملائكة لأن التنويه بهم يكون بأفضل من ذلك، وإنما أريد به التعريض بالمشركين وأنهم على النقيض من أحوال الملائكة المقربين، فخليق بهم أن يكونوا بعداء عن منازل الرفعة.

قوله تعالى: {وَلَهُ يَسْجُدُونَ} [الأعراف: ٢٠٦]، أي: "وله وحده -لا شريك له- يسجدون".

قال القرطبي: "قيل: يصلون. وقيل: يذلون، خلاف أهل المعاصي".

قال الطبري: "يقول: ولله يصلون -وهو سجودهم- فصلوا أنتم أيضًا له، وعظموه بالعبادة، كما يفعله من عنده من ملائكته".

قال السعدي:: "{وَلَهُ} وحده لا شريك له {يَسْجُدُونَ}، فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليداوموا على عبادة الملك العلام".

قال ابن كثير: "إنما ذكرهم بهذا ليتشبه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شرع لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله، ﷻ، كما جاء في الحديث: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، يتمون الصفوف الأوَل، ويتَراصُّون في الصف».

(وَيُسَبِّحُونَهُ) أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

=

=

(وَلَهُ يَسْجُدُونَ) قيل: يصلون. وقيل: يَذِلّون، خلاف أهل المعاصي.

- **قال ابن عاشور**: قوله تعالى (وله يسجدون) للدلالة على الاختصاص أي ولا يسجدون لغيره، وهذا أيضًا تعريض بالمشركين الذين يسجدون لغيره، والمضارع يفيد الاستمرار أيضًا.

- **قال ابن كثير**: بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين؛ ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ) وإنما ذكرهم بهذا ليتشبه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شرع لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله، ﷻ، كما جاء في الحديث: "ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، يتمون الصفوف الأوَل، ويتَراصُّون في الصف".

وهذه أول سجدة في القرآن، مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع.

وصف الله الملائكة بأحسن صفات العبودية، فقال تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُون).

وتمام عبوديتهم لله) أنهم لا يعصون الله ما أمرهم.

قال تعالى (لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون).

أنهم يخافون الله ويخشونه.

قال تعالى (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون).

وقال تعالى (وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُون).

قال رسول الله ﷺ (ألا تصُفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربها؟ قالوا: كيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يُتمُّون الصف الأول فالأول، ويتراصُّون في الصف) رواه مسلم.

وقال رسول الله ﷺ في ليلة المعراج (... ثم رُفِع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو

=

=

يدخله كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه آخر ما عليهم) رواه مسلم.

(**تنبيه**): في هذه الآية أول سجدة في القرآن، مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع.

* مباحث في سجود التلاوة.

المبحث الأول في حكمه للتالي، اختلف أهل العلم فيه على ثلاثة أقوال:

القول الأول: إن ذلك واجب مطلقًا، أي: في الصلاة وخارجها: ذهب إليه الحنفية، وأحمد في رواية عنه، اختارها ابن تيمية، وقد استدل هؤلاء بما يلي:

أولا: من الكتاب:

١ - قوله تعالى: {فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ} [الانشقاق: ٢٠، ٢١]. ووجه الدلالة: أن الله ذمهم على ترك السجود، وإنما استحق الذم بترك الواجب.

ونوقش الاستدلال من أوجه:

الوجه الأول: أنه محمول على الصلاة.

الوجه الثاني: أن الآية وردت في ذم الكفار وتركهم السجود استكبارًا، بدليل ما تعقبه من الوعيد الذي لا يستحقه من ترك سجود التلاوة.

وأجيب: بأن هذا خلاف قولكم؛ لأنكم تستحبون السجود في الآية.

وردت الإجابة: بأنا نسجد مبالغة في مخالفة الكفار، وترك الاستكبار، وذلك يسحب، ولهذا يستحب في المرة الثانية والثالثة ولا يجب بالإجماع بيننا.

الوجه الثالث: أن معنى {لَا يَسْجُدُونَ} أي: لا يعتقدون فضله، ولا مشروعيته، ولذلك قال: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ} [الانشقاق: ٢٢].

٢ - قوله تعالى: {فَاسْجُدُوا لِلهِ وَاعْبُدُوا} [النجم: ٦٢] وفي العلق {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} [العلق: ١٩] وهذا أمر، ومطلق الأمر الوجوب. ونوقش من أوجه:

=

=

الوجه الأول: أن المراد بالسجود في هذه الآيات، سجود الصلاة.

الوجه الثاني: أن إيجاب السجود مطلقًا ليس يقتضي وجوبه مقيدًا وهو عند القراءة، أي: عند قراءة آية السجود، ولو كان الأمر كما زعموا لكانت الصلاة تجب عند قراءة الآية التي فيها الأمر بالصلاة، وإذا لم يجب ذلك فليس يجب السجود عند قراءة الآية التي فيها الأمر بالسجود من الأمر بالسجود.

وأجيب: بأن المسلمين قد أجمعوا على أن الأخبار الواردة في السجود عند تلاوة القرآن هي بمعنى الأمر بالسجود مقيدًا بالتلاوة أي: عند التلاوة، وورد الأمر به مطلقا فوجب حمل المطلق على المقيد، وليس الأمر في ذلك بالسجود كالأمر بالصلاة، فإن الصلاة قيد وجوبها بقيود أخر.

وأيضًا: فإن النبي ﷺ قد سجد فيها فبين لنا بذلك معنى الأمر بالسجود الوارد فيها، أي: أنه عند التلاوة فوجب أن يحمل مقتضى الأمر في الوجوب عليه.

الوجه الثالث: على فرض التسليم بأنه أمر بالسجود عند التلاوة، فإنه يتعين حمله على الندب، جمعًا بينه وبين ما ورد عنه ﷺ من ترك السجود أحيانا.

٣ - قوله تعالى: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [السجدة: ١٥]. فهذا الكلام يقتضي أنه لا يؤمن بآياته إلا من إذا ذكر بها خر ساجدا وسبح بحمد ربه، وهو لا يستكبر.

ونوقش: بأن المراد به التزام السجود واعتقاده، فإن فعله ليس بشرط في الإيمان إجماعًا، ولذا قرنه بالتسبيح، وهو قوله: {خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا} [السجدة: ١٥] وليس التسبيح بواجب.

ولأن ظاهر الآية يقتضي أن جميع الآيات يجب أن يسجد لها إذا ذكرها، وهذا لا يقول به أحد، فسقط ظاهرها وعلم أن المراد بها ما ذكرنا.

٤ - أن أي السجدة تفيد الوجوب أيضًا، لأنها ثلاثة أقسام: قسم فيه الأمر الصريح

=

=

به، وقسم تضمن حكاية استنكاف الكفرة حيث أمروا به، وقسم فيه حكاية فعل الأنبياء السجود. وكل من الامتثال، والاقتداء، ومخالفة الكفرة واجب.

ويمكن أن يناقش: بأنه لا يصح من الحنفية؛ لأنهم لا يقولون بالسجود في مواضع الأمر، وأما الاقتداء فلا يجب فيما فعلوه على وجه الاستحباب، أما ما ورد في شأن ذم الكفار لتركهم السجود، فلعدم اعتقادهم فضله ولا مشروعيته، ولتركهم له استنكافًا، واستكبارًا.

ثانيًا من السنة:

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويله، وفي رواية: يا ويلتي، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار». والاستدلال به من وجهين:

الوجه الأول: أنه قال: «أمر ابن آدم» والأمر للوجوب.

الوجه الثاني: أنه قربة، فالسجدة التي أمر بها تلك كانت واجبة؛ فكذا هذه.

ونوقش من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: بأن هذا حكاية قول إبليس ، وهو ليس إلا قوله: ... {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: ١٢].

وأجيب: بأن النبي ﷺ أخبر بذلك ولم ينكره.

الوجه الثاني: أنه إخبار عن السجود الواجب.

الوجه الثالث: أنه لو سلم بأنه أمر، فقد ورد ما يصرفه عن الوجوب، وهو ما يأتي في أدلة القول الثالث.

ثالثًا: من أقوال الصحابة:

١ - ما صح عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إنما السجدة على من استمعها».

٢ - ما روي عن ابن عباس؛ أنه قال: «إنما السجدة على من جلس لها».

=

=

٣ - وعن ابن عمر؛ أنه قال: «إنما السجدة على من سمعها».

قالوا: و «على» كلمة إيجاب؛ فدل على وجوب السجود.

ونوقش: الاستدلال من أوجه:

الوجه الأول: أنها ليست بصريحة في الإيجاب، إذ يمكن حملها على أن السجود المستحب إنما هو في حق المستمع.

الوجه الثاني: أنها لو صحت وكانت صريحة في الوجوب لكانت معارضة بما هو أقوى منها، وهو ما ثبت عن النبي ﷺ من ترك السجود أحيانًا ، ومثله ما ثبت من إقرار الصحابة لقول عمر في الخطبة (إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء).

رابعًا: من المعقول:

١ - ولأنها لو لم تكن واجبة لما جاز أداؤها في الصلاة؛ لأن أداءها زيادة سجدة، وهي تطوع توجب الفساد.

ونوقش: بأنها لو كانت واجبة لوجب إذا تلاها في الصلاة فلم يسجد حتى خرج من الصلاة أنه يقضيها.

وأجيب عنه: بأنها وجبت بسبب التلاوة في الصلاة؛ فأصبحت لها مزية الصلاة، فكان وجوبها كاملًا وأداؤها خارج الصلاة ناقص فلا يتأدى الكامل بالناقص.

ويمكن أن ترد الإجابة: بأن الحكم بنقصانها خارج الصلاة، يحتاج إلى دليل ولا دليل.

٢ - ولأنه سجود يفعل في الصلاة، فكان واجبًا كسجود الصلاة.

ونوقش: بأنه ينتقض بسجود السهو فإنه عندهم غير واجب.

وأجيب: بأن هذا غير صحيح، إذ الصحيح من المذهب وجوبه.

٣ - ولأنه ركن مفرد عن أركان الصلاة الأصلية شرعت قربة خارج الصلاة فوجب أن تكون واجبة، قياسًا على القيام في صلاة الجنازة.

=

=

القول الثاني: إنه واجب في الصلاة، مسنون خارجها: ذهب إليه أحمد في رواية عنه.

ولم أجد مستند أحمد فيما ذهب إليه من هذا التفصيل، ولعله ما ثبت من مواظبة النبي ﷺ من السجود في الصلاة، مع ما نقل عنه من عدم سجوده أحيانًا خارج الصلاة، كما في حديث زيد بن ثابت.

القول الثالث: إنه سنة مطلقًا:

ذهب إليه المالكية ، والشافعية ، وأحمد في رواية عنه، وهي المذهب ، والظاهرية ، والليث بن سعد، والأوزاعي ، وإسحاق، وأبو ثور.

الأدلة: أولًا من السنة:

١ - حديث زيد بن ثابت ﵁؛ قال: قرأت على النبي ﷺ ... {وَالنَّجْمِ} [النجم: ١] فلم يسجد فيها.

فلو كان السجود واجبا لسجد رسول الله وأمر به زيدًا.

ونوقش من أوجه:

الوجه الأول: أن النبي ﷺ لم يسجدها على الفور، ولا يلزم منه أنه ليس فيه سجدة ولا نفي الوجوب.

وأجيب: بأنه لو كان كما ذكروا لم يطلق الراوي نفي السجود.

الوجه الثاني: أنه يحتمل أن زيدًا قرأها بعد الصبح، أو بعد العصر ولا يحل السجود في ذلك الوقت بالاتفاق. وأجيب عنه بجوابين:

الأول: عدم التسليم بوجود الاتفاق على عدم مشروعية السجود، فالخلاف موجود؛ إذ من أهل العلم من يقول بجواز فعل ذوات الأسباب في وقت النهي، ومنهم من يقول: بأن السجود للتلاوة ليس بصلاة فلا نهي فيه.

الجواب الثاني: أنه لو كان السبب ما ذكروه لم يطلق زيد النفي، ويجعله الحجة في

=

=

ترك السجود.

الوجه الثالث: احتمال أن النبي ﷺ لم يكن على طهارة.

ونوقش: بأن الصحيح عدم اشتراط الطهارة لسجود التلاوة.

ولو سلم باشتراطها، وكان سبب الترك عدم الطهارة، لبين ذلك، وقال: لم أسجد لأني على غير وضوء.

الوجه الرابع: أنه لم يسجد؛ لأن زيدًا لم يسجد ، كما قال ابن مسعود لتميم ابن حذلم: أنت إمامنا، فإن سجدت سجدنا.

ويمكن أن يجاب عنه: بأنكم لا تشترطون ذلك لسجود المستمع.

الوجه الخامس: أن السجود في {وَالنَّجْمِ} وحدها منسوخ؛ بخلاف غيرها مما في المفصل كـ «اقرأ» و «الانشقاق».

لما كان الشيطان قد ألقاه حين ظن أنه وافقهم، ترك السجود فيها بالكلية سدًا لهذه الذريعة.

٢ - ما روي أن رجلًا قرأ عند رسول الله ﷺ آية سجدة فسجد، وقرأها آخر فلم يسجد، فقال النبي ﷺ: «كنت إمامنا، فلو سجدت سجدنا».

وفيه دليلان:

الأول: أنه لم يأمره بالسجود وأقره على تركه.

الثاني: قوله: «لو سجدت سجدنا» على سبيل المتابعة والتخيير.

ونوقش: بأنه مرسل، والمرسل من قسم الضعيف، فلا يصلح للاحتجاج.

٣ - قوله ﷺ للأعرابي حين سأله، ماذا فرض عليه من الصلاة؟ «خمس صلوات في اليوم والليلة» قال: هل علي غيرها؟ قال: «لا؛ إلا أن تتطوع».

ووجه الاستدلال: أنه صلاة فيدخل في عموم قوله: «لا؛ إلا أن تتطوع» ولو كانت واجبة لما ترك البيان بعد السؤال. ونوقش من أوجه:

=

=

الوجه الأول: أنه في الفرائض، وهو عندنا واجب غير فرض.

ويمكن أن يجاب عنه: بأن هذا اصطلاح لهم حادث، وما كان الصحابة يفرقون بينهما.

الوجه الثاني: أنه فيما وجب ابتداء، لا فيما يوجبه العبد على نفسه.

ودليله: أنه لم يذكر المنذور مع وجوبه.

٤ - ما روي عنه ﷺ أنه لم يسجد في المفصل ، وبما روي عنه أنه سجد فيها.

فوجه الجمع بين ذلك يقتضي أن لا يكون السجود واجبًا، وذلك بأن يكون كل واحد حدث بما رأى، من قال: إنه سجد، ومن قال: إنه لم يسجد.

ثانيًا: ما أثر عن الصحابة:

ما ثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ سورة النحل على المنبر يوم الجمعة، حتى إذا جاء السجدة نزل، فسجد وسجد الناس، حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها، حتى إذا جاءت السجدة؛ قال: يا أيها الناس: إنَّما نمر بالسجود فمن سجد فقد أصاب، ومن لم يسجد فلا إثم عليه. وفي رواية: إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء.

وهذا الفعل من عمر في هذا الموطن والمجمع العظيم دليل ظاهر في إجماعهم على أنه ليس بواجب. ونوقش من أوجه:

الوجه الأول: أنه منقطع ، فلا يصلح للاحتجاج.

ونوقش: بأن هذا وهم، فالصحيح أن الخبر متصل.

الوجه الثاني: التسليم بموجبه أنه لم تكتب علينا، بل أوجبت وفرق بين الفرض والواجب.

وأجيب: بأن هذا اصطلاح لهم حادث، ولم يكن الصحابة يفرقون بينهما.

ثم يرده قول عمر: (ومن لم يسجد فلا إثم عليه).

=

=

الوجه الثالث: أنه مؤول بأنه لم يجب علينا التعجيل بسجدة التلاوة، فأراد أن يبين للقوم التأخير عن حالة الوجوب. وأجيب عنه: بأن هذا يرده قوله (ومن لم يسجد فلا إثم عليه).

الوجه الرابع: أن قوله (إلا أن نشاء) لا يخلو أن يريد به نشاء وجوبها فلا يجوز ذلك؛ لأن الواجب يتعلق بإيجاب الشرع، لا بمشيئتنا فثبت أنه أراد إلا أن نشاء قراءتها.

وأجيب عنه: بأن فيه بعدًا ويرده تصريح عمر بقوله: (ومن لم يسجد فلا إثم عليه) فإن انتفاء الإثم عمن ترك الفعل مختارًا يدل على عدم وجوبه.

الوجه الخامس: أنه قد يكون المراد منه أن الله لم يكتب علينا السجود في هذه الحال، وهو إذا قرأها الإمام على المنبر، يبين ذلك أن السجود في هذه الحال ليس كالسجود المطلق؛ لأنه يقطع فيه الإمام الخطبة، ويعمل عملًا كثيرًا، والسنة في الخطبة الموالاة، فلما تعارض هذا، وهذا صار السجود غير واجب، لأن القارئ يشتغل بعبادة أفضل منه، وهو خطبة الناس، وإن سجد جاز.. فإذا كان كذلك لم يبق فيه حجة، ولو كان مرفوعًا.

الوجه السادس: أنه لو كان صريحًا، لكان قوله، وإقرار من حضر وليسوا كل المسلمين.

الوجه السابع: أنه معارض بمثله من أقوال الصحابة في وجوبه، كما ثبت عن عثمان، وابن عباس، وابن عمر.

ثالثًا: من المعقول:

١ - أن الأصل عدم الوجوب حتى يثبت دليل صحيح صريح في الأمر به، ولا معارض له، ولا قدرة لهم على هذا.

٢ - ولأن ما شرع لأجل التلاوة لم يكن واجبًا، أصله التأمين، والتعوذ وسؤال

=

=

الرحمة.

٣ - وقياسًا على سجود الشكر.

٤ - ولأنه يجوز فعله على الراحلة بالاتفاق في السفر، فلو كان واجبًا لم يجز كسجود صلاة الفرض.

ونوقش: بأن أداءها كما وجبت، فإن تلاوتها على الدابة مشروعة فكان كالشروع على الدابة في التطوع. وأجيب عن المناقشة: بأنها لو كانت واجبة لم يجز فعلها ولو وجد سببها على الراحلة، ألا ترى أنه لو دخل عليه وقت الصلاة، وهو على الراحلة لم يجز له فعلها، وإن كان الوقت سبب الوجوب.

٥ - ولأنها صلاة غير واجبة، فوجب أن لا يكون السجود لها واجبًا، أصله إذا أعاد تلك الآية.

٦ - ولأنه لما لم يجب عند العودة إلى التلاوة لم يجب عند ابتداء التلاوة كالطهارة.

٧ - أنها لو كانت واجبة لما أديت في سجود الصلاة وركوعها.

ونوقش: بأن أداءها في ضمن شيء لا ينافي وجوبها في نفسها كالسعي إلى الجمعة يتأدى بالسعي إلى التجارة.

٨ - أنها لو كانت واجبة لما تداخلت. ونوقش: بأنه إنما جاز التداخل، لأن المقصود منها إظهار الخضوع والخشوع، وذلك يحصل بمرة واحدة.

٩ - أنها لو كانت واجبة بطلت الصلاة بتركها كالصلاتية.

ونوقش: بالفرق؛ لأن الصلاتية جزء الصلاة، بخلاف السجدة فليس بجزء الصلاة.

١٠ - ولأن كل سجود لا تبطل الصلاة بتركه فهو مسنون كسجود السهو.

والراجح القول الثالث، من عدم وجوب السجود؛ لقوة ما بني عليه من استدلال،

=

=

وسلامة أدلته من المناقشة المضعفة للاستدلال، في مقابل ضعف ما أورده الموجبون للسجود من أوجه للاستدلال.

المبحث الثاني: في حكمه للمستمع والسامع

المسألة الأولى: في حكمه للمستمع: اختلف أهل العلم في حكم سجود التلاوة للمستمع على قولين:

القول الأول: إنه واجب:

ذهب إليه الحنفية وأحمد في رواية عنه اختارها ابن تيمية.

وقد استدل هؤلاء بما استدلوا به في المبحث السابق في وجوبه على التالي ومن أهمها ما يلي:

١ - قوله تعالى: {فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ} [الانشقاق: ٢٠، ٢١].

ووجهه: أن الله ذمهم على ترك السجود، وإنما يذم بترك الواجب.

٢ - قوله تعالى: {فَاسْجُدُوا لِلهِ وَاعْبُدُوا} [النجم: ٦٢]، وقوله: {وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} [العلق: ١٩] وهذا أمر، ومطلق الأمر للوجوب.

٣ - قوله تعالى: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [السجدة: ١٥].

وهذا من أبلغ الأمر والتخصيص؛ فإنه نفي الإيمان عمن ذكر بآيات ربه ولم يسجد إذا ذكر بها.

٤ - ما ورد عن عثمان، وابن عباس وابن عمر؛ أنهم قالوا: السجدة على من استمعها، على من جلس لها، على من سمعها. اختلفت ألفاظهم بهذه، و"على" كلمة إيجاب.

٥ - لأنها لو لم تكن واجبة لما جاز أداؤها في الصلاة؛ لأن أداءها زيادة سجدة،

=

=

وهي تطوع، توجب الفساد. وقد نوقش الاستدلال بهذه الأدلة بما نوقشت به هناك، فارجع إليه.

القول الثاني: إنه سنة:

ذهب إليه المالكية ، والشافعية ، وأحمد في رواية عنه، وهي المذهب وابن حزم.

الأدلة:

وقد احتج هؤلاء لعدم وجوب السجود على المستمع، بما احتجوا به على عدم وجوبه على التالي؛ ومنه:

١ - حديث زيد بن ثابت؛ قال: «قرأت على النبي ﷺ {وَالنَّجْمِ} فلم يسجدها فيها».

فلو كان السجود واجبًا لسجد، وأمر زيدًا به.

٢ - حديث الأعرابي، وقوله للنبي ﷺ: هل علي غيرها؟ قال: «لا؛ إلا أن تتطوع».

٣ - ما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قرأ السجدة على المنبر فسجد وسجد الناس معه، حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها، حتى جاءت السجدة قال: (أيها الناس، إنما نمر بالسجود، فمن سجد فقد أصاب، ومن لم يسجد فلا إثم عليه).

وفي رواية: إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء.

وهذا منه بهذا المحضر العظيم دليل ظاهر في إجماعهم على أنه ليس بواجب.

٤ - لأن الأصل عدم الوجوب حتى يثبت دليل صحيح صريح في الأمر به، ولا معارض له، ولا قدرة لهم على هذا.

أما الدليل على سنيته فمنه ما يلي:

١ - حديث عبد الله بن مسعود؛ قال: قرأ ﷺ: {وَالنَّجْمِ} بمكة، فسجد بها، فما بقي أحد من القوم إلا سجد، فأخذ رجل من قريش كفًا من حصى أو تراب ورفعه

=

=

إلى جبهته، وقال يكفيني هذا، فلقد رأيته بعد قتل كافرًا.

٢ - حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ يقرأ علينا السورة فيها السجدة فيسجد ونسجد معه حتى ما يجد أحدنا موضعًا لجبهته.

وقد نوقش: الاستدلال بهذه الأدلة بما نوقش به هناك فليرجع إليه.

والراجح أنه سنة وليس بواجب؛ لقوة أدلة هذا القول، وتظافرها في الدلالة، على عدم الوجوب وسلامتها مما أورد عليها من المناقشة.

المسألة الثانية: في حكمه للسامع:

وقد اختلف في حكمه على الأقوال التالية:

القول الأول: أنه واجب. ذهب إليه الحنفية ، واحتجوا بما يلي:

١ - ما سبق في الاستدلال لوجوبها على المستمع، وقالوا: إن الأدلة مطلقة غير مقيدة بالقصد.

أي: أنه سامع للسجدة فكان عليه السجود كالمستمع.

ونوقش: بالفاروق؛ لأن السامع لا يشارك التالي في الأجر بخلاف المستمع.

ويمكن أن يجاب: بأن هذا ليس بفارق؛ لأن سببه الخضوع، وليس أجر الاستماع.

٢ - ولما روي عن ابن عمر: السجدة على من سمعها.

ونوقش: بأنه يحتمل من سمعها عن قصد، فيحمل عليه جمعًا بينه وبين قول عثمان، وعمران، وابن مسعود.

القول الثاني: أنه سنة: ذهب إليه الشافعية ، والحنابلة في وجه ، وحكاه ابن قدامة عن ابن عمر، والنخعي، وسعيد بن جبير، ونافع، وإسحاق. وقد احتج هؤلاء:

١ - بأنه سامع للسجدة؛ فكان عليه السجود كالمستمع.

وقد مضى الاستدلال لسنيته في حق المستمع.

القول الثالث: أنه يستحب، ولا يتأكد في حقه تأكده في حق المستمع:

=

=

ذهب إليه الشافعية في وجه.

واستدلوا بما استدل به القائلون بالسنية.

القول الرابع: أنه غير مشروع:

ذهب إليه المالكية ، والشافعية في وجه ، والحنابلة في المذهب. واحتج هؤلاء بما يلي:

١ - ما روي عن عثمان رضي الله عنه، أنه مر بقاص فقرأ القاص سجدة ليسجد عثمان معه، فلم يسجد، وقال: إنما السجدة على من استمع.

٢ - وبما روي عن ابن عباس: إنما السجدة على من جلس لها.

٣ - ما روي عن مطرف؛ قال: سألت عمران بن حصين عن رجل لا يدري أسمع السجدة أم لا؟ فقال: وسمعها فماذا؟.

٤ - وروى أبو عبد الرحمن السلمي، قال: دخل سلمان الفارسي المسجد وفيهم قوم يقرءون فقرأوا السجدة، فقال له صاحبه: يا ابن عبد الرحمن لو أتينا هؤلاء القوم؟ فقال: ما لهذا غدونا.

ونوقش: بأنها معارضة بما ثبت عن ابن عمر، وليس قول أحدهم بأولى من الآخر.

٥ - ولأن غير القاصد لم يشارك التالي في الأجر فلم يشاركه في السجود كغيره.

ويمكن أن يناقش: بأن مبني السجود، سماع ما فيه السجود، فيسجد خضوعًا لله، وليس سببه تحصيله أجر التلاوة.

المطلب الثاني: في الشروط الواجب تحصيلها لكي يشرع للمستمع و السامع السجود

الشرط الأول: صلاحية التالي لإمامة المستمع والسامع:

اختلف أهل العلم في اشتراط صلاحية التالي لإمامة المستمع والسامع لكي يشرع له السجود على قولين:

=

=

القول الأول: إنه يشترط: ذهب إليه مالك في المشهور عنه ، والحنابلة في المذهب ، والشافعية في مقابل الأصح ، وإسحاق، وقتادة والنخعي.

واستدلوا بما يلي:

١ - ما روي أن رسول الله ﷺ أتى إلى نفر من أصحابه، فقرأ رجل منهم سجدة ثم نظر إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله: «كنت إمامنا فلو سجدت سجدنا» أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٣٢٤) مرسلا، وموصلا، وضعف الموصول منه وأخرجه ابن شيبة (٢/ ١٩) قال الحافظ ورجاله ثقات إلا أنه مرسل (فتح الباري (٢/ ٥٥٦).

ووجه الدلالة: تعليله بترك السجود بترك التالي له، وجعله في حكم الإمام.

ويمكن أن يناقش: بأنه مرسل فلا يصلح للاحتجاج.

١ - ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه قال لتميم بن حذلم وهو غلام، وقد قرأ عليه سجدة: اسجد فأنت إمامنا فيها.

ويمكن مناقشته: بأنه يدل على أنه يسجد بسجوده، لكن لا دلالة فيه على اشتراط صلاحيته للإمامة كما في الصلاة.

٢ - ولأن فيها معنى الإئتمام، والقارئ لا يصلح إمامًا للمستمع فلا يسجد معه.

القول الثاني: إنه لا يشترط: ذهب إليه الحنفية ، ومالك في رواية عنه ، والشافعية في الأصح ، والحنابلة في قول ، وهو قول ابن حزم.

واحتجوا: بأن السبب سماع تلاوة صحيحة، وقد وجدت فوجب عليه السجود.

ويؤيده قول عمر رضي الله عنه بمحضر الصحابة (إنما نمر بالسجود فمن سجد فقد أصاب، ومن لم يسجد فلا إثم عليه).

الشرط الثاني: سجود التالي لكي يسجد المستمع والسامع: وقد اختلف أهل العلم في اشتراط ذلك على قولين:

=

=

القول الأول: إنه لا يشترط: ذهب إليه الحنفية ، ومالك ، والشافعية في الصحيح من المذهب.

واستدلوا بما يلي:

١ - أن سجود التلاوة يلزم القارئ والمستمع، فإذا ترك القارئ ما ندب إليه فعلى المستمع أن يأتي به.

٢ - ولأن الاستماع موجود وهو سبب السجود.

القول الثاني: إنه يشترط: ذهب إليه الحنابلة في المذهب ، والشافعية في مقابل الأصح ، ومطرف وابن الماجشون من المالكية. واحتجوا بما يلي:

١ - الحديث السابق؛ وهو قوله ﷺ: «إنك كنت إمامنا، ولو سجدت سجدنا».

ونوقش: بأنه مرسل فلا يصلح للاحتجاج.

٢ - ومثله قول ابن مسعود لتميم بن حذلم: «اسجد فأنت إمامنا فيها».

ويمكن أن يناقش: بأنه يسجد بسجوده، لكن لا دلالة فيه على امتناع السجود إذا لم يسجد التالي.

٣ - ولأنه تابع له، فإن الاستماع إنما يحصل بالقراءة ولا يسجد بدون سجوده كما لو كانا في الصلاة.

ويمكن أن يناقش: بأنه لو كان كذلك لما جاز له رفع رأسه قبل التالي، ولا تقولون بذلك.

الشرط الثالث: أن يكون جلوسه ليتعلم القرآن أو أحكامه: فلا يسجد الجالس لابتغاء الثواب.

ذهب إليه أكثر المالكية.

واحتجوا: بالقياس على السامع فكما أن السامع لا يسجد، لعدم إصغائه، فكذلك هذا.

=

=

والقول الثاني: إنه لا فرق. وأن العبرة بالاستماع، فمتى وجد شرع السجود: ذهب إليه بعض المالكية ، و لعله قول بقية المذاهب حيث أطلقوا القول بمشروعيته في حق المستمع دون فرق.

الشرط الرابع: أن لا يكون القارئ جلس ليسمع الناس حسن قراءته: ذهب إليه المالكية.

ولم أجد لغيرهم تعرضًا لهذا الشرط، ولعله يرجع إلى الحكم بفسقه فيعود الحكم إلى الشرط الأول، وهو الخلاف في اشتراط صلاحية التالي للإمامة.

وقد أورد عليه بعض المالكية: أن غاية ما فيه فسقه بالرياء، والمعمد عندهم صحة إمامة الفاسق.

وأجاب بعضهم: بأن القراءة هنا كالصلاة فالمرائي في قراءته كمن تعلق فسقه بالصلاة، والفاسق الذي اعتمدوا صحة إمامته: من كان فسقه غير متعلق بالصلاة.

الفصل الثاني في عدد سجدات التلاوة وفيه مبحثان:

المبحث الأول: ما اتفق على السجود فيه.

اتفق أهل العلم على أنه ليس في القرآن أكثر من خمس عشرة سجدة، واتفقوا على مشروعية السجود في عشر منها، وهي في السور التالية.

الأعراف، الرعد، النحل، الإسراء، مريم، الأولى في الحج، الفرقان، النمل السجدة فصلت.

ففي الأعراف في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ} [الأعراف: ٢٠٦].

وفي الرعد في قوله: {وَلِلهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [الرعد: ١٥].

وفي النحل في قوله: {وَلِلهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ

=

=
وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [النحل: ٤٩، ٥٠].
وفي الإسراء في قوله: {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].
وفي مريم في قوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [مريم: ٥٨].
والأولى في (الحج) في قوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [الحج: ١٨].
وفي الفرقان في قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا} [الفرقان: ٦٠].
وفي النمل في قوله تعالى: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [النمل: ٢٥، ٢٦].
وفي سورة (الم السجدة) في قوله: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [السجدة: ١٥].
وفي فصلت في قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ} [فصلت:
=

=

٣٧، ٣٨].

المبحث الثاني

ما اختلف في السجود فيه

اختلف أهل العلم في السجود في (ثانية الحج) وفي (ص) وفي السجود في المفصل، أي: في (النجم) وفي (الانشقاق) وفي (العلق) ؛ وإليك تفصيل أقوالهم في ذلك:

أولًا: السجدة الثانية في الحج:

القول الأول: أنها في مواضع السجود:

ذهب إليه مالك في رواية عنه ، والشافعية ، وأحمد في رواية عنه وهي المذهب ، وهو قول إسحاق، وأبي ثور، وابن المنذر وداود.

الأدلة:

١ - حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «أقرأني رسول الله ﷺ خمس عشرة سجدة؛ منها: ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان» ، ووجه الدلالة: واضح.

ونوقش: من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: ضعف الحديث؛ لأن في سنده جهالة.

الوجه الثاني: على فرض التسليم بصحة الحديث؛ فالمراد بإحدى السجدتين سجدة التلاوة، وبالأخرى سجدة الصلاة.

يدل عليه: أنه قرنها بالركوع؛ فقال: «.. اركعوا واسجدوا» والسجدة المقرونة بالركوع سجدة الصلاة.

وأجيب: بأن ذكر الركوع لا يقتضي ترك السجود كما ذكر البكاء في قوله: {خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [مريم: ٥٨].

الوجه الثالث: أنه محمول على النسخ لإجماع قُرّاء المدينة وفقهائها على ترك

=

=

ذلك مع تكرار القراءة ليلًا ونهارًا.

٢ - حديث عقبة بن عامر؛ قال: قلت لرسول الله ﷺ: في سورة الحج سجدتان؟ قال: «نعم، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما».

ونوقش: بمثل ما نوقش به سابقه.

٣ - أنه روي عن جمع من فقهاء الصحابة ولم يعلم لهم مخالف؛ ومن ذلك:

أ- ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه قرأ سورة الحج فسجد فيها سجدتين، ثم قال: إن هذه السورة فضلت بسجدتين.

ونوقش من وجهين:

الوجه الأول: ضعف الأثر؛ لأن راويه رجل من أهل مصر، ولو كان معروفًا مشهورًا، من فعل عمر لعرفه من كان مع عمر بالمدينة، ومن أتى بها من الآفاق، ولكان هذا مشهورًا معروفًا من فعله.

الوجه الثاني: أنه لو صح عن عمر فلا حجة فيه، وإنما الحجة فيما صح عن رسول الله ﷺ.

الوجه الثالث: أن الآثار لا يحتج بها الخصم على قاعدته.

وأجيب: بأن هذا غير لازم لمن يحتج بها كالحنابلة.

ب- ما روي عن علي وأبي موسى وأبي الدرداء، وابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهم؛ أنهم سجدوا في الحج سجدتين.

قال ابن قدامة: ولم يعرف لهم مخالف في عصرهم فكان إجماعًا.

قال أبو إسحاق السبيعي: أدركت الناس منذ سبعين سنة يسجدون في الحج سجدتين.

من المعقول:

٤ - ولأن السجدة الثانية أوكد من الأولى، لورودها بلفظ الأمر، وورود الأولى

=

=

بلفظ الإخبار، فكان السجود لها أولى.

القول الثاني: أنها ليست من مواضع السجود:

ذهب إليه الحنفية ، ومالك في رواية عنه، وهي المذهب ، وأحمد في رواية عنه ، وابن حزم.

وهو قول الحسن، وسعيد بن جبير، وجابر بن زيد.

الأدلة:

١ - لأن الله جمع بينها وبين الركوع؛ فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا} [الحج: ٧٧] فلم تكن سجدة كقوله تعالى: {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [آل عمران: ٤٣].

ونوقش: بأن ذكر الركوع لا يقتضي ترك السجود كما ذكر البكاء في قوله: {خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [مريم: ٥٨] وقوله: {وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: ١٠٩].

٢ - أن سجود العزائم في القرآن إنما ورد بلفظ الإخبار، أو على سبيل الذم، والسجدة الثانية في الحج وردت بلفظ الأمر فخالفت سجود العزائم.

ونوقش: بأن هذا لا يصح؛ لأن قوله تعالى: {فَاسْجُدُوا لِلهِ وَاعْبُدُوا} [النجم: ٦٢] أمر وكل ذلك سجود العزائم، وقد ورد لفظ الإخبار فيما ليس بعزيمة وهو قوله تعالى: {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} [الحجر: ٣٠] فعلم فساده.

٣ - ولأن إثبات السجود طريقه الشرع، والأصل براءة الذمة، ولم يثبت من طريق صحيح فمن ادعى ذلك فعليه بيانه.

ويمكن أن يناقش: بأن البيان قد حصل بما أوردناه من أدلة، وهي كافية في إثبات مثل هذا.

الترجيح:

=

=

ولعل الراجح هو القول الأول لقوة أدلته، ومنها حديث عمرو، وتأييده بما صح عن عمر، وما نقل عن الجمع من فقهاء الصحابة.

ثانيًا: السجود في (ص):

وقد اختلف أهل العلم في السجود فيها على قولين:

القول الأول: أنها ليست من سجدات التلاوة، وإنما هي سجدة شكر:

ذهب إليه الشافعية في الصحيح من المذهب ، وأحمد في رواية عنه وهي المذهب ، وهو قول علقمة.

الأدلة:

١ - حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر (ص) فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تشزن ، الناس للسجود، فقال رسول الله ﷺ: «إنما هي توبة نبي، ولكني رأيتكم قد تشزنتم للسجود. فنزل فسجد وسجدوا».

ووجه الدلالة: أنه صرح بأنها ليست موضع لسجود التلاوة، وإنما هي توبة نبي، وعلل للسجود بأنهم استعدوا له، فلم يكن ليصرفهم.

ونوقش: بأن سجوده في الجمعة الأولى، وتركه الخطبة لأجلها يدل على أنها سجدة تلاوة.

وأما تركه في الجمعة الثانية حين القراءة فلا يدل على أنها ليست بسجدة تلاوة، بل كان يريد التأخير وهو لا يجب على الفور، على أنه سجدها أيضًا وأسجد الناس معه لما تشزنوا.

٢ - حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ سجد في (ص) وقال: «سجدها داود توبة، ونحن نسجدها شكرًا».

=

=

ونوقش: بأن هذا حجة لنا؛ لأنا نقول: سجدها داود توبة، ونحن نسجدها شكرًا لما أنعم الله على داود بالغفران والوعد بالزلفى، وحسن مآب ولهذا لا يسجد عندنا عقيب قوله: {أَنَابَ} بل عقيب قوله: {مَآبٍ} وهذه نعمة عظيمة في حقنا، فكانت سجدة تلاوة؛ لأن سجدة التلاوة ما كان سبب وجوبها إلا التلاوة.

وقال البابرتي: وهذا لا ينفي كونها سجدة تلاوة، إذ ما من عبادة يأتي بها العبد إلا وفيها معنى الشكر.

٣ - ما روي عن ابن عباس ﵄، قال: (ص) ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها.

وهو مناقش: بأن الحجة فيما رواه عن النبي ﷺ من فعله لا فيما رآه هو.

القول الثاني: أنها من مواضع السجود:

ذهب إليه الحنفية ، والمالكية ، والشافعية في مقابل الأصح ، وأحمد في رواية عنه ، وابن حزم ، وهو قول الحسن، وإسحاق، والثوري.

الأدلة:

١ - حديث أبي سعيد الخدري ﵁ أن النبي ﷺ قرأ (ص) وهو على المنبر، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تشزن الناس للسجود فقال رسول الله ﷺ: «إنما هي توبة نبي، ولكني رأيتكم قد تشزنتم للسجود فنزل فسجد، وسجدوا».

والاستدلال به من وجهين:

الوجه الأول: أن سجوده في الجمعة الأولى وترك الخطبة لأجلها يدل على أنها سجدة تلاوة.

الوجه الثاني: أن سببها التلاوة فكان سجدة تلاوة.

٢ - حديث أبي هريرة: أن النبي ﷺ سجد في (ص).

=

=

ونوقش: بأن سجوده سجود شكر كما بينه حديث ابن عباس.

٣ - حديث ابن عباس؛ أن النبي ﷺ سجد في (ص) وقال: «سجدها داود توبة ونحن نسجدها شكرًا».

ووجه الدلالة: ظاهر:

ونوقش: بأن هذا حجة لا؛ لأنا نقول: سجدها داود توبة، ونحن نسجدها شكرًا لما أنعم الله على داود بالغفران والوعد بالزلفى، وحسن مآب.

٤ - حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال: رأيت رؤيا وأنا أكتب (ص) فلما بلغت "السجدة" رأيت الدواة والقلم، وكل شيء يحضرني انقلب ساجدًا، قال: فقصصتها على رسول الله ﷺ فلم يزل يسجدها.

٥ - ما أخرجه البخاري عن مجاهد أنه سئل عن سجدة (ص) فقال: سألت ابن عباس، من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ {وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ} [الأنعام: ٨٤]. {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ} [الأنعام: ٩٠].

فكان داود ممن أُمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به فسجدها رسول الله.

٦ - روي عن عمر وعثمان؛ أنهما كانا يسجدان فيها.

٧ - أن النظر يدل عليه، وذلك أن موضع السجود من الآية، موضع خبر، لا أمر، فالنظر فيه أن يرد حكمه إلى أشكاله من الأخبار، فيكون فيه سجدة كما يكون فيها.

وتظهر فائدة الخلاف في مسألتين:

المسألة الأولى: إذا قرأها في الصلاة فسجد فما حكم صلاته عند القائلين بأنها ليست من مواضع السجود:

اختلفوا في ذلك على قولين:

القول الأول: أنها تبطل صلاته:

=

=

ذهب إليه الشافعية في أصح الوجهين ، والمالكية ، والحنابلة في الأصح.
احتج الشافعية والحنابلة: بأنها سجدة شكر فبطلت بها الصلاة كالسجود عند تجدد نعمة.
واحتج المالكية: بأنه يزيد في صلاته فعلًا مثله يبطل الصلاة.
القول الثاني: أنها لا تبطل:
ذهب إليه الشافعية في مقابل الأصح، وحكاه ابن قدامة احتمالًا في مذهب الحنابلة.
قالوا: لأنها تتعلق بالتلاوة، فهي كسائر سجدات التلاوة.
المسألة الثانية: لو سجد إمامه في "ص" لكونه يعتقدها فهل يتابعه المأموم إذا لم يعتقد مشروعية السجود؟
لهم في هذه ثلاثة أقوال:
القول الأول: أنه لا يتابعه:
ذهب إليه الشافعية في الأصح، بل إن شاء نوى مفارقته؛ لأنه معذور، وإن شاء ينتظره قائمًا، كما لو قام إلى خامسة لا يتابعه، بل إن شاء فارقه، وإن شاء انتظره، فإن انتظره لم يسجد للسهو؛ لأن المأموم لا سجود عليه.
القول الثاني: أنه لا يتابعه أيضًا:
وهو مخير في المفارقة والانتظار، كما سبق، فإن انتظره سجد للسهو بعد سلام الإمام.
ذهب إليه الشافعية في وجه؛ لأنه يعتقد أن إمامه زاد في صلاته جاهلًا وأن لسجود السهو توجهًا عليهما، فإذا أخل به الإمام سجد المأموم.
القول الثالث: أنه يتابعه في سجوده:
ذهب إليه المالكية ، والشافعية في الوجه الثالث.

=

=

لتأكد متابعة الإمام، وتأويله.

ثالثًا: السجود في المفصل:

أي في (النجم) و (الانشقاق) و (العلق).

القول الأول: أنها من عزائم السجود:

ذهب إليه الحنفية ، ومالك في رواية عنه ، والشافعي في الجديد ، والحنابلة ، وابن حزم.

الاستدلال:

١ - حديث أبي رافع؛ قال: صليت مع أبي هريرة العتمة، فقرأ: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} فسجد فقلت: ما هذه؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجدها حتى ألقاه.

٢ - حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سجدنا مع النبي ﷺ في ... {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} [الانشقاق: ١] و {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} [العلق: ١].

٣ - حديث عبد الله بن مسعود؛ قال: قرأ رسول الله ﷺ: (النجم) بمكة، وسجد من معه.. الحديث.

٤ - حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ «أن رسول الله ﷺ سجد بـ (النجم) وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس».

ووجه الدلالة من هذه الأحاديث: ظاهر:

ونوقش من أوجه:

الوجه الأول: أن السجود فيها منسوخ بدليل ما يلي:

١ - حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أن النبي ﷺ لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحوله إلى المدينة».

٢ - ولأن عمل أهل المدينة على ترك السجود في المفصل مما يدل على نسخه.

=

=

وردت المناقشة من وجهين:

الوجه الأول: عدم التسليم بأن عملهم حجة.

الوجه الثاني: لو سلم، فلا عمل أقوى من عمل عمر وعثمان بحضرة الصحابة.

٥ - أنه روي السجود فيه عن عدد من فقهاء الصحابة ومن ذلك:

١ - ما روي عن أبي هريرة؛ قال: سجد أبو بكر وعمر في {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} ومن هو خير منهما.

أ- ما روي عن أبي رافع الصائغ؛ قال: صلى بنا عمر صلاة العشاء الآخرة، فقرأ في إحدى الركعتين الأوليين: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} فسجد وسجدنا معه.

ب- ما روي عن عثمان رضي الله عنه؛ أنه قرأ في صلاة العشاء "النجم" فسجد.

ج- وروى الشعبي عن عبد الله بن مسعود؛ أنه سجد في "النجم" و"اقرأ".

د- وروي عن عمار؛ أنه قرأ {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} وهو يخطب فنزل فسجد.

هـ- وروى نافع أن ابن عمر كان يسجد في: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ} و {اقْرَأْ}.

القول الثاني: أنه لا سجود فيها:

ذهب إليه مالك في الرواية المشهورة عنه، وهي المذهب عند أصحابه ، والشافعي في القديم.

وهو قول: سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن، وعكرمة، ومجاهد، وعطاء، وطاوس.

الاستدلال:

١ - حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه: أنه قرأ على النبي صلى الله عليه وسلم سورة النجم فلم يسجد.

ووجه الدلالة: ظاهر:

ونوقش من أوجه:

الوجه الأول: أنه لا يدل على نفي السجود وإنما يدل على جواز الترك.

=

=

الوجه الثاني: أنه يحتمل أنه تركه؛ لأن زيدًا وهو القارئ لم يسجد فلو سجد لسجد النبي ﷺ.

الوجه الثالث: أنه يحتمل أنه لم يكن على طهارة.

الوجه الرابع: احتمال أنه في وقت لا يجوز فيه السجود.

الوجه الخامس: احتمال أنه أراد التأخير ليبين جوازه.

قالوا: فلما احتمل تركه للسجود كل معنى من هذه المعاني، لم يكن هذا الحديث بمعنى منها أولى من صاحبه إلا بدلالة تدل عليه من غيره.

٢ - حديث أبي الدرداء؛ قال: "سجدت مع النبي ﷺ إحدى عشرة سجدة ليس فيها من المفصل شيء".

ووجه الدلالة: ظاهر.

ونوقش من أوجه:

الوجه الأول: أن الحديث ضعيف؛ لضعف إسناده فلا يصح به الاحتجاج.

الوجه الثاني: أنه معارض بما هو أصح منه وهو حديث أبي هريرة السابق.

الوجه الثالث: أنه لا دلالة فيه، إذ يجوز أن يكون سجود غير المفصل إحدى عشرة سجدة، ولا نزاع بيننا في هذا.

الوجه الرابع: أن ترك السجود في حديث أبي الدرداء دليل على أنه ليس بواجب وسجوده يدل على أنه مسنون، فلا تعارض.

٣ - حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحوله إلى المدينة.

ووجه الدلالة: ظاهر:

ونوقش من أوجه:

الوجه الأول: أن الحديث ضعيف لضعف إسناده.

=

=

الوجه الثاني: أنه يدل على أن السجود ليس بواجب، وما روي عنه من سجوده فيه يدل على أنه مسنون فلا تعارض.

الوجه الثالث: احتمال أن يكون المنفي هو المواظبة على ذلك، لتكرار قراءته في الصلاة، فتركه ﷺ، لئلا تختلط الصلاة على من لا يفقه.

الوجه الرابع: أنه معارض لحديث أبي هريرة، فيقدم عليه حديث أبي هريرة لسببين:

١ - أنه أصح وأقوى صراحة منه في الدلالة.

٢ - أنه مثبت، وحديث ابن عباس ناف والقاعدة تقديم المثبت على النافي؛ لأن معه زيادة علم، لا سيما وأن نفي ابن عباس لشيء لم يحضره، فإنه كان صبيًا في حياة النبي ﷺ لا يدري ما يفعل النبي.

وإسلام أبي هريرة إنما كان والنبي ﷺ بالمدينة سنة سبع من الهجرة.

٤ - أنه روى عن جمع من فقهاء الصحابة يلزم الرجوع إلى قولهم، منهم: زيد بن ثابت ، الذي جمع القرآن، وثانيهم: أبي بن كعب ، وهو الذي قرأه مرتين على رسول الله ﷺ، وثالثهم: عبد الله بن عباس ، وهو الذي قرأ على أبي وأخذ عنه.

ونوقش من أوجه:

الوجه الأول: أنه معارض بما هو أصح منه عن خمسة من الصحابة؛ منهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعمار، وابن عمر، وأبو هريرة.

فكان الأخذ بقولهم أولى؛ لكونهم الأئمة؛ ولأن معهم ابن مسعود الذي شهد العرضة الأخيرة في العام الذي قبض فيه، فشهد ما نسخ وما بدل.

الوجه الثاني: أنها آثار موقوفة على هؤلاء الصحابة، وقد عارضت المرفوع فلا يلتفت إليها.

الترجيح:

=

=

والراجح أنها من عزائم السجود؛ لقوة ما بني عليه هذا القول من أدلة، وضعف ما أورد عليها من المناقشة، في مقابل عدم ثبوت أدلة القول الثاني أمام المناقشة.
انظر رسالة سجود التلاوة وأحكامه.
(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها قوله تعالى: " قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ. قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ "، وقال فى سورة الحجر: " قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) "، فى الآيتين مما يسأل عنه قوله تعالى فى الأولى "ما منعك " وفى الثانية "مالك "، وفى الأولى استفتاح بسؤاله عن امتناعه بقوله "ما منعك " من غير ندائه باسمه وفى الثانية نداؤه "يا إبليس " وفى الأولى قوله "ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك " وفى الثانية "ألا تكون مع الساجدين " وفى الأولى قال "أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين " وفى الثانية: "لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون " وفى الأولى قال: "فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين "، وفى الثانية: "فاخرج منها فإنك رجيم "، فهذه خمس سؤالات.
فأقول: إنه لما تقدم فى الأعراف ذكر خلق الإنسان وتصويره من غير ذكر المادة التى خلق منها قال تعالى: "ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم " والخطاب لبنى آدم ولم يذكر خلق غيرهم من ملك أو جن.
ثم إن الأمر بالسجود ورد للملائكة ولم يرد إشعار بأن إبليس من غيرهم فسبق من ظاهر الكلام أنه منهم ومأمور معهم لاستثنائه منهم فناسب هذا قوله: "وما منعك "، لأنه مأمور بظاهر ما تقدم وناسب ذلك أيضا وعضد ما قلناه قوله "إذ أمرتك "،
=

=

ولما لم يقع ذكر لخلق غير الآدميين ولا ذكرت مادة خلق الإنسان ناسب ذلك ما ذكره سبحانه عن إبليس من قوله: "أن خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين "، فاستوفى ذكر المادتين وبنى على ذلك ما توهم من فضل النار على الطين.
أما آية الحجر فقد تقدم قبلها قوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون " إلى قوله: "فقعوا له ساجدين " فأشارت الآية بظاهرها إلى أن إبليس من الملائكة وقد نطقت الآية أن الملائكة هم المأمورون بالسجود، فبحسب هذا البادى من الظاهر وردت المعية فى قوله: "مالك ألا تكون مع الساجدين " فلما لم يكن فى أصل الخلقة والمادة منهم وكان الأمر بظاهر العبارة لهم وإن كان مرادا أنه معهم فبحسب هذا قيل له: "مالك ألا تكون مع الساجدين "، فقيل "معهم " إذ ليس منهم قال تعالى: "إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه " وبحسب ذلك استؤنف نداؤه فقيل: "يا إبليس مالك " ولم يقل "ما منعك " لأن ذلك لو قيل كا يقتضى أنه منهم ولك يكن ليناسب ما أشار إليه صدر الكلام من أنه ليس منهم فنودى باسمه المشعر بطرده ومغايرته لهم فقيل "يا إبليس " فتناسب أيضا ما ورد فى الحجر من تبيين خلق إبليس من النار وفصله من الملائكة ما أعقب به من محكى قوله: "لم أكن لأسجد لبشر من صلصال من حمإ مسنون "واحتقاره مادة الطين وتفضيله مادة النار عليها فناسب هذا تعقيب أمره بالخروج فى قوله تعالى: "اخرج منها " وقيل فى آية الأعراف: "اهبط منها " وليس التعبير بالإخراج كالتعبير بالهبوط فقد أمر آدم بالهبوط ولم يقصد من تعنيفه ما قصد بإبليس فالفرق ما بين العبارتين فيما تعطيانه قيل فى الأعراف "فاهبط منها " إذ لم يتقدم فيها من أنه ليس من الملائكة كما تقدم فى الحجر بل ظاهر ما فى الأعراف أنه منهم، فجرى الأمر آخرا مناسبا لهذا الظاهر فعبر بالهبوط، ولما تقدم فيه الحجر أنه ليس من الملائكة لخلقه من نار سموم فأشعر ذلك بشر المادة

=

=
ناسبه قوله: "فاخرج منها " وإتباع ذلك بما يلائمه من الوصف ويناسبه من قوله: "فإنك رجيم " ثم بما كتب عليه من الطرد واللعنة ولم يرد فى الأعراف هكذا بل روعى فيه مناسبة ما تقدم، ولئلا يتنافر الكلام ويتنافر المعنى فقيل: "فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين " فإن

قلت: فقد قيل هنا "فاخرج " كما قال فى سورة الحجر: قلت: تدرج به إلى التعنيف وسيق هناك من أول وهلة وجاء كل على ما يجب ويناسب ولم يكن ليناسب ورود العكس فى السورتين والله أعلم بما أراد وقد حصل جواب السؤالات بأسرها والحمد لله.

الآية الثانية من سورة الأعراف قوله تعالى: "قال أنظرنى إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين " وفى سورة الحجر وسورة ص: "قال ربك فأنظرنى إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم " فورد فى آيتى الحجر وص وزيادة الفاء فى قوله "فأنظرنى " وفى قوله "فإنك " وزيادة قوله "رب " ولم يرد ذلك فى الأعراف، فيسأل عنه؟

وجواب ذلك والله أعلم: أن مناسبة ما تقدم كل واحدة من الآى الثلاث من الاسهاب والتأكيد أو الإيجاز ألا ترى أن مجموع الكلم الواقعة من لدن قوله فى سورة الأعراف "ولقد خلقناكم " وهو ابتداء القصة إلى قوله: "قال أنظرنى إلى يوم يبعثون " بضع وأربعون كلمة، والوارد فى الحجر من لدن قوله: "ولقد خلقنا الإنسان " إلى قوله: "قال رب فأنظرنى " بضع وسبعون كلمة وفى سورة ص من لدن قوله "إذ قال ربك " إلى الآية بضع وستون كلمه، فقد وضح ما قصد فى الأعراف من إيجاز الاخبار فى القصة وما فى السورتين بعد من الإطناب ثم إنه ورد فى سورتى الحجر وص التأكيد بكل وأجمع فى قوله: "كلهم أجمعون " ولم يرد ذلك فى الأعراف فقصد ما قلناه وتناسب الإطناب والتأكيد ولاءم ما ورد من
=

=

الزيادة فى السورتين الأخيرتين ولم يكن ليناسب العكس والله أعلم بما أراد.
فإن قلت ما وجه ورود القصة الواحدة موجزة ومطولة أخرى؟
قلت: ليحصل من ذلك الاطلاع على علىّ البلاغة وجلالة النظم وعلى فصاحة فى طرفى الإيجاز والإطناب، فإن الفصيح البليغ من البشر إن رام هذا لم يف فى الطرفين بما يريده ووضح التفاوت فى هذا بوجه.
فإن قلت فما وجه تقديم الموجز على المطول؟ قلت: شبه ذلك بالمجمل من الكلام والمفصل وإنما يريده التفصيل بعد الإجمال فهذا الجواب منزل على الترتيب الثابت، والله سبحانه أعلم بما أراد.
الآية الثالثة: قوله تعالى مخبرا عن قول إبليس: " قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) "، وفى سورة الحجر: " قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠).
إن سأل سائل عن وجه اختلاف الوارد فى السورتين المحكى من قول إبليس مع اتحاد القصة فجوابه: أن المعنى الحاصل من قوله فى السورتين واحد لا إشكال فيه ثم اختلف التعبير عن ذلك بحسب ما تقدم فى كل واحدة من السورتين وماستدعاه من المناسبة ولما تقدم فى الأعراف قوله تعالى: "اتبعوا ما انزل إليكم من ربكم " والإشارة إلى القرآن لأنه يوضح الطريق إليه وهو الصراط المستقيم قال تعالى: "وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه " والاشارة بهذا إلى المنزل قرآنا لأنه مبين للصراط المستقيم الذى طمع اللعين فى الاستيلاء عليه وقطه سالكه فقيل عبارة عن مرامه من ذلك: "لأقعدن لهم صراطك المستقيم " إلى آخر المحكى من كلامه، ومراده: لأستولين لهم عليه لا على ما فهمه بعض المتأخرين
=

=

حين رام الحاق مثل هذا من الذروف المختصة بالمبهمة منها وخالف الناس فى ذلك، ولو كان الأمر على ما قال لكان وصول الفعل الذى هو "لأقعدن " على تقدير حرف الوعاء الذى هو "فى " وكان يفسد المعنى لأن المراد اللعين وطعمه إنما كان فى الاستيلاء على الطريق بدليل حصره الجهات فى قوله: "من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم "، فهذا طلب أخذهم بكل الجهات وطمع فى الاستيلاء وأن يكون له سلطان ولهذا قال ﷻ له: "إن عبادى ليس لك عليهم سلطان " ولو كان على تقدير حرف الوعاء لناقض هذا الغرض ولكان تقديره لأقعدن لهم فى صراطك وهذا ضد ما يقتضيه تقدير على من الاستيلاء وقد بسط هذا فى موضعه وأن الصواب ما عليه جماعة النحويين وما فهموا عليه كلام سيبويه رَحِمَهُ اللَّهُ من أن الطريق مختص لا مبهم وأن المعنى هنا فى الآية على تقدير حرف الاستيلاء لا حرف الوعاء ولما قد كان قد ورد فى الحجر منعه ومنع جنوده عن تعرف خبر السماء واستراق السمع فى قوله ﷻ: "وقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين.

وحفظناها من كل شيطان رجيم.

إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين " فلما صد من هذه الجهة عدل إلى الأخرى

فقال: "لأزينن لهم فى الأرض " أى إن كنت ممنوعا عن إغوائهم من حيث خبر السماء وإبداء المقدرات مما يوجهه الله إلى ملائكته مما يحدث فى علم الأرض وقد سبق فى العلم القديم فإن كتن قد معتنى عن إغوائهم من هذه الجهة رجعت إلى إغوائهم من هذه الجهة رجعت إلى إغوائهم من جهة لم تمنعنى عنها لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا من عصمته منى ولم تجعل لى السبيل إليه وهم عبادك المخلصون، فلأجل اختلاف المتقدم فى كل من السورتين ما اختلف

=

المبنى عليه من المحكى عن إبليس من طمعه وورد كل على ما يناسب ولم يكن ليناسب تعقيب ما ورد فى الأعراف بما أعقب المتقدم فى سورة الأعراف والله سبحانه أعلم بما أراد.

الآية الرابعة من سورة الأعراف: قوله جل وتعالى: " وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) " وفى سورة الأنفال: " وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) " فورد فى الأولى: أن عذابهم بكسبهم وورد فى الأنفال أن عذابهم بكفرهم فللسائل أن بقول ما الفرق الموجب بين للاختلاف؟

والجواب عن ذلك والله أعلم: أن المذكورين قبل آية الأعراف المقول لهم فذوقوا العذاب قد خالفت حالهم حال المذكورين فى آية الأنفال وذلك أن آية الأنفال فى قوم بأعيانهم وهم كفار قريش من أهل مكة وحالهم معلومة إنما كانوا عبدة أوثان ولم تتكرر فيهم الرسل ولا كفروا بغير التكذيب به ﷺ وبتصميمهم على عبادة آلهتهم أما آية الأعراف ففى أخلاط من الأمم وأصناف من المكذبين تنوع كفرهم وتكذيبهم ضروبا من المخالفات وافتروا على الله سبحانه قال تعالى: "فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته... "الآية وفيها: "قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا " ثم قال: "وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون. فلشتى مجترحات هؤلاء واتساع مرتكباتهم وأنهم ضلوا وأضلوا ناسب ما وقع جزاؤهم عليه ذكر الاكتساب لا سيما على القول بأن الكفار مخاطبون بالفروع وهو قول حذاق الأصوليين وقول مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، ولما انحصر مرتكب الأخرين فيما ذكر وكان مدار أمرهم على الكفر بما جاء به نبينا ﷺ ناسب ما وقع

=

جزاؤهم عليه تخصيص ايم الكفر فكل من الاطلاقين جار على ما يجب ويناسب والله سبحانه أعلم.

الآية الخامسة قوله تعالى: "فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون " وفى سورة هود: "ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون " فزيد فى هذه الآية ضمير الفصل ولم يزد فى الأولى فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟

وجوابه والله أعلم: أن ابتداء الإخبار فى الأعراف بحال هؤلاء الملعونين فى الآيتين هو قوله تعالى فى الأولى: "فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين " وابتداء الاخبار عنهم فى سورة هود قوله تعالى: "أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين " ففى هذا اطناب وتأمل وورود الظاهر فى موضع المضمر من قوله "على الظالمين " ولم يقل عليهم، فناسب زيادة ضمير الفصل وفى آية الأعراف إيجاز ناسبه سقوطه ولو لم يكن ما بين "أن " و "ألا " فإن ذلك مراعى فيما قصدناه فـ "أن "أوجز من "ألا " و"أن " هنا حرف عبارة وتفسير وهى كالواردة فى قوله: "ونودوا أن تلكم الجنة " وفى قوله "وانطلق الملأ منهم أن امشوا "، وتقع بعد ما يراد به القول وليس بلفظه وتفسر بـ "أى " وأما "ألا " فاستفتاح وكل من الموضعين على ما يجب ويناسب ولو فرض العكس لما ناسب والله أعلم.

الآية السادسة قوله تعالى: " وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ "، وفى سورة الفرقان: " وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨)

=

=

لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) " وقال فى سورة الروم: " اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) "، وقال فى سورة الملائكة [فاطر]: " وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩).

وقع فى هذه الآى اختلاف مع تشابهها فى اللفظ وتقارب مقاصدها فأول ذلك اختلاف مطالعها بورود يرسل وأرسل، الثانى وصف الرياح وإتباعها بقوله فى الأعراف والفرقان: "نشرا بين يدى رحمته " ولم يرد ذلك فى سواهما الثالث ما يكون عن إرسال الرياح ففى آية الأعراف: "حتى إذا أقلت سحابا "، وفى سورة الروم وسورة الملائكة: "فتثير سحابا " ولم يذكر ذلك فى الفرقان وفى سورة الأعراف بعد ذكر إقلال الرياح السحاب: "سقناه لبلد ميت "، وفى سورة الاملائكة: "فسقناه إلى بلد " وفى سورة الروم بعد إثارة الريح السجاب: "فيبسطه فى السماء "، "ويجعله كسفا "، وفى الأعراف: "فأنزلنا به الماء "، وفى الفرقان: "وأنزلنا من السماء ماء طهورا " " وفى الروم: "فترى الودق يخرج من خلاله " ولم يرد فى الملائكة ذكر لإنزال الماء ولا كيفيته وفى الأعراف: "فأخرجنا به من كل الثمرات "، وفى الفرقان: "لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا " وفى الروم: "فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون " وفى سورة الملائكة "كذلك النشور " ولم يقع فى الأخيرتين إحالة التشبيه، وفى الأعراف "لعلكم تذكرون " ولم يقع فى سورة الأعراف مثل هذا الترجى فهذه جملة سؤالات.

والجواب عن السؤال الأول: " أن آية الأعراف لما تقدمها قوله تعالى: "إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش " فذكر

=

=

سبحانه ما تقرر وتحصل من خلق السماوات والأرض مما لا تكرر فيه وهما أعظم آياته وأعقب سبحانه بقوله: "ثم استوى على العرش " محمولا على ما تقرر بثم المقتضية التنبيه على جليل الحال فيما يعطف بها والتحريك للاعتبار بذلك وموقعه ورتبته حيث لا يراد مهلة الترتيب الزمانى لأن موضوع ثم فى اللسان قصد الترتيب الزمانى مع المهملة حيث يراد ذلك وقصد الترتيب الاعتنائى والتنبيه على حال ما عطف بها حيث لا يقصد زمان ولا يلحظ كقوله تعالى: "إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر " فهذا وارد مورد الدعاء على من يخاطب به البشر كما يرد التعجب والترجى وربنا المنزه عن ذلك كله ولكن خوطب البشر على ما يتعارفون ويجرى بينهم فلما قال سبحانه: "ثم استوى على العرش " فذكر ما هو تعالى عليه منزها عن الآنية والتمكن المكانى والمناسبة والحلول جل وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، فلما ذكر تعالى من هذه الأفعال العظيمة ما ذكر مما لا يتكرر أعقب سبحانه بما يتكرر ويتوالى من إنعامه على الخليقة مما به قوام أحوالهم ومصالح عيشهم، فقال سبحانه: "يغشى الليل النهار " وأورد ما يتوالى بطول نواله العالم بمشيئته ويتجدد عليهم مما به قوام حالهم إلى انقضاء الأمد المحدود ومجئ اليوم الموعود واتبع هذا التعريف بما يجارى الجمل الاعتراضية حال الكلام مما يلائم ويناسب ذلك تعريفه بقوله: "ألا له الخلق والأمر "، فأعلم باعتراضه لخلق ذلك كله وتصرف أمره فى الجميع بما شاء وأخبر بتعاليه وعظمته فقال: "تبارك الله رب العالمين "، وأمر عباده بالدعاء والتضرع إليه وحذرهم وذكرهم باستصحاب الخوف وتلك حال الموقنين إذ لا يؤمن مكره ولا ييأس من روحه، ثم رجاهم بقرب رحمته ممن أحسن ثم عاد الكلام إلى التذكير بجليل المتوالى من إنعامه وعظيم ألطافه فقال: "وهو الذى يرسل الرياح نشرا بين يدى رحمته " فانتظم آخر الكلام بأوله وارتبط عوده

=

=
ببدئه وتناسب أوضح تناسب بما يفهمه الفعل المضارع من التكرر من حيث لا يمنع ذلك ولو ورد هنا بلفظ الماضى لما ناسب لما يقتضيه الانقطاع إلا لحامل والله أعلم.

وعلى هذا النحو جرى الوارد فى سورة الروم فإنه ورد قبل الآية قوله تعالى: "ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات " فذكر من آياته وإنعامه بإرسال الرياح وإجراء الفلك ليبتغى فضله ويطلب الرزق منه حال الظعن والإقامة ثم اعترض بقوله تأنيسا لرسوله ووعدا بنصره: "ولقد أرسلنا من قبله رسلا إلى قومه فجاؤوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين " ثم عاد الكلام إلى إتمام ما تقدم مما يرسل سبحانه به ولا جله الرياح فقال بصورة الاستئناف لأجل آية الاعتراض: "الله الذى يرسل الرياح " وأورد من النعم بها ما ذكر قبل وجاء بلفظ الاستقبال لأنه من تتميم ما تقدم وليناسبه ولو جاء بلفظ الماضى لما ناسب والله أعلم.

وأما آية الفرقان فقد تقدمها قوله تعالى: "ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا " فورد قبلها ذكر هذه الدلالات وواضح هذه الشواهد وقد تقيد زمان خلقها بالماضى فى خمس كرات مع أنها مما يتكرر فى الآيات ويتوالى وكذا فى مطلع السورة وما وقع بعده مما يعتبر به وليس بإخبار أخراوى فأتبع سبحانه ذلك بموافق مناسب فقال: "وهو الذى أرسل الرياح نشرا " ولم يكن ورود المستقبل هنا ليناسب فجاء على ما يجب.

وأما آية سورة الملائكة فمبنية على مطلع السورة وذلكم قوله تعالى: "الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة " و"فاطر "و "جاعل "هنا بمعنى المضى ولا يمكن فيهما غير ذلك ولم يقع بعد هذا ذكر
=

=

مقصود به الاعتبار من مخلوقاته سبحانه مما نصبه دالا عليه إلا قوله: "الله الذى أرسل الرياح " فجاء ذلك مناسبا لقوله: "فاطر السماوات والأرض "و " جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة " لموافقة الفعل الماضى اسم الفاعل معنى ومناسبته ولا يناسبه المستقبل وأما ما وقع بين الآية وبين ما بنيت عليه مما ذكرنا فليس من قبيل المذكور فيه ما نصبه سبحانه دليلا للاعتبار لذوى الافتكار كخلق السماوات والأرض وإرسال الرياح فهذه المذكورات الثلاث هى المقصودة هنا للاعتبار.

أما قوله: "يزيد فى الخلق ما يشاء " إلى ما بعده إلى آية إرسال الرياح مع جليل إلتحامه بما اتصل به فليس من قبيل ما ذكرناه ولا يمنع من حمل الآية المتكلم فيها على نحو ما ذكر وجملها عليه ولا يناسب المستقبل هنا ما تقدمه مما بينا حمله عليه وأنه لا يصح حمله على غير ما ذكر والله أعلم بما أراد.

والجواب عن السؤال الثانى: إن آية الأعراف قد تقدمها قوله تعالى: "إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض " ثم قال: "ادعوا ربكم تضرعا وخفية " وقال: "وادعوه خوفا وطمعا " ثم قال: "إن رحمة الله قريب من المحسنين " وفى هذا كله استلطاف وتعطف ترج ومن نحو هذا الاستلطاف ومجاريه فى قوة الترجى قوله سبحانه فى سورة الفرقان: "ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا... "الآية، ثم قال: "هو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا " فهذا أعظم استلطاف فناسب الوارد فى السورتين من هذا قوله تعالى عقب إرسال الرياح قوله: "نشرا بين يدى رحمته " ولما يرد فى سورة الروم ولا فى سورة الملائكة مثل ذا الاستلطاف ولا بعضه لم يتبع ذكر إرسال الرياح بما اتبع فى آيتى الأعراف والفرقان إذ لم يكن ذلك ليناسب فجاء كل على ما يجب ويناسب والله أعلم.

والجواب عن السؤال الثالث: أن آية الأعراف لما قيل فيها: "فأخرجنا به من كل

=

=

الثمرات " فعم بكل وهى من نصوص ألفظ العموم ناسب ذلك ورود ما يفهم كثرة ماء السحاب إذ لا يحصل منه إخراج ما يقدر إخراجه من كل الثمرات الا بكثرته فذكر استقلال السحاب الكثير وهو الذى يعطيه قولا "ثقالا " وانما تثقل بكثرة مائها وذلك يثقلها ولا يكون استقلالها بما يثقلها من الماء الا بعد إشارتها فكأن قد قيل: أثارت الرياح السحب فأثقلتها بالماء الكثير فناسب هذا كله ولم يكن مجرد ذكر إثارة السحاب ليعطى كثرة مائها وتكثير الثمر المخرج به مع أن الإثارة مفهومة فحصل فى هذا النظم العلى الإيجاز والوفاء بالتوسعة والتعميم المقصود ولما لم يقع فى الآى الأخر توسعة فى المخرج بالماء وقع الاكتفاء بذكر إثارة السحاب وحصل إرسالها الماء مما بعد.

فإن قلت: فقد ورد فى سورة الملائكة: "فأحيينا به الأرض بعد موتها " وذلك تعميم ومع ذلك فقد وقع الاكتفاء فيها بقوله: "فتثير سحابا " قلت لفظ الأرض لا يعم فى كل موضع إذ ليس من ألفاظ العموم بدليل قوله تعالى: "إن فرعون علا فى الأرض " وهو لم يستول إلا على بعضها وبدليل قوله تعالى: "أو ينفوا من الأرض " وبالجملة فليست الألف واللام هنا للعموم ولا هى حيث تفهم العموم بمنزلة كل وطرأ وأجمعين ولا نزاع فى هذا فالاكتفاء فى سورة الملائكة بذكر الاثارة فقط بين.

وأما سورة الروم فليس فيها عموم بل فيها خصوص حاصل من التقييد بقوله: "فإذا أصاب له به من يشاء من عباده "، والاكتفاء فيها بذكر إثارة الرياح السحاب أبين شئ فجاء كل على ما يناسب ولا يمكن خلافه. ولم يرد فى سورة الفرقان ذكر إثارة الرياح السحاب اكتفاء ببشارة قوله: "بين يدى رحمته " لأنه قصد هنا ذكر الإنعام ولم ينط بذلك ما يقصد به امتداد الاعتبار ألا ترى قوله قبل الآية: "وهو الذى جعل لكم الليل لباسا وجعل النهار نشورا " فقصد ذكر الإنعام ثم الاعتبار

=

=

جار مع ذلك ثان عن المقصود من ذكر الإنعام فلم يذكر الا بادئ الإنعام، فجاء كل على ما يناسب ولا يمكن خلافه والله سبحانه أعلم.

والجواب عن السؤال الرابع: وهو الفرق بين ما فى الأعراف وسورة الملائكة من سوق الرياح السحاب إلى البلد الميت وما فى سورة الروم من قوله: "فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا " بزيادة ذكر سوقه إلى بلد ميت فى آيتى الأعراف والملائكة وسقوط ذلك فى سورة الروم مع زيادة بيان حال السحاب وانتشارها فى السماء وتقطيعها لانبعاث المطر فيقول السائل: إن كان الكلام مقصودا به قصد الإطالة فلم يرد فيها الوارد فى الأخريين من قوله: "فسقناه إلى بلد ميت " وإن كان قد قصد به الإيجاز فلم ورد هذا الإطناب هنا بما بسط من حال السحاب؟

والجواب عن ذلك: ان الآيات الثلاث محرزة أجل إيجاز وأبلغه، وان آية الروم لم يسقط منها شئ من التعريف بسوق السحاب إلى البلد الميت وإنما الحاصل على ما زيد فيها من بيان حال السحاب ما قصد من تحريك المعتبر وتنبيهه على ما فيه أعظم دلالة وأوضح برهان، ألا ترى تقديم قوله: "ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته " وجليل موقع هذه الاستعارة وقوله: "ولتجرى الفلك بأمره " ثم أشير إلى تسخير الفلك بقوله: "ولتبتغوا من فضله " فقد ورد هنا تعداد نعم جليلة فلما عاد الكلام إلى ارسال الرياح وذكر إثارتها السحاب اتبع ذلك بما يناسب فقال تعالى: "يبسطه فى السماء كيف يشاء "والإشارة إلى ما تؤمه السحاب ببسطه سبحانه إياها فتوارى من أقطار الأرض وجهاتها ما يشاء سبحانه إحياءه وسقيه ويجعلها سبحانه كسفا أى قطعا متخلخلة لنفوذ ما تحملت من الماء فينبعث الماء من تلك المسام كانبعاث العرق من مسام الأجساد: "فترى الودق يخرج من خلاله " وبحسب ما حملها سبحانه أو ثقلها من الماء يكون المرسل عنها فى الكثرة وما دونها: "فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم

=

=

يستبشرون " فلما انبنت هذه الآية على ما قصد من زيادة التنبيه وتوفيه الاعتبار خصت بما لم يقع فى آيتى الأعراف والملائكة وإنما لم يذكر هنا سوقها للبلد الميت لحصول ذلك من قوله بعد: "فتنظر إلى أثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها " فلو قيل أولا: "فسقناه إلى بلد ميت " لكان تكرارا فإذا تأملت ما ذكرناه وعظيم التنبيه مع جليل الإيجاز بحسب ما قصد وعلى البلاغة وموجب المزيد فى آية الروم وما يستدعيه المكتنفان لهما من قوله قبلها: "ومن آياته أن يرسل الرياح " وقوله بعدها: "فانظر إلى أثر رحمة الله... "الآية وتحريك المعتبر ولم يذكر ذلك فى الأخريين ويتبين لك أنه لم ينقص منها شئ وإن كلا منها وارد على ما يجب ولم يكن ليناسب خلافه والله أعلم.

والجواب عن السؤال الخامس: أن قوله فى الأعراف: "سقناه لبلد ميت " وفى سورة الملائكة: "فسقناه إلى بلد ميت " لفارق بين الموضعين هو أن قوله تعالى فى الأعراف: "حتى إذا أقلت سحابا ثقالا " كلام يستدعى جوابا ألا ترى أنه فى قوة قول القائل: فلما استقلت السحاب بما فيها من الماء ومثل هذا فى استدعاء الجوابية لا توقف فيه وليس مما يجاوب بالفاء وإنما جواب ذلك مثل هذا مجردا فيه الفعل عن الفاء وغيرها قال تعالى: "حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم ريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف " فالجواب هنا قوله: "جاءتها ريح عاصف " وقال تعالى: "فلما جاءتهم ما عرفوا كفروا به " ومنه آية الأعراف المذكورة لا مدخل فيها للفاء لا التى تقع جوابا ولا العاطفة إذ ليس قوله تعالى: "فسقناه لبلد ميت " معطوفا على ما قبله أما قوله تعالى فى سورة الملائكة: "الله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها " فكلام معطوف بعضه على بعض بالفاء المقتضية الترتيب والتعقيب ليطابق اللفظ ما تحته من المعنى فلزمت الفاء هنا لاحتراز معناها وقد تقرر انها لا مدخل لها فى آية

=

=

الأعراف فورد كل على ما يجب ولما استدعى لفظ "سقناه "المكان المسوق إليه وإنما يصل إليه بلام الجر أو بإلى عدى فى الإعراب بلام الجر فقيل "لبلد " ليناسب المجرور فعله الذى استدعاه فى الوجازة ولما طال الفعل فى الآية الأخرى بما لزمه من حرف التعقيب ناسبه تعديته بإلى إسهابا وإيجازا مقابل إيجاز وأما آية الروم ففيها زيادة التعريف بكيفية انفصال الماء من السحاب وانه يخرج من خلاله مقسطا على الأرض مجزءا ليستوى اليقى ويتناسب كسريان الغذاء فى الأبدان بعد تهيئته ولو صب من جانب دون ما أشار إليه التخلل لأضر ولم تحصل به المنفعة وهو زيادة فى الاعتبار وإطلاق على عظيم الحكمة زكل هذه الآى متلائمة متعاضدة لا تعارض فيها ولا إشكال وقد تضمن هذا الجواب أجوبة عن مواضع من هذه الآى وقوله فى الأعراف: "فأخرجنا به من كل الثمرات " مناسب لقوله: "حتى إذا أقلت سحابا ثقالا " لما تقدم ما يشير إلى كثرة مائها ناسبه التعريف بكثرة ما يخرج سبحانه به من مختلف الثمرات ولما قصد فى آية الفرقان سقى الحيوان العاقل وغير العاقل ناسبه ما تقدم من وصف الماء بالطهورية والطيب وقد حصل إخراج الثمرات بقوله لنحيى به بلدة ميتا وأما قوله فى سورة الروم: "فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم مستبشرون " فجار مع قوله قبل الآية: "ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات " لما ذكر سبحانه إرسالها مبشرات اتبع ذلك ما به البشارة وهو الودق المرسل من السحاب المشار بها والاخبار بمن المبشر بها وهو من يشاء تخصيصه من عباده بتلك الرحمة فأوضح آخر الآية المجمل قبلها وحصلت ما قصد بها على أكمل تناسب وأما قوله فى سورة الملائكة: "فأحيينا به الأرض بعد موتها " فمبنى على قوله: "يأيها الناس إن وعد الله حق " والمراد بهذا العودة الأخراوية فأرى سبحان مثالا يوضحها لمن تدبر وعقل فقال تعالى: "سقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها " ثم قال: "كذلك النشور "

=

=

والآى قبلها لم يتقدمها مثل ما تقدم هذه من تحريك الخلق وتخويفهم بالوعد الأخراوى فلم تعقب بمثل ما أعقبت به من هذه من تحرير التشبيه وان كان فى أكثرها التشبيه على إحياء الموتى ولكنه ليس كالواقع هنا.

والجواب عن قوله فى سورة الأعراف: "كذلك نخرج الموتى " أنه مقابل بقوله: "فأخرجنا به من كل الثمرات " ولم يرد هكذا فى سائر الآيات أعنى التعبير بلفظ الإخراج لما ينبت المطر وما يخلق سبحانه فى الأرض ولما ورد فى سورة الملائكة قوله سبحانه: "فأحيينا به الأرض بعد موتها " قوبل تشبيها بقوله: "كذلك النشور " ولم يكن ليتحر المراد لو قيل: كذلك الإحياء ولو قيل: كذلك إحياء الموتى لاجتمع فيه الطول مع مخالفة الفواصل فيما قبل الآية وما بعدها، ألا ترى قوله تعالى: "ولا يغرنكم بالله الغرور " قوله بعد الآية: "ومكر أولئك هو يبور " وما تخلل الآيتين وما ورد بعدها ثم إن النشور هو إخراج الموتى وإحياؤهم مع أنه أوجز وأطبق للفواصل فجاء كل على ما يناسب واما سائر الآي فلم تبن على قصد التشبيه ولا جرى فيها ذلك فوقع الاكتفاء فيها بمجرد الإيماء والإحالة على غير طريقة التشبيه.

والجواب عن تعقيب آية الأعراف بترجى التذكير من قوله: "لعلكم تذكرون " مناسب لقوله: "فأحيينا به من كل الثمرات " لأن الماء المنزل من السماء واحد لا يختلف وان اختلفت أحواله فى الكثرة والقلة وطول زمن الانزال وقصره فالمذاق والطعم والصفة لا تختلف والمخرج به بإذن الله من ضروب الثمرات مختلف فى الطعم واللون والرائحة إلى غير ذلك من صفاته قال تعالى: "تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل " ففى هذا أعظم عبرة لمن استبصر وأدل دليل على القدرة التى تجل عن الحد والغاية وأعظم شاهد على إحياء الموتى فلهذا أعقبت برجاء التذكير فقيل: "لعلكم تذكرون.

=

=

الآية السابعة قوله جل وتعالى: " لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) "، وفى سورة هود: " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) "، وفى سورة المؤمنون: " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣).

فى هذه الآى ست سؤالات: السؤال الأول فوله فى سورة الأعراف: "لقد أرسلنا " غير منسوق بواو العطف وفى السورتين الأخيرتين: "ولقد أرسلنا " بواو العطف والثانى اختلاف مقاله عليه السلام لهم والثالث وجه اختصاص الواقع فى كل سورة من الثلاث من مقاله بتلك السور والرابع وجه اختلاف ما خوفهم به وأنذرهم إثر أمرهم بالعبادة فى كل واحدة والخامس وجه ندائهم لهم فى السورتين وسقوط ذلك فى سورة هود والسادس وجه افتتاح أمرهم بالعبادة فى السورتين وقوله فى سورة هود قبل أمره إياهم: "إنى لكم نذير مبين " فهذه ست سؤالات.

الجواب عن الأول: أن آية الأعراف لم يتقدمها ذكر إرسال ولا أمر بدعاء الخلق ولا جملة يناسبها عطف إرسال الرسل إلى الأمم ودعاء الخلق إلى الإيمان إنما تقدم قبلها ذكر أصحاب الأعراف ثم قوله تعالى: "إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض " إلى قوله: "لقوم يشكرون " ثم ابتدأت قصص الرسل مع أممهم فقال تعالى: "لقد أرسلنا نوحا إلى قومه " وتتابع قصصهم.

أما آية هود فقد تقدم قبلها ذكر رسالة محمد ﷺ وبذلك افتتحت السورة قال تعالى: "كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله " ثم استمر ذكر دعائهم وتحذيرهم من التولى وما يعقبه إن وقع منهم ثم ذكر تحديه عليه السلام إياهم بالقرآن وطلبهم بمعارضته والإتيان بعشر سور مثله فى البلاغة وعلى النظم وان كان ما يأتون به مفترى ليكون أسهل عليهم ولم يعدل بالآى عن هذا

=

=

الغرض وما يرجع إليه إلى ذكر إرسال نوح عليه السلام فوردت الآى بذلك منسوقة فقد ورد قبلها ما يناسب عطفها عليه قال تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة... "الآيات وبعدها: "ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق... "الآيات، فذكرهم بإيجادهم وانتقالهم متقلبين فى أطوار مكتنفين بتوالى إنعامه منسوقا بعض ذلك على بعض مفتتحة المطالع بما يتأتى به القسم من قوله تعالى تحكيما وإظهارا للظاهر من اكتناف إنعامه وإحسانه ثم عطف على ذلك ما أنعم به من إرسال الرسل فذكر أولهم إرسالا إلى الخلق ليناسب ما بدأوا به من النعم الأولية فقال: "ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه" وكل ما ذكر فى هذه الآى نعم متناسبة والآء متوالية ولهذا لم يذكر فى هذه الآية ذكر عذاب الا بالإيماء الوجيز وخصت بقوله عقب الأمر بالعبادة: "أفلا تتقون" فذكرهم بالتقوى المجردة لنجاتهم وتخلصهم من العذاب ولم يكن ليلائم ذكر العذاب والإفصاح به ما تقدم من التذكير بإحسانه سبحانه وإنعامه من أول السورة إلى هنا.
والجواب عن السؤال الثانى: ان دعاء الرسل أممهم مما يتكرر ويتوالى فى أوقات مختلفة محال متباينة فمرة يرغبون ومرة يخوفون وينذرون وذلك بسبب حال حال ولكل مقام مقال.
فاختلاف المحكى من مقالهم إنما هو بحسب اختلاف الأوقات وما يناسب كل وقت وقت وما يجرى فيه ويشاهد من أقوال المدعوين وأحوالهم وكل المحكى من معنى مقالاتهم لا إشكال فيه، ألا ترى أن نبيا صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين كان يدعوا قبائل العرب إذا وفدوا على مكة ويقف على كل قبيلة قبيلة فيكلمهم ويسمعهم القرآن ويدعوهم إلى الله بما يناسب أحوالهم ومقالهم ألا ترى قوله عليه السلام لقبيلة كانت تعلاف ببنى عبد الله "يا بنى عبد الله ان الله قد حسن اسم ابيكم" فكان يفتتح دعاء كل طائفة بمثل هذا فلكل مقام مقال، فلا سؤال فى المحكى من قول
=

=

نوح عليه السلام، لقومه واختلاف ذلك وإنما السؤال فى اختصاص كل سورة بالوارد فيها من حكاية كلامه عليه السلام إذ لا يذكر فى كل سورة الا ما يناسب وهو السؤال الثالث.

والجواب عنه: أنه لما تقدم ذكر اليوم الآخر فى غير ما آية من أول هذه السورة إلى ابتداء قصة نوح وقد تضمن ما ذكر من ذلك من أهوال ذلك اليوم ما يعظم أمره كقوله: "والوزن يومئذ الحق... "الآية، وقوله: "قال ادخلوا فى أمم من قبلكم من الجن والإنس فى النار "الى قوله: "فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون " وقوله: "إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء... "الآية قوله: "ونادى أصحاب الجنة... "الآية وقوله: "إذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار "الى قوله: "ولا أنتم تحزنون " وقوله: "ونادى أصحاب النار... "الآية وقوله: "هل ينظرون إلا تأويله " فلما تقدم من أهوال هذا اليوم ما لم يتقدم فى السورتين الأخريين ناسبه من مقالات نوح لقومه: "إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم " وناسب قوله: "ما لكم من إله غيره " قول الممتحنين: "فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا " وأما افتتاح الآية بأمرهم بالعبادة فبين وأما آية هود فافتتاح دعاء نوح قومه فيها بقوله: "إنى لكم نذير مبين " يناسب قول نبينا صلى الله عليه وسلم للعرب فى إخبار الله تعالى عنه: "إننى لكم منه نذير بشير " قوله سبحانه: "إنما أنت نذير " وأما قوله: "إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم " فمناسب لقوله تعالى على لسان نبينا عليه السلام لقومه ممن خاطبه وشافهه: "وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير "وقوله: "ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم "وقوله: "ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده "فتكرر ذكر العذاب يناسبه ما ختمت به آية دعاء نوح عليه السلام من قوله: "إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم "وأما آية المؤمنين فالجواب عنها ما تقدم منجرا فى

=

=

الجواب عن السؤال الأول وتحصل من أنه حكى من مقالاته عليه السلام فى كل سورة من هذه الثلاث ما يجرى مع ما اتصل به ويناسبه حسبما تبين ولم يكن ليناسب ورود ما فى سورة منها ما ورد من ذلك فى الأخرى والله أعلم بما أراد.

والجواب عن السؤال الرابع: قد انجر فيما تقدم وعن الخامس أن ندائهم فى السورتين لا كلام فيه لجريانه على ما ينبغى فإنما يسأل عن سقوط ذلك فى سورة هود؟ ووجهه أن ذلك جار مع ما افتتحت به السورة من قوله على لسان نبينا عليه السلام: "ألا تعبدوا إلا الله " فدعاهم عبادة الله وأن يفردوه بها ولم ينادهم لأن ذلك لم يكن ليلائم مطلع السورة إذ لم يجر ذكره عليه السلام منطوقا به فينزل عليه نداؤهم بل قيل له: "الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير "ثم اتبع هذا بأمرهم مبتدئا بحرف العبارة والتفسير وهو أن الحرف الواقع بعد ما ينبئ ويحصل منه معنى القول وليس بصريح قول ولا مرادف الا أنه يفهمه كقوله تعالى: "وانطلق الملأ منهم أن امشوا " فأن الواقعة حرف عبارة وتفسير المقدرة بأى إنما تأتى بعد ما يفهم القول فكما يقع بعدها ما يدل على تقدير القول وليس بقول كذلك يقع بعد مالا يلتئم معه ذكر القول ويكون مع ذلك مغنيا عنه ومنه مطلع هذه السورة بعد التنبيه بالحروف المقطعة فقيل: "كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله "كما قيل فى آية ص: "ان امشوا واصبروا "فليس موضع صريح القول الذى يقصد به الحكاية ورد دون صريح قول ثم وردت قصة نوح عليه السلام على هذا المنهج للمناسبة ثم جئ بقصة هود وصالح بعد هذا مفتتحين بالقول على ما يجب والله أعلم.

والجواب عن السؤال السادس: ان افتتاح أمرهم بعبادة الله فى سورتى الأعراف والمؤمنين لا سؤال فيه أول ما يطلب به الخلق وإنما يسأل عن افتتاح مكالمتهم فى سورة هود بقوله: "إنى لكم نذير مبين "؟ وجه ذلك مطابقته لما افتتحت به

=

السورة من قول محمد ﷺ بأمر ربه مخاطبا بكلامه تعالى: "إننى لكم منه نذير وبشير.
الآية الثامنة: قوله تعالى: " قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) "، وقال فى سورة هود: " فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا " وقال فى سورة المؤمنين: " فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ.
قلت هذه أجوبة فى مقامات شتى وأحوال مختلفة فلا سؤال فى اختلافها وإنما السؤال عن وجه الواقع فى كل سورة إذ لا يكون الا لمناسبة وقد تقدم بيان هذا فى الآية قبلها فيسأل عن ذلك؟ وعن ثبوت الفاء فى قوله: "فقال " فى سورة هود وسورة المؤمنين وسقوطها فى سورة الأعراف؟ وعن وصف الملإ بالكفر فى السورتين وسقوط هذا الوصف من آية الأعراف؟ فهذه ثلاثة أسئلة.
والجواب عن الأول والله أعلم: إن تقول: أن تخصيص الواقع من الملأ من قوم نوح عليه السلام جوابا له عند دعائهم فى سورة الأعراف إلى عبادة الله مناسب لما تقدم فيها من قول مكذبى الرسل حين تتوفاهم الملائكة قال تعالى: "حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا "وقول أخراهم لأولاهم عند دخولهم النار وتداركهم فيها جميعا: "ربنا هؤلاء أضلونا " فصار هذا مألوفا من كلامهم وجوابا متكررا منهم ثم قد جرى على هذا إخبار الله سبحانه عنهم عند تمنيهم الشفعاء أو الرد إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم قال الله تعالى: "قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون " ولم يتقدم فى السورتين بعد مثل هذا فناسب هذا ما تقدم.
وأما فى سورة هود من قول الملأ المذكورين من قوم نوح فقد تقدم فى صدر

=

السورة قوله تعالى مخبرا عن كفار قريش وغيرهم من معاندى رسول الله ﷺ: "ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم " فأعلم سبحانه بطغيانهم وتمردهم فى كفرهم فناسب هذا قول المتمردين من قوم نوح: "ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين.

وأما الوارد فى سورة المؤمنين فإنه تقدم فيها قوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين "، فذكر سبحانه تطور الإنسان فى تقلبات وأحوال تشهد بحاله الحضيضه ومهانته الأوليه إلى أن تلحقه العناية الربانية والاختصاص الاصطفائى فيعز بإعزاز موجده ويختص باختصاص التقريب والتشريف فتتفاوت أقدار الخلق عند ذلك فمنهم اللاحق بأشراف المقامات وأسنى الحالات ومنهم الباقى فى حضيضيته من غير ترق لما فوقها من الانتقالات ولما لم يتلمح الملأ من قوم نوح جليل مزية التشريف وما منحه هذ النبى الكريم من على قدره المنيف، وظنوا التساوى على مقتضى الحاله الأوليه قالوا يخاطبون أتباعهم وجوابا لنبيهم عليه السلام: "ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم... " الآية. وتأمل مقال الملأ هنا ومناسبته لما قدم من خلق الإنسان تجده أنسب شئ ولم يكن مقالهم فى كل موضع من هذه ليناسب غير ما وقع فيه والله أعلم.

والجواب عن السؤال الثانى: أن الواقع فى سورة هود من قوله تعالى مخبرا عن جواب قوم نوح: "ما نراك إلا بشرا مثلنا "إلى آخر كلامهم كلام لا يستقل مبتدأ به بل يستدعى ما يبنى عليه إذ لا يفتتح أحد أحدا مبتدئا بمثل هذا وإنما يتكلم بهذا جوابا ولما قال لهم نوح عليه السلام: "يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره " إلى ما عرفهم به مما حصل منه الإعلام بمقامه النبوى جاوبوه بعدا عن تعرف صدقة

=

=

ومعرفة حقه بقولهم: "ما نراك إلا بشرا مثلنا "، أى لو كنت كما تزعم لكنت من جنس الملائكة ولم تكن من جنس البشر وقد أفصحوا بهذا فى سورة المؤمنين وتكرر هذا المرتكب من غيرهم فى غير ما آية فلبناء هذا الكلام على ما قبله وتمحض الجوابية فيه ورد بالفاء المقتضية السببية والمبنية للجوابية ومثل هذا من غير فرق هو والوارد من جوابهم فى سورة المؤمنين من قولهم: "ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم "، ثم قالوا: "ولو شاء الله لأنزل ملائكة " وهذا هو الذى أشرنا إليه من مقالهم فى هاتين السورتين بالفاء لربط الجوابية وضوح السببية وأما قوله فى سورة الأعراف: "قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين " فإن هذا وإن تضمن الجوابية فإنه كلام يستأنف ويبتدأ بمثله ولا يفتقر إلى ما يبنى عليه فناسب ذلك وروده بغير الفاء وحصلت الجوابية من حيث المعنى مع رعى ما يناسب فى النظم ونظير هذا فى وروده بغير الفاء لما ذكر قوله تعالى فى قصة هود عليه السلام: "قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين " فتأمل جوابهم هنا لما كان الوارد فى قصة نوح عليه السلام فى أنه يبتدأ بمثله ولا يفتقر إلى ما يبنى عليه كيف ورد بغير الفاء فهذا يزيدك وضوحا فيما قدمناه والله سبحانه أعلم.

والجواب عن السؤال الثالث: ويتنزل على تمهيد هو أن الله تعالى أمر رسله عليهم السلام بالرفق فى دعاء الخلق وحضهم على التلطف بهم والصبر على آذاهم فقال: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن " وقال تعالى: "واصبر على ما يقولون " وقال: "لست عليهم بمصيطر " وقال تعالى: "ودع أذاهم " وقال تعالى: "إن عليك إلا البلاغ "وقال: "ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك " وهذا كثير وقال تعالى لموسى وهارون: "اذهبا إلى فرعون أنه طغى فقولا له قولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى " وعلى

=

=
هذا جرى دعاء الرسل أممهم فى إخبار الله تعالى عنهم وتأمل ما تحمل من التلطف والرفق بالعباد قول الله سبحانه: "يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم " إلى قوله: "ولا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون " وعلى هذا المنهج جرى ما ورد فى الكتاب العزيز من دعاء الرسل أممهم: "يا قوم استغفروا ربكم إنه كان غفارا... "الآيات إلى قوله: "لتسلكوا منها سبلا فجاجا " ثم اختلف جواب الأمم فمن مسرع فى الإجابة بهداية الله تعالى ومن مبطئ ومن مصمم على ضلاله: "ولو شاء الله لجمعهم على الهدى " ثم لكل نبى مقامات ومقالات بحسب اختلاف الموطن والمجتمعات ولكل مقام مقال يناسبه فجرى اختلاف ما ورد جوابا بنسبة ما وقع الجواب عليه مع إحراز الأنبياء عليهم السلام ما أمروا به من الصبر والتلطف فى أكثر أحوالهم متوقفين فيما وراء هذا على ما يرد منه تعالى كما قيل لنوح عليه السلام: "إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن "فقطع عليه السلام رجاءه منهم وفهم من ربه تعالى جواز دعائه عليهم واستشعر انتقامه منهم فقال: "رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا " وذلك بعد مبالغتهم فى البعد عن الاستجابة وقولهم: "قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين " قال تعالى فيمن سلك مسلكهم فى التكذيب: "فلما آسفونا انتقمنا منهم " وقال تعالى: "حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا... "الآية.

فأقول بناء على ما تمهد أن قوم نوح لما ذكر تعالى عنهم فى سورتى هود والمؤمنين إساءة فى جوابهم لنبيهم وإطالة فى المرتكب حين قالوا فى سورة هود: "ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين " فجمعوا فى هذه الإطالة توهمهم مساواته عليه السلام، فيما رآه البادى من البشؤية والصورة الإنسانية إلى استرذال أتباعه كما قالوا فى الموضع الآخر: "أنؤمن لك واتبعك الأرذلون "وإلى التعامى عن فضله عليه السلام
=

=

عليهم وظنهم كذبه وقد نزهه الله من ذلك كله فإذا تأملت مجموع هذا استطلعت منه مكنون كفرهم ومثل هذا من غير فرق قولهم فى آية المؤمنين: "ما هذا إلا بشر مثلكم "إلى قولهم: "إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين " فلإساءتهم فيما ذكر من الوارد عنهم فى الموضعين وصفوا بالكفر فقال تعالى: "فقال الملأ الذين كفروا من قومه " فوصفهم بالكفر فى السورتين وأما آية الأعراف فقولهم فيها: "إنا لنراك فى ضلال مبين " ليس كجوابهم فى السورتين الأخريين لا من جهة الطول ولا من جهة المعنى لأن لفظ الضلال ليس بنص فى الضلال عن الدين لأنه يقال ضل بمعنى تحيز وجار عن دين أو طريق ويتسع فى إطلاق لفظ الضلال على غير ما ذكرنا وقد قال بعض المفسرون هنا فى تفسير الضلال: "إنه الذهاب عن طريق الصواب والحق " وبالجملة فإنهم لم يريدوا هنا الضلال الذى هو الكفر وإن كان قد يقع إذا تقدمته قرينة على أعظم من الكفر وأما هنا فليس كذلك فلما لم يكن فى الوارد فى سورة الأعراف من الإطالة فى العبارة والإبلاغ فيما قصدوه من المعنى مثل ما فى السورتين ناسبه الإيجاز وإن لم يوصفوا هنا بالكفر فقال تعالى: "قال الملأ من قومه "ومما يشهد أن قوم هود عليه السلام لما بلغوا فى إساءة جوابهم لنبيهم فى قولهم: "إنا لنراك فى سفاهة " وأرادوا فى قلة علم وخفة حلم قاله الغرنوى: وقال غيره: فى خفة حلم وسخافة عقل، فلما أساؤوا فى مقالهم هذا عبر عنهم بقوله تعالى: "قال الملأ الذين كفروا من قومه " فوصفوا بالكفر مناسبة لقولهم ولما لم يقع فى جواب قوم صالح مواجهة نبيهم بمثل هذا بل عدلوا إلى مخاطبة ضعفائهم بقولهم لمن آمن منهم: "أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه "فلما لم يواجهوا نبيهم بما واجه قوم هود عبر عن هؤلاء بقوله تعالى: "قال الملأ الذين استكبروا من قومه.

فإن قيل قد وصفوا بما يفهم كفرهم وهو الاستكبار قلت قوبل بهذا وصف

=

=

مخاطبيهم بالاستضعاف وليس كالإفصاح بالكفر فوضح ما بسطناه أولا وجرى كل من ذلك على ما يناسب والله أعلم بما أراد.

الآية التاسعة من سورة الأعراف: قوله تعالى: " أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) " وفى قصة هود: " أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) " فيهما سؤالان قوله "وأنصح لكم " وفى الأخرى: "وأنا لكم ناصح أمين " والثانى أن كل واحد من هذين النبيين الكريمين يعلم من الله سبحانه ما لا يعلمه قومه فهل فى قصة نوح ما يحمله على قوله لقومه: "وأعلم من الله مالا تعلمون " ما ليس فى قصة هود؟

والجواب عنهما معا: أن قوم نوح عليه السلام لما رموه بالضلال وأكدوا ذلك وزعموا استحكامه بالوصف فى قولهم له عليه السلام: "إنا لنراك فى ضلال مبين " فزعموا أن ضلاله غير خاف وهو الذهاب عن طريق الصواب ولا يكون إلا عن عدم العلم بما فيه رشاد الضال واستقامة حاله نفى عليه السلام كل ذلك عن نفسه بقوله: "ليس بى ضلالة " ثم أتبع بأوصاف عليع تناقض قولهم وتدفعه وتشهد للمتصف بها ببراءته من ذلك وترد ذلك الوصف عليهم وأنهم الأهلون لما رموه به فقال: "ولكنى رسول من ب العالمين " ولا يرسل رب العالمين المالك للكل العليم بهم إلا من جعله درجات المهتدين العالمين بنصاب الرسالة وما يلزم متحملها ثم بين لهم نصحه واستمراره فى إبلاغهم ونصحهم فقال: "أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم " ثم أتبع تعريفهم بجهلهم بما عنده من ربه ويعلمه هو بذلك فقال: "وأعلم من الله ما لا تعلمون " وإنما قال "وأنصح "، "وأعلم " ليعلم بتماديه على النصح لهم وهم لا يشعرون ولا يهتدون وبإمداده بزيادة علومه بالوحى وهم عن ذلك فى أشنع ضلال وأبعده فجمه عليه السلام فيما خاطبهم به رد مقالهم ورميهم بأكثر مما رموه به ورد ذلك عليهم بألطف رد وأبينه لمن وفق ونزه عليه السلام عبارته المخلصة لذلك

=

=

على أتم الوجوه عن شنيع عبارتهم وقبح مواجتهم واما جواب هود عليه السلام فإن قومه لما قالوا: "إنا لنراك فى سفاهة " فرموه بخفة الحلم وقلة الثبات وكثرة الطيش نفى عليه السلام ذلك عن نفسه فقال: "ليس بى سفاهة " فرد قولهم ثم عرفهم برسالته وقدم ما ينبغى للرسول أن يكون عليه ثم أتبع بجليل أداء أمانة الرسالة من التبليغ والتمادى عليه فقال "أبلغكم " فجاء بالفعل المشعر بالتكرر والاستمرار قياما بإبلاغ رسالته وحفظا لأمانتها ثم قال: "وأنا لكم ناصح أمين " فعرفهم بصفتين جليلتين قد اكتنفته العصمة فيهما ومن كانت صفتاه اللازمتان له النصح والأمانة فقد تنزه قدره عن الطيش وعدم الحلم: "إلا إنهم هو السفهاء ولكن لا يعلمون " وإنما أتى فى إخبارهم بنصحه وأمانته بالاسم فقال: "ناصح أمين " وكم يقل: أنصح - فيأتى بالفعل - ليحصل منه أن ذلك الوصف الجليل لازم له غير مفارق ولم يكن الفعل ليعطى ذلك فجاء بالاسم وجعله الخبر عن ضميره الذى هو "أنا " فهذا مقصود ثابت الوصف ولزومه مثل الوارد فى قوله تعالى مخبرا عن المنافقين: "وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم " فأخبر عن قولهم للمؤمنين "آمنا " بالفعل الماضى وليس من وضعه إعطاء الدوام فى الأكثر إذ قد يقول فعلت من أوقع الفعل مرة واحدة وأخبر تعالى عن قولهم لإخوانهم وشياطينهم بقولهم: "إنا معكم إنما نحن مستهزئون " فجاؤوا بالاسم إعلاما بصفتهم التى هم عليها مستمرون فكذا هذا الاخبار الواقع هنا فى هذا النقصود من التمادى والاستمرار حين قال هود عليه السلام: "وأنا لكم ناصح أمين " فجاء الاسم فانتفى ما رموه به من السفاه جملة وقابل عليه السلام مقالهم الشنيه بخبره الصادق عن نفسه فرد مقالهم ولم يكن الفعل يحرز هذا القصد كما أحرز قول نوح عليه السلام: "وأعلم من الله ما لا تعلمون " الإخبار عن نفى ما رموه به جملة فجاء كل على ما يجب والله أعلم.

=

=

ومما يسأل عنه فى هاتين الآيتين أن نوحا وهودا عليهما السلام إنما دعوا إلى العبادة قوما كفارا فى قصة نوح عليه السلام: "قال الملأ من قومه" وفى قصة هود عليه السلام: "فقال الملأ الذين كفروا من قومه" فوسموا بالكفر بخلاف قوم نوح؟ عليه السلام من قوله: "إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم" وخوفه من تعذيبهم إنما كان لكفرهم ولم يقع ذلك فى دعاء هود لأن قوله: "أفلا تتقون" ليس فيما يعطيه من التخويف فى قوة: "إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم" إذ قد يؤمر بالتقوى المؤمن ويقال للعاصى بصغيرة أفلا تتقى فلما كان فى دعاء نوح ما يشير إلى الكفر ويدل عليه اقتضى الإيجاز الاكتفاء بذلك ويشهد لهذا أن قصة صالح وقصة شعيب الوارد فيهما الدعاء إلى الإيمان على هذا المنهج لما لم يقع فى دعاء هذين النبين عليهما السلام ما وقع فى دعاء نوح عليه السلام مما ينبئ بالكفر ورد فى حكاية مقالة قومهما ما يحصل منه ذلك المقصود وذلك قوله تعالى: "قال الملأ الذين استكبروا من قومه" وذلك جار من الواقع فى قصة هود من غير فرق لأن استكبارهم عن إجابته والإيمان به كفر والله أعلم بما أراد.

الآية العاشرة: قوله تعالى: " فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) " وفى سورة يونس: " فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) "ففيهما أربع سؤالات يذكر كل سؤال منها متصلا به فى جوابه.

الأول قوله "فأنجيناه "وفى الثانية "فنجيناه "فاختلف نقل الفعل بالهمزة فى الأولى وفى الثانية بالتضعيف وفى الأولى "والذين معه " وفى الثانية "ومن معه " فاختلف الموصول أيضا.

والجواب عن هذين السؤالين والله أعلم: أنا قد وضحنا فى كتاب البرهان أن

=

=

ترتيب السور مراعى وترتيب الآى فى هذا الحكم أولى وأبين، وإذا تقرر هذا فاعلم أيضا أن لفظ الذى وما تصرف منه للمثنى والمجموع أصل فى الموصولات إذ لا يخرج لفظ الذى عن الموصولية أما من فإنها تخرج إلى الاستفهام والشرط وغيرهما والأصل فى النقل أيضا يكون بالهمزة وأما النقل بالتضعيف والباء وغيرهما فثان عن الأصل ومن يقول بالقياس فى النقل على اختلاف مذاهبهم من أن المقيس فيه النقل من الفعل إنما هو غير المتعدى أو المتعدى إلى واحد مغ غير المتعدى إلى اثنين مع الضربين قبله وهو قول الأخفش فكل هؤلاء إنما المقيس عندهم مما ينقل بالهمزة ويجعلون النقل بالتضعيف وغيره موقوفا على السمع.

فإذا قرر ما ذكرناه فنقول إن سورة الأعراف ورد فيها قوله: "فأنجيناه والذين معه " كل منهما على الأصل فى نقل الفعل وفى الموصول فقيل: "فأنجيناه " وقيل: "والذين معه " وورد ذلك فى سورة يونس على ما هو ثان عن الأصل فى النقل وفى الموصول رعيا للترتيب ولا يمكن العكس على هذا.

ثم انجر مع ذلك رعى تناسب التقارن لما ورد فى الأولى فأنجيناه بزيادة همزة النقل المثبت لها صورة الألف فى الخط ونطق يخصها بحركة الهمزة فطالت الكلمة بالألف خطأ وبالنطق بحركة الهمزة لفظا ناسبها الموصول الذى هو: الذين بزيادة حروفه على حروف "من.

ولما قيل فى الثانية: فنجيناه فجئ بما هو أخصر فى الخط ناسبه من الموصولات من المفرد فى معنى الذى وهو أخصر.

السؤال الثالث: زيادة "وجعلناهم خلائف " فى سورة يونس وذلك مثال تفصيلى فى طائفة معينة من المجمل الوارد فى أول السورة من قوله تعالى: "ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات " إلى قوله: "ثم جعلناكم

=

=

خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون " وقوم نوح عليه السلام أول أمة أهلكت بتكذيبها ثم خلفها غيرها فذكر من المتقدم مجملا أول واقع منه وأنهم جعلوا خلائف كما جرى فيمن بعدهم.

والسؤال الرابع قوله تعالى: "إنهم كانوا قوما عمين " وذلك مقابل به قولهم لنوح عليه السلام: "إنا لنراك فى ضلال مبين " فقيل لهم بل أنتم قوم عمون فأنى لكم بالتفريق بين الهدى والضلالة.

وأما قوله فى الأعراف: "فانظر كيف كان عاقبة المنذرين " فليجرى مع آية الأعراف فيما ورد فيها من التعريف بإنذارهم فى قوله: "أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم " فوقع هنا التعريف بإنذارهم ثم ورد فى يونس بقوله: "فانظر كيف كان عاقبة المنذرين " فحصل التعريف فى الآيتين بإنذارهم وعاقبة من أنذر فلم يرجع عن غيه.

الآية الحادية عشرة من سورة الأعراف: قوله تعالى فى قصة صالح: " قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " وفى سورة هود: " وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ " وفى سورة الشعراء: " قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ " فاختلف الوصف لمختوم به فى الآى الثلاث فقد يسأل عن ذلك؟

والجواب: مثل هذا ليس بخلاف ولا مشكل لأن وصف العذاب بالإيلام لا ينافى وصفه بالقرب وإنما وصف فى سورة هود بالقرب ليجرى مع قوله بعد: "تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام " فجرى فى الوصف رعى هذا ولا ينافى ذلك الإيلام وأما الوصف فى سورة الشعراء بعظيم فمن صفة اليوم لما فيه من الأهوال لا من صفة

=

=

العذاب فلا إشكال فى شئ من هذا.

الآية الثانية عشرة قوله تعالى فى قصة صالح: "فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين " وكذا فى قصة شعيب فى السورة فيما بعد وفى سورة هود فى القصة المذكورة قبل: "فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام " وقال فى قصة شعيب فى سورة هود أيضا: "وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين " فورد فى هذه الآية الأخيرة تسمية عذابهم بالصحية وجمعه اسم الدار وفى الآيات قبل "بالرجفة " وإفراد الدار.

فأقول إن وجه اختصاص كل سورة بما خصت به أن اسم الدار لفظ يقع على المنزل الواحد والمسكن المفرد ويقع على مساكن القبيلة والطائفة الكبيرة وإن اتسعت وافترقت وتعددت مساكنها وديارها إذا ضمها إقليم واحد واجتمعت فى حكم أو مذهب، وإذا تقرر هذا فوجه اختيار لفظ الجمع فى الآية من سورة هود مناسبة ما اقترن به من لفظ الصيحة وهى عبارة هنا عن العذاب مطلقا دون تقييد بصفة وهو من الألفاظ الكلية فإن لم يكن عاما فانتشار مواقعه من حيث الكلية حاصلة.

وأما الرجفة الزلزلة فلهذا اللفظ خصوص وهو جزئى ومن المعلوم بالضرورة انحصار الألفاظ فى الضربين فإن اللغة لا تختلف فى ذلك فالصيحة من حيث الكلية تطلق على ما كان من العذاب بالرجفة وغيرها وإذا عبرنا بالرجفة لم يتناول لفظها إلا ما كان عذابا بها فناسب عموم الصيحة جمع الديار مناسبة تركيب النظم وناسب خصوص الرجفة إفراد الدر.

ثم إن وجه تخصيص سورة هود بما وقع فيها أنه ذكر قبلها من مرتكبات قوم شعيب وسوء ردهم على نبيهم عليه السلام ما لم يرد مثله فى آية سورة الأعراف وتأمل قولهم له: "ما نفقع كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك

=

=

وما أنت علينا بعزيز "، فتأمل ما فى ردهم هذا من الاستهزاء والإساءة وشنيع المقابلة لجليل وعظه عليه السلام، لهم ورأفته فى دعائهم إياهم بقوله: "إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط " وقوله: "بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ " وقوله: "أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت " وقوله: "ولا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح " وقوله: "واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود.

فما أجل تلطف هذا النبى الكريم فى دعائه إياهم وما أشنع ردهم عليه فلهذا ما عبر عن عذابهم وأخذهم هنا بأعم مما ورد فى غير هذه الآية ولما لم يرد فى غيرها مثل هذا فى الدعاء والجواب ناسبه اللفظ الأخص رعيا لإحراز النظم الجليل وعلى تناسبه مع أن لا كبير اختلاف فى المعنى الحاصل عن العبارتين والله أعلم.

وجواب ثان فى اختلاف الوارد فيما أخذ به قوم شعيب وهو أن يكون المراد أخذهم بضروب من العذاب لقبيح مرتكبهم وسوء ردهم على نبيهم فبين ذلك قوله تعالى فى سورة الشعراء: "فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة " والظلة غيم تحته سموم فهذا ولا غير الرجفة لأنها زلزلة فعلى هذا يكونون قد أخذوا بعذاب الزلزلة وعذاب الصيحة وهو عذاب يصحبه صوت وعذاب الظلة فورد ذلك على التدريج والتناسب بحسب ما ذكر قبل كل من هذا من مرتكباتهم وقد ذكر المفسرون تنوع عذابهم بالرجفة والصيحة والظلة كما امتحن آل فرعون بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة.

الآية الثالثة عشرة من سورة الأعراف

قوله تعالى فى قصة صالح: "فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى

=

=

ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين " وقال فى قصة شعيب عليه السلام: "الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين "

للسائل أن يسأل ويقول: إذا كان كل من الرسل عليهم السلام قد أبلغ قومه ما أرسل به وكلهم فى أداء تلك الأمانة وحفظها على نهج سواء من غير تفاضل فى هذا - أعنى الأمانة والإبلاغ والعصمة فى ذلك - وإنما التفاضل بأشياء غير ما ذكر فإذا تساووا فيما ذكر وكلهم أمر بإفراد الله سبحانه بالعبادة واتقاء عذابه بالتزام الطاعات وامتثال الأوامر والنواهى وكلهم أمر ونهى وأوضح لقومه طريق النجاة وحذرهم من المهالك ووصف كل واحد منهم ربسول ووصف ما جاء به بالرسالة فالإفراد محصل للمقصود فما وجه الجمع فى قوله فى قصة شعيب عليه السلام: "أبلغتكم رسالات ربى " ولم لم يرد على الإفراد كما ورد فى قصة صالح؟

والجواب: أن العرب تراعى فى أجوبتها ما نيتها عليه من سؤال أو غيره، إن إطالة فإطالة أو إيجاز فإيجاز فأجوبتهم مراعى فيها المعنى ملحوظ فيما وردت جوابا له ولما ورد فى دعاء شعيب عليه السلام تفصيل فى الأمر والنهى والتحذير ألا ترى قوله بعد أمرهم بتوحيد الله: "قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها " ثم قال: "ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا " وذكرهم بتكثيرهم بعد القلة فقال: "واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم " وإن يتذكروا حلا من تقدمهم ممن كذب فقال: "وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين " وورد عقب هذا من قول قومه له فى قوله تعالى حاكيا عنهم: "لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودون فى ملتنا " وقولهم: "لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا

=

=

لخاسرون " وقد انطوى هذا الكلام من التعريف بقبيح ردهم وشنيه مرتكبهم فى مجاوبتهم على أعظم اجترام، فحصل فى هذا من خطابه إياهم وما ردوا به وجاوبوه عليه السلام إطناب فى العبارة وإمعان فيما تحتها من المعانى فى كلا الضربين فناسب ذلك الجمع فى قوله: "أبلغكم رسالات ربى " أما قصى صالح عليه السلام فلم يقع فيها بعد أمرهم بالعبادة غير تعريفهم بأمر الناقة وأمرهم برعيها وتذكيرهم بقوم هود فى قوله: "واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد... "الآية ولم تنفصل مكالمته إياهم كتفصيل ما تقدم وأما المحكى عنهم من جوابهم فقوله تعالى مخبرا عنهم من قول كافريهم لمن آمن منهم: "إنا بالذى آمنتم به كافرون " وقولهم: "ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين " فليس هذا مثل المتقدم من جواب قوم شعيب له فى المحكى من العبارة ولا فيما تحتحته من المعنى فناسبه الإفراد الوارد فى قوله: "أبلغتكم رسالة ربى.

فإن قلت فقد ورد: "أبلغكم رسالات ربى " بالجمع فى قصة نوح وهود عليهما السلام، ولم يتقدم فى القصتين إطناب ولا إطالة تقتضى ذلك فإن الوارد فى قصة نوح من قول قومه له قوله تعالى: "قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين " وهذا ليس كجواب قوم شعيب عليه السلام فى إطالته وإذا لم يكن فى ذلك طول فما وجه الجمع فى قوله: "رسالات ربى "؟ ولم لم يفرد كما فى قصة صالح إذ هى شبيهتها فى الإيجاز؟ فالجواب أن افظ الضلال وإن كان هنا لا يرادف الكفر حسبما تقدم وما يأتى فإنه يقتضى بحسب كليته وانتشار مواقعه مقتضيات عدة، وأنهم لم يريدوا تخصيصه بقوله بعينه من قوله عليه السلام بل أرادوا أقوالا كثيرة مما أمرهم به ونهاهم عنه ومما حذرهم وأنذرهم من عذاب الآخرة حين قال لهم: "إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم " فلانسحاب اسم الضلال على مسميات شتى كان فى وزان ما طال من الكلام فأشبه الواقع فى قصة شعيب عليه الصلاة والسلام قال

=

=

الزمخشرى: "الضلال الذهاب عن طريق الصواب والحق "فكأنهم قد فصحوا بأن قالوا لا نعتمد قولك فى شئ ولا نعول عليه لأنك ذاهب فيه عن طريق الصواب والحق ويشهد لإرادتهم هذا التفصيل قول نوح عليه السلام فى رد مقالتهم: "ليس بى ضلالة " ولم يقل ليس بى ضلال فينفى عين ما قالوه بل عدل إلى ما يدفع قليل ذلك وكثيره فى كل قضية قضية، وإذا نفى وجود الضلال فى كل واحدة من تلك القضايا بعد انتفاء الضلال عن كلها وبرئت ذمته الرفيعة عن الاتصاف بشئ مما رموه به ومثله الزمخشرى بجواب من قيل له: "ألك ثمر فقال ولا ثمرة واحدة " وهو تنظير حسن فقد حصل إطناب وتفصيل فى المعنى ولطول المجاورة بينه وبين قومه ما قالوه له فى آخر مقالهم: "قد جادلتنا فأكثرت جدالنا "فلهذا قال: "أبلغكم رسالات ربى " فجمع فكأنه عليه السلام يقول: كل قضية أبلغتكم إياها فربى أرسلنى بها وكل منها رسالة أرسلت بها إليكم محفوظا فى ذلك بعصمة الله إياى منزها عما توهمتم من الضلال ثم أتبع

بقوله: "وأعلم من الله مالا تعلمون " يريد مما منعكم من تصديقى فيه ما رميتمونى به من الضلال فرد عليه السلام قولهم بألطف رد وأرفقه بقوله: "وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون " وفى طى هذا الكلام ما يفهم توبيخهم ويشير إلى تعاميهم وجهلهم فهو يرمى ما تمهد موضع جمع رسالة لما تحصل مما يفهمه النظم الجليل من التفصيل الذى به يتم المعنى المقصود فكلامه عليه السلام مع ما بنى عليه من التفصيل الذى تضمنه جوابهم فليس كالوارد فى قصة صالح عليه السلام فى قضية خاصة والله أعلم.

ألا ترى قول ملإ قومه من كفارهم لمن آمن منهم: أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه فقصروا سؤالهم وخصوه بصحة الرسالة ثم قالوا للملإ من المؤمنين: "إنا بالذى آمنتم به كافرون " ثم بنوا على هذا سائر ما كان منهم من الكفر والعتو وعقر

=

=

الناقة وإنما سألوا أولا ودار أمرهم على صحة إرساله عليه السلام فطابق ذلك الإفرد فى قوله: "أبلغتكم رسالة ربى " واما قول قوم هود فى جوابهم لنبيهم: "إنا لنراك فى سفاهة " والسفاهة الطيش وقلة الحلم فحال من اتصف بذلك كحال من اتصف بالضلال فلا يثبت على قول ولا يعتمد عليه فهذه كقضية قوم نوح فالجواب عنها كما تقدم فى تلك وكل وارد على ما يجب ويناسب والله سبحانه أعلم بما أراد.

فصل: قد تقدم لنا فى هذه الآية وفيما قبلها أن الضلال يقع ما دون الكفر فيكون مع شناعة فيما يقتضيه بوصفه وإن لم يرد به الكفر دون الإفصاح بلفظ الكفر إذ يصح أن يطلق على متصف بالإيمان برئ من الكفر وقد قال تعالى مخبرا عن إخوة يوسف فى قولهم لأبيهم عليه السلام: "إنك لفى ضلالك القديم " وإنما أرادوا ما يرجع إلى خاطره عليه السلام برجائه يوسف وما يرجع إلى هذا وقد تكرر نحوه فى القرآن فاعلم أن الرسل عليهم السلام لم يجر أمرهم فى دعائهم أممهم إلى الإيمان اولا كما جرى آخرا وبنسبة ذلك جرى جواب أممهم فى مراجعتهم فى الأكثر فإن الرسل عليهم الصلاة والسلام ابتدأوا دعاءهم الأمم بالتلطف والرفق والصبر وبذلك أمروا قال تعالى لموسى عليه السلام فى إرساله فرعون: "فقولا له قولا لينا " وهذا واضح والغال فى مجاوبة أممهم إنما جرى نسبة من هذا ألا ترى قول قوم نوح عليه السلام فى أول دعائه إياهم: "أنؤمن لك واتبعك الأرذلون " وظاهر هذا أنهم إنما أنفوا من الانقياد إلى أمره وقد سبقهم فى ذلك ضعفاؤهم ومن لم يروه بحسب التوهم الخيالى الضعيف أهلا أن يقتدى به وهذا كما قال غيرهم فى إخبار الله تعالى عنهم: "أهؤلاء من الله عليهم من بيننا " وقول الآخرين: "لو كان خيرا ما سبقونا إليه " وهذا كله ليس إفصاحا بالتكذيب وإن أرادوه وكذا قول قوم نوح عليه السلام: "ما نراك إلا بشرا مثلنا " إلى ما اتبعوه من هذا وإنما أفصحوا بالتكذيب أخيرا قال تعالى فى أمر الكافة من الرسل حين توقف أممهم عن الاستجابة: "حتى

=

=

إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا " وقال تعالى فى مكذبيهم: "فلما آسفونا انتقمنا منهم " وتأمل دعاء الرسل حيث دعوا أممهم والتدريج فيما جرى منهم وسير نبينا ﷺ يلح لك هذا وهو أبين من أن يطول بذكره فعلى هذا قلنا إن مقول قوم نوح فى أول جوابهم له: "إنا لنراك فى ضلال مبين " ليس كقولهم أخيرا: "قد جادلتنا فأكثرت جدالنا " وإنما قالوا: "بل نظنكم كاذبين " بعد طول محاورة ثم إنهم لم يدعوا علما بما قالوه من ذلك بل أفصحوا بأن ذلك ظن فالمراد والله أعلم بما رمى به قوم نوح نبيهم من الضلالة وإن تضمن من حيث انتشار مواقع التفصيل واحتمل قصدهم الكفر وغيره ليس كما لو أفصحوا أولا فقالوا: إنك كاذب أو كافر واعتبر هذا الذى أوجزته تجده أوضح شئ والله سبحانه أعلم.

الآية الرابعة عشرة من سورة الأعراف: قوله تعالى: " وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) " وفى سورة النمل: " وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨) " وقال فى سورة العنكبوت: " وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا

=

=

بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠).

قلت: قد تقدم البيان أن اختلاف مقالات الأنبياء لأممهم إنما هو لاختلاف مقاماتهم إذ ليس دعاؤهم إياهم فى موقف واحد زلا لقوم مخصوصين بل يدعوا النبى طوائف من قومه فى أوقات مختلفة ومواطن شتى وقد يكون للطائفة منهم خصوص مرتكب فيراعى نبيهم ذلك فى دعائهم وقد يخاطب ملأهم الأعظم فى مواطن والفئة القليلة منهم فى موطن آخر وربما أطال فى موطن وأوجز فى موطن وذلك بحسب ما يرونه عليهم السلام أجدى وأنفع ولا اختلاف مجاوبة أممهم لهم، فهذا مما لا يحتاج إلى سؤال عنه وقد مر ذكر بيان ذلك وإنما يبقى السؤال عن وجه خصوص كل سورة بما خصت به من ذلك؟ وإذا أجبنا عن ذلك وأبدينا بحول الله المناسبة والالتحام حتى يتبين أن كلا من ذلك لا يصلح تأخيره عن الموضع الذى ورد فيه تعويضا بالوارد فى غير ذلك الموضع منه لم يبق فى هذه الآيات ما يشكل والحمد لله.

وفى قصة لوط عليه السلام سبع سؤالات أولها: قوله فى مطلع الآيات فى الأعراف والنمل: "أتأتون الفاحشة " وقال فى سورة العنكبوت: "أئنكم لتأتون الفاحشة " وثانيها: وصف حالهم فى مرتكبهم فى الأعراف والعنكبوت بقوله: "ما سبقكم بها من أحد من العالمين " وفى سورة النمل: "وأنتم تبصرون.

والجواب عن هذين السؤالين: أن قوله فى الأعراف والنمل: "أتأتون الفاحشة " الهمزة فيها للاستفهام المقصود به الانكار والتعظيم فى توبيخهم على الفاحشة الشنعاء التى لم يأتها غيرهم ولما كان قد تقدم فى الأعراف من ذكر الأمم المكذبين ذكر قوم نوح وهود وصالح وذكرت مرتكباتهم السيئة من معاندتهم للرسل وتكذيبهم وسوء مراجعتهم وذلك مما يطلع عليه من أتى بعدهم وقد خص بالذكر

=

=

من مرتكباتهم أقبحها مما استوجبوا به العذاب وأخذ كل طائفة بذنبها قيل لقوم لوط، عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن هؤلاء المكذبين من قبلكم على سوء مرتكباتهم لم يسبقوكم إلى ما أنتم عليه وقد سمعتم بهم وخلت من قبلكم المثلات فناسب ما قدم من أحوال من قبلهم فى هذه السورة وذكر تلك الأحوال على التفصيل أن وبخ قوم لوط بقبيح جريمتهم وأم من قبلهم على سيئ أحوالهم لم يرضها فكأن قد قيل لهم: هذه قصص من تقدمكم وذكر مرتكباتهم التى أخذوا بها فهل وقع منهم ما وقع منكم؟ أو هل سبق أحد منهم إلى مرتكبهم الشنيع؟ فناسب ذكر الأمم المكذبين قبلهم تقريع هؤلاء بكونهم أول من فعل تلك الشناعة وأنهم لم يسبقهم قيل لهم فى سورة النمل: "أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون " أى تدركون فحشها ببصائركم وأمرها غير خاف على كل ذى عقل، فهل يصدر هذا إلا عن معاند متصف بأعظم الجهل؟ وقيل إنهم كانوا يتجاهرون بها ولا يستحيى بعضهم من بعض فالمراد بقوله: "وأنتم تبصرون " أى ترون ذلك بأعينكم لا يستتر بعضكم من بعض تهكما واستهتارا هذا أعظم الجهل فلستم ممن يعقل أو يعلم شيئا بل أنتم قوم تجهلون.

ولما لم يتقدم فى هذه السورة تفصيل أحوال الأمم المكذبين وأخذهم ولم يذكر ذلك كان ذكرهم كأن لم يتعرفوا حال من تقدمهم فعدل عن توبيخهم بما وبخوا حيث ذكر من كان قبلهم إلى ضرب آخر من التوبيخ لم يكن نص عيه فى الأعراف من بيان شنيع المرتكب فى فعلهم.

وأنه غير خاف، فقيل: "وأنتم تبصرون " أى أن من شأن من له عقل أو بصر يبصر على المأخذ الآخر أن يكتفى بعقله وإبصاره فى ميز ما يشنع.

ثم قد تقدم فى هذه السورة قوله فى قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: "فلما جاءتهم آياتنا مبصرة " أى بينة واضحة جحدوا بها، وهذا أقبح واضحة أو مرئية مشاهدة بالابصار جحدوا بها وهذا من أقبح مرتكب.

=

=

فلما تقدم هذا ناسبه فى قصة لوط عليه السلام قوله: "وأنتم تبصرون" ولقبح هذا التعامى ما أعقب بقوله بعد: "إنكم قوم تجهلون.

ولما تقدم فى سورتى الأعراف والنمل تقريرهم تقريعا وتوبيخا وعرفوا بذلك مرة بعد مرة وردت قصتهم فى العنكبوت مؤكدة بأن واللام لثبوتها فوردت مورد ما يجئ بعد القسم متلقى به القسم، إذ قد تقدم تقريرهم التوبيخى مرتين فجاء الاخبار بعد بما به يخبر عن المتقرر الثابت ولم يكن ليناسب العكس وهذا على مقتضى الترتيب فى السور والآى فجاء كل على ما يجب.

والسؤال الثالث إنه لما تقرر بقوله فى الأعراف والنمل: "إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء" ذكر مرتكبهم القبيح وأنهم فى ذلك من حيث لم يراعوا فى فعلهم إلا مجرد الشهوة ولم يلحظوا ما يلحظه العقلاء ولا ما قررته الشرائع من قصد التناسل والتوالد وقد جبلت عليه البهائم وجرى التعريف من حالهم فى سورة العنكبوت بمثل ذلك فقال تعالى: "أئنكم بتأتون الرجال" فللسائل أن يقول ما وجه اختلاف ما بنى علي هذا الإخبار فى السورتين من وصفهم فقيل فى الأولى: "بل أنتم قوم مسرفون" وفى الثانية: "بل أنتم قوم تجهلون"؟ والعدول فى سورة العنكبوت عن قوله: "شهوة من دون النساء" إلى قوله: "وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر"؟ ما الوجه فى هذا وقد اتفق الإخبار فى مطلع الآى فى هذه السور الثلاث؟

والجواب عن ذلك والله أعلم أنه قصد بما ذكر فى سورة الأعراف الإشارة إلى التعريف بانهماكهم فى الجرائم وقبيح المرتكبات فنص على أفحشها وحصل الإيماء إلى ما وراء ذلك بما ذكر من إسرافهم: "بل أنتم قوم مسرفون. ولما قيل فى سورة النمل: "أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون" كان أهم شئ أن تنفى عنهم فائدة الأبصار إذ لم تغن عنهم شيئا فأعقب بقوله: "بل أنتم قوم تجهلون" أى أن

=

=

مرتكبكم مع علمكم بشنيع ما فيه من أقبح ما يرتكبه الجهال ولم يذكر هنا إسرافهم إذ قد حصل فيما ذكر فى الأعراف.

وأما سورة العنكبوت فقصد فيها تفصيل ما أشير إليه فى الأعراف من شنيع ما ارتكبوه من إسرافهم فقيل: "أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر " وورد أولا - بحسب التريب المتقرر عليه السور والآيات - ذكر أفحش مرتكباتهم ثم أجمل القول فى سائر جرائمهم ثم أتبع فى السورة الثانية بشنيع حالهم فى تلك الفعلة المنصوص عليها من حيث بيان فحشها للأبصار والبصائر ثم أتبع ذلك فى السورة الثالثة بتفصيل بعض قبائح أفعالهم والتنصيص عليها وجاء كله على ما يجب ولا يمكن العكس فيما ورد والله أعلم.

والسؤال الرابع: ما وجه الاختلاف الوارد فى جواب قوم لوط عليه السلام له فى سورة الأعراف: "فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون " وفى سورة النمل: "أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون " وفى سورة العنكبوت: "ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين "؟

والجواب أنه لما زيد فى تعنيفهم فى النمل وتعريفهم بإتيانهم الفاحشة على علم بها أو مع مشاهدة بعضهم بعضا وعدم استخفائهم بها وذلك أقبح فى المرتكب فلما زيد فى تعليل الاخراج التنصيص على الآل لأن قوله: "آل لوط " - أنص فى إخراج جميع من للوط عليه السلام من ذويه وأهله من قوله: "أخرجوهم " بزيادة التنصيص الأعم بإزاء الأزيد فى التقريع ولما عدد من قبائح مرتكباتهم فى العنكبوت ما عدد بقوله: "أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر " فكان تعداد مرتكباتهم أشد توبيخا فى تقريعهم وأنكأ لتمييز أفئدتهم كان مظنة تهيج واشتعال لسيئ أخلاقهم وقبيح جوابهم فجاوبوا جواب من استحكم حنقه وطبع على قلبه فقالوا: "ائتنا بعذاب الله " تحكيما وتحقيقا

=

=

لتكذيبهم وشاهدا بتصميمهم على المعاندة والكفر لأن قولهم فى الموضعين قبل: "أخرجوهم من قريتكم " على شناعة مرتكبهم فيه ليس كقوله: "ائتنا بعذاب الله " لأن قولهم: "أخرجوهم من قريتكم " يفهم فحواه ما يستلزم إخراجهم من مجازاتهم على ذلك فهو فى قوة قول القائل لمعانده: أنا أعاملك بكذا فإن قدرت على الانتصار لنفسك فافعل وقول القائل: أنا أفعل كذا ولا أبالى بما يكون عن ذلك وكأن قد قالوا: أخرجوهم فإن كان عذاب فليأت به فلما اشتد حنقهم نا طلبوا العذاب وعدلوا عن ذلك السبب استعجالا للمسبب فجاء كل من هذا على ما يجب والله سبحانه أعلم.

والسؤال الخامس قوله فى الأعراف: "فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين " وفى سورة النمل: "قدرناها من الغابرين "، وقد ورد فى إهلاك امرأة لوط عليه السلام فى الحجر: "إلا امرأته قدرنا أنها لمن الغابرين " وللسائل أن يسال عن وجه الاختلاف فيما ذكر وورود كل من هذه العبارات حيث ورد؟

والجواب أن قدرناها معط من المعنى ما يعطيه كانت من غير فرق لأن المراد إلحاقها بالهالكين وإخراجها من الناجين وهذا المعنى هو المراد بقدرناها مشددا وذكلك قوله فى الحجر: "قرنا أنها " وأما وجه اختصاص "كانت " بآية الأعراف فليناسب إيجازا قوله: "أخرجوهم " وقوله فى النمل "قدرناها " ليناسب: "أخرجوا آل لوط " وقوله فى الحجر: "قدرنا أنها " ليجرى مع ما وكد قبل بأن ويناسبه كقوله: "إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين " وقوله: "إنا لمنجوهم أجمعين " فقيل مناسبا لذلك: "قدرنا أنها " وتناسب هذا كله.

والسؤال السادس ما وجه تعقيب قوله فى الأعراف: "وأمطرنا عليهم مطرا " بقوله: "فانظر كيف كان عاقبة المجرمين " وفى النمل بقوله: "فساء مطر المنذرين " وهل كان يحسن العكس؟ والجواب أنه لما تقدم فى الأعراف قوله: "ما سبقكم

=

=

بها من أحد من العالمين "حصل منه أن ارتكابهم ما لم يسبق إليه غيرهم قد جمع إلى قبيح الفحش الاجترام من حيث لم يفعل تلك الفعلة الشنعاء من تقدمهم فأجمع إلى الفحش الاجترام فأعقب بقوله: "فانظر كيف كان عاقبة المجرمين " ولما تقدم فى النمل قوله: "أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون " حصل منه تعنيف وإنذار لم يقع مثله فى الأعراف إذ ليس موقع قوله: "ما سبقكم بها من أحد من العالمين " فى الانذار والتعنيف كموقع تعريفهم بعلمهم بها وشنعة معاينة بعضهم بعضا من ارتكابها فناسب إنذارهم بهذا ما أعقب به من قوله: طفساء مطر المنذرين " ولو أعقبت آية الأعراف بهذا أو آية النمل بما أعقبت به آية الأعراف لم يكن متناسبا فجاء كل على ما يجب والله أعلم.

والسؤال السابع ما وجه قوله فى الأعراف: "وما كان جواب قومه "منسوقا بالواو وفى النمل والعنكبوت: "فما كان جواب قومه " بالفاء مع ان القصة واحدة فلا فرق بين الجوابين؟

والجواب أنه حيث يراد مع ما سببية أو ما يشبه معنى المجازاة وكان الكلام المجاوب بصريح الفعل إذ هو أوضح إحرازا لهذا المعنى فحيث يجئ هذا فالوجه والأولى أن يترتب الجواب بالفاء وسواء تسبب عن الأول أو أقيم مقام ما تسبب عن الأول مثال الجارى على طريقة السببية قوله تعالى: "سنقرئك فلا تنسى " وقوله: "فآمنوا فمتعناهم إلى حين " وقوله: "فكذبوه فأنجيناه "وهذا كثير.

ومثال الثانى: "ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا " وقوله: "وجعلنا لهم سمعا وأبصرا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ. ولما تقدم فى سورة النمل قوله تعالى: "أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون "أى وقد منحتم بصائر للفه والاعتبار أو أبصارا لإدراك الأشياء وإحراز الحياء المانع من مواقعة

=

=

العار.

فما أثمر أنس ذلك لكم إلا التعامى عن رشادكم وتمادى عنادكم فختام الآيتين بقوله: "وأنتم تبصرون " وقوله: "بل أنتم قوم تجهلون " فالجملة الفعلية فى خبر المبتدأ فى الأول وفى الصفة الموطئة للخبر فى الثانية مسوغ لتقدير معنى السببية لذلك من الواو فى سورة الأعراف إذ الختم فى الآيتين قبل آية الجواب بالجمل الإسمية: "ما سبقكم بها من أحد من العالمين بل أنتم مسرفون " فليس هذا فى تقدير السببية كالأول فالجواب هنا بالواو وحسن مع جواز الفاء والجواب بالفاء حيث تقدم أقوى لمكان الفعل وكون المعنى عليه فورد على ما يقويه السياق ويشهد له المعنى.

وأما آية العنكبوت فقد تقدم فيها أيضا قوله تعالى: "أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر " فهذه جملة فعلية وتقدير معنى السببية فيها كآية النمل، فالجواب فيها بالفاء كما فى آية النمل أولى وأجرى مع المعنى وما يعطيه السياق وجاء كل ذلك على ما يناسب والله أعلم.

الآية الخامسة عشرة من سورة الأعراف

قوله تعالى: " وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره "وفى سورة هود: "وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره " وفى سورة العنكبوت: "وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله "فاختصت آية العنكبوت بالفاء فى قوله "فقال "فيسأل عن ذلك؟

والجواب عنه: أنه لم يقع فى سورة العنكبوت من ذكر إرسال الرسل ما بنى على أرسلنا ظاهرا ومقدرا منوطا به ذكر المرسل إليهم بحرف الغاية الذى هو "إلى " غير قوله تعالى: " لقد أرسلنا نوحا إلى قومه "وقوله: "وإلى مدين أخاهم شعيبا " وتعلق حرف الغاية فى الأولى بالفعل الظاهر وهو "أرسلنا " وتعلق فى الثانية

=

بأرسلنا المقدر وقد قيل فيما بنى على الأخبار بالإرسال فى الأولى: "فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما " بالفاء فى قوله "فلبث فيهم " فقيل فى الثانية "فقال " بالفاء لتناسب ما ورد فى هذه السورة من ذكر إبراهيم ولوط عليهما السلام فعلى غير البناء على أرسلنا ظاهرا أو مقدرا أو إيصاله إلى المرسل إليهم بإلى عدل فى ذلك إلى ما يصح فيه تقدير أذكر كقوله: "وابراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه " وقوله: "ولوطا إذ قال لقومه " فلما انفردت الآيتان اولا وهما آية إرسال نوح وآية إرسال شعيب لما انفردتا بما ذكر نوسب بينهما فدخلت الفاء فى قوله "فقال " فى قصة شعيب عليه السلام كما دخلت فى قوله "فلبث " فى قصة نوح كما تقدم.

وأما آية الأعراف وآية هود فإنه لما ذكر فى كل واحدة من هاتين السورتين جماعة من الرسل مبينا أخبارهم على وتيلة واحدة من ذكر الرسل والمرسل إليهم وتكرر ذلك بدئ بأول قصة على الاستيفاء فقيل: "لقد أرسلنا نوحا إلى قومه " ثم أوجز بعد فورد بغير الافصاح بلفظ الارسال وبغير الفاء والتحم ذلك وتناسب لاتحاد المقصد فى السورتين والله أعلم.

الآية السادسة عشرة قوله تعالى: " تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ " وفى سورة يونس: " ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤) " وورد فى أول هذه السورة أيضا: " وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣).

فيها أربع سؤالات الأول: ورود الضمير المجرور فى الآية الثانية من سورة يونس وهو قوله "به " وسقوطه مما سواها والثانى قوله "كذلك يطبع الله " فجئ بالاسم

=

الظاهر فى سورة الأعراف بالكفر وفى ثانية يونس بالاعتداء والرابع قوله تعالى فى الأولى فى سورة يونس عدولا عما فى السورتين "كذلك نجزى القوم المجرمين. للسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب عن الأول: أنه لما تقدم فى سورة الأعراف قوله تعالى: " وتصدون عن سبيل الله من آمن به " وقوله: "وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا " ثم قال بعد: "فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا " وقع الاكتفاء بما تقدم من قوله "بالذى أرسلت به " والذى أرسل به هو الذى طلب منهم الإيمان به فحصل المقصود فلو قيل أخيرا "به " لكان تكرارا فاقتضى الإيجاز وإحراز البلاغة حذفه لحصوله كما حذف من قوله: "وطائفة لم يؤمنوا " مع أنه مراد فحذف الموصول وصلته ورابطها إذ التقدير وطائفة لم يؤمنوا بالذى أرسلت به لحصول ذلك مما تقدم وأما قوله فى يونس: "فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل " فإنه لما تقدم هنا ما تقدم هناك فلم يكن بد من الإتيان بالضمير ليحصل ما وقع من التكذيب ولترتبط الصلة بالموصول.

والجواب عن الثانى: أن قوله تعالى فى سورة يونس: "كذلك نطبع على قلوب المعتدين " مناسب ومرتبط بما افتتحت به الآية من قوله تعالى: " ثم بعثنا " فأخبر تعلاى بإنعامه على عباده – ممن هداه – بنعمة الرسل إحسانا وامتنانا ولتقوم الحجة على الخلق فقال تعالى: "بعثنا " بإضافة هذا الفعل إلى الكناية العلية وهى ضمير المتكلم فناسب ذلك ما بنى عليه وارتبط به من قوله تعالى: " كذلك نطبع " مراعاة للتناظر والتقابل وأما آية الأعراف فمبنية على مطلعها من قوله تعالى أول الآية: "ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل " فلم يتقدم ما يطلب بورود الفاعل مضمرا فجاء على ما يجب إذ لا طالب بمناسبة.

والجواب عن الثالث: أن آية الأعراف لما تقدمها قصص قد جرى فيها ذكر

=

=

مكذبى الأمم أنبياءهم وما ردوا عليهم وخاطبوهم به كقول كفار قوم صالح عليه السلام لمن آمن به منهم: "إنا بالذى آمنتم به كافرون " وقولهم: "ياصالح ائتنا بما تعدنا " وقول الملإ من قوم شعيب لمن آمن منهم: "لئن اتبعتم شهيبا إنكم إذا لخاسرون " إلى ما بعد وما قبل من سئ المجاورة من مكذبى الأمم فحصل من هذه الآى من التعريف بحال هؤلاء الأمم هذه القصص بذكر غيرهم ممن سلك مسلك من تقدمهم من المذكورين ما ناسبه قوله تعالى عقب جميعها: "كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين " وأما آية يونس فلم يتقدم قبلها تفصيل ولا إفصاح بمخاطبة نبى ومواجهته بمثل ما فى آى الأعراف بل ورد ذلك مورد الإجمال فناسبه وصفهم بالاعتداء وإن لم يقع إفصاح بكفرهم مع أنهم كفار وإن ذلك حاصل من مجمل ذكرهم إلا أن جليل مناسبة النظم مقتض ما ورد عليه كل مما فى السورتين وذلك واضح، والله أعلم بما أراد.

والجواب عن السؤال الرابع: أن قوله تعالى: " كذلك نجزى القوم المجرمين " لم يتقدم قبله تفصيل قصص ولا بسط قصة منها بل أوجز معنى ما انطوت عليه تلك القصة فعبر عن ذلك بقوله تعالى: "ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا " فناسب هذا الإيجاز ما بنى عليه من قوله: "كذلك نجزى القوم المجرمين " ومن التعبير عن المشار إليهم من المهلكين بالاجرام - وهو أكبر موقعا من الاعتداء - ليطابق وصفهم بالظلم والمراد به تكذيبهم الرسل وكفرهم بما جاؤوهم به، فلم يكن ليطابق ذلك الوصف الاعتداء ولم يوصفوا أيضا بالكفر إذ لم يقع به إفصاح فيما تقدم فكان وصفهم بالإجرام أنسب والله أعلم.

الآية السابعة عشرة قوله تعالى: " قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم وجاء السحرة فرعون " وقال فى الشعراء: "قال للملإ حوله

=

=

إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم فجمع السحرة.
فى هذا أربع سؤالات: أولها قوله تعالى فى الأعراف: "قال الملأ من قوم فرعون " وفى الشعراء: "قال للملإ من حوله " والثانى قوله فى الشعراء: "بسحره " ولم يثبت ذلك فى الأعراف، والثالث قوله فى الأعراف: "وأرسل " وفى الشعراء: "وابعث " ولارابع قوله فى الأعراف عقب قوله: "يأتوك بكل ساحر عليم.
"وجاء السحرة فرعون " وأعقب فى السعراء قوله: "يأتوك بكل سحار عليم فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين " وبعد ذلك قيل: "فلما جاء السحرة.
والجواب عن الأول أنه لا توقف فى أن موسى عليه السلام خاطب فرعون وملأه وأنه أمر بخطابهم وإليهم أرسل قال تعالى: "ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرون وملئه " وإنه لما دعاهم لتصديقه والإيمان به جاوب فرعون وجاوب ملأه بقول فرعون: "إن هذا لساحر عليم " إنما قاله لملئه ولمن حضره ثم قال ذلك ملؤه لحاضريهم وبعضهم لبعض وإذا وضح أن ذلك القول صدر من فرعون وقاله أيضا ملؤه بقى السؤال عن جه اختصاص كل سورة بما خصت به؟
والجواب أنه لما تقدم فى سورة الأعراف قوله تعالى: " ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه " فوقع ذكر الملأ مبعوثا إليهم مع فرعون ناسب ذلك أن يذكروا فى الجواب حتى يكون فى قوة أن لو قيل: بعث إليهم وخوطبوا فقالوا ولم يكن ليناسب "بعث إليهم " فقال: فرعون.
ولما تقدم فى سورة الشعراء قوله: "فأتيا فرعون " ثم جرى ما بعد المحاورة ومراجعة الكلام بين موسى عليه السلام، وفرعون ولم يقع الملأ هنا ناسب ذلك قوله "قال فرعون " لأنه الذى راجع وخوطب فجاء كل على ما يناسب.

=

=

فإن قيل: فقد قيل فى الأعراف: "إلى فرعون وملئه " فقد فرعون فهو أعمد من الملأ لأنهم أتباعه وآله فلم لم يبن الجواب على ذلك فيقال "قال فرعون " فالجواب أنه لو قيل: قال فرعون لبقى التشوف إلى تعريفهم قول الملأ وهم قد بعث إليهم وخوطبوا ولابد من تعرف جوابهم وبه يحصل تعرف جوابه هو لأنه اله وتابعوه إنما يتكلمون غالبا بما يريد ويصدر عنه ويبدأ به وقد تبين ذلك فى سورة الشعراء وان فرعون خاطبهم وذلك فى قوله تعالى: " قال للملإ حوله " فجاوبوا فحصل من جوابهم جوابه ولو جاوب هو وسكت ملؤه لأمكن أن يكونوا قد استوضحوا الحق وخالفوا فرعون كما جرى للسحرة وقد كانوا ناصرين لفرعون ومن معه فجاء جواب الملأ منصوصا وحصل منه جواب متبوعهم ولم يكن ليحصل من جوابه على انفراده وحصلت مناسبة ما تقدم من قوله: "إلى فرعون وملئه.

فإن قلت ورد فى الشعراء جواب فرعون دون جواب ملئه؟.

فالجواب: أنه قد جاوبوا بعد وذلك أنه لما خاطب فرعون ملأه الأقربين وألقى إليهم ما اعتقده بضلاله فى أمر بنى الله موسى عليه السلام، واستشارتهم بقوله: "فماذا تامرون "وجاوبوه بموافقته العائدة على جميعهم بالخسران المبين بين ذلك قوله تعالى مخبرا عنهم: "قال للملإ حوله " وهذا يوضح أن جوابهم فى الأعراف مبنى على استطلاع ما عنده وسماع ذلك منه كما وضح منه كما وضح هنا، ثم روعى تناسب النظم والتقابل كما تقدم.

فقد تبين أن الوارد فى سورة الأعراف ليناسب ما تقدم فى سورة الشعراء بوجه: "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.

والجواب عن السؤال الثانى: أن زيادة "بسحره " فى الشعراء لأنه من قول فرعون طاغية موسى عليه السلام وهو أحنق عليه من الملأ بجمعهم وأعظمهم بغضا له وكراهة

=

=

لما جاء به موسى فأكد بقوله "بسحره " طمعا فى صغوهم لقوله والثبات على مذهبه الشنيع ومرتكبه ورجاء أن يعتقد الملأ من قومه أن آية موسى عليه السلام سحر لا توقف فيها فلم يقنع بقوله لملئه: أنه لساحر عليم وأنه يريد إخراجهم من أرضهم حتى سجل على ذلك وأكده طمعا فى قبول باطله بقوله "بسحره " ولا لم يكن حال الملإ من قومه كحاله فيما ذكر اكتفوا بقولهم لرسولهم وبعضهم لبعض: "إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم " فهذا قول الملإ والذى ثبت فى الشعراء قول فرعون وزيادة "بسحره " لتبين حال الملإ من حال فرعون المتولى كبير الأمور والتناسب بين وكل فى السورتين وارد على ما يجب وقد وضح أن العكس غير مناسب والله أعلم.

ويشهد أن زيادة "بسحره " من فرعون لزيادة حنقه تكرر ذلك من قوله فى سورة طه: "قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى " فأما بعد فى هذه السورة من قوله سبحانه مخبرا عن الملإ: "قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما " فإنما قالوه بعد تنازع وتعارض فيما بينهم وفرعون فى جملتهم يدل على هذا ما تقدم من قوله تعالى: " فتول فرعون فجمع كيده ثم أتى " وقوله: "فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى " وإنما أسروا نجواهم - بعد تنازعهم فى أعمال المكيدة - فيما حل بهم وفرعون مرجح لرأيهم وأبلغهم احتيالا وكيدا فيما تشاورا فيه فلم يمكنهم فى هذا المجتمع الا القول بما رآه بعد تنازعهم عليه فقالوه بتوقيف منه وهو حاضرهم حال تنازعهم وقولهم لموسى عليه السلام فإذا هو القائل لا الملأ وان الوارد فى الأعراف فقول الملإ إذ لا يقتضى قوله: "قال الملأ من قوم فرعون " أن فرعون هو القائل وان كان كذلك بل الظاهر السابق من هذه العبارة أنه قول الملإ منفردين عن فرعون والتناسب اللفظى هو المطلوب وقد تبين.

=

=

والجواب عن السؤال الثالث وهو ورود "وأرسل " فى سورة الأعراف وفى الشعراء "وابعث " فالجواب عنه مبنى على الترتيب الذى استقر عليه المصحف فنقول: "إن أرسل أخص فى باب الارسال من البعث إذ لا يقال أرسل الا فيما كان توجيها فيه معنى الانتقال حقيقة أو مجازا أما بعث فأوسع فإنه يقع بمعنى الارسال وبمعنى الاحياء ومنه البعث الأخراوى ففيه اشترك فلما كان الارسال أخص وقع الاخبار به أولا ثم وقع ثانيا بالبعث تنوعيا للعبارة وعلى الترتيب فى موضع اللفظ المطرد من القرآن ولا يمكن على ما تقرر من ذلك العكس ونظير هذا مما تقدم تبع واتبع ويذبحون ويقتلون وقد مر بيانه والإطراد واضح شاهد فى هذا.

والجواب عن السؤال الرابع وهو ورود قوله تعالى: " وجاء السحرة فرعون " فى الأعراف عقب قوله: "يأتوك بكب ساحر عليم " وتأخير الإخبار بمجيئهم فى الشعراء وورود: "فجمع السحرة... "الآيات المذكورة فاصلة بين ما اتصل فى الأعراف؟ فاعلم أولا أن كلا من العبارتين لابد منهما فى تحصيل المطلوب إذ جمعهم لا يعطى بهذه العبارة أنهم جاؤوا فرعون ولا مجيئهم فرعون يحصل منه المعنى الحاصل من قوله: "فجمع السحرة لميقات يوم معلوم " فلابد من العبارتين اجتمع مجموع ذلك فى الشعراء ولم يذكر فى الأعراف جمع السحرة وما بعده فيبقى السؤال عن وجه اختصاص كل من السورتين بما ورد فيهما؟ واختصاص الشعراء بالاستيفاء والجواب عن ذلك أن قوله تعالى: " فجمع السحرة لميقات يوم معلوم " إلى ما اتصل بهذا مما يتضمن معناه فيه إطناب يناسب ما تقدم من ذلك فى محاورة موسى عليه السلام ومكالمته فرعون من لذن قوله تعالى: " وإذ ينادى ربك موسى "الى هذه الآية ولم يقع فى قصصه عليه السلام فى السورة الوارد فيها قصصه من الإطالة فى مراجعة فرعون مثل الوارد هنا فناسبه ما أعقب به مما لم يقع الإخبار فى الأعراف ولما كان الوارد قبل آية الأعراف مبنيا على

=

=

الإيجاز ويحصل المراد بأوجز كلام، ناسبه إيجاز الآية المذكورة وورد كل من ذلك على ما يجب ويناسب ولا يحسن فيه العكس والله أعلم.

الآية الثامنة عشرة قوله تعالى فى سورة الأعراف: "وجاء السحرة فرعون قالوا أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين " وفى الشعراء: "فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجر إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين " فيسأل عن زيادة "إذا " فى سورة الشعراء وسقوطها فى سورة الأعراف؟ وتحرير الأعراف فى قوله: "وجاء السحرة فرعون قالوا " بخلاف الوارد فى سورة الشعراء من قوله: "فلما جاء السحرة فرعون قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا "؟

والجواب عن الأول: أن "إذا " تقع جوابا وجزاء والمعنى فى السورتين مقصود به الجزاء فوقع الاكتفاء فى الأعراف بقوله تعالى "نعم "والمعنى: نعم لكم ما أردتم من الأجر وزيادة التقريب والحظوة ولا شك ان المعنى: إن غلبتم فلكم ذلك فالمعنى على ذلك ثم ورد فى سورة الشعراء مفصحا بالأداة المحرزة له وهى "إذا " ليناسب بزيادتها ما مضت عليه – أى هذه السورة – من الاستيفاء والإطناب كما تقدم وناسب سقوطها فى الأعراف مقصود الإيجاز فى هذه القصة وقد مر هذا وعلى ذلك جرى الوارد من قوله فى الأعراف: "وجاء السحرة فرعون قالوا " ويجرى فى مثل هذا كثيرا عطفه بالفاء مناسبا لما يقصد فى الكلام من الارتباط أو بالواو تحكيما للاشتراك كقوله [بياض فى كل النسخ] ونظير الآية فى سقوط حرف التشريك: "وجاؤوا أباهم عشاءا يبكون قالوا يأبانا " ومجرى الإعراب فى الآية أن يكون قوله "قالوا " مقدرا لاستئناف كأن قد قال قائل: لما قال: " وجاء السحرة فرعون "قيل فما فعلوا أو ما قالوا فجووب بهذا المقدر بقوله: "قالوا أئن لنا لأجرا " وهذا الضرب كثير فصيح وموجود حيث يقصد بالإجاز كهذه الآية وأما الوارد

=

=

فى الشعراء من قوله: "فلما جاء السحرة قالوا " فوارد على مالا يحتاج فيه إلى تقدير وعلى ما هو الأصل فى تركيب مثله من الكلام ومناسب للاطناب المبنى عليه ما قبل الآية وكل على ما يجب والله أعلم.

الآية التاسعة عشرة من الأعراف قوله تعالى: " قالوا ياموسى إما ان تلقى وإما أن نكون نحن الملقين " وفى طه: "قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى " وهنا سؤالان: أحدهما أن كلام السحرة وتخييرهم فى الإلقاء على ظاهر السياق كان فى موطن واحد فما وجه الاختلاف ما ورد فى السورتين؟ والثانى ما وجه اختصاص كل من السورتين بما ورد فيها؟

والجواب عن الأول: أن لا يلزم من الآية أن كلام السحرة هذا كان فى موطن واحد بل لعله كان فى موطنين أو لعله قد تكرر منهم وإن كان فى موطن واحد أو لعل بعضهم قال هذا وقال بعضهم هذا أو لعل المعنى الذى حكى عنهم تعطيه العبارتان وهذا أقرب شئ لما بين اللغات من اختلاف المقاصد عند المواضع الأولى أو قصد الإلهام على الخلاف فى ذلك ومع هذه الاماكانات يسقط الاعتراض رأسا.

والجواب عن السؤال الثانى: أن كل واحدة من الآيتين جرت على وفق فواصل تلك السورة ورؤس آياتها فالعكس لا يناسب بوجه فوجب اختصاص كل سورة بما ورد فيها.

الآية الموفية عشرين قوله تعالى: " قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون " وكذا فى الشعراء، وورد فى طه: "قالوا آمنا هارن وموسى " هنا كالمتقدمتين الجواب كالجواب من غير فرق.

الآية الحادية والعشرون قوله تعالى: " قال فرعون آمنتك به قبل أن آذن لكم " وقال فى طه والشعراء: "قال آمنتم له قبل أن آذن لكم.

=

=

هنا سؤالان: أحدهما ظهور اسم فرعون فى آية الأعراف وإضماره فى السورتين والثانى قوله فى الأعراف: "آمنتم به "بجر موسى عليه السلام بالباء وقوله فى طه والشعراء: "فآمنتم له " بجر الضمير باللام والمقصود واحد.

والجواب عن الأول: أنه لما تقدم فى الأعراف قوله: "قال الملأ من قوم فرعون " فعرفت هذه الآية انهم كانوا المتولين للجريمة من تكذيب الآية ورد ما جلء به موسى عليه السلام ولم يجر هنا ذكر لفرعون ولا فيما تلى الآية ويتلوها من المحاورة والمراجعة بين الملإ وأتباعهم إلى قوله: "رب موسى وهارون " فلما لم يقع إفصاح باسمه فى هذه الجملة مع أنه هو القائل على كل حال: "آمنتم به " إخبارا أو استفهاما إنكاريا ناسب هذا أن يفصح باسمه ليرتفع الالتباس وهو امكان أن يكون القائل "آمنتم به " غير فرعون وان بعد ذلك ولو لم يكن لبس البته فإن كونه لم يجر له ذكر مما يقتضى أن ذمر.

ولما تقدم فى سورة طه أمر مويى عليه السلام بإرساله إلى فرعون فى قوله تعالى: " اذهب إلى فرعون أنه طغى "وقوله لموسى وهارون: "اذهبا إلى فرعون أنه طغى " ثم كرر ذلك ثم وقع بعد ذلك سؤال فرعون لهما فى قوله: "فمن ربكما ياموسى " ثم فى قوله: "فما بال القرون الأولى " ثم أن الله تعالى أخبر عنه بقوله: "ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى " ثم أخبر أيضا عنه بقوله: "قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى " ثم قال تعالى: "فتول فرعون فجمع كيده ثم أتى " فتكرر ذكر فرعون واسمه ظاهرا ومضمرا ولم يجر لملئه ذكر مفصح به ظاهر البته ولا مضمر سوى الجارى مضمرا فى قوله: "فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى قالوا " إلى ما بعد هذا من غير إظهار البته فلتكرر اسم فرعون كثيرا ظاهرا ومضمرا وارتفاع اللبس البته حسن إتيانه مضمرا فى قوله: "قال آمنتم له " إذ ليس الوارد هنا كالوارد فى الأعراف للافتراق من حيث ذكرنا وكذا جرى فى سورة الشعراء من ترداد ذكر

=

=

فرعون فى محاورته من أول السورة إلى الآية ولم يجر ذكر ملئه الا مقولا لهم فى قوله: "قال للملإ حوله " فناسب ما ذكر إظهار اسم فرعون فى قوله: "آمنتم له.

والجواب عن السؤال الثانى: أن الباء فى قوله: "آمنتم به " واللام فى "آمنتم له " محتاج إلى كل واحدة منهما من حيث أن التصديق والانقياد معنيان يحتاج إليهما والباء تحرز التصديق واللام تحرز الانقياد والاذعان فبدئ بالباء المعطية معنى التصديق وهى أخص بالمقصود من اللام فاقتضى الترتيب تقديمها ثم أعقب فى السورتين بعد باللام حتى كأن قد قيل لهم أصدقتموه منقادين له فى دعائه إياكم إلى الإيمان بما جاء من عند الله فحصل المقصود على أكمل ما يمكن والله أعلم.

الآية الثانية والعشرون قوله تعالى: "فسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف " وفى سورة الشعراء: "فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف " وفى سورة طه: "فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف " للسائل أن يسأل عن زيادة اللام فى قوله فى الشعراء "فلسوف " وسقوطها فى الأعراف؟ وعن سقوط حرف التسويف واللام فى طه جملة؟ فهذان سؤالان.

والجواب عن الأول منهما: أن زيادة اللام فى الشعراء مناسب لما تضمنته من الاستيفاء الجارى فى هذه القصة وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك وذلك أن هذه اللام مقربة من زمان الحال وتحقيق الوقوع ولم يكن تقدم فى الأعراف ولا فى طه ما يحرز هذا المعنى فاستوفته هذه السورة ليناسب ذلك استيفائها لما كان بين موسى عليه السلام وفرعون وهذا مع ما تعطيه من التأكيد وما سوى هذا المعنى فى هذه الآية فلا فرق بين آية الأعراف وآية الشعراء إلى قوله: "من خلاف.

واما سقوط حرف التسويف فى طه واللام - وهو جواب السؤال الثانى - فللعوض منهما وذلك العوض هو اللام والنون الشديدة المؤكدة فوله "ولتعلمن "مع أن معنى التسويف قد قدم بمراعاة الترتيب وإذا روعى ذلك وجد تدريج

=

=

زيادة التأكيد على ترتيب السور فالوعيد الواقع فى آية طه آكد من الذى فى آية الأعراف والذى فى الشعراء آكد من الوارد فى طه وان استوضحت ذلك فهمت وجه تخصيص كل من السور الثلاث بما خصت به.

الآية الثالثة والعشرون قوله تعالى: " ثم لأصلبنكم أجمعين "وفى طه والشعراء "ولأصلبنكم "بالواو والمتوعد به واحد فى الموضعين فيسأل لم لم يكن العطف فيهما بحرف واحد؟ والواو أنسب إذ التوعد بقوله: "لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم " لم يقصد فيه تراخ فى الزمان ولا مهلة فبابه أن يأتى بالواو أو بالفاء إن قصد رعى التعقيب فللسائل أن يقول: لم عدل فى الأعراف إلى ثم.

والجواب أن ثم للتباين والتراهى فى الزمان ويعبر النحويون عن ذلك بالمهلة وتكون للتباين فى الصفات والأحكام وغير ذلك مما يحمل به ما بعدها على ما قبلها من غير قصد مهلة زمانية بل ليعلم موقع ما يعطف بها وحاله وأنه لو انفرد لكان كافيا فيما قصد به ومنه قوله تعالى: " فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر "وقوله تعالى: "فلا اقتحم العقبة " ثم عطف بعد قوله: "ثم كان من الذين آمنوا "وقوله تعالى: "وعمل صالحا ثم اهتدى " ولم يقصد فى شئ من هذا ترتيب زمانى بل تعظيم الحال فيما عطف وموقعه وماكنته وتجريك النفوس لاعتباره ولما تقدم فى الأعراف تهويل الواقع من فعل السحرة وموقعه من نفوس الحاضرين ولذلك أنس سبحانه نبيه موسى عليه السلام بقوله: "لا تخف إنك أنت الأعلى "ووقع التعبير غما ذكرنا بقوله: "واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم "فناسبه رعيا لفظيا وتقابلا نظميا تهويل ما توعدهم به فرعون فعطف بثم لتحرز ما قصد فرعون من تعظيم موقع ما توعدهم به ثانيا فى قوله: "لأصلبنكم "عليهم وأيضا فإن فرعون وملأه حين رأوا ما جاءت به السحرة ووقع منهم موقعا أطمعهم وتعلق به رجاؤهم ثم لما وقع ما أبطله وأوضح كيدهم فيه وباطلهم الخيالى وجد الملأ لذلك واستشعر

=

=

فرعون ما حل به وبملئه فهول فى توعدهم ومقاله تجلدا وتصبرا أو تعزية لنفسه عما نزل به فأرعد وأبرق فى تهويله ما توعد به السحرة فقال: "ثم لأصلبنكم " فقد تناسب المتقابلان لفظا ومعنى ولما ضم الواقع فى سورة الشعراء لم يحتج إلى هذا الرعى فعطف بالواو ولم يكن على ما تقرر ليمكن العكس والله أعلم.

الآية الرابعة والعشرون قوله تعالى: " قالوا إنا إلى ربنا منقلبون " وفى الشعراء: "قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون " للسائل أن يسأل عن زيادة قوله: "لاضير "فى سورة الشعراء ولم يرد ذلك فى الأعراف؟

والجواب عنه أن قوله "لاضير " مقابل به ما تقدم من قوله: "وقالوا بعزة فرعون "لما اعتقدوه أولا أن له عزة ونسبوها إليه فظنوا أنه يقدر على ما يريده ويستبد بفعله ثم لما وضح لهم الحق ورجعوا عن اعتقادهم وظنوا وعلموا أن القدرة والعزة لله سبحانه وسلموا لخالقهم ولم يبالوا بفرعون وملئه فقالوا "لاضير " أى لا ضرر ولا خوف من فرعون إذ العزة له وحده ولما لم يقع من قولهم فى الأعراف أولا مثل الواقع هنا لم يجيئوا فى الجواب بما جاؤوا هنا فافترق الموضعان وجاء كل على ما يجب والله أعلم.

الآية الخامسة والعشرون قوله تعالى: " قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير " وفى يونس: "قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون "

للسائل أن يسأل هنا عن تقديم النفع فى الأعراف وتأخيره فى يونس؟ وعن تعقيب آية الأعراف بقوله: "لو كنت أعمل الغيب... "الآية وآية يونس بقوله: "لكل أمة أجل "؟

والجواب عن الأول: أنه لما تقدم سؤالهم عن الساعة وتكرر فى قوله: "يسألونك

=

كأنك حفى عنها "أى عالم بها وكان ظاهر السياق يشير إلى أنهم كانوا يظنون أنه عليه السلام يعلمها فطلبوا تعريفهم بها وأن يخصهم بذلك ولاشك أن العلم بالشئ نفع لصاحبه فعرفهم أنه لا يملك لنفسه نفعا ولاضرا وتقدم ذكر النفع لأنه مشير إلى ما ظنوه أنه عنده من علمها فأعلمهم أنه سبحانه استأثر بعلمها وأنه عليه السلام لا يملك من ذلك شيئا إلا ما شاء الله له مما عدى علم الساعة لانفراده سبحانه عن خلقه بعلمها، "لا يجليها لقوتها إإ هو " ثم تأكد هذا الغرض بقوله تعالى على لسان بيه عليه السلام: "ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير " وهذا كله بين التناسب.

وأما تأخير ما تقدم فى الأعراف فى سورة يونس وهو قوله: "قل لا أملك لنفسى ضرا ولانفعا " فقدم الضر فللمتقدم قبله من قوله: "ويقولون متى هذا الوعد " فطلبوا تعجيل العذاب استهانة وتكذيبا ولم يعلموا ما فى مطالبهم من المحنة والمضرة العاجلة فقال لهم عليه السلام بأمر الله تعالى إنى لا أملك الضر ولا النفع لنفسى ولا لكم فلا تستعجلونى ذلك فليس بيدى فقدم الضر لأجل ما تقدم من طلبهم إياه وأخبروا أن لكل أمة أجلا لما شاءه الله وقدره لهم: "إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون " فقد وضح وجه التقديم والتأخير فى الضر والنفع وتوجيه التعقيب بما أعقب كل من الآيتين.

الآية السادسة والعشرون قوله تعالى: " وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم " وفى سورة حم السجدة [فصلت]: "وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم " فوردت الصفتان فى سورة الأعراف على طريقة التنكير ووردتا فى السورة الأخرى معرفتين وزيد قبلهما الضمير الواقع فصلا فقيل: "إنه هو " وللسائل أن يسأل عن وجه التعريف والتنكير؟ وعن زيادة الضمير؟

والجواب عن السؤالين: أن سورة الأعراف تقدم فيها قبل الآية وصف آلهتهم

=

المنحوتة من الحجارة والخشب التى وبخوا بعبادتها فى قوله فى موضع آخر: "أتعبدون ما تنحتون " فوصفت هنا بأنها لا تخلق شيئا ولا يستطيعون لهم نصرا "وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون " فنفى عنهم القدرة والسمع والبصر وآلة المشى وآلة البطش بقوله: "ألهم أجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها " ولم يتقدم هنا ما يوهم أدنى شئ يلحقها بشبه الأحياء فضلا عما فوق ذلك فورد الصفتان بقوله: "سميع عليم " موردا لم يتقدمه ما يوهم صلاحية شئ من ذلك لغيره تعالى مما عبدوه من دونه مما قصد هنا ولا ذكر دعوى شئ من ذلك من مدع فيستدعى ذلك التوهم مفهوما ينفيه فجاء على ما يجب.

أما آية الأعراف فتقدم قبلها قوله تعالى: " ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعلمون " وقوله تعالى: "وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم " وقوله تعالى: "أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس " فحصل من هذا أن مضليهم إنما كانوا من عالم الإنس والجن وكلا الصنفين موصوف بالسمع والبصر وممن ينسب إليه علم بخلاف المقدم ذكر فى الأعرفا فلما تقدم فى سورة السجدة من يظن منه الغنى ويمكن منه أن يسمع ويبصر ويعلم ناسبه التعريف فى الصفة ليعطى بالمفهوم نفى ذلك عن غير الموصوف بهما تعالى ثم أكد ذلك بضمير الفصل المقتضى التخصيص فقوى المفهوم المسمى عند كثير من الأصوليين بدليل الخطاب فصار الكلام فى قوم أن لو قيل: الله هو السمبع العليم لا غيره وأحرز الفصل بالضمير هذا المعنى مع إعطاء المفهوم إياه ولم يكن ورود ما فى سورة الأعراف من التنكير ليناسب الوارد متقدما فى سورة السجدة ولا التعريف الوارد فى الصفتين العليتين فى سورة السجدة ليناسب ما تقدم آية الأعراف فجاء كل على ما يناسب والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (١/ ١٧٧-٣٢٤).

=

سورة الأنفال[1]

=

(١) اختلف أهل التفسير في وقت نزول السورة على قولين:

أحدهما: أنها مدنية. وهذا قول ابن عباس، وابن الزبير، والحسن، وعكرمة، وجابر، وعطاء.

عن عبد الله بن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-؛ قال: "نزلت في بدر".

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: نزلت في بدر. أخرجه البخاري في "صحيحه" (٨/ ٣٠٦ رقم ٤٦٤٥ - فتح).

والثاني: انها مدنية إلا سبع آيات، من قوله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: ٣٠]، إلى آخر السبع آيات. قاله ابن عباس أيضا.

قال الفيروزآبادي: "هذه السّورة مدَنيّة بالإجماع".

قال ابن الجوزي: "وهي مدنية بإجماعهم".

* عدد آياتها سبع وسبعون عند الشّاميّين، وخمس عند الكوفيّين، وست عند الحجازيّين، والبصريّين. وعدد كلماتها ألف ومائة وخمس وتسعون كلمة. وحروفها خمسةُ آلاف ومائتان وثمانون.

الآيات المختلف فيها ثلاث {يَغْلِبُوْنَ}، {بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِيْنَ}، {أَمْرًا كَانَ مَفْعُوْلًا}.

فواصل آياته (ن د م ق ط ر ب) يجمعها نَدِمَ قُطْرُب، أو نطق مدبر. على الدّال منها آية واحدة {عَبِيْدِ}. وعلى القاف آية واحدة {حَرِيْق} وعلى الباءِ أربع آيات آخرها {عِقَابْ}.

=

=

❋ أسماء السورة.

تسمى «سورة الأنفال» و«الأنفال»: جمع «نفل»، وهي الغنيمة، والهبة، يقال: نفلّت فلانا تنفيلا: أعطيته نفلا وغنما.

قال ابن عطية: "و «النافلة» في كلام العرب: الزيادة على الواجب وسميت «الغنيمة» نفلا، لأنها زيادة على القيام بالجهاد وحماية الدين والدعاء إلى الله ﷻ".

واشتهرت سورة «الأنفال» بهذا الاسم في عهد الرسولﷺ في كلام أصحابه- رضوان الله تعالى عليهم- فـ «الأنفال» هو الاسم الذي عرفت به بين المسلمين، وبه كتبت في المصاحف حين كتبت أسماء السور، وكتبت في كتب التفسير والحديث.

وسميت سورة الانفال، لأنها افتتحت بآية ورد فيها اسم «الأنفال» وكررت فيها، ومن أجل أنها ذكر فيها حكم الانفال في قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأنفال: ١]، ولم يرد لفظ «الأنفال» في غيرها من سور القرآن العظيم.

وتسمى «سورة بدر» ذكرها السيوطي في «الإتقان» ، واستدل بما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، انه قال له: «سورة الانفال»؟، قال: تلك سورة بدر».

وذكره الفيروزآبادي وعلل تسميتها بذلك "لأن معظمها في ذكر حرب بدر وما جرى فيها".

وتسمى« سورة الجهاد» سمّاها بذلك البقاعي ، دون ذكر سنده في التسمية، ولعله سماها بذلك لأن معظم ما في السورة هو الجهاد واحكامه.

❋ مقصود السّورة مجملًا: قطع الأَطماع الفاسدة من الغنيمة الَّتى هى حق الله ولرسوله، ومدح الخائفين الخاشعين وقت سماع القرآن، وبعث المؤمنين حَقًّا،

=

=

والإشارة إِلى ابتداءِ حَرْب بدر، وإِمداد الله تعالى صحابة نبيّه بالملائكة المقرّبين، والنّهى عن الفِرار من صفّ الكفّار، وأَمر المؤمنين بإِجابة الله ورسوله، والتحذير عن الفتنة، والنَّهى عن خيانة الله ورَسُوله، وذكر مكر كُفَّار مكَّة فى حقِّ النبىّ ﷺ، وتجاسر قوم منهم باستعجال العذاب، وذكر إِضاعة نفقاتهم فى الضَّلال والباطل، وبيان قَسْم الغنائم، وتلاقى عساكر الإِسلام وعساكر المشركين، ووصيَّة الله المؤمنين بالثبات فى صفّ القتال، وغرور إِبليس طائفة من الكفار، وذمّ المنافقين فى خذلانهم لأَهل الإيمان، ونكال ناقضى العهدِ ليعتبر بهم آخرون، وتهيئة عُذْر المقاتلة والمحاربة، والميل إِلى الصّلح عند استدعائهم الصّلح، والمَنّ على المؤمنين بتأليف قلوبهم، وبيان عدد عسكر الإِسلام، وعسكر الشرك، وحكم أَسرى بدر، ونُصرة المعاهدين لأَهل الاسلام، وتخصيص الأَقارب، وذوى الأَرحام بالميراث فى قوله {وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ} إِلى آخر السّورة.

*المتشابهات: قوله: {وَمَا جَعَلَهُ الله إِلاَّ بشرى} وقوله: {وَمَن يُشَاقِقِ} وقوله: {وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله} قد سبق.

قوله: {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ والذين مِن قَبْلِهِمْ} ثمّ قال بعد آية {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ والذين مِن قَبْلِهِمْ} أَجاب عن هذا بعضُ أَهل النظر وقال: ذكر فى الآية الأُولى عقوبته إِيّاهم عند الموت؛ كما فعله بآل فرعون ومَن قبلهم من الكفَّار، وذكر فى الثانية ما يفعله بهم بعد موتهم. قال الخطيب: الجواب عندى: أَنَّ الأَوّل إِخبار عن عذاب لم يمكِّن الله أَحدًا من فعله، وهو ضرب الملائكة وجوهَهم وأَدبارهم عند نزع أَرواحهم، والثانى إِخبار عن عذاب مكَّن النَّاس من فعل مثلِه، وهو الإِهلاك والإِغراق. قال تاج القراء: وله وجهان [آخران] محتملان. أَحدهما: كدأب آل فرعون فيما فعلوا، والثانى: كدأب فرعون فيما فُعِل بهم. فهم فاعلون فى الأَوّل،

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

لَمَّا اخْتَلَفَ الْمُسْلِمُونَ فِي غَنَائِم بَدْر فَقَالَ الشُّبَّان هِيَ لَنَا لِأَنَّنَا بَاشَرْنَا الْقِتَال وَقَالَ الشُّيُوخ كُنَّا رِدْءًا لَكُمْ تَحْت الرَّايَات وَلَوْ انْكَشَفْتُمْ لَفِئْتُمْ إلَيْنَا فَلَا تَسْتَأْثِرُوا بِهَا فَنَزَلَ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ

=

ومفعولون فى الثَّانى. والوجه الآخر: أَنَّ المراد بالأَوّل كفرهم بالله، وبالثَّانى تكذيبهم بالأَنبياءِ؛ لأَنَّ تقدير الآية: كذَّبوا الرّسل بردّهم آيات الله. وله وجه آخر. وهو أَن يجعل الضَّمير فى (كفروا) لكفَّار قريش على تقدير: كفروا بآيات ربّهم كدأْب آل فرعون والذين من قبلهم، وكذلك الثانى: كذَّبوا بآيات ربهم كدأب آل فرعون.

قوله: {الذين آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله} هنا بتقديم أَموالهم وأَنفسهم وفى براءَة بتقديم {فِي سَبِيْلِ اللهِ} لأَنَّ فى هذه السّورة تقدّم ذكرُ المال والفداءِ والغنيمة فى قوله: {تُرِيدُونَ عَرَضَ الدنيا} و {لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ} أى من الفداءِ، {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ} فقدّم ذكر المال، وفى براءَة تقدّم ذكر الجهاد، وهو قوله: {وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُوا مِنكُمْ} وقوله: {كَمَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ الله} فقدّم ذكر الجهاد، وذكر هذه الآى فى هذه السّورة ثلاث مرّات. فأَورد فى الأُولى {بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ} وحذف من الثانية {بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ} اكتفاءً بما فى الأُولى، وحَذف من الثالثة {بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ} وزاد {فِي سَبِيْلِ اللهِ} اكتفاءً بما فى الآيتين. بصائر ذوي التمييز (١/ ٢٢٢ - ٢٢٦).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١).

{يَسْأَلُونَك} يَا مُحَمَّد {عَنْ الْأَنْفَال} الْغَنَائِم لِمَنْ هي {قُلْ} لَهُمْ {الْأَنْفَال لِلَّهِ} يَجْعَلهَا حَيْثُ شَاءَ {وَالرَّسُول} يَقْسِمهَا بِأَمْرِ الله فَقَسَمَهَا ﷺ بَيْنهمْ عَلَى السَّوَاء رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرَك {فَاتَّقُوا الله وَأَصْلِحُوا ذَات بَيْنكُمْ} أَيْ حَقِيقَة مَا بَيْنكُمْ بِالْمَوَدَّةِ وَتَرْك النِّزَاع {وَأَطِيعُوا الله وَرَسُوله إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} حَقًّا[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن سعد بن أبي وقاص؛ أنه قال: أنه نزلت فيه آيات من القرآن، قال: حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، قالت: زَعَمْتَ أن الله وصاك بوالديك، وأنا أُمك، وأنا آمرك بهذا.

قال: مَكَثَتْ ثلاثًا حتى غشي عليها من الجَهْدِ، فقام ابن لها يقال له: عمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد؛ فأنزل الله ﷻ في القرآن هذه الآية: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا} [العنكبوت: ٨] {وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي} وفيها: {وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} [لقمان: ١٥].

قال: وأصاب رسول الله ﷺ غنيمة عظيمة، فإذا فيها سيف فأخذته، فأتيت به الرسول ﷺ، فقلت: نفلني هذا السيف، فأنا من قد علمت حاله، فقال: "رده من حيث أخذته" فانطلقت، حتى إذا أردت أن ألقيه في القبض لامتني نفسي، فرجعت إليه، فقلت: أعطنيه، قال: فشد لي صوته: "رده من حيث أخذته"، قال: فأنزل الله ﷻ: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ}.

قال: ومرضت فأرسلت إلى النبي ﷺ فأتاني، فقلت: دعني أقسم مالي حيث شئت، قال: فأبى، قلت: فالنصف، قال: فأبى، قلت: فالثلث، قال: فسكت، فكان -بعد- الثلث جائزًا.

قال: وأتيت على نفر من الأنصار والمهاجرين، فقالوا: تعال نطعمك ونسقيك =

=

خمرًا -وذلك قبل أن تحرم الخمر- قال: فأتيتهم في حشٍّ -والحشّ: البستان- فإذا رأس جزور مشوي عندهم، وزق من خمر، قال: فأكلت وشربت معهم، قال: فذكرت الأنصار والمهاجرون عندهم، فقلت: المهاجرون خير من الأنصار، قال: فأخذ رجل أحد لحيي الرأس فضربني به فجرح بأنفي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته؛ فأنزل الله ﷻ فيّ -يعني: نفسه- شأن الخمر: {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} [المائدة: ٩٠].
أخرجه مسلم في "صحيحه" (٤/ ١٨٧٧ رقم ١٧٤٨).
وعن سعد بن أبي وقاص؛ قال: لما كان يوم بدر قتل أخي عمير، وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكتيفة، فأتيت به نبي الله ﷺ؛ فقال: "اذهب فاطرحه في القبض"، فطرحته قال: فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي، قال: فما جاوزت إلا يسيرًا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: "اذهب فخذ سيفك".
أخرجه سعيد بن منصور في سننه (رقم ٢٦٨٩)، وأبو عبيد في الأموال (ص ٣٨٢)، وابن أبي شيبة = (١٢/ ٣٧ رقم ١٤٠٣١)، وأحمد (١/ ١٨٠)، والطبري في تفسيره (٩/ ١١٧)، والبزار (١٢٣٩)، الواحدي في أسباب النزول (ص ١٥٥) وإسناد ضعيف؛ لانقطاعه بين محمد الثقفي وسعد؛ فإنه لم يدركه، لذا قال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٣/ ٧٨): إسناده ضعيف؛ لانقطاعه، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣/ ١٢٩): حسن لغيره، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أن فيه انقطاعا، محمد بن عبيد الله الثقفي لم يدرك سعدا، وقد تقدم معنى هذا الحديث برقم (١٥٣٨) بإسناد حسن.
وعن سعد؛ قال: قلت يا رسول الله! قد شفاني الله من المشركين؛ فهب لي هذا السيف، قال: "إن هذا السيف ليس لك ولا لي، ضعه"، قال: فوضعته، ثم =

=

رجعت؛ قلت: عسى أن يعطي هذا السيف اليوم من لم يبل بلائي، قال: إذ رجل يدعوني من ورائي، قال: قلت: قد أنزل فيَّ شيء، قال: "كنت سألتني السيف وليس هو لي، وإنه قد وهب لي فهو لك" قال: وأنزلت هذه الآية: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ}.

أخرجه أحمد (١/ ١٧٨)، وأبو داود (٢٧٤٠)، والترمذي (٣٠٧٩)، والنسائي في التفسير (٢١٦)، والطبري في تفسيره (٩/ ١١٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٧٥٥) وأبو يعلى (٧٣٥)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٢)، والحاكم (٢/ ١٣٢)، والبيهقي (٦/ ٢٩١) والحديث قال عنه الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم، وأقره الذهبي، وأورده العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (ص ٩٦)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند (٢/ ٢٥٠): إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣/ ١١٨): إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عاصم بن أبي النجود، فمن رجال أصحاب السنن وحديثه في الصحيحين مقرون، وهو حسن الحديث، وحسنه صاحبا الإستيعاب (٢/ ١٨٥).

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "من أتى مكان كذا وكذا أو فعل كذا وكذا؛ فله كذا وكذا" فسارع إليه الشبان، وثبت الشيوخ تحت الرايات، فلما فتح الله لهم، جاء الشباب يطلبون ما جعل لهم، فقال الأشياخ: لا تذهبوا به دوننا، فإنما كنا ردءًا لكم؛ فأنزل الله ﷻ: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ}.

أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٣٥٦)، وأبو داود (٢٧٣٧ - ٢٧٣٩)، والنسائي في الكبرى (١١١٩٧)، والطبري في تفسيره (٩/ ١١٦)، وابن حبان (٥٠٩٣)، والحاكم في (٢/ ١٣١)، والبيهقي في "الكبرى" (٦/ ٢٩١)، وفي الدلائل (٣/ ١٣٥) والحديث صححه ابن حبان، والحاكم وأقره الذهبي، وصححه الشيخ في

=

=

صحيح أبي داود، وأورده العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (ص ٩٧ - ٩٨)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٤/ ٣٧٠): إسناده صحيح، وصححه صاحبا الإستيعاب (٢/ ١٨٥).

وعن عبادة بن الصامت؛ قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر فلقي العدو، فلما هزمهم الله اتبعتهم طائفة من المسلمين يقتلونهم، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ، واستولت طائفة على العسكر والنهبة، فلما كفى الله العدو ورجع الذين طلبوهم؛ قالوا: لنا النفل، نحن طلبنا العدو بنا نقّاهم الله وهزمهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: ما أنتم أحق به منا، هو لنا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ؛ لئلا ينال العدو منه غرة، قال الذين استولوا على العسكر والنهب: والله ما أنتم بأحق به منا هو لنا؛ فأنزل الله -تعالى-: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}؛ فقسمها رسول الله ﷺ بينهم، وكان رسول الله ﷺ ينفلهم إذا خرجوا بادئين الربع، وينفلهم إذا قفلوا الثلث، وقال: أخذ رسول الله ﷺ يوم حنين وبرة من جنب بعير قال: "يا أيها الناس! إنه لا يحل لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيط، وإياكم والغلول؛ فإنه عار على أهله يوم القيامة، وعليكم بالجهاد في سبيل الله، فإنه باب من أبواب الجنة يذهب الله به الهم والغم، قال: وكان رسول الله ﷺ يكره الأنفال ويقول: "ليرد قوي المؤمنين على ضعيفهم".

أخرجه أحمد (٥/ ٣١٨ - ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٢٤)، والطبري في تفسيره (٩/ ١١٦)، وابن حبان في صحيحه (رقم ١٦٩٣ - موارد)، والترمذي (١٥٦١)، وابن ماجه (رقم ٢٨٥٢)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٥٣، ١٦٥٤ رقم ٨٧٦٨)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٥٥، ١٥٦)، والحاكم (٢/ ١٣٥)، والبيهقي (٦/ ٢٩٢، ٩/ ٢٠، ٢١، ٥٧) وغيرهم من طريق عبد الرحمن بن

=

=

الحارث بن عياش عن سليمان بن موسى الأشدق عن مكحول الدمشقي عن أبي سلام عن أبي أمامة عن عبادة به. والحديث قال عنه الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٧/ ٤٢٢): حسن لغيره، وقال صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٢/ ١٨٧): وهذا إسناد حسن إن شاء الله؛ للكلام في سليمان وعبد الرحمن.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده؛ قال: إن الناس سألوا النبي ﷺ الغنائم يوم بدر؛ فنزلت: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١١٨) من طريق الحجاج بن أرطأة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فالحجاج بن أرطأة لم يسمع من عمرو، بينهما العرزمي وهو متروك. قال ابن المبارك: "كان الحجاج يدلس، وكان يحدثنا الحديث عن عمرو بن شعيب مما يحدثه العرزمي، والعرزمي متروك لا نقر به". وقال يحيى بن معين: "صدوق، ليس بالقوي، يدلس على محمد بن عبيد الله العرزمي عن عمرو بن شعيب".

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: "من قتل قتيلًا؛ فله كذا وكذا"، فقتلوا سبعين وأسروا سبعين، فجاء أبو اليسر بن عمرو بأسيرين فقال: يا رسول الله! إنك وعدتنا: "من قتل قتيلًا؛ فله كذا، ومن أسر أسيرًا؛ فله كذا"؛ فقد جئت بأسيرين، فقام سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله! إنه لم تمنعنا زهادة في الآخرة، ولا جبن عن العدو، ولكنا قمنا هذا المقام خشية أن يقتطعك المشركون، وإنك إن تعط هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء، قال: فجعل هؤلاء يقولون، وهؤلاء يقولون؛ فنزلت: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، قال: فسلموا الغنيمة إلى رسول الله ﷺ، قال: ثم نزلت: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ

=

=

شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ}.

أخرجه عبد الرزاق في "المصنف" (٥/ ٢٣٩ رقم ٩٤٨٣، ٩٤٨٤)، وأبو نعيم في "حلية الأولياء" (٧/ ١٠٢، ١٠٣) من طريق الثوري ومعمر، كلاهما عن الكلبي عن أبي باذام مولى أم هانئ عن ابن عباس. والكلبي كذاب وكذا شيخه.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، قال: الأنفال: المغانم كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء، ما أصاب سرايا المسلمين من شيء أتوه به، فمن حبس منه إبرة أو سلكًا؛ فهو غلول، فسألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم منها؛ قال الله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ}: لي، جعلتها لرسولي، ليس لكم فيها شيء {فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، ثم أنزل الله: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ}، ثم قسم ذلك الخمس لرسول الله ﷺ ولمن سمى في الآية.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١١٨)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٥٣ رقم ٨٧٦٦)، وابن المنذر وابن مردويه؛ كما في "الدر المنثور" (٤/ ٨)، والبيهقي في "الكبرى" (٦/ ٢٩٣) من طريق المثنى وأبي حاتم الرازي وعثمان الدارمي عن عبد الله بن صالح ثنا معاوية بن صالح ثنا علي بن أبي طلحة عن ابن عباس به. وإسناده ضعيف.

وعن ابن جريج؛ قال: نزلت في المهاجرين والأنصار ممن شهد بدرًا، واختلفوا؛ فكانوا أثلاثًا؛ فنزلت: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١١٨) من طريق سنيد صاحب "التفسير"

=

=

ثنا حجاج عن ابن جريج. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علتان: الأولى: الإعضال. والثانية: سنيد صاحب "التفسير" ضعيف؛ ضعفه أبو حاتم والنسائي وابن حجر.

وعن السدي: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ}؛ قال: أصاب سعد بن أبي وقاص يوم بدر سيفًا، فاختصم فيه وناس معه؛ فسألوا النبي ﷺ، فأخذه النبي ﷺ منهم؛ فقال الله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، فكانت الغنائم يومئذ للنبي ﷺ خاصة، فنسخها الله بالخمس.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١١٨) من طريق أحمد بن المفضل ثنا أسباط بن نصر عن السدي به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علتان: الأولى: الإعضال. والثانية: وأسباط؛ صدوق كثير الخطأ يغرب.

وعن سعيد بن جبير: أن سعدًا ورجلًا من الأنصار خرجا يتبقلان فوجدا سيفًا ملقى فخرّا عليه جميعًا. فقال سعد: هو لي، وقال الأنصاري: هو لي، قال: لا أسلمه، حتى أتيا رسول الله ﷺ فقصا عليه القصة. فقال ﷺ: "ليس هو لك يا سعد ولا للأنصاري، ولكنه لي"؛ فنزلت: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ} يقول: سلما السيف إلى رسول الله ﷺ. ثم نسخت هذه الآية. فقال -تعالى-: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ} إلى آخر الآية.

أخرجه النحاس في "الناسخ والمنسوخ" (ص ١٤٤) وسنده ضعيف.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله بعث سرية، فمكث ضعفاء الناس في العسكر، فأصاب أهل السرية غنائم، فقسمها رسول الله ﷺ بينهم كلهم، فقال أهل السرية: يقاسمنا هؤلاء الضعفاء وكانوا في العسكر لم يشخصوا معنا؟ فقال رسول

=

=

الله ﷺ: "وهل تنصرون إلا بضعفائكم؟ "؛ فأنزل الله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ}.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٦، ٧) ونسبه لابن مردويه. وقد نبهنا قبل ذلك على أن تفرد ابن مردويه - في الأعم الأغلب - مظنة النكارة والضعف الشديد.

وعن عائشة: أن النبي ﷺ لما انصرف من بدر وقدم المدينة، أنزل الله عليه سورة الأنفال، فعاتبه في إحلال غنيمة بدر، وذلك أن رسول الله ﷺ قسمها بين أصحابه لما كان بهم من الحاجة إليها واختلافهم في النفل؛ يقول الله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}؛ فردها الله على رسوله، فقسمها بينهم على السواء، فكان في ذلك تقوى الله وطاعته، وطاعة رسوله وصلاح ذات البين.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٧) ونسبه لابن مردويه.

وعن مجاهد: أنهم سألوا النبي ﷺ عن الخمس بعد الأربعة الأخماس؛ فنزلت: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١١٥) من طريق عباد بن العوام عن الحجاج بن أرطأة عن ابن أبي نجيح عنه. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. والثانية: الحجاج؛ صدوق كثير الخطأ والتدليس.

وعن الحجاج بن سهيل النصري -وقيل: إن له صحبة-؛ قال: لما كان يوم بدر قاتلت طائفة من المسلمين وثبتت طائفة عند رسول الله ﷺ، فجاءت الطائفة التي قاتلت بالأسلاب وأشياء أصابوها، فقسمت الغنيمة بينهم ولم يقسم للطائفة التي لم تقاتل. فقالت الطائفة التي لم تقاتل: اقسموا لنا؛ فأبت وكان بينهم في ذلك الكلام؛ فأنزل الله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ

=

=

وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}؛ فكان صلاح ذات بينهم أن ردوا الذي كانوا أعطوا ما كانوا أخذوا.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٨) ونسبه لابن عساكر.

وعن أبي أيوب الأنصاري؛ قال: بعث رسول الله ﷺ سرية فنصرها الله وفتح عليها، وكان من أتاه بشيء نفله من الخمس، فرجع رجال كانوا يستقدمون ويقتلون ويأسرون ويقتلون، وتركوا الغنائم خلفهم، فلم ينالوا من الغنائم شيئًا، فقالوا: يا رسول الله! ما بال رجال منا يستقدمون ويأسرون، وتخلف رجال لم يصلوا بالقتال فنفلتهم من الغنيمة؟ فسكت رسول الله ﷺ ونزل: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ} الآية. فدعاهم رسول الله ﷺ فقال: "ردوا ما أخذتم واقتسموه بالعدل والسوية؛ فإن الله يأمركم بذلك"، قالوا: قد احتسبنا وأكلنا؟ قال: "احتسبوا ذلك".

أخرجه إسحاق بن راهويه في "مسنده" كما في "المطالب العالية" (٨/ ٥٧٦، ٥٧٧ رقم ٣٩٨٨ - المسندة)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ٨٠، ٨١ رقم ٧٦٨٤ - ط الرشد) قال إسحاق بن راهويه: أنا عيسى بن يونس حدثنا واصل بن السائب عن عطاء وأبي سورة عن أبي أيوب به.

قال البوصيري في "الزوائد" (٢/ ١٧٠): "رواه إسحاق بسند ضعيف؛ لضعف واصل بن السائب". وقال في "إتحاف الخيرة": "هذا إسناد ضعيف؛ لضعف واصل بن السائب".

وعن عكرمة؛ قال: نزلت هذه الآية يوم بدر.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٢/ ٢٥): نا سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة به.وهذا مرسل رجاله ثقات رجال الصحيح.

وعن أبي أيوب الأنصاري؛ يقول: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: "إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قِبَلَ هذا العير؟ لعل الله

=

=

يغنمناها"، فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا، فلما سرنا يومًا أو يومين قال لنا: "ما ترون في القوم، فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟ "، فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكن أردنا العير، ثم قال: "ما ترون في قتال القوم؟ "، فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد بن عمرو: إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة: ٢٤]، قال: فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا كما قال المقداد أحبّ إلينا من أن يكون لنا مال عظيم؛ فأنزل الله ﷻ على رسوله: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦)}؛ ثم أنزل الله -ﷻ: {أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}، وقال: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ}، والشوكة: القوم وغير ذات الشوكة: العير، فلما وعدنا إحدى الطائفتين: إما القوم، وإما العير طابت أنفسنا، ثم إن رسول الله ﷺ بعث رجلًا لينظر ما قبل القوم؟ فقال: رأيت سوادًا ولا أدري، فقال رسول الله ﷺ: "هم هم هلموا أن نتعاد"؛ ففعلنا، فإذا نحن ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلًا، فأخبرنا رسول الله بعدتنا، فسره ذلك؛ فحمد الله، وقال: "عدة أصحاب طالوت"، ثم إنا اجتمعنا مع القوم فصففنا، فبدرت منا بادرة أمام الصف، فنظر رسول الله ﷺ إليهم فقال: "معي معي"، ثم إن رسول الله ﷺ قال: "اللهم إني أنشدك وعدك"، فقال ابن رواحة: يا رسول الله! إني أريد أن أشير عليك، ورسول الله ﷺ أفضل من يشير عليه، إن الله ﷻ أعظم من أن تنشده وعده، فقال: "يا ابن رواحة! لأنشدن الله وعده؛ فإن الله لا يخلف الميعاد"، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها رسول الله ﷺ في وجوه القوم، فانهزموا؛ فأنزل الله ﷻ: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى} فقتلنا وأسرنا، فقال

=

=

عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يا رسول الله! ما أرى أن يكون لك أسرى، فإنما نحن داعون مولفون، فقلنا: معشر الأنصار! إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ، ثم قال: "ادعوا لي عمر" فدعي له، فقال: "إن الله عَزَّ وَجَلَّ قد أنزل علي: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧)}.

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٤/ ١٧٤، ١٧٥ رقم ٤٠٥٦) -وعنه ابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٢٩٩) -، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٥٩ رقم ٨٨٠٥، ص ١٦٦٠، ١٦٦١ رقم ٨٨١٤، ٨٨١٦، ٨٨١٧) من طريق ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران عن أبي أيوب به. وإسناده ضعيف من أجل ابن لهيعة.

وأخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٣/ ٣٧) من طريق يعقوب بن سفيان أخبرنا سعيد بن أبي مريم أخبرنا ابن لهيعة حدثني يزيد بن أبي حبيب حدثني أسلم أبو عمران أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: "هل لكم أن نخرج فنلقى هذه العير لعل الله يغنينا؟. قلنا: نعم، فخرجنا، فلما سرنا يومًا أو يومين أمرنا رسول الله ﷺ أن نتعادّ، ففعلنا فإذا نحن ثلثمائة وثلاثة عشر رجلًا، فأخبرنا النبي ﷺ، فسُرّ بذلك وحمد الله، وقال: "عدة أصحاب طالوت".

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٢٦) -مختصرًا جدًا- من طريق ابن وهب وابن المبارك عن ابن لهيعة به بلفظ: أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ}، فلما وعدنا إحدى الطائفتين أنها لنا طابت أنفسنا، والطائفتان عير أبي سفيان أو قريش؛ لفظ ابن وهب.

ولفظ ابن المبارك: قالوا: الشوكة: القوم، وغير الشوكة: العير، فلما وعدنا الله

=

=

إحدى الطائفتين إما العير وإما القوم؛ طابت أنفسنا.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: لما شاور النبي ﷺ في لقاء القوم، وقال له سعد بن عبادة ما قال -وذلك يوم بدر-؛ أمر الناس فتعبّوا للقتال، وأمرهم بالشوكة، وكره ذلك أهل الإيمان؛ فأنزل الله: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٢٢، ١٢٣). وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن محمد بن عمرو بن علقمة عن [أبيه] عن جده؛ قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس، فقال: "كيف ترون؟ "، قال أبو بكر: يا رسول الله! بلغنا أنهم بكذا وكذا، قال: ثم خطب الناس، فقال: "كيف ترون؟ "، فقال عمر مثل قول أبي بكر، ثم خطب فقال: "ما ترون؟ " فقال سعد بن معاذ: إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لنسيرن معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى من بني إسرائيل: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما متبعون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامضي له؛ فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وسالم من شئت، وعاد من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت؛ فنزل القرآن على قول سعد: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} إلى قوله: {وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ} وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد غنيمة ما مع أبي سفيان فأحدث الله إليه القتال.

أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٤/ ٣٥٥، ٣٥٦ رقم ١٨٥٠٧)، وابن مردويه =

=

في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٢٩٩) عن طريق محمد به.

وهذا إسناده ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: علقمة بن وقاص الليثي؛ قال عنه الحافظ: "ثقة ثبت من الثانية، أخطأ من زعم أن له صحبة، وقيل: إنه ولد في عهد النبي ﷺ"؛ فهو مرسل. والثانية: عمرو بن علقمة؛ مجهول؛ لم يرو عنه إلا ابنه محمد، وإن وثقه ابن حبان.

* قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ} [الأنفال: ١]، أي: "يسألك أصحابك - أيها النبي - عن الغنائم يوم «بدر» كيف تقسمها بينهم؟.

قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى أخبرَ في هذه الآية عن قوم سألوا رَسول الله ﷺ الأنفال أن يُعطيهموها، فأخبرهم الله أنها لله، وأنه جعلها لرسوله.

وفي هذه «الأنفال» التي سألوه عنها، خمسة أقوال:

أحدها: أنها الغنائم، وهذا قول ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وأختاره البغوي، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والرازي، وأبو حيان، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. قال البغوي: أكثر المفسرين على أن الآية في غنائم بدر.

الثاني: أنها السرايا التي تتقدم الجيش، حكاه الماوردي عن الحسن ، وابن الجوزي في زاد المسير.

الثالث: الأنفال ما شذَّ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من دابة أو عبد، قاله عطاء ، وهو أحد قولي ابن عباس.

الرابع: أن الأنفال الخمس من الفيء والغنائم التي جعلها الله تعالى لأهل الخمس، وهذا قول مجاهد.

الخامس: أنها زيادات يزيدها الإمام بعض الجيش لما قد يراه من الصلاح ، نسب

=

=

ابن عاشور إلى الجمهور القول بأن المراد بالأنفال: ما كان زائدا على المغنم، فيكون النظر فيه لأمير الجيش، يصرفه لمصلحة المسلمين، أو يعطيه لبعض الجيش لإظهار مزية البطل، أو لخصلة عظيمة يأتي لها، أو للتحريض على النكاية في العدو.

قال الطبري: "وأولى هذه الأقوال بالصواب في معنى: «الأنفال»، قولُ من قال: هي زيادات يزيدها الإمام بعض الجيش أو جميعهم، إما من سَهْمه على حقوقهم من القسمة، وإما مما وصل إليه بالنفل، أو ببعض أسبابه، ترغيبًا له، وتحريضًا لمن معه من جيشه على ما فيه صلاحهم وصلاح المسلمين، أو صلاح أحد الفريقين. وقد يدخل في ذلك ما قال ابن عباس من أنه الفرس والدرع ونحو ذلك، ويدخل فيه ما قاله عطاء من أن ذلك ما عاد من المشركين إلى المسلمين من عبد أو فرس، لأن ذلك أمره إلى الإمام، إذا لم يكن ما وصلوا إليه بغلبة وقهر، يفعل ما فيه صلاح أهل الإسلام، وقد يدخل فيه ما غلب عليه الجيش بقَهر".

وقال النحاس: والأنفال في اللغة: ما يتطوع به الإمام مما لا يجب عليه،.... ثم قيل للغنيمة نفل، لأنه يُروى أن الغنائم لم تحل لأحد إلا لأمة محمد. والراجح القول الأول.

أما القول المنسوب إلى الحسن وهو أن المراد بالأنفال: السرايا التي تتقدم الجيش، ففي ثبوته عنه نظر، ولذلك قال ابن الجوزي: (وحكي عن الحسن).

أما القول المروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - من أن المراد بها: ما شذ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال، فالقول الأول أقوى وأصح ثبوتا عنه.

أما ما روي عن مجاهد وهو أن المراد به الخمس فقد روي عنه أيضا أن المراد بالأنفال الغنائم.

أما القول الخامس وهو أن المراد بالأنفال زيادات أمير الجيش للجند أو بعضهم،

=

=

وهو الذي احتج له الطبري باللغة فيجاب عنه بقول النحاس: (والأنفال في اللغة: ما يتطوع به الإمام مما لا يجب عليه، نحو قوله: من جاء بأسير فله كذا، ومنه النافلة من الصلوات، ثم قيل للغنيمة نفل؛ لأنه يروى أن الغنائم لم تحل لأحد إلا لأمة محمد فكأنهم أعطوها نافلة)، والمتقرر أنه إذا اختلفت الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية في تفسير كلام الله قدمت الشرعية.

ومن هنا يتبين صحة القول الأول وقوته، يقول أبو حيان بعد أن رجح القول الأول: (وهذه الأقوال الأربعة مخالفة لما تضافرت عليه أسباب النزول المروية، والجيد هو القول الأول، وهو الذي تظاهرت الروايات به).

قال الشوكاني: وأصل النفل: الزيادة، وسميت الغنيمة به لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرما على غيرهم، أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهد من أجر الجهاد، ويطلق النفل على معان أخر منها: اليمين، والانتفاء، ونبت معروف. والنافلة التطوع لكونها زائدة على الواجب. والنافلة: ولد الولد، لأنه زيادة على الولد وكان سبب نزول الآية: اختلاف الصحابة ﵃ في يوم بدر كما سيأتي بيانه فنزع الله ما غنموه من أيديهم وجعله لله والرسول، فقال: قل الأنفال لله والرسول، أي حكمها مختص بهما يقسمها بينكم رسول الله عن أمر الله سبحانه وليس لكم حكم في ذلك.

قال الرازي: وهو أن السؤال عن أي أحكام الأنفال كان؟ فنقول: فيه وجهان: الأول: لفظ السؤال، وإن كان مبهمًا إلا أن تعيين الجواب يدل على أن السؤال كان واقعًا عن ذلك المعين، ونظيره قوله تعالى (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ المحيض) (فِي الدنيا والاخرة) فعلم منه أنه سؤال عن حكم من أحكام المحيض واليتامى، وذلك الحكم غير معين، إلا أن الجواب كان معينًا لأنه تعالى قال في المحيض (قُلْ هُوَ أَذًى فاعتزلوا النساء فِي المحيض) فدل هذا الجواب على أن ذلك السؤال كان

=

=

سؤالًا عن مخالطة النساء في المحيض، وقال في اليتامى (قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فإخوانكم) فدل هذا الجواب المعين على أن ذلك السؤال المعين كان واقعًا عن التصرف في مالهم ومخالطتهم في المواكلة. فكذا ههنا لما قال في جواب السؤال عن الأنفال (قُلِ الانفال لِلَّهِ والرسول) دل هذا على أنهم سألوه عن الأنفال كيف مصرفها ومن المستحق لها.

و «الأنفال» جمع: نَفَل، وفي «النفل» قولان:

أحدهما: أنه العطية، ومنه قيل للرجل الكثير العطاء: نوفل، قال الشاعر:

أخُو رغائِبَ يُعْطِيها ويُسْأَلُها   يأبَى الظُّلامَةَ مِنْهُ النّوْفَلُ الزُّفَر

فالنوفل: الكثير العطاء. والزفر: الحمال للأنفال، ومنه سمي الرجل زفر.

والقول الثاني: أن النفل الزيادة من الخير ومنه صلاة النافلة. قال لبيد بن ربيعة:

إنَّ تَقْوَى رَبِّنا خَيْرُ نَفَلْ   وَبِإِذْنِ اللهِ رَيْثِي وَعَجَلْ

قوله تعالى: {قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ} [الأنفال: ١]، أي: "قل لهم: إنَّ أمرها إلى الله ورسوله، فالرسول يتولى قسمتها بأمر ربه".

قال السعدي: قوله تعالى (قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ) لأنه هو مالكها الذي أَقْدَرَكُمْ على أَخْذِهَا، المتصرف فيها كيف يشاء.

(وَالرَّسُولِ) ذكر الرسول ﷺ؛ لأنه جعل أَمْرَهَا إليه وفَوَّضَه إليه، ليس لأحد فيها كلام؛ لينقطع خصامهم، ويضْمَحِلّ نِزَاعُهُمْ، فقسمها رسول الله ﷺ بينهم على السوية قسمة عدل على أحسن ما يكون. وسميت الغنائم أنفالًا.

قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ} [الأنفال: ١]، أي: "فاتقوا عقاب الله ولا تُقَدموا على معصيته، واتركوا المنازعة والمخاصمة بسبب هذه الأموال".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فخافوا الله أيها القوم، واتقوه بطاعته واجتناب معاصيه".

=

=

قال ابن كثير:"أي: اتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه".

قوله تعالى: {وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} [الأنفال: ١]، أي: أصلحوا فيما بينكم، ولا تظالموا، ولا تخاصموا ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه.

قال ابن كثير: "أي: في قسمه بينكم على ما أراده الله، فإنه قسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف".

قال الشنقيطي: معنى (ذَاتَ بِيْنِكُمْ) أي: الأحوال الكائنة فيما بينكم مما يستوجب المحبة والوئام، وما يستوجب النُفرة والوحشة والفراق، هذه الأحوال التي تكون فيما بينكم أصلحوها لتكون جارية على ما ينبغي وعلى ما يرضي الله، وقد اشتهر في كلام العرب إطلاق (إصلاح ذات البين) على أن يصلح ما بين هذا وهذا من الأحوال حتى يكون الشيء الذي بينهما على الحالة التي تنبغي، خاليًا من النزاع والخصام والنفرة وغير ذلك.

قال السعدي: قوله تعالى (وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) أي: أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابر، بالتوادد والتحاب والتواصل.. فبذلك تجتمع كلمتكم، ويزول ما يحصل - بسبب التقاطع -من التخاصم، والتشاجر والتنازع.

ويدخل في إصلاح ذات البين تحسين الخلق لهم، والعفو عن المسيئين منهم فإنه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء والتدابر،.والأمر الجامع لذلك كله.

واختلف في قوله تعالى: {وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} [الأنفال: ١]، على قولين:

أحدهما: أنه أمر من الله الذين غنموا الغنيمة يوم بدر، وشهدوا الوقعة مع رسول

=

الله ﷺ إذ اختلفوا في الغنيمة: أن يردَّ ما أصابوا منها بعضُهم على بعض. وهذا قول قتادة، وابن جريج.

والثاني: أن هذا تحريج من الله على القوم، ونهيٌ لهم عن الاختلاف فيما اختلفوا فيه من أمر الغنيمة وغيره. وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، والسدي.

قوله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأنفال: ١]، أي: "والتزموا طاعة الله ورسوله إن كنتم مؤمنين؛ فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله".

قال الطبري: "معناه: وانتهوا أيها القوم الطالبون الأنفال، إلى أمر الله وأمر رسوله فيما أفاء الله عليكم، فقد بين لكم وجوهه وسبله، إن كنتم مصدقين رسول الله فيما آتاكم به من عند ربكم".

عن ابن زيد: " {فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين}، فسلموا لله ولرسوله، يحكمان فيها بما شاءا، ويضعانها حيث أرادا".

واختلف أهل العلم في نسخ هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنها منسوخة بقوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ} [الانفال: ٤١]. الآية، قاله عكرمة، ومجاهد، والسدي.

والقول الثاني: أنها ثابتة الحكم ومعنى ذلك؛ قل الأنفال لله، وهي لا شك لله مع الدنيا بما فيها والآخرة، والرسول يضعها في مواضعها التي أمره الله بوضعها فيها، قاله ابن زيد.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر أنه جعل الأنفال لنبيه ﷺ، يُنفِّل من شاء، فنفّل القاتل السَّلَب، وجعل للجيش في البَدْأة الربع، وفي الرجعة الثلث بعد الخمس. ونفَّل قومًا بعد سُهْمَانهم بعيرًا بعيرًا في بعض المغازي. فجعل الله تعالى ذكره حكم الأنفال إلى نبيه ﷺ، ينفِّل على ما يرى مما فيه صلاحُ المسلمين، وعلى من بعده من الأئمة أن يستَنّوا بسُنته في ذلك.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢).

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ} الْكَامِلُونَ الْإِيمَان {الَّذِينَ إذَا ذُكِرَ الله} أَيْ وَعِيده {وَجِلَتْ} خَافَتْ {قُلُوبهمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاته زَادَتْهُمْ إيمَانًا} تَصْدِيقًا {وَعَلَى رَبّهمْ يَتَوَكَّلُونَ} بِهِ يَثِقُونَ لَا بِغَيْرِهِ.

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣).

{الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاة} يَأْتُونَ بِهَا بِحُقُوقِهَا {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ} أَعْطَيْنَاهُمْ {يُنْفِقُونَ} فِي طَاعَة الله.

أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤).

{أُولَئِكَ} الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذَكَرَ {هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} صِدْقًا بِلَا شَكّ {لَهُمْ

=

وليس في الآية دليل على أن حكمها منسوخ، لاحتمالها ما ذكرتُ من المعنى الذي وصفت. وغير جائز أن يحكم بحكم قد نزل به القرآن أنه منسوخ، إلا بحجة يجب التسليم لها، فقد دللنا في غير موضع من كتبنا على أن لا منسوخ إلا ما أبطل حكمه حادثُ حكمٍ بخلافه، ينفيه من كل معانيه، أو يأتي خبرٌ يوجب الحجةَ أن أحدهما ناسخُ الآخرَ.

وقد ذكر عن سعيد بن المسيب: أنه كان ينكر أن يكون التنفيل لأحد بعد رسول الله ﷺ، تأويلا منه لقول الله تعالى: " قل الأنفال لله والرسول... عن محمد بن عمرو قال: «أرسل سعيد بن المسيب غلامه إلى قوم سألوه عن شيء، فقال: إنكم أرسلتم إلي تسألوني عن الأنفال، فلا نَفَل بعد رسول الله ﷺ».

وقد بينا أن للأئمة أن يتأسَّوْا برسول الله ﷺ في مغازيهم بفعله، فينفِّلوا على نحو ما كان ينفل، إذا كان التنفيل صلاحًا للمسلمين".

دَرَجَات} مَنَازِل فِي الْجَنَّة {عِنْد رَبّهمْ وَمَغْفِرَة وَرِزْق كَرِيم} فِي الجنة[1].

---

(١) قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} [الأنفال: ٢]، أي: "إنما المؤمنون بالله حقًا هم الذين إذا ذُكِر الله فزعت قلوبهم".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ليس المؤمن بالذي يخالف الله ورسوله، ويترك اتباعَ ما أنزله إليه في كتابه من حدوده وفرائضه، والانقياد لحكمه، ولكن المؤمن هو الذي إذا ذكر الله وَجِل قلبه، وانقاد لأمره، وخضع لذكره، خوفًا منه، وفَرَقًا من عقابه".

قال السعدي: قوله تعالى (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) أي: خافت ورهبت، فأوجبت لهم خشية اللّه تعالى الانكفاف عن المحارم، فإن خوف اللّه تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذان الوصفان بهما مدح الله المؤمنين عند سماع الذكر.

كما قال تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا).

وقال سبحانه (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق).

وقال تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله).

وقال تعالى (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق).

وعن العرباض بن سارية قال (وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال: أوصيكم بتقوى الله ﷻ، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من =

=

بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة) رواه أبو داود والترمذي.

وفي قوله تعالى: {وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} [الأنفال: ٢]، وجهان:

أحدهما: فَرِقت. أي: فزعت وخافت. قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة.

قال ابن كثير: "وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعل أوامره، وترك زواجره. كقوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ١٣٥] وكقوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٤٠، ٤١].

قال سفيان الثوري: "سمعت السدي يقول في قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} قال: هو الرجل يريد أن يظلم – أو قال: يهم بمعصية – فيقال له: اتق الله فَيجل قلبه".

الثاني: رَقّتْ. ذكره الماوردي.

عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء في قوله: " {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} قالت: الوجل في القلب إحراق السعفة، أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى. قالت لي: إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك، فإن الدعاء يذهب ذلك".

قوله تعالى: {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [الأنفال: ٢]، أي: "وإذا تليت عليهم آيات القرآن زادتهم إيمانًا مع إيمانهم، لتدبرهم لمعانيه".

ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم، لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقا

=

=

إلى كرامة ربهم، أو وجلا من العقوبات، وازدجارا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان.

قال الطبري: "وإذا قرئت عليه آيات كتابه صدّق بها، وأيقن أنها من عند الله، فازداد بتصديقه بذلك، إلى تصديقه بما كان قد بلغه منه قبل ذلك، تصديقًا. وذلك هو زيادة ما تلى عليهم من آيات الله إيَّاهم إيمانًا".

عن مجاهد في قوله: " {زادتهم إيمانا}، قال: الإيمان يزيد وينقص".

قوله تعالى: {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: ٢]، أي: "وعلى الله تعالى يتوكلون، فلا يرجون غيره، ولا يرهبون سواه".

أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب؛ ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.

قال السعدي: والتوكل هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تكمل إلا به.

قال الطبري: "يقول: وبالله يوقنون، في أن قضاءه فيهم ماضٍ، فلا يرجون غيره، ولا يرهبون سواه".

قال ابن كثير: "أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب".

عن قتادة: "{وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون}، قال: هذا نعت أهل الإيمان، فأثبت نَعْتهم، ووصفهم فأثبت صِفَتهم".

عن ابن عباس قوله: " {وعلى ربهم يتوكلون}، يقول: لا يرجون غيره".

=

=

قال سعيد بن جبير: "التوكل على الله جماع الإيمان".

وعن عن سعيد بن جبير أيضا، قال: "التوكل على الله نصف الإيمان".

قوله تعالى: {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ} [الأنفال: ٣]، أي: "الذين يداومون على أداء الصلوات المفروضة في أوقاتها".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: الذين يؤدون الصلاة المفروضة بحدودها".

قال ابن كثير: "ينبه بذلك على أعمالهم، بعد ما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة، وهو حق الله تعالى".

عن ابن عباس: "{الذين يقيمون الصلاة}، يقول: الصلوات الخمس".

قال قتادة: "إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها، ووضوئها وركوعها وسجودها".

عن مقاتل بن حيان: "قوله {يقيمون الصلاة}، إقامتها: المحافظة على موقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها والتشهد، والصلاة على النبي -ﷺ- فهذا إقامتها".

قال السعدي: لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون الصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقام الصلاة، إقامتها ظاهرًا بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطنًا بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها.

ققوله تعالى: {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [الأنفال: ٣]، أي: "ومما رزقناهم من الأموال ينفقون فيما أمرناهم به".

قال الطبري: يقول: "وينفقون مما رزقهم الله من الأموال فيما أمرهم الله أن ينفقوها فيه، من زكاة وجهاد وحج وعمرة ونفقةٍ على من تجب عليهم نفقته، فيؤدُّون حقوقهم".

=

=

عن ابن عباس: "{ومما رزقناهم ينفقون}، يقول: زكاة أموالهم.

وعن السدي: {ومما رزقناهم ينفقون}، فهي نفقة الرجل على أهله، وهذا قبل أن تنزل الزكاة".

وعن قتادة: "{ومما رزقناهم ينفقون}، فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها".

وقد اختلف في المراد بالنفقة هنا: فقيل: الزكاة المفروضة، وقيل: صدقة التطوع، والصحيح أنها عامة في كل أنواع الإنفاق، ورجح هذا القول ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ، ورجحه الشيخ السعدي وقال: يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب والمماليك ونحو ذلك، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير.

قال السعدي: وأتى بـ[من] الدالة على التبعيض، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءًا يسيرًا من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم.

- ولم يبين الله القدر الذي ينبغي إنفاقه، وقد بين ذلك في قوله تعالى (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) والمراد بالعفو: الزائد على قدر الحاجة التي لا بد منها.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} [الأنفال: ٤]، أي: "هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال هم المؤمنون حقًا ظاهرًا وباطنًا بما أنزل الله عليهم".

قال الطبري: "يقول: هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال {هم المؤمنون}، لا الذين يقولون بألسنتهم: " قد آمنا " وقلوبهم منطوية على خلافه نفاقًا، لا يقيمون صلاة ولا يؤدُّون زكاة".

عن ابن عباس: "{أولئك هم المؤمنون حقًّا}، يقول: برئوا من الكفر".

عن قتادة: "{أولئك هم المؤمنون حقًّا}، قال: استحقُّوا الإيمان بحق، فأحقه الله

=

=

لهم".

عن أبي سنان قال: "سئل عمرو بن مرة عن قوله: {أولئك هم المؤمنون حقا}، قال: إنما أنزل القرآن بلسان العرب، كقولك: فلان سيد حقا وفي القوم سادة، وفلان تاجر حقا وفي القوم تجار، وفلان شاعر حقا وفي القوم شعراء".

قال ابن سلام: "فلم يجعل الله للإيمان حقيقة إلا بالعمل على هذه الشروط، والذي يزعم أنه بالقول خاصة يجعله مؤمنا حقا وإن لم يكن هناك عمل فهو معاند لكتاب الله والسنة".

قال أهل العلم: "ثم عقب الله بقوله: {أولئك هم المؤمنون حقًا} ليفيد بأن هناك إيمانًا غير حق، إيمانًا باطلًا، وستعلم أن هذا الإيمان الباطل. إما أن يكون دعوى بلا دليل عليها، أو أنه التصديق بخرافة ووهم.

وبهذا نفهم أن الإيمان في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ له معنيان:

الأول: هو تصديق خبر الله تعالى وإخبار رسوله ﷺ.

الثاني: هو الالتزام بالأوامر التي أمر الله بها هؤلاء المصدقين".

قوله تعالى: {لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [الأنفال: ٤]، أي: "لهم منازل عالية عند الله".

قال الطبري: يعني:"لهؤلاء المؤمنين الذين وصف جل ثناؤه صفتهم {درجات}، وهي مراتب رفيعة".

وفي قوله تعالى: {لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [الأنفال: ٤]، وجهان:

أحدهما: أنها هي أعمال رفيعة، وفضائل قدّموها في أيام حياتهم. قاله مجاهد.

وقال سعيد بن جبير: "فضائل ورحمة".

والثاني: أن ذلك مراتب في الجنة. قاله ابن محيريز.

وروي عن الضحاك في قوله: " {لهم درجات عند ربهم}، قال: أهل الجنة بعضهم

=

=

فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفل أنه فضل عليه أحد".

قوله تعالى: {وَمَغْفِرَةٌ} [الأنفال: ٤]، أي: "تكفير لما فرط منهم من الذنوب".

قال الطبري: "يقول: وعفو عن ذنوبهم، وتغطية عليها".

عن قتادة: " {ومغفرة}، قال: لذنوبهم.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قول الله: "{ومغفرة}، بترك الذنوب".

قوله تعالى: {وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال: ٤]، أي: "رزق دائم مستمر مقرون بالإكرام والتعظيم".

قال الطبري: "قيل: الجنة وهو عندي: ما أعد الله في الجنة لهم من مزيد المآكل والمشارب وهنيء العيش".

عن قتادة: " {ورزق كريم}، قال: الجنة.

قال محمد بن كعب القرظي: "إذا سمعت الله يقول: «رزق كريم»، فهي الجنة".

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "{ورزق كريم}، قال: الأعمال الصالحة".

(تتمة): اتفق أئمة أهل السنة والجماعة - سلفًا وخلفًا - على أن الإيمان: قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح؛ يزيد بالطاعة وكثرة العبادة، وينقص بالمعصية والغفلة، وقد حكى الإجماع على ذلك أكثر أهل العلم - رحمهم الله - بل أصبح هذا القول من مميزات أهل السنة والجماعة، والفارقة بينهم وبين أهل البدع والأهواء ، وعلى هذه العقيدة توفي الرسول ﷺ وعلى هذا المنهج كان جميع الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان: من المحدثين، والفقهاء، وجميع أئمة الدين، ولم يخالفهم أحد من السلف والخلف؛ إلا الذين مالوا عن الحق في هذا الأمر، وجانبوا الصواب.

والآثار عن السلف في مسمى الإيمان وحقيقته كثيرة جدًا، ولا يمكن حصرها هنا،

=

=

نذكر منها على سبيل المثال:

١ - كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لأصحابه: (هلموا نزداد إيمانا) وفي لفظ: (تعالوا نزداد إيمانا).

٢ - وقال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (اجلسوا بنا نزداد إيمانا)، وكان يقول في دعائه: (اللهم زدني إيمانا ويقينا وفقها).

٣ - وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول: (اجلسوا بنا نؤمن ساعة).

قال ابن حجر في الفتح (١/ ٤٨) مبينا وجه دلالته على زيادة الإيمان ونقصانه: ووجه الدلالة منه ظاهرة، لأنه لا يحمل على أصل الإيمان لكونه كان مؤمنًا وأي مؤمن، وإنما يحمل على إرادة أنه يزداد إيمانا بذكر الله تعالى... أما قول ابن العربي عنه: لا تعلق فيه للزيادة معللًا ذلك: أن معاذًا إنما أراد تجديد الإيمان، لأن العبد يؤمن في أول مرة فرضًا، ثم يكون أبدا مجددا كلما نظر أو فكر.

فغير صحيح، لأن الإيمان الذي ينجم عن النظر والتفكر بعد تحقق أصل الإيمان، يعد في الحقيقة زيادة إيمان، فما سماه ابن العربي هنا تجدد إيمان هو في واقع أمره زيادة إيمان وإن سمي بغير اسمه.

ولذا تعقبه الحافظ بقوله: وما نفاه أولًا أثبته آخرا، لأن تجدد الإيمان إيمان.

٤ - وكان عبدالله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (يأخذ بيد النفر من أصحابه فيقول: تعالوا نؤمن ساعة، تعالوا فلنذكر الله ونزدد إيمانا بطاعته، لعله يذكرنا بمغفرته).

٥ - وعن أبي الدرداء عويمر الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (الإيمان يزداد وينقص)، وروي عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (من فقه العبد أن يعلم أمزداد هو أو منتقص، وإن من فقه العبد أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه).

٦ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (الإيمان يزداد وينقص).

وروي عنه وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهما قالا: (الإيمان يزيد وينقص).

=

=

٧ - وعن جندب بن عبدالله البجلي ﵁ قال: (كنا مع رسول الله ﷺ فتيانا حزاورة فتعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا).

٨ - وعن عمير بن حبيب الخطمي ﵁ قال: (الإيمان يزيد وينقص، فقيل: وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله ﷿ وحمدناه وسبحناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا، فذلك نقصانه) قال ابن القيم في تهذيب السنن (٧/ ٥٦): (وأقدم من روي عنه زيادة الإيمان ونقصانه من الصحابة عمير بن حبيب الخطمي) ولم يتبين لي وجه هذه الأقدمية، ولم أقف على تاريخ وفاة عمير ﵁، وإنما عد ممن أسلم قبل الفتح، وفي الذين نقل عنهم من الصحابة ذلك عبدالله بن رواحة وكان قد استشهد في غزوة مؤتة في حياة رسول الله ﷺ.

وعن عقبة بن عامر الجهني ﵁ قال: (إن الرجل ليتفضل بالإيمان كما يتفضل ثوب المرأة).

ولعل التشبيه بثوب المرأة هو لكونه ضافيا وافيا، وقد تقدم معنا الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ حيث قال: (بينا أنا نائم رأيت الناس يعرضوه عليَّ وعليهم قمص..) الحديث، ثم فسر القمص بالدين.

١٠ - وعن عمار بن ياسر ﵁ قال: (ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنفاق من الإقتار، والإنصاف من النفس، وبذل السلام للعالم).

١١ - وعن علقمة بن قيس النخعي ﵀ أنه كان يقول لأصحابه: (امشوا بنا نزدد إيمانا).

١٢ - وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى عدي بن عدي أحد عماله على الجزيرة: (أما بعد: فإن للإيمان حدودا وشرائع وفرائض، من استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان) علقه البخاري في كتاب الإيمان من صحيحه قبل حديث (٨)، وقال ابن حجر في الفتح (١/ ٤٧) مبينا سبب ذكر البخاري له:

=

=

(والغرض من هذا الأثر أن عمر بن عبدالعزيز كان ممن يقول بأن الإيمان يزيد وينقص، حيث قال: استكمل ولم يستكمل).

١٣ - وعن مجاهد بن جبر قال: (الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص).

١٤ - وقال عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي: (الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص فمن زعم أن الإيمان يزيد ولا ينقص فاحذروه فإنه مبتدع).

(وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ عن الإيمان أيزيد؟ قال: نعم حتى يكون كالجبال قيل: فينقص؟ قال: نعم حتى لا يبقى منه شيء).

١٥ - وقال سفيان الثوري: (الإيمان يزيد وينقص).

١٦ - وكتب حماد بن زيد إلى جرير بن عبدالحميد: (بلغني أنك تقول في الإيمان بالزيادة، وأهل الكوفة يقولون بغير ذلك، أثبت على ذلك ثبتك الله).

١٧ - وثبت عن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ القول بزيادة الإيمان ونقصانه من طرق متعددة يأتي ذكرها في مسألة مستقلة.

١٨ - وقال عبدالله بن المبارك: (الإيمان قول وعمل، والإيمان يتفاضل).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى)) (٧/ ٥٠٦): (وبعضهم أي: السلف عدل عن لفظ الزيادة والنقصان إلى لفظ التفاضل. فقال أقول: الإيمان يتفاضل ويتفاوت، ويروى هذا عن ابن المبارك، وكان مقصوده الإعراض عن لفظ وقع فيه النزاع إلى معنى لا ريب في ثبوته) ا. هـ

ولا ريب كذلك في ثبوت لفظ الزيادة والنقصان عند السلف؛ فالزيادة مصرح بها في القرآن، والنقصان مصرح به في السنة كما تقدم بيانه، ولعل سبب عدول ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ عن لفظ الزيادة والنقصان هو استحسانه لكلمة (التفاضل) لا لسبب آخر، كما أنه روي ذلك عن بعض السلف، فقد ساق الخلال في السنة (٣/ ٥٨٠، رقم ١٠٠٥) بسنده إلى محمد بن أبان قال قلت لعبدالرحمن بن مهدي: الإيمان

=

=

قول وعمل؟ قال: نعم. قلت: يزيد وينقص؟ قال يتفاضل كلمة أحسن من كلمة ا. هـ

فهذا هو وجه عدول ابن مهدي عن كلمة الزيادة والنقصان كما هو منصوصه على ذلك، فلعل ذلك أيضًا هو سبب عدول ابن المبارك عن هذه الكلمة، والله أعلم.

وقد كان من السلف من ينكر على من عدل عن لفظة الزيادة والنقصان لثبوتها كما قد روى ذلك عبدالرحمن بن مهدي نفسه رَحِمَهُ اللهُ قال: (أنا أقول الإيمان يتفاضل، وكان الأوزاعي يقول: ليس هذا زمان تعلم، هذا زمان تمسك).

ثم وقفت على أثر عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ قد يفهم منه سبب اختيار ابن المبارك للفظة (يتفاضل) فقد قال ابن هانئ في مسائله (٢/ ١٢٧): (سمعت أبا عبدالله ابن أبي رزمة ما كان أبوك يقول عن عبدالله بن المبارك في الإيمان؟ قال: كان يقول: الإيمان يتفاضل، قال أبو عبدالله: يا عجباه، إن قال لكم يزيد وينقص رجمتموه، وإن قال يتفاضل تركتموه، وهل شيء يتفاضل إلا وفيه الزيادة والنقصان) ا. هـ.

وعلى كلٍّ فابن المبارك عدل عن ذلك، وصار يصرح بزيادة الإيمان، لكونها منصوصًا عليها في القرآن، قال رَحِمَهُ اللهُ: (لم أجد بدا من الإقرار بزيادة الإيمان إزاء كتاب الله).

ذكر ذلك لما قال له المستملي: يا أبا عبدالرحمن: إن ها هنا قومًا يقولون: الإيمان لا يزيد، فسكت عبدالله، حتى سأله ثلاثا. فأجابه، فقال: لا تعجبني هذه الكلمة منكم أن ها هنا قوما، ينبغي أن يكون أمركم جمعا، ثم ساق ابن المبارك بسنده قول عمر بن الخطاب: (لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجحهم) ثم قال: بلى إن الإيمان يزيد، بلى إن الإيمان يزيد ثلاثا، وقال: (لم أجد بدا من الإقرار بزيادة الإيمان إزاء كتاب الله) رواه إسحاق بن راهويه في مسنده (٣/ ٦٧١).

=

=

(وقال له شيبان بن فروخ: ما تقول فيمن يزني ويشرب الخمر ونو هذا أمؤمن هو؟ قال ابن المبارك: لا أخرجه من الإيمان: فقال شيبان: على كبر السن صرت مرجئا؟ فقال له ابن المبارك: يا أبا عبدالله إن المرجئة لا تقبلني أنا أقول الإيمان يزيد والمرجئة لا تقول بذلك، والمرجئة تقول: حسناتنا متقبلة، وأنا لا أعلم تقبلت مني حسنة) رواه إسحاق بن راهويه في مسنده (٣/ ٦٧٠).

بل قد وجد في كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ التصريح بنقصان الإيمان. كما روى ذلك النجاد في (الرد على من يقول القرآن مخلوق (٥٤) عن علي بن الحسن بن شقيق قال سمعت عبدالله بن المبارك يقول: (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص).

وروى إسحاق بن راهويه في مسنده (٣/ ٦٧٠) عن محمد بن أعين قال: (قال ابن المبارك وذكر له الإيمان فقال: قوم يقولون إيمانا مثل جبريل وميكائيل. أما فيه زيادة أما فيه نقصان، هو مثله سواء، وجبريل ربما صار مثل الوضع من خوف الله تعالى. وذكر أشباه ذلك).

قلت: أي ذكر أشباه ذلك من أساليب الإنكار على المرجئة القائلين بعدم زيادة الإيمان ونقصانه، وأن أهله فيه سواء، وبهذا يعلم أن ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يقول بزيادة الإيمان ونقصانه كغيره من أئمة أهل السنة والجماعة، رحم الله الجميع.

١٩ - وقال خالد بن الحارث: (الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص).

٢١ - وقال وكيع بن الجراح: (الإيمان يزيد وينقص).

٢٢ - وحسّن يحيى بن سعيد القطان: (الزيادة والنقصان ورآه) قاله الإمام أحمد. ونقدم في صدر هذا المبحث قول يحيى: (ما أدركت أحدا من أصحابنا إلا على سنتنا في الإيمان ويقولون: الإيمان يزيد وينقص).

٢٣ - وقال ابن عيينة: (الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فقال له أخوه إبراهيم بن عيينة: يا أبا محمد لا تقولن يزيد وينقص؛ فغضب وقال: اسكت يا صبي بل

=

=

ينقص حتى لا يبقى منه شيء).

(وقيل له: هل الإيمان يزيد وينقص؟ قال: فأي شيء إذن).

وسئل أيضًا عن الإيمان فقال: (قول وعمل، يزيد وينقص، يزيد ما شاء الله، وينقص حتى ما يبقى منه يعني مثل هذه وأشار بيده).

٢٤ - وقال النضر بن شميل: (الإيمان قول وعمل، والإيمان يتفاضل).

٢٥ - وقال الإمام محمد بن إدريس الشافعي (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص).

وروي أن اثنين تناظرا عند الشافعي في هذه المسألة فذهب أحدهما إلى القول بعدم زيادة الإيمان ونقصانه، فحمي الشافعي وتقلد المسألة على أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

٢٦ - وقال عبدالرزاق الصنعاني: (سمعت معمرا وسفيان الثوري ومالك بن أنس، وابن جريج، وسفيان بن عيينة يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص).

وفي رواية أن عبدالرزاق قال: (وأنا أقول ذلك، الإيمان قول وعمل والإيمان يزيد وينقص، فإن خالفتهم فقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين).

٢٧ - وقال عبدالله بن الزبير الحميدي: (الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، لا ينفع قول إلا بعمل، ولا عمل ولا قول إلا بنية، ولا قول وعمل بنية إلا بسنة).

٢٨ - وقال إسحاق بن راهويه: (الإيمان يزيد وينقص حتى لا يبقى منه شيء).

٢٩ - وأما قول إمام أهل السنة أحمد بن حنبل في زيادة الإيمان ونقصانه فكثيرة جدا.

قال رَحِمَهُ اللهُ: (الإيمان بعضه أفضل من بعض، يزيد وينقص، وزيادته في العمل، ونقصانه في ترك العمل، لأن القول هو مقر به).

وقال: (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، إذا عملت الخير زاد، وإذا ضيعت نقص).

=

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥).

{كَمَا أَخْرَجَك رَبّك مِنْ بَيْتك بِالْحَقِّ} مُتَعَلِّق بِأَخْرَجَ {وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} الْخُرُوج وَالْجُمْلَة حَال مِنْ كَاف أَخْرَجَك وَكَمَا خَبَر مُبْتَدَأ

=

وسُئل رَحِمَهُ اللَّهُ عن زيادة الإيمان ونقصانه فقال: (يزيد حتى يبلغ أعلى السموات السبع، وينقص حتى يصير إلى أسفل السافلين السبع)

وأقواله غير ما ذكرت كثيرة يطول ذكرها، انظرها في السنة للخلال (٢/ ٦٥٥ (٩٥٧) و (٢/ ٦٧٦ (١٠٠٤) و (٢/ ٦٨٠) (١٠١٠)، و (٢/ ٦٨٣) (١٠٢٠) و (٢/ ٦٨٩) (١٠٣٢) ومسائل الإمام أحمد لأبي داود (ص: ٢٧٢)، ومسائل الإمام أحمد لابن هانئ (٢/ ١٥٦، ١٦٢، ١٦٤) و ((الشريعة)) للآجري (ص١١٤، ١٢٩)، و ((الإبانة)) لابن بطة (٢/ ٨٥١) (١١٤٦)، (٢/ ٨٧٥) (١١٩٩)، و ((طبقات الحنابلة)) لابن أبي يعلى (١/ ٢٤، ٢٥، ١٣٠، ١٣١، ٢٩٥، ٣١٣، ٣٤٣)، و ((مناقب الإمام أحمد)) لابن الجوزي (ص: ٢٠١)، وغيرها مما يطول ذكره..

٣٠ - وقال أبو زرعة الرازي: (الإيمان عندنا قول وعمل، يزيد وينقص، ومن قال غير ذلك فهو مبتدع مرجئ).

٣١ - وقال أبو حاتم الرازي: (مذهبنا واختيارنا وما نعتقده وندين الله به ونسأله السلامة في الدين والدنيا: أن الإيمان قول وعمل.. يزيد وينقص).

هذه بعض أقوال السلف الصالح أهل السنة والجماعة في زيادة الإيمان ونقصانه، والأمر كما قال شيخ الإسلام: (والآثار في هذا كثيرة، رواها المصنفون في هذا الباب عن الصحابة والتابعين في كتب كثيرة معروفة) (٨) انظر تخريج كل هذه الآثار في كتاب زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه لعبد الرزاق البدر (ص ١١٠).

مَحْذُوف أَيْ هَذِهِ الْحَال فِي كَرَاهَتهمْ لَهَا مِثْل إخْرَاجك فِي حَال كَرَاهَتهمْ وَقَدْ كَانَ خَيْرًا لَهُمْ فَكَذَلِكَ أَيْضًا وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا سُفْيَان قَدِمَ بِعِيرٍ مِنْ الشَّام فَخَرَجَ النَّبِيّ ﷺ وَأَصْحَابه لِيَغْنَمُوهَا فَعَلِمَتْ قُرَيْش فَخَرَجَ أَبُو جَهْل وَمُقَاتِلُو مَكَّة لِيَذُبُّوا عَنْهَا وَهُمْ النَّفِير وَأَخَذَ أَبُو سُفْيَان بِالْعِيرِ طَرِيق السَّاحِل فَنَجَتْ فَقِيلَ لِأَبِي جَهْل ارْجِعْ فَأَبَى وَسَارَ إلَى بَدْر فَشَاوَرَ النَّبِيّ ﷺ أَصْحَابه وَقَالَ إنَّ الله وَعَدَنِي إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ فَوَافَقُوهُ عَلَى قِتَال النَّفِير وَكَرِهَ بَعْضهمْ ذَلِكَ وَقَالُوا لَمْ نَسْتَعِدّ له كما قال تعالى.

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦).

{يجادلونك في الحق} القتال {بعد ما تبين} ظهر لهم {كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون} إليه عيانا في كراهتهم له.

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧).

{و} اُذْكُرْ {إذْ يَعِدكُمْ الله إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ} الْعِير أَوْ النَّفِير {أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ} تُرِيدُونَ {أَنَّ غَيْر ذَات الشَّوْكَة} أَيْ الْبَأْس وَالسِّلَاح وَهِيَ الْعِير {تَكُون لَكُمْ} لِقِلَّةِ عَدَدهَا وَمَدَدهَا بِخِلَافِ النَّفِير {وَيُرِيد الله أَنْ يُحِقّ الْحَقّ} يظهره {بكلماته} السابقة بظهور الإسلام {ويقطع دابر الكافرين} آخِرهمْ بِالِاسْتِئْصَالِ فَأَمَرَكُمْ بِقِتَالِ النَّفِير.

لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨).

{لِيُحِقّ الْحَقّ وَيُبْطِل} يَمْحَق {الْبَاطِل} الْكُفْر {وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}

الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ(١).

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قوله: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ}؛ قال: أرادوا العير، قال: ودخل رسول الله ﷺ المدينة في شهر ربيع الأول، فأغار كرز بن جابر الفهري يريد سرح المدينة حتى بلغ الصفراء، فبلغ النبي ﷺ فركب في أثره، فسبقه كرز بن جابر، فرجع النبي ﷺ فأقام سنته، ثم إن أبا سفيان أقبل من الشام في عير لقريش، حتى إذا كان قريبًا من بدر نزل جبريل على النبي ﷺ فأوحى إليه: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧)}؛ فنفر النبي ﷺ بجميع المسلمين وهم يومئذ ثلثمائة عشر رجلًا؛ منهم: سبعون ومائتان من الأنصار، وسائرهم من المهاجرين، وبلغ أبا سفيان الخبر وهو بالبطم، فبعث إلى جميع قريش وهم بمكة فنفرت قريش وغضبت.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٢٥). وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

* قوله تعالى: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ} [الأنفال: ٥]، أي: "كما أنكم لما اختلفتم في المغانم فانتزعها الله منكم، وجعلها إلى قَسْمه وقَسْم رسوله ﷺ، كذلك أمرك ربك -أيها النبي- بالخروج من «المدينة» للقاء عِيْر قريش، وذلك بالوحي الذي أتاك به جبريل".

عن أبي أيوب الأنصاري؛ يقول: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: "إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قبل هذا العير؟ لعل الله يغنمناها"، فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا، فلما سرنا يوما أو يومين قال لنا: "ما ترون
=

=

في القوم، فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟ "، فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكن أردنا العير، ثم قال: "ما ترون في قتال القوم؟ "، فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد بن عمرو: إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: {فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون} [المائدة: ٢٤]، قال: فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم؛ فأنزل الله -ﷻ- على رسوله: {كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون (٥) يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون (٦)}؛ ثم أنزل الله -ﷻ-: {أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان}، وقال: {وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم}، والشوكة: القوم وغير ذات الشوكة: العير، فلما وعدنا إحدى الطائفتين: إما القوم، وإما العير طابت أنفسنا، ثم إن رسول الله ﷺ بعث رجلا لينظر ما قبل القوم؟ فقال: رأيت سوادا ولا أدري، فقال رسول الله ﷺ: "هم هم هلموا أن نتعاد"؛ ففعلنا، فإذا نحن ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلا، فأخبرنا رسول الله بعدتنا، فسره ذلك؛ فحمد الله، وقال: "عدة أصحاب طالوت"، ثم إنا اجتمعنا مع القوم فصففنا، فبدرت منا بادرة أمام الصف، فنظر رسول الله ﷺ إليهم فقال: "معي معي"، ثم إن رسول الله ﷺ قال: "اللهم إني أنشدك وعدك"، فقال ابن رواحة: يا رسول الله! إني أريد أن أشير عليك، ورسول الله ﷺ أفضل من يشير عليه، إن الله -ﷻ- أعظم من أن تنشده وعده، فقال: "يا ابن رواحة! لأنشدن الله وعده؛ فإن الله لا يخلف الميعاد"، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها رسول الله ﷺ في وجوه القوم، فانهزموا؛ فأنزل الله -ﷻ-: {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى} فقتلنا وأسرنا، فقال عمر -رضي الله عنه-: يا رسول الله! ما أرى أن يكون لك أسرى، فإنما نحن

=

=

داعون مولفون، فقلنا: معشر الأنصار! إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ، ثم قال: "ادعوا لي عمر" فدعي له، فقال: "إن الله -ﷻ- قد أنزل علي: {ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم (٦٧)}. أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ١٧٤ رقم ٤٠٥٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٨١٤، ٨٨١٦، ٨٨١٧) وإسناده ضعيف ابن لهيعة سيء الحفظ، وإن كان الراوي عنه العبادلة، أو من هو مثلهم، ومسألة ابن لهيعة واحتراق كتبه ورواية العبادلة ومن هو مثلهم عنه من المسائل الكبار في هذا العلم الشريف لا ينبغي لأمثالي الخوض فيها ولكن الذي أتقلده وهو قول جمهور المحدثين فيما أعلم أن ابن لهيعة ضعيف على العموم لسوء حفظه ولكن رواية العبادلة ومن هو مثلهم أصح وليست صحيحة والله تعالى أعلى وأعلم.

الكاف في قوله (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ) اختلفت فيها عبارات المفسرين إلى خمسة عشر قولًا، كثير منها لا يظهر، بل يظهر سقوطه لعدم الدليل عليه، وعدم تمشّيه مع لغة العرب، فهي من الآيات التي كثر فيها غلط المفسرين حتى اختلفوا فيها إلى خمسة عشر طريقًا معروفة في كتب التفسير، والآية في الجملة دلت على تشبيه شيء بشيء بناء على الصحيح من أن الكاف للتشبيه.

وأظهر الأقوال وأقربها: أن الله شبه فيها قصة بقصة؛ لأنه وقع في أول غزوة بدر قصتان:

إحداهما: أن الله تبارك وتعالى لما هَزَمَ المُشْرِكِينَ ونَفَّلَ المُسْلِمِينَ غَنَائِمَهُمْ، وحصلت عند المسلمين غنائم اختلفوا فيها، فجعل الله الأمر فيها إلى رسوله فقسمها رسوله ﷺ، وبعضهم في نفسه غير راغب في تلك القسمة، لأنه كان يرى أنه أولى من غيره، فقد قضى الله عليهم شيئًا ليس هو رغبتهم لكنه هو المصلحة

=

=

لهم في دينهم ودنياهم، هذه المسألة المشبّهة.
والمسألة المشبه بها: أن الله أخرج نبيه من بيته في المدينة إلى غزوة بدر الكبرى.
والحاصل أنهما قصتان كان إحداهما شُبّهت بالأخرى، كما أن الله وكل قسم الغنائم إلى رسوله ﷺ وبعضهم لا يرغب في هذا؛ لأنه يرى أنه أحق من غيره، كذلك أخرج رسوله إلى أخذ مال من عِير فجاءها نفير، فصار بعض الصحابة يكره ملاقاة النفير ويقول: ما خرجنا مستعدِّين لقتال الرجال الذين هم في عَددهم وعُددهم، إنما خرجنا لأخذ عِير لا قتال دونها ولا سلاح، فهم كرهوا ملاقاة النفير -جيش قريش- مع أن ملاقاته فيها لهم المصلحة، فالذي كرهوه من قَسْم غنائم بدر هو الذي لهم فيه مصلحة الدنيا والآخرة، والذي كرهوه من خروج رسول الله ﷺ بهم الذي آل إلى قتال جيش قريش كرهوه وهو أيضًا خير لهم في دينهم ودنياهم.
ووجه الشبه: مطلق الكراهة، وما ترتب على ذلك من خير للمؤمنين.
والمعنى: حال بعض أهل بدر في كراهتهم تقسيمك الغنائم بالسوية، مثل حال بعضهم في كراهة الخروج للقتال، مع ما في هذه القسمة والقتال من خير وبركة.
- قال الرازي: إذا عرفت هذه القصة فنقول: كانت كراهية القتال حاصلة لبعضهم لا لكلهم، بدليل قوله تعالى (وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ المؤمنين لَكَّارهون).
قال ابن عطية: "إن هذه «الكاف» شبهت هذه القصة التي هي إخراجه من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال، كأنهم سألوا عن النفل وتشاجروا فأخرج الله ذلك عنهم، فكانت فيه الخيرة كما كرهوا في هذه القصة انبعاث النبي ﷺ فأخرجه الله من بيته فكانت في ذلك الخيرة، فتشاجرهم في النفل بمثابة كراهيتهم هاهنا للخروج، وحكم الله في النفل بأنه لله وللرسول دونهم هو بمثابة إخراجه نبيه ﷺ من بيته، ثم كانت الخيرة في القصتين فيما صنع الله، وعلى هذا

=

=

التأويل يمكن أن يكون قوله {يُجادِلُونَكَ} كلاما مستأنفا يراد به الكفار، أي: يجادلونك في شريعة الإسلام من بعد ما تبين الحق فيها، كأنما يساقون إلى الموت في الدعاء إلى الإيمان".

عن مجاهد: {كما أخرجك ربك من بيتك بالحق}، كذلك".

وفي قوله تعالى: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ} [الأنفال: ٥]، ثلاثة وجوه:

أحدها: كما أخرجك ربك من مكة إلى المدينة بالحق مع كراهة فريق من المؤمنين كذلك ينجز وعدك في نصرك على أعدائك بالحق.

والثاني: كما أخرجك ربك من بيتك مِن المدينة إلى بدر بالحق كذلك جعل لك غنيمة بدر بالحق.

عن السدي كما: "{أخرجك ربك من بيتك بالحق}، قال: خروج النبي- ﷺ- إلى بدر".

والثالث: أن مجادلتهم الآن له كما أخرجك ربك من بيتك. قاله الكسائي.

قال ابن قتيبة:"يريد: أن كراهتهم لما فعلته في الغنائم ككراهتهم للخروج معك، كأنه قال: هذا من كراهيتهم كما أخرجك وإيّاهم ربّك وهم كارهون، ومن تتبع هذا من كلام العرب وأشعارها وجده كثيرا، قال الشاعر:

فلا تدفنوني إنّ دفني محرّم عليكم، ولكن خامري أمّ عامر

يريد: لا تدفنوني ولكن دعوني للتي يقال لها إذا صيدت: خامري أمّ عامر، يعني الضّبع، لتأكلني.

وقال عنترة:

هل تبلغنّي دارها شدنيّة لعنت بمحروم الشّراب مصرّم

يريد: دعي عليها بأن يحرم ضرعها أن يدرّ فيه لبن، فاستجيب للداعي، فلم تحمل ولم ترضع.

=

=

ومثله قول الآخر:

ملعونة بعقر أو خادج

أي: دعي عليها أن لا تحمل، وإن حملت: أن تلقي ولدها لغير تمام، فإذا لم تحمل الناقة ولم ترضع كان أقوى لها".

والرابع: أنه قسم، أي: والذي أخرجك من بيتك. قاله أبو عبيدة.

والخامس: أن «الكاف» في موضع نصب، أي: الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وهم كارهون كذلك ننفل من رأيت. قاله أبو إسحاق ، وهو معنى قول الفراء ، والنحاس.

قال الفراء: أي: "على كره منهم، فامض لأمر الله في الغنائم كما مضيت على مخرجك وهم كارهون".

قال الآلوسي: قوله تعالى (من بيتك..) المراد بالبيت مسكنه ﷺ بالمدينة، أو المدينة نفسها لأنها مثواه عليه الصلاة والسلام، وزعم بعضهم أن المراد به مكة وليس بذاك، وإضافة الإخراج إلى الرب سبحانه وتعالى إشارة إلى أنه كان بوحي منه ﷻ.

وقال الشنقيطي: قوله تعالى (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ) التحقيق أن المراد به خروجه من بيته في المدينة إلى عِير أبي سفيان، وقد تَمَخَّضَ هذا الخروج عن قتال جيش قريش في بدر الكبرى. هذا هو التحقيق، خلافًا لقوم زعموا أن معنى (أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ) أي: مِنْ مَسْقَطِ رأسك مكة أخرجك ربك بسبب معاداة قومك لك (بِالْحَقِّ) وهذا خلاف التحقيق، والأول هو الصحيح.

قال الآلوسي: قوله (وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ) أي: للخروج، إما لعدم الاستعداد للقتال، أو للميل للغنيمة، أو للنفرة الطبيعية عنه، وهذا مما لا يدخل تحت القدرة والاختيار، فلا يرد أنه لا يليق بمنصب الصحابة.

=

=

* وهذا الحق الذي أخرجه من بيته متلبسًا به هو نصرة دينه، وإعزاز كلمته، وإعلاء كلمة الله (جل وعلا) لأن أول وقعة عظُمت فيها قوة الإسلام، وارتفعت فيها كلمة الله وعلت، وعزّ بها المسلمون وانتصروا هي غزوة بدر الكبرى هذه.

قوله تعالى: {وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} [الأنفال: ٥]، أي: "والحال أن فريقًا منهم كارهون للخروج لقتال العدو خوفًا من القتل أو لعدم الاستعداد".

قال السيوطي: "أي: لقتل العدو".

وفي قوله تعالى: {وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} [الأنفال: ٥]، وجهان:

أحدهما: كارهون خروجك لطلب المشركين. قاله السدي.

الثاني: كارهون صرف الغنيمة عنهم، لأنهم لم يعلموا أن الله تعالى قد جعلها لرسوله دونهم. ذكره الماوردي.

قوله تعالى: {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ} [الأنفال: ٦]، أي: "يجادلك -أيها النبي- فريق من المؤمنين في القتال مِن بعد ما تبيَّن لهم أن ذلك واقع".

عن مجاهد، قوله: " {يجادلونك في الحق}، القتال".

وفي المجادل له قولان:

أحدهما: أنهم المشركون، قاله ابن زيد.

الثاني: أنهم طائفة من المؤمنين وهو قول ابن عباس، وابن إسحاق، لأنهم خرجوا لأخذ العير المقبلة من الشام مع أبي سفيان فلما فاتهم ذلك أمروا بالقتال فجادلوا طلبًا للرخصة وقالوا ما تأهبنا في الخروج لقتال العدو، فأنزل الله تعالى: {كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ}، يعني: كأنهم في قتال عدوهم يساقون إلى الموت، رعبًا وأسفًا لأنه أشد لحال من سيق إلى الموت أن يكون ناظرًا له وعالمًا به.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك ما قاله ابن عباس وابن إسحاق، من أن ذلك خبرٌ من الله عن فريق من المؤمنين أنهم كرهوا لقاء العدو، وكان جدالهم نبيَّ

=

=

الله ﷺ أن قالوا: «لم يُعلمنا أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم، وإنما خرجنا للعير». ومما يدلّ على صحته قولُه: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ}، ففي ذلك الدليلُ الواضح لمن فهم عن الله، أن القوم قد كانوا للشوكة كارهين، وأن جدالهم كان في القتال، كما قال مجاهد، كراهيةً منهم له وأنْ لا معنى لما قال ابن زيد، لأن الذي قبل قوله: {يجادلونك في الحق}، خبرٌ عن أهل الإيمان، والذي يتلوه خبرٌ عنهم، فأن يكون خبرًا عنهم، أولى منه بأن يكون خبرًا عمن لم يجرِ له ذكرٌ".

قال ابن كثير: "وهذا الذي نصره ابن جرير هو الحق، وهو الذي يدل عليه سياق الكلام".

وفي قوله تعالى: {بَعْدَمَا تَبَيَّنَ} [الأنفال: ٦]، وجهان:

أحدهما: معناه: بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله. هذا قول السدي.

والثاني: معناه: يجادلونك في القتال بعدما أمرت به. وهذا قول ابن عباس.

قوله تعالى: {كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ} [الأنفال: ٦]، أي: "كأنهم يساقون إلى الموت، وهم ينظرون إليه عِيانًا".

قال الطبري: "معناه: كأن هؤلاء الذين يجادلونك في لقاء العدوّ، من كراهتهم للقائهم إذا دعوا إلى لقائهم للقتال، {يساقون إلى الموت}.

قال ابن إسحاق: "أي: كراهةً للقاء القوم، وإنكارًا لمسير قريش حين ذكروا لهم".

عن السدي قوله: " {كأنما يساقون إلى الموت}، حين قيل هم المشركون".

وعن ابن زيد: "{يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون}، قال: هؤلاء المشركون، جادلوه في الحق {كأنما يساقون إلى الموت}، حين يدعون إلى الإسلام {وهم ينظرون}، قال: وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر".

=

=

قوله تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ} [الأنفال: ٧]، أي: "واذكروا -أيها المجادلون- وَعْدَ الله لكم بالظَّفْر بإحدى الطائفتين: العير وما تحمله مِن أرزاق، أو النفير، وهو قتال الأعداء والانتصار عليهم".

قال الطبري:"يعني إحدى الفرقتين، فرقة أبي سفيان بن حرب والعير، وفرقة المشركين الذين نَفَروا من مكة لمنع عيرهم، {أنها لكم}، يقول: إن ما معهم غنيمة لكم".

قال قتادة: "فالطائفتان: أحدهما أبو سفيان أقبل بالعير من الشام، والطائفة الأخرى: أبو جهل بن هشام معه نفير قريش".

عن ابن عباس، قال: "قيل للنبي ﷺ لما فرغ من بدر: عليك بالعير ليس دونها شيء، فناداها العباس وهو أسير: لا يصلح لك ذاك، فقال له رسول الله ﷺ: ولم؟ قال: لأن الله قد وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك".

قال أبو أيوب الأنصاري: "قال لنا رسول الله- ﷺ: ما ترون فيهم؟ فقلنا: يا رسول الله، ما لنا طاقة بقتال القوم، إنما خرجنا للعير، ثم أنزلت وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وطابت أنفسنا حين وعد الله إحدى الطائفتين فالطائفة: العير".

قوله تعالى: {وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ} [الأنفال: ٧]، أي: "وأنتم تحبون الظَّفْر بالعير دون القتال".

قال الطبري: "يقول: وتحبون أن تكون تلك الطائفة التي ليست لها شوكة يقول: ليس لها حدٌّ، ولا فيها قتال أن تكون لكم. يقول: تودُّون أن تكون لكم العيرُ التي ليس فيها قتال لكم، دون جماعة قريش الذين جاءوا لمنع عيرهم، الذين في لقائهم القتالُ والحربُ".

قال ابن كثير: "أي: يحبون أن الطائفة التي لا حَدَّ لها ولا منعة ولا قتال، تكون لهم وهي العير".

=

=

قال أبو أيوب الأنصاري: "قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت ثم نزلت وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة والشوكة: هم العدو". وفي لفظ: "والشوكة: القوم، وغير الشوكة: العير".

وفي الشوكة التي كُني بها عن الحرب وجهان:

أحدهما: أنها الشدة فكُني بها عن الحرب لما فيها من الشدة، وهذا قول قطرب.

والثاني: أنها السلاح، وكُني بها عن الحرب لما فيها من السلاح، من قولهم رجل شاكٍ في السلاح، قاله ابن قتيبة.

عن عروة: "أن أبا سفيان أقبل ومن معه من رُكبان قريش مقبلين من الشأم، فسلكوا طريق الساحل. فلما سمع بهم النبي ﷺ، ندب أصحابه، وحدّثهم بما معهم من الأموال، وبقلة عددهم.

فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب معه، لا يرونها إلا غنيمة لهم، لا يظنون أن يكون كبيرُ قتالٍ إذا رأوهم. وهي التي أنزل الله فيها: {وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم}.

قوله تعالى: {وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ} [الأنفال: ٧]، أي: "ويريد الله أن يحق الإسلام، ويُعْليه بأمره إياكم بقتال الكفار".

قال السدي: "أرادوا العير والله يريد أن يحق الحق بكلماته".

قال ابن كثير: "أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال، ليُظَفِّرَكم بهم ويظهركم عليهم، ويظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالبا على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي دبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كما قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا

=

=

شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢١٦].

قوله تعالى: {وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ} [الأنفال: ٧]، أي:"ويستأصل الكافرين بالهلاك".

عن السدي عن أبي مالك قوله: "{دابر}، يعني: أصل".

عن ابن إسحاق: {ويقطع دابر الكافرين}، الوقعة التي أوقع الله بقريش يوم بدر".

عن صفوان بن سليم: "{ويقطع دابر الكافرين}، فأوحى الله إليه القتال".

عن محمد بن إسحاق:"عن محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن عبد الله بن عباس، كُلٌّ قد حدثني بعض هذا الحديث، فاجتمع حديثهم فيما سُقت من حديث بدر، قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلا من الشأم، ندب المسلمين إليهم وقال: هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفِّلكموها! فانتدب الناس، فخف بعضهم وثقل بعض، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربًا. وكان أبو سفيان يستيقن حين دنا من الحجاز ويتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفًا على أموال الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: " أن محمدًا قد استنفر أصحابه لك ولعِيرك "! فحذر عند ذلك، واستأجر ضمضم بن عمرو الغِفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشًا يستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمدًا قد عرض لها في أصحابه. فخرج ضمضم بن عمرو سريعًا إلى مكة. وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ واديًا يقال له " ذَفِرَان "، فخرج منه، حتى إذا كان ببعضه، نزل، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عِيرهم، فاستشار النبي ﷺ الناسَ، وأخبرهم عن قريش. فقام أبو بكر رضوان الله عليه، فقال فأحسن. ثم قام عمر رضي الله عنه، فقال فأحسن. ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض إلى حيث أمرك الله، فنحن معك،

=

=

والله، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [سورة المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون! فوالذي بعثك بالحق، لئن سرت بنا إلى بَرْك الغِمَاد يعني: مدينة الحبشة لجالدنا معك مَن دونه حتى تبلغه! فقال له رسول الله ﷺ خيرًا، ثم دعا له بخيرٍ، ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليّ أيها الناس! وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عَدَدَ الناس، وذلك أنهم حين بايعوه على العقبة قالوا: " يا رسول الله، إنا برآء من ذِمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا "، فكأن رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نُصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ من بلادهم قال: فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل! قال: فقد آمنا بك وصدَّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخضته لخُضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعلّ الله أن يريك منا ما تَقَرُّ به عينك، فسر بنا على بركة الله! فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم غدًا".

قوله تعالى: {لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ} [الأنفال: ٨]، أي: "ليعزَّ الله الإسلام وأهله، ويذهب الشرك وأهله".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ويريد الله أن يقطع دابر الكافرين، كيما يحق الحق، كيما يُعبد الله وحده دون الآلهة والأصنام، ويعزّ الإسلام، وذلك هو

=

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩).

أُذْكُرْ {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ} تَطْلُبُونَ مِنْهُ الْغَوْث بِالنَّصْرِ عَلَيْهِمْ {فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي} أَيْ بِأَنِّي {مُمِدّكُمْ} مُعِينكُمْ {بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلَائِكَة مُرْدِفِينَ} مُتَتَابِعِينَ يُرْدِف بَعْضهمْ بَعْضًا وَعَدَهُمْ بِهَا أَوَّلًا ثُمَّ صَارَتْ ثَلَاثَة آلَاف ثُمَّ خَمْسَة كَمَا فِي آل عِمْرَان وَقُرِئَ بِآلُف كَأَفْلُس جَمْع.

=

«تحقيق الحق».. وقيل: إن {الحق} في هذا الموضع، الله ﷻ".

قال الزمخشري: "فإن قلت: بم يتعلق قوله {ليحق الحق}؟ قلت: بمحذوف تقديره: ليحق الحق ويبطل الباطل فعل ذلك، ما فعله إلا لهما. وهو إثبات الإسلام وإظهاره، وإبطال الكفر ومحقه.

فإن قلت: أليس هذا تكريرا؟ قلت: لا، لأن المعنيين متباينان، وذلك أن الأول تمييز بين الإرادتين وهذا بيان لغرضه فيما فعل من اختيار {ذات الشوكة} على غيرها لهم ونصرتهم عليها، وأنه ما نصرهم ولا خذل أولئك إلا لهذا الغرض الذي هو سيد الأغراض. ويجب أن يقدر المحذوف متأخرا حتى يفيد معنى الاختصاص فينطبق عليه المعنى: وقيل: قد تعلق بـ «يقطع».

قوله تعالى: {وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [الأنفال: ٨]، أي: "ولو كره المشركون ذلك".

قال الطبري: "يقول ويبطل عبادة الآلهة والأوثان والكفر، ولو كره ذلك الذين أجرموا فاكتسبوا المآثم والأوزار من الكفار".

عن قتادة: "{ولو كره المجرمون}، هم المشركون".

وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠).

{وَمَا جَعَلَهُ الله} أَيْ الْإِمْدَاد {إِلَّا بُشْرَى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم[١].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عمر بن الخطاب؛ قال: لما كان يوم بدر؛ نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله القبلة، ثم مدّ يديه فجعل يهتف بربه: "اللهم! أنجز لي ما وعدتني، اللهم! آت ما وعدتني، اللهم! إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض"، فما زال يهتف بربه، مادًّا يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه؛ فأتاه أبو بكر؛ فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله! كفاك مناشدتك ربك؛ فإنه سينجز لك ما وعدك؛ فأنزل الله ﷻ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩)}؛ فأمده الله بالملائكة.

قال أبو زميل: فحدثني ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه فخرّ مستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: "صدقت؛ وذلك من مدد السماء الثالثة"؛ فقتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين.

قال أبو زميل: قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: "ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ "، فقال أبو بكر: يا نبي الله! هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية؛ فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن
=

=

يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: "ما ترى يا ابن الخطاب؟! "، قلت: لا والله! يا رسول الله! ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان (نسيبًا لعمر) فأضرب عنقه؛ فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: "أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء؛ لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة" (شجرة قريبة من نبي الله ﷺ) وأنزل الله ﷻ: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} إلى قوله: {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا} فأحل الله الغنيمة لهم.

أخرجه مسلم في "صحيحه" (٣/ ١٣٨٣، ١٣٨٥ رقم ١٧٦٣) وغيره.

* قوله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ} [الأنفال: ٩]، أي: "اذكروا نعمة الله عليكم يوم «بدر» إذ تطلبون النصر على عدوكم".

ما زال السياق في أحداث غزوة بدر، وبيان منن الله تعالى على رسوله والمؤمنين إذ يقول تعالى لرسوله (إذ تستغيثون ربكم) أي: اذكر يا رسولنا حالكم لما كنتم خائفين لقلتكم وكثرة عدوكم فاستغثتم ربكم قائلين: اللهم نصرك، اللهم أنجز لي ما وعدتني.

والاستغاثة: طلب الغوث.

قال الطبري: أي: "تستجيرون به من عدوكم، وتدعونه للنصر عليهم".

قال السعدي: "أي: اذكروا نعمة الله عليكم، لما قارب التقاؤكم بعدوكم، استغثتم بربكم، وطلبتم منه أن يعينكم وينصركم".

=

=

عن ابن إسحاق: " {إذ تستغيثون ربكم}، أي: بدعائكم، حين نظروا إلى كثرة عدوهم وقلة عددهم".

عن ابن جريج قوله: " {إذ تستغيثون ربكم}، قال: دعاء النبي ﷺ".

قال القاسمي: "أي: تطلبون منه الغوث، وهو التخلص من الشدة، والعون بالنصر عليهم".

قال الشوكاني: "والمعنى أن المسلمين لما علموا أنه لا بدّ من قتال الطائفة ذات الشوكة، وهم النفير كما أمرهم الله بذلك، وأراده منهم، ورأوا كثرة عدد النفير، وقلة عددهم، استغاثوا بالله سبحانه".

عن عبد الله بن عباس قال حدثني عمر بن الخطاب قال لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه «اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم آت ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض». فمازال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه. وقال يا نبي الله كذاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله ﷻ (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فأمده الله بالملائكة) رواه مسلم.

روى البخاري عن ابن مسعود قال (شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى (اذهب أنت وربك فقاتلا) ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره يعني قوله).

=

=

وعن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر (اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد فأخذ أبو بكر بيده فقال حسبك فخرج وهو يقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر) رواه البخاري.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ (اللَّهُمَّ أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ حَسْبُكَ فَخَرَجَ وَهْوَ يَقُولُ (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) رواه البخاري.

عن ابن عباس قال: "لما اصطفَّ القوم، قال أبو جهل: اللهم أولانا بالحق فانصره! ورفع رسول الله ﷺ يده فقال: يا رب، إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدا!.

عن زيد بن يُثَيْع قال: "كان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع رسول الله ﷺ في العريش، فجعل النبي ﷺ يدعو يقول: اللهم انصر هذه العصابة، فإنك إن لم تفعل لن تعبد في الأرض! قال: فقال أبو بكر: بعضَ مناشدتك مُنْجِزَك ما وعدك".

وفي المستغيثين قولان:

أحدهما: أنه رسول الله ﷺ والمسلمون معه قاله الزهري.

لأن الوجه الذي لأجله أقدم الرسول على الاستغاثة كان حاصلًا فيهم، بل خوفهم كان أشد من خوف الرسول.

والقول الثاني: أنه رسول الله ﷺ وحده وإنما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم له.

وقيل: أنه دعا عَلَيْهِ السَّلَامُ وتضرع على ما روي، والقوم كانوا يؤمنون على دعائه تابعين له في الدعاء في أنفسهم فنقل دعاء رسول الله لأنه رفع بذلك الدعاء صوته، ولم ينقل دعاء القوم، فهذا هو طريق الجمع بين الروايات المختلفة في هذا الباب.

- وفي هذا أن العبد إذا دهمته الكروب، وجاءته البلايا، والمحن والزلازل أن

=

=

يلتجأ إلى الله وحده.

قال تعالى (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ).

ولذا كان ﷺ في ذلك الوقت الضنك، والموقف الحرج، رفع ذلك الالتجاء إلى خالقه، وأثنى الله عليه في ذلك، وأجابه بمدد السماء ملائكة منزلين (وهكذا شأن الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم) يلتجئون إليه في تلك الظروف الحرجة والأوقات الضنكة. وكان الكفار -لأن عندهم عقلًا معيشيًّا دنيويًّا- إذا نزلت بهم البلايا ودهمتهم الكروب أخلصوا في ذلك الوقت الدعاء لله، وأعطوا الحق لمن له الحق، حتى إذا أنقذهم الله من ذلك رجعوا إلى كفرهم.

والآيات الدالة على هذا لا تكاد تحصيها في المصحف الكريم (وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ) أي: وخافوا من الموت من هيجان تلك الأمواج (دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ) أي: ودهمتهم الأمواج، وعاينوا الهلاك (دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) (وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ).

قوله تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال: ٩]، أي: "فاستجاب الله لدعائكم قائلا إني ممدُّكم بألف من الملائكة من السماء، يتبع بعضهم بعضًا".

قال الطبري: أي: "فأجاب دعاءكم، بأني ممدكم بألف من الملائكة يُرْدِف بعضهم بعضًا، ويتلو بعضهم بعضًا.

قال السعدي: "{فَاسْتَجَابَ لَكُمْ}، وأغاثكم بعدة أمور: منها: أن الله أمدكم {بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ} أي: يردف بعضهم بعضا".

=

=

عن ابن إسحاق: " {فاستجاب لكم}، بدعاء رسول الله ﷺ ودعائكم معه".

قال السدي: "أقبل النبي ﷺ يدعو الله ويستغيثه ويستنصره، فأنزل الله عليه الملائكة".

عن أبي صالح قال: "لما كان يوم بدر جعل النبي ﷺ يناشد ربه أشد النِّشدة يدعو، فأتاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، بعض نِشْدَتك، فوالله ليفيَنَّ الله لك بما وعدك!.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: "أن الرسول ﷺ قال في يوم بدر: ذا جبريل آخذ برأس فرسه، عليه أداة حرب".

وفي قوله تعالى: {مُرْدِفِينَ} [الأنفال: ٩]، وجوه:

أحدها: معناه: مع كل ملك ملك، وهو قول ابن عباس ، فتكون الألف ألفين. قال الشاعر:

إذا الجوزاءُ أَرْدَفَتِ الثُّرَيَّا ظَنَنْتُ بآل فاطمةَ الظُّنونا

الثاني: معناه: متتابعين، قاله قتادة ،والضحاك ، والسدي ، وابن زيد ، وهو مروي عن ابن عباس أيضا ، واختاره ابن قتيبة.

الثالث: معنى مردفين أي: ممدّين، و «الإرداف» إمداد المسلمين بهم، قاله مجاهد ، وعبد الله بن كثير.

قرأ نافع وحده {مردفين} بفتح الدال، وقرأ الباقون {مردفين} بكسر الدال، وروى المعلى بن منصور عن أبى بكر عن عاصم {مردفين} بفتح الدال، وروي أبوبكر البغدادي عن الجمال عن أحمد بن يزيد عن القواس بأسناده عن ابن كثير {مردفين} مثل حمزة.

وعن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي، عن أبيه، وكان أبوه من أهل بدر- قال (جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال ما تعدون أهل بدر فيكم قال من أفضل المسلمين، أو

=

=

كلمة نحوها- قال وكذلك من شهد بدرا من الملائكة.

قوله تعالى: {وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى} [الأنفال: ١٠]، أي: "وما جعل الله ذلك الإمداد إلا بشارة لكم بالنصر".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: لم يجعل الله إردافَ الملائكة بعضها بعضًا وتتابعها بالمصير إليكم، أيها المؤمنون، مددًا لكم {إلا بشرى} لكم، أي: بشارة لكم، تبشركم بنصر الله إياكم على أعدائكم".

قال ابن كثير: "أي: وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بُشرى... وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك".

قال السعدي: "أي: إنزال الملائكة {إلا بُشْرَى} أي: لتستبشر بذلك نفوسكم".

قال ابن عاشور: "وفائِدة التبشير بإمداد الملائكة أن يوم بدر كان في أول يوم لقي فيه المسلمون عدوًا قويًا وجيشًا عديدًا، فبشرهم الله بكيفية النصر الذي ضمنه لهم بأنه بجيش من الملائكة".

قال الشوكاني: " قوله تعالى (وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ) أي بالإمداد قلوبكم، وفي هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا، بل أمدّ الله المسلمين بهم للبشرى لهم، وتطمين قلوبهم وتثبيتها".

قال مجاهد:"ما مدّ النبي ﷺ مما ذكر الله غيرُ ألف من الملائكة مردفين، وذكر «الثلاثة» و «الخمسة» بشرى، ما مدُّوا بأكثر من هذه الألف الذي ذكر الله ﷻ في «الأنفال»، وأما «الثلاثة» و «الخمسة»، فكانت بشرَى".

قال الماوردي: "قوله تعالى (وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ) لئلا يتوهم أن النصر من قبل الملائكة لا من قبل الله تعالى".

والمقصود التنبيه على أن الملائكة وإن كانوا قد نزلوا في موافقة المؤمنين، إلا أن الواجب على المؤمن أن لا يعتمد على ذلك بل يجب أن يكون اعتماده على إغاثة

=

=

الله ونصره وهدايته وكفايته لأجل أن الله هو العزيز الغالب الذي لا يغلب، والقاهر الذي لا يقهر، والحكيم فيما ينزل من النصرة فيضعها في موضعها.

– قال الخازن: وفيه تنبيه على أن الواجب على العبد المسلم أن لا يتوكل إلا على الله في جميع أحواله ولا يثق بغيره فإن الله تعالى بيده النصر والإعانة.

– **قال ابن كثير**: وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم، كما قال تعالى (فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ).

وقال تعالى (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ).

قوله تعالى: {وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ} [الأنفال: ١٠]، أي: "ولتسكن به قلوبكم، وتوقنوا بنصر الله لكم".

قال مجاهد: "تطمئنوا إليه".

قال الطبري: "يقول: ولتسكن قلوبكم بمجيئها إليكم، وتوقن بنصرة الله لكم".

قال السعدي: "وإلا فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عَدَدٍ ولا عُدَد".

واختلفوا في قتال الملائكة معهم على قولين:

أحدهما: لم يقاتلوا وإنما نزلوا بالبشرى لتطمئن به قلوبهم، وإلا فملك واحد يهلك جميع المشركين كما أهلك جبريل قوم لوط.

الثاني: أن الملائكة قاتلت مع النبي ﷺ كما روى ابن مسعود أنه سأله أبو جهل: "من أين كان يأتينا الضرب ولا نرى الشخص؟ قال: {مِن قِبَلِ الْمَلائِكَةِ}، فقال: هم غلبونا لا أنتم".

=

=

قوله تعالى: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ} [الأنفال: ١٠]، أي: "وما النصر إلا من عند الله، لا بشدة بأسكم وقواكم".

قال محمد بن إسحاق: " {وما النصر إلا من عند الله}: إلا من عندي، إلا بسلطاني وقدرتي، وذلك أن العز والحكم إلي لا إلى أحد من خلقي".

قال الطبري: "يقول: وما تنصرون على عدوكم، أيها المؤمنون، إلا أن ينصركم الله عليهم، لا بشدة بأسكم وقواكم، بل بنصر الله لكم، لأن ذلك بيده وإليه، ينصر من يشاء من خلقه".

قال الماوردي: "وقوله: {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ}، لئلا يتوهم أن النصر من قبل الملائكة لا من قبل الله تعالى".

قال ابن كثير: "فهذه حكم شَرَع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمة المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعادًا الأولى بالدَّبُور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليمّ، ثم أنزل على موسى التوراة، شرع فيها قتال الكفار، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ} [القصص: ٤٣]، وقتل المؤمنين الكافرين أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ [وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ]} [التوبة: ١٤، ١٥]؛ ولهذا كان قَتلُ صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم، أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان. فَقَتْلُ أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى، أشد إهانة

=

=
له من أن تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ [يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ} [غافر: ٥١، ٥٢] {حَكِيم} فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم، بحوله وقوته، سبحانه وتعالى".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ١٠]، أي: "إن الله عزيز في ملكه، حكيم في تدبيره وشرعه".

قال الطبري: أي: {عزيز}، لا يقهره شيء، ولا يغلبه غالب، بل يقهر كل شيء ويغلبه، لأنه خلقه، {حكيم}، يقول: حكيم في تدبيره ونصره من نصر، وخذلانه من خذل من خلقه، لا يدخل تدبيره وهن ولا خَلل.

قال ابن كثير: "أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ} [غافر: ٥١، ٥٢]، {حَكِيم} فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم، بحوله وقوته، سبحانه وتعالى".

قال السعدي: "{إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ} لا يغالبه مغالب، بل هو القهار، الذي يخذل من بلغوا من الكثرة وقوة العدد والآلات ما بلغوا. {حَكِيمٌ} حيث قدر الأمور بأسبابها، ووضع الأشياء مواضعها".

عن ابن العالية: "{إن الله عزيز حكيم}، يقول: عزيز في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

عن أبي العالية: "{إن الله عزيز حكيم}، يقول: حكيم في أمره".

قال محمد بن إسحاق: " {عزيز حكيم}، العزيز: في نصرته ممن كفر به إذا شاء"، الحكيم: في عذره وحجته إلى عباده".

والعزيز: اسم من أسماء الله، وهو متضمن لصفة العزة الكاملة لله، وهي ثلاثة
=

=

أنواع:

عزة القدْر: بمعنى أن الله ذو قدْر شريف عظيم ، كما قال النبي ﷺ (السيد الله).

وعزة القهر: بمعنى أن الله القاهر لكل شيء ، لا يُغلب ، كما قال تعالى (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ).

وعزة الامتناع: بمعنى أنه يمتنع أن يناله أحد بسوء أو نقص.

قال السعدي: (العزيز) الذي له العزة كلها: عزة القوة ، وعزة الغلبة ، وعزة الامتناع ، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات ، وقهر جميع الموجودات ، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته.

(حَكِيمٌ) اسم من أسماء الله متضمن لصفة الحكمة البالغة، فأوامره وأحكامه وأفعاله كلها لحكمة.

ومن حكمته فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم، بحوله وقوته، سبحانه وتعالى.

فهو سبحانه حكيم في صنعه، وحكيم في شرعه، فجميع مصنوعاته كلها محكمة، قال تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) وأما في الشرع فيقول سبحانه (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا) فلا يمكن أن يوجد تناقض في القرآن أبدًا.

قال ابن القيم: وقد دلت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة: أنه سبحانه (حكيم) لا يفعل شيئًا عبثًا ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة، لأجلها فعل كما فعل كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل.

وقال السعدي: فلا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يشرع سدى، الذي له الحكم في الأولى

=

=

والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده في شرعه، وفي قدره، وجزائه.

مسألة: في حكم الاستغاثة.

الاستغاثة في اللغة: أغاثه إغاثة إذا أعانه ونصره.

والاستغاثة شرعا: طلب الغوث وهو إزالة الشدة، أو: طلب العون في حالة الشدة والهلاك.

* الدليل من الكتاب: قال تعالى: {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين} [الأنفال: ٩]، وقوله تعالى: {ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين} [يونس: ١٠٦]، وقوله تعالى: {وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو} [الأنعام: ١٧]، وقوله تعالى: {ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة} [الأحقاف: ٥] وقوله تعالى: {ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة} [الأحقاف: ٥] وقال تعالى: {أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء} [النمل: ٦٢].

* الدليل من السنة: عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ إذا كربه أمر قال: "يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث".

وعن عبادة بن الصامت قال: قال أبو بكر: قوموا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: "إنه لا يستغاث بي، إنما يستغاث بالله ﷻ".

قال ابن تيمية: "هذا الخبر لم يذكر للاعتماد عليه، بل ذكر في ضمن غيره ليتبين أن معناه موافق للمعاني المعلومة بالكتاب والسنة، ثم ذكر أن هذا الخبر من النوع الذي يصلح للاعتضاد. انظر تلخيص كتاب الاستغاثة ص ١٥٣، كما أنه - أي ابن تيمية - احتج به في مواضع من فتاويه. انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١/

=

=

١٠١، ١١٠، ٣٠٣، ٣٢٩.

❊ أقوال العلماء:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن الحديث السابق: "إنما أراد ألا يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله".

وقال أيضا: "لكن ظاهر لفظ الحديث إن صح يقتضي أنه لم يكن قادرا على دفع ضرر ذلك المنافق، وأنه أمرهم أن يستغيثوا فيه بالله تعالى".

وقال أيضا: "ولا يلزم تخطئة أبي بكر الصديق، فإن الصديق قد يعتقد عند النبي ﷺ في دفع ذلك المنافق بعض الأمور التي يقدر عليها البشر، فبين له النبي ﷺ أنه ليس عنده في دفعه حيلة، بل يستغاث الله في أمره".

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: "والظاهر أن مراده ﷺ إرشادهم إلى التأدب مع الله في الألفاظ لأن استغاثتهم به ﷺ من المنافق من الأمور التي يقدر عليها إما بزجره أو تعزيره ونحو ذلك، فظهر أن المراد بذلك الإرشاد إلى حسن اللفظ والحماية منه ﷺ لجناب التوحيد".

وقال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله لا يستغاث بي يحتمل أمرين:

الأول: أن النبي ﷺ لا يستطيع قتله لأنه كان ممنوعا من قتله؛ لأجل أن لا يتحدث بأن محمدا يقتل أصحابه فامتنع عن قتله.

الثاني: يحتمل - إن صح الخبر - أنه قاله سدا للذريعة وإن كان قادرا على التخلص منه حتى لا تقع منهم هذه الكلمة في أمور لا يقدر عليها".

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله (إنه لا يستغاث بي) ظاهر هذه الجملة النفي مطلقا، ويحتمل أن المراد لا يستغاث به في هذه القضية المعينة.

فعلى الأولى: يكون نفي الاستغاثة هنا من باب سد الذرائع والتأدب في اللفظ، وليس من باب الحكم بالعموم؛ لأن نفي الاستغاثة بالرسول ﷺ ليس على

=

=

إطلاقه، بل تجوز الاستغاثة به فيما يقدر عليه".

حكم الاستغاثة:

الاستغاثة أخص أنواع العبادة، فإخلاصها لله إيمان وتوحيد، أما الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو شرك وكفر.

وقد تقدم في باب الاستعاذة أن جميع أنوع العبادات لا تصرف لغير الله، فمن صرف منها شيئا لغير الله فهو مشرك كافر. والاستغاثة من نوع الدعاء والطلب؛ لأن فيها طلب الغوث أي الدعاء المشتمل على ذلك فهي من أهم أنواع العبادات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فالاستغاثة المنفية نوعان:

أحدهما: الاستغاثة بالميت مطلقا في كل شيء.

الثاني: الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الخالق، فليس لأحد أن يسأل غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله لا نبيا ولا غيره".

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولا خلاف أنه يجوز أن يستغاث بالمخلوق فيما يقدر على الغوث فيه من الأمور ولايحتاج مثل ذلك إلى استدلال فهو في غاية الوضوح وما أظنه يوجد فيه خلاف".

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والاستغاثة الشركية التي أنكرناها هي ما يأتي بيانه؛ وهي الاستغاثة بالغائب أو الميت أو الحي الحاضر الذي لا يقدر، وأما الجائزة فهي طلب الحي الحاضر".

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاستغاثة أقسام:

الأول: الاستغاثة بالله عَزَّوَجَلَّ وهذا من أفضل الأعمال وأكملها وهو دأب الرسل وأتباعهم، ودليله ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال تعالى: {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين} [الأنفال: ٩] وكان ذلك في غزوة بدر حين نظر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المشركين في ألف رجل وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر

=

=

رجلا فدخل العريش يناشد ربه ﷻ رافعا يديه مستقبل القبلة يقول: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض". وما زال يستغيث بربه رافعا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأخذ أبو بكر رضي الله عنه رداءه فألقاه على منكبه ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله هذه الآية.

الثاني: الاستغاثة بالأموات أو بالأحياء غير الحاضرين القادرين على الإغاثة فهذا شرك؛ لأنه لا يفعله إلا من يعتقد أن لهؤلاء تصرفا خفيا في الكون فيجعل لهم حظا من الربوبية قال الله تعالى: {أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون} [النمل: ٦٢].

الثالث: الاستغاثة بالأحياء العالمين القادرين على الإغاثة فهذا جائز كالاستعانة بهم قال الله تعالى في قصة موسى: {فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى} [القصص: ١٥].

الرابع: الاستغاثة بحي غير قادر من غير أن يعتقد أن له قوة خفية مثل أن يستغيث الغريق برجل مشلول فهذا لغو وسخرية بمن استغاث به فيمنع منه لهذه العلة، ولعلة أخرى وهي الغريق ربما اغتر بذلك غيره فتوهم أن لهذا المشلول قوة خفية ينقذ بها من الشدة".

وعلى هذا فإن الاستغاثة بالمخلوق على قسمين:

الأول: الاستغاثة بالأموات والغائبين، أو الاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله كالذي يستغيث عند المرض أو خوف الغرق بالرسول أو البدوي فهذا شرك أكبر مخرج من الملة. قال الشيخ ابن قاسم: "وقد تبين من الآيات والأحاديث أن دعاء الميت والغائب والحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله والاستغاثة بغير الله في كشف الضر أو تحويله هو الشرك الأكبر بل هو أكبر أنواعه".

=

الثاني: الاستغاثة بالحي القادر الحاضر، وهي جائزة. وعليه يحمل قول الله تعالى: {فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه}: "وإذا طلبت من أحد غوثا وهو قادر عليه فإنه يجب عليك تصحيحا لتوحيدك أن تعتقد أنه مجرد سبب وأنه لا تأثير له بذاته في إزالة الشدة؛ لأنك ربما تعتمد عليه وتنسى خالق السبب، وهذا قادح في كمال التوحيد".

❋ أحكام وفوائد:

❋ وإذا علمت أن الاستغاثة بغير الله هي الشرك الأكبر تبين لك أن المستغيثين بالقبور والموتى كالمشركين لا تجوز الصلاة خلفهم؛ وقد سئل مفتي الديار الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ عن حكم الصلاة خلف من يستغيث بغير الله فقال: "لا تجوز الصلاة خلف جميع المشركين ومنهم من يستغيث بغير الله ويطلبه المدد لأن الاستغاثة بغير الله من الأموات والأصنام والجن وغير ذلك من الشرك بالله سبحانه ... وإذا لم تجد إماما مسلما تصلي خلفه جاز لك أن تصلي في بيتك".

وقالت اللجنة عمن يستغيث بغير الله: "هم مشركون شركا أكبر يخرج من ملة الإسلام لا تجوز موالاتهم، كما لا تجوز موالاة الكفار، ولا تصح الصلاة خلفهم، ولا تجوز عشرتهم ولا الإقامة بين أظهرهم؛ إلا لمن يدعوهم إلى الحق على بينة ويرجو أن يستجيبوا له وأن تصلح حالهم دينيا على يديه وإلا وجب عليه هجرهم".

❋ الفرق بين الدعاء والاستغاثة:

أن الدعاء عام في كل الأحوال، والاستغاثة هي الدعاء في حالة الشدائد، وكل ذلك يتعين إخلاصه لله وحده، فالاستغاثة من الدعاء فكل مستغيث داع وليس كل داع مستغيث.

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١).

اذكر {إِذْ يُغَشِّيكُمْ النُّعَاس أَمَنَة} أَمْنًا مِمَّا حَصَلَ لَكُمْ مِنْ الْخَوْف {مِنْهُ} تَعَالَى {وَيُنَزِّل عَلَيْكُمْ مِنْ السَّمَاء مَاء لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ} مِنْ الْأَحْدَاث وَالْجَنَابَات {وَيُذْهِب عَنْكُمْ رِجْز الشَّيْطَان} وَسْوَسَته إِلَيْكُمْ بِأَنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ عَلَى الْحَق مَا كُنْتُمْ ظَمْأَى مُحَدِّثِينَ وَالْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمَاء {وَلِيَرْبِط} يَحْبِس {عَلَى قُلُوبكُمْ} بِالْيَقِينِ وَالصَّبْر {وَيُثَبِّت بِهِ الْأَقْدَام} أَنْ تَسُوخ فِي الرَّمْل[1].

=

وتختلف الاستغاثة عن الاستعانة أن لفظ الاستغاثة مخصوص بطلب العون في حالة الشدة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "قالوا: والفرق بين المستغيث والداعي أن المستغيث ينادي بالغوث والداعي ينادي بالمدعو".

(١) ذكر سبب النزول.

عن ابن شهاب -وهو الزهري-؛ قال: بلغنا أن هذه الآية أنزلت في المؤمنين يوم بدر فيما أغشاهم الله من النعاس أمنة منه.

أخرجه ابن أبي حاتم في "التفسير" (٥/ ١٦٦٤ رقم ٨٨٤٠) من طريق ابن وهب: أخبرني يونس بن يزيد الأيلي عن الزهري به.

وهو ضعيف؛ لإرساله.

وأخرج البيهقي في "الدلائل" (٣/ ١٠١، ١١٩) من طريق موسى بن عقبة قال: "فمكث رسول الله ﷺ بعد قتل ابن الحضرمي شهرين، ثم أقبل أبو سفيان بن حرب في عير قريش من الشام ومعه سبعون راكبًا من بطون قريش كلها، وفيهم: مخرمة بن نوفل، وعمرو بن العاص، وكانوا تجارًا بالشام ومعهم خزائن أهل

=

=

مكة، ويقال: كانت عيرهم ألف بعير، ولم يكن لأحد من قريش أوقيةٌ فما فوقها إلا بعث بها مع أبي سفيان، إلَّا حُويطب بن عبد العزى، فلذلك كان تخلف عن بدر فلم يشهده، فذكروا لرسول الله ﷺ وأصحابه وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك وقَتْلُ ابن الحضرمي، وأسْرُ الرَّجُلين: عثمان، والحكم.

فلما ذُكِرَتْ عير أبي سفيان لرسول الله ﷺ بعث رسول الله ﷺ عديّ بن أبي الزَّغْباء الأنصاري من بني غنم، وأصله من جهينة، وبَسْبَس؛ يعني: ابن عمرو إلى العير عينًا له، فسارا حتى أتيا حيًا من جهينة قريبًا من ساحل البحر، فسألوهم عن العير وعن تجار قريش، فأخبروهما بخبر القوم فرجعا إلى رسول الله ﷺ، فأخبراه فاستنفرا المسلمين للعير، وذلك في رمضان.

وقدم أبو سفيان على الجهنيين وهو متخوف من رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال: أَحَسُّوا من محمد، فأخبروه خبر الراكبين: عدي بن أبي الزغباء، وبَسْبَسٍ، وأشاروا إلى مُنَاخهما، فقال أبو سفيان: خذوا من بَعْرِ بعيريهما، ففَتَّه، فوجد فيه النوى، فقال: هذه علائف أهل يثرب، وهذه عيون محمد وأصحابه، فساروا سراعًا خائفين للطلب، وبعث أبو سفيان رجلًا من بني غفار يقال له: ضمضم بن عمرو، إلى قريش: أن انفروا فاحموا عيركم من محمد وأصحابه، فإنه قد استنفر أصحابه ليعرضوا لنا.

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب ساكنة بمكة، وهي عمة رسول الله ﷺ، وكانت مع أخيها العباس بن عبد المطلب، فرأت رؤيا قبل بدر، وقبل قدوم ضمضم عليهم، ففزعت منها، فأرسلت إلى أخيها؛ العباس بن عبد المطلب من ليلتها، فجاءها العباس، فقالت: رأيت الليلة رؤيا قد أشفقت منها، وخشيت على قومك منها الهلكة، قال: وماذا رأيت؟ قالت: لن أحدثك حتى تعاهدني أنك لا تذكرها فإنهم إن سمعوها آذَوْنَا وأسمعونا ما لا نحب، فعاهدها العباس فقالت: رأيت

=

=

راكبًا أقبل من أعلى مكة على راحلته يصيح بأعلى صوته: يا آل غُدَرْ أخرجوا في ليلتين أو ثلاث، فأقبل يصيحُ حتى دخل المسجد على راحلته، فصاح ثلاث صيحات، ومال عليه الرجال والنساء والصبيان وفزع له الناس أشد الفزع، قالت: ثم أراه مَثَلَ على ظهر الكعبة على راحلته فصاح ثلاث صيحات، فقال: يا آل غُدَرْ، ويا آل فُجَرْ: اخرجوا في ليلتين أو ثلاث، ثم أراه مَثَل على ظهر أبي قبيس، كذلك يقول يا آل غُدَرْ ويا آل فُجَرْ، حتى أَسْمَعَ مَنْ بين الأخشبين من أهل مكة، ثم عمد إلى صخرة عظيمة فنزعها من أصلها ثم أرسلها على أهل مكة، فأقبلت الصخرة لها حسٌّ شديد، حتى إذا كانت عند أصل الجبل أرفضت فلا أعلم بمكة دارًا ولا بيتًا إلا قد دخلتها فلقة من تلك الصخرة، فقد خشيت على قومك.

ففزع العباس من رؤياها، ثم خرج من عندها، فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة من آخر الليلة، وكان الوليد خليلًا للعباس، فقصَّ عليه رؤيا عاتكة وأمره أن لا يذكرها لأحد، فذكرها الوليد لأبيه عتبة، وذكرها عتبة لأخيه شيبة، فارتفع الحديث حتى بلغ أبا جهل بن هشام، واستفاضَ في أهل مكة.

فلما أصبحوا غدا العباس يطوفُ بالبيت فوجد في المسجد أبا جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة وأمية وأبيّ ابني خلف وزمعة بن الأسود وأبا البختري في نفر من قريش يتحدثون، فلما نظروا إلى العباس ناداه أبو جهل: يا أبا الفضل إذا قضيت طوافك فهلمّ إلينا، فلما قضى طوافه جاء فجلس إليهم، فقال أبو جهل: ما رؤيا رأتها عاتكة فقال: ما رأت من شيء. فقال أبو جهل: أما رضيتم يا بني هاشم بكذب الرجال حتى جئتمونا بكذب النساء، إنا كنا وإياكم كفرسي رهان، فاسْتَبَقْنا المجد منذ حين فلما تحاكَّت الركب قلتم: منا نبي، فما بقي إلا أن تقولوا: منا نبية، فما أعلم في قريش أهل بيت أكذب امرأة ولا رجلًا منكم، وآذاه أشد الأذى.

وقال أبو جهل: زعمت عاتكة أن الراكب قال: اخرجوا في ليلتين أو ثلاث، فلو قد

=

=

مضت هذه الثلاث تبيَّنَت قريش كذبكم، وكتبنا سجلًا: أنكم أكذب أهل بيت في العرب رجلًا وامرأة.
أما رضيتم يا بني قصي أن ذهبتم بالحجابة والندوة والسقاية واللواء والرِّفادة، حتى جئتمونا بنبي منكم؟
فقال العباس: هل أنت منته؟ فإن الكذب فيك وفي أهل بيتك، فقال من حضرهما: ما كنت يا أبا الفضل جهولًا، ولا خرقًا.
ولقى العباسُ من عاتكة فيما أفشى عليها من رؤياها أذى شديدًا، فلما كان مساء الليلة الثالثة من الليلة التي رأت عاتكة فيها الرؤيا، جاءهم الراكب الذي بعث أبو سفيان، وهو ضمضم بن عمرو الغفاري فصاح فقال: يا آل غالب بن فهر انفروا فقد خرج محمد وأهل يثرب يعترضون لأبي سفيان فأحرزوا عيركم، ففزعت قريش أشد الفزع، وأشفقوا من رؤيا عاتكة.
وقال العباس: هذا زعمتم كذا، وكذّب عاتكة، فنفروا على كل صعب وذلول.
وقال أبو جهل: أيظن محمد أن يصيب مثل ما أصاب بنخلة، سيعلم أنمنع عيرنا أم لا؟! فخرجوا بخمسين وتسعمائة مقاتل وساقوا مائة فرس، ولم يتركوا كارهًا للخروج يظنون أنه في صَغْوِ محمد وأصحابه ولا مسلمًا يعلمون إسلامه ولا أحدًا من بني هاشم إلا من لا يتهمون إلا أشخصوه معهم، فكان ممن أشخصوا العباس بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث، وطالب بن أبي طالب، وعقيل بن أبي طالب، في آخرين فهنالك يقول طالب بن أبي طالب:
إمّا يخْرُجَنّ طالبْ ... بِمِقْنَبٍ من هذه المقانِبْ
في نَفْرٍ مقاتل محاربْ ... فيلكن المسلوبُ غير السالبْ
والراجع المغلوب غير الغالب
فساروا حتى نزلوا الجحفة. نزلوها عشاءً يَتَروُّون من الماء، وفيهم رجلٌ من بني
=

=

المطلب بن عبد مناف، يقال له: جُهَيْمٌ بن الصلت بن مخرمة، فوضع جهيم رأسه فأغفى، ثم فزع فقال لأصحابه: هل رأيتم الفارس الذي وقف عليَّ آنفًا، فقالوا: لا، فإنك مجنون. فقال: قد وقف عليَّ فارس آنفًا؛ فقال: قتل أبو جهل، وعتبة، وشيبة، وزمعة، وأبو البختري، وأمية بن خلف، فعدَّ أشرافًا من كفار قريش، فقال له أصحابه: إنما لَعِب بك الشيطان، ورفع حديث جُهَيْم إلى أبي جهل، فقال: قد جئتمونا بكذب بني المطلب مع كذب بني هاشم، سَتَرَوْنَ غدًا من يُقتل.

ثم ذُكر لرسول الله ﷺ عير قريش جاءت من الشام، وفيها: أبو سفيان بن حرب، ومخرمة بن نوفل، وعمرو بن العاص، وجماعة من قريش، فخرج إليهم رسول الله ﷺ فسلك حين خرج إلى بدر على نقب بني دينار، ورجع حين رجع من ثنية الوداع، فنفر رسول الله ﷺ حين نفر ومعه ثلثمائة وستة عشر رجلًا.

وفي رواية ابن فُلَيْح ثلثمائة وثلاثة عشر رجلًا، وأبطأ عنه كثير من أصحابه وتربصوا وكانت أول وقعة أعزّ الله تبارك وتعالى فيها الإسلام.

فخرج في رمضان على رأس ثمانية عشر شهرًا من مقدمه المدينة، ومعه المسلمون لا يريدون إلا العير فسلك على نقب من بني دينار، والمسلمون غير مقوِّين من الظهر وإنما خرجوا على النواضح يعتقِب النفر منهم على البعير الواحد، وكان زميل رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي حليف حمزة، فهم معه ليس معهم إلا بعير واحد، فساروا حتى إذا كانوا بعِرْقِ الظبية لقيهم راكب من قِبل تهامة، والمسلمون يسيرون، فوافقه نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوه عن أبي سفيان، فقال: لا علم لي به، فلما يأسوا من خبره؛ قالوا له: سلِّم على النبي ﷺ، قال: وفيكم رسول الله؟ قالوا: نعم. قال: أيكم هو؟ فأشاروا له إليه، فقال الأعرابي: أنت رسول الله كما تقول، قال: "نعم". قال: إن كنت رسول الله كما تزعم فحدثني بما في بطن ناقتي هذه، فغضب رجل من الأنصار، ثم من بني عبد

=

=

الأشهل، يقال له: سلمة بن سلامة بن وَقَشٍ، فقال للأعرابي: وقعت على ناقتك؛ فحملت منك، فكره رسول الله ﷺ ما قال سلمة حين سمعه أفحش، فأعرض عنه ثم سار رسول الله ﷺ لا يلقاه خبر ولا يعلم بنفرة قريش. فقال النبي ﷺ لأصحابه: "أشيروا علينا في أمرنا ومسيرنا"؛ فقال أبو بكر: يا رسول الله! إنا أعلم الناس بمسافة الأرض، أخبرنا عدي بن أبي الزغباء أن العير كانت بوادي كذا وكذا.

قال ابن فليح في روايته: فكأنَّا وإيَّاهم فرسا رهان إلى بدر -ثم اتفقا- قال: ثم قال: "أشيروا عليّ"؛ فقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: يا رسول الله! إنها قريش وعزّها، والله ما ذَلَّتْ منذ عَزَّتْ، ولا آمنت منذ كَفَرَتْ، والله لَتُقَاتِلَنَّك.

فتأهب لذلك أُهبته، واعدد له عدته، فقال رسول الله ﷺ: "أشيروا عليَّ"؛ فقال المقداد بن عمرو -عديد بني زهرة-: إنا لا نقول لك كما قال أصحاب موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون.

فقال رسول الله ﷺ: "أشيروا عليَّ"، فلما رأى سعد بن معاذ كثرة استشارة النبي ﷺ أصحابه فيشيرون فيرجع إلى المشورة؛ ظن سعد أنه يستنطق الأنصار شفقًا ألاَّ يستحوذوا معه أو قال: ألا يستجلبوا معه على ما يريد من أمره، فقال سعد بن معاذ: لعلك يا رسول الله تخشى أن لا تكون الأنصار يريدون مواساتك، ولا يرونها حقًا عليهم إلا بأن يروا عدُوًّا في بيوتهم وأولادهم ونسائهم، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم: يا رسول الله! فأظعن حيث شئت، وصِلْ حبل من شئتَ، واقطع حبل من شئتَ، وخذ من أموالنا ما شئتَ، وأعطنا ما شئتَ، وما أخذته منا أحب إلينا مما تركت علينا، وما ائتمرتَ من أمر فأمرنا لأمرك فيه تبع، فوالله لو سرت حتى تبلغ البَرْكَ من غِمْدِ ذِي يَمَنٍ لسرنا معك.

=

=

فلما قال ذلك سعد؛ قال رسول الله ﷺ: "سيروا على اسم الله ﷻ؛ فإني قد أُرِيتُ مصارع القوم"، فعمد لبدر.

وخفض أبو سفيان، فلصق بساحل البحر وخاف الرصَد على بدر، وكتب إلى قريش حين خالف مسير رسول الله ﷺ ورأى أنه قد أحرز ما معه، وأمرهم أن يرجعوا، فإنما خرجتم لتحرزوا ركبكم فقد أحرز لكم، فلقيهم هذا الخبر بالجحفة فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى تقدم بدرًا فنقيم بها ونطعم من حضرنا من العرب؛ فإنه لن يرانا أحد من العرب فيقاتلنا، فكره ذلك الأخنس بن شريق فأحب أن يرجعوا. وأشار عليهم بالرجعة فأبوْا وعصوْه وأخذتهم حمية الجاهلية، فلما يئس الأخنس من رجوع قريش أكب على بني زهرة فاطاعوه فرجعوا، فلم يشهد أحد منهم بدرًا واغتبطوا برأي الأخنس وتبركوا به، فلم يزل فيهم مطاعًا حتى مات.

وأرادت بنو هاشم الرجوع فيمن رجع فاشتدَّ عليهم أبو جهل بن هشام، وقال: والله لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع.

وسار رسول الله ﷺ حتى نزل أدنى شيءٍ من بدر عشاء، ثم بعث عليَّ بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وبَسْبَسًا الأنصاري -عديد بني ساعدة-، وهو أحدُ جهينة في عصابةٍ من أصحاب رسول الله ﷺ، وقال لهم: اندفعوا إلى هذه الظِّراب وهو في ناحية بدر، فإني أرجو أن تجدوا الخبر عند القليب الذي يلي الظراب، فانطلقوا متوشحي السيوف، فوجدوا وارد قريش عند القليب الذي ذكر رسول الله ﷺ، فأخذوا غلامين؛ أحدهما: لبني الحجاج أسود، والآخر: لآل العاص يقال له: أسلم، وأُفْلِتَ أصحابهما قِبَل قريش فأقبلوا بهما حتى أَتَوْا بهما رسول الله ﷺ وهو في مُعَرَّسِهِ دون الماء، فجعلوا يسألون العبدين عن أبي سفيان وأصحابه لا يُرَوْن إلا أنهما لهم، فطفقا يحدثانهم عن قريش ومن خرج منهم وعن رؤوسهم

=

=

فيكذبونهما، وهم أكره شيء للذي يخبرانهم، وكانوا يطمعون بأبي سفيان وأصحابه ويكرهون قريشًا، وكان رسول الله ﷺ قائمًا يصلي يسمع ويرى الذي يصنعون بالعبدين، فجعل العبدان إذا أذلقوهما بالضرب يقولان: نعم هذا أبو سفيان والركب كما قال الله ﷻ أسفل منكم. قال الله -تعالى-: {إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا} قال: فطفقوا إذا قال العبدان: هذه قريش قد جاءتكم؛ كذبوهما، وإذا قالا: هذا أبو سفيان؛ تركوهما.

فلما رأى رسول الله ﷺ صنيعهم بهما سلَّم من صلاته، فقال: ماذا أخبراكم؟ قالوا: أخبرانا أن قريشًا قد جاءت، قال: "فإنهما قد صدقا، والله إنكم لتضربونهما إذا صدقا، وتتركونهما إذا كذبا. خرجت قريش لتحرز ركبها وخافوكم عليهم"، ثم دعا رسول الله ﷺ العبدين فسألهما فأخبراه بقريش، وقالا: لا علم لنا بأبي سفيان، فسألهما رسول الله ﷺ: "كم القوم؟ " قالا: لا ندري. والله هم كثير.

فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: "من أطعمهم أمس؟ " فسميا رجلًا من القوم.

قال: كم نحر لهم؟ قالا: عشر جزائر، قال: "فمن أطعمهم أول أمس؟ " فسميا رجلًا آخر من القوم، فقال: "كم نحر لهم؟ " قالا: تسعًا فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: القوم ما بين التسع مائة والألف يعتبر ذلك بتسع جزائر ينحرونها يومًا وعشر ينحرونها يومًا.

وزعموا أن أول من نحر لهم حين خرجوا من مكة أبو جهل بن هشام، ونحر لهم بمرٍّ عشر جزائر، ثم نحر لهم أمية بن خلف بعسفان تسع جزائر، ونحر لهم سهيل بن عمرو بِقُدَيد عشر جزائر، ومالوا من قديد إلى مياه من نحو البحر فظلوا فيها وأقاموا بها يومًا، فنحر لهم شيبة بن ربيعة تسعًا، ثم أصبحوا بالجحفة فنحر لهم يومئذ عتبة بن ربيعة عشرًا، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم نُبَيْه ومُنَبِّه ابنا الحجاج -

=

=

أو قال: العباس بن عبد المطلب- عشرًا، ونحر لهم الحارث بن عامر بن نوفل تسعًا، ونحر لهم أبو البختري على ماء بدر عشر جزائر، ونحر لهم مِقْيَس الجمحي على ماء بدر تسعاً، ثم شغلتهم الحرب فأكلوا من أذوادهم. فقال رسول الله ﷺ، فقال: "أشيروا عليَّ في المنزل"، فقام الحباب بن المنذر -رجل من الأنصار، ثم أحد بني سلمة-، فقال: أنا يا رسول الله عالمٌ بها وبِقُلُبها، إن رأيت أن تسير إلى قَليب منها قد عرفتها كثيرة الماء عذبةٌ؛ فَتَنْزِلَ عليها، وتسبق القوم إليها، وتغوِّر ما سواها، فقال رسول الله ﷺ: "سيروا؛ فإن الله -تعالى- قد وعدكم إحدى الطائفتين أنها لكم" فوقع في قلوب الناس كثير الخوف، وكان فيهم شيء من تخاذل من تخويف الشيطان.

فسار رسول الله ﷺ والمسلمون مسابقين إلى الماء، وسار المشركون سراعًا يريدون الماء؛ فأنزل الله عليهم في تلك الليلة مطرًا واحدًا، فكان على المشركين بلاءً شديدًا منعهم أن يسيروا، وكان على المسلمين ديمة خفيفة لبَّد لهم المسير والمنزل وكانت بطحاء دهِسَةً، فسبق المسلمونَ إلى الماء فنزلوا عليه شطر الليل، فاقتحم القوم في القليب فماحوها حتى أكثر ماؤها وصنعوا حوضًا عظيمًا ثم غَوروا ما سواه من المياه. وقال رسول الله ﷺ: "هذه مصارعهم -إن شاء الله تعالى- بالغداة"، وأنزل الله ﷻ: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١)}. ويقال: كان مع رسول الله ﷺ فرسان؛ على أحدهما: مصعب بن عمير، وعلى الآخر: سعد بن خيثمة، وَمَرَّةً الزبير بن العوام، وَمَرَّةً المقداد بن الأسود، ثم صف رسول الله ﷺ على الحياض فلما طلع المشركون قال رسول الله ﷺ زعموا: "اللهم هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها تُحَادُّكَ وتُكَذِّبُ رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدتني -ورسول الله ﷺ ممسك بعضد أبي بكر

=

=

يقول:- اللهم إني أسألك ما وعدتني"؛ فقال أبو بكر: يا نبي الله! أبشر فوالذي نفسي بيده لينجزن الله -تعالى- لك ما وعدك، فاستنصر المسلمون الله -تعالى- واستغاثوه؛ فاستجاب الله -تعالى- لنبيه ﷺ وللمسلمين.

وأقبل المشركون ومعهم إبليس في صورة سراقة بن جعشم المدلجي يحدثهم أن بني كنانة وراءه قد أقبلوا لنصرهم، وأنه لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم، لما أخبرهم من سير بني كنانة.

قال: وأنزل الله -تعالى-: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ} هذه الآية والتي بعدها، قال رجال من المشركين -ممن ادعى الإسلام وخرج بهم المشركون كرهًا لما رأوا قلة مع محمد ﷺ وأصحابه-: غرّ هؤلاء دينهم، قال الله -تعالى-: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} الآية كلها.

وأقبل المشركون حتى نزلوا وتعبَّوْا للقتال والشيطان معهم لا يفارقهم، فسعى حكيم بن حزام إلى عتبة بن ربيعة، فقال: هل لك أن تكون سيد قريش ما عشت؟ قال عتبة: فأفعل ماذا؟ قال: تجير بين الناس وتحمل دية ابن الحضرمي وبما أصاب محمد من تلك العير، فإنهم لا يطلبون من محمد غير هذه العير ودم هذا الرجل.

قال عتبة: نعم، قد فعلت ونَعِمَّا قلتَ، ونعِمَّا دعوت إليه، فاسع في عشيرتك فانا أتحمَّل بها، فسعى حكيم في أشراف قريش بذلك يدعوهم إليه، وركب عتبة بن ربيعة جملًا له، فسار عليه في صفوف المشركين في أصحابه، فقال: يا قوم! أطيعوني، فإنكم لا تطلبون عندهم غير دم ابن الحضرمي، وما أصابوا من عيركم تلك، وأنا أتحمَّل بوفاء ذلك، ودعوا هذا الرجل، فإن كان كاذبًا وليَ قتله غيركم من العرب؛ فإن فيهم رجالًا لكم فيهم قرابة قريبة، وإنكم إن تقتلوهم لا يزال الرجل منكم ينظر إلى قاتل أخيه أو ابنه أو ابن أخيه أو ابن عمه، فيورث ذلك فيهم

=

=

إحنًا وضغائن، وان كان هذا الرجل مَلِكًا كنتم في مُلْك أخيكم، وإن كان نبيًا لم تقتلوا النبي فتسبوا به، ولن تخلصوا أحسِبُ إليهم حتى يصيبوا أعدادهم، ولا آمن أن تكون لهم الدَّبْرة عليكم، فحسده أبو جهل على مقالته، وأبى الله ﷻ إلا أن يُنْفِذَ أمره. وعتبة بن ربيعة يومئذ سيد المشركين فعمد أبو جهل إلى ابن الحضرمي، وهو أخو المقتول، فقال: هذا عتبة يخذل بين الناس وقد تحمل بدية أخيك، يزعم أنك قابلها، أفلا تستحيُون من ذلك أن تقبلوا الدية؟ وقال أبو جهل لقريش: إن عتبة قد علم أنكم ظاهرون على هذا الرجل، ومن معه وفيهم ابنه وبنو عمه وهو يكره صلاحكم.

وقال أبو جهل لعتبة وهو يسير فيهم ويناشدهم: انتفخ سَحْرُك. وزعموا أن النبي ﷺ قال وهو ينظر إلى عتبة: "إن يكن عند أحد من القوم خيرٌ؛ فهو عند صاحب الجمل الأحمر، وإن يطيعوه يَرْشُدوا"، فلمَّا حَرَّض أبو جهلٍ قريشًا على القتال أمرَ النساءَ يُعْوِلنَ عَمْرًا فقمنَ يَصِحْنَ: واعمراه واعمراه، تحريضًا على القتالِ، وقامَ رجالٌ فتكشَّفوا يُعَيِّرونَ بذلكَ قريشًا، فاجتمعَتْ قريش على القتالِ.

وقال عُتْبَة لأبي جهل: ستعلمُ اليوم من انْتَفَخَ سِخرُه أي الأمرين أرشَدُ، وأخذَت قَرَيشٌ مصافَّها للقتالِ، وقالوا لعُمَيْرِ بن وهبٍ: ارْكَبْ فاحْزرْ لنا محمدًا وأصحابَهُ، فقعد عمير على فرسهِ فأطاف برسول الله ﷺ وأصحابِهِ، ثمَّ رجعَ إلى المشركينَ فقال: حزَرْتُهُمْ بِثَلَثمائَةِ مقاتل، زادُوا شيئًا أو نقصوا شيئًا، وحزرت سبعينَ بعيرًا، ونحوَ ذلك، ولكن أنْظِرُوني حتى أنظر هَلْ لهم مَدَدٌ أو خَبِيءٌ، فأطاف حولَهُمْ وبعثوا خيلهم مَعَهُ، فأطافوا حول رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم رجعوا فقالوا: لا مَدَد لهم ولا خَبيءٌ، وإنَّما همْ أكلَة جَزورٍ طَعَامٌ مأكولْ.

وقالوا لعمير: حَرِّشْ بين القَوم، فحمل عميرٌ على الصَّفِّ ورجعوا بمائَةِ فارسٍ، واضطجَعَ رسول الله ﷺ وقال لأصحابه: "لا تقاتلوا حتى أؤذِنكم"، وغشِيَهُ نَومٌ

=

=

فغلبَه، فلما نظر بعض القوم إلى بعض، جعل أبو بكرٍ يقول: يا رسول الله! قد دنا القوم ونالوا منا، فاستيقَظَ رسول الله ﷺ، وقد أراه الله -تعالى- إياهم في منامه قليلًا، وقلل المسلمين في أعين المشركينَ، حتى طمع بعض القوم في بعض، ولو أراه عددًا كثيرًا لفشلوا ولتنازعوا في الأمر كما قال الله ﷻ، ومع رسول الله ﷺ وأصحابه فَرَسَانِ: أحدهما: لأبي مَرثد الغنوي، والآخر: للمقدادِ بن عمروٍ.

وقام رسول الله ﷺ في الناس فوعظهم وأخبرهم أن الله -تعالى- قد أوجب الجَنَّة لمن اسْتُشْهِدَ اليوم، فقام عُمير بنُ حمام -أخو بني سَلِمَةَ عن عجين كان يعجنه لأصحابه حين سمع قول النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إني لي الجنة إن قُتِلت؟ قال: "نعم"، فشد على أعداء الله مكانه، فاستشهده الله -تعالى-، وكانَ أوّلَ قتيلٍ قتل.

ثم أقبل الأسودُ بن عبد الأَسَدِ المخزوميُّ يَحْلِف بآلِهَتِهِ لَيَشْرَبنَّ من الحَوض الذي صنع محمد وليهدمنَّهُ، فشدَّ، فلمَّا دنا من الحوض؛ لقيه حمزة بن عبد المطلب فَضَرب رجله فقطعها، فأقبل يحبو حتى وقع في جوف الحوضِ فهدم منه واتَبعه حمزة حتى قتله.

فلما قتِل الأسودُ بن عبد الأَسَدِ؛ نزل عتبة بن ربيعَةَ عن جمله حميَّة لما قال له أبو جهل، ثم نادى: هل من مبارز؟ فوالله ليعلمنَّ أبو جهل أيُّنا أجبن وألأَمُ، ولحقه أخوه شيبة، والوليد ابنه، فناديا يسألان المبارزة، فقام إليهم ثلاثة من الأنصار فاستحيى النبي ﷺ من ذلك؛ لأنه كان أوَّل قتال التقى فيه المسلمون والمشركون، ورسول الله ﷺ شاهدٌ معهم، فأحبَّ النبي ﷺ أن تكون الشوكة لبني عمه، فناداهم النبي ﷺ: "أن ارجعوا إلى مصافكم، وليقم إليهم بنو عمِّهِمْ"؛ فقام حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث بن المطلب، فبرز حمزة لعتبة، وبرز عبيدة لشيبة، وبرز علي بن أبي طالب للوليد، فقتل حمزَةُ عتبةَ، وقتل عبيدةُ

=

شيبةَ، وقتل علي الوليد، وضرب شيبة رِجلَ عبيدة فقطعها، فاستنقذه حمزة وعَليٌّ، فحُمِلَ حتى توفي بالصفراء، وفي ذلك تقول هند بنت عتبة:

أَيَا عَيْنِيَّ جُودِي بدمعٍ سَرِب ... عَلَى خيرِ خِنْدِفَ لَم ينْقَلِبْ
تَدَاعى له رَهطُهُ غدْوَةً ... بنو هاشِمٍ وبنو المطلِبْ
يُذِيقونَه حَرَّ أسيافِهِمْ ... يَعُلُّونَهُ بَعْدَ ما قَد ضُرِبْ

وعند ذلك نذرت هند بنت عتبة لتأكلنَّ من كبد حمزة إن قدرت عليها، فكان قتل هؤلاء النفر قبلِ التقاء الجمعين، وعج المسلمون إلى الله يسألونه النَصْر حين رأوا القتال قد نشِبَ، ورفع رسول الله ﷺ يديه إلى الله -تعالى- يسأله ما وعده ويسأله النصر، ويقول: "اللهم! إنْ ظُهِرَ عَلَى هذه العِصابة ظَهرَ الشرك، ولم يقم لك دين". وأبو بكر رضي الله عنه يقول: يا رسول الله! والذي نفسي بيده لينصرنك الله عز وجل ولَيُبيِّضَنَّ وجهك؛ فأَنْزَل الله عز وجل من الملائكة جندًا في أكتافِ العدوِّ. فقال رسول الله ﷺ: "قد أنزل الله نصره، ونزلت الملائكة، أبشر يا أبا بكر؛ فإني قد رأيت جبريل عليه السلام معْتَجِرًا يقود فرسًا بين السماءِ والأرض، فلما هبط إلى الأرض جلس عليها فتغيب عني ساعة ثم رَأَيتُ على شِقَّيْه غبارًا".

وقال أبو جهل: اللهم! انصر خير الدينين، اللهم! ديننا القديمُ، ودين محمد الحديث؛ ونكص الشيطان على عقبيه حين رأى الملائكة، وتبرَّأ من نَصر أصحابِه، فأوحى الله عز وجل إلى الملائكةِ وأمرهم بأمره وحدثهم أنهم معهم، وأمر بنصر رسول الله ﷺ والمؤمنينَ، وأخذَ رسول الله ﷺ مِلءَ كفه من الحصباءِ فرمى بها وجوهَ المشركينَ؛ فجعل الله تبارك وتعالى تلكَ الحصباءَ عظيمًا شأنَها لم تتركْ من المشركين رجلًا إلا ملأت عَيْنَيْهِ، وجعل المسلمون بهم قَتْلًا، مَعهُم الله والملائكة يقتلونهم ويأْسِرونهم، ويجدونَ النفر كلَّ رجلٍ منهم مُنكبًّا على وجهِه، لا يدري أين يتوجه يعالج الترابَ ينزعه من عينيه.

=

وكان رسول الله ﷺ قد أمَر المسلمينَ قبل القتالِ إن رأوا الظُّهور أن لا يَقْتلوا عباسًا، ولا عقيلًا، ولا نَوفلَ بن الحَارث ولا البختريّ في رجالٍ، فأسِرَ هؤلاء النفَرُ في رجالٍ ممن أوصى بهم رسول الله ﷺ وغيرهُم، إلا أبا البختريِّ؛ فإنه أبا أن يستأسِرَ وذكروا له -زعموا: أن النبي ﷺ قد أمرهم أن لا يقتلوه إن أستأسر، فأبى وأُسِرَ بَشرٌ كثيرٌ ممن لم يأمر النبي ﷺ بإسارهِ التماسِ الفداءِ، قال: ويزعم ناس أن أبا اليَسَرِ قتَل أبا البختري -ويأُبي عظيم الناس، إلَّا أنَّ المُجدَّرَ، هو الذي قتله، بل قتله أبو داود المازني، وسلبه سيفه وكان عند بنيهِ حتى باعه بعضهم من بعض بَني أبي البختري وقال المجدَّر:

بَشّرْ بِيُتْمٍ إنْ لَقِيتَ البَخْترِي ... وبَشِّرنْ بمثلها منِّي بني
أنا الذي أزعم أصْلي من بلى ... أطعن بالحرْبةِ حتى تَنْثنِي
ولا ترى مُجَدّرًا يفري فري

فزعموا أنه ناشده ألا أستأسر، وأخبره أن رسول الله ﷺ نهى عن قتله إن استأسر، فأبى أبو البختري أن يستأسر، وشدَّ عليه بالسيف؛ فطعنه الأنصاري بين ثدييه وأجهز عليه.

وأقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على القتلى، فالتمس أبا جهل فلم يجده حتى عُرِفَ ذلك في وجه رسول الله ﷺ، فقال: "اللهم! لا يُعجزني فرعون هذه الأمَّة"، فسعى له الرجال حتى وجده عبد الله بن مسعودٍ مصروعًا بينه وبين المعركة غير كبير، مُقنَّعًا في الحديد واضعًا سيفه على فخذيه ليس به جرح ولا يستطيع أن يحرك منه عضوًا وهو منكب ينظر إلى الأرض. فلما رآه عبد الله بن مسعود أطاف حوله ليقتله وهو خائف أن يثور إليه وأبو جهل مقَنَّعٌ في الحديد، فلما دنا منه وأبصره لا يتحرك ظنّ عبد الله أن أبا جهل مُثْبَتٌ جِراحًا فأراد أن يضربه بسيفه فخشى أن لا يُغنِي سيفُه شيئًا فأتاه من ورائه فتناول قائم سيفه فاستله وهو منكبٌّ

=

لا يتحرك، فرفع عبد الله سابغة البَيْضة عن قفاه فضربه، فوقع رأسه بين يديه ثم سلبه، فلما نظر إليه إذا هو ليس به جراح وأبصر في عنقه جدرًا وفي يديه وفي كتفيه كهيئة آثار السياط.

وأتى ابن مسعود النبي ﷺ فأخبره أن أبا جهل قد قتل، وأخبره بالذي وُجِدَ به فقال النبي ﷺ: "ذلك ضربُ الملائكة"؛ وقال: "اللهم! قد أنجزت ما وعدتني".

ورجعت قريش إلى مكة مغلوبين منهزمين وكان أول من قدم بهزيمة المشركين الحيْسُمان الكعبيُّ -وهو جد حسن بن غيلان-؛ فاجتمع عليه الناس عند الكعبة يسألونه، لا يسأل عن رجل من أشراف قريش إلا نعاه، فقال صفوان بن أمية وهو قاعد مع نفر من قريش في الحِجْر: والله ما يعقل هذا الرجل، ولقد طار قلبه، سلوه عني؛ فإني أظنه سوف ينعاني، فقال بعضهم للحيسمان: هل لك علم بصفوان بن أميَّة؟ قال: نعم، هو ذاك جالسٌ في الحجر، ولقد رأيت أباه أميّة بن خلف قتل.

ثم تتابع فلُّ المشركين من قريش، ونَصَرَ الله ﷻ رسوله ﷺ والمؤمنين، وأذل بوقعة بدر رقاب المشركين والمنافقين، فلم يبق بالمدينة منافق ولا يهودي إلا وهو خاضعٌ عنقه لوقعة بدر، وكان ذلك يوم الفرقان: يوم فرق الله -تعالى- بين الشرك والإيمان.

وقالت اليهود: تيقنا أنه النبيُّ الذي نجد نعته في التوراة، والله لا يرفع رايةً بعد اليوم إلا ظهرت.

وأقام أهل مكة على قتلاهم النوح في كل دارٍ من مكة شهرًا وجزّ النساء رؤوسهنّ يُؤتى براحلة الرجل أو بفرسه فيوقف بين ظِهرِيِّ النِّساء فَيُنِحْنَ حولها، وخرجن في الأزقَّة فسترْنَها بالستور ثم خرجن إليها يَنُحْنَ، ولم يقتل من الأسرى صبرًا غير عقبة بن أبي معيطٍ، قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أخو بني عمرو بن عوف، لما أبصره عقبة مقبلًا إليه استغاث بقريش؛ فقال: يا معشر قريش عَلامَ أقتل من

=

بين من هاهنا؟ فقال رسول الله ﷺ: "على عداوتك الله ورسوله"، وأمر رسول الله ﷺ بقتلى قريش من المشركين فألْقُوا في قليب بدر، ولعنهم وهو قائم، يسمِّيهم بأسمائهم غير أن أميّة بن خلف كان رجلًا مسمَّنًا فانْتفخ في يومه فلما أرادوا أن يقلوه في القليب تفقأ، فقال رسول الله ﷺ: "دعوه -وهو يلعنهم-: هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟.

قال موسى بن عقبة: قال نافع، قال عبد الله بن عمر: قال أناس من أصحابه: يا رسول الله! أتنادي ناسًا موتى؟ فقال رسول الله ﷺ: "ما أنتم بأسمع لما قلت منهم"، قال: ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فدخل من ثنية الوداع، ونزل القرآن يعرفهم الله نعمته فيما كرهوا من خروج رسول الله ﷺ إلى بدر، فقال: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ} إلى هذه الآية، وثلاث آيات معها.

وقال: فيما استجاب للرسول وللمؤمنين: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩)} هذه الآية وأخرى معها، وأنزل فيما غشيهم من النعاس أمنة منه حين وكلهم إليه حين أخبروا بقريش فقال: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ}.

هذه الآية والتي بعدها، وأنزل في قتل المشركين والقبضة التي رمى بها رسول الله ﷺ من الحصباء -والله أعلم-: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا} هذه الآية والتي بعدها، وأنزل في استفتاحهم ودعاء المؤمنين: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ}، وقال في شأن المشركين: {وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} هذه الآية كلها، ثم أنزل -تعالى-: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} في سبع آيات معها، وأنزل في

=

=

منازلهم فقال: {إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا}، والآية التي بعدها، وأنزل فيما يعظهم به: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا} الآية وثلاث آيات معها، وأنزل فيما تكلم به رجال من أهل الإسلام خرج بهم المشركون كرهًا فلما رأوا قلة المسلمين، قالوا: {غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ} الآية كلها، وأنزل في قتلى المشركين ومن اتبعهم: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ} الآية وثمان آيات معها، وعاتب الله ﷻ النبي ﷺ والمؤمنين فيما أسروا، وكره الذي صنعوا ألّا يكونوا أثخنوا العدو بالقتل؛ فقال ﷻ: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ}، ثم سبق من الله ﷻ لنبيه ﷺ والمؤمنين إحلال الغنائم وكانت حرامًا على من كان قبلهم من الأمم، كان فيما يُتَحدّثُ عن رسول الله ﷺ -والله أعلم- أنه كان يقول: "لم تكن الغنام تحل لأحد قبلنا فطيّبها الله ﷻ لنا؛ فأنزل فيما سبق من كتابه بإحلال الغنائم، فقال: {لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨)} " هذه الآية والتي بعدها. وقال رجال ممن أسر: يا رسول الله إنا كنا مسلمين وإنما أخرجنا كرهًا فعلامَ يؤخذ منا الفداء؟ فأنزل الله ﷻ فيما قالوا: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠)}.

وهو ضعيف؛ لإعضاله؛ إلا قوله: "ما أنتم بأسمع لما قلت منهم"؛ فإنه موصول صحيح.

* قوله تعالى: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ} [الأنفال: ١١]، أي: "إذ يُلْقي الله عليكم النعاس أمانًا منه لكم من خوف عدوكم أن يغلبكم".

يذكرهم الله بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم، أمانا من خوفهم الذي

=

=

حصل لهم من كثرة عَدُوِّهم وقلة عَدَدهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أُحُد، كما قال تعالى (ثُمَّ أَنزلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُم).

قال الطبري: يقول: "يلقي عليكم النعاس أمانًا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم، وكذلك النعاس في الحرب أمنة من الله ﷻ".

قال ابن كثير: "يذكرهم الله بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم، أمانا من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عَدُوِّهم وقلة عَدَدهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أُحُد، كما قال تعالى: {ثُمَّ أَنزلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ} [آل عمران: ١٥٤].

قال السعدي: "ومن نصره واستجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاسا {يُغَشِّيكُمُ} [أي] فيذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون {أَمَنَةً} لكم وعلامة على النصر والطمأنينة".

عن ابن إسحاق: "{إذ يغشاكم النعاس أمنة منه}، أي: أنزلت عليكم الأمنة حتى نمتم لا تخافون".

عن مجاهد: " {أمنة منه}، أمانًا من الله ﷻ".

قال سهل بن عبد الله: "النعاس يحل في الرأس مع حياة القلب، والنوم يحل في القلب بعد نزول من الرأس، فهوَّمَ رسول الله ﷺ حتى ناموا فبشر جبريل رسول الله ﷺ بالنصر فأخبر به أبا بكر".

عن أبي رزين، عن عبد الله قال: "النعاس في القتال، أمنةٌ من الله ﷻ، وفي الصلاة من الشيطان".

قال أبو طلحة: "كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مرارا يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت

=

=

الحَجَف".

قال ابن عاشور: وإنما كان (النعاس) أمنًا لهم لأنهم لمّا ناموا زال أثر الخوف من نفوسهم في مدة النوم فتلك نعمة، ولما استيقظوا وجدوا نشاطًا، ونشاط الأعصاب يكسب صاحبه شجاعة ويزيل شعور الخوف الذي هو فتور الأعصاب.

- وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدها؛ فكان النوم عجيبًا مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهِمِّ، ولكن الله ربط جأشهم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان.

وقال قتادة: النعاس في الرأس، والنوم في القلب.

قال الرازي: أن الخائف إذا خاف من عدوه الخوف الشديد على نفسه وأهله فإنه لا يؤخذه النوم، وإذا نام الخائفون أمنوا، فصار حصول النوم لهم في وقت الخوف الشديد يدل على إزالة الخوف وحصول الأمن.

وفي امتنان الله تعالى عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان:

أحدهما: قوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أن أمَّنَهم بزوال الرعب من قلوبهم، كما قال: الأمن منيم، والخوف مسهر.

قال ابن كثير: "أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد، وأمر ذلك مشهور جدا، وأما يوم بدر في هذه الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر، وهي دالة على وقوع ذلك أيضا وكأن ذلك كان سجية للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله. وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمه عليهم، وكما قال تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: ٥، ٦]؛ ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق، رضي الله عنه، وهما يدعوان، أخذت رسول الله سنة من النوم، ثم استيقظ متبسما فقال: «أبشر يا أبا بكر، هذا

=

=

جبريل على ثناياه النقع» ثم خرج من باب العريش، وهو يتلو قوله تعالى: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [القمر: ٤٥].

قرأ ابن كثير وأبو عمرو «إذ يغشاكم النعاس» رفعا، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى {يغشيكم} بضم الياء وفتح الغين وتشديد الشين و {النعاس} نصبا، وقرأ نافع {يغشيكم} من أغشى خفيفة بغير ألف {النعاس} نصبا.

قوله تعالى: {وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ} [الأنفال: ١١]، أي: "وينزل عليكم من السحاب ماء طهورًا ليطهركم به من الأحداث الظاهرة".

قال ابن كثير: "أي: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر".

قال السعدي: "ومن ذلك: أنه أنزل عليكم من السماء مطرا ليطهركم به من الحدث والخبث، وليطهركم به".

عن ابن إسحاق: "{وينزل عليكم من السماء ماء}، للمطر الذي أصابهم تلك الليلة، فحبس المشركون أن يسبقوا إلى الماء، وخلَّي سبيل المؤمنين إليه.

قال ابن زيد في قوله: "{وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به}، قال: هذا يوم بدر أنزل عليهم القطر".

عن مجاهد في قوله: " {ماء ليطهركم به}، قال: المطر، أنزله عليهم قبل النعاس".

عن سعيد بن المسيب: " {ماء ليطهركم به}، قال: طش يوم بدر".

قال الماوردي: وفي تطهيرهم به وجهان:

أحدهما: من وساوس الشيطان التي ألقى بها في قلوبهم الرعب، قاله زيد بن أسلم.

والثاني: من الأحداث والأنجاس التي نالتهم، قاله الجمهور.

- وفي الخبر أن القوم سبقوا إلى موضع الماء، واستولوا عليه، وطمعوا لهذا السبب أن تكون لهم الغلبة، وعطش المؤمنون وخافوا، وأعوزهم الماء للشرب والطهارة، وأكثرهم احتلموا وأجنبوا، وانضاف إلى ذلك أن ذلك الموضع كان

=

رملًا تغوص فيه الأرجل ويرتفع منه الغبار الكثير، وكان الخوف حاصلًا في قلوبهم، بسبب كثرة العدو وسبب كثرة آلاتهم وأدواتهم، فلما أنزل الله تعالى ذلك المطر صار ذلك دليلًا على حصول النصرة والظفر، وعظمت النعمة به من جهات: أحدها: زوال العطش، فقد روي أنهم حفروا موضعًا في الرمل، فصار كالحوض الكبير، واجتمع فيه الماء حتى شربوا منه وتطهروا وتزودوا.

وثانيها: أنهم اغتسلوا من ذلك الماء، وزالت الجنابة عنهم، وقد علم بالعادة أن المؤمن يكاد يستقذر نفسه إذا كان جنبًا، ويغتم إذا لم يتمكن من الاغتسال ويضطرب قلبه لأجل هذا السبب فلا جرم عد تعالى وتقدس تمكينهم من الطهارة من جملة نعمه.

وثالثها: أنهم لما عطشوا ولم يجدوا الماء ثم ناموا واحتلموا تضاعفت حاجتهم إلى الماء ثم إن المطر نزل فزالت عنهم تلك البلية والمحنة وحصل المقصود.

وفي هذه الحالة ما قد يستدل به على زوال العسر وحصول اليسر والمسرة.

قوله تعالى: {وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ} [الأنفال: ١١]، أي: "ويزيل عنكم في الباطن وساوس الشيطان وخواطره".

قال السعدي: أي: "من وساوس الشيطان ورجزه".

قال ابن كثير: "أي: من وسوسة أو خاطر سيئ، وهو تطهير الباطن، كما قال تعالى في حق أهل الجنة: {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ} فهذا زينة الظاهر {وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} [الإنسان: ٢١] أي: مطهرا لما كان من غل أو حسد أو تباغض، وهو زينة الباطن وطهارته".

عن ابن إسحاق: "ليذهب عنهم شك الشيطان، بتخويفه إياهم عدوهم، واستجلاد الأرض لهم، حتى انتهوا إلى منزلهم الذي سبق إليه عدوهم".

عن ابن زيد قوله: " {وليذهب عنكم رجز الشيطان}، الذي ألقى في قلوبكم: ليس

=

لكم بهؤلاء طاقة! {وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام}.
عن مجاهد في قوله: " {رجز الشيطان}، قال: وسوسته. قال: فأطفأ بالمطر الغبار، والتبدت به الأرض، وطابت به أنفسهم، وثبتت به أقدامهم.
قال السدي: "ثم ذكر ما ألقى الشيطان في قلوبهم من شأن الجنابة، وقيامهم يصلون بغير وضوء، فقال: "إذ يغشيكم النعاسَ أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام "، حتى تشتدون على الرمل، وهو كهيئة الأرض".
وأنزل عليهم ماء السماء معونة لهم بثلاثة أمور:
أحدها: الشرب وإن كانوا على ماء.
الثاني: وهو أخص أحواله بهم في ذلك المكان وهو أن الرمل تلبد بالماء حتى أمكن المسلمين القتال عليه.
والثالث: ما وصفه الله تعالى به من حال التطهير.
عن الشعبي وسعيد بن المسيب في هذه الآية: "{ينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به، ويذهب عنكم رجز الشيطان}، قالا: طشٌّ كان يوم بدر، فثبَّت الله به الأقدام".
عن قتادة قوله: " {إذ يغشاكم النعاس أمنة منه} الآية، ذكر لنا أنهم مُطِروا يومئذ حتى سال الوادي ماءً، واقتتلوا على كثيب أعفر، فلبَّده الله بالماء، وشرب المسلمون وتوضأوا وسقوْا، وأذهب الله عنهم وسواس الشيطان".
قال ابن عباس: "نزل النبي ﷺ يعني: حين سار إلى بدر والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دَعْصَة، فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلُّون مُجْنِبين! فأمطر الله عليهم مطرًا شديدًا،

=

=

فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدوابّ، فساروا إلى القوم، وأمدّ الله نبيه بألف من الملائكة، فكان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في خمسمائة من الملائكة مجنِّبةً، وميكائيل في خمسمائة مجنبةً.

قال الطبري: "فإن ذلك مطرٌ أنزله الله من السماء يوم بدر ليطهر به المؤمنين لصلاتهم، لأنهم كانوا أصبحوا يومئذ مُجْنِبِين على غير ماء. فلما أنزل الله عليهم الماء اغتسلوا وتطهروا، وكان الشيطان قد وسوس إليهم

بما حزنهم به من إصباحهم مجنبين على غير ماء، فأذهب الله ذلك من قلوبهم بالمطر. فذلك ربطه على قلوبهم، وتقويته أسبابهم، وتثبيته بذلك المطر أقدامهم، لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملة ميثاء، فلبَّدها المطر، حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها، توطئةً من الله عَزَّ وَجَلَّ لنبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ وأوليائه، أسبابَ التمكن من عدوهم والظفر بهم، وبمثل الذي قلنا تتابعت الأخبار عن [أصحاب] رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيره من أهل العلم".

وفي تطهيرهم به وجهان:

أحدهما: من وساوس الشيطان التي ألقى بها في قلوبهم الرعب، قاله زيد بن أسلم.

والثاني: من الأحداث والأنجاس التي نالتهم، حكاه الماوردي عن الجمهور.

قال ابن عطاء: "أنزل عليهم ماءً طهر به ظواهر أبدانهم، وأنزل عليهم رحمة نقّى بها سرائر قلوبهم".

قال علي -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: "أصابنا من الليل طَشّ من المطر يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر فانطلقنا تحت الشجر والحَجَف نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو ربه: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض!»، فلما أن طلع الفجر، نادى: «الصلاة عبادَ الله!»، فجاء الناس من تحت الشجر

=

=

والحجف، فصلى بنا رسول الله ﷺ، وحرض على القتال".

قوله تعالى: {وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ} [الأنفال: ١١]، أي: "وليشدَّ على قلوبكم بالصبر عند القتال".

قال قتادة: "بالصبر".

قال ابن كثير: "أي: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء، وهو شجاعة الباطن.

قال السعدي: "أي: يثبتها فإن ثبات القلب، أصل ثبات البدن".

قوله تعالى: {وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ} [الأنفال: ١١]، أي: "ويثبت به أقدام المؤمنين بتلبيد الأرض الرملية بالمطر حتى لا تنزلق فيها الأقدام".

قال الطبري: "ويثبت أقدام المؤمنين بتلبيد المطر الرمل حتى لا تسوخ فيه أقدامهم وحوافر دوابِّهم".

قال ابن كثير: "وهو شجاعة الظاهر".

قال السعدي: "فإن الأرض كانت سهلة دهسة فلما نزل عليها المطر تلبدت، وثبتت به الأقدام".

قال السدي: "حتى يشتدوا على الرمل وهو كهيئة الأرض".

قال قتادة: "كان بطن الوادي دهاس، فلما مطروا اشتدت الرملة".

وروي عن قتادة، قال:"اقتتلوا على كثيب أعفر، فلبده الله تعالى بالماء".

(وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ) أي: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء، وهو شجاعة الباطن.

(وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ) وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.

ووجه ذلك: أن ذلك المطر لبد ذلك الرمل وصيره بحيث لا تغوص أرجلهم فيه، فقدروا على المشي عليه كيف أرادوا، ولولا هذا المطر لما قدروا عليه، وعلى هذا التقدير، فالضمير في قوله (بِهِ) عائد إلى المطر.

=

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢).

{إِذْ يُوحِي رَبّك إِلَى الْمَلَائِكَة} الَّذِينَ أَمَدَّ بِهِمْ الْمُسْلِمِينَ {أَنِّي} أَيْ بِأَنِّي {مَعَكُمْ} بِالْعَوْنِ وَالنَّصْر {فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا} بِالْإِعَانَةِ وَالتَّبْشِير {سَأُلْقِي فِي قُلُوب الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْب} الْخَوْف {فَاضْرِبُوا فَوْق الْأَعْنَاق} أَيْ الرُّءُوس {وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلّ بَنَان} أَيْ أَطْرَاف الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ فَكَانَ الرَّجُل يَقْصِد ضَرْب رَقَبَة الْكَافِر فَتَسْقُط قَبْل أَنْ يَصِل إِلَيْهِ سَيْفه وَرَمَاهُمْ ﷺ بِقَبْضَةٍ مِنْ الْحَصَى فَلَمْ يَبْقَ مُشْرِك إِلَّا دَخَلَ فِي عَيْنَيْهِ مِنْهَا شَيْء فَهُزِمُوا.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

=

- قال الشنقيطي: قوله تعالى (وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ) يعني: يثبت بالمطر أقدامكم على دهس الرملة؛ لأنها قبل المطر كانت تسوخ فيها الأقدام. وعلى هذا القول أكثر المفسرين.

وقال بعض العلماء: الربط على القلوب وتثبيت الأقدام هنا: الربط على القلوب: هو تثبيت الجأش والشجاعة. وتثبيت الأقدام: هو تثبيتها في الميدان، وأن السبب المُسَبِّب لهذا هو الإمداد بالملائكة. وهذا يبعد من ظاهر القرآن، والذي عليه الجمهور: هو ما ذكرنا أن تثبيت الأقدام هنا تثبيت حسي؛ لأن المطر لبَّد الأرض الدهسة فصارت الأقدام تثبت عليها ولا تسوخ فيها.

- روى أنه لما نزل المطر حصل للكافرين ضد ما حصل للمؤمنين، وذلك لأن الموضع الذي نزل الكفار فيه كان موضع التراب والوحل، فلما نزل المطر عظم الوحل، فصار ذلك مانعًا لهم من المشي كيفما أرادوا فقوله (وَيُثَبِّتَ بِهِ الأقدام) يدل دلالة المفهوم على أن حال الأعداء كانت بخلاف ذلك.

(١٣).

{ذَلِكَ} الْعَذَاب الْوَاقِع بِهِمْ {بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا} خَالَفُوا {الله وَرَسُوله وَمَنْ يُشَاقِقْ الله وَرَسُوله فَإِنَّ الله شَدِيد الْعِقَاب} لَهُ.

ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤).

{ذَلِكُمْ} الْعَذَاب {فَذُوقُوهُ} أَيّهَا الْكُفَّار فِي الدُّنْيَا {وأن للكافرين} في الآخرة {عذاب النار}(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير ويقاتلوا عليها نزلوا على الماء يوم بدر، فغلبوا المؤمنين عليه؛ فأصاب المؤمنين الظمأ؛ فجعلوا يصلون مجنبين ومحدثين، فألقى الشيطان في قلوب المؤمنين الحزن، فقال لهم: أتزعمون أن فيكم النبي ﷺ، وأنكم أولياء الله وقد غلبتم على الماء، وأنتم تصلون مجنبين ومحدثين؟ حتى تعاظم ذلك في صدور أصحاب النبي ﷺ؛ فأنزل الله من السماء ماء حتى سأل الوادي، فشرب المؤمنون، وملأوا الأسقية، وسقوا الركاب، واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهورًا وثبت أقدامهم، وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة، فبعث الله المطر عليها؛ فلبدها حتى اشتدت وثبت عليها الأقدام، ونفر النبي ﷺ بجميع المسلمين وهم يومئذ ثلثمائة وثلاثة عشر رجلًا: منهم سبعون ومائتان من الأنصار، وسائرهم من المهاجرين، وسيد المشركين يومئذ عتبة بن ربيعة؛ لكبر سنه.

فقال عتبة: يا معشر قريش! إني لكم ناصح، وعليكم مشفق، لا أدخر النصيحة لكم بعد اليوم، وقد بلغتم الذي تريدون، وقد نجا أبو سفيان؛ فارجعوا وأنتم سالمون؛ فإن يكن محمد صادقًا؛ فأنتم أسعد الناس بصدقه، وإن يك كاذبًا؛ فأنتم أحق من حقن دمه، فالتفت إليه أبو جهل فشتمه وفجّ وجهه، وقال له: قد امتلأت أحشاؤك =

=

رعبًا، فقال له عتبة: سيعلم اليوم من الجبان المفسد لقومه.
فنزل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، حتى إذا كانوا أقرب أسنة المسلمين قالوا: ابعثوا إلينا عدتنا منكم نقاتلهم، فقام غلمة من بني الخزرج، فأجلسهم النبي ﷺ، ثم قال: "يا بني هاشم! أتبعثون إلى أخويكم -والنبي منكم- غلمة بني الخزرج؟"، فقام حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث، فمشوا إليهم في الحديد، فقال عتبة: تكلموا نعرفكم، فإن تكونوا أكفاءنا نقاتلهم، فقال حمزة رضي الله عنه: أنا أسد الله وأسد رسول الله ﷺ، فقال له عتبة: كفء كريم، فوثب إليه شيبة فاختلفا ضربتين فضربه حمزة فقتله، ثم قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الوليد بن عتبة فاختلفا ضربتين، فضربه علي رضي الله عنه فقتله، ثم قام عبيدة فخرج إليه عتبة فاختلفا ضربتين فجرح كل واحد منهما صاحبه، وكر حمزة على عتبة فقتله، فقام النبي ﷺ فقال: "اللهم ربنا أنزلت عليّ الكتاب، وأمرتني بالقتال، ووعدتني النصر ولا تخلف الميعاد"، فأتاه جبريل عليه السلام؛ فأنزل عليه: {أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ} [آل عمران: ١٢٤]، فأوحى الله إلى الملائكة: {أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}؛ فقتل أبو جهل في تسعة وستين رجلًا، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبرًا، فوفى ذلك سبعين وأسر سبعون.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٣٣، ٣٤) ونسبه لابن مردويه.
* قوله تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ} [الأنفال: ١٢]، أي: "إذ يوحي ربك -أيها النبي- إلى الملائكة الذين أمدَّ الله بهم المسلمين في غزوة «بدر» أني معكم أُعينكم وأنصركم".
قال الطبري: أي: "أنصركم".
وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم، ليشكروه عليها، وهو أنه تعالى وتقدس
=

=

وتبارك وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا.

قال أحمد بن داود الحداد: "لم يقل الله ﷻ لشيء أنه معه إلا الملائكة يوم بدر قال: {أَنِّي مَعَكُمْ} بالنصر".

قال السعدي: ومن إمداده " أن الله أوحى إلى الملائكة {أَنِّي مَعَكُمْ} بالعون والنصر والتأييد فإن الأرض كانت سهلة دهسة فلما نزل عليها المطر تلبدت، وثبتت به الأقدام".

عن ابن شهاب: "ثم أخبرهم بما أوحى الله إلى الملائكة بنصرهم فقال: إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم".

قوله تعالى: {فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال: ١٢]، أي: "فقوُّوا عزائم الذين آمنوا".

قال السعدي: "أي: ألقوا في قلوبهم، وألهموهم الجراءة على عدوهم، ورغبوهم في الجهاد وفضله".

قال الطبري:"يقول: قوُّوا عزمهم، وصححوا نياتهم في قتال عدوهم من المشركين".

قال ابن كثير: "وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم، ليشكروه عليها، وهو أنه - تعالى وتقدس وتبارك وتمجد - أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا".

وفي قوله تعالى: {فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال: ١٢]، أقوال:

أحدها: فثبوتهم بحضوركم معهم في الحرب.

والثاني: بقتالكم معهم يوم بدر، حكاه الماوردي عن الحسن.

والثالث: بإخبارهم أنه لا بأس عليهم من عدوهم.

والرابع: معناه: فآزروا الذين آمنوا. قاله ابن إسحاق.

=

=

والخامس: وقيل: كان ذلك بأن الملك يأتي الرجلَ من أصحاب النبي ﷺ يقول: سمعت هؤلاء القوم يعني المشركين يقولون: والله لئن حملوا علينا لننكشفن! فيحدِّث المسلمون بعضهم بعضًا بذلك، فتقوى أنفسهم. قالوا: وذلك كان وحي الله إلى ملائكته. حكاه الطبري.

قال الجصاص: وَذَلِكَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: إلْقَاؤُهُمْ إلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْخَاطِرِ وَالتَّنْبِيهِ أَنَّ اللهَ سَيَنْصُرُهُمْ عَلَى الْكَافِرِينَ فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِثَبَاتِهِمْ وَتَحَزُّبِهِمْ عَلَى الْكُفَّارِ.

وَيَحْتَمِلُ: أَنْ يَكُونَ التَّثْبِيتُ إخْبَارَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ اللهَ سَيَنْصُرُهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَيُخْبِرُ النَّبِيُّ عليه السلام بِذَلِكَ الْمُؤْمِنِينَ فَيَدْعُوهُمْ ذَلِكَ إلَى الثَّبَاتِ.

وقال الخازن: واختلفوا في كيفية هذه التقوية والتثبيت.

فقيل: كما أن للشيطان قوة في إلقاء الوسوسة في قلب ابن آدم بالشر، فكذلك للملك قوة في إلقاء الإلهام في قلب ابن آدم بالخير.

ويسمى ما يلقى الشيطان: وسوسة، وما يلقي الملك لمة وإلهامًا، فهذا هو التثبيت.

وقيل: إن ذلك التثبيت هو حضورهم معهم القتال ومعونتهم لهم أي: ثبتوهم بقتالكم معهم المشركين، وقيل معناه بشرورهم بالنصر والظفر فكان الملك يمشي في صورة رجل أمام الصف ويقول أبشروا فإن الله ناصركم عليهم.

وقال السعدي: قوله تعالى (فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) أي: ألقوا في قلوبهم، وألهموهم الجراءة على عدوهم، ورغبوهم في الجهاد وفضله.

قوله تعالى: {سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ} [الأنفال: ١٢]، أي: "سألقي في قلوب الذين كفروا الخوف الشديد والذلة والصَّغَار".

وهذا من النعم الجليلة، وذلك لأن أمر النفس هو القلب فلما بين الله تعالى أنه

=

=
ربط قلوب المؤمنين بمعنى أنه قواها وأزال الخوف عنها ذكر أنه ألقى الرعب والخوف في قلوب الكافرين فكان ذلك من أعظم نعم الله تعالى على المؤمنين.

قال الطبري: يقول: "سَأُرْعِبُ قلوب الذين كفروا بي، أيها المؤمنون، منكم، وأملأها فرقًا حتى ينهزموا عنكم".

قال السعدي: "{الرُّعْبَ} الذي هو أعظم جند لكم عليهم، فإن الله إذا ثبت المؤمنين وألقى الرعب في قلوب الكافرين، لم يقدر الكافرون على الثبات لهم ومنحهم الله أكتافهم".

قال الماوردي: "يعني: الخوف، ويحتمل أحد وجهين: إما أن يكون إلقاء الرعب بتخاذلهم، وإما أن يكون بتكثير المسلمين في أعينهم".

قوله تعالى: {فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ} [الأنفال: ١٢]، أي: "فاضربوا -أيها المؤمنون- رؤوس الكفار".

قال السعدي: "أي: على الرقاب".

قال أبو الليث: "سمعت من حكى عن أبي سعيد الفاريابي أنه قال: أراد الله إلا يلطخ سيوفهم بفرث المشركين، فأمرهم أن يضربوا على الأعناق ولا يضربوا على الوسط ويقال: معناه اضربوا كل شيء استقبلكم من أعضائهم ولا ترحموهم".

وفي قوله تعالى: {فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ} [الأنفال: ١٢]، خمسة اقوال:

أحدها: فاضربوا الأعناق، وفوق صلة زائدة في الكلام، قاله عطية ، والضحاك.

قال ابن كثير:"ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى: {فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ} [محمد: ٤].

وقد روى المسعودي عن القاسم، قال: قال رسول الله ﷺ: "إني لم أبعث لأعذِّب
=

=

بعذاب الله، إنما بعثت لضرب الأعناق وشدِّ الوَثَاق".

والثاني: معناه واضربوا الرؤوس فوق الأعناق، قاله عكرمة.

والثالث: فاضربوا على الأعناق، لأن: "على" و " فوق " معناهما متقاربان، فجاز أن يوضع أحدهما مكان الآخر.

والرابع: فاضربوا على الأعناق.

والخامس: فاضربوا فوق جلدة الأعناق.

قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك أن يقال: أن الله أمر المؤمنين، مُعَلِّمَهم كيفية قتل المشركين وضربهم بالسيف: أن يضربوا فوق الأعناق منهم والأيدي والأرجل. وقوله: {فوق الأعناق}، محتمل أن يكون مرادًا به الرؤوس، ومحتمل أن يكون مرادًا له: من فوق جلدة الأعناق، فيكون معناه: على الأعناق. وإذا احتمل ذلك، صح قول من قال، معناه: الأعناق. وإذا كان الأمر محتملا ما ذكرنا من التأويل، لم يكن لنا أن نوجِّهه إلى بعض معانيه دون بعض، إلا بحجة يجب التسليم لها، ولا حجة تدلّ على خصوصه، فالواجب أن يقال: إن الله أمر بضرب رؤوس المشركين وأعناقهم وأيديهم وأرجلهم، أصحابَ نبيه ﷺ الذين شهدوا معه بدرًا".

قوله تعالى: {وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [الأنفال: ١٢]، أي: "واضربوا منهم كل طرف ومِفْصل".

قال الطبري: "فإن معناه: واضربوا، أيها المؤمنون، من عدوكم كل طَرَف ومَفْصِل من أطراف أيديهم وأرجلهم".

و «البنان»: جمع "بنانة "، وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين، ومن ذلك قول العباس بن مرداس السلمي:

أَلا لَيْتَنِي قَطَّعْتُ مِنِّي بَنَانَةً وَلاقَيْتُهُ فِي الْبَيْتِ يَقْظَانَ حاذِرَا

=

=

يعني بـ" البنانة " واحدة " البنان"

قال ابن عباس: "يعني: بالبنان، الأطراف".

عن عطية: " {واضربوا منهم كل بنان}، قال: كل مفصِل".

عن عكرمة: " {واضربوا منهم كل بنان}، قال: الأطراف. ويقال: كل مفصل".

عن الضحاك وابن جريج قوله: {واضربوا منهم كل بنان}، قالا: الأطراف".

عن الأوزاعي في قوله: " {واضربوا منهم كل بنان}، قال: اضرب منه الوجه والعين، وارمه بشهاب من نار، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك".

قال السعدي: "وهذا خطاب، إما للملائكة الذين أوحى الله إليهم أن يثبتوا الذين آمنوا فيكون في ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر، أو للمؤمنين يشجعهم الله، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين، وأنهم لا يرحمونهم، وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله أي: حاربوهما وبارزوهما بالعداوة".

عن الربيع بن أنس قال: "كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضربهم فوق الأعناق وعلى البنان، مثل سمة النار قد أحرق به".

روي الإمام أحمد بإسناده إلى علي بن أبي طالب رَضِّيَاللَّهُعَنْهُ... قال: "جاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيرًا فقال العباس: يا رسول الله إن هذا والله ما أسرني لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهًا على فرس أبلق ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، قال: "أسكت فقد أيدك الله تعالى بملك كريم".

قوله تعالى: {ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [الأنفال: ١٣]، أي: "ذلك الذي حدث للكفار من ضَرْب رؤوسهم وأعناقهم وأطرافهم؛ بسبب مخالفتهم لأمر الله ورسوله".

قال الثعلبي: أي: "خالفوا الله رسوله".

=

=

قال ابن كثير: "أي: خالفوهما فساروا في شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق - وهو مأخوذ أيضا من شق العصا، وهو جعلها فرقتين".

قال الماتريدي: "يعني - والله أعلم -: ذلك الضرب والقتل، {بأنهم شاقوا الله}، أي: حاربوا الله ورسوله، والمشاقة: الخلاف؛ خالفوا الله ورسوله".

قال أبو الليث: "يعني: ذلك الضرب والقتل بسبب أنهم عادوا الله ورسوله، وخالفوا الله ورسوله".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ١٣]، أي: "ومَن يخالف أمر الله ورسوله، فإن الله شديد العقاب له في الدنيا والآخرة".

قال ابن كثير: "أي: هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه، لا يفوته شيء، ولا يقوم لغضبه شيء، تبارك وتعالى، لا إله غيره، ولا رب سواه".

قال أبو الليث: "يعني: من يخالف الله ورسوله إن الله شديد العقاب إذا عاقب".

قال السعدي: "ومن عقابه تسليط أوليائه على أعدائه وتقتيلهم".

عن علي بن زيد قال: "تلا مطرف هذه الآية {شديد العقاب}، قال: لو يعلم الناس قدر عقوبة الله ونقمة الله وبأس الله ونكال الله لما رقى لهم دمع وما قرت أعينهم بشيء".

قوله تعالى: {ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ} [الأنفال: ١٤]، أي: "ذلكم العقاب فذوقوه يا معشر الكفار في الدنيا".

قال ابن كثير: "هذا خطاب للكفار أي: ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: هذا العقابُ الذي عجلته لكم، أيها الكافرون المشاقون لله ورسوله، في الدنيا، من الضرب فوق الأعناق منكم، وضرب كل بنان، بأيدي أوليائي المؤمنين، فذوقوه عاجلا".

قال البغوي: "{ذلكم} أي: هذا العذاب والضرب الذي عجلته لكم أيها الكفار

=

=

ببدر، {فذوقوه} عاجلا".

قال السمعاني: "إنما قال ذلك مبالغة في التعذيب والانتقام، والعرب تقول للعدو إذا أصابه المكروه: ذق".

قال أبو حيان: " واستعير لمباشرة العذاب «الذوق»، لأن الذوق من أبلغ أنواع المباشرة، وحاستها متميزة جدا".

قوله تعالى: {وَأَنَّ لِلْكَـافِرِينَ عَـذَابَ النَّـارِ} [الأنفال: ١٤]، أي: "مع أن لكم العقاب الآجل في الآخرة وهو عذاب النار".

قال الطبري: أي: "واعلموا أن لكم في الآجل والمعاد عذابَ النار".

قال ابن كثير: أي: "واعلموا أيضًا أن للكافرين عذاب النار في الآخرة.

قال البغوي: "أي: واعلموا وأيقنوا أن للكافرين أجلا في المعاد، {عذاب النار} .

مسألة: في قوله تعالى: {سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب} دليل على جواز تخويف الكافرين المحاربين وإرهابهم بالأقوال والأعمال التي تضعف عزائمهم، وتهزم نفوسهم أمام المؤمنين، وإنما كان إرهاب الكفار المحاربين وترعيبهم مشروعا؛ لأن الطمع والاغترار بالقوة تجعل صاحب الباطل يعتد بباطله، وتسول له نفسه أنه على حق، فإذا خاف، زال ما كان تتستر به النفس من القوة، فرأت الحق وتجلى لها، فقبلت وأذعنت، وكثير من النفوس تعرض عن الحق اغترارا بقوتها وسيادتها وعزها وتمكينها وجاهها، وتخاف إن أسلمت واتبعت الحق أن تفقده، فتصبر على الباطل، وتشرعه وتكابر في ذلك؛ ولهذا وجد في الملوك والرؤساء من اقر بالحق وصدق برسالة محمد، ولكنه خاف من زوال سيادته بإيمانه، ومنهم من آمن وأخفى إيمانه، فجاء الإسلام ليكسر طمع النفوس وقوتها؛ لينكسر تبعا له صنم الهوى، الذي يبنى في قلوبهم في صورة حق.

وفي هذه الآية: دليل على جواز الإثخان في الكافرين المحاربين كيفما اتفق؛ إذ لا

=

=

حرمة لدمهم، ولا عصمة لمالهم، فيضرب المحارب بمقاتله ولا يتوقى شيء منه، وإنما دكر الله الأعناق؛ لأنها أسرع في الموت، فقال، {فاضربوا فوق الأعناق}؛ يعني: الأعناق وما فوقها، ومن ذلك قوله تعالى: {فإن كن نساء فوق اثنتين} [النساء: ١١]؛ يعني: اثنتين وما فوقهما.

ثم ذكر الله تعالى بعد ذلك الأطراف: {واضربوا منهم كل بنان}، والبنان هو الطرف، كما صح عن ابن عباس وغيره.

وهذا دليل على أن جميع أطرافهم متساوية الحكم؛ فإن لم يمكن المؤمنون من القتل، فليضربوا ما استطاعوا من أطرافهم أيديهم أوأرجلهم.

* وهدا عند المواجهة والمنازلة والتبييت، وأما عند أسره وتقييده، فالأمر في ذلك يختلف، فإن الله قد جعل ضرب المحارب على حالين:

الأولى: عند المواجهة والمنازلة والتبييت؛ فيضرب منه كل شيء من مقاتله وغيرها؛ كرأسه ووجهه وعينة وأطرافه، ولو برميه بشهاب من نار يحرقه.

الثانية: بعد أسره وأخذه؛ فإنه لا يجوز ضرب وجهه ولا تعذيبه، وإن جاز قتله.

ويدل على التفريق بين الحالين قوله تعالى في سورة محمد: {فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق} [محمد: ٤]، فجعل الله الضرب عند التلاقي، وشد الوثاق عند الأسر.

وقد قال الأوزاعي في قوله تعالى: {واضربوا منهم كل بنان}؛ قال: "اضرب مه الوجه والعين وارمه بشهاب من نار، فإذا أخذته، حرم ذلك كله عليك".

وذلك لأنه تحول من مقاتل إلى أسير، والضرب عند اللقاء يراد منه الإثخان؛ كما في ظاهر الآية، وليس ذلك من التعذيب؛ وإنما من العقاب الذي أذن الله به، وقد فرق النبي ﷺ بينهما كما في مرسل القاسم؛ قال: قال النبي ﷺ: (إني لم أبعث لأعذب بعذاب الله؛ إنما بعثت بضرب الرقاب وشد الوثاق) (١).

=

=

وهذا هو المقصود في قوله ﷺ: (إذا قتلتم، فأحسنوا القتلة)؛ كما رواه مسلم، عن شداد (٢)، فالأسير يحسن في قتله إن أراد المسلمون قتله، ولا يعذب بحرق لجسده، أو تقطيع لجلده، أو قلع لأظفاره، أو تكسير لعظامه، حتى لو أن الكفار المحاربين فعلوا ذلك في المسلمين، فإن أسروا واحدا منهم، فليس للمسلمين أن يعذبوا أسراهم؛ كما كانوا بيعذبون أسرى المؤمنين، وقد كان الصحابة يلقون من كفار قريش شدة بتعذيبهم؛ كما فعل في عمار وأمه وبلال وغيرهم، ولم يكن النبي ﷺ يفعل ذلك في أسراهم لما تمكن منهم، فللمسلمين أن يقتلوا أسراهم لكن لا يعذبونهم، وقد كان تاريخ المسلمين مع أعدائهم مليئا بأخبار وآثار عذب فيها المسلمون من أعدائهم زمن الصحابة والتابعين وأتباعهم بأنواع العذاب، ولم لكن السلف يفعلون ذلك بأسراهم.

* وإذا تقابل المسلمون والمشركون في قتال، ففعل المشركون بالمسلمين ما لا يجوز للمسلمين أن يفعلوه ابتداء؛ كضرب مدنهم ومزارعهم وبيوتهم، ولم يفرقوا بين شيخ وامرأة وصبي ومجنون، فيجوز للمسلمين أن يرموهم ويضربوهم بمثل ذلك، من غير أن تقصد عين صبي وامرأة وشيخ، ولكن يرمونهم بما يهدم بيوتهم؛ كما هدموا بيوت المسلمين، ولو كان فيها نساء وصبيان وشيوخ؛ فذلك جاء تبعا، ولم يأت استقلالا وقصدا.

وإذا قتل المشركون صبيا أو امرأة أو شيخا أو مجنونا من المسلمين، فليس للمسلمين أن يقتلوا صبيهم وشيخهم وامرأتهم ومجنونهم لو وجدوه، ما لم يكن مقاتلا فيقتل؛ لأن تلك النفوس حرم الله قتلها لذاتها، وذمتها منفكة عن ذمة المعتدي، فكل نفس لما كسبت رهينة.

وأما مشروعية الجزاء بالمثل، كما في قوله تعالى: {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به} [النحل: ١٢٦]، فإن العقاب بالمثل في الكافر المحارب على نوعين:

=

=

النوع الأول: ما دل الدليل على تحريمه بعينه، كالزنى واللواط وقتل الصبي والمرأة والشيخ؛ فهذا دل الدليل على تحريمه بعينه، فإن وقع المشركون بنساء المؤمنين، فليس للمؤمنين استحلال الزنى بنسائهم، بل يفعل دي ذلك المشروع؛ بسبي نسائهم وصبيانهم، والتسري بالنساء، فيقسمن مع الغنيمة، فيوطأن ملك يمين كما توطأ المرأة نكاحا، ولو كان في ذلك مشابهة في الفعل في الظاهر؛ لأن كل واحد منهما وطء، إلا أن الله حرم الزنى واللواط ولم يحله بحال ولو بالمعاقبة بالمثل، وفي السبي من الصغار والإذلال لرجال المشركين ما لا يخفى؛ فإنه وطء مع ملك يمين دائم للبضع والنفس.

ويلحق بهذا قتل الصبيان والنساء والشيوخ؛ فإنه محرم بالنص، ولم يدل دليل على استحلاله في حال، إلا لو كانوا يقاتلون فيأخذون حكم المقاتل الذي تدفع صولته، وقتل الصبي والمرأة والشيخ أخف من مماثلة العدو بالفاحشة؛ لأن الفاحشة لا تحل بحال، بخلاف قتل الصبي والمرأة والشيخ فله استثناء واحد، وهو القتل عند كونهم مقاتلين.

النوع الثاني: ما لم يدل الدليل على تحريمه بعينه؛ كرمي دورهم وطرقهم وزروعهم؛ كما يرمون دور المؤمنين وطرقهم وزروعهم، فذلك جائز، ولو تم عقابهم بضربهم بسلاح يفتك بهم فلا يفرق بين محارب وغير محارب منهم كما يفعلون بالمؤمنين، لكان جائزا، ولو كان ذلك محرقا أو مهلكا لحرث ونسل؛ لأنه عقاب بالمثل لم ينه عنه بعينه، فجاز ولو دخل فيه تبعا ما حرم بعينه كقتل الصبي والمرأة والشيخ؛ لأنه لم لكن مقصودا بنفسه لو كان بارزا.

وفي هذا دليل على أن الإسلام لم يأت ليبيد ويفني، ويهلك ويفسد، ويغنم ويفخر، ويبطر ويتجبر؛ وإنما جاء رحمة للناس، ينشر دين الله ويعليه، ويدفع ما سواه ويبطله، والمقتول المؤمن جزاؤه الجنة، والكافر المقتول جزاؤه النار، فلا يحزن

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥).

{يأيها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا} أَيْ مُجْتَمِعِينَ كَأَنَّهُمْ لِكَثْرَتِهِمْ يَزْحَفُونَ {فَلَا تُوَلُّوهُمْ الأدبار} منهزمين.

وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦).

{وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمئِذٍ} أَيْ يَوْم لِقَائِهِمْ {دُبُره إلَّا مُتَحَرِّفًا} مُنْعَطِفًا {لِقِتَالٍ} بِأَنْ يُرِيهِمْ الْفَرَّة مَكِيدَة وَهُوَ يُرِيد الْكَرَّة {أَوْ مُتَحَيِّزًا} مُنْضَمًّا {إلَى فِئَة} جَمَاعَة مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَسْتَنْجِد بِهَا {فَقَدْ بَاءَ} رَجَعَ {بِغَضَبٍ مِنْ الله وَمَأْوَاهُ جَهَنَّم وَبِئْسَ الْمَصِير} الْمَرْجِع هِيَ وَهَذَا مَخْصُوص بِمَا إذَا لَمْ يَزِدْ الْكُفَّار عَلَى الضَّعْف[1].

=

المؤمن على عدم تشفيه من الكافر بالزنى بعرضه، أو تعذيبه عند أسره بحرقه، أو قتل صبيه ومجنونه وشيخه؛ لأن ما يجده عند الله مما توعده به أعظم شفاء لنفوس المؤمنين من كل ما يفعلونه بعدوهم مما يودونه.

(١) ذكر سبب النزول.

عن نافع أنه سأل عبد الله بن عمر، قال: قلت: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندري من الفئة؟ قال لي: الفئة رسول الله ﷺ، فقلت: إن الله يقول في كتابه: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥)}؛ قال: إنما أُنزلت هذه لأهل بدر، لا لِقَبْلها ولا لِبَعدها.

أخرجه البخاري في "التاريخ الكبير" (٣/ ١٨٨)، والنسائي في "الكبرى" (٦/ ٣٤٩ رقم ١١٢٠٠)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٧١ رقم ٨٨٩٧) من طريق حسان بن عبد الله المصري نا خلاد بن سليمان ثني نافع: أنه سأل عبد الله بن عمر (وذكره) ورجاله ثقات غير حسان هذا؛ قال الحافظ في "التقريب":

=

=

"صدوق يخطئ".

وعن أبي سعيد الخدري؛ قال: نزلت في أهل بدر.

أخرجه أبو داود (٢٦٤٨)، والنسائي في الكبرى (١١٢٠٤)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٩/ ١٣٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٨٩١)، والحاكم (٢/ ٣٢٧)، والنحاس في ناسخ القرآن (ص ١٤٦)، وابن الجوزي في ناسخ القرآن (ص ١٤٧/ رقم: ١٥١) والأثر صححه الحاكم، وأقره الذهبي، وصححه العلامة الألباني في صحيح أبي داود، وأورده العلامة الوادعي الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (٣٨٨) وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٤/ ٢٨٥): إسناده صحيح.

وأخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٤/ ٣٨٠ رقم ١٨٥٥٩)، والطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٣٤) عن عبد الأعلى عن داود بن أبي هند عن أبي نضرة به مرسلًا. وهذا مرسل صحيح الإسناد، فصح الحديث مرسلًا ومسندًا.

وعن الحسن؛ قال: كان هذا يوم بدر خاصة، ليس الفرار من الزحف من الكبائر.

أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٢/ ٥٣٨ رقم ١٥٥٤٢، ١٤/ ٣٨٦ رقم ١٨٥٨٠)، والطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٣٤)، والنحاس في "ناسخه" (ص ١٤٦) من طريق الربيع بن صبيح وعوف والمبارك بن فضالة كلهم عن الحسن به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن قتادة؛ قال: ذلكم يوم بدر.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٣٤): ثنا بشر بن معاذ العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به. وهذا إسناد صحيح؛ لكنه مرسل.

وعن الضحاك؛ قال: إنما كان يوم بدر، ولم يكن للمسلمين فئة ينحازون إليها.

وفي رواية: "هذا يوم بدر خاصة".

=

=

أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٤/ ٣٨٦ رقم ١٨٥٧٩)، وعبد الرزاق في "المصنف" (٥/ ٢٥١ رقم ٩٥٢١)، والطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٣٤) من طريق الثوري عن جويبر عن الضحاك به. وهذا إسناد واهٍ بمرة؛ فجويبر هذا متروك، وهو مع ذلك معضل، وقد وقع عند ابن أبي شيبة والطبري عن رجل والرجل هو جويبر؛ كما في رواية عبد الرزاق.

وعن عبد الله بن عباس ﵄؛ قال: نزلت في أهل بدر خاصة، ما كان لهم أن يهزموا عن رسول الله ﷺ ويتركوه.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٣٦) ونسبه لأبي الشيخ وابن مردويه.

وعن عكرمة؛ قال: ذلك في يوم بدر.

أخرجه ابن سعد أخرجه في "الطبقات" (٢/ ٢٥): نا سليمان بن حرب ثنا حماد بن زيد نا أيوب عن عكرمة. وهذا مرسل رجاله رجال الصحيح.

وعن سعيد بن جبير في قوله: {وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ}؛ قال: يعني: يوم بدر خاصة منهزمًا: {إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ}؛ يعني: مستطردًا يريد الكرة على المشركين {أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ}؛ يعني: أو ينحاز إلى أصحابه من غير هزيمة: {فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ}، يقول: استوجب سخطًا من الله {وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}؛ فهذا يوم بدر خاصة، كأن الله شدد على المسلمين يومئذ ليقطع دابر الكافرين، وهو أول قتال قاتل فيه المشركين من أهل مكة.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٧٠ رقم ٨٨٩٢، ٨٨٩٥، ص ١٦٧١ رقم ٨٩٠١) من طريق يحيى بن بكير عن ابن لهيعة عن عطاء بن دينار عن سعيد به. وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: الإرسال. والثانية: ابن لهيعة؛ ضعيف.

* قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال: ١٥]، أي: "يا أيها الذين صَدَّقوا الله

=

=

ورسوله وعملوا بشرعه".

قال ابن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك [يعني استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه".

عن الزهري قال: "إذا قال الله: يا أيها الذين آمنوا إفعلوا، فالنبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- منهم".

عن خيثمة قال: "ما تقرؤون في القرآن: {يا أيها الذين آمنوا}، فإنه في التوراة: «يا أيها المساكين».

قوله تعالى: {إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا} [الأنفال: ١٥]، أي: "إِذا لقيتم أعداءكم الكفار مجتمعين كأنهم لكثرتهم يزحفون زحفًا".

قال الطبري: {زَحْفًا}، أي:"متزاحفًا بعضكم إلى بعض، و «التزاحف»: التداني والتقارب".

قال ابن كثير: "{زَحْفًا}، أي: تقاربتم منهم ودنوتم إليهم".

قال سعيد بن جبير: "يعني: يوم بدر".

قوله تعالى: {فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ} [الأنفال: ١٥]، أي: "فلا تُوَلُّوهم ظهوركم، فتنهزموا عنهم، ولكن اثبتوا لهم، فإن الله معكم وناصركم عليهم".

قال الطبري: "يقول: فلا تولوهم ظهوركم فتنهزموا عنهم، ولكن اثبتوا لهم، فإن الله معكم عليهم".

قال ابن كثير: "أي: تفروا وتتركوا أصحابكم".

عن علي- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "الفرار من الزحف من الكبائر".

عن محمد بن عمرو عن ابن سلمة قال: "الموجبات الفرار من الزحف، ثم قرأ {إذا لقيتم الذين كفروا زحفا}.

قال عبد الله بن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "كنت مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حنين فولى الناس عنه، وبقيت معه في ثمانين رجلا من المهاجرين، نكصنا على أقدامنا نحوا من ثمانين

=

=

قدما ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة".

وفي قوله تعالى: {فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ} [الأنفال: ١٥]، قولان:

أحدهما: أن هذا على العموم في تحريم الهزيمة بعد لقاء العدو.

والثاني: مخصوص وهو أن الله تعالى أوجب في أول الإسلام على كل رجل من المسلمين أن يقف بإزاء عشرة من المشركين لا يحل له بعد اللقاء أن ينهزم عنهم وذلك بقوله: {إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ} [الأنفال: ٦٥]، وفيه وجهان:

أحدهما: لا يعلمون ما فرضه الله تعالى عليه من الإسلام.

الثاني: لا يعلمون ما فرضه الله تعالى عليهم من القتال.

قال الماوردي:"ثم نسخ ذلك عنهم بعد كثرتهم واشتداد شوكتهم فأوجب الله تعالى على كل رجل لاقى المشركين محاربًا أن يقف بإزاء رجلين بعد أن كان عليه أن يقف بإزاء عشرة تخفيفًا ورخصة وذلك قوله تعالى: {الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وعَلِمَ أَنَّ فِيكُم ضَعْفًا}.

وفي حكم الآية قولان:

أحدهما: أنها منسوخة بقوله: {فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْن} [الأنفال: ٦٦]، فليس للمؤمنين أن يفروا عن مثليهم. وهذا قول عطاء.

عن قيس بن سعد قال: "سألت عطاء بن أبي رباح عن قوله: {ومن يولهم يومئذ دبره}، قال: هذه منسوخة بالآية التي في الأنفال: {الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ} [سورة الأنفال: ٦٦]. قال: وليس لقوم أن يفرُّوا من مثلَيْهم. قال: ونسخت تلك إلا هذه العِدّة".

والثاني: أنها محكمة. وهذا اختيار الطبري، والنحاس، ومكي بن ابي طالب.

قال ابن الجوزي:"وهذا هو الصحيح، لأنها محكمة في النهي عن الفرار. فيحمل

=

=

النهي على ما إذا كان العدو أعلى من عدد المسلمين وقد ذهب إلى نحو هذا ابن جرير.

قال الطبري:"وأولى التأويلين في هذه الآية بالصواب عندي قولُ من قال: حكمها محكم، وأنها نزلت في أهل بدر، وحكمها ثابت في جميع المؤمنين، وأن الله حرّم على المؤمنين إذا لقوا العدو، أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتحرفٍ القتال، أو لتحيز إلى فئة من المؤمنين حيث كانت من أرض الإسلام، وأن من ولاهم الدبر بعد الزحف لقتالٍ منهزمًا بغير نية إحدى الخلتين اللتين أباح الله التولية بهما، فقد استوجب من الله وعيده، إلا أن يتفضل عليه بعفوه. وإنما قلنا هي محكمة غير منسوخة، لما قد بينا في غير موضع من كتابنا هذا وغيره: أنه لا يجوز أن يحكم لحكم آية بنسخ، وله في غير النسخ وجه، إلا بحجة يجب التسليم لها، من خبر يقطع العذر، أو حجة عقل، ولا حجة من هذين المعنيين تدل على نسخ حكم قول الله ﷻ: {ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة}.

قوله تعالى: {وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ} [الأنفال: ١٦]، أي: "ومن يُوَلِّهم منكم ظهره وقت الزحف".

قال الطبري: " يقول: ومن يولهم منكم ظهره".

قال سعيد بن جبير: "يعني: يوم بدر خاصة منهزما.

قوله تعالى: {إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ} [الأنفال: ١٦]، أي: "إلا منعطفًا لمكيدة الكفار".

أي: يفر بين يدي قرنه مكيدة؛ ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه، ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك. نص عليه سعيد بن جبير، والسدي.

قال الطبري: " يقول: إلا مستطردًا لقتال عدوه، يطلب عورةً له يمكنه إصابتها فيكرّ عليه".

=

=

قال ابن كثير: "أي: يفر بين يدي قرنه مكيدة؛ ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه، ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك.

قال سعيد بن جبير: "يعني: مستطردا يريد الكرة على المشركين".

قال الضحاك: "«المتحرف»، المتقدم من أصحابه ليرى غِرَّة من العدوّ فيصيبها".

قال السدي: "أما «المتحرف»، يقول: إلا مستطردًا، يريد العودة".

قوله تعالى: {أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ} [الأنفال: ١٦]، أي: "أو منحازًا إلى جماعة المسلمين حاضري الحرب حيث كانوا".

أي: فر من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونوه فيجوز له ذلك، حتى ولو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة.

قال الطبري: يقول: " أو إلا أن يوليهم ظهره متحيزًا إلى فئة، يقول: صائرًا إلى حَيِّز المؤمنين الذين يفيئون به معهم إليهم لقتالهم، ويرجعون به معهم إليهم".

قال ابن كثير: "أي: فر من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونوه فيجوز له ذلك، حتى ولو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة.

قال سعيد بن جبير: "يعني: أو ينحاز إلى أصحابه من غير هزيمة".

قال الضحاك: "«المتحيز»، الفارّ إلى النبي ﷺ وأصحابه. وكذلك من فرّ اليوم إلى أميره أو أصحابه".

قال السدي: "«المتحيز»، إلى الإمام وجنده إن هو كرّ فلم يكن له بهم طاقة، ولا يُعذَر الناس وإن كثروا أن يُوَلُّوا عن الإمام.

عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: "كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ، فحاص الناس حيصة - وكنت فيمن حاص - فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فبتنا؟ ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على

=

رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا؟ فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: "من القوم؟ " فقلنا: نحن الفرارون. فقال: "لا بل أنتم العَكَّارون، أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين" قال: فأتيناه حتى قَبَّلنا يده".

قوله تعالى: {فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ} [الأنفال: ١٦]، أي: "فقد استحق الغضب من الله".

فيه إثبات الغضب لله تعالى على ما يليق به تعالى..

قال سعيد بن جبير: "يعني: فقد أوجب بغضب من الله". "يقول: استوجبوا سخطا".

قال ابن كثير: "{فَقَدْ بَاءَ} أي: رجع".

قوله تعالى: {وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الأنفال: ١٦]، أي: "ومقامه جهنم وبئس المصير والمنقلب".

قال ابن كثير: "أي: مصيره ومنقلبه يوم ميعاده: {جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}.

قال الضحاك: "وإنما هذا وعيد من الله لأصحاب محمد ﷺ، أن لا يفروا. وإنما كان النبيُّ عليه الصلاة والسلام و أصحابه فئتَهم".

عن عروة بن الزبير: "{فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير}، تحريضا لهم على عدوهم لئلا ينكلوا عنهم إذا لقوهم، وقد وعدهم الله ما وعدهم".

عن سعيد بن جبير: "{فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير}، فهذا يوم بدر خاصة، كان الله ﷻ شده على المسلمين يومئذ ليقطع دابر الكافرين وهو أول قتال قاتل فيه المشركين من أهل مكة".

مسألة: نزلت هذه الآية وما قبلها في بدر، وحذر الله من الفرار من المشركين ولو كانوا كثيرا؛ فقوله تعالى: {إذا لقيتم الذين كفروا زحفا}؛ يعني: تقاربتم وتدانيتم،

=

وإذا كثر الجيش يراهم البعيد كالذين يزحفون على الأرض؛ إذ لا ترى أسافل أبدانهم، لتلاصقهم، وإنما ترى رؤوسهم وصدورهم كالزاحفين على الأرض، وتوعد الله من فر منهم يوم بدر بالغضب وعذاب جهنم.

* والفرار من الزحف من الكبائر؛ كما في ظاهر الآية، وقد عده النبي ﷺ من السبع الموبقات؛ كما في "الصحيحين"؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (اجتنبوا السبع الموبقات)، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: (الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، واكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات).

ويدل على عظمه ما جاء في السنة، من قوله ﷺ: (من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، غفر له وإن كان قد فر من الزحف)، وما جعل الفرار من الزحف مثالا إلا لعظمته عند الله.

* وأذن الله للمؤمنين باستدبار المشركين بلا فرار على حالين:

الأولى: أن يكونوا متحرفين، كما في قوله: {إلا متحرفا لقتال}، والمتحرف من الانحراف الدي يريد أن يدور على عدوه من جهة وناحية أخرى، وليس استدباره لعدوه هروبا منه، ولكن التفافا عليه من جهة هي أشد إثخانا للعدو، وأكثر أمانا للمؤمن.

ومن ذلك الذي يبدي للعدو الفرار ليستدرجه إلى كمين ليثخن فيه، ويصيب مه ما لا يصيبه منه عند اللقاء، نص على هذا سعيد بن جبير وغيره.

الثانيه: أن يكونوا متحيزين؛ كما في قوله: {أو متحيزا إلى فئة}، والمتحيز المنحاز إلى جماعة أخرى من المؤمنين يستكثر بها على العدو، ويجوز التحيز إلى فئة أخرى ولو كانت بعيدة؛ كما فسر ذلك عمر بن الخطاب في الآية لما قتل أبو عبيد في أرض فارس وعمر في المدينة؛ فقد روى أبو عثمان النهدي، عن عمر؛ قال: لما

=

=

قتل أبو عبيد، قال عمر: "أيها الناس، أنا فئتكم".

وقال عبد الملك بن عمير: قال عمر: "أيها الناس، لا تغرنكم هذه الآية؛ فإنما كانت يوم بدر، وأنا فئة لكل مسلم".

وليس للمؤمنين أن يبقوا في مقابل عدو لا قبل لهم به حتى يستأصلهم جميعا، ولا يكون منهم عليه أثر أو بأس، ويروى عن النخعي؛ قال: "بلغ عمر أن قوما صبروا بأذربيجان حتى قتلوا، فقال عمر: لو انحازوا إلي، لكنت لهم فئة".

وفي "الصحيحين"، عن البراء، وسأله رجل: أكنتم فرزتم يا أبا عمارة يوم حنين؟ قال: لا والله، ما ولى رسول الله ﷺ، ولكنه خرج شبان أصحابه وأخفاؤهم حسرا ليس بسلاح، فأتوا قوما رماة، جمع هوازن وبني نصر، ما يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم رشقا ما يكادون يخطئون، فأقبلوا هنالك إلى النبي ﷺ -وهو على بغلته البيضاء، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به، فنزل واستنصر، ثم قال: (أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب)، ثم صف أصحابه.

ولا يجوز تحيز جماعة إلى فئة يتركون جماعة أخرى ينفرد بهم العدو فيقتلهم، ولو بقوا معهم لثبتوهم وقووا على العدو، إلا عند عجز الجماعتين، فيجوز تحيز إحداهما إلى فئة مسلمة أخرى.

وإن قدروا بأنفسهم والتقوا بالمشركين، كان الأولى لهم عدم التحيز لفئة بعيدة عنهم، وقد كان عمر يزجر من كانت حاله كذلك؛ كما روى عبد الرحمن بن أبي ليلى: "أن رجلين فرا يوم مسكن من مغزى الكوفة، فأتيا عمر، فعيرهما وأخذهما بلسانه أخذا شديدا، وقال: فررتما؟ ! وأراد أن يصرفهما إلى مغزى البصرة، فقالا: يا أمير المؤمنين، لا، بل ردنا إلى المغزى الذي فرزنا منه؛ حتى تكون توبتنا من قبله"؛ رواه ابن أبي شيبة، وفي سماع ابن أبي ليلى من عمر خلاف، ولكنه يروي عن طبقة عالية عنه.

=

=

وتقدير القدرة على الكافر يرجع إلى المجاهد واجتهاده تجردا، لا عن هوى وأثرة؛ وبهذا قال غير واحد من العلماء؛ كالحاكم وغيره.

واختلف العلماء في الفئتين: المنحازة والمنحاز إليها: أيعودون إلى لقاء الكفار أم لا؟ على قولين:

* وآية الباب نزلت في بدر، وقد اختلف السلف: هل هي عامة لكل غزوة، أو هي لبدر خاصة؟ على قولين:

فمن المفسرين من قال: إن الوعيد في الآية خاص بالفرار يوم بدر؛ لأنه ليس لهم ترك رسول الله ﷺ وحده؛ وبهذا قال الحسن البصري والضحاك، ولم يروا الفرار بعد ذلك كبيرة.

ومنهم -وهم الأكثر-: على عموم الحكم، وإنما الخاص في بدر أنه لا إمام للمؤمنين إلا رسول الله ﷺ، ولا جماعة إلا جماعته، فالفار إلى غيرهم لا فئة له، ومع كثرة المؤمنين وفئاتهم بعد ذلك وتعدد جبهاتهم وبلدانهم وثغورهم، فالتحيز أوسع من قبل وأقرب إلى الرخصة فيه، كما روى أبو سعيد الخدري، قال: "إنما كان ذلك يوم بدر، لم يكن للمسلمين فئة إلا رسول الله ﷺ، فأما بعد ذلك، فإن المسلمين بعضهم فئة لبعض"؛ رواه ابن جرير.

والدليل على ذلك: كثرة الأحاديث واستفاضتها في التحذير من الفرار يوم الزحف، وجعله من السبع الموبقات، ويجزم أن كثيرا من الأحاديث تلك -إن لم يكن أكثرها- كانت بعد بدر.

وصح القول بالعموم عن ابن عباس وغيره.

وكانت الآية عامة في تحريم كل فرار من كل زحف، ثم خفف الله على المؤمنين بجواز الفرار من ضعفي المؤمنين، ويجب عليهم الثبات أمام مثليهم وما دونه، وبعض المفسرين سمى ذلك نسخا؛ كعطاء؛ فجعلوا الناسخ لها قوله تعالى:

=

=

{الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين} [الأنفال: ٦٦]؛ رواه عن عطاء قيس بن سعد؛ أخرجه ابن جرير.

وقد جاء من طريقين عن ابن عباس: "من فر من اثنين فقد فر، ومن فر من ثلاثة فلم يفر".

وإن كان عدد المشركين أكثر من ضعفيهم والمسلمون قادرون على الثبات والنصر والإثخان في العدو، كان الثبات أولى؛ ولهذا قال تعالى: {إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا} [الأنفال: ٦٥]، وبهذا قال الشافعي: أن الفرار ممن فوق الضعف لا يحرم، والثبات مع القدرة على النصر أولى.

والتحيز إلى فئة والتحرف لقتال يجوز ولو كان العدو أقل من المؤمنين، على ما تقدم من كلام.

وأكثر الآيات تحث المؤمنين على الصبر، وعدم تعلق القلب بكثرة الكفار وقلة المؤمنين؛ حتى لا تهزم نفوس أهل الحق ويضعفوا عن لقاء العدو، كما قال تعالى: {كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين} [البقرة: ٢٤٩].

وقوله تعالى: {إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا} [الأنفال: ٦٥] وقوله: {فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين} [الأنفال: ٦٦].

هذا لتثبيت أهل الإيمان ولتقوية عزائمهم، فإنما ينصرون بإيمانهم، لا بمجرد عددهم وعتادهم، وكل نصر الله لنبيه ولأصحاب نبيه كان مع قلة عدد وضعف عدد.

ولو ثبت المؤمن في لقاء الكافرين، وترك الرخصة له بالفرار والتحيز والتحرف،

=

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧).

{فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ} بِبَدْرٍ بِقُوَّتِكُمْ {وَلَكِنَّ الله قَتَلَهُمْ} بِنَصْرِهِ إِيَّاكُمْ {وَمَا رَمَيْت} يَا مُحَمَّد أَعْيُن الْقَوْم {إِذْ رَمَيْت} بِالْحَصَى لِأَنَّ كَفًّا مِنْ الْحَصَى لَا يَمْلَأ عُيُون الْجَيْش الْكَثِير بِرَمْيَةِ بَشَر {وَلَكِنَّ الله رَمَى} بِإِيصَالِ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ فعل ذلك لِيُقْهِر الْكَافِرِينَ {وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاء} عَطَاء {حَسَنًا} هُوَ الْغَنِيمَة {إِنَّ الله سَمِيع} لِأَقْوَالِهِمْ {عليم} بأحوالهم.

ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨).

{ذَلِكُمْ} الْإِبْلَاء حَقّ {وَأَنَّ الله مُوهِن} مُضْعِف {كيد الكافرين}[1].

=

ويغلب على ظنه الهلاك بلا إثخان فقتل، فلا خلاف في أنه شهيد محمود العاقبة إن أخلص، ولم يقل أحد من السلف ولا يفهم من النصوص: أنه ملق بنفسه إلى التهلكة؛ فإن آيات الترخيص بالتحيز والتحرف والتخفيف بالفرار من العدو إن كان أكثر من الضعف -جاءت للترخيص بذلك، لا لتفضيله، فضلا عن إيجابه.

(١) ذكر سبب النزول.

عن حكيم بن حزام؛ قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتًا وقع من السماء كأنه صوت حصاة وقعت في طست، ورمى رسول الله ﷺ تلك الرمية فانهزمنا.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٣٦)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٣/ ٢٠٣ رقم ٣١٢٨)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٧٢ رقم ٨٩٠٦) من طريق موسى بن يعقوب الزمعي عن عبد الله بن يزيد مولى الأسود بن سفيان عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة عن حكيم به. وهذا إسناد ضعيف؛ موسى هذا؛ قال الحافظ في "التقريب": "صدوق سيئ الحفظ".

=

=

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٠) وزاد نسبته لابن مردويه.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٦/ ٨٤): "إسناده حسن".

وله شاهد بنحوه: أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١١/ ٢٢٧ رقم ١١٧٥٠) من طريق يحيى بن يعلى عن سليمان بن قرم عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس (فذكره). وهذا إسناد ضعيف؛ مسلسل بالضعفاء:

الأولى: سماك بن حرب؛ روايته عن عكرمة خاصة مضطربة، وكان ربما يلقن.

الثانية: سليمان بن قرم؛ سيئ الحفظ؛ كما في "التقريب"، وضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما.

الثالثة: يحيى بن يعلى الأسلمي؛ ضعيف؛ كما في "التقريب".

ومن هنا تعلم تساهل الهيثمي حين قال في "مجمع الزوائد" (٦/ ٨٤): "ورجاله رجال الصحيح".

وعن المسيب بن حزن؛ قال: أقبل أَبيّ بن خلف يوم أُحد إلى النبي ﷺ يريده، فاعترض رجال من المؤمنين؛ فأمرهم رسول الله ﷺ فخلوا سبيله، فاستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار ورأى رسول الله ﷺ ترقوة أَبي من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة، فطعنه بحربته فسقط أَبي عن فرسه ولم يخرج من طعنته دم، فكسر ضلعًا من أضلاعه، فأتاه أصحابه وهو يخور خوار الثور فقالوا له: ما أعجزك إنما هو خدش، فذكر لهم قول رسول الله ﷺ: "بل أنا أقتل أبيًا"، ثم قال: والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين، فمات أبي -إلى النار فسحقًا لأصحاب السعير- قبل أن يقدم مكة؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى}.

أخرجه الحاكم في "المستدرك" (٢/ ٣٢٧)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٥٦) من طريق إبراهيم بن منذر الحزامي ثنا محمد بن فليح عن موسى بن عقبة

=

=

عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبيه (فذكره). وهذا إسناد حسن.
وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه"، ووافقه الذهبي.
والحزامي وشيخه لم يخرج لهما مسلم شيئًا.
وقال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٣٠٨): "روى ابن جرير والحاكم في "مستدركه" بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب والزهري قالا... (فذكره).
ثم قال: "وهذا القول غريب جدًا".
الذي ذكره ابن كثير عن الزهري: أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٥٦، ٢٥٧) -وعنه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٣٦، ١٣٧) -: نا معمر عن الزهري. وهذا ضعيف؛ لإرساله.
ومرسل سعيد: أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٧٣ رقم ٨٩١٠) من طريق ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب عن سعيد به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.
وعن عبد الرحمن بن جبير بن نفير رضي الله عنه: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -يوم ابن أبي الحقيق بخيبر- دعا بقوس: فأتي بقوس طويلة، فقال: "جيئوني بقوس غيرها"؛ فجاءوه بقوس كبداء، فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحصن، فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق في فراشه؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.
أخرجه الطبري في "جامع البيان"، كما في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٣٠٨) -ولم نجده في النسخة المطبوعة-، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٧٣، ١٦٧٤ رقم ٨٩١١) من طريق أبي المغيرة ثنا صفوان بن عمرو ثنا عبد الرحمن
=

=

به. وهذا مرسل صحيح الإسناد ورجاله ثقات؛ لكنه ضعيف؛ لإرساله. قال الحافظ ابن كثير: "هذا غريب، وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير".

وقال السيوطي في "اللباب" (ص ١٠٨): "مرسل جيد الإسناد؛ لكنه غريب".

وعن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي؛ قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض؛ أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم، وقال: "شاهت الوجوه"، فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ؛ وأنزل الله: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٣٦): ثني الحارث بن أبي أسامة ثنا عبد العزيز بن أبان ثنا أبو معشر عن محمد به. وهذا سند تالف فيه علل: الأولى: عبد العزيز بن أبان هذا؛ متروك بل كذبه ابن معين وغيره. والثانية: أبو معشر نجيح السندي؛ ضعيف. والثالثة: أنه مرسل.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ قال: هذا يوم بدر، أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصيات فرمى بحصاة في ميمنة القوم وحصاة في ميسرة القوم وحصاة بين أظهرهم، وقال: "شاهت الوجوه"؛ فانهزموا.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٣٦)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٧٣ رقم ٨٩٠٨) من طريق ابن وهب وأصبغ كلاهما عن ابن زيد. وسنده ضعيف جدًا؛ لإعضاله، وضعف عبد الرحمن هذا.

وعن مكحول؛ قال: لما كرَّ عليّ وحمزة على شيبة بن ربيعة غضب المشركون، وقالوا: اثنان بواحد؟! فاشتعل القتال، فقال رسول الله ﷺ: "اللهم إنك أمرتني بالقتال، ووعدتني النصر، ولا خلف لوعدك"، وأخذ قبضة من حصى فرمى بها في

=

=

وجوههم؛ فانهزموا بإذن الله -تعالى-؛ فذلك قوله: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٠) ونسبه لابن عساكر. وهو ضعيف لإرساله.

وعن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قال: سمعت صوت حصيات وقعن من السماء يوم بدر كأنهن وقعن في طست، فلما اصطف الناس أخذهن رسول الله ﷺ فرمى بهن في وجوه المشركين؛ فانهزموا؛ فذلك قوله: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ}، قال: قال رسول الله ﷺ لعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "ناولني قبضة من حصباء"؛ فنزلت هذه الآية: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٠) ونسبه لأبي الشيخ وابن مردويه.

* قوله تعالى: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ} [الأنفال: ١٧]، أي: "فلم تقتلوا -أيها المؤمنون- المشركين يوم «بدر»، ولكن الله قتلهم، حيث أعانكم على ذلك".

أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أي: بل هو الذي أظفركم بهم ونصركم عليهم.

قال تعالى (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

وقال تعالى (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ).

يعلم -تبارك وتعالى- أن النصر ليس عن كثرة العدد، ولا بلبس اللأمة والعدد، وإنما النصر من عند الله تعالى كما قال: (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ).

- قال القرطبي: قوله تعالى (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ولكن الله قَتَلَهُمْ) أي يوم بدر.

قال مجاهد: "{فلم تقتلوهم} لأصحاب محمد- ﷺ- حين قال هذا: قتلت،

=

=

يعني: فلانا، وقال هذا: قتلت، يعني: فلانا".

قال ابن كثير: "يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم؛ ولهذا قال: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ} أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أي: بل هو الذي أظفركم بهم ونصركم عليهم كما قال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [آل عمران: ١٢٣]. وقال تعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ} [التوبة: ٢٥] يعلم - تبارك وتعالى - أن النصر ليس عن كثرة العدد، ولا بلبس اللأمة والعدد، وإنما النصر من عند الله تعالى كما قال: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩].

وفي قوله تعالى: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ} [الأنفال: ١٧]، وجوه:

أحدهما: ولكن الله قتلهم بسوقهم إليكم حتى أمكنكم منهم.

والثاني: ولكن الله قتلهم بمعونته لكم حين ألقى في قلوبهم الرعب وفي قلوبكم النصر.

والثالث: ولكن الله قتلهم بالملائكة الذين أمدكم بهم. حكاه الماوردي عن ابن بحر.

والرابع: معناه: فلم تقتلوهم بتدبيركم ولكن الله قتلهم بالنصر. قاله النحاس.

والخامس: وقيل: لم تقتلوهم بقوتكم وسلاحكم ولكن الله قتلهم بخذلانهم وقبض أرماحهم.

قوله تعالى: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى} [الأنفال: ١٧]، أي: "وما رميت في الحقيقة أنت يا محمد أعين القوم بقبضةٍ من تراب -لأن كفًا من تراب لا

=

=

يملأ عيون الجيش الكبير-، ولكن الله رمى، حيث أوصل الرمية التي رميتها إلى وجوه المشركين".

قال ابن إسحاق: "أي: لم يكن ذلك برميتك، لولا الذي جعل الله فيها من نصرك، وما ألقى في صدور عدوك منها حين هزمهم الله".

قال الرازي: " يعني أن القبضة من الحصباء التي رميتها، فأنت ما رميتها في الحقيقة، لأن رميك لا يبلغ أثره إلا ما يبلغه رمي سائر البشر، ولكن الله رماها حيث نفذ أجزاء ذلك التراب وأوصلها إلى عيونهم، فصورة الرمية صدرت من الرسول عليه الصلاة والسلام وأثرها إنما صدر من الله، فلهذا المعنى صح فيه النفي والإثبات".

قال الماوردي: "قوله تعالى: {وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى}، يعني: بما أرسله من الريح المعينة لسهامهم حتى سددت وأصابت. والمراد بالرمي الإصابة لأن معى الرمي محمول على الإصابة، فإن لم يصب قيل رمى فأخطأ. وإذا قيل مطلقًا: قد رمى، لم يعقل منه إلا الإصابة. ألا ترى إلى قول امرئ القيس:

فَرَمَاهَا فِي فَرَائِصِها [بِإِزاءِ الحَوْضِ أو عُقُرِهْ]

فاستغنى بذكر «الرمي» عن وصفه بالإصابة.

وقال ذو الرمة في الرأي:

رَمَى فَأَخْطَأَ، وَالأَقْدَارُ غَالِبَةٌ فانصاع وَالْوَيْلُ هِجِّيرَاهُ وَالْحَرَبُ"

قال ابن كثير: "ثم قال لنبيه ﷺ أيضا في شأن القبضة من التراب، التي حصب بها وجوه المشركين يوم بدر، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته، فرماهم بها وقال: " شاهت الوجوه. ثم أمر الصحابة أن يصدقوا الحملة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله؛ ولهذا قال تعالى: {وَمَارَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ}، أي: هو الذي

=

=

بلغ ذلك إليهم، وكبتهم بها لا أنت".

وفي قوله تعالى: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى} [الأنفال: ١٧]، أقوال:

أحدها: ما حكاه ابن عباس ، وهشام بن عروة ، والسدي ، وابن زيد ، ومحمد بن قيس ، ومحمد بن كعب القرظي: أن النبي ﷺ قبض يوم بدر قبضة من تراب رماهم بها وقال: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ»، أي: قبحت، ومنه قول الحطيئة:

أرى ليَ وجهًا شوَّه اللهُ خَلْقَهُ فقُبِّح من وجهٍ وقُبِّحَ حامِلُهْ

قال الخليل: "وكلُّ شيء من الخلق لا يُوافِقُ بَعْضُه بعضًا فهو مشوه".

فألقى الله تعالى القبضة في أبصارهم حتى شغلتهم بأنفسهم وأظفر الله المسلمين بهم، فهو معنى قوله تعالى: {وَمَا رَمَيْتَ إِذَ رَمَيْتَ وَلَكِنَ اللهَ رَمَى}.

وعن قتادة: "ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أخذ يوم بدر ثلاثة أحجار ورمى بها وجوه الكفار، فهزموا عند الحجر الثالث".

عن ابن زيد في قوله: " {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى}، قال: هذا يوم بدر، أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصيات، فرمى بحصاة في ميمنة القوم، وحصاة في ميسرة القوم، وحصاة بين أظهرهم، وقال: «شاهت الوجوه!»، وانهزموا، فذلك قول الله ﷻ: {وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى}.

قال ابن كثير: "وقد روي في هذه القصة عن عروة بن الزبير، ومجاهد وعكرمة، وقتادة وغير واحد من الأئمة: أنها نزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضا".

وروي عن حكيم بن حزام قال: "لما كان يوم بدر، سمعنا صوتًا وقع من السماء كأنه صوت حصاة وقعت في طَسْت، ورمى رسول الله ﷺ تلك الرمية فانهزمنا".

قال ابن كثير: "غريب من هذا الوجه، وهاهنا قولان آخران غريبان جدا:

أحدهما:.. عبد الرحمن بن جبير: "أن رسول الله ﷺ يوم ابن أبي الحقيق بخيبر،

=

=

دعا بقوس، فأتى بقوس طويلة، وقال: "جيئوني غيرها". فجاؤوا بقوس كبداء، فرمى النبي ﷺ الحصن، فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق، وهو في فراشه، فأنزل الله ﷻ: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى}.

وهذا غريب، وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفير، ولعله اشتبه عليه، أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله، وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم، والله أعلم.

والثاني: روى ابن جرير أيضا، والحاكم في مستدركه، بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب والزهري أنهما قالا: "أنزلت في رمية رسول الله ﷺ يوم أحد أُبَي بن خلف بالحربة وهو في لأمته، فخدشه في ترقوته، فجعل يتدأدأ عن فرسه مرارا، حتى كانت وفاته [بها] بعد أيام، قاسى فيها العذاب الأليم، موصولا بعذاب البرزخ، المتصل بعذاب الآخرة.

وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضا جدا، ولعلهما أرادا أن الآية تتناوله بعمومها، لا أنها نزلت فيه خاصة كما تقدم، والله أعلم".

القول الثاني: معناه: وما ظفرت إذ رميت ولكن الله أظفرك، قاله أبو عبيدة.

الثالث: وما رميت قلوبهم بالرعب إذ رميت وجوههم بالتراب ولكن الله ملأ قلوبهم رعبًا. ذكره النحاس.

والرابع: أنه أراد رمى أصحابه بالسهم فأصاب رميهم.

قوله تعالى: {وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا} [الأنفال: ١٧]، أي: "وليختبر المؤمنين بالله ورسوله ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، ويعرِّفهم نعمته عليهم، فيشكروا له سبحانه على ذلك".

قال الماوردي: "قال أصحاب الخواطر: البلاء الحسن ما يورثك الرضا به والصبر عليه. وقال المفسرون: البلاء الحسن ها هنا النعمة بالظفر والغنيمة".

=

=

(تنبيه): قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٩): فصل: في قوله: {فلم تقتلوهم} الآية ثلاثة أقوال: " أحدها " أنه مبني على أن الفعل المتولد ليس من فعل الآدمي؛ بل من فعل الله والقتل هو الإزهاق وذاك متولد وهذا قد يقوله من ينفي التولد وهو ضعيف؛ لأنه نفى الرمي أيضا وهو فعل مباشر ولأنه قال: {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} وقال: {ومن يقتل مؤمنا متعمدا} فأثبت القتل. ولأن القتل هو الفعل الصالح للإزهاق ليس هو الزهوق؛ بخلاف الإماتة. " الثاني " أنه مبني على خلق الأفعال وهذا قد يقوله كثير من الصوفية وأظنه مأثورا عن الجنيد سلب العبد الفعل نظرا إلى الحقيقة؛ لأن الله هو خالق كل صانع وصنعته وهذا ضعيف لوجهين. " أحدهما " أنا وإن قلنا بخلق الفعل فالعبد لا يسلبه بل يضاف الفعل إليه أيضا فلا يقال ما آمنت ولا صليت ولا صمت ولا صدقت ولا علمت فإن هذا مكابرة؛ إذ أقل أحواله الاتصاف وهو ثابت. وأيضا فإن هذا لم يأت في شيء من الأفعال المأمور بها إلا في القتل والرمي ببدر ولو كان هذا لعموم خلق الله أفعال العباد لم يختص ببدر. " الثالث " أن الله سبحانه خرق العادة في ذلك فصارت رءوس المشركين تطير قبل وصول السلاح إليها بالإشارة وصارت الجريدة تصير سيفا يقتل به. وكذلك رمية رسول الله ﷺ أصابت من لم يكن في قدرته أن يصيبه فكان ما وجد من القتل وإصابة الرمية خارجا عن قدرتهم المعهودة فسلبوه لانتفاء قدرتهم عليه وهذا أصح وبه يصح الجمع بين النفي والإثبات {وما رميت} أي ما أصبت {إذ رميت} إذ طرحت {ولكن الله رمى} أصاب. وهكذا كل ما فعله الله من الأفعال الخارجة عن القدرة المعتادة بسبب ضعيف كإنباع الماء وغيره من خوارق العادات أو الأمور الخارجة عن قدرة الفاعل وهذا ظاهر فلا حجة فيه لا على الجبر ولا على نفي التولد.

وقال ابن القيم:... وبعد فهذه الآية نزلت في شأن رميه المشركين يوم بدر بقبضة

=

=

من الحصباء فلم تدع وجه أحد منهم إلا أصابته ومعلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ فكان منه مبدأ الرمي وهو الحذف، ومن الله سبحانه وتعالى نهايته وهو الإيصال، فأضاف إليه رمى الحذف الذي هو مبدؤه، ونفى عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته ونظير هذا قوله في الآية نفسها فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ثم قال وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى، فأخبره أنه هو وحده هو الذي تفرد بقتلهم ولم يكن ذلك بكم أنتم كما تفرد بإيصال الحصى إلى أعينهم ولم يكن ذلك من رسوله ولكن وجه الإشارة بالآية أنه سبحانه أقام أسبابا ظاهرة كدفع المشركين وتولى دفعهم وإهلاكهم بأسباب باطنة غير الأسباب التي تظهر للناس فكان ما حصل من الهزيمة والقتل والنصرة مضافا إليه به وهو خير الناصرين.

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال: ١٧]، أي:". إن الله سميع لدعائكم وأقوالكم ما أسررتم به وما أعلنتم، عليم بما فيه صلاح عباده".

قال ابن كثير: "أي: سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر والغلب".

قوله تعالى: {ذَلِكُمْ} [الأنفال: ١٨]، أي: "هذا الفعل مِن قتل المشركين ورميهم حين انهزموا، والبلاء الحسن بنصر المؤمنين على أعدائهم، هو من الله للمؤمنين".

قوله تعالى: {وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} [الأنفال: ١٨]، أي: "وأن الله -فيما يُسْتقبل- مُضعِف ومُبطِل مكر الكافرين حتى يَذِلُّوا وينقادوا للحق أو يهلكوا".

عن أبي مالك، قوله: " {موهن}، يعني: ضعيف".

قال ابن كثير: "هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر: أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضْعِفُ كيد الكافرين فيما يستقبل، مُصَغِّرًا أمرهم، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار، ولله الحمد والمنة".

قال الرازي: توهين الله تعالى كيدهم، يكون بأشياء باطلاع المؤمنين على

=

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩).

{إنْ تَسْتَفْتِحُوا} أَيّهَا الْكُفَّار إنْ تَطْلُبُوا الْفَتْح أَيْ الْقَضَاء حَيْثُ قَالَ أَبُو جَهْل مِنْكُمْ اللَّهُمَّ أَيّنَا كَانَ أَقْطَع لِلرَّحْمَنِ وَأَتَانَا بِمَا لَا نَعْرِف فَأَحِنْهُ الْغَدَاة أَيْ أَهْلِكْهُ {فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْح} الْقَضَاء بِهَلَاكِ مَنْ هُوَ كَذَلِكَ وَهُوَ أَبُو جَهْل وَمَنْ قُتِلَ مَعَهُ دُون النَّبِيّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ {وَإِنْ تَنْتَهُوا} عَنْ الْكُفْر وَالْحَرْب {فَهُوَ خَيْر لَكُمْ وَإِنْ

=

عوراتهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، وتفريق كلمتهم، ونقض ما أبرموا بسبب اختلاف عزائمهم.

قال ابن عباس: ينبئ رسول الله ويقول: إني قد أوهنت كيد عدوك حتى قتلت خيارهم وأسرت أشرافهم.

- قال القرطبي: والمعنى: أن الله ﷻ يلقي في قلوبهم الرعب حتى يتشتتوا ويتفرّق جمعهم فيضعفوا.

والكيد: المكر.

- **قال ابن كثير**: هذا بشارة أخرى، مع ما حصل من النصر، فإنه أعلمهم بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل، مصغر أمرهم، وأنه في تبار ودمار، أي: وقد وجد المخبر على وفق الخبر، فصار معجزة للنبي ﷺ، ولله الحمد والمنة.

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو {موهن} بفتح «الواو» وتشديد «الهاء» منونة {كيد} نصب، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم {موهن} ساكنة «الواو» منونة {كيد} نصب، وروى حفص عن عاصم «موهن كيد الكفرين» مضافا خفيفا بتسكين «الواو» وكسر «الهاء» وضم «النون» من غير تنوين وكسر «الدال» من {كيد}.

تَعُودُوا} لِقِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ {نَعُدْ} لِنَصْرِهِ عَلَيْكُمْ {وَلَنْ تُغْنِيَ} تَدْفَع {عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ} جَمَاعَاتكُمْ {شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} بِكَسْرِ إِنْ اسْتِئْنَافًا وَفَتْحِهَا على تقدير اللام(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير؛ قال: كان المستفتح يوم بدر أبو جهل، وإنه قال حين التقى القوم: اللهم! أينا كان أقطع للرحم، وآتى لما لا نعرف؛ فافتح الغد، وكان ذلك استفتاحه؛ فأنزل الله -تعالى-: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ}.

أخرجه ابن إسحاق في "المغازي" (٢/ ٢٧٠ - ابن هشام)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٤/ ٣٥٩، ٣٦٠ رقم ١٨٥٢١)، وأحمد (٥/ ٤٣١)، والطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٣٨)، والنسائي في "الكبرى" (٦/ ٣٥٠ رقم ١١٢٠١)، وابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (١/ ٤٥٤، ٤٥٥ رقم ٦٣١، ٦٣٢)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٥٧)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٧٥ رقم ٨٩١٧)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٣٢٨)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٣/ ٧٤) من طريق الزهري عن عبد الله به. وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم.

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

قلنا: لم يخرج مسلم شيئًا في "صحيحه" عن عبد الله بن ثعلبة الصحابي.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٢) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه وابن منده.

وأخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٤/ ٣٦٥ رقم ١٨٥٢٨)، والطبري في "جامع البيان" (١٩/ ١٣) من طريق عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن معمر عن =

=

الزهري به. وهذا مرسل صحيح، والحديث صحيح مرسلًا ومسندًا.

وعن عطية؛ قال: قال أبو جهل يوم بدر: اللهم انصر أهدى الفئتين وأفضل الفئتين وخير الفئتين؛ فنزلت: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٣٨)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٧٥/ ٨٩٢٠) من طريقين عن مطرف عن عطية به. وهذا سند ضعيف؛ فيه عطية العوفي ضعيف، وهو مع ذلك مرسل.

* قوله تعالى: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ} [الأنفال: ١٩]، أي: "إن تطلبوا -أيها الكفار- من الله أن يوقع بأسه وعذابه على المعتدين الظالمين فقد أجاب الله طلبكم، حين أوقع بكم مِن عقابه ما كان نكالا لكم وعبرة للمتقين".

عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير؛ قال: كان المستفتح يوم بدر أبو جهل، وإنه قال حين التقى القوم: اللهم! أينا كان أقطع للرحم، وآتى لما لا نعرف؛ فافتح الغد، وكان ذلك استفتاحه؛ فأنزل الله -تعالى-: {إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح}

أخرجه ابن إسحاق في المغازي (٢/ ٢٧٠ - ابن هشام)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٣٥٩)، وأحمد (٥/ ٤٣١)، والطبري في تفسيره (٩/ ١٣٨)، والنسائي في الكبرى (١١٢٠١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦٣١، ٦٣٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٨٩١٧)، والحاكم في (٢/ ٣٢٨)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٧٤) والواحدي في أسباب النزول (ص ١٥٧) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٣٩/ ٦٦): صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل ابن إسحاق، وقد توبع، وأورده العلامة الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول (ص ١٠١)، وصححه صاحبا الإستيعاب (٢/ ٢٢٠).

=

=

يقول تعالى للكفار (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا) أي: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم، كما قال محمد بن إسحاق وغيره، عن الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صُغَيْر؛ أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أَقْطَعُنَا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة -وكان ذلك استفتاحا منه -فنزلت (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ) إلى آخر الآية.

قال الرازي: واعلم أن أكثر المفسرين حملوا قوله: (إِن تَسْتَفْتِحُوا) على أنه خطاب للكفار.

- قال الشنقيطي: الْمُرَادُ بِالْفَتْحِ هُنَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ: الْحُكْمُ وَذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا أَرَادُوا الْخُرُوجَ إِلَى غَزْوَةِ بَدْرٍ تَعَلَّقُوا بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ قُطَّانُ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ، وَأَنَّهُمْ يَسْقُونَ الْحَجِيجَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ فَرَّقَ الْجَمَاعَةَ، وَقَطَعَ الرَّحِمَ، وَسَفَّهَ الْآبَاءَ، وَعَابَ الدِّينَ، ثُمَّ سَأَلُوا اللهَ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ، بِأَنْ يُهْلِكَ الظَّالِمَ مِنْهُمْ، وَيَنْصُرَ الْمُحِقَّ، فَحَكَمَ اللهُ بِذَلِكَ وَأَهْلَكَهُمْ، وَنَصَرَهُ، وَأَنْزَلَ الْآيَةَ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَتْحِ هُنَا الْحُكْمُ أَنَّهُ تَعَالَى أَتْبَعَهُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْخِطَابَ لِكُفَّارِ مَكَّةَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره للمشركين الذين حاربوا رسول الله ﷺ ببدر: إن تستحكموا الله على أقطع الحزبين للرحم، وأظلم الفئتين، وتستنصروه عليه، فقد جاءكم حكم الله، ونصرُه المظلوم على الظالم، والمحق على المبطل".

قال ابن كثير: "يقول تعالى للكفار {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا}، أي: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم".

قال التستري: "وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم انصر أفضل الدينين عندك، وأرضاهما لديك، فنزل: {إن تستفتحوا}، يعني: تستنصرون. وقد روي عن النبي

=

=

ﷺ أنه كان يستفتح بصعاليك المهاجرين، أي: يستنصر بفقرائهم .

عن ابن عباس قوله: " {إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح}، يعني بذلك المشركين: إن تستنصروا فقد جاءكم المدد".

قال ابن كثير: "يقول تعالى للكفار {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا} أي: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم".

عن مجاهد قوله: " {إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح}، قال: كفار قريش في قولهم: «ربنا افتح بيننا وبين محمد وأصحابه»! ففُتح بينهم يوم بدر".

عن الضحاك ، وعكرمة: " {إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح}، قال: إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء".

قال السدي: "كان المشركون حين خرجوا إلى النبي ﷺ من مكة، أخذوا بأستار الكعبة واستنصروا الله وقالوا: " اللهم انصر أعز الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين "! فقال الله: {إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح}، يقول: نصرت ما قلتم، وهو محمد ﷺ.

قال الزهري: "استفتح أبو جهل بن هشام فقال: " اللهم أيُّنا كان أفجر لك وأقطعَ للرحم، فأحنه اليوم! " يعني محمدًا عليه الصلاة والسلام ونفسه. قال الله ﷻ: {إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح}، فضربه ابنا عفراء: عوف ومعوِّذ، وأجهزَ عليه ابن مسعود".

عن ابن زيد في قوله: " {إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح}، قال: إن تستفتحوا العذاب، فعُذِّبوا يوم بدر. قال: وكان استفتاحهم بمكة، قالوا: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الأنفال: ٣٢]. قال: فجاءهم العذاب يوم بدر. وأخبر عن يوم أحد: {وإن تعودوا نعد ولن نغني عنكم فئتكم شيئًا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين}.

=

=

قوله تعالى: {وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} [الأنفال: ١٩]، أي: "فإن تنتهوا -أيها الكفار- عن الكفر بالله ورسوله وقتال نبيه محمد ﷺ، فهو خير لكم في دنياكم وأخراكم".

قال الطبري: "يقول: {وإن تنتهوا}، يا معشر قريش، وجماعة الكفار، عن الكفر بالله ورسوله، وقتال نبيه ﷺ والمؤمنين به {فهو خير لكم}، في دنياكم وآخرتكم".

قال ابن كثير: "أي: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله، {فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} أي: في الدنيا والآخرة.

قال السدي: "إن تنتهوا عن قتال محمد ﷺ".

قوله تعالى: {وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ} [الأنفال: ١٩]، أي: "وإن تعودوا إلى الحرب وقتال محمد ﷺ وقتال أتباعه المؤمنين نَعُدْ بهزيمتكم كما هُزمتم يوم «بدر».

قال الطبري: "يقول: وإن تعودوا لحربه وقتاله وقتال اتباعه المؤمنين {نعد}، أي: بمثل الواقعة التي أوقعت بكم يوم بدر" .. "يقول: وإن تعودوا نعد لهلاككم بأيدي أوليائي وهزيمتكم".

قال ابن كثير:"قوله: {وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ} كقوله: {وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا} [الإسراء: ٨] معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة، نعد لكم بمثل هذه الواقعة.

قال السدي: "إن تستفتحوا الثانية أفتح لمحمد ﷺ".

وفي قوله تعالى: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ} [الأنفال: ١٩]، قولان:

أحدهما: إن تستنصروا الله، فالفتح: النصر، فقد جاءكم فضل الله بنصرنا، حكاه ابن الأنباري.

والثاني: معناه إن تستنصروا الله، والفتح: النصر، فقد جاءكم نصر الله لنا عليكم، وفي هذا الخطاب قولان:

=

=

أحدهما: أنه خطاب للمشركين لأنهم استنصروا يوم بدر بأن قالوا: اللهم أقطعنا للرحم وأظلمنا لصاحبه فانصره عليه، فنصر الله تعالى نبيه والمسلمين عليهم.

ثم قال: {وَإِن تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيرٌ لَّكُمْ} لأن الاستنصار كان عليهم لا لهم، وفي قوله: {وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ} [الأنفال: ١٩]، فيه وجهان:

أحدهما: وإن تعودوا إلى مثل هذا التكذيب نعد إلى مثل هذا التصديق.

والثاني: وإن تعودوا إلى مثل هذا الاستفتاح نعد إلى مثل هذا النصر.

والقول الثاني: أنه خطاب للمؤمنين نصرهم الله تعالى يوم بدر حين استنصروه، وأن قوله: {وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}، يعني: عما فعلتموه في الأسرى والغنيمة.

وقوله: {وإن تَعودوا نعد} [الأنفال: ١٩]، فيه وجهان:

أحدهما: وإن تعودوا إلى الطمع نعد إلى المؤاخذة.

الثاني: وإن تعودوا إلى مثل ما كان منكم في الأسرى والغنيمة نعد إلى الإنكار عليكم.

قوله تعالى: {وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ} [الأنفال: ١٩]، أي: "لن تدفع عنكم جماعتكم التي تستنجدون بها شيئًا من عذاب الدنيا مهما كثر الأعوان والأنصار".

قال الطبري: "يقول: ولن تغني عنكم عند عودي لقتلكم بأيديهم وسَبْيكم وهزمكم {فئتكم شيئًا ولو كثرت}، يعني: جندهم وجماعتهم من المشركين، كما لم يغنوا عنهم يوم بدر مع كثرة عددهم وقلة عدد المؤمنين شيئًا".

قال ابن كثير: "أي: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له، فإن الله مع المؤمنين، وهم الحزب النبوي، والجناب المصطفوي.

عن عروة بن الزبير: "{ولن تغني عنكم فئتكم شيئا}، أي وإن كثر عددكم في

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠).

{يأيها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَرَسُوله وَلَا تَوَلَّوْا} تُعْرِضُوا {عَنْهُ} بِمُخَالَفَةِ أَمْره {وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ} الْقُرْآن والمواعظ.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١).

{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} سَمَاع تَدَبُّر وَاتِّعَاظ وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ أَوْ المشركون.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢).

{إنَّ شَرّ الدَّوَابّ عِنْد الله الصُّمّ} عَنْ سَمَاع الْحَقّ {الْبُكْم} عَنْ النُّطْق بِهِ {الَّذِينَ لا يعقلون} هـ.

وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣).

=

أنفسكم لم يغن عنكم شيئا".

قوله تعالى: {وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: ١٩]، أي: "وأن الله مع المؤمنين بتأييده ونصره".

قال الطبري: "يقول جل ذكره: وأن الله مع من آمن به من عباده على من كفر به منهم، ينصرهم عليهم، أو يظهرهم كما أظهرهم يوم بدر على المشركين".

عن عروة بن الزبير: " {وأن الله مع المؤمنين}، وأنا مع المؤمنين، أنصرهم على من خالفهم".

عن السدي: {وأن الله مع المؤمنين}، مع محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم".

قرأ ابن كثير وعاصم فى رواية أبى بكر وأبو عمرو وحمزة والكسائى {وأن الله مع المؤمنين} بكسر «الألف»، وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم {وأن الله مع المؤمنين} بفتح «الألف».

{وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْرًا} صَلَاحًا بِسَمَاعِ الْحَقّ {لَأَسْمَعَهُمْ} سَمَاع تَفَهُّم {وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ} فَرْضًا وَقَدْ عَلِمَ أَنْ لَا خَيْر فِيهِمْ {لَتَوَلَّوْا} عَنْهُ {وَهُمْ مُعْرِضُونَ} عَنْ قَبُوله عِنَادًا وَجُحُودًا(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: هم نفر من بني عبد الدار.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (٨/ ٣٠٧ رقم ٤٦٤٦).

وعن قتادة؛ قال: أنزلت في حي من أحياء العرب من بني عبد الدار.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٣) ونسبه لعبد بن حميد وأبي الشيخ.

وسنده ضعيف؛ لإرساله، ويغني عنه ما قبله.

وعن ابن جريج؛ قال: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث وقومه.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٣) ونسبه لابن المنذر. وسنده ضعيف جدًا؛ لإعضاله، هذا إن صح السند إليه.

* قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال: ٢٠]، أي: "يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله".

تصدير الخطاب بهذا النداء فيه ثلاثة فوائد:

الأولى: العناية والاهتمام به والتنبيه.

الثانية: الإغراء، وأن من يفعل ذلك فإنه من الإيمان، كما تقول يا ابن الأجود جُد.

الثالثة: أن امتثال هذا الأمر يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان.

قال ابن عثيمين: "إن تصدير الحكم بالنداء، دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادَى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في الإيمان".

=

=

قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك [يعني: استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه".

قوله تعالى: {أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ} [الأنفال: ٢٠]، أي: "أطيعوا الله ورسوله فيما أمركم به ونهاكم عنه".

قال المراغي: "أي: أطيعوا الله ورسوله فى الإجابة إلى الجهاد وترك المال إذا أمر الله بتركه".

قال ابن كثير: "يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له.

قال الشافعي رحمه الله: وأن الله افترض طاعة رسوله، وحتم على الناس اتباع أمره، فلا يجوز أن يقال لقول: فرض إلا لكتاب الله ثم سنة رسوله، قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله) الآية".

قوله تعالى: {وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ} [الأنفال: ٢٠]، أي: "ولا تتركوا طاعة الله وطاعة رسوله".

قال ابن إسحاق: "أي: لا تخالفوا أمره".

قال المراغي: أي: "ولا تعرضوا عن طاعته، وعن قبول قوله، وعن معونته فى الجهاد".

قال السعدي: "أي: عن هذا الأمر الذي هو طاعة الله، وطاعة رسوله".

قال ابن كثير: "أي: تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره.

قال عروة بن الزبير: "أي: لا تخالفوا أمره وأنتم تسمعون".

قال الشوكاني: "فالضمير في {عنه} عائد إلى «الرسول»، لأن طاعة رسول الله ﷺ هي من طاعة الله، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله، ويحتمل أن يكون هذا الضمير راجعا إلى «الله وإلى رسوله» كما في قوله: {وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ}

=

=

[التوبة: ٦٢]، وقيل: الضمير راجع إلى «» الأمر الذي دل عليه {أطيعوا}.

قال الشنقيطي: "قوله جل وعلا: {ولا تولوا عنه} [الأنفال: آية ٢٠]، ولم يقل: «عنهما». ونظيره من كلام العرب قول حسان بن ثابت:

إِنَّ شَرْخَ الشَّبَابِ والشَّعَرَ الأَسْـ ـوَدَ مَا لَمْ يُعَاصَ كَانَ جُنُونَا

ولم يقل: «ما لم يعاصيا».

وقول نابغة ذبيان:

وَقَدْ أَرَانِي وَنُعْمًا لاَهِيَيْنِ بِهَا وَالدَّهْرُ وَالْعَيْشُ لَمْ يَهْمِمْ بِإِمْرَارِ

وقول الأضبط بن قريع، وقيل كعب بن زهير:

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الْهُمُومِ سَعَةْ والمُسْيُ وَالصُّبْحُ لاَ فَلاَحَ مَعَهْ

ولم يقل: «لا فلاح معهما».

قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ} [الأنفال: ٢٠]، أي: "وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم في القرآن من الحجج والبراهين".

قال ابن إسحاق: "وأنتم تسمعون لقوله، وتزعمون أنكم منه".

قال السعدي: أي: " ما يتلى عليكم من كتاب الله، وأوامره، ووصاياه، ونصائحه، فتوليكم في هذه الحال من أقبح الأحوال".

قال ابن كثير: "أي: بعد ما علمتم ما دعاكم إليه.

قال القاسمي: "أي: القرآن الناطق بوجوب طاعته، والمواعظ الزاجرة عن مخالفته".

قال المراغي: أي: "وأنتم تسمعون كلامه الداعي إلى وجوب طاعته وموالاته ونصره، ولا شك أن المراد بالسماع هنا سماع الفهم والتصديق بما يسمع، كما هو شأن المؤمنين الذين من دأبهم أن يقولوا {سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ

=

=
الْمَصِيرُ} [البقرة: ٢٨٥].

قال ابن عاشور: والمقصود من هذه الحال تشويه التولي المنهي عنه، فإن العصيان مع توفر أسباب الطاعة أشد منه في حين انخرَام بعضها.

الطاعة: موافقة الأمر، وذلك بفعل الأمر، وترك المحظور، ولهذا أخذتْ من المطاوعة وهي الانقياد.

قال ابن عاشور: لما أراهم الله آيات لطفه وعنايته بهم، ورأوا فوائِد امتثال أمر الرسول ﷺ بالخروج إلى بدر، وقد كانوا كارهين الخروج، أعقب ذلك بأنْ أمَرَهم بطاعة الله ورسوله شكرًا على نعمة النصر، واعتبارًا بأن ما يأمرهم به خيرٌ عواقبه، وحذرهم من مخالفة أمر الله ورسول ﷺ.

قوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا} [الأنفال: ٢١]، أي: "ولا تكونوا أيها المؤمنون في مخالفة الله ورسوله محمد ﷺ كالمشركين والمنافقين الذين إذا سمعوا كتاب الله يتلى عليهم قالوا: سمعنا بآذاننا".

قيل: المراد المشركون. واختاره ابن جرير.

وقال ابن إسحاق: هم المنافقون؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا، وليسوا كذلك.

قال القرطبي: قوله تعالى (وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا) أي كاليهود أو المنافقين أو المشركين، وهو من سماع الأذن.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله من أصحاب نبي الله ﷺ: لا تكونوا، أيها المؤمنون، في مخالفة رسول الله ﷺ، كالمشركين الذين إذا سمعوا كتاب الله يتلى عليهم قالوا: {قد سمعنا}، بآذاننا.

قال الزجاج: "يعنى به الذين {قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا} [الأنفال: ٣١].

=

=

قوله تعالى: {وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} [الأنفال: ٢١]، أي: "وهم في الحقيقة لا يتدبرون ما سمعوا، ولا يفكرون فيه، فهم بمنزلة من لم يسمع وأعرض عن الحق".

قال الطبري: "يقول: وهم لا يعتبرون ما يسمعون بآذانهم ولا ينتفعون به، لإعراضهم عنه، وتركهم أن يُوعُوه قلوبهم ويتدبروه. فجعلهم الله، إذ لم ينتفعوا بمواعظ القرآن وإن كانوا قد سمعوها بأذانهم، بمنزلة من لم يسمعها. يقول جل ثناؤه لأصحاب رسول الله ﷺ: لا تكونوا أنتم في الإعراض عن أمر رسول الله، وترك الانتهاء إليه وأنتم تسمعونه بآذانكم، كهؤلاء المشركين الذين يسمعون مواعظ كتاب الله بآذانهم، ويقولون: {قد سمعنا}، وهم عن الاستماع لها والاتعاظ بها معرضون كمن لا يسمَعُها".

قال الزجاج: "فسماهم الله جل ثناؤه «لا يسمعون»، لأنهم استمعوا استماع عداوة وبغضاء، فلم يتفهموا، ولم يتفكروا. فكانوا بمنزلة من لم يسمع".

عن مجاهد في قول الله: " {وهم لا يسمعون}، قال: عاصون".

عن ابن إسحاق: " {ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون}، أي: كالمنافقين الذين يظهرون له الطاعة، ويُسِرُّون المعصية".

قال الطبري: "وللذي قال ابن إسحاق وجه، ولكن قوله: {ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون}، في سياق قَصَص المشركين، ويتلوه الخبر عنهم بذمّهم، وهو قوله: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ}، فلأن يكون ما بينهما خبراً عنهم، أولى من أن يكون خبراً عن غيرهم".

فدلّت الآية على أن قول المؤمن: سمعت وأطعت، لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامتثال فعله.

فإذا قصر في الأوامر فلم يأتها، واعتمد النواهي فاقتحمها فأيّ سمع عنده وأي طاعة! وإنما يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذي يظهر الإيمان، ويسر الكفر؛ وذلك

=

=

هو المراد بقوله (وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ).

يعني بذلك المنافقين، أو اليهود أو المشركين، على ما تقدّم.... (تفسير القرطبي).

قوله تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ} [الأنفال: ٢٢]، أي: "إنَّ شر ما دبَّ على الأرض -مِنْ خَلْق الله- عند الله".

الدواب فاسم لكل ما دب على الأرض من حيوانها لدبيبه عليها مشيًا، وكان بالخيل أخص. والمراد بِشَرِّ الدواب الكفار لأنهم شر ما دبّ على الأرض من الحيوان.

- **قال ابن عطية**: المقصود بهذه الآية أن يبين أن هذه الصنيفة العاتية من الكفار هي شر الناس عند الله ﷻ، وأنها أخس المنازل لديه، عبر ب (الدواب) ليتأكد ذمهم وليفضل عليهم الكلب العقور والخنزير ونحوهما من السبع، والخمس الفواسق وغيرها.

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: (هم نفر من بني عبد الدار) أخرجه البخاري (٤٦٤٦).

قال ابن زيد " {الدواب} : الخلق، وقرأ: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ} ، {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا} ، قال: هذا يدخل في هذا".

قوله تعالى: {الصُّمُّ الْبُكْمُ} [الأنفال: ٢٢]، أي: "الصمُّ الذين انسدَّت آذانهم عن سماع الحق فلا يسمعون، البكم الذين خرست ألسنتهم عن النطق به فلا ينطقون".

قال قتادة: "صم عن الحق فهم لا يسمعونه" ، " بكم فهم لا ينطقون به".

قال ابن زيد: "«الصم» وليس بالصم في الدنيا، ولكن صم القلب".

=

=

قال ابن عباس: "الأبكم: الأخرس".

قوله تعالى: {الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} [الأنفال: ٢٢]، أي: "هؤلاء هم الذين لا يعقلون عن الله أمره ونهيه".

عن ابن عباس: {الصم البكم الذين لا يعقلون}، لا يتبعون الحق".

وعن ابن عباس أيضا: "{الصم البكم الذين لا يعقلون}، نفر من بني عبد الدار".

عن عروة بن الزبير: "{إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون}، أي: المنافقين لا يعرفون ما عليهم في ذلك من النقمة والتباعة".

الأصم: هو الذي لا يسمع، والأبكم: هو الذي لا ينطق.

- قال الشوكاني: قوله تعالى (الصم البكم) أي: الذين لا يسمعون ولا ينطقون، وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق، لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق.

- والمراد: صم عن استماع الحق، وبكم عن النطق بالخير والإيمان فهم لا يتكلمون به، وعمي لا بصائر لهم يميزون بها بين الحق والباطل، فلما كانوا غير منتفعين بسمعهم وأبصارهم وألسنتهم وأفئدتهم وصفوا بأنهم صم بكم عمي، وهذا كما قال تعالى (وجعلنا لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون)، وكما قال تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها).

(الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ) فهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا؛ ولهذا شبههم بالأنعام في قوله (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ) وقال في الآية الأخرى (أُولَئِكَ كَالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ).

=

=

قوله تعالى: {وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ} [الأنفال: ٢٣]، أي: "ولو علم الله في هؤلاء خيرًا لأسمعهم مواعظ القرآن وعبره حتى يعقلوا عن الله ﷻ حججه وبراهينه، ولكنه علم أنه لا خير فيهم وأنهم لا يؤمنون".

قال الطبري: "ولو علم الله في هؤلاء القائلين خيرًا، لأسمعهم مواعظ القرآن وعِبَره، حتى يعقلوا عن الله ﷻ حججه منه، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم، وأنهم ممن كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون".

قال شيخ الإسلام: "أي: أن قلوبهم لا تستفيد من الآيات ولا مما جاءهم عن الله ورسوله ﷺ".

قال ابن عطية: أخبر تعالى بأن عدم سمعهم وهداهم إنما هو بما علمه الله منهم وسبق من قضائه عليهم، فخرج ذلك في عبارة بليغة في ذمهم في قوله (ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم) والمراد لأسمعهم إسماع تفهيم وهدى، ثم ابتدأ ﷻ الخبر عنهم بما هم عليه من حتمه عليهم بالكفر فقال (ولو أسمعهم) أي ولو أفهمهم (لتولوا) بحكم القضاء السابق فيهم ولأعرضوا عما تبين لهم من الهدى.

واختلف أهل العلم فيمن عني بهذه الآية، على قولين:

أحدهما: عني بها المشركون. وقال: معناه: أنهم لو رزقهم الله الفهم لما أنزله على نبيه ﷺ، لم يؤمنوا به، لأن الله قد حكم عليهم أنهم لا يؤمنون. وهذا قول ابن جريج ، وابن زيد.

والثاني: عني بها المنافقون. قالوا: ومعناه: لأنفذ لهم قولهم الذي قالوه بألسنتهم ولكن القلوب خالفت ذلك منهم، ولو خرجوا معكم لتولوا وهم معرضون، ما وفَوا لكم بشيء مما خرجوا عليه. قاله عروة بن الزبير ، وابن إسحاق.

وذكر الماوردي في قوله تعالى: {لَأَسْمَعَهُمْ} [الأنفال: ٢٣]، ثلاثة أقوال:

أحدهما: لأسمعهم الحجج والمواعظ سماعَ تفهيم وتعليم، وهذا معنى قول ابن

=

=

جريج ، وابن زيد.

وقال شيخ الإسلام: "أي: لأفهمهم ما سمعوه".

الثاني: لأسمعهم كلام الذين طلبوا إحياءهم من قصي بن كلاب وغيره يشهدون بنبوتك. حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين.

والثالث: لأسمعهم جواب كل ما يسألون عنه، قاله الزجاج.

قوله تعالى: {وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٣]، أي: "ولو أسمعهم -على الفرض والتقدير- لتولَّوا عن الإيمان قصدًا وعنادًا بعد فهمهم له، وهم معرضون عنه، لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه".

قال الطبري: أي: "ولو أفهمهم ذلك حتى يعلموا ويفهموا، لتولوا عن الله وعن رسوله، وهم معرضون عن الإيمان بما دلَّهم على صحته مواعظُ الله وعبره وحججه، معاندون للحق بعد العلم به".

قال شيخ الإسلام: "ولو أفهمهم مع هذه الحال التي هم عليها، {لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ}، فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا، ولو فهموا لم يعملوا، فنفى عنهم صحة القوة العلمية، وصحة القوة العملية".

قال ابن كثير: "أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح، لو فرض أن لهم فهما، فقال: {وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ} أي: لأفهمهم، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم؛

لأنه يعلم أنه {وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ}، أي: أفهمهم {لَتَوَلَّوْا} عن ذلك قصدا وعنادا بعد فهمهم ذلك، {وَهُمْ مُعْرِضُونَ} عنه".

قال عروة بن الزبير: "{ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون} ولو خرجوا معكم لتولوا وهم معرضون ما وفوا لكم بشيء مما خرجوا عليه".

عن ابن زيد: "{ولو أسمعهم}، بعد إذ يعلم أن لا خير فيهم ما نفعهم بعد أن ينفذ

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤).

{يأيها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ} بِالطَّاعَةِ {إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} مِنْ أَمْر الدِّين لِأَنَّهُ سَبَب الْحَيَاة الْأَبَدِيَّة {وَاعْلَمُوا أَنَّ الله يَحُول بَيْن الْمَرْء وَقَلْبه} فَلَا يَسْتَطِيع أَنْ يُؤْمِن أَوْ يَكْفُر إِلَّا بِإِرَادَتِهِ {وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} فيجازيكم بأعمالكم[1].

=

علمهم بأنهم لا ينتفعون به".

(١) قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال: ٢٤]، أي: "يا أيها الذين صدِّقوا بالله ربًا وبمحمد نبيًا ورسولا".

قوله تعالى: {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: ٢٤]، أي: "استجيبوا لله وللرسول بالطاعة إذا دعاكم لما يحييكم من الحق، ففي الاستجابة إصلاح حياتكم في الدنيا والآخرة".

وقيل (لما يحييكم) المعنى للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه، وهذا إحياء مستعار لأنه من موت الكفر والجهل.

قال الطبري: أي: "استجيبوا لله وللرسول بالطاعة، إذا دعاكم الرسول لما يحييكم من الحق".

وفي قوله تعالى: {إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: ٢٤]، سبعة أقوال:

أحدها: إذا دعاكم إلى الإيمان، قاله السدي.

والثاني: إذا دعاكم إلى الحق، قاله مجاهد.

والثالث: إذا دعاكم إلى ما في القرآن، قاله قتادة.

والرابع: إذا دعاكم إلى الحرب وجهاد العدو، قاله ابن إسحاق.

=

=

والخامس: إذا دعاكم إلى ما فيه دوام حياتكم في الآخرة، ذكره علي بن عيسى.
والسادس: إذا دعاكم إلى ما فيه إحياء أمركم في الدنيا، قاله الفراء.
والسابع: أنه على عموم الدعاء فيما أمرهم به.
قال عُرْوَةَ بن الزبير: أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم. وهذا قول الأكثر.
- قال الرازي: قال الأكثرون (لِمَا يُحْيِيكُمْ) هو الجهاد، ثم في سبب تسمية الجهاد بالحياة وجوه:
أحدها: هو أن وهن أحد العدوين حياة للعدو الثاني، فأمر المسلمين إنما يقوى ويعظم بسبب الجهاد مع الكفار.
وثانيها: أن الجهاد سبب لحصول الشهادة وهي توجب الحياة الدائمة قال تعالى (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أمواتا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبّهِمْ يُرْزَقُون).
وثالثها: أن الجهاد قد يفضي إلى القتل، والقتل يوصل إلى الدار الآخرة، والدار الآخرة معدن الحياة. قال تعالى (وَإِنَّ الدار الاخرة لَهِيَ الحيوان) أي الحياة الدائمة.
قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ من قال: معناه: استجيبوا لله وللرسول بالطاعة، إذا دعاكم الرسول لما يحييكم من الحق. وذلك أن ذلك إذا كان معناه، كان داخلا فيه الأمر بإجابتهم لقتال العدو والجهاد، والإجابة إذا دعاكم إلى حكم القرآن، وفي الإجابة إلى كل ذلك حياة المجيب. أما في الدنيا، فبقاء الذكر الجميل، وذلك له فيه حياة. وأما في الآخرة، فحياة الأبد في الجنان والخلود فيها.
وأما قول من قال: معناه الإسلام، فقول لا معنى له. لأن الله قد وصفهم بالإيمان بقوله: {يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم}، فلا

=

=

وجه لأن يقال للمؤمن: استجب لله وللرسول إذا دعا إلى الإسلام والإيمان".

قال ابن القيم: تضمنت هذه الآية أمورًا، أحدها: أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ.

قال مجاهد: (لِمَا يُحْيِيكُمْ) يعني للحق، وقال قتادة: هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة. وقال السدي: هو الإسلام أحياهم به بعد موتهم بالكفر. وقال ابن إسحاق وعروة بن الزبير: واللفظ له (لِمَا يُحْيِيكُمْ) يعني للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقوّاكم بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

وكل هذه عبارات عن حقيقة واحدة وهي القيام بما جاء به الرسول ظاهرًا وباطنًا.

قال الواحدي: والأكثرون على أن معنى قوله (لِمَا يُحْيِيكُمْ) هو الجهاد. وهو قول ابن إسحاق واختيار أكثر أهل المعاني. قال الفراء: إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم يريد إنما يقوي بالحرب والجهاد، فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم واجترأ عليهم عدوهم.

قلت: الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة. أما في الدنيا فإن قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد. وأما في البرزخ فقد قال تعالى (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وأما في الآخرة فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم. ولهذا قال ابن قتيبة: (لما يحييكم) يعني الشهادة. وقال بعض المفسرين: (لما يحييكم) يعني

=

=

الجنة، فإنها دار الحيوان وفيها الحياة الدائمة الطيبة. حكاه أبو علي الجرجاني. والآية تتناول هذا كله، فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد يحيي القلوب الحياة الطيبة.

- قال القاسمي: وإنما سمي الجهاد حياة، لأن في وهن عدوّهم بسببه حياة لهم وقوة، أو لأنه سبب الشهادة الموجبة للحياة الدائمة، أو سبب المثوبة الأخروية التي هي معدن الحياة.

روى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: "مر رسول الله ﷺ على أُبيّ وهو قائم يصلي فصرخ به قال: يَاأُبيّ، قال: فعجل في صلاته، ثم جاء، فقال رسول الله ﷺ: مَا مَنَعَكَ إِذْ دَعَوتُكَ أَنْ تُجِيبَنِي؟، قال: يا رسول الله كنت أصلي، فقال: أَلَمْ تَجِدْ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ: {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}، قال بلى يا رسول الله، لا أعود".

قوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [الأنفال: ٢٤]، أي: "واعلموا -أيها المؤمنون- أن الله تعالى هو المتصرف في جميع الأشياء، والقادر على أن يحول بين الإنسان وما يشتهيه قلبه، فهو سبحانه الذي ينبغي أن يستجاب له إذا دعاكم؛ إذ بيده ملكوت كل شيء".

وفي قوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [الأنفال: ٢٤]، سبعة أقوال:

أحدها: يحول بين الكافر والإيمان، وبين المؤمن والكفر، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، ومجاهد-في أحد قوليه-.

والثاني: يحول بين المرء وعقله، فلا يدري ما يعمل، قاله مجاهد.

والثالث: يحول بين المرء وقلبه أن يقدر على إيمان أو كفر إلا بإذنه، قاله السدي.

والرابع: معناه: أنه قريب من قلبه يحول بينه وبين أن يخفى عليه شيء من سره أو

=

=

جهره فصار أقرب من حبل الوريد، وهذا تحذير شديد، قاله قتادة.

والخامس: معناه: يفرق بين المرء وقلبه بالموت فلا يقدر على استدراك فائت. ذكره علي بن عيسى.

والسادس: يحول بين المرء وما يتمناه بقلبه من البقاء وطول العمر والظفر والنصر، حكاه ابن الأنباري.

والسابع: يحول بين المرء وما يوقعه في قلبه من رعب خوف أو قوة وأمن، فيأمن المؤمن من خوفه، ويخاف الكافر عذابه.

قال الطبري: "وأولى الأقوال بالصواب عندي في ذلك أن يقال: إن ذلك خبرٌ من الله ﷻ أنه أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يقدر ذو قلب أن يُدرك به شيئًا من إيمان أو كفر، أو أن يَعِي به شيئًا، أو أن يفهم، إلا بإذنه ومشيئته. وذلك أن " الحول بين الشيء والشيء "، إنما هو الحجز بينهما، وإذا حجز جل ثناؤه بين عبد وقلبه في شيء أن يدركه أو يفهمه، لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع الله قلبَه إدراكَه سبيلٌ.

وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك قول من قال: " يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان "، وقول من قال: «يحول بينه وبين عقله»، وقول من قال: «يحول بينه وبين قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه»، لأن الله ﷻ إذا حال بين عبد وقلبه، لم يفهم العبد بقلبه الذي قد حيل بينه وبينه ما مُنِع إدراكه به على ما بيَّنتُ. غير أنه ينبغي أن يقال: إن الله عم بقوله: {واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه}، الخبرَ عن أنه يحول بين العبد وقلبه، ولم يخصص من المعاني التي ذكرنا شيئًا دون شيء، والكلام محتمل كل هذه المعاني، فالخبر على العموم حتى يخصه ما يجب التسليم له".

قال ابن القيم: المشهور في الآية أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر

=

=

وبين الإيمان، ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته، وبين أهل معصيته وبين طاعته، وهذا قول ابن عباس وجمهور المفسرين.

وفي الآية قول آخر أن المعنى أنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية، فهو بينه وبين قلبه. ذكره الواحدي عن قتادة.

وكان هذا أنسب بالسياق، لأن الاستجابة أصلها بالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه فيعلم هل استجاب له قلبه وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه. وعلى القول الأول، فوجه المناسبة أنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة وأبطأتم عنها فلا تأمنوا أن يحول الله بينكم وبين قلوبكم فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم على

تركها بعد وضوح الحق واستبانته، فيكون قوله (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) وقوله (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ) وقوله (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ).

ففي الآية تحذير عن ترك الاستجابة بالقلب وان استجاب بالجوارح.... (الفوائد).

وقد كان ﷺ يدعو الله أن يثبت قلبه، فعلى المسلم أن يدعو دائمًا أن يثبت الله قلبه على الطاعة.

عن عبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو. أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ قُلُوبَ بَنِى آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِك) رواه مسلم.

وعن أم سلمة قالت: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ ﷺ «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». قَالَتْ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا لأَكْثَرِ دُعَائِكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ قَالَ «يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلاَّ وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ

=

=

وَمَنْ شَاءَ أَزَاغَ) رواه الترمذي.

- قال ابن القيم: حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء:

أحدهما: رد الحق لمخالفته هواك.

فإنك تعاقب بتقليب القلب ورد ما يرد عليك من الحق رأسًا ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك.

قال تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك.

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته.

فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبة لك.

قال تعالى (فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ).

فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين فليهنه السلامة. (بدائع الفوائد).

قوله تعالى: {وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنفال: ٢٤]، أي: "واعلموا أنكم تُجمعون ليوم لا ريب فيه، فيجازي كلا بما يستحق".

قال الطبري: "معناه: واعلموا، أيها المؤمنون، أيضًا، مع العلم بأن الله يحول بين المرء وقلبه: أنّ الله الذي يقدر على قلوبكم، وهو أملك بها منكم، إليه مصيركم ومرجعكم في القيامة، فيوفّيكم جزاء أعمالكم، المحسنَ منكم بإحسانه، والمسيءَ بإساءته، فاتقوه وراقبوه فيما أمركم ونهاكم هو ورسوله أن تضيعوه، وأن لا تستجيبوا لرسوله إذا دعاكم لما يحييكم، فيوجب ذلك سَخَطَه، وتستحقوا به أليم عذابه حين تحشرون إليه".

عن مقاتل بن حيان: {وأنه إليه تحشرون}، يعني: إليه ترجعون".

=

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥).

{وَاتَّقُوا فِتْنَةً} إنْ أَصَابَتْكُمْ {لَا تُصِيبَنَ الَّذِينَ ظلموا منكم خاصة} بل تعمهم وغيرهم واتقاؤهم بِإِنْكَارِ مُوجِبِهَا مِنْ الْمُنْكَر {وَاعْلَمُوا أَنَّ الله شَدِيد الْعِقَاب}

=

(فائدة): المراد بالحياة في قوله تعالى: {لما يحييكم} هو جهاد الكفار المعاندين؛ كما قاله عروة بن الزبير، وابن إسحاق، وقال مجاهد: هو الحق، وقال قتادة: هو القرآن.

وهذا من التنوع لا التضاد، فمن الحق الذي دعا إليه النبي ﷺ في القرآن: الجهاد، وظاهر سياق الآيات قبلها وبعدها في قتال الكفار المعاندين؛ ففي هذه الآية سمى الله الجهاد حياة: {لما يحييكم}، كما سمى القصاص حياة: {ولكم في القصاص حياة} [البقرة: ١٧٩]؛ لأن الأمة إن لم تجاهد عدوها، تسلط عليها وقتلها، وانشغلت بنفسها فتناحرت وقتل بعضها بعضا، وإن قاتلت عدوها، فلها البقاء والعزة، ويحفظ دمها بقوة شوكتها، ولو كان الجهاد في ظاهره سفكا للدم وفقدا للمال، ولكن الله يحفظ به دماء وأموالا أعظم مما ذهب منها وفقدت، والتاريخ شاهد أن الأمة إن انشغلت عن الجهاد، دب فيها القتال، وسفك بعضها دم بعض، وإن انشغلت بالجهاد، حفظ الله دمها ومالها، وإن ظهر لها خلاف ذلك، فهم ينظرون للبدايات، ولا ينظرون للنهايات.

وفي ذلك أن الأمة التي تعطل الجهاد كالأمة الميتة؛ لأن الله سماه حياة في قوله {دعاكم لما يحييكم}، وهو الجهاد.

ويظهر تلازم اشتداد الفتن في المسلمين عند تعطيل الجهاد: أن الله ذكر بعد حياتهم به تحذيره من عاقبة الفتن عليهم بقوله: {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة}؛ وذلك أن الفتن لا تكثر إلا عند تعطيل الجهاد والركون إلى الدنيا.

لِمَنْ خَالَفَهُ[1].

(١) ذكر سبب النزول.

عن الحسن؛ قال: نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير رضي الله عنهم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٤٤) بسند صحيح إلى الحسن بن أبي جعفر ثنا داود بن أبي هند عن الحسن. وهذا إسناد ضعيف؛ لإرساله، وضعف الحسن بن أبي جعفر.

وعن السدي؛ قال: نزلت في أهل بدر خاصة، وأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٤٤) من طريق أسباط عنه به. وسنده ضعيف جدًا؛ لإعضاله، وضعف أسباط بن نصر.

وعن الضحاك؛ قال: نزلت في أصحاب محمد ﷺ خاصة.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (/ ٤٦) وزاد نسبه لعبد بن حميد. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

* قوله تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} [الأنفال: ٢٥]، أي: "واحذروا -أيها المؤمنون- اختبارًا ومحنة يُعَمُّ بها المسيء وغيره لا يُخَص بها أهل المعاصي ولا مَن باشر الذنب، بل تصيب الصالحين معهم إذا قدروا على إنكار الظلم ولم ينكروه".

أي: احذروا بطش الله وانتقامه إن عصيتم أمره، واحذروا فتنة إن نزلت بكم، لم تقتصر على الظالم خاصة بل تعم الجميع، وتصل الى الصالح والطالح، لأن الظالم يهلك بظلمه وعصيانه، وغير الظالم يهلك لعدم منعه وسكوته عليه، وفي الحديث الشريف (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده).

قال الرازي: اعلم أنه تعالى كما حذر الإنسان أن يحال بينه وبين قلبه، فكذلك =

=

حذره من الفتن، والمعنى: واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالمين خاصة بل تتعدى إليكم جميعًا وتصل إلى الصالح والطالح.

- فالمراد بالفتنة هنا العذاب الدنيوي، كالأمراض، والقحط، واضطراب الأحوال، وتسلط الظلمة، وعدم الأمان.. وغير ذلك من المحن والمصائب والآلام التي تنزل بالناس بسبب غشيانهم الذنوب، وإقرارهم للمنكرات، والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

- قال ابن العربي: الْمُخْتَارُ عِنْدَنَا: أَنَّهَا فِتْنَةُ الْمَنَاكِيرِ بِالسُّكُوتِ عَلَيْهَا أَوْ التَّرَاضِي بِهَا، وَكُلُّ ذَلِكَ مُهْلِكٌ، وَهُوَ كَانَ دَاءَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ (كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ).

- (الفتنة) أُطلقت في القرآن إطلاقاتٍ معروفة مشهورة:

فمن أشهر إطلاقاتها: الاختبار والامتحان.

ومنه قوله (لأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) (وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً).

ومن إطلاقات الفتنة هو: الإحراق بالنار.

كقوله (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) أي: يحرقون.

وقوله (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) أحرقوهم بنار الأخدود على القول بذلك

ومن إطلاقات الفتنة: نتيجة الاختبار إن كانت سَيِّئَةً خاصةً، كقوله تعالى (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ) أي: لا يبقى شرك على وجه الأرض، بدليل قوله ﷺ (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) وتدل على ذلك الآيتان في سورة البقرة وسورة الأنفال؛ لأن الله قال في البقرة (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله) فقوله (وَيَكُونَ الدِّينُ لله) معناه: أنه لا يبقى شرك في الأرض؛ لأن الشرك ما دام في الأرض فالدين بعضه للشركاء، وآية الأنفال قوله (وَيَكُونَ الدِّينُ

=

=

كُلُّهُ لله) كما هو ظاهر.

وأطلقت الفتنة على الحُجة، كما في قوله تعالى (ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ) وفي القراءة الأخرى (فتنتَهم) أي: حجتهم (إِلاَّ أَن قَالُوا وَالله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ).

- وقد دلت الآية الكريمة على وجوب الإقلاع عن المعاصي، ووجوب محاربة مرتكبيها، فإن الأمة التي تشيع فيها المعاصي والمظالم والمنكرات.. ثم لا تجد من يحاربها ويعمل على إزالتها، تستحق العقوبة جزاء سكوتها واستخذائها وجبنها.

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية الكريمة نزلت في حق بعض الصحابة الذين اشتركوا في واقعة الجمل فيما بعد.

ولكن هذا القول غير صحيح لأن الآية الكريمة تخاطب المؤمنين جميعًا في كل زمان ومكان، وتأمرهم بالبعد عن المعاصي والمنكرات التي تفضى بهم إلى العذاب الدنيوي قبل الأخروي، وليست خاصة بفريق دون فريق.

لذا قال ابن كثير: والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم هو الصحيح، ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن.

قال الشنقيطي: وقد دلت الآيات كقوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)، والأحاديث على أن الناس إن لم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، عمهم الله بعذاب من عنده.

وقد يقال: كيف يعم العذاب الصالح والطالح والله تعالى يقول (وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) فكيف يؤاخذون بجريرة غيرهم؟؟.

والجواب: أن ظهور هذه المعاصي والمجاهرة بها كان بسبب سكوت الصالحين عن إنكارها مع كونهم قادرين على تغييرها والحيلولة دون وقوعها، فيعتبر ذلك السكوت -الذي لا مبرر له- من علامات الرضا والإقرار بالمنكر.

=

=

فمثلهم كمثل المجموعة الذين أرادوا خرق السفينة في نصيبهم وليس في نصيب الآخرين، ويبدو قصدهم حسنًا، وهو عدم إيذاء جيرانهم، ولكن الهلاك لم يقتصر على من باشر الخرق، وإنما هو عام لكل ركاب السفينة، وهكذا فاعلو المنكر قد يظن من لم يفعل المنكر مثلهم، أنه سينجو من العقاب الذي ينزله الله بهم، ولو سكت عن منكرهم فلم ينكره، ولكن العقاب النازل بسبب فعلهم لا يخصهم، وإنما يعم معهم غيرهم، لعدم قيام المجتمع بتغيير ذلك المنكر.

قال ابن جزي: "أي: لا تصيب الظالمين، بل تصيب معهم من لم يغير المنكر، ولم ينه عن الظلم، وإن كان لم يظلم".

قال ابن عباس: "أمر الله المؤمنين أن لا يقرُّوا المنكر بين أظهرهم، فيعمَّهم الله بالعذاب".

عن الضحاك في قوله: " {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم}، قال: تصيب الصالح والظالم عامة". وروي عن حبيب بن أبي ثابت نحو ذلك.

عن مجاهد: "{واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة}، قال: هي أيضًا لكم".

قال ابن زيد: " «الفتنة»، الضلالة".

قال عبد الله: "ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، إن الله يقول: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ} [سورة الأنفال: ٢٨]، فليستعذ بالله من مُضِلات الفتن".

عن الحسن قال: قال الزبير: "لقد خُوِّفنا، بها يعني: قوله: {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة}.

قال القرطبي: "قال علماؤنا: فالفتنة إذا عمت هلك الكل، وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم التغيير، وإذا لم تغير وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها. وهكذا كان الحكم فيمن

=

=

كان قبلنا من الأمم.. وبهذا قال السلف رضي الله عنهم".

وفي قوله تعالى: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً} [الأنفال: ٢٥]، خمسة أقوال:

أحدها: أنه المنكر، أمر الله تعالى المؤمنين ألا يقروه بين أظهرهم فيعمهم العذاب. قاله ابن عباس.

والثاني: أنها الفتنة بالأموال والأولاد كما قال تعالى: {إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُم فِتْنَةٌ} [الأنفال: ٢٨]. قاله عبد الله بن مسعود.

والثالث: أن الفتنة ها هنا البلية التي يبلى الإنسان بها، وهذا معنى قول الحسن.

والرابع: أنها نزلت في النكاح بغير وليّ، قاله بشر بن الحارث.

والخامس: أنها إظهار البدع. افاده الماوردي.

قوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ٢٥]، أي: "واعلموا أن الله شديد العقاب لمن خالف أمره ونهيه".

والمراد منه: الحث على لزوم الاستقامة خوفًا من عقاب الله.

قال ابن عاشور: فعلى عقلاء الأقوام وأصحاب الأحلام منهم إذا رأوا دبيب الفساد في عامتهم أن يبادروا للسعي إلى بيان ما حل بالناس من الضلال في نفوسهم، وأن يكشفوا لهم ماهيته وشبهته وعواقبه، وأن يمنعوهم منه بما أوتوه من الموعظة والسلطان، ويزجروا المفسدين عن ذلك الفساد حتى يرتدعوا، فإن هم تركوا ذلك، وتوانوا فيه لم يلبث الفساد أن يسري في النفوس وينتقل بالعدوى من واحد إلى غيره، حتى يعم أو يكاد، فيعسر اقتلاعه من النفوس، وذلك الاختلالُ يفسد على الصالحين صلاحَهم وينكد عيشهم على الرغم من صلاحهم واستقامتهم، فظهر أن الفتنة إذا حلّت بقوم لا تصيب الظالم خاصة بل تعمه والصالح، فمن أجل ذلك وجب اتقاؤها على الكل، لأن إضرار حلولها تصيب

=

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦).

{وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيل مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْض} أَرْض مَكَّة {تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمْ النَّاس} يَأْخُذكُمْ الْكُفَّار بِسُرْعَةٍ {فَآوَاكُمْ} إلَى الْمَدِينَة {وَأَيَّدَكُمْ} قَوَّاكُمْ {بِنَصْرِهِ} يَوْم بَدْر بِالْمَلَائِكَةِ {وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَات} الْغَنَائِم {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} نِعَمه[1].

=

جميعهم.

قال الطبري: "قوله: {واعلموا أن الله شديد العقاب}، فإنه تحذير من الله، ووعيد لمن واقع الفتنة التي حذره إياها بقوله: {واتقوا فتنة}، يقول: اعلموا، أيها المؤمنون، أن ربكم شديد عقابه لمن افتُتن بظلم نفسه، وخالف أمره، فأثم به".

قال ابن عثيمين: " وسميت المؤاخذة عقابًا؛ لأنها تأتي عقب الذنب".

قال السعدي: " من خاف عقاب الله، انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى الثواب، وأما من لم يخف العقاب، ولم يرج الثواب، اقتحم المحارم، وتجرأ على ترك الواجبات".

(١) ذكر سبب النزول.

عن عكرمة؛ قال: نزلت في يوم بدر.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٢/ ٢٥): نا سليمان بن حرب نا حماد بن زيد عن أيوب السختياني عن عكرمة به. وهذا مرسل رجاله ثقات رجال الصحيح.

* قوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال: ٢٦]،

=

=

أي: "واذكروا أيها المؤمنون نِعَم الله عليكم إذ أنتم بـ «مكة» قليلو العدد مقهورون".

وهي آية تتضمن تعديد نعم الله على المؤمنين.

قال الطبري: "وهذا تذكيرٌ من الله ﷻ أصحابَ رسول الله ﷺ، ومناصحة. يقول: أطيعوا الله ورسوله، أيها المؤمنون، واستجيبوا له إذا دعاكم لما يحييكم، ولا تخالفوا أمرَه وإن أمركم بما فيه عليكم المشقة والشدة، فإن الله يهوِّنه عليكم بطاعتكم إياه، ويعجِّل لكم منه ما تحبون، كما فعل بكم إذ آمنتم به واتبعتموه وأنتم قليلٌ يستضعفكم الكفار فيفتنونكم عن دينكم، وينالونكم بالمكروه في أنفسكم وأعراضكم".

قوله تعالى: {تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ} [الأنفال: ٢٦]، أي: "تخافون أن يأخذكم الكفار بسرعة".

قال الطبري: أي:"تخافون منهم أن يتخطفوكم فيقتلوكم ويصطلموا جميعكم".

قال قتادة: "كان هذا الحي من العرب أذلَّ الناس ذلا وأشقاهُ عيشًا، وأجوعَه بطونًا، وأعراه جلودًا، وأبينَه ضلالا مكعومين، على رأس حجر، بين الأسدين فارس والروم، ولا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيًّا، ومن مات منهم رُدِّي في النار، يوكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشرَّ منهم منزلا حتى جاء الله بالإسلام، فمكن به في البلاد، ووسَّع به في الرزق، وجعلكم به ملوكًا على رقاب الناس. فبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعمٌ يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله تبارك وتعالى".

وفي قوله تعالى: {تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ} [الأنفال: ٢٦]، وجهان:

أحدهما: يعني بالناس كفار قريش، قاله عكرمة ، وقتادة.

=

والثاني: فارس والروم، قاله وهب بن منبه ، وهو مروي عن قتادة أيضا.

قال الطبري: "وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قولُ من قال: عُني بذلك مشركو قريش، لأن المسلمين لم يكونوا يخافون على أنفسهم قبل الهجرة من غيرهم، لأنهم كانوا أدنى الكفار منهم إليهم، وأشدَّهم عليهم يومئذ، مع كثرة عددهم، وقلة عدد المسلمين".

قوله تعالى: {فَآوَاكُمْ} [الأنفال: ٢٦]، أي: "فجعل لكم مأوى تأوون إليه وهو «المدينة»".

قال الطبري: "يقول: فجعل لكم مأوى تأوون إليه منهم.. يعني: آواكم المدينة".

عن السدي: " {فآواكم}، قال: إلى الأنصار بالمدينة".

عن عكرمة: " {فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات}، يعني بالمدينة".

قوله تعالى: {وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ} [الأنفال: ٢٦]، أي: "وقوَّاكم بنصره عليهم يوم «بدر»".

قال الطبري: "يقول: وقواكم بنصره عليهم حتى قتلتم منهم من قتلتم ببدر،".

عن السدي: " {وأيدكم بنصره}، وهؤلاء أصحابُ محمد ﷺ، أيدهم بنصره يوم بدر".

قوله تعالى: {وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} [الأنفال: ٢٦]، أي: "وأطعمكم من الطيبات -التي من جملتها الغنائم-".

قال الطبري: "يقول: وأطعمكم غنيمتهم حلالا طيبًا.

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الأنفال: ٢٦]، أي: "لكي تشكروا له على ما رزقكم وأنعم به عليكم".

قال الطبري: "يقول: لكي تشكروه على ما رزقكم وأنعم به عليكم من ذلك وغيره من نعمه عندكم".

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧).

وَنَزَلَ فِي أَبِي لُبَابَة مَرْوَان بْن عَبْد الْمُنْذِر وَقَدْ بَعَثَهُ ﷺ إلَى بَنِي قُرَيْظَة لِيَنْزِلُوا عَلَى حُكْمه فَاسْتَشَارُوهُ فَأَشَارَ إلَيْهِمْ أَنَّهُ الذَّبْح لِأَنَّ عِيَاله وَمَاله فِيهِم {يأيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا الله وَالرَّسُول وَ} لَا {تَخُونُوا أَمَانَاتكُمْ} مَا ائْتُمِنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ الدين وغيره {وأنتم تعلمون}(1).

=

قال ابن كثير: في تفسير الآية: "ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثَّرهم، ومستضعفين خائفين فقوَّاهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه، وامتثلوا جميع ما أمرهم. وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطرين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله، من مشرك ومجوسي ورومي، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها، وقَيَّض لهم أهلها، آووا ونصروا يوم بدر وغيره وآسَوا بأموالهم، وبذلوا مُهَجهم في طاعة الله وطاعة رسوله".

(١) ذكر سبب النزول.

عن جابر: أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريل النبي ﷺ فقال: إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فقال النبي ﷺ لأصحابه: "إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا؛ فاخرجوا إليه واكتموا"، قال: فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان: أن محمدًا يريدكم؛ فخذوا حذركم؛ فأنزل الله -تعالى-: {لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٤٦): ثنا القاسم بن بشر بن معروف ثنا

=

=

شبابة بن سوار ثنا محمد بن المحرم قال: لقيت عطاء بن أبي رباح فحدثني قال: حدثني جابر (فذكره).

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣١٣): "هذا حديث غريب جدًا، وفي سنده وسياقه نظر".

وعن لبابة بنت أبي لبابة؛ قالت: كنت أنا صاحبته فكان يقول: شدي وثاق عدو الله الذي خان الله ورسوله، فمر به أبو رفاعة بن عبد المنذر فناداه: يا أخي، هلم أكلمك؟ فقال: لا، والله لا أكلمك أبدًا، حتى يرضي الله عنك ورسوله، فسأل عنه رسول الله ﷺ فقالوا: هو في المسجد وأخبروه بخبره، فقال: "لو جاءني؛ لكان لي فيه أمر"؛ فنزلت: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ} الآية، ونزلت الآية الأخرى فيه: {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ} [التوبة: ١٠٦].

أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" (٦/ ٣٤٣٧، ٣٤٣٨ رقم ٧٨٢٨) من طريق بهلول بن مورق -وفي المطبوع: مرزوق، وهو خطأ؛ فليحرر-: ثنا موسى بن عبيدة عن سعيد بن جبير -وفي المطبوع: جبريل!! - مولى أبي لبابة ويعقوب بن زيد عن لبابة به. وهذا سند ضعيف؛ موسى بن عبيدة ضعيف؛ كما في "التقريب". وبه أعله الحافظ ابن حجر رحمه الله في "الإصابة" (٤/ ٣٩٩).

وعن عبد الله بن أبي قتادة، يقول: نزلت: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)} في أبي لبابة.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٤٦)، وسعيد بن منصور في "سننه" (٥/ ٢٠٥ رقم ٩٨٧)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٦٨٤ رقم ٨٩٧٥) من طريق ابن عيينة ثنا إسماعيل بن أبي خالد قال: سمعت عبد الله بن أبي قتادة به. وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات؛ لكنه مرسل.

وعن المغيرة بن شعبة؛ قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٤٦): ثني الحارث بن أبي أسامة ثنا عبد العزيز بن أبان ثنا يونس بن الحارث الطائفي ثنا محمد بن عبد الله بن عون الثقفي عن المغيرة به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علل: الأولى: عبد العزيز بن أبان؛ متروك الحديث، وكذبه ابن معين وغيره؛ كما في "التقريب". والثانية: يونس بن الحارث الطائفي؛ ضعيف؛ كما في "التقريب". والثالثة: محمد بن عبد الله هذا لم نعرفه ولم نجد له ترجمة.

وعن الزهري؛ قوله: {لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ}؛ قال: نزلت في أبي لبابة بعثه رسول الله ﷺ فأشار إلى حلقه أنه الذبح، قال الزهري: فقال أبو لبابة: والله لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أموت أو يتوب الله عليّ، فمكث سبعة أيام لا يذوق طعامًا ولا شرابًا حتى خرّ مغشيًا عليه، ثم تاب الله عليه، فقيل: يا أبا لبابة قد تيب عليك، قال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاءه فحله بيده، ثم قال أبو لبابة: إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت بها الذنب وأن أنخلع من مالي، قال: يجزئك الثلث أن تصدق به.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٩/ ١٤٦) من طريق سنيد صاحب "التفسير": ثني أبو سفيان عن معمر عن الزهري به. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: الإرسال. والثانية: سنيد صاحب "التفسير" ضعيف؛ كما تقدم مرارًا، ثم إن أبا سفيان هذا لم نعرفه.

وعن الكلبي: أن رسول الله ﷺ بعث أبا لبابة ﵁ إلى قريظة وكان حليفًا لهم، فأومأ بيده؛ أي: الذبح؛ فأنزل الله -تعالى-: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)}، فقال رسول الله ﷺ لامرأة أبي لبابة: "أيصلي ويصوم ويغتسل من الجنابة؟ "، فقالت: إنه ليصلي ويصوم ويغتسل من الجنابة ويحب الله ورسوله، فبعث إليه؛ فأتاه فقال: يا رسول الله! والله

=

=

إني لأصلي وأصوم وأغتسل من الجنابة، وإنما نهست إلى النساء والصبيان فوقعت لهم، فما زالت في قلبي حتى عرفت أني خنت الله ورسوله.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٨، ٤٩) ونسبه لعبد بن حميد. والكلبي كذاب، وهو مع ذلك معضل.

وعن عكرمة؛ قال: لما كان شأن بني قريظة، بعث إليهم النبي ﷺ عليًا رضي الله عنه فيمن كان عنده من الناس انتهى إليهم؛ وقعوا في رسول الله ﷺ، وجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ على فرس أبلق، فقالت عائشة رضي الله عنها: فلكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ مسح الغبار عن وجه جبريل عليه السلام، فقلت: هذا دحية يا رسول الله؟ قال: "هذا جبريل"، فقال: يا رسول الله! ما يمنعك من بني قريظة أن تأتيهم؟ فقال رسول الله ﷺ: "فكيف لي بحصنهم؟ "، فقال جبريل عليه السلام: "إني أدخل فرشي هذا عليهم"، فركب رسول الله ﷺ فرسًا معرورًا، فلما رآه علي رضي الله عنه، قال: يا رسول الله! لا عليك أن لا تأتيهم؛ فإنهم يشتمونك، فقال: "كلا إنها ستكون تحية"، فأتاهم النبي ﷺ فقال: "يا إخوة القردة والخنازير!! "؛ فقالوا: يا أبا القاسم ما كنت فحاشًا...؟! فقالوا: لا ننزل على حكم محمد ﷺ ولكننا ننزل على حكم سعد بن معاذ، فنزلوا؛ فحكم فيهم: أن تقتل مقاتلتهم، وتسبي ذراريهم؛ فقال رسول الله ﷺ: "بذلك طرقني الملك سحرًا"؛ فنزل فيهم: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)}؛ نزلت في أبي لبابة رضي الله عنه، أشار إلى بني قريظة حين قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، لا تفعلوا؛ فإنه الذبح، وأشار بيده إلى حلقه.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٤٩) ونسبه لابن مردويه. وهو ضعيف؛ لإرساله.

قال الحافظ ابن كثير في "تفسيره" (٣/ ٣١٣): "والصحيح أن الآية عامة، وإن

=

=

صحّ أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء". ا. هـ.

و لم يصح واحد منها كما تقدم.

* قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الأنفال: ٢٧]، أي: "يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه".

عن خيثمة قال: "ما تقرؤون في القرآن: {يا أيها الذين آمنوا}، فإنه في التوراة: «يا أيها المساكين».

وقال جعفر الصّادق -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "لذة «يا» في النداء أزال تعب العبادة والعناء".

قوله تعالى: {لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ} [الأنفال: ٢٧]، أي: "لا تخونوا الله ورسوله بترك ما أوجبه الله عليكم وفِعْل ما نهاكم عنه".

قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله نهى المؤمنين عن خيانته وخيانة رسوله، وخيانة أمانته وجائز أن تكون نزلت في أبي لبابة وجائز أن تكون نزلت في غيره، ولا خبر عندنا بأيٍّ ذلك كان يجب التسليم له بصحته".

قال الحافظ ابن كثير: "والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية".

قال الطبري: يقول: "لا تنقصوا الله حقوقه عليكم من فرائضه، ولا رسوله من واجب طاعته عليكم، ولكن أطيعوهما فيما أمراكم به ونهياكم عنه".

وفي خيانة الله، قولان:

أحدهما: ترك فرائضه. قاله ابن عباس.

والثاني: معصية رسوله.

وفي خيانة الرسول، قولان:

=

=

أحدهما: مخالفته في السر بعد طاعته في الظاهر. قاله عروة بن الزبير ، وابن إسحاق.

والثاني: ترك سنته وارتكاب معصيته. قاله ابن عباس.

وذكر الماوردي في قوله تعالى: {لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ} [الأنفال: ٢٧]، ثلاثة أقوال:

أحدهما: لا تخونوا الله سبحانه والرسول ﷺ كما صنع المنافقون في خيانتهم، قاله الحسن ، والسدي ، وابن زيد.

والثاني: لا تخونوا الله والرسول فيما جعله لعباده من أموالكم.

والثالث: أن خيانة الله بمعصية رسوله، وخيانة الرسول، بمعصية كلماته. أفاده الماوردي.

- **قال الآلوسي:** والمراد بها هنا عدم العمل بما أمر الله تعالى به ورسوله عليه الصلاة والسلام.

- **وقال ابن عاشور:** وتشمل الخيانة كل معصية خفية، فهي داخلة في (لا تخونوا) لأن الفعل في سياق النهي يعم، فكل معصية خفية فهي مراد من هذا النهي، فتشمل الغلول الذي حاموا حوله في قضية الأنفال، لأنهم لما سأل بعضهم النفل وكانوا قد خرجوا يتتبعون آثار القتلى ليتنفلوا منهم، تعين تحذيرهم من الغلول، فذلك مناسبة وقع هذه الآية من هذه الآيات سواء صح ما حكي في سبب النزول أم كانت متصلة النزول بقريناتها.

- **قال ابن عطية:** هذا خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة، وهو يجمع أنواع الخيانات كلها قليلها وكثيرها.

والخيانة التنقص للشيء باختفاء وهي مستعملة في أن يفعل الإنسان خلاف ما ينبغي من حفظ أمر ما.

=

=

- وقال القرطبي: والخيانة: الغدر وإخفاء الشيء؛ ومنه (يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين) وكان ﷺ يقول: " اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ومن الخيانة فإنها بئست البِطانة " خرّجه النسائي.

قوله تعالى: {وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ} [الأنفال: ٢٧]، أي: "ولا تفرطوا فيما ائتمنكم الله عليه".

عطف على النهي، أي: ولا تخونوا أماناتكم. قال ابن عباس: الأمانات الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد، يعني الفرائض يقول: لا تنقضوها.

قال الطبري: أي: "وتنقصوا أديانكم، وواجب أعمالكم، ولازمَها لكم".

قال ابن قتيبة: "يقال لعاصي المسلمين: خائن، لأنّه مؤتمن على دينه. قال: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ [الأنفال: ٢٧]. يريد المعاصي، وقال الله تعالى: {عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ} [البقرة: ١٨٧] أي: رتخونونها بالمعصية".

وفي المراد بـ «الأمانات»، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الفرائض، قاله ابن عباس.

وفي خيانتها قولان: أحدهما: تنقيصها. قاله ابن عباس.

والثاني: تركها.

والقول الثاني: أنها الدين، قاله ابن زيد ، فيكون المعنى: لا تظهروا الإيمان وتبطنوا الكفر.

والثالث: أنها عامة في خيانة كل مؤتمن، ويؤكده نزولها في ما جرى لأبي لبابة. أفاده ابن الجوزي.

قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنفال: ٢٧]، أي: "وأنتم تعلمون أنه أمانة يجب الوفاء بها".

=

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨).

{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالكُمْ وَأَوْلَادكُمْ فِتْنَة} لَكُمْ صَادَّة عَنْ أُمُور الْآخِرَة {وَأَنَّ اللهَ عِنْده أَجْر عظيم} فلا تفوتوه بِمُرَاعَاةِ الْأَمْوَال وَالْأَوْلَاد وَالْخِيَانَة لِأَجْلِهِمْ وَنَزَلَ فِي توبته[1].

=

قال الطبري: أي: "أنها لازمة عليكم، وواجبة بالحجج التي قد ثبتت لله عليكم".

عن ابن زيد في قول الله: "{وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون}، قال: قد فعل ذلك المنافقون، وهم يعلمون أنهم كفار يظهرون الإيمان".

- **قال ابن عاشور**: وإنما أضيفت الأمانات إلى المخاطبين مبالغة في تفظيع الخيانة، بأنها نقض لأمانة منسوبة إلى ناقضها، بمنزلة قوله (ولا تقتلوا أنفسكم) دون: ولا تقتلوا النفس.

- وللأمانة شأن عظيم في استقامة أحوال المسلمين، ما ثبتوا عليها وتخلقوا بها، وهي دليل نزاهة النفس واعتدال أعمالها، وقد حذر النبي ﷺ من إضاعتها والتهاون بها، وأشار إلى أن في إضاعتها انحلال أمر المسلمين.

- ففي هذا التحذير من الخيانة:

وتعريفها: قال ابن عاشور: وحقيقة الخيانة عمل من اؤتمن على شيء بضد ما اؤتمن لأجله، بدون علم صاحب الأمانة.

وقيل: هي الاستبداد بما يؤتمن الإنسان عليه من الأموال والأعراض والحرم، وتملك ما يستودع، ومجاحدة مودعه.

(وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أي: وأنتم تعلمون أنها أمانة من غير شبهة.

وقيل: وأنتم تعلمون ما في الخيانة من المأثم بخلاف من جهل.

(١) قوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} [الأنفال: ٢٨]، أي: "واعلموا -أيها المؤمنون- أن أموالكم التي استخلفكم الله فيها، وأولادكم الذين

=

=

وهبهم الله لكم اختبار من الله وابتلاء لعباده؛ ليعلم أيشكرونه عليها ويطيعونه فيها، أو ينشغلون بها عنه؟.

قال ابن كثير:"أي: اختبار وامتحان منه لكم؛ إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها، أو تشتغلون بها عنه، وتعتاضون بها منه؟ كما قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التغابن: ١٥]، وقال: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} الآية [التغابن: ١٤].

قال الفخر: "لما كان الداعي إلى الإقدام على الخيانة هو حب الأموال والأولاد. نبه تعالى على أنه يجب على العاقل يحترز عن المضار المتولدة من ذلك الحب. فقال: {أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ}، لأنها تشغل القلب بالدنيا، وتصير حجابا عن خدمة المولى".

قال تعالى (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُون).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) قال مجاهد: يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه، فلا يستطيع مع حبه إلا أن يطيعه.

- قوله تعالى (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ..) يقول تعالى مخبرًا عن الأزواج والأولاد: أن منهم من هو عدو الزوج والوالد، بمعنى: أنه يلتهي به عن العمل الصالح كقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن

=

=

ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).

قال ابن القيم في قوله تعالى (عَدُوًّا لَكُمْ) ولس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادة، بل هي عداوة المحبة الصادقة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر... وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده.

- بعض الأبناء وبعض الأزواج أعداء لوالديهم، فيحملونهم على معصية الله، ويثبطونهم عن طاعة الله، فقد يتساهل الأزواج والوالدان في ترك بعض الواجبات كترك الهجرة والجهاد وغير ذلك، أو في ارتكاب بعض المنهيات مجاراة لأزواجهم وأولادهم ونزولًا عند رغباتهم فتحملهم العاطفة أو طلب رضاهم على تقديم محبتهم ورضاهم على محبة الله ورضاه.

- والآية عامة في كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد.

- قوله تعالى (عَدُوًّا لَّكُمْ) العدو من يريد لك الشر أو يحملك عليه، أو يكون سببًا في منع الخير عنك عن قصد منه أو عن غير قصد (فَاحْذَرُوهُمْ) على دينكم، أن يضروكم في دينكم، أو توافقوهم على رغباتهم فيما لا يرضي الله، والحذر: الاحتراز والحيطة من الشيء المخيف.

قوله تعالى: {وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [الأنفال: ٢٨]، أي: "واعلموا أن الله عنده خير وثواب عظيم لمن اتقاه وأطاعه".

قال ابن كثير: "أي: ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئا، والله، سبحانه، هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة".

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة: " {أجر عظيم}، قال: الجنة". وروي عن الحسن، وسعيد بن جبير، وعكرمة والضحاك وقتادة نحو ذلك.

=

=

قال القرطبي: "وإذا قال الله تعالى: {أجر عظيم}، و {أجر كريم} [يس: ١١]، و {أجر كبير} [هود: ١١]، فمن ذا الذي يقدر قدره؟.

وفي الأثر يقول الله تعالى: "ابن آدم، اطلبني تَجدني، فإن وَجَدْتَنِي وجَدْتَ كل شيء، وإن فُتُّكَ فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء".

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار".

بل حب رسوله مقدم على الأولاد والأموال والنفوس، كما ثبت في الصحيح أنه، عليه السلام، قال: "والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين".

(وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) أي: ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئا، والله، سبحانه، هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة.

وفي الأثر يقول الله تعالى (ابن آدم، اطلبني تَجدني، فإن وَجَدْتَنِي وجَدْتَ كل شيء، وإن فُتُّكَ فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء).

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه).بل حب رسوله مقدم على الأولاد والأموال والنفوس، كما ثبت في الصحيح أنه، عليه السلام، قال (والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين).

- قال الرازي: قوله تعالى (وَأَنَّ الله عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) تنبيهًا على أن سعادات

=

=

الآخرة خير من سعادات الدنيا لأنها أعظم في الشرف، وأعظم في الفوز، وأعظم في المدة، لأنها تبقى بقاء لا نهاية له، فهذا هو المراد من وصف الله الأجر الذي عنده بالعظم.

- **قال الآلوسي**: ولعل الفتنة في المال أكثر منها في الولد ولذا قدمت الأموال على الأولاد، ولا يخفى ما في الأخبار من المبالغة.

الفهرس

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥). ٥

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦). ٥

وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧). ٥

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨). ٦

قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَىٰ اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩). ٦

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠). ٦

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١). ٦

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢). ... ٦

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣). ٧

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ٣٣

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ

فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥). ٣٤

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦). ٤٠

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧). ٤١

أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًىٰ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨). ٤١

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩). ٤٢

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠). ٤٤

تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١. .... ٤٨

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢). ٤٩

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣). ٥٧

وَقَالَ مُوسَىٰ يَافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤). ٥٨

حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥). ٥٨

قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦). ٥٨

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧). ٥٨

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨). ٥٨

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩). ٥٨

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠). ٥٨

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١)..........................٥٨
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)..........................٥٩
وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣)..........................٥٩
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤)..........................٥٩
قَالُوا يَامُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥)..........................٥٩
قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦)..........................٥٩
وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧)..........................٥٩
فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨)..........................٥٩
فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩)..........................٦٠
وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠)..........................٦٠
قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١)..........................٦٠
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢)..........................٦٠
قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣)..........................٦٠
لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤)..........................٦٠
قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥)..........................٦٠
وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)..........................٦٠
وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧)..........................٩٥

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)..٩٦

قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)........................٩٦

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠). ١٠٨

فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١). ١٠٨

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢).......... ١١١

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣). ١١١

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤). ١١٢

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥). ١١٢

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦). ١٢٣

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧). ١٢٣

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨)..................... ١٢٧

إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)....................... ١٢٧

قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠)....................... ١٢٧

وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)......................... ١٢٨

وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)...... ١٣٧

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)............ ١٣٨

قَالَ يَامُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤).. ١٦٩

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)......................... ١٧٥

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)................................. ١٨٠

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧).. ١٨٥

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨)........................ ١٨٧

وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)... ١٨٨

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ

رَبِّكُمْ وَأَلْقَىٰ الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠). ١٨٨

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)... ١٨٩

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢). ٢٠٨

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣).. ٢٠٨

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَىٰ الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًىٰ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤). ٢١٣

وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥). ٢١٣

وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦).. ٢١٤

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧). ٢١٤

قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨). ٢٤١

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩). ٢٥٦

وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠). ٢٦٠

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١). ٢٧٢

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢). ٢٧٢

وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣). ... ٢٨٠

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) ٢٨٠

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥). ٢٨١

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦). ٢٨١

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧). ٢٩٧

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨). ٣٠٠

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩).. ٣٠٠

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠).. ٣٠٠

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١).. ٣١٣

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣).. ٣١٨

وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)........................ ٣١٨

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥).. ٣٤٠

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)........................ ٣٤٠

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧)............ ٣٤١

مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)........... ٣٥٧

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)........................ ٣٦٠

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠).. ٣٦٩

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)................... ٣٩٣
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢). ٣٩٥
وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)........................ ٣٩٥
أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤). ٤٠٤
أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥). ٤٠٦
مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦). ٤٠٦
يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧). ٤١٢
قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨). ٤٤٢
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩). ٤٤٨
فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠). ٤٤٨
أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١)................... ٤٧٣
وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢). ٤٧٣
وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) ٤٧٣
إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

(١٩٤).. ٤٧٣
أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥).............. ٤٧٤
إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦). ٤٧٤
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧)..... ٤٧٤
وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨).. ٤٧٤
خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩).......................... ٤٩٦
وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠). ٥٠٨
إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١). . ٥١٣
وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢). ٥١٣
وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣). ٥٢٠
وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤). ٥٢٨
وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥). ٥٤١
إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) ... ٥٤٨
سورة الأنفال.. ٦٣٩
بسم الله الرحمن الرحيم ٦٤٢
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١). ٦٤٢

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢). ٦٦١
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣). ٦٦١
أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤). ٦٦١
كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥)....... ٦٧٥
يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَىٰ الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦). .. ٦٧٦
وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧). ٦٧٦
لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)........ ٦٧٦
إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩). . ٦٨٩
وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)........ ٦٩٠
إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١)........ ٧٠٦
إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَىٰ الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢). ٧٣٠
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣)........ ٧٣٠
ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤). ٧٣١
يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥). ٧٤٣
وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ

وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦). ٧٤٣

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧). ٧٥٥

ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨). ٧٥٥

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩). ٧٦٦

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠). ٧٧٣

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١). ٧٧٣

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢). ٧٧٣

وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣). ٧٧٣

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤). ٧٨٣

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥). ٧٩٠

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦). ٧٩٦

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧). ٧٩٩

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨). ٨٠٦

الفهرس ٨١٢